



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٥٢٠١

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع البلاغة والنقد

البديع

بين ابن أبي الإصمغ العدواني المصري والخطيب القزويني

عرض وتحليل وموازنة

بحث مقدّم لنيل درجة الماجستير

إعداد الباحثة

عواطف بنت صالح بن سالم الحربي

الرقم الجامعي : ٤٢٣٨٠٢٤١

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد بن إبراهيم شادي

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾
رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى
رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ .

[سورة آل عمران : الآيات ١٩٢-١٩٤]

إهداء

إلى من نردّون كثيرًا في الأقبال عليها هبةً ورجلاً ..
وجهداً!

وإلى من ألقوا وسادى تفكيرًا في المضي ..
أولاً!

ثم خطوط غوها لتتس الثبل إليهما، وأخر بالخط ..
نرى!

إليهما أقدح قسماً من فيض نورهما الذي استنسخ به ..
ورسماً من فيض جهرهما الذي أنهر به ..

إلى روح ابن أبي الإصبع المصري ..
وإلى روح الخطيب الغزوي ..

أقدح هذا الجهد قربي إلى الله عز وجل بجهما؛ لما بنى الله من خير ثمرة كتاب الله عز وجل،
وخدمة لغته الشريفة ..

راجية منه سبحانه القبول .. وألوه الكون ذرةً في ميزان حسناتها يوم القيامة ..

فما السرُّ إلا كالسحاب وضوءه
بحور رماؤا بغد إله هو ساطع^(١)

(١) البيت للبيد بن ربيعة . انظر : شرح ديوانه ، ص ١٢٩ .

ملخص البحث

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذا البحث بعنوان : (البديع بين ابن أبي الإصبع المصري والخطيب القزويني) ؛ لبيان وكشف الفروق بين العالمين في بعض النماذج الهامة في هذا العلم ، وإبراز المزايا التي تفرّد بها كلّ واحدٍ منهما بأسهل عبارة ، وذلك من خلال خطة تحوي أبعاد هذه الدراسة ، وتحيط بمتطلباتها ، ممثلةً في مقدمة وتمهيد وفصلين من عدّة مباحث وخاتمة وفهارس بحملة ..

فاختوت المقدمة على بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، والدراسات السابقة ، وخطّة البحث .

وتضمّن التمهيد الحديث بإيجاز عن علم البديع أصله ونشأته ، وأثره في أداء المعاني ، ثم الحديث عن العالمين بصورة تتكشف من خلالها العوامل التي أثّرت في تشكيل طبيعة الاتجاهات والميول عند كلّ واحدٍ منهما .

أما فصلا الدراسة ، فأتناول فيهما مفهوم كلّ لون بديعي ونشأته ومزيته البلاغية كمقدمة ضرورية لكلّ مبحث قبل الدخول في الموازنة بين العالمين .

فالفصل الأول : (محسّنات معنوية) ، مكوّن من خمسة مباحث :

- المبحث الأول : الطبايق والمقابلة والفرق بينهما ، وكيف تناولهما العالمان .
- المبحث الثاني : مراعاة النظرير والائتلاف والفرق بينهما ، وطريقة عرض العالمين له .
- المبحث الثالث : المشاكلة وصلتها بالمجاز ، وكيف تناولها كلّ من العالمين .
- المبحث الرابع : المبالغة وموقف النقاد منها ، والفرق بين المبالغة في القرآن والمبالغة في الشعر ، ومنهج العالمين في عرضها .
- المبحث الخامس : التورية والتوجيه البلاغي لها في القرآن الكريم ، ومنحى كلّ من العالمين في تناولها .

والفصل الثاني : (محسّنات لفظية) ، مكوّن من ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : الجنس والفرق بينه وبين بعض الألوان التي تتداخل معه ، كالترديد والتصدير ، وفروق التناول بين العالمين .

- المبحث الثاني : السجع والخلاف في إطلاقه في القرآن والشعر ، واختلاف عرضه عند كلّ من العالمين .

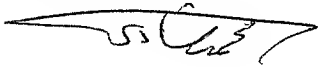
- المبحث الثالث : لزوم ما لا يلزم وصلته بالأسجاع والفواصل ، وخطّة العالمين في تناوله .

ثمّ أجملت في خاتمة هذا البحث أهمّ ما توصّلتُ إليه من نتائج وحقائق ، مذيلاً بفهارس للآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، والأبيات الشعرية ، ثمّ أهمّ المصادر والمراجع ، فأهمّ الموضوعات ..

والله الهادي إلى سواء السبيل ، وله الحمد في الأولى والآخرة

الباحثة : عواطف صالح سالم الحربي .

إشراف : أ.د. محمد إبراهيم شادي .



القدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، حمداً يليق بجلاله وكماله ، والصلاة والسلام على محمد وآله
ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين .. وبعد :

فرغم استقلال علم البديع كعلم منفرد بعد أن كان مفهوماً عاماً يتردد ، دالاً فقط على
الحسن المستحدث من الشعر أو النثر ، ورغم ما يُحفظ لبدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ)
بذرة ذلك الاستقلال ، وما يحفظ للخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) رعاية تلك البذرة حتى
كبرت وتشعبت وأينعت ، وآتت أكلها ، فإنّ هذا العلم مع هذا التحديد فإنّه ما يزال يحتفظ
بالمفهوم العام له عند أصحاب المدرسة الأدبية في الدراسة البلاغية ، كابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) ،
والعلوي (ت ٧٠٥هـ) ، وابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) ، وابن أبي الإصبع المصري .

وعلم البلاغة بعامة ، والبديع خاصة تلقّفته بالدراسة والبحث أيدي علماء شتى مختلفي
المذاهب والمناهج والاتجاهات ، وهذه طبيعة بشرية في الاختلاف والتباين بحسب الظروف
والنشأة ، وبحسب الطباع والميول أو الاتجاهات .

وبالنظر إلى هذا المحور ، فإنّ أيّ دارسٍ يجد نفسه أمام مدرستين مختلفتين عريقتين في
تناول هذا العلم ، بما وهبها الله سبحانه من أدوات ، وبما صقل فيها من حنكة وقدرة وحكمة
وفهم للنصوص وقدرة على سبك وإحكام عرضها بالصورة اللائقة بها ، التي تكشف
بوضوح عن جوانب أي لونٍ بديعي أو بلاغي ، وإبراز محاسنه وتبيان حقيقته .

هاتان المدرستان هما :

- مدرسة الأسلوب العلمي .

- ومدرسة الأسلوب الأدبي .

فالأولى تتّجه بالبلاغة اتجاهاً تغلب عليه العقلية المنطقية ، فتصوغها في أفكارٍ مجردة
تتنظم قواعد وضوابط ، يغلب عليها تحديد العبارات وتحديد المصطلحات بدقّة ... وتمتاز
بقلة الشواهد الأدبية والصيغة العلمية في أسلوبٍ تقريرى مباشر واضح أحياناً وغامض

أحياناً آخر ، بل يكفي أصحاب هذا الاتجاه بالمثل في شرح القاعدة ، ويميلون في إثباتها إلى المنطق لا إلى الذوق الوجداني الأدبي والفني والنفسي ، إلا من ندر^(١) ، وينتمي لهذه المدرسة كل من الرازي ، والسكاكي ، والخطيب ، والشراح ..

والمدرسة الثانية : تتجه بالبلاغة اتجاهاً أدبياً وجدانياً ، وتصبغ كثيراً من موضوعاتها بصبغة أدبية لما امتازوا به من أدبٍ غزيرٍ وذوقٍ سليم ، لا يعني رجالها بالتعريف ولا بالتقسيم المنطقي عنايتهم بإظهار أثر الصورة في تجسيم المعنى ، وغالباً ما يذكرون القاعدة في سطرٍ أو سطرين ، ثم يوجهون جلّ همّهم إلى تحليل النصوص واستعمال المقاييس الفنية في الحكم عليها ، ولذلك نجدها مرة تستطيع التعليل ، ومرة لا تستطيع ذلك ، وترجعه إلى الذوق والإحساس الفني ، ولم تكن أمثلتهم مقصورة على الجملة أو بيت الشعر ، وإنما تعدّتها إلى القطعة الشعرية والرسالة الأدبية أو السورة القرآنية ؛ مما يساعد على تربية الذوق وتنمية ملكة الأدب والحسّ البلاغي^(٢) ، وينتمي لهذه المدرسة كل من عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) - وهو المؤسس لها - ، وابن الأثير ، والعلوي ، وابن أبي الإصبع العدواني ، وابن حجة الحموي ، وابن معصوم .

وما أحوج الدارسين في علم البلاغة إلى دراسة أساليب العلماء والأدباء من كلا المدرستين دراسة تحدّد ملامح الشخصية من خلال تحديد ملامح أساليبها .

ودراسة أيّ أسلوب أو الكشف عنه يظهر جلياً في إقامة الموازنات ، وهو مسلكٌ معروفٌ عريق ، لذا وقع اختياري في هذه الدراسة على موازنة بين علمين بارزين لم تسبق الموازنة بينهما في تناولهما لعلم البديع ، ولم يأخذا حقّهما من الدراسة ، خاصة وأنّهما ينتميان إلى مدرستين مختلفتين ؛ إذ يلمح في مقدّمة كلّ منهما وفي تناولهما للألوان البلاغية إشارات واضحة ودالة على الأسلوب والمنهج الذي ينتهجه كلّ منهما ويتميّز به عن الآخر ، وإن اشتركا في بعض التفاصيل .

(١) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٦٢ ، بتصرف .

(٢) راجع : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، والبلاغة والتطبيق ، ص ٣٢ ، ٣٣ ، والمختصر في تاريخ البلاغة ، ص ١٤ .

ولا شك أن هذا الاختلاف البين بين العالمين هو مادة خصبة للبحث العلمي ، ثم إن أي موازنة قائمة على أسس متينة وأهداف بيّنة تستحق أن تكون مجالاً للدراسة هي بلا جرم ستثري أي بحث علمي وأي باحث جاد ؛ لأنها ستكشف الفروق في المنهج والفكر ، وكيفية التعبير التي هي نتاج الدلالات النفسية والذهنية والفكرية^(١) ، وستكشف العلة التي مال إليها العلماء في بحوثهم ودراساتهم نقداً وتحليلاً واستشهاداً وطرحاً .

ومما يعطي لهذه الدراسة الصدق والموضوعية أنها بين علمين كانا في زمنين متقاربين ؛ إذ توفي ابن أبي الإصبع سنة (٦٥٤هـ) ، والخطيب سنة (٧٣٩هـ) ، وإلا فإن أي موازنة بين علمين تشطّ المسافة بينهما ستكون غير مُنصفة ، أو غير عادلة .

وقد اخترت الموازنة بينهما في مجال علم البديع خاصة ؛ لأنه لم يأخذ حظه من الدرس البلاغي بالقياس إلى علمي المعاني والبيان ، بل إن من النقد مَنْ يهمل الجانب البديعي عند تعرّضه بالنقد لنصّ شعري أو نثري والحكم عليه ، ظناً منه أنه جانب لا يُقدّم أو يؤخّر كثيراً في الحكم على جودة التعبير وحُسن أدائه للمعنى بكل ظلاله ، ولعلّ السبب في العزوف عن هذا العلم من جانب بعض الدارسين والنقاد المعاصرين هو إسراف الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة غاية الإسراف في استعمال المحسنات البديعية ، إما إعجاباً بها ، وإما إخفاءً لفقرهم في المعاني ، وبهذا انحط نتاجهم الأدبي ، ولو عرف الدارسون والنقاد أن العيب ليس في البديع ذاته ، وإنما هو في سوء فهمه واستخدامه ، لقلّلوا من عزوفهم عنه ، ولأعطوه حقه من العناية والدراسة ، ولردّوا إليه اعتباره كعنصر بلاغي مهمّ عند تقييم الأعمال الأدبية والحكم عليها .

ولعلّ في هذا البحث العلمي تأكيداً على أن دراسة أصول هذا العلم ، والأناة في تفهّمها وتذوّقها ، جديرة بإقناع الدارس أيّاً كان بأنّ استبعاد الجانب البديعي عند الحكم على عمل أدبي هو إجحافٌ به وانتقاص في الحكم عليه^(٢) .

(١) خطوات البحث البلاغي والنقدي ، ص ٢٨٧ ، بتصرّف .

(٢) علم البديع ، لعبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ط ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ٨ ،

بتصرّف يسير .

والنماذج المطروحة من الألوان البديعية هنا خاصة هي مجال الموازنة في هذه الدراسة ؛ لأنّ فيها قدرًا كافيًا لبحثي كي تتحقّق السيطرة على موضوعه والإلمام بكلّ جوانبه وأبعاده وأطرافه ، لاسيّما وأنّ بين العالمين من الفروق الدقيقة والكثيرة ما يحتاج إلى بسطٍ وتحليل ، إضافة إلى أنّ في هذه النماذج قدرًا كافيًا لتقديم تصوّرٍ كاملٍ عن فكر العالمين الفاضلين ومنهجهما وطريقتهما في العرض ، والاستشهاد والتحليل ..

ومن هذه النماذج : الطباق والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة النظير ، والتورية ، والمبالغة ، والجناس ، والسجع ، ولزوم ما لا يلزم ..

ولما كانت البلاغة القرآنية هي النموذج الأمثل والأسمى الذي ينبغي أن تتّجه عناية الدارسين إليه ، والمعين الذي لا ينضب ولا يغيض ، لم أجد أفضل من كتاب (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع العدواني المصري لأختره في هذه الموازنة دون غيره ؛ لأنّه من الكتب التي وظفت الدراسة البلاغية للوصول إلى إعجاز القرآن الكريم وما تميّزت به بلاغته ، ومحاولة كشفها للناس بروعة الأداء ورقي العرض والتحليل ..

واختّرت مقابلاً له كتاب (الإيضاح) للخطيب القزويني ؛ لأنّ مؤلّفه استطاع أن يخفف من جفاف العرض عند السكاكي ، وأن يمزج بين آراء السكاكي وعبد القاهر الجرجاني والزخشري وابن الأثير .. بل رغبةً أيضاً في إنصاف هذا الرجل الجهبذ ، والعالم الفذّ ، الذي أنكر كثيرٌ من الدارسين فضله على البلاغة العربية ، وإعادة صياغتها بشكلٍ أكثر استقراراً وأكثر تهذيباً ، فتناولوه بالنقد والقدح والتقصير ، حتى وصموه بأنه السبب في جمود البلاغة ، ووصموا جهوده ومباحثه الجليلة بأنّها ظلّت تتسلّق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقاً . لكن :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاحَ لها لسانَ حسود

ثمّ إنّ بلاغة القرآن الكريم كانت مما يستهويني ، والبحث فيها قدر استطاعتي يحقق رغبةً لديّ خاصة ، إضافة إلى أنّ اختيار هذا الموضوع صادفَ أيضاً حاجة في نفسي ، حيث صحبتُ فيه كثيراً من البلاغيين في فهمهم للأساليب الرفيعة ، ومحاوراتهم المهذبة الرقيقة ، سواء من المتقدّمين منهم أم المتأخرين من أصحاب المدرستين اللّتين ينتمي إليهما العالمان الجليلان .

وتلك إذن الأسباب الدافعة إلى اختيار هذا الموضوع خاصة ، أوجزت فيها الدوافع الموضوعية بدوافعي الذاتية .

أما عن المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة ، فهو المنهج التاريخي أثناء تتبع نشأة علم البديع ونشأة الألوان البديعية المقصودة بالدراسة .. ثم المنهج الوصفي التحليلي أثناء العرض والموازنة بين العالمين الفاضلين .

وقد سرتُ في الخطة حسبما يقتضيه البحث ..

وهي تشتمل على : مقدمة ، وتمهيد ، وفصلين من عدة مباحث ، وخاتمة ، وفهارس للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والآيات الشعرية ، ثم فهرس بأهم المصادر والمراجع ، وآخر بأهم الموضوعات .

وتتضمن المقدمة : أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، والدراسات السابقة ، وخطة البحث .

أما التمهيد ، فيتضمن بإيجاز : الحديث عن العالمين الجليلين بشكل يكشف عن العوامل المؤثرة في طبيعة الاتجاه عند كلٍّ منهما ، كما يتضمن أيضاً موجزاً عن نشأة البديع وتطور مفهومه ، وأثره في بناء المعاني .

ويشتمل الفصل الأول على محسّنات معنوية أتناول فيها مفهوم اللون ، ونشأته ، ومزيته ، ونواحي الالتقاء والافتراق بين الخطيب القزويني وابن أبي الإصبع العدواني ، والخصوصيات المميزة لكلٍّ منهما في المباحث التالية :

- المبحث الأول : الطباق والمقابلة والفرق بينهما .

- المبحث الثاني : مراعاة النظير والائتلاف والفرق بينهما .

- المبحث الثالث : المشاكلة وصلتها بالمجاز .

- المبحث الرابع : المبالغة وموقف النقاد منها ، والفرق بين المبالغة في القرآن والمبالغة في الشعر .

- المبحث الخامس : التورية والتوجيه البلاغي لها في القرآن الكريم .

أما الفصل الثاني : فيشتمل على محسّنات لفظية ، أتناول فيها مفهوم اللون ونشأته ومزيته ، ونواحي الالتقاء والافتراق بين العالمين ، والخصوصيات المميزة لكل منهما في المباحث التالية :

- المبحث الأول : الجنس والفرق بينه وبين بعض الألوان التي تتداخل معه ، كالترديد والتصدير .

- المبحث الثاني : السجع والخلاف في إطلاقه في القرآن والشعر .

- المبحث الثالث : لزوم ما لا يلزم وصلته بالأسجاع والفواصل .

ولقد حاولتُ الاجتهاد قدر استطاعتي في معالجة هذه الرسالة العلمية التي لم تسبق دراستها ، وإن كانت هناك دراسات سابقة حول فنون البديع نظرياً وتطبيقياً ، مثل :

﴿ توضيح البديع في البلاغة ، لمحمد طه هلاي .

﴿ البديع في شعر شوقي ، لمنير سلطان .

ومن الرسائل العلمية في هذا :

﴿ البديع دراسة أسلوبية ، للباحث : خالد علي أحمد ، جامعة الزقازيق .

﴿ البديع المعنوي في التحرير والتنوير لابن عاشور ، للباحث : ضياء محمد عبد المجيد ، جامعة الأزهر .

ومن المقالات :

﴿ القرآن الكريم والبديع ، لأحمد مطلوب .

﴿ مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية ، لشلتاغ عبود شداد .

ودراسات سابقة حول الخطيب وكتابه (الإيضاح) ، أهمّها :

﴿ استدراقات التفتازاني على الخطيب في كتابه (المطول) ، للباحث : أحمد هندراوي ، جامعة الأزهر .

﴿ بلاغة الخطيب ، لأحمد مطلوب .

ومن المقالات :

﴿ معركة القزويني في الأزهر ، محمد عبد المنعم خفاجي .

﴿ حول معركة القزويني في الأزهر ، لعباس خضر .

أما الموازنة في حدّ ذاتها ، فقد وقعت في عدّة رسائل علمية ، منها :

﴿ البحث البلاغي والنقدي بين الخطيب والرازي وابن حمزة العلوي ، للباحث : محمد حسين إبراهيم ، جامعة الأزهر .

﴿ البلاغة بين أبي هلال العسكري وضيء الدين ابن الأثير ، للباحث : أحمد النادي ، جامعة الأزهر .

﴿ فنون البديع بين ابن المعتز وأبي هلال العسكري ، للباحث : حنيدق محمد خليفة ، جامعة الأزهر .

﴿ المقاييس البلاغية بين ابن أبي الإصبع والسبكي ، للباحث : محمود عبد العظيم ، جامعة الأزهر ..

وقد حرصتُ في هذه الدراسة على :

١/ تخرّيج الأحاديث النبوية الشريفة من دواوين السنّة من الصحاح والسنن والأسانيد .

٢/ عزو الشواهد إلى أصحابها قدر الإمكان بالبحث عمّن نسبها في المصادر الرئيسة للبحث ، وخاصة معاهد التنصيص .

٣/ ترجمة أغلب الأعلام الذين لهم تعلّق بالبحث ، والذين تيسّر لي الترجمة لهم .

٤/ العودة إلى أشهر المعاجم وبعض الدواوين الشعرية ؛ لبيان معاني الأبيات وشرحها .

٥/ الرجوع في كلّ علم تعرضت له الرسالة إلى مصادر ذلك العلم ، ولم أكتفِ بما تنقله المراجع الحديثة .

٦/ العمل على تتبع نشأة كلّ لون بديعي بنفسه ، وعدم الاكتفاء بمن سبقني ، خاصة في الفصل الثاني ؛ لأنني لم أجد دراسات وافية أتكلّم عليها لمعرفة نشأة كلّ لون من مباحثه ؛ إذ كانت مجهولة لديّ ..

وفيما ذكرته كفاية ينتهي إليها ، ويُقتصر عليها ؛ لأنّ الارتقاء إلى ما فوقها هذر ، كما أنّ القصور عنها عيٌّ وحصر ، ونعوذ بالله منهما^(١) .

وبعد :

فإنني أقدم هذا الجهد المتواضع ، وهذه الرسالة العلمية ، على استحياء بين يدي لجنة المناقشة للنظر فيما أصبت وفيما أخطأت ، شاكرة لهما حسن القبول ، والتكرّم عليّ بدراستها ، ومن ثمّ مناقشتها .. فإن يكن التوفيق قد حالفني ، فذلك فضلٌ من الله ، وإن تكن الأخرى ، فحسبي أنّي أخلصتُ العمل ، ورجوتُ السّداد ، وما توفّيقني إلا بالله ، عليه توكلتُ وإليه أنيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

ثمّ لا يفوتني في خاتمة هذه المقدّمة أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الفاضل الدكتور : محمد شادي ، الذي أشرف على هذا البحث ، واحتمل عثراته وسقطاته برحابة صدر في توجيهٍ سديد ، ونصحٍ أمين ، فجزاه الله عنّي خير الجزاء .

كما أتقدّم بالشكر والامتنان إلى جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة ، وإلى جميع منسوبيها بدون استثناء .

وأخصّ بالشكر الدكتورة رباب جمال ، والأخت الفاضلة جواهر ، فجزاهما الله عنّي خير الجزاء .

وإلى جميع من قدّر معي مسؤولية البحث ، ورفع يديه خالصاً بالدعاء لي ، خاصة أمّي الحبيبة ، فجزاها الله عنّي خير الجزاء ..

كما لا يفوتني أن أتوجّه بالشكر والتقدير إلى مكتبة الحرم المكي الشريف ، وإلى مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث . جعل الله ما يقدمونه خدمةً للباحثين والباحثات في ميزان حسناتهم يوم القيامة .

والله أسأله القبول والرضا والصفح عن الزلل ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه ..

(١) الصناعتين ، ص ٤٨٥ .

التقديم

ويشتمل على :

- ١- نشأة البديع وأثره في أداء المعاني .
- ٢- نشأة كل من ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني ،
ومصنفات كلّ منهما .

القياس

في البدء .. وهنا ! ما كنتُ لأبدأ قبل الوقوف على هذا العلم - علم البديع - لأعطيه حقه من القول ، خاصة وأنه محور الدراسة ، فيتبين أصله ونشأته ، وتبين بعض سماته وخصائصه ، ومن ثمّ الصعود إلى عتبة أخرى من عتبات البحث ، يقف عندها العالمان الفاضلان : ابن أبي الإصبع العدواني المصري ، والخطيب القزويني ؛ لألقي الضوء على أهمّ الجوانب التي أثرت في حياتهما ، وفي طبيعة الاتجاه عند كلّ واحدٍ منهما ، ثمّ التعرّض لبيان أهمّية كتابيهما المقصودين في هذه الموازنة بشيءٍ من الإيجاز .

نشأة البديع :

" (أبدع) الله الخلق إبداعاً : خلقهم لا على مثال ، وأبدعتُ الشيء وأبتدعته : استخرجته وأحدثته ، ومنه قيل للحالة المخالفة : (بدعة) ، وفلان (بدع) في هذا الأمر : أي : هو أول من فعل ، فيكون اسم فاعل بمعنى (مبتدع) .

و(البديع) فعيل من هذا ، فكأنّ معناه هو منفرد بذلك من غير نظائره ، وفيه معنى التعجب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ﴾^(١) ، أي : ما أنا أول من جاء بالوحي من عند الله تعالى وتشريع الشرائع ، بل أرسل الله تعالى الرسل قبلي مبشرين ومنذرين ، فأنا على هداهم "^(٢) .

إنّ ما سبق هو الأصل اللغوي لمعنى البديع ، وإن اختلفت صور التعبير عنه ؛ إذ الجدة والبراعة والغرابة وجمال المنشأ وحسن البدء كلّها تدفع إلى التعجب الذي هو سرّ البديع .

أما عن ورود اللفظة نفسها ، فقد جاءت في القرآن الكريم مرّتين :

• في قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٣) .

(١) سورة الأحقاف : الآية (٩) .

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف : أحمد محمد الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت -

لبنان ، ص ٣٨ ، مادة (بدع) .

(٣) سورة البقرة : الآية (١١٧) .

• وقوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(١).

وإذا تتبع أيُّ باحثٍ ورود هذه اللفظة أو مشتقاتها في الشعر على مدى أطواره المختلفة ، لوجدناها كثيرة بمعانٍ مختلفة ، إلا أن أبرزها الجديد والمخترع^(٢) .

فخذ - مثلاً - قول الأحوص :

فَخَرْتُ فَاتَمْتُ فَقُلْتُ انْظُرْنِي لَيْسَ جَهْلٌ أَثْبَتُهُ بِبَدِيعٍ

وقول الفرزدق :

أَبْتُ نَاقَتِي إِلَّا زِيَادًا وَرَغْبَتِي وَمَا الْجُودُ مِنْ أَخْلَاقِهِ بِبَدِيعٍ

وقول محمود الوراق :

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بِبَدِيعٍ

" وليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألدّ في الأسماع ، ولا أشدّ اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفنق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء " ^(٣).

فهل كان أولئك الأعراب الفصحاء القدماء على عِلْمٍ بفنون البديع ، سواء أكانوا في العصر الجاهلي أم الإسلامي أم الأموي ، حتى جرت على ألسنتهم !؟.

" لقد عرف العرب في شعرهم كلّ الخصائص الفنية والأساليب البيانية التي تخلع عليها

(١) سورة الأنعام : الآية (١٠١) .

(٢) مقدّمة تحقيق بديع القرآن ، لابن أبي الإصبع العدواني ، تحقيق : حفي شرف ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، بدون ، ص ٨ ، بتصرف .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق : د. درويش جويدي ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ،

ط ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م ، ص ٩٦ .

صفة الجمال والإبداع ، وكان الشاعر منهم بحسه الفطري وعلى غير دراية منه بأنواع هذه الأساليب البيانية ومصطلحاتها البلاغية يستخدمها تلقائياً كلما جاش بنفسه خاطر ، وأراد أن يعبر عنه تعبيراً بليغاً^(١) ، مما كان لها أثرها في النفس وفي المعنى بتجليته في صورة حسنة . بل إن فنون البلاغة عامة كان يطلق عليها جميعاً اسم البديع أو البيان أو الفصاحة أو البراعة دون تمييز بينها .

ومما هو من عفو الخاطر ومواتاة الفطرة ومدّ السليقة والطبيعة ، من الطباق مثلاً ، قول عمران بن حطان :

أُنْكَرْتُ بَعْدَكَ مَنْ قَدْ كُنْتُ الْفُهُ مَا النَّاسُ بَعْدَكَ يَا مُرْدَأْسُ بِالنَّاسِ

وقول متمم بن نويرة :

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

ومن المقابلة قول أحد الأعراب :

وَلَا الضِّيمَ أُعْطِيَكُمْ مِنْ أَجْلِ وَعِيدِكُمْ وَلَا الْحَقَّ مِنْ بَغْضَائِكُمْ أَنَا مَانِعُ

ومن المبالغة قول امرئ القيس :

إِذَا رَكِبُوا الْخَيْلَ وَاسْتَلَمُوا تَحَرَّقَتِ الْأَرْضُ وَالْيَوْمُ قَرٌّ^(٢)

وقول مُزاحم العُقيلي :

وَجُوهٌ لَوْ أَنَّ الْمُدْلَجِينَ اعْتَشَوْا بِهَا قَطَعْنَ الدُّجَى حَتَّى تَرَى اللَّيْلَ يَنْجَلِي^(٣)

(١) علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١٤٠٥ هـ -

١٩٨٥ م ، ص ٨ .

(٢) (قَرٌّ) : بارد .

(٣) (المدلجين) : السّارين من أوّل الليل ، و(اعتشوا بها) : استدّلوا بها وقصدوها بالليل .

ومن الجناس قول الطرمّاح :

إِنْ نَأْخُذِ النَّاسَ لَا تُدْرِكُ أَخِيذُنَا أَوْ نَطْلُبُ تَعَدَّى الْحَقَّ فِي الطَّلَبِ

وقول بعض العرب :

وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بَنِي بَشْطَرِهِ فَلَمَّا تَقَضَى شَطْرُهُ عَادَ فِي شَطْرِي

ومن السجع قول امرئ القيس :

أَفَادَ وَجَادَ وَسَادَ وَزَادَ وَقَادَ وَعَادَ وَأَفْضَلَ

وقول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْ سِدِّي الطَّرِيقَةِ ، نَقَاعُ وَضَرَارُ

ومن لزوم ما لا يلزم ، قول الطرمّاح :

لَقَدْ زَادَنِي حُبًّا لِنَفْسِي أَنَّنِي بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلِ
وَأَتَيْ شَقِيًّا بِاللَّامِ وَلَكِنْ تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

وبعد ، " فإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء ، والبحري في المتأخرين ، وتتبع نسيب ميمي العرب ، ومتغزلي أهل الحجاز ، كعمرو ، وكثير ، وجميل ، ونصيب .. وأضربهم ^(١) .

وأختم القول عن نشأة البديع كفنٌ قَوْلِي بقول (الجاحظ) ^(٢) - يرحمه الله - إذ يقول :

(١) الوساطة للجرجاني ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ، ص ٢٥ .

(٢) العلامة المتبحر ، ذو الفنون ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي ، صاحب التصانيف الكثيرة ، أخذ عن النظام ، لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته ، حتى إنه كان يكثر دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للمطالعة . مات سنة (٢٥٠هـ) ، وقيل : (٢٥٥هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١١ ، ص ٥٢٦ .

" وكلّ شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكرة ، ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة أو عند الصراع ، أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العامود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ^(١) .

وإذا ما كانت تلك الفنون تنساق على طبيعتها في شعر الأقدمين من غير تلمس أو تكلف أو تعمد ، وينضح بها شعرهم بشكلٍ أخاذ ، فلا بدّ من جمع شتاتها تحت عنوان يحفظ لها الاعتبار العلمي والفني في ذات الوقت محددة بسياج البلاغة والنقد .

وجاء العصر العباسي المترف المفعم بصخب الحضارة المادية والعقلية ، فأوحي إلى شعرائه بأخيلة مختلفة تتجدد ، وصور بديعة حلّوا بها قريضهم ، وانصرف همّهم إليها ، كما يقول القاضي الجرجاني ^(٢) : " فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، فسموه البديع ، فمن مُحسن ومُسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط ^(٣) .

" وكلما تقدّم الزمن بالمحدثين وجاءت منهم طبقة أربت على سابقتها في هذه الأصباغ ،

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٤٢٦ ، وانظر ما قاله عبد القاهر في دلائل الإعجاز عن صفة هذا النظم المطبوع ، ص ٨٨ .

(٢) أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، المشهور بالقاضي ، وُلد في جرجان سنة (٢٩٠هـ) ، ونشأ بها ، اشتهر بالفقه ، وترجم له الشيرازي في طبقات الفقهاء ، وفسّر القرآن ، واشتغل بالتاريخ ، ثمّ هو شاعر متقن ، وكاتب مترسل ، وناقد لودعي بصير . أهم آثاره - غير الوساطة - : تهذيب التاريخ .. وغيره . توفي سنة (٣٦٦هـ) ، وعمره (٧٦) سنة . انظر : مقدمة تحقيق كتابه الوساطة (د) .

(٣) الوساطة للجرجاني ، ص ٣٤ ، فمن المفرط : أبو تمام ، ومن المقتصد : البحرني وابن المعتز ، الذي انتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به كما يقال .

وتفتنت في هذا البديع^(١). وهذا ما جعل الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) يضيف إلى معنى الجدة والطرافة الاستعمال العلمي ، وكان له قصب السبق في محاولة تنظيم تلك الفنون ، إلا أنه لم يصل إلى وضع تعريفات ومصطلحات لها ؛ لأنّ اهتمامه عند الكلام عنها كان بتقديم الأمثلة والنماذج ، لا بوضع القواعد^(٢).

والحق أنّ أول محاولة علمية جادة في ميدان علم البديع يجدها الباحث تنازع بين رجلين ، هما : أبو العباس ثعلب^(٣) (ت ٢٩١هـ) ، وابن المعتز^(٤) (ت ٢٩٦هـ) ، فالأخير جمع تلك الفنون في مؤلّف خاص تحت اسم : (البديع) ، وأستاذه ثعلب جمعها تحت اسم آخر ، ولا مشاحة في المصطلحات ، " إلا أنّ الأسبقية تظلّ للأستاذ على الراجح^(٥) .

وتلقّف تلك المحاولة البلاغيون والنقاد من بعد ، وأضافوا إليها ما استكملوا به مباحث هذا العلم وقضاياه ، غير أنّ كثيراً من شواهد البديع عند علماء البلاغة

(١) راجع الصبغ البديعي لأحمد موسى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ، ط ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م ، ص ٥٥ ، واقرأ تقسيمه للمدارس البديعية من حيث الطابع .

(٢) علم البديع ، لعبد العزيز عتيق ، ص ١٢ ، بتصريف يسير .

(٣) العلامة المحدث ، إمام النحو ، أبو العباس ، أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولا هم البغدادي ، صاحب الفصيح والتصانيف ، وُلد سنة (٢٠٠هـ) ، له كتاب : (اختلاف النحويين) ، وكتاب (القراءات) ، وكتاب (معاني القرآن) .. وأشياء ، وعُمر ، وأصمّ ، صدمته دابةً ، فوقع في حفرة ومات منها في جمادى الأولى سنة (٢٩١هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٤ ، ص ٥ .

(٤) محمد بن المتوكل ، جعفر ، ابن المعتصم ، محمد بن الرشيد هارون بن المهدي ، الأمير أبو العباس الهاشمي العباسي البغدادي ، الأديب ، صاحب النظم الرائق ، تأدّب بالميرد وثلّج ، وروى عن مؤدّبه : أحمد بن سعيد الدمشقي ، مولده (٢٤٩هـ) ، قتل سراً في ربيع الآخر سنة (٢٩٦هـ) ، سلّموه إلى مؤنس الخادم ، فخنقه ولفّه في بساط ، وبعث به إلى أهله . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٤ ، ص ٤٢ .

(٥) راجع حول هذا كتاب الصور البديعية لحفني شرف ، ص ١٦١ ، ومقدمة تحقيق بديع ابن المعتزّ ، لعبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، ص ٦٦ .

المتأخرين هي من شواهد ابن المعتز في كتابه البديع^(١).

ومن المعروف أنّ ابن المعتز قد ألف هذا الكتاب ردّاً على مَنْ زعم من معاصريه أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصاري وأبا نواس هم السابقون إلى استعمال البديع في شعرهم ، وهو ما أشار إليه في مقدمة كتابه^(٢).

ويتقدم مدلول البديع وينحو منحى التوسع في القرن الرابع ممن عاصر ابن المعتز على يد رجلين ، هما : قدامة بن جعفر^(٣) (ت ٣٣٧هـ) ، وأبو هلال العسكري^(٤) (ت ٣٩٥هـ) ، " فأضاف الأول في كتابه (نقد الشعر) إلى ما ذكر ابن المعتز ثلاثة عشر نوعاً ، وإن لم يسبقها مساق ابن المعتز تحت عنوان : (البديع)"^(٥).

" وأورد أبو هلال ثمانية أنواع بديعية لم يرد لها ذكر عند ابن المعتز أو عند قدامة ، ولعله قد عثر عليها لدى بعض مَنْ سبقوه من علماء البيان ، باستثناء قدامة وابن المعتز"^(٦).

ويلتقي الرجلان في أن كليهما عمد إلى تحليل الأمثلة والشواهد والتنبيه على مدى حسنها أو قبحها ، إلا أن أبا هلال يبينه في أن تحليله كان أدنى إلى الذوق

(١) علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق ، ص ١٦ ، بتصرف .

(٢) انظر : مقدّمة البديع لابن المعتز ، ص ٧٣ .

(٣) أبو الفرج ، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، ولا يعرف له نسب فوق جده زياد ، لم يُستدلّ على سنة ميلاده ، لكنه كما يقول صاحب معجم الأدباء : أدرك زمن ثعلب والمبرد وأبي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم ، اشتهر بالبلاغة ونقد الشعر ، أشهر مصنفاته : نقد الشعر ، وصناعة الجدل ، وزهر الربيع في الأخبار .. وغيرها . توفي سنة (٣٣٧هـ) ببغداد . انظر : مقدّمة تحقيق كتابه (نقد الشعر) ، ص ٩ .

(٤) صاحب الصنائع ، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران ، كان موصوفاً بالعلم والفقه ، والغالب عليه الأدب والشعر ، له من التصانيف : جمهرة الأمثال ، والتلخيص في اللغة .. وغيرها . توفي الأربعاء ، العاشر من شعبان ، سنة (٣٩٥هـ) . انظر : بغية الوعاة ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان ، د.ت ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

(٥) مقدمة تحقيق حفي شرف لبديع القرآن ، ص ٢٣ .

(٦) علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق ، ص ٢٤ .

العربي ومجانبة العمق الفلسفي الذي نزع إليه قدامة^(١).

" ويبدو أنّ مدلول البديع قد أخذ في التخصص عند أبي هلال العسكري ، وذلك عندما أخرج التشبيه والإيجاز والإطناب والسجع والازدواج من أنواع البديع ، وعدّ الاستعارة والمجاز منه " ^(٢).

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّ البديع مصطلحاً عاماً يترامى إلى علوم البلاغة الأخرى عند أشهر علماء القرن الخامس وبعض علماء القرن السادس والسابع الهجريين ، إلا أنّه مما لا ينكره عاقل ، ولا يشكّ فيه أنّ لكلّ منهم بصمة انفراد بها في محاولة لاستواء هذا الفنّ على سوقه .

فيلاحظ على ابن رشيق^(٣) (ت ٤٦٣هـ) في كتابه (العمدة) : " أنه أفرد أبواباً منه لمباحث البيان ، وأخرى للمحسنات البديعية ، وفرق بين الألوان التي تلبس على بعض الأذهان ، وفي ذلك ما يوحي بأنه قد بدأ يستقرّ في أذهان النقاد ورجال البلاغة أنّ البيان شيء ، والبديع شيء آخر " ^(٤).

(١) الصبغ البديعي ، ص ١٦٢ ، بتصرف يسير .

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ١٩٩٧م ، ص ١٢ ، وهذه عبارته ، ولو قال : قد أخذ يقترب من التخصص لكان أدقّ كما يبدو ، كما ذكر الأستاذ المشرف .

(٣) العلامة البليغ ، أبو علي الحسن بن رشيق الشاعر ، كان أبوه من موالى الأزدي . ولأبي علي تصانيف ، منها : (العمدة في صناعة الشعر) ، وكتاب (الأنموذج) ، و(الرسائل الفائقة) ، وكتاب (قراضة الذهب) ، وكتاب (الشدوذ في اللغة) .. وُلد بالمسيلة - مدينة بالمغرب ، وتسمّى الحمدية أيضاً - . مات (٤٦٣هـ) ، ويقال : مات في ذي القعدة سنة (٤٥٦هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٨ ، ص ٣٢٤ .

(٤) علم البديع ، ص ٢٦ ، ويبدو أنّ كلام الدكتور عبد العزيز عتيق يفتقد إلى الدقة ؛ لأنّ تلك المباحث لم تكن معروفة باسمها عند ابن رشيق ، وذكر أحمد موسى في الصبغ البديعي أنّ القسم الخاص بالبديع في (العمدة) أقرب مورد ورده المتأخرون ، فنهلوا منه وعلوا ، وإن كانوا لم يحسنوا استخدام هذا التراث الحافل ، فراحوا يكترون من الألوان ويسردونها سرد المفردات اللغوية حتى مني البديع بما مني به على أيديهم . انظر : ص ٢٠٣ .

وما فعله ابن سنان^(١) (ت ٤٦٦ هـ) في كتابه (سرّ الفصاحة) من " التفرقة بين اللفظي والمعنوي كان من أهمّ الدعائم التي بنى عليها المتأخرون تقسيمهم لألوان البديعية إلى لفظية ومعنوية "^(٢).

أما عبد القاهر^(٣) فرغم أنه لم يتخير من ألوان البديع سوى ما استدعاها غرضه من كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) ، إلا أنه نفث فيها من روحه الأدبية ، فجلاها وأبرز حُسْنها بسحر بيانه ، وهذا ما لم يفعله غيره ممن تقدّموه أو خلفوه^(٤).

وعلى غرار عبد القاهر في استجلاء أثر تلك الفنون كانت مساهمة الزمخشري^(٥) (ت ٥٣٨ هـ) في علم البديع قصد منها بيان أثرها في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه^(٦).

ولعلّ في تفسيره (الكشاف) " إرهاصات تميز بين تلك الفنون استفاد منها

(١) هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان - أبو محمد - الخفاجي الحلبي ، شاعر ، أديب . وُلد سنة (٤٢٣ هـ) بقلعة (عزاز) من أعمال حلب . أخذ العلم عن أبي العلاء المعري وغيره ، دبرّت له مكيدة فأودت بحياته ، ومات سنة (٤٤٦ هـ) . انظر : مقدمة تحقيق كتاب سرّ الفصاحة ، ص ٧ .

(٢) مقدمة تحقيق حفي شرف لبديع القرآن ، ص ٢٥ ، وإذا ما كان ابن سنان هنا قد التقى مع قدامة في هذا ، إلا أنّ نظرتَه أَسَدٌ ، وطريقته أَعْدَل ، إذ جعل ذلك من شرائط الفصاحة والبلاغة . انظر : الصبغ البديعي ، ص ٢٠٩ .

(٣) الإمام المشهور أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي ، أخذ النحو عن ابن أخت الفارسي ، كان من كبار أئمة العربية والبيان ، شافعياً أشعرياً ، صنّف إعجاز القرآن الكبير والصغير ، وهما أكبر مصنّفاتِه ، والجُمْل ، والعوامل المائة .. وغيرها . مات (٤٧١ هـ) ، وقيل : (٤٧٤ هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٤) راجع الصبغ البديعي ، ص ٢٢١ ، و ص ٢٤٣ .

(٥) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري ، أبو القاسم جار الله ، كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجودة القريحة ، وُلد في رجب سنة (٤٩٧ هـ) ، أخذ الأدب عن النيسابوري ، له من التصانيف : الكشاف في التفسير ، الفائق في غريب الحديث ، المفصل في النحو .. وغيرها . مات يوم عرفة سنة (٥٣٨ هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٦) علم البديع ، ص ٣٣ ، بتصرّف .

أبو يعقوب السكاكي^(١) (ت ٦٢٦هـ) في القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم)^(٢).

هذا الرجل الذي طالما رمى بالحجارة على أيدي الدارسين وهم يتهمون به بتجفيف ينابيع البلاغة!

"فهو أول من فرق بين مباحث علمي البيان والمعاني، بل يقال: إنه أول من أطلق اسم (علم المعاني) على المباحث التي بحثها فيه، وأول من أطلق على مباحث التشبيه والمجاز والكناية اسم (علم البيان)، وأول من حكم عليه بأنه منتزل من علم المعاني منزلة المركب من المفرد"^(٣). وإن كانت التسمية وحدها قد وجدت عند الزمخشري في مقدمة الكشف - كما ذكر الأستاذ المشرف -، إلا أن الذي يهّم الباحث فيما يتعلق بنشأة البديع أن السكاكي ألحق البديع بعلمي المعاني والبيان، ولم يسمه باسمه، إذ يقول: "وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيتها وأن الفصاحة بنوعيتها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه إلى أعلى درجات التحسين، فهاهنا وجوه مخصوصة، كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها"^(٤).

ويفهم من كلامه أنه لم ينظر إلى علم البديع كعلم مستقل قائم بذاته، إلا أن هذا كان "مؤذناً باستقلال مباحثه عن علمي البيان والمعاني بعد طول اختلاط، فكان بذلك الممهّد الأول لمن يؤلفون في البلاغة بجعل البديع فناً مستقلاً عن أخويه وإن كان لم يرم إلى ذلك ولا إليه قصد"^(٥).

(١) يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، أبو يعقوب السكاكي، سراج الدين الخوارزمي، إمام في النحو والتصريف والمعاني والبيان والاستدلال والعروض والشعر، وله نصيب وافر في علم الكلام وسائر الفنون، وله كتاب: مفتاح العلوم، وُلد سنة (٥٥٥هـ)، ومات بخوارزم سنة (٦٢٦هـ). انظر: بغية الوعاة، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٢) من وجوه تحسين الأساليب، د. محمد إبراهيم شادي، مطبعة دار السعادة بمصر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ٩.

(٣) الصبغ البديعي، ص ٢٥٠.

(٤) مفتاح العلوم للسكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٤٢٣.

(٥) الصبغ البديعي، ص ٣٠٢، ويلمح عند السكاكي التوسع في مفهوم الالتفات عندما ذكره ضمن المحسنات البديعية.

والتقط بدر الدين بن مالك^(١) تلك الوجوه المخصوصة التي أشار إليها السكاكي وميزها باسم (علم البديع) في كتابه (المصباح) ووسع فيها ، " وبذلك هياً لأن تصبح البلاغة متضمنة علوماً ثلاث : (البيان ، والمعاني ، والبديع) "^(٢).

وجاء الخطيب القزويني واستقرت عنده الخطوة الأخيرة لعلم البديع ، حيث عرفه وحدّده بقوله : " هو علمٌ يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعايته وتطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة "^(٣) ، " فعّد ألوان البديع حلياً تزين الكلام وتحسنه بعد رعاية المطابقة التي تكون بعلم المعاني ، وبعد وضوح الدلالة التي تكون بعلم البيان ، واستقرّ هذا التقسيم الثلاثي للبلاغة حتى يومنا هذا "^(٤).

وإذا كان هناك مَنْ عدّ الخطيب أول الجانين على ألوان البديع بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض على حدّ تعبيرهم ، فإنّ " أصباغ البديع التي تجري على نمط ما اختاره الخطيب في القبول والصفاء من البلاغة في أكرم موضع وأعزّ مكان ، وسواء بعد ذلك جعلها علماً مستقلاً ، أو تابعة لأحد العلمين ، أو موزعة بينهما "^(٥).

ومن المهمّ هنا الإشارة إلى الصلة الوثيقة بين معنى البديع في اللغة ، وما اصطلح العلماء عليه في تعريفهم له كعلم مستقلّ ، إذ من شأن كلّ جديد وبديع محدث أن يكون له لذة

(١) بدر الدين ابن الإمام جمال الدين الطائي الدمشقي الشافعي النحوي ابن النحوي ، كان إماماً فهماً ذكياً ، حاد الخاطر ، إماماً في النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والمنطق والفقه والأصول . أشهر مصنفاته : المصباح في اختصار المفتاح في المعاني ، وشرح الملحة ، ومقدمة في النطق .. وغيرها . مات بالقولونج في دمشق ، يوم الأحد (٨) محرم ، سنة (٦٨٦هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٨ ، ١٩٩٢م ، ص ٣١٥ .

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني ، بتعليق : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١٤٢٠هـ - ١٩٩٠م ، ج ٤ ، ص ٢ .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠ .

(٥) الصبغ البديعي ، ص ٥٠٧ .

وطرافة وبهجة ولطافة ، فكذلك ألوان البديع تجد أنها تكسب الكلام حسناً وحلاوة ، وتخلع عليه هيئة وبهاء وطلاوة .

" وهذه الرحم القرية والصلة الوشيحة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هي التي سوّغت التسمية وجوّزت الإطلاق^(١) ، وهي دلالة واضحة وحجّة بينة على صدق العلماء فيما يتفوّهون به وما يُطلقونه من مصطلحات دالة على مسمياتها ، ودقيقة في إطلاقاتها ، إذ مما لا يخفى أنّ المعنى اللغوي لكلمة (البديع) هو إطلاق عام على كلّ جديد وطريف ، سواء ارتبط بشيء محسوس أو معقول ، فخصّ علماء البلاغة من بعد هذا الإطلاق بألوان البديع ، فكان هناك تخصيص بعد عموم ، وتحديد وتمرّكز بعد توسّع وشمول .

فهذا التخصيص إذاً ، والتقاط العلماء هذا الخيط الدقيق بين اللغة والاصطلاح ، والتنبيه له ، دالٌّ على صدقهم ودقّتهم وحُسن اختيارهم ، وسداد رأيهم .

أثر علم البديع في أداء المعاني :

كثر الكلام حول علم البديع بين الذاتية والعرضية ، وكان محور جذب بين علماء البلاغة ، ورغم ما دار حول تعريف الخطيب القزويني للبديع من جدل ، ومحاولة الشراح تأويل هذا التعريف ، فإنّ الذي خصّ البديع بكشف الحجب عن أثره في أداء المعاني بصورة أصدق وأجلى هو عبد القاهر الجرجاني ، وبعده الزمخشري ، إذ إنّ عبد القاهر وهو يعرض بعض فنون البديع فإنه يبرز المزايا البلاغية لها مبيّناً أن الحسن يكمن في حاجة المعنى إليه ، وما يقتضيه المقام والحال ، إذ يقول : " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ... " ^(٢) .

ولئن أسرف الشعراء والأدباء في العصور المتأخرة في استعمال البديع حتى انحرفوا به عن

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ،

١٠ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م ، ص ١١ .

غايته ، فلصقت به التهم ، إلا أنّ هذا لا يطعن في قيمته التعبيرية والشعورية ، ولا يحط من منزلته في إبراز المعنى وإظهاره في أبهى صورة وأنطقها .

ولعل إطلاق ابن رشيق ومن قبله صاحب (الوساطة) (ت ٣٦٦هـ) اسم (الحلى) على ألوان البديع ربما يكون هو الذي أغرى البعض بالنظر إلى البديع على أنه زينة وحلية لفظية مطلقة ، فلا تفعيل له ولا مقصد غير هذا^(١) . إلا أنه ليس من أحد " يغفل أهمية البديع في البلاغة العربية ، أو ينكر أثر فنونه المبتكرة في بناء الأسلوب الفني للأدب العربي ، وذلك لأنّ هذه الفنون أصلية في هذا الأدب جرت في أوصاله منذ أقدم عصوره وفي شتى موضوعاته وأغراضه ، وأنها لم تكن بدعة شكلية اصططنعها الشعراء المولّدون "^(٢) .

وفنون البديع وجه من وجوه الإعجاز القرآني وإن لم يكن الإعجاز متعلّقاً بها ، كما أشار الباقلاني^{(٣)(٤)} .

" فالتأمل في كلام الله والوقوف على معانيه السامية وتذوّق ألفاظه الموحية ومعانيه المؤثرة يؤكّد أنّ البديع لم يكن حلية أو محسناً عرضياً ، وإنما هو أسلوب يهدف إلى أمور ، منها :

الأول : إبراز المعنى بأجلى صورة وأوضحها .

الثاني : جمال التعبير واتساقه البديع .

(١) الصبغ البديعي ، ص ١٨١ ، بتصرف ، ويُعدّ هذا فهماً خاطئاً عند بعض الدارسين لمقصد الحلى عند العالمين .

(٢) البلاغة والتطبيق ، تأليف : د. أحمد مطلوب و د. كامل حسن البصير ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، العراق ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ٤١٨ .

(٣) هو أبو بكر ، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلاني أو ابن الباقلاني ، وُلد بالبصرة ، تلقى العلم عن طائفة كبيرة من العلماء ، منهم البزاز ، والنيسابوري ، تسنى له أن يؤلف نيفاً وخمسين كتاباً ، أهمها : إعجاز القرآن ، والتمهيد .. وغيرها . مات : السبت ، السابع من ذي الحجة ، من عام (٤٠٣هـ) . انظر : مقدمة تحقيق كتابه (إعجاز القرآن) ، ص ١٧ .

(٤) انظر : إعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، د.ت ، ص ١١٢ .

الثالث : روعة التأثير وفعله في النفوس^(١).

وقس على ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة وروائع الشعر العربي .

ويرى الباقلائي " أن هذه الوجوه - وجوه البديع - مؤثرة في الجملة ، آخذة بحظها من الحُسن والبهجة ، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع ، والتعمل المستشنع " ، وينكر " أن يقول قائل : إنّ بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيها الإعجاز من غير أن يقارنه ما يصل به من الكلام ويفضي إليه "^(٢).

فعلم البديع إذاً ركنٌ من أركان الجملة ، وسرٌّ من أسرار الروعة ، وقوة التأثير فيها شرط أن يكون عفواً غير متكلف ، وفي سياق غير منقطع ، وإلا فإنّ المعنى يختل بزواله ، ويتأثر الأسلوب باختلاله .

ولا أجلى ولا أبهى من صور البديع في القرآن الكريم ، ولكي يتبين لك أثره في أداء المعاني ، انظر - مثلاً - إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ... ﴿^(٣).

فهاهنا ثلاثة طباقات تبرز المعنى ناصعاً جلياً مؤثراً ، وتدلّ على قدرة الخالق المعجزة المتفردة والشاملة ، فهو وحده القادر على خلق المتباينات في تكامل وانسجام تعكس صورة واحدة في غاية الجمال والكمال البديعي ، ومنتهى الاقتدار الإلهي^(٤) . بل إنّ كلاً من هذه الطباقات مرتبطة ببعضها لغاية " قال الطيبي^(٥) : المراد خلق السرور والحزن أو ما يسرّ ويحزن

(١) من مقال الدكتور أحمد مطلوب ، نشر مجلة الرسالة ، العدد ١١٥ ، الصادرة عن العراق ، ص ٤٠ .

(٢) انظر : إعجاز القرآن للباقلاني ، ص ١١٢ و ص ٢٧٦ ، وكان يقصد بالبديع : ألوان البلاغة التي كانت ذائعة معروفة من تشبيه واستعارة وكناية وجناس وطباق وإيجاز وإطناب ... إلخ .

(٣) سورة النجم : الآيات (٤٣-٤٥) .

(٤) من توجيهات الأستاذ المشرف .

(٥) هو الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي ، الإمام المشهور العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان . قال ابن حجر : " كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن " ، صنف : شرح الكشاف ، التفسير ،

في الأعمال الصالحة والطالحة ، ولذا قرن بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ " ، وقال مجاهد الكلبي : " وتقديم الضمير وتكرير الإسناد للحصر ، أي إنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه ، وكذا في ﴿ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ، فلا يقدر على الإمامة والإحياء غيره ﷺ ، ولم يذكر الضمير في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ على طراز ما تقدم ؛ لأنه لا يتوهم نسبة خلق الزوجين إلى غيره ﷺ " (١) .

نشأة ابن أبي الإصبع العدواني المصري :

هو " الإمام العلامة عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر ابن الحسن زكي الدين أبو محمد البغدادي ثم المصري ، المعروف بابن أبي الإصبع ، كان أحد الشعراء المجيدين ، وهو صاحب التصانيف المفيدة في الأدب وغيره ، ومولده في سنة خمس ، وقيل : سنة تسع وثمانين وخمسمائة بمصر ، وتوفي بها " (٢) " سنة أربع وخمسين وستمائة " (٣) .

" عاش معظم حياته في ظل الدولة الأيوبية ، وشطر من دولة المماليك البحرية ، والدولة الأيوبية قد حكمت مصر الوطن الأصلي لابن أبي الإصبع من سنة ٥٦٧هـ - سنة ٦٤٨هـ " (٤) ،

شرح المشكاة .. وغيرها . مات منتظراً إقامة الفريضة يوم الثلاثاء (١٣) شعبان ، سنة (٧٤٣هـ) .
انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٢٢ .

(١) انظر : روح المعاني للألوسي ، بتعليق : محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، ومؤسسة التاريخ العربي ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ج ٢٧ ، ص ٩٦ .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تأليف : جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، طبعة مصورة عن دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، د.ت ، ج ٧ ، ص ٣٧ .

(٣) الدليل الشافي على المنهل الصافي ، تأليف : جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، تحقيق : فهم

محمد شلتوت ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت ، ج ١ ، ص ٤١٩ ، وفيه ورد : (المعروف بابن أبي

الإصبع العدواني) ، ويقال إنه المصدر الوحيد الذي ورد فيه لقبه هذا ، غير أنني وجدته أيضاً في النجوم

الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب ، تحقيق

الدكتور : حسين نصار ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٠م ، ص ٣١٨ ، ووجدته

أيضاً في كتاب معاهد التنصيص ، للشيخ : عبد الرحيم العباسي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ،

عالم الكتب ، بيروت ، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

(٤) مقدمة تحقيق حفني شرف لبديع القرآن ، ص ٥٧ .

وهو من أبرز علماء البلاغة صاحب كتابي (بديع القرآن) و(تحرير التحبير) .

وبِغَضِّ النظر عن كنيته بابن أبي الإصبع التي ربما تكون لسببٍ من الأسباب ، إلا أنه من المهم الإشارة إلى لقبه العدواني ، فلم لُقّب بذلك ؟. أكان من عدوان ؟. أيتصل نسبه بذي الإصبع الشاعر القديم ^(١) ؟.

لعله لُقّب بذلك تيمناً لما كان له من شهرة ذائعة في الشعر ، وربما كان من عدوان ، خاصة وأنه عاش في مصر ، إلا أنه من المستبعد اتصال نسبه بذي الإصبع العدواني الشاعر الجاهلي ؛ لأنّ سلسلة النسب التي وردت له في كتب التراجم والطبقات والتاريخ لا توصل نسبه إلى العصر الجاهلي ، كما أنه لم يرد على لسانه أو في مؤلفاته ما يشير إلى نسبته إلى (ذي الإصبع) ^(٢) .

وابن أبي الإصبع العدواني المصري (ت ٦٥٤هـ) أحد رموز المدرسة الأدبية في تناول علوم البلاغة بفنونها المختلفة ، التي غلب عليها الاهتمام بالنصوص القرآنية والأدبية والإكثار منها ، والاستناد إلى مقاييس فنية جمالية في الحكم عليها بعيداً عن التقسيم الثلاثي المعروف للبلاغة عند السكاكي ومن تبعه ، وأصحاب المدرسة الأدبية ربما جنحوا للضبط والتقسيم ، لكن من غير تعمق والتزام ، أمثال ابن سنان الخفاجي ، وأسامة بن منقذ ^(٣) ،

(١) ذكره الأصمعي في (أصمعياته) ، وهو : حرثان بن السّمّوأل وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار . ومن أقواله :

غَدِيرَ الحَيِّ مِنْ عَدُوًّا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يُرْعُوا عَلَى بَعْضٍ

انظر : الأصمعيات ، تحقيق : أحمد محمد شاكر - عبد السلام هارون ، ديوان العرب ، بيروت - لبنان ، ط ٥ ، د.ت ، ص ٧٢ .

(٢) مقدمة تحقيق حفني شرف لبديع القرآن ، ص ٦٧ ، بتصرف .

(٣) هو الأمير الفارس ، مؤيد الدولة ، أبو المظفر أسامة ابن الأمير مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الشيزري ، وُلد بشيزر سنة (٤٨٨هـ) ، صنّف كتباً عدّة ، منها : (التاريخ البدريّ) ، وله ديوان كبير . مات بدمشق في رمضان سنة (٥٨٤هـ) ، وعاش (٧٧) سنة . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ١٦٥ .

وابن الأثير^(١)، والطوفي البغدادي^(٢)، وابن حجة الحموي^(٣)، إذ " كانوا يرمون إلى هدفين :

الأول : دراسة بلاغة القرآن الكريم ومعرفة ظاهر فصاحته وبلاغته .

الثاني : القدرة على تذوق الكلام الجميل وإنشائه .

وخير من يمثل الهدف الأول ابن أبي الإصبع المصري في كتابه (بديع القرآن) ، والطوفي البغدادي في كتابه (الإكسير في علم التفسير) ، وخير من يمثل الهدف الثاني ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) وكتاب (الجامع الكبير)^(٤) .

والذي سلك بأصحاب هذه المدرسة هذا المنحى الأدبي عوامل عدّة كان لها الأثر في ذلك ترتبط بالعصر والبيئة والطبيعة الفطرية والثقافة والشيوخ والأساتذة .

فبالنسبة للبيئة فإنّ معظم رجال هذه المدرسة عاشوا في بيئة عربية ، كالعراق ، ومصر ، والشام ، وكانوا إلى جانب ذلك شعراء أو كتاباً لهم ذوق أدبي صافٍ ، وإحساس فني صادق ،

(١) هو نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، الوزير الفاضل ضياء الدين ، أبو الفتح الشيباني الخزرجي ، المعروف بابن الأثير ، مولده بجزيرة ابن عمر سنة (٥٥٨هـ) . مهّر في النحو واللغة وعلم البيان ، واستكثر من حفظ الشعر . له من المصنفات : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، والمعاني المختصرة في صناعة الإنشاء .. وغيرها . توفّي ببغداد ، الاثنين ، ربيع الآخر ، سنة (٦٣٧هـ) .
انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

(٢) هو سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم ، نجم الدين الطوفي الحنبلي ، كان فقيهاً شاعراً أديباً ، فاضلاً قيماً بالنحو واللغة والتاريخ ، مشاركاً في الأصول ، له من التصانيف : مختصر الروضة في الأصول ، شرح المقامات . مات سنة (٧١٠هـ) ، وقيل : (٧١١هـ) ، وهو منسوب إلى (طوفي) قرية من أعمال بغداد . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٩٩ .

(٣) هو أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حجة الحموي الحنفي القادري ، أبو المحاسن ، تقيّ الدين ، عرف بـ(ابن حجة) ؛ لكونه حجّ مرة إلى الديار المقدسة ، وبـ(الحموي) نسبة إلى مدينة حماة ، حيث وُلد سنة (٧٧٧هـ) . اشتغل بالعلم والأدب وفنونهما . له آثار نظرية وشعرية وبلاغية نقدية . توفّي (٢٥ شعبان سنة (٨٣٧هـ) وعمره ناهز السبعين . انظر : مقدّمة تحقيق كتاب خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٢١ .

(٤) المختصر في تاريخ البلاغة ، د. عبد القادر حسين ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ص ١٤ .

فلم يهتموا باقتباس المنطق والفلسفة في دراساتهم البلاغية ، وإنما عولوا على الذوق السليم والإحساس الرقيق في تناول النص والنظر إليه والحكم عليه^(١).

ولما كان كل امرئ يتطبع بالمكان الذي يعيش فيه ، وهو ابن بيئته كما يقال ، فإن ابن أبي الإصبع عاش في مصر ، فاكسب من أهلها رقة الطبع وصفاءه ، وأكسبته مروجها وخمائلها تذوق الجمال والإحساس به ، فكان شاعرهما الأول ، كما كان بليغها الأوحى الذي لم يلحق شأوه ، ولم يشقّ غباره ، وهذا ما تحدّث به صاحب مسالك الأبصار عندما تكلم عن علماء البلاغة في مصر ، فقال : " وأما مصر فلم يقع إلينا من أهلها إلا واحد ، وواحد كالألف ، وهو الزكي عبد العظيم عبد الواحد بن ظافر ، المعروف بابن أبي الإصبع ، جدّ حتى انقاد له الحظ ، وسهر حتى رقّ عليه قلب الليل الفظ ، طالما محّا الشكّ بإدراكه ، وتنحى سهيل^(٢) فوق في أشراكه ، مرّ على قطائع الكواكب فساق قلائصها^(٣) ، وسام في طرائد الليل قنائصها^(٤) ، وكان بمصر وله مثل مقطعاتها ، ونظير مصبغات ربيعها ومصبغاتها قطع شعر هي السحر الحلال ، والبارد العذب لا ماء النيل الزلال ، وعليه تخرج جماعة من المتأخرين الأدباء " ^(٥).

وكان العصر الذي عاش فيه ابن أبي الإصبع - عصر الدولة الأيوبية والمملوكية - مزيجاً من الحرب الصليبية التي جرت الولايات وما أعقبه صلاح الدين من انتصارات ، ثم فتن بين الأمراء الأيوبيين على دويلات ، فأثر هذا المزيج كله وتبعاته في الحركة العلمية ، فتحرّكت

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ ، بتصرف يسير .

(٢) سهيل : اسم نجم .

(٣) قلائص : جمع قلوص ، وهي الشابة من النوق ، وهي بمنزلة الجارية من النساء .

(٤) سام : عرضها للبيع ، قنائص : جمع قنيصة ، وهي الصيد ، و(القانصة) للطير كالمصادين لغيرها ، وجمعها : قوائص .

(٥) بديع القرآن ، بتحقيق : حفي شرف ، ص ٦٩ (نقلاً عن مسالك الأبصار ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ مخطوط) ، وللإستزادة من معرفة أثر البيئة المصرية عليه ، يراجع كتاب ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، د. مصطفى الصاوي الجويني ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

وتقدّمت ، ونبغ العلماء في كلّ فن ، فكان عصرًا حافلًا بالتأليف والمؤلفين .

أما ابن أبي الإصبع فقد كان بمعزل عن السياسة وعن تلك الفتن ، وآثر العكوف على العلم والتأليف ، شأنه في ذلك شأن العلماء ذوي التجارب والبصائر ، إلا أنه لم يندّ عن ميله الشعري ، ولم يملك زمام تأثره وتأجج عاطفته ، فنظم قصيدة يمدح بها النبي ﷺ ، ويبين فيها بلاغة القرآن الكريم ، ولعله كان يستشعر النبي محمد ﷺ في مثل هذه المواقف^(١) . وعلى هذا فإنه يمكن القول : إنّ هذا العصر الزاخم بالمؤثرات الفاعلة في الحياة العلمية ، ثم مشاركته في هذه الحياة مؤلفاً وأديباً وعالمًا وشاعرًا وصاحب تصانيف قيمة ، أكسبه كلّ هذا القدرة على التحليل والتعليل بعد طول تأمل ، واستقصاء ، وتمكن ، والقدرة كذلك على النقد والموازنة والمعالجة بخطى ثابتة ، ونفس ذواقة تتأثر بما حولها .

وهذان عاملان اثنان من العوامل المؤثرة في منهجه الأدبي ، هما : البيئة والعصر ، وبقي اثنان آخران هما من أهمّ العوامل أيضاً :

أولهما : إنّ المتأمل في شعره وفي فحوى مصنفاته يدرك أنّ ابن أبي الإصبع يملك حساً أدبياً رقيقاً ، وموهبة فطرية استطاع أن يوظفها بذكاء وقاد في دراسته للبديع ، وعرض فنونه في نسق موثّق واطراد منسق ، خذ مثلاً :

قوله من الطويل :

فَدَيْتُ الَّتِي إِذْ وَدَّعْتَنِي أَوْدَعْتُ	مِنَ اللَّفْظِ سَمْعِي سَاعَةَ الْبَيْنِ جَوْهَرًا
فَلَمَّا اعْتَنَقْنَا رَدَّ دَمْعِي لِنَحْرِهَا	وَدَيْعَتَهَا فَهِيَ السَّلَالِي الَّتِي تَرَى
بَكَتْ وَرَنْتْ نَحْوِي فَجَرَّدَ ^(٢) لَحْظُهَا	مِنَ الْجَفْنِ سَيْفًا بِالْذُّمُوعِ مُجَوَّهَرًا ^(٣)

(١) من مقدّمة تحقيق (حفني شرف) لبديع القرآن ، ص ٥٩-٦٦ ، بتصرف ، ولعلّ لابن أبي الإصبع شعراً سياسياً - كما ذكر المحقق - لم يصل إلينا .

(٢) (فجرّد) : عرّى .

(٣) انظر : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣١٩ ، وجاء فيه عن فخر الترك قوله : " كبير شعراء

وقوله من الخفيف :

اتَّخِبَ الْقَرِيضُ^(١) لَفْظًا رَقِيقًا كَنَسِيمِ الرِّيَاضِ فِي الْأَسْحَارِ
فَإِذَا اللَّفْظُ شَفَّ عَنِ الْمَعْنَى نَى فَأَبْدَاهُ مِثْلَ ضَوْءِ النَّهَارِ
مِثْلَ مَا شَفَّتِ الزُّجَاجَةُ جِسْمًا فَاخْتَفَى لَوْنُهَا بِلَوْنِ الْعُقَارِ^(٢)

ومن قصيدة يمدح بها الملك الأشرف موسى من الطويل يقول :

فَضَحَّتْ الْحَيَا وَالْبَحْرُ جُودًا فَقَدْ بَكَأَ الدَّحَا حَيًّا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ وَالتَّطَمَّ الْبَحْرُ^(٣)

وتأمل هذا الاستعداد الفطري وهذا الحسّ الأدبي ظاهراً في مقدّمة كتابه (بديع القرآن) إذ يقول : " كتاب بديع القرآن الذي هو تنمة للإعجاز المترجم ببيان البرهان أفردته من كتابٍ هو وظيفة عمري ، وثمرة اشتغالي في إبان شببيتي ، ومباحثي في أوان شيخوختي ، مع كل مَنْ لقيته من عقلاء العلماء وأذكياء الفضلاء ونبلاء البلغاء في علم البيان ، وكل مَنْ له عناية بتدبر القرآن ، ونظر ثاقب في نقد جواهر الكلام ، ومَنْ له تمييز بين الذهب والشبه من نقود النثر والنظام "^(٤).

ولقد " كانت له جولات في النقد مع الشعراء السابقين يتبع شعرهم بشعره ، ويحسن ذلك الإتياع ، فهاهو ذا في باب الاستتباع من كتابه (تحرير التحبير) يوازن بينه

عصره غير مدافع ، وحامل لوائهم غير منازع ، مبرز في حلبة العلوم الأدبية ، حائز قصبات السبق في الأدوات الشعرية ، وآداب الصناعة البديعية ، وشعره أسير في الآفاق من مثل ، وأوضح من نارٍ رفعت للساوي في ذروة جبل ... " .

(١) (القريض) : الشعر .

(٢) (العُقَار) : الخمر ، وسميت بذلك لأنها عَقَرَتِ الْعُقْلَ أو عاقرت الدنّ ، أي لازمته .

انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

(٤) مقدمة بديع القرآن لابن أبي الإصبع ، ص ٣ .

ويعين ابن الرومي في بيت تبعه فيه ، وهو :

سَدَّ السَّدَادُ فَمِي عَمَّا يَرِيْبُكُمْ لَكُنْ فَمُ الْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودٍ^(١)

وبيت ابن أبي الإصبع :

هَيْنِي سَكَتُ أَمَّا لِسَانُ ضُرُورَتِي أَهْجَى لِكُلِّ مُقَصِّرٍ عَنْ مَنْطِقِي

ونقده لم يقف عند الشعراء ، بل كان يوجّهه كذلك للمفسرين ويحاجهم وينازعهم الرأي ، ويدحض الحجة بالحجة^(٢) .

ثانيهما : رغم إنّ ابن أبي الإصبع يلمح في مؤلفاته " تأثره بمن سبقه من العلماء ، وخاصة عبد القاهر الجرجاني وفخر الدين بن الخطيب الرازي^(٣) (ت ٦٠٦هـ) صاحب (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، وابن سنان الخفاجي صاحب (سرّ الفصاحة) ، إذ إنّهُ كثيراً ما ينقل عن هذه الكتب ويستشهد بما فيها من آراء^(٤) ، وهو تأثر له ما بعده ، فإنّ هناك فرقاً " بين معاشية أسلوب القرآن الكريم وبين معاشية غيره من الأساليب ، فإن ثمرّة المعاشية الأولى تكون أحلى وأنضج وأعمق ، وهذا شيء طبعي ؛ لأنّ أسلوب القرآن يبلغ القمة صحةً وحسناً وجمالاً ، وهو يكسب من يعايشه ظلاً من هذه الصفات^(٥) .

(١) (السّدَاد) : موضع المخافة من القارورة والثغر ، والسّدَاد من العوز والعيش ، أي : ما يُسَدُّ به الخَلَّة .

(٢) مقدّمة تحقيق حفني شرف لبديع القرآن ، ص ٧٤ .

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي ، الملقب بفخر الدين ، والمكنى بأبي عبد الله ، رازي المولد ، طبرستاني الأصل ، مشهور بابن الخطيب ، وُلِدَ في رمضان سنة (٥٤٣هـ) أو (٥٤٤هـ) بمدينة الري ، برع في عدّة علوم ، كالفقه وأصوله ، والطب ، وعلم الكلام ، والنحو ، والأدب ، والتاريخ .. من مصنفاته غير المشهورة : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، أساس التقديس ، مناقب الإمام الشافعي .. وغيرها الكثير . توفّي سنة (٦٠٦هـ) . انظر : مقدّمة تحقيق كتابه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٨ .

(٤) مقدّمة محقق بديع القرآن ، ص ٧٠ .

(٥) خطوات البحث البلاغي والنقدي ، د. محمد إبراهيم شادي ، التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفست ،

طنطا ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص ٢٦٣ .

وكان ابن أبي الإصبع ممن اكتسب هذا الظلّ لاتصاله بالقرآن الكريم ومعاهدته له بطول النظر والتدبر ، لذلك فالقرآن الكريم من أهمّ العوامل التي طبعت بحوث البلاغة عامة ، وابن أبي الإصبع خاصة ، بطابع أدبي يعتمد على الذوق الرفيع قبل اعتماده على التحديد والتقسيم ، ونتيجة لذلك سلكت البلاغة منذ عهد مبكّر طريقاً بعيداً عن المدرسة الكلامية ، وكانت لها خصائص واضحة تميزها عن المدرسة الأخرى^(١).

مصنفاته :

١- تحرير التحبير .

٢- بديع القرآن .

٣- كتاب الأمثال ، " وهو كتاب صنعه لوزير الجزيرة صاحب محيي الدين ابن ندى ، جمع فيه أمثال القرآن العزيز ، وكتب الحديث المشهورة ، مسلم ، والبخاري ، والنسائي ، والترمذي ، والسنن ، والموطأ .. وغير ذلك من عيون الأمثال نظماً ونثراً " ^(٢).

٤- صحاح المدايح ، وهو عبارة عن ديوان شعر مدح به النبي ﷺ وأهل بيته ، كما مدح فيه الخلفاء الراشدين الأربعة ، ووصف في بعض قصائده القرآن الكريم وبلاغته .

٥- الكافلة في تأويل تلك عشرة كاملة .

٦- الشافية في علم القافية .

٧- الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه ، وهذا الكتاب له صلة وثيقة بالنقد ومعرفة ما يلزم في تأليف الشعر والنثر وتخير المكان والزمان في ذلك .

٨- وصيته إلى الكتاب والشعراء^(٣).

(١) البلاغة والتطبيق ، ص ٣٢ ، بتصرف .

(٢) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣١٨ .

(٣) مقدّمة تحقيق حفي شرف لبديع القرآن ، ص ٨٨ .

وكلّ ما سبق من مصنفاته مفقود ، باستثناء أبرزها (تحرير التحبير) و(بديع القرآن) .

وكتاب (بديع القرآن) هو أحد أقطاب الموازنة في البحث هنا ، لذا يلزم الإشارة إليه بشيءٍ من البيان ما أمكن .

فرغم أنّ الكتاب كان مختصراً نافعاً عن كتاب (تحرير التحبير) تتميز به بلاغة القرآن وبديعه كما أشار هو في مقدّمته له^(١) . فإنّ هذه الإشارة ليست كافية لبيان الغرض من تأليفه لبديع القرآن ، إنما يمكن القول أنّ الكتاب ما هو إلا امتداد للكتب التي ألّفها في تلك الفترة استجابةً للروح الدينية التي كانت مسيطرة على العلماء في عصره ، ككتابه (الكافلة في تأويل تلك عشرة كاملة) ، وكتابه (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح) ، إذ المطلع على كتابه (بديع القرآن) يحسّ باهتمامه بتفسير بعض الآيات وتأويلها وتخرجها ومعارضة بعض المفسرين^(٢) .

وإذا كان الأدباء والشعراء قد اتجهوا بالأدب والشعر اتجاهاً جديداً في عصره من المبالغة في البديع والتسابق فيما بينهم لا ابتداع المزيد من الحلّى إلى أن وصلت على يديه إلى مائة وعشرين نوعاً كما ذكر الدكتور حفني شرف^(٣) ، فإنه يمكن القول : إنّ تأليف ابن أبي الإصبع لكتابه (تحرير التحبير) ربما يكون ردّ فعل لما كان عليه الشعراء في عصره ، أما كتابه (بديع القرآن) فإنه لم يكن صدّى لغيره في ذلك ؛ لأنّه لم يكن ينظر إلى البديع كحليّة لفظيّة ، إنما كفنّ رائع يقدم المعاني على أكمل وجه ، وأيّن صورة ، ومن يقرأ في كتابه يتأكد له هذا^(٤) .

وليس من شكّ في أنّ معايشة ابن أبي الإصبع للقرآن الكريم ، وطول ملازمته ، كشفت

(١) هذه المقدمة موجودة في إحدى نسخ الكتاب ، وقد أشار إليها الدكتور حفني شرف في تحقيقه ، ص ١٤ هامش ٣ .

(٢) مقدّمة تحقيق بديع القرآن ، ص ٦٦ ، بتصرف .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ ، بتصرف .

(٤) من توجيهات الأستاذ المشرف .

له عن صور بديعية لم تتكشف لغيره ، بيد أنّ بعض ما تصوّره مبتكراً ومختزاً عنده ، يجده المتأمل مسبوqاً إليه ، وإن نسب إلى نفسه التفرد بهذا السبق ، مثل باب الحيدة والانتقال ، فالحقيقة هو أسلوب الحكيم الذي عرف قبله ، وباب التندر عنده لا يخرج عن باب المبالغة عند من سبقه^(١) .

وأياً كان غرض الكتاب وما أخذ عليه من ملاحظات يشار إليها في مكانها من بعد ، فالكتاب نسيج وحده فيما جاء في آيات الذكر الحكيم من الأنواع البديعية التي جمعها من السابقين ، والتي اهتدى إليها .

ولم تقف دراسته عند الجمع فقط ، إنما تعدى ذلك إلى نقد تلك الأنواع وتغيير تسمية ما لم تعجبه تسميته^(٢) .

وقد يعدّ صنيعه هذا ليس بالجديد على من سبقه من العلماء ، وإن اضطربت آراء الباحثين حول جديده ، لكن ما تميز به هو تلك المقدرة العلمية وبذل الجهد في الاستقصاء والتتبع ، إذ درس أنواع البديع بالقرآن دراسة وافية ، واستقصى في القليل من الألفاظ القرآنية عدداً من الأنواع البديعية^(٣) ، وله اجتهاداته وتحليلاته الدقيقة للآيات القرآنية وبديعها تعكس قدرة خاصة على التدقيق^(٤) .

ولم أجد من يقترب منه في هذا العمل سوى الزخشري في تفسيره الكشاف ، والزخشري سابق له ، وربما تأثر به ابن أبي الإصبع .

" ومن الخصيصة الأدبية الكبرى له ما نزع إليه في تفسير الأبواب تفسيراً أدبياً لا منطقياً منضبطاً يتحرز فيه بأنواع التحرزات خشية الدخل على تعريف يريده

(١) خطوات البحث البلاغي والنقدي ، ص ٢٣٨ ، بتصرف .

(٢) مقدمة تحقيق بديع القرآن ، ص ٧١ ، بتصرف .

(٣) انظر ما مثل عليه الدكتور حفي شرف في مقدمة تحقيقه لبديع القرآن من أمثلة على هذا الاستقصاء ، ص ٧١ ،

وكتاب ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٥٧٠ .

(٤) من توجيهات الأستاذ المشرف .

جامعاً مانعاً ، وقد يفسّر المصطلح البديعي تفسيراً لغوياً^(١) .

ومما تميز به أيضاً اهتمامه بالدلالة الإيحائية الزائدة على الدلالة الوضعية ، وتظهر في عدّة أبواب عقدها كالفرائد والنزاهة والإشارة ، وأنه عدّد من الأبواب التي تدور حول تميز النظم القرآني في ترتيب وتلاؤم كلماته وتناسب جملة وتعادله في التأليف ، ومن تلك الأبواب التي تخصي هذه النواحي : باب التهذيب وحُسن الجوار وحُسن النسق والانسجام وباب المناسبة^(٢) . فضلاً عن أنه لم يمرّ باب بديعي يقترب من باب آخر أو يلتبس به إلا وضع ابن أبي الإصبع الفرق بينهما مؤيداً بالشواهد الشعرية والنثرية ، وإن كان ابن رشيق وابن حجة الحموي يشتركان معه في هذه المزية ، إلا أنّ سمة الذوق عنده والتي استخدمها في تحليلاته مبنياً مواطن الجمال والأسرار والدقائق التي انطوت عليها الأمثلة ترفعه عنهما^(٣) .

وكتاب (بديع القرآن) يُعدّ منهجاً جديداً في درس البلاغة العربية وإن تأثر بابن الأثير والزحشري بعض التأثير ، ثم إنه " يجمع في بحثه بين البلاغة والنقد الأدبي ، ويعتمد في دراسته على الاستقصاء والتحليل والموازنة والابتكار ، بحيث يمثل حلقة وضاعة في تاريخ البيان العربي ، وفيه خصائص أدبية وعلمية ، وقد أضاف نظرات جمالية أسلوبية إلى بحوث البلاغة القرآنية"^(٤) .

(١) راجع كتاب ملامح الشخصية المصرية حول هذا ، ص ٧٦٣-٧٦٦ .

(٢) خطوات البحث البلاغي والنقدي ، ص ٢٣٩ ، بتصرف يسير ، وللاستزادة حول تلك الأبواب راجع المرجع السابق ، ص ٥٤٦ .

(٣) البديع في القرآن عند المتأخرين وأثره في الدراسات البلاغية ، رسالة ماجستير من إعداد : دجيل الله بن محمد الصحفي ، إشراف : د. إبراهيم أحمد الحار دلو ، جامعة أمّ القرى ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ص ٣٧٩ ، بتصرف ، (تقلاً عن : ملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٨١) . وذكر صاحب الملامح الشخصية ، ص ٥٨١ : " أنّ باب التمزيج استغرق معظمه تبين الفروق بين الأبواب البديعية : التمزيج ، والتكميل ، والافتتان والتعليق ، والإدماج " .

(٤) مقدمة تحقيق بديع القرآن ، ص ١-٣ ، وللاستزادة من قيمة هذا الكتاب العلمية يراجع المرجع نفسه ، ص ٥٦ و ٩٢ ، والفصل الأول من الباب السابع من كتاب : ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية .

وللتخفيف من حدة هذا الزخم الحقيقي في بيان القيمة العلمية لكتاب بديع القرآن يستعان بهاتين الملاحظتين المأخوذتين عليه :

أولاهما : " أنه في معالجته لفنون البديع أدخل بعض مباحث المعاني في البديع ، وخاصة صور الإطناب ، كالتكرار والتفصيل والتذييل والاستقصاء والإيضاح والبسط والإيجاز " ^(١) ، وإن كان عذره في هذا أنه استخدم البديع بالمعنى اللغوي العام ، لا بالمعنى الاصطلاحي الخاص عند مدرسة السكاكي ^(٢) .

ثانيتهما : أخذ المؤلف على نفسه عهداً في (بديع القرآن) ألا يستشهد فيه إلا بالآيات القرآنية ، ولكن قد يخالف عهده أحياناً كما في باب (القسم) و(جمع المؤنث والمختلفة) وباب (حسن الإتيان) ، وربما التمس لنفسه عذراً ، ولعلّ حبّ الأدب ونزعتة الفنية تملي عليه أن يستطرد فيورد الأشعار ، أو يقوم بنظمها ليتمثل بها ^(٣) .

نشأة الخطيب القزويني :

إنّ سيرة الخطيب القزويني تحتل على كراريس ، وما كل ما يعلم يقال كما قال الذهبي ^(٤) ، إلا أنّ هناك خطوطاً عريضة لا بدّ من خطّها للكشف عن شخصية هذا العالم الجليل والعوامل التي أثّرت في اتجاهه نحو هذا المنهج العلمي .

هو الشيخ الإمام العالم العلامة ، خطيب الخطباء ، مفتي المسلمين ، جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن ، ابن إمام الدين أبي حفص عمر القزويني الشافعي ، كما يقول عن نفسه في مقدّمة كتابه الإيضاح ^(٥) .

(١) علم البديع ، ص ٥٢ .

(٢) من توجيهات الأستاذ المشرف .

(٣) راجع مقدّمة تحقيق بديع القرآن ، ص ٩٤ ، وملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٦٧ ، فما نقل عنهما كان بتصرف .

(٤) الدرر الكامنة لابن حجر ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، ج ٤ ، ص ١٢٣ .

(٥) مقدّمة كتابه الإيضاح بتحقيق الصعيدي ، ص ٨ ، وقد ترجم له الكثير .

سماه ابن حجر^(١): أبا المعالي ، وينتهي نسبه إلى " أبي دلف العجلي - أحد قواد المأمون والمعتصم - ، وُلد سنة ٦٦٦ هـ ، وسكن الروم مع والده وأخيه ، واشتغل وتفقه حتى ولي قضاء ناحية بالروم ، وله دون العشرين ، ثم قديم دمشق وسمع من العزّ الفاروئي ، وطائفة ، وأخذ عن الإيكي وغيره ، وخرج له البرزالي جزءاً من حديثه ، وحدث به وتفقه واشتغل في الفنون ، وأتقن الأصول والعربية والمعاني والبيان^(٢) .

" لقب بالخطيب ؛ لأنه ولي خطابة دمشق في الجامع الأموي وشهرَ بها ، فطلبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة ، فخطب بين يديه في جامع القلعة ، وكان ذلق اللسان ناصح البيان ، ونسب إلى قزوين ؛ لأنّ بعض أجداده سكنها^(٣) .

أما عن خلقتة ، فقد " كان مليح الصورة ، كبير الذقن رسلها^(٤) .

مات بعد أن أصابه الفالج في منتصف جمادى الأولى سنة ٧٣٩ هـ بدمشق ، وشيعه عالم عظيم ، وكثر التأسف عليه ، ودُفن بمقابر الصوفية^(٥) .

والمدرسة التي ينتمي إليها الخطيب القزويني هي المدرسة الكلامية أو العلمية ، وهو أحد أعمدتها ، ولعلّ اشتغال أصحابها بتجويد التعاريف ، وذكر الأقسام ، وتحكيم

(١) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ، ابن حجر ، من أئمة العلم والتاريخ ، أصله من عسقلان (بفلسطين) ، ومولده بالقاهرة سنة (٧٧٣ هـ) ، له شهرة واسعة ، وتصانيفه كثيرة ، أهمّها : الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، وتقريب التهذيب . توفي سنة (٨٥٢ هـ) بالقاهرة .

انظر : الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٩ م ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٢) الدّرر الكامنة لابن حجر ، ج ٤ ، ص ١٢١ ، وجاء في شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي - تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة - ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، د.ت ، ج ٦ ، ص ١٢٣ ، عن ابن قاضي شعبة : أنّ مولده بالموصل .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ص ٦١٤ .

(٤) مقدمة محقق كتابه التلخيص ، ص ١٦ (نقلًا عن أعيان العصر وأعوان النصر ، ج ٤ ، ص ٤٩٥-٤٩٦) .

(٥) كما جاء في الدّرر الكامنة لابن حجر ، ج ٤ ، ص ١٢٢ ، وشذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٢٤ .

العقل في عدّها وحصرها وتحديدّها ، راجعٌ إلى أثر البيئة التي نشأت فيها هذه المدرسة ؛ إذ شاعت في المناطق الشرقية من الدول الإسلامية ، حيث يقطن خليطٌ من الفرس والترك الذين يميلون بطبعهم إلى البحوث العقلية ، فضلاً عن قدم الدراسة الفلسفية والعلوم العقلية في التراث الفارسي^(١) .

ويظهر أثر هذا واضحاً في شيوع ألفاظ ومصطلحات المنطق والفلسفة على أقلام البلاغيين ، كالسكاكي ، والخطيب ، إذ استعملوا كلمات مثل العقل والوهم في مبحث الفصل والوصل ، كما تحدّثوا عن الملزوم واللازم في بحث الدلالات ، وعن الفاعل الحقيقي وضرورة اعتباره في بحث المجاز العقلي ، وذكروا الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات وغير ذلك^(٢) .

والحقّ أن الخطيب القزويني لم يصل به التأثير إلى حدّ جعل دراسة البديع جافة لا تؤثر في النفس ، أو وضع أمثلة صناعية لا تنبع من عاطفة ، أو تصدر عن إحساس ، كما يعمم بعض الباحثين حينما يتحدّث عن أصحاب هذه المدرسة ، بل كان جميل المحاضرة ، حسن الملتقى ، حلّو العبارة ، حادّ الذهن ، جيد البحث منصفاً فيه مع الذكاء والذوق في الأدب ، كما أشار إلى ذلك ابن حجر وغيره ممن ترجم له^(٣) ، إلا أنّ هذا لا يمنع انتسابه إلى هذه المدرسة وظهور النزعة العلمية في مؤلفاته متأثراً بالبيئة التي سبق الإشارة إليها ، وبالواقع الأدبي الذي كان يعيشه والذي أسهم في تطوّر مقاييس البلاغة وتحوّلها ، وهو ما أشار إليه الدكتور شوقي ضيف بشيء من المبالغة والتجني ، إذ يقول : " وكان من أهمّ ما هياً لهذا الجمود أنّ الأدب نفسه كان قد سرى فيه جمودٌ شديد ، وهو جمود بدأ منذ القرن الرابع الهجري ، غير أنه أخذ يزداد حدةً مع الزمن ... " ، إلى أن يقول : " وهذا الظاهرة

(١) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ١٣ ، بتصرف .

(٢) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، د. حامد الربيعي ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، مكة المكرمة ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ص ٤٤١ ، بتصرف .

(٣) راجع مقدّمة التلخيص ، ص ١٩ ، (نقلًا عن كتاب أعيان العصر وأعوان النصر ، ج ٤ ، ص ٤٩٦-٤٩٨) لتجد له مقطعاً نثرياً على جانبٍ واسع من لطف الأداء ينمّ عن نفس مؤمنة إلى ملكة أدبية راسخة .

نفسها من التكرار ومن إجداب العقول ومن الجمود بنحدها تسري بين أصحاب البلاغة بعد عبد القاهر والزمخشري^(١).

لكن يمكن القول إنّ " المقاييس الفنية لم تعد تلي تلك الحاجة في الحياة الأدبية ، إذ لم يعد الأمر مجرد تفسير وتوجيه وتقويم ، وإنما أصبح محاولة جادة لتلمس مواطن الضعف وكيفية تلافيها ، بطريقة تساعد على التعلم النظري والتطبيقي معاً"^(٢). ولذا برزت مظاهر التقنين العلمي الذي يعين المتعلم على الحفظ والتمثل والاستئناس بالقواعد الثابتة عند التطبيق ، وهذا تحديد لمهمة هذه المدرسة وإنصاف لمنهجها العلمي .

ولتلمس عوامل أخر نَحَتْ بالخطيب هذا المنحى العلمي ، يذكر المؤرخون أنه كان على جانب عظيم من الثقافة ، فهو فقيه ، أصولي ، محدث ، وكان يرغب الناس بالاشتغال بأصول الفقه ، وكان خطيباً وقاضياً ، والخطابة والقضاء يفتقران إلى شخصية واعية ملمّة بثقافة العصر ، مُجيدة لأحكام الشريعة الإسلامية التي تتكوّن في صميمها من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وأقوال السلف ، والعلم بالقياس .. وقد أحاط القزويني بهذه الأصول كلّها^(٣).

فهذه الثقافة التي يغلب عليها الفكر الأصولي ، وهذه المناصب التي تولّاها القزويني من القضاء والخطابة هي التي طبعته بطابع الشخصية العلمية ، فضلاً عما تميز به من صفات هيأت له هذا الطابع .

يقول عنه (صلاح الصفدي)^(٤): " إنه يتبرج براهين ودلائل ، بذهن يتوقّد ويدور على

(١) انظر : البلاغة تطوّر وتاريخ ، ص ٢٧٢ .

(٢) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، ص ٤١٨ .

(٣) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ٢٤٦ ، بتصرف .

(٤) هو خليل بن أليك بن عبد الله الصفدي ، صلاح الدين أديب ، مؤرّخ ، كثير التصانيف الممتعة ، وُلد في صفد (فلسطين) سنة (٦٩٦هـ) ، وإليها يُنسب ، له زهاء مئتي مصنّف ، أشهرها : الوافي بالوفيات ، وأعيان العصر .. وغيرها . توفي سنة (٧٦٤هـ) . انظر : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

قطب الصواب كالفرقد ... وإنه كان فصيحاً في وقت البحث والجدل ، منطقياً يراعي قواعد البحث ، ولم يُرَ قاضٍ أشبه منه بوزير ، ولا إنسان كأنه وفي أثوابه أسد يزير ... " ^(١) .

وقد يكون لأساتذته أثر في تغذية هذا الطابع عنده ، فلقد أخذ العلم في مستهلّ حياته عن أبيه ، وتفقه على يديه وهو قاضي القضاة كما أشار هو ، " وسمع وهو في دمشق من العزّ الفاروقي (ت ٦٩٤هـ) وعن الإيكي (ت ٦٩٧هـ) ، وحدث وأفتى بالأحاديث التي خرجها له البرزالي ، وأخذ المنطق عن الشيخ شمس الدين الإيجي ، وشهد له الجميع بالبراعة والفتانة وسُرعة الاستيعاب ، وحُسن الاستنباط ، ومن أساتذته أيضاً : عمر أبو القاسم المراغي الصوفي الذي قدم دمشق سنة ٧٢٩هـ " ^(٢) .

" وسمع من أبي العباس الفاروئي وغيره ، وأخذ الأصلين عن الأربلي " ^(٣) .

تلك هي العوامل التي أثرت في حياة الخطيب القزويني فوجّهته الوجهة العلمية في البحث ، " ولا يزال منهج الخطيب في البلاغة وفي تلخيصه بالذات هو المنهج العلمي في علوم البلاغة إلى عصرنا الراهن " ^(٤) .

مصنفاته :

كان الخطيب القزويني " يحبّ الأدب ويحاضر به ويستحضر نكته ، قوي الخط ، وكان يعظم الأرجاني الشاعر ، ويقول : إنه لم يكن للعجم نظيره ، واختصر ديوانه فسماه : الشذر المرجاني من شعر الأرجاني " ^(٥) . " وصنف في الأصول كتاباً حسناً " كما ذكر (الذهبي) ^(٦) .

(١) انظر : مقدمة محقق كتابه التلخيص الدكتور ياسين الأيوبي ، ص ١٥ ، (نقلاً عن أعيان العصر وأعوان

النصر ، ج ٤ ، ص ٤٩٢-٤٩٦) .

(٢) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ٢٤٦ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٢٣ .

(٤) مقدّمة تحقيق الإيضاح لعبد المنعم خفاجي ، دار الجليل ، بيروت ، ط ٣ ، د.ت ، ص ١٣ .

(٥) الدّرر الكامنة لابن حجر ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

(٦) شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ١٢٣ .

إلا أنّ الذي طار بصيته هو تأليفه لكتابين في البلاغة ، هما : تلخيص المفتاح ، والإيضاح .

" فقد استوعب - الخطيب القزويني - كتب البلاغة لأسلافه وتمثلها ، ومزج بينها ، وأخرج للناس هذين الكتابين في أفكار منظمة ، وعبارات مهذبة ، وتقسيم بديع ، وتنسيق لطيف " ^(١) .

فالكتاب الأول هو تلخيص للقسم الثالث من (مفتاح العلوم) ، فلقد وجده الخطيب غير مصون عن الحشو والتطويل ، قابلاً للاختصار ، مفتقراً للإيضاح والتجريد عما فيه من الحشو ، فألف هذا المختصر يتضمّن ما فيه من القواعد ، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ، وأضاف إلى ذلك فوائد ، كما أشار في مقدمة (التلخيص) ^(٢) .

وقد نال التلخيص شهرة علمية واسعة حققتها له كثرة الشروح والحواشي والتقارير عليه ، من ذلك :

- (المختصر) و(المطول) للسعد ^(٣) (ت ٧٩١هـ) .
- (عروس الأفراح) للسبكي ^(٤) (ت ٧٧٣هـ) .
- (الأطول) لعصام الدين بن عربشاه الإسفراييني ^(٥) (ت ٩٤٥هـ) .

(١) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ٢٤٦ .

(٢) انظر مقدّمة كتابه التلخيص ، بتحقيق : ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ص ٣٧ .

(٣) مسعود بن عمر بن عبد الله الشيخ سعد الدين التفتازاني ، الإمام العلامة ، عالم بالنحو والتصريف والمعاني والبيان والأصليين والمنطق .. وغيرها . وُلد سنة (٧١٢هـ) . له شرح العضد ، - شرح التلخيص - مطوّل ، وآخر مختصر ، الإرشاد في النحو .. وغيرها . مات بسمرقند سنة (٧٩١هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٤) العلامة بهاء الدين أبو حامد ابن شيخ الإسلام تقيّ الدين أبي الحسن ، وُلد بالمغرب سنة (٧١٩هـ) ، أخذ العلم عن أبيه ، والأصبهاني ، وأبي حيان .. كانت له اليد الطولى في اللسان العربي والمعاني والبيان ، صنّف : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، وشرح مطوّل على مختصر ابن الحاجب ، وله : النظم الفائق . مات (٢٧) رجب (٧٧٣هـ) بمكة . انظر : بغية الوعاة ، للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٥) اسمه إبراهيم بن محمد بن عرب شاه عصام الدين الحنفي ، من سلاسل أبي إسحاق الإسفراييني ، وُلد =

ونظمه كل من :

- السيوطي^(١) (ت ٩١١هـ) تحت عنوان : (عقود الجمان) .

- وعبد الرحمن بن محمد الأخصري المتوفى في أواخر القرن العاشر في (الجوهر المكنون في الثلاثة فنون) .

وفي عام ٧٢٤هـ ألف الخطيب كتابه (الإيضاح) وقد جعله على ترتيب مختصره (التلخيص) ، وبسط فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضح مواضعه المشككة ، وفصل معانيه المجملة ، ورأى أن يميزه بما استخرجه من زبدة كلام العلماء بعد ترتيب وتهذيب ، (كعبد القاهر الجرجاني) في كتابيه ، و(السكاكي) و(الزخشري) وغيرهم ، إضافة إلى ما اهتدى إليه فكره ولم يجده لغيره على حدّ قوله^(٢) .

وقد وجد بعض الباحثين في كتابه الإيضاح آثاراً لبعض العلماء الذين لم يشر إليهم ، كالجاحظ ، والمبرد^(٣) (ت ٢٨٦هـ) ، والرماني^(٤) (ت ٣٨٦هـ) ، والعسكري ، وبدر الدين

بإسفرايين (قرية بخراسان) ، تعددت مؤلفاته ؛ مما يدل على سعة علمه وتبحره ، أهمها غير الأطول : شرح تهذيب المنطق ، شرح الطوالع .. وغيرها . مات سنة (٩٤٣هـ) ، وقيل : (٩٤٥هـ) ، وقيل : (٩٥١هـ) ، وعمره (٧٢) سنة . انظر : مقدمة تحقيق كتابه الأطول ، ص ٦ .

(١) هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال ، وينتهي نسبه إلى الشيخ همام الدين الخضير السيوطي الشافعي ، وُلد في شهر رجب (٨٤٩هـ) ، أخذ العلم عن ستمائة شيخ ، كان سريع الكتابة ، حاضر البديهة ، بلغت مؤلفاته (٣٠٠) كتاب في شتى العلوم ، أشهرها : الإِتقان ، والمزهر ، والأشباه والنظائر . مات سنة (٩١١هـ) . انظر : مقدمة تحقيق كتابه الإِتقان ، ص ١٠ ، وكتابه : بغية الوعاة ، ص ١٣ ، (نقلاً عن حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٢، ١٤٤ ، والبدر الطالع ، ج ١ ، ص ٣٣٣، ٣٣٤) .

(٢) انظر : مقدّمة الإيضاح بتحقيق الصعدي ، ص ٨ .

(٣) إمام النحو ، أبو العباس ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي ، البصري ، النحوي ، الأخباري ، صاحب (الكامل) ، وكان إماماً ، علامة ، جميلاً وسيماً ، فصيحاً مفوهاً ، صاحب نوادر وطرف . له تصانيف كثيرة ، وكان آية في النحو . مات أول سنة (٢٨٦هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٣ ، ص ٥٧٦ .

(٤) العلامة أبو الحسن ، علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي ، أخذ عن الزجاج ، وابن دريد ، وطائفة .

ابن مالك ، وابن سنان الخفاجي ، وابن الأثير ، وابن أبي الإصبع المصري^(١) .

وهذا التأثير على كلّ حال لا يقلل من شأن (الخطيب) ولا من شأن كتابه (الإيضاح) ، بل جاء الكتاب مزيجاً من فكر أولئك وأولئك ، مما جعله غزير المادة ، كبير الفائدة في الأدب والنقد والبلاغة والبيان ، وليس مجرد خلاصات فقط ، وأميل في أسلوبه العلمي إلى الروح الأدبية الذواقة ، وهو أوفى كتاب في بحوث البلاغة " سواء في ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ، أم في استيعابه واستقصائه وتحليله ، أم في جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، - لذا فهو - أهم كتاب دراسي في البلاغة في العصر الحاضر "^(٢) ، إلا أنه - وكأي عمل بشري - لا يخلو من بعض الملاحظات عليه ، أهمها :

١- " أن الإيضاح ليس فيه دائماً زيادة توضيح وبسط لِمَا في التلخيص كما هو مشهور "^(٣) ، بل إنّ (التلخيص) يُعدّ مرجعاً لبعض المسائل المختصرة في (الإيضاح) بصرف النظر عن بعض الشروح والحواشي والتقارير التي وضعت عليه .

٢- " أن الخطيب كان أحياناً ينقد كلام غيره من البلاغيين بقوله : (وفيه نظر) ، ثم لا يوضح هذا النظر ، كما في استدراكه على السكاكي في كناية عريض الوسادة ، وقد يؤدي هذا إلى أن يذهب شراحه في توضيح هذا النظر مذاهب شتى ، ولعله كان يعتبر هذا النظر واضحاً لا يحتاج إلى توضيح "^(٤) .

صنّف في التفسير ، واللغة ، والنحو ، والكلام ، وشرح (سيبويه) ، وكتاب (الجمّل) ، وله في الاشتقاق وفي التصريف . له نحو مائة مصنّف ، أصله من (سُرّ من رأى) ، ومات ببغداد في جمادى الأولى سنة (٣٨٤هـ) عن ثمانٍ وثمانين سنة ، وكان من أوعية العلم على بدعته . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٦ ، ص ٥٣٣ .

(١) راجع كتاب المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ٢٤٩ ، والبلاغة تطور وتاريخ ، ص ٣٣٦ ، ومقدمة استدراكات السعد على الخطيب في المطول ، ص ٣٠ .

(٢) مقدمة تحقيق الإيضاح لعبد المنعم خفاجي ، ص ١٣ .

(٣) مقدمة استدراكات السعد على الخطيب في المطول ، د. أحمد هندراوي هلال ، مكتبة وهبة ، القاهرة ،

ط ١ ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، ص ٣٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

٣- عقب الدسوقي على قول الخطيب في مقدمة (التلخيص) : " وأضفتُ إلى ذلك فوائد عثرتُ في بعض كتب القوم عليها ، وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها " (١) .

عقب قائلاً : " وأعترض بأنّ هذه الزوائد إن كانت غير موجودة في كلام أحد لا بطريق التصريح ، ولا بطريق التلويح ، كانت باطلة ، إذ لا مستند إليها على أنها إذا كانت خارجة عن كلامهم فلا معنى لإدخالها فيه مع كونها أجنبية عما قالوه ، فكيف تدخل في فنهم وتضاف إلى ما قالوه " (٢) ؟ .

وربما تتبين أثناء الموازنة ملاحظات أخر ..

أما عن شروح الإيضاح : فرغم اختلاف الباحثين حول شرح الإيضاح بين مؤيد لانتفاع البلاغة من وراء ذلك نفعاً كثيراً وبين مُعارض ؛ لأنّها تذهب مذهب الطريقة التقريرية أو الجدلية ، وتناهى عن طريقة كتاب الإيضاح ، فإنّ الكتاب حظي ببعضها ، لكن ليس في درجة كتاب التلخيص ، أهمّها :

١- " شرحاً للأقسراني مخطوطاً بدار الكتب المصرية " (٣) .

٢- وشرحاً للأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، وآخر لعبد المنعم خفاجي .

وأيّاً ما تكن المعارضة أو التأييد ، فد(الإيضاح) و(التلخيص) لفتا أنظار الدارسين إليهما ، فأهملوا كتاب (المفتاح) للسكاكي ، واتّجهوا إليهما .

(١) مقدمة التلخيص ، ص ٣٧ .

(٢) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، ص ٤٥٦ ، نقلاً عن حاشية الدسوقي ضمن الشروح ، ج ١ ، ص ٦٢ . ولا وجه لهذا الكلام فيما يبدو ؛ لأنّه يصادر على الخطيب إضافاته واجتهاداته ، وليس في كلامه ما يدلّ على أنه ينسبها إلى ما قال السابقون كما ذكر الأستاذ المشرف .

(٣) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ٢٥٧ .

الفصل الأول

محسّنات معنوية

ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : الطباق والمقابلة والفرق بينهما ، وكيف تناولهما العالمان .

المبحث الثاني : مراعاة النظر والاختلاف والفرق بينهما ، وطريقة عرض العالمين له .

المبحث الثالث : المشاكلة وصلتها بالمجاز ، وكيف تناولها كل من العالمين .

المبحث الرابع : المبالغة وموقف النقاد منها والفرق بين المبالغة في القرآن والمبالغة في الشعر ، ومنهج العالمين في عرضها .

المبحث الخامس : التورية والتوجيه البلاغي لها في القرآن الكريم ، ومنحى كل من العالمين في تناولها .

المبحث الأول : الطباق والمقابلة :

يتصدر هذان اللونان أول المحسنات المعنوية غالباً عند علماء البلاغة ، ويسوّغ لهذا التصدير أنّ عبد القاهر الجرجاني مثل لها بشواهد ، كقول سليمان بن داود القضاعي :

فَبَيْنَا الْمَرْءُ فِي عُلْيَاءِ أَهْوَى وَمُنْحَطٌ أُتِيحَ لَهُ اغْتِلَاءُ
وَبَيْنَا نِعْمَةً إِذْ حَالَ بُؤْسٌ وَبُؤْسٌ إِذْ تَعَقَّبَهُ ثَرَاءُ

وكقول حسّان :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَّوْا عَدُوَّهُمْ أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

وقول الفرزدق :

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَائِيَّتِهِ نَهَارٌ^(١)

وهي - كما هو ملاحظ - شواهد ترتبط بهذا اللون البديعي ، إلا أنّها جاءت عند عبد القاهر تحت فصل (النظم الذي يتحد فيه الوضع ويدقّ فيه الصنع ، وإنّه النمط العالي والباب الأعظم الذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه)^(٢).

والطباق أو المطابقة في اللغة : " الموافقة ، ومشى المقيد ، ووضع الفرس رجليه موضع يديه " ^(٣).

وجاء في أساس البلاغة :

(١) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود شاكر ، مطبعة دار المدني بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣) القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ١١٦ ، مادة (طبق) .

ومشي المقيد : أي متقارب الخطأ ، ووضع الفرس رجليه موضع يديه ، أي : طابق بينهما .

حَتَّى تَرَى الْبَازِلَ^(١) مِنْهَا الْأَكْبَدَا مُطَابِقاً عَنْ رَجُلٍ يَدَا^(٢)

ويقال له التطبيق والتضاد والتكافؤ والمقاسمة ، أمّا في الاصطلاح فقد أجمع علماء البلاغة على أنه الجمع بين الشيء وضده أو نقيضه .. كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا^(٣) .

فالآية السابقة جمعت بين ضدّين : (الضحك والبكاء) ، وبين (نقيضين) : (الموت والحياة)^(٤) ، لكن ما الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للطباق ؟ .

الظاهر في أول الأمر أنه ليس من صلة مناسبة كما ذهب إلى ذلك ابن حجة وابن الأثير^(٥) ، ولعلّ هذا كان مسوّغاً لقدامة بن جعفر إلى أن يسمي الجمع بين المتضادّين تكافؤاً ، ويُطلق الطباق على ما هو أيّن مناسبة له^(٦) .

وقد أنكر جمهور البلاغيين ما أطلقه قدامة ، فمنهم من تصدّى له بالردّ عليه ، كابن سنان الخفاجي ، والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ، كما يفهم من كلامهم . ومنهم من لم يعتدّ به ولم يشرّ إليه ، كأبي هلال العسكري ، وابن رشيق ، رغم أنّ هذا الأخير قد وجد له مسوّغاً في مكان آخر من كتابه^(٧) .

(١) (البازل) : البعير إذا فطر نابه بدخوله في السنة التاسعة .

(٢) أساس البلاغة ، للزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ص ٣٨٤ ، مادة (طبق) .

(٣) سورة النجم : الآيتان (٤٣-٤٤) .

(٤) لمعرفة الفرق بين التضادّ والتناقض ، انظر : الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : حسام الدين المقدسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ص ٣٢ .

(٥) قال ابن حجة في خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٧٢ : " وليس بين تسمية اللغة وتسمية الاصطلاح مناسبة " . وقال ابن الأثير في المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ : " ولا مناسبة بينه وبين مسمّاه ... وهذا الظاهر لنا من القول ، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن " .

(٦) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٨ ، بتصرّف . وانظر ما قاله قدامة في نقد الشعر ، ص ١٦٢ ، إذ إنّ إطلاقه الطباق كان على ما يسمّيه العلماء الجناس المستوفى .

(٧) انظر : العمدة ، لابن رشيق ، تحقيق : محمد قرقران ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ص ٥٧٨ .

وكان من أقسى هذه الردود : ما نقله ابن سنان عن أبي القاسم الحسن بشر الأمدي ووافقه عليه ، وهو قوله : " إنَّ هذا اللقب وإن صحَّ بموافقة معنى الألقاب وأنها غير محظورة ، فإنَّ الناس قد تقدّموا أبا الفرج في تلقيب هذه الأنواع ، مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ، وكفوه المؤونة في اختراع ألقاب تخالفهم " (١) .

وقد انتصر ابن الأثير لرأي قدامة على مذهب الجمهور ، ورأى لتسميته وجهاً ؛ لأنَّ الأصل في استعمال الطُّبَاق واشتقاقه يقتضي الموافقة لا التضادَّ ، غير أنَّه يرى ألاَّ مشاحة في الأسماء (٢) .

ويتصدَّى لانتصار ابن الأثير ودفاعه عن قدامة رجُلان ، هما : ابن أبي الإصبع المصري ، وابن معصوم (٣) (ت ١١١٩هـ) ؛ إذ يقول الأخير منهما : " وجمعه بين قول الخليل (٤) وقدامة ليس بصواب ، فقد قال الأخفش : مَنْ قال إنَّ المطابقة اشتراك المعنيين في لفظٍ واحدٍ فقد خالف الخليل والأصمعي (٥) ، فقليل له : أوْ كانا يعرفان ذلك ؟ . فقال : سبحان الله ، مَنْ كان أعلم منهما بطييه وخبيثه ؟ . - ثمَّ علّق قائلاً - : وما أحسن ما أتى في الجواب بالطباق بين الطيب والخبيث ،

(١) سرّ الفصاحة ، لابن سنان ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ١٩٥ .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٩ ، بتصرّف يسير ، وانظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ . ويُفهم من قول أسامة بن منقذ أنَّه يبيح تسمية قدامة . انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ٣٦ .

(٣) هو السيد علي خان ابن الوزير الصدر المعتمد نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم الحسيني الكاتب الشاعر ، المولود بمكة ، خلّف آثاراً قيمة في النحو واللغة والتاريخ والبديع ، نظم بديعة في مدح النبي ﷺ في (١٤٧) بيتاً ، ثمَّ شرحها شرحاً وافياً ، أطلق عليه (أنوار الربيع في أنواع البديع) ، توفي في أصبهان سنة (١١١٩هـ) ، وقيل : (١١٢٠هـ) . انظر : الصبغ البديعي ، ص ٤٥٤ .

(٤) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري ، أبو عبد الرحمن ، صاحب العربية والعروض ، هو أوَّل مَنْ استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها ، وعمل أوَّل كتاب العين المعروف المشهور ، كان يحدِّث سنةً ويغزو سنة . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٥٥٨ .

(٥) هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمغ ، أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والمُحْكَم والنوادر ، له عدّة مصنّفات ، منها : غريب القرآن ، الأجناس ، الأضداد .. وغيرها . مات سنة (٢١٦هـ) ، وقيل : (٢١٥هـ) ، عن (٨٨) سنة . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

وعلى هذا فتفسير الخليل المذكور للمطابقة لغوي لا اصطلاحى " (١) .

ومهما تباينت آراء البلاغيين حول المناسبة بين الاستعمال اللغوي للطباق وهو الموافقة ، وبين ما اصطلاحوا عليه وهو الجمع بين الشيء وضده ، إلا أن الأرجح أن هناك مناسبة وصلة بينهما ترجحها عدة أمور ، منها :

● أن التضاد هو " أن يجمع بين المتضادّين مع مراعاة " ، كما ذكر علي الجرجاني (٢) (ت ٨١٦هـ) (٣) ، ولعلّ في هذه المراعاة وجهاً لمعنى التوافق .

● " أن الذي يجمع بين الضدّين في كلامٍ منثور أو في بيت شعر ، فهو يوفق بين الضدّين في هذا الكلام " (٤) .

● أن المتضادّين ما لم يكن بينهما من الانسجام والملاءمة التي هي من لوازم الموافقة ، فإنهما لا يرقيان لأداء الغرض بصورة معبرة ، وهذه مزية الطباق ، ويصدق هذا قوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ (٥) ، وقوله سبحانه : ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ (٦) .

● أن حقيقة التطبيق : إصابة الطبق ، وهو موصل ما بين العظمين ، والتطبيق في الصلاة

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع ، تأليف : السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ، تحقيق : شاکر هادي

شکر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط ١ ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(٢) هو علي بن محمد بن علي الحنفي الشريف الجرجاني ، كان علامة دهره ، له تصانيف مفيدة ، منها : شرح المواقف للعضد ، وحاشية المطول ، وحاشية المختصر .. وغيرها . وُلد بـجرجان سنة (٧٠٤هـ) ، وتوفي بشيراز سنة (٨١٦هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(٣) كتاب التعريفات ، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ، ص ٨٤ .

(٤) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، للدكتور : بسيوني فيود ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ص ١٣٦ .

(٥) سورة التوبة : الآية (٨٢) .

(٦) سورة الحشر : الآية (١٤) .

- وهو مكروه - هو جعل اليدين بين الفخذين في الركوع ، والعظمين مختلفين ، وكذلك اليدين مع الفخذين^(١) .

● أنّ المطابقة عند الجمهور هي : " الجمع بين المعنى وضده ، ومعناها أن يأتلف في اللفظ ما يصاد في المعنى ، وكأنّ كلّ واحد منهما وافق الكلام ، فسَمِّي طباقاً "^(٢) .

● " إنّ الطبق - بالتحريك - في اللغة : هو المشقة ، قال الله سبحانه : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾^(٣) ، أي : مشقة بعد مشقة ، فلما كان الجمع بين الضدين على الحقيقة شاقاً ، بل متعذراً - ومن عادتهم أن تعطى الألفاظ حكم الحقائق في أنفسها توسعاً - سمّوا كلّ كلام جمع فيه بين الضدين مطابقاً وطباقاً "^(٤) .

● أنّ كثيراً من النقاد والبلاغيين يجعلون التضادّ قسماً من أقسام التناسب بين المعاني ، كابن سنان ، وابن الأثير ، والسيوطي^(٥) .

● أنّ المتضادّين يتوافقان في الوقوع في جملة واحدة ، ويقال : طبّق الشيء الشيء : إذا عمّهُ ، فالجملة عمّت الضدين وشملتهما^(٦) .

● نقل ابن معصوم عن السعد التفتازاني قوله : " إنّما سُمِّي هذا النوع مطابقةً ؛ لأنّ في ذكر المعنيين المتضادّين معاً توفيقاً ، وإيقاع توافق بين ما هو في غاية التخالف ، كذكر الإحياء مع الإماتة ، والإبكاء مع الضحك .. ونحو ذلك "^(٧) .

(١) انظر : أساس البلاغة ، للزمخشري ، ص ٣٨٣ ، والقاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، ص ١١٦٦ ، مادّة (طبق) .

(٢) هذا ما نقله ابن معصوم في كتابه (أنوار الربيع) ، ج ٢ ، ص ٣٢ عن ابن الأثير في (كفاية الطالب) .

(٣) سورة الانشقاق : الآية (١٩) .

(٤) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ٢ ، ص ٣١ ، نقلاً عن ابن أبي حديد ، وذكر أنّه أغرب في هذا .

(٥) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٢٠ ، بتصرّف .

(٦) أشار إلى ذلك صاحب (الأطول) عصام الدين بن عربشاه ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٧) أنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، ولم أعرّض على هذا النصّ في شرح تلخيص المفتاح ، للتفتازاني .

ومعرفة نشأة هذا اللون البديعي يُسهم في بيان التطابق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للطباق ، والكشف عن روعة التقابل بينهما .

فكيف نشأ الطباق ؟!

نشأة الطباق :

لما كان القرآن الكريم هو مَجْمَع البيان ، والمرآة التي تعكس ألوان البديع في أفخم صورها وأقواها تأثيراً وتعبيراً صدقاً وعدلاً ؛ إذ " لم يقرب أحدٌ من لفظ القرآن في اختصاره وصفائه ، ورونقه وبهائه ، وطلاوته ومائه ، وكذلك جميع ما في القرآن من الطباق " (١) ..

لما كان كذلك - حافلاً بتلك الصور البديعية - كان مقصد العلماء والبُلغاء والشعراء خاصة ، فجاءت بعض تلك الصور في كلامهم تنثال عفواً ، وتتوارد على خواطرهم ، وتجري مع أوهامهم كما يمليه عليهم إحساسهم الفطري دون تكلّف وتعمّد ، ودون بحثٍ عن مسمّيات أو قصد إليها ، فالعرب - كما يقول ابن رشيق - : " لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجانس ، أو تُطابق أو تُقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القافية ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض " (٢) ..

كقول أحد الأعراب : (خرجنا حفاةً حين انتعل كل شيء ظله ، وما زادنا إلا التوكّل ، وما مطايانا إلا الأرجل ، حتى لحقنا بالقوم) (٣) .

وقول كثير عزة :

(١) الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، دار الفكر

العربي ، ط ٢ ، د.ت ، ص ٣١٨ .

(٢) العمدة ، لابن رشيق ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٩ .

فَوَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدْتُ بِصَرْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ^(١)

وقول أوس بن حجر :

أَطْعَمْنَا رَبَّنَا وَعَصَاهُ قَوْمٌ فَذُقْنَا طَعْمَ طَاعَتِنَا وَذَاقُوا^(٢)

تلك هي المرحلة الأولى من نشأة الطبايق .

فإن قولي يسيل من فيضِ الخاطرِ ووحى الطبع والسليقة نقيّاً صافياً تصوغُهُ ملكاتهم الأدبية عذباً يخلب الألباب دون مجهودٍ عميق أو غوص شاقّ .

فلما جاء عصر التّصنُّع والتّأنُّق في الصنعة انصرفَ همّ الشعراء إلى الطبايق وغيره من الألوان البديعية الأخرى والمبالغة فيها إلى الحدّ الذي أخرجَ المعنى عن حدود المعروف ، وأبعده عن آفاق المعقول ، فمنهم مَنْ أجادَ وأحسن ، ومنهم مَنْ أغرب وأساء^(٣) .

قال ابن رشيق : " وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتداءً هذا بناءً فأحكّمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزيّنه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حَسُن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن حَسُن " ^(٤) .

كقول بشار ابن برد :

حَمَّامٌ قَلْبِي مَشْغُولٌ بِذِكْرِكُمْ يَهْذِي وَقَلْبُكَ مَرْبُوطٌ بِنِسْيَانِي
لَهْفِي عَلَيْهَا وَلَهْفِي مَنْ تَذَكَّرَهَا يَدُّوْ تَذَكَّرَهَا مِنِّي وَتَنَانِي

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٢٢ .

(٣) الصبغ البديعي ، ص ٥٥ ، بتصرف .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

إِنِّي لَمُنْتَظَرٌ أَقْصَى الزَّمَانِ بِهَا إِنْ كَانَ أَذْنَاهُ لَا يَصْفُو لِحْرَانِ^(١)
وقول أبي تمام :

عَرَضَ الزَّمَانُ أَوْ اعْتَرَتْهُ وَحْشَةٌ فَاسْتَأْنَسَتْ رَوْعَاتُهُ بِسُهَادِي^(٢)
بَلْ ذِكْرَةٌ طَرَقَتْ فَلَمَّا لَمْ أَبْتَ بَاتَتْ تُفَكِّرُ فِي ضُرُوبِ رُقَادِي
أَغْرَتْ هُمُومِي فَاسْتَلَبْنَ فُضُولَهَا نَوْمِي وَتَمَنَّ عَلَى فُضُولِ وَسَادِي

حتى قال أبو هلال العسكري : " وهذه الأبيات مع قُبْح التطبيق الذي في أولها ،
وهجنة الاستعارة لا يعرف معناها على الحقيقة " ^(٣) .

أما عن تتبع العلماء لهذا اللون ورصده كمصطلح علمي ، فإنَّ " أول ما عُرف
(الطِّبَاق) كان عند الخليل بن أحمد (ت ١٨٧هـ) حينما ذكره في قوله : " يقال :
طابقت بين الشيئين : إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما " ، وتعريف
الخليل لم يزد عن المعنى اللغوي ، كما ذكره الأصمعي (ت ٢١٣هـ) في فحولة
الشعر ، فيقول : " أصلها وضع الرَّجُل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع " ،
وأنشد لنا بغة بني جعدة :

وَحَيْلٌ يُطَابِقُنَ بِالْدَّارِ عَيْنَ طِبَا قِ الْكِلاِبِ يَطَانُ الْهَرَا سَا

ثم قال : أحسن بيت قيل لزهير في ذلك :

(١) الصبغ البديعي ، ص ٦٥ ، وقال مؤلفه معلقاً على قول بشر : " وهذه الكثرة لم نشهدها في الأدب
القديم ، وإن كانت أقرب إلى الفطرة منها إلى التكلف " .

(٢) الرُّوعُ : الفرع ، وبالضم : القلب ، أو موضع الفرع منه ، أو سواده ، والذهن ، والعقل .. والمعنى الأول هو
المقصود ، لكنّه لا يخرج من الفرع ، إنما يخرج من موضع الفرع ، وهو الرُّوع - بالضم - (المعنى الثاني) .
انظر : القاموس المحيط ، باب (العين) ، فصل (الراء) ، ص ٩٣٥ ، مادة (روع) .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٢٩ .

لَيْثٌ بَعَثَ^(١) يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا اللَّيْثُ كُذِّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

وتعريف الأصمعي لا يزيد على المعنى اللغوي ، لكن تمثيله بقول زهير يُفهم منه أنّ المطابقة عنده هي : الجمع بين الشيء وضده ؛ إذ جمع فيه بين الصدق والكذب ، وهما ضدّان^(٢) .

ووردت كلمة التطبيق في البيان للجاحظ بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له ، ويذكر تطبيق الحديث وأنه غير تطبيق الأول ، وفي (كامل) المبرّد (ت ٢٨٥هـ) كلمة المطابقة بمعنى الجمع بين الشيء وما يقابله في الكلام^(٣) .

وذكر ابن رشيق قولاً عن الرماني هو أنّ " المطابقة : مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان " . ثمّ علّق قائلاً : " هذا أحسن قول سمعته في المطابقة من غيره وأجمعه لفائدة ، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقدامة جميعاً^(٤) " .

ولم يكن ابن المعتزّ أوّل من استعمل هذا الاصطلاح ، بل سبق بأناس كما مرّ ، فأوّل من سبق إليها : أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) .

ثمّ عرض لها ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بما يشمل المجاز المرسل ، والتشبيه البليغ ، والاستعارة الأصلية والتبعية^(٥) .

فإذن المفهوم الاصطلاحي للطباق كان مستعملاً قبل ابن المعتزّ كما أشار هو في مقدّمة

(١) بعث : كثير النظر والتفتيش .

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن ، للدكتور : عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف بمصر ، ط ٣ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، ص ٢٣ ، وانظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٧٨ .

(٣) مقدّمة تحقيق البديع ، لابن المعتزّ ، ص ٢٧ ، بتصرّف يسير .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٧٨ ، وذكر الأستاذان محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام محقّقاً (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) أنّ ابن رشيق نقل عن الرماني في باب المطابقة ولم يرد - هذا الباب - في النكت ، ولعله نقله عن كتاب آخر . انظر : ص ١٩٥ من (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .

(٥) الصبغ البديعي ، ص ١٢٣ ، بتصرّف يسير ، وانظر نقل ابن المعتزّ عن الخليل في كتابه (البديع) ، ص ١٢٤ ؛ إذ لم يزد عنه إلا بذكر الشواهد المختلفة .

كتابه (البديع) . قال ابن رشيقي : " تكلم الخليل والأصمعي عن الطباق وعليهما اعتمد العلماء " ^(١) ، لكن كما قال القاضي الجرجاني : " وقد يخلط من يقصر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه " ^(٢) ؛ إذ كما حدث هذا الخلط عند الشعراء ، وُجد أنّ العلماء أيضاً " يخلطون بين الطباق والجناس والتورية كما تجدد في قواعد الشعر لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بشعلب (ت ٢١٩هـ) ، ويدخلون فيه العكس والتبديل والمغايرة في النسب الإسنادية والإيقاعية ، كما تجدد عند ابن المعتز في كتابه (البديع) ، وأبي هلال في كتابه (الصناعتين) ، وقد غلب الطابع النقدي على تناول هؤلاء ومن تبعهم ، كابن رشيقي ، وابن سنان ، فكانوا يستحسنون ويستهجنون مع التعليل أحياناً .

ثم أخذ الطباق يتحدّد بالتدريج حتى أخذ قلبه العلمي المعروف عند السكاكي والخطيب ومن لف لفهم " ^(٣) ؛ إذ اصطُلح على أنّه " الجمع بين المتضادّين ، أي معنيين متقابلين في الجملة " ^(٤) . وتبيّن عندهم ما هو من الطباق ، وما هو ملحق به بعدما كانت صورته مختلطة ومتشابكة ومتداخلة عند من سبقهم ؛ إذ للطباق - كما ذكر الجرجاني - " شُعَب خفية ، وفيها مكامن تغمض ، وربما التبتست بها أشياء لا تميّز إلا بالنظر الثاقب ، والذهن اللطيف ، ولاستقصائها موضعٌ هو أملك به " ^(٥) . إلا أنّ العلماء قد رصدوا أوجه استعماله في الكلام العربي رسداً دقيقاً يظهر في صورته المختلفة ^(٦) ..

فمنه ما ينقسم باعتبار طرفيه : حقيقيّ ومجازي ، ومنه طباق الإيجاب والسلب ، ومنه الطباق المسمّى تدبيجاً ، ومنه ما ألحق به : الطباق الخفي وإيهام التضادّ .

وسأكتفي بالاستشهاد هنا لكلّ نوع ؛ لأنّه ستمرّ بعض تفصيلاته أثناء الموازنة .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) الوساطة بين المتني وخصومه ، ص ٤٥ .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٨ .

(٤) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ٤ .

(٥) الوساطة ، ص ٤٤ .

(٦) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٢١ ، بتصرّف .

فمن الحقيقي : وهو " ما كان بألفاظ الحقيقة ، سواء كان من اسمين أو فعلين أو حرفين " ^(١)، قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ ^(٢) .

وقول أبي الحسن التهامي :

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفَوْا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الْإِيَامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبُ فِي الْمَاءِ جَذْوَةَ نَارٍ ^(٣)

ومن المجازي : وهو " ما كان طرفاه غير حقيقيين - أي مستعملان في المجاز - " ^(٤)، قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ^(٥) .

وقول الشاعر :

لَقَدْ أَحْيَا الْمَكَارِمَ بَعْدَ مَوْتٍ وَشَادَ بِنَاءَهَا بَعْدَ انْهَادِهَا ^(٦)

أما طباق الإيجاب والسلب ، فالأول : هو ما صُرِّح فيه بإظهار الضدين ، أو هو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً ^(٧) ، كقول أبي تمام :

وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ تَوَكَّتْ بِهَا النَّوَى فَوَلَّى عَزَاءُ الْقَلْبِ لَمَّا تَوَكَّتْ
فَأَمَّا عُيُونُ الْعَاشِقِينَ فَاسْخِنَتْ وَأَمَّا عُيُونُ الشَّامِتِينَ فَقَرَّتْ

(١) أنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(٢) سورة الكهف : الآية (١٨) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٤) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٢٤ .

(٥) سورة الأنعام : الآية (١٢٢) .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٧) علم البديع ، ص ٧٩ ، بتصرف يسير .

وَلَمَّا دَعَانِي الْبَيْنُ وَكُنْتُ إِذْ دَعَا وَلَمَّا دَعَاَهَا طَاوَعَتْهُ وَكَبَّتِ
فَلَمْ أَرِ مِثْلِي كَانَ أَوْفَى بِذِمَّةٍ وَلَا مِثْلَهَا لَمْ تَرْعَ عَهْدِي وَذِمَّتِي^(١)

والثاني هو : " الجمع بين فعلين لمصدر واحد ، مثبت ومنفي ، أو أمر ونهي "^(٢) ،
كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾^(٣) .

وقول امرئ القيس :

جَزَعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعًا وَعَزَيْتُ قَلْبًا بِالْكَوَاعِبِ مُوَلَعًا^(٤)

والطباق المسمى تديجاً هو : " أن يذكر في معنى من المدح أو غيره ألوان بقصد الكناية
أو التورية "^(٥) ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾^(٦) .

وأما ما يلحق بالطباق : فهو الطباق الخفي ، وإيهام التضاد .

فالأول هو : " الجمع بين معنيين يتعلّق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلّق مثل السببية
واللزوم "^(٧) ، كقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا ﴾^(٨) ؛ لأنّ إدخال النار

(١) شرح ديوان أبي تمام ، للخطيب التبريزي ، تقديم : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ،

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) أنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٤١ .

(٣) سورة المائدة : الآية (١١٦) .

(٤) ديوان امرئ القيس ، شرح : د. محمد الإسكندراني ، و د. نهاد رزوق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م ، ص ٢٤٥ .

(٥) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ٩ .

(٦) سورة فاطر : الآية (٢٧) .

(٧) أنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٨) سورة نوح : الآية (٢٥) .

يستلزم الإحراق المضاد للإغراق ، كما ذكر ابن معصوم^(١).

والثاني هو : " الجمع بين لفظين ظاهرهما التضاد ؛ لأنّ فيهما أو في أحدهما مجازاً ولا تضادّ بين المعنيين المجازيين ، بل يكون بين ظاهر اللفظين "^(٢) ، كقول دعل الخزاعي :

لَا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

ومن الطباق ما هو معنوي عند بعض البلاغيين ، كابن أبي الإصبع ، والسيوطي ، وابن معصوم ، وهو " ما كانت المقابلة بين الشيء وضده في المعنى لا في اللفظ "^(٣) ، ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا إِنْ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾^(٤).

و" معناه : (ربّنا يعلم إنّنا لصادقون) "^(٥).

وإذا أخذ بطرف الحديث من الطباق إلى المقابلة ، فيُلاحظ أنّ " البلاغيين قد اختلفوا في المقابلة ، فبعضهم جعلها فناً مستقلاً ، وبعضهم جعلها من الطباق بأنّها عبارة عن طباق متعدّد "^(٦).

وقال ابن رشيق : " إنّ المقابلة بين التقسيم والطباق ، وهي تتصرّف في أنواع كثيرة ، وأصلها : ترتيب الكلام على ما يجب ، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً ، وآخره ما يليق به آخراً ، ويأتي في الموافق بما يوافق ، وفي المخالف بما يخالف ، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابلة " ..

(١) أنوار الريع ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٢٥ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٢٥ .

(٤) سورة يس : الآيتان (١٥-١٦) .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ، للسيوطي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ،

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، ص ٦٦٨ .

(٦) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، للدكتور : بسيوني عبد الفتاح

فيود ، ص ١٥٢ .

ثم قال : " ولكنّ قدامة لم يُبالِ بالتقديم والتأخير في هذا الباب " ^(١).

والرّاجح أنّ المقابلة ليست فناً آخر غير الطباق ، إنّما هي من باب ، وتدور في فلكه وفي رحابه ، وهي كما عرّفها ابن رشيق وغيره من أنّها مقابلة لفظين أو أكثر بأضدادها على الترتيب ، " بحيث يقابل الأوّل بالأوّل ، والثاني بالثاني ، لا يخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق ، ومتى أخلّ بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة " كما ذكر ابن أبي الإصبع ^(٢) ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسُنُسْرُهُ لِلْإِسْرَى ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسُنُسْرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٤).

وقول قدامة معلّقاً ومصحّحاً :

أَمُوتُ إِذَا مَا صَدَّ عَنِّي بَوَجْهِهِ وَأُحْيَا إِذَا مَلَ الصُّدُودُ وَأَقْبَلَ

فجعل جزاء الموت الحياة ، وجزاء الصدّ بالوجه الإقبال ^(٥).

وقول الطرماح بن حكيم :

أَسْرَنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا
فَمَا صَبَرُوا لِبَاسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدُّوا لِحُسْنٍ يَدٍ ثَوَابَا

(١) العمدة ، لابن رشيق ، ج ١ ، ص ٥٩٠ .

(٢) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق : د. حفني

محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ، ص ١٧٩ .

(٣) سورة الليل : الآيات (٥-١٠) .

(٤) سورة النحل : الآيتان (٥٣-٥٤) .

(٥) علم البديع ، ص ٨٥ ، (نقلًا عن (نقد النثر) ، لقدامة ، ص ٨٥) .

" فجعل يازاء أن أسقوا دماءهم الزراب وقاتلوهم : أن يصبروا ، ويازاء إن أنعموا عليهم : أن يثبوا " ^(١) .

أما عن نشأة المقابلة ، فقد كانت تسيرُ جنباً إلى جنب في نشأتها مع الطباق من العفوية ، فالتصنّع والتكلف إلى التوسّع في إطلاقها كما عند الزمخشري ؛ إذ يسمي المشكلة أحياناً : المقابلة ، إلا أنه يعني بالمقابلة معناها اللغوي ^(٢) ، ولعلّ العلوي ^(٣) ، والزرکشي ^(٤) (ت ٧٩٤هـ) قد تأثرا به في ذلك ؛ إذ يلحظ أنّ شواهد المشكلة جاءت عندهما تحت أنواع المقابلة ^(٥) .

و" يعدّ قدامة بن جعفر من أوائل من تكلّموا عن (المقابلة) ، فقد ذكرها في معرض الحديث عن بعض الخصائص الأسلوبية التي تعلّي من قيمة الشعر . قال قدامة : " والذي يسمّي به الشعر فائقاً ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسناً صحة المقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ، واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشكلة في المطابقة . وأضداد هذا كلّه معيبة تمجّها الآذان ،

(١) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، د.ت ، ص ١٣٤ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د. محمد أبو موسى ، ص ٥٧٧ ، بتصرّف .

(٣) هو يحيى بن حمزة العلوي اليميني المتوفى سنة (٧٠٥هـ) ، اشتهر بعلوم النحو والبلاغة وأصول الفقه ، وله فيها مصنفات مختلفة ، أشهرها : كتابه الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق الإعجاز .. انظر : مقدّمة تحقيق كتابه (الطراز) ، ص ٣ .

(٤) هو الإمام العلامة الفذّ ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزرکشي التركي الأصل ، المعري ، الشافعي ، أحد العلماء الأثبات ، وجهبذ من جهاذة أهل النظر والاجتهاد ، وُلد في القاهرة عام (٧٤٥هـ) ، بلغت مؤلفاته (٤٥) مصنّفاً ، أشهرها : البرهان في علوم القرآن ، والبحر المحيط .. وغيرها . توفّي سنة (٧٩٤هـ) ، يوم الأحد ، (٣) رجب ، بالقاهرة . انظر : مقدّمة تحقيق كتابه البرهان ، ص ١١ .

(٥) انظر : الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، للعلوي ، تحقيق : د. عبد الحميد هندواوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، والبرهان في علوم القرآن ، للزرکشي ، تحقيق : د. يوسف المرعشلي وجمال الذهبي وإبراهيم الكردي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ، ج ٣ ، ص ٥٠٧ .

وتخرج عن وصف البيان " (١). وجاء بعده أبو هلال العسكري فعرفها بقوله : " إيراد الكلام ، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة " (٢). وعرفها الباقلاني بقوله : " أن يوفق بين معانٍ ونظائرها والمضادّ بضدّه " (٣). وعرفها كذلك ابن رشيق ومَن جاء بعده ، كالزحسري ، والرازي ، والسكاكي ، وابن الأثير ، وابن أبي الإصبع ، والعلوي ، كلّ بأسلوبه الخاصّ به ، إلا أنها كانت أوضح ما تكون عند ابن أبي الإصبع المصري ، وهو كما يظهر أوّل من فرّق بينها وبين الطبايق بعد إشارة يسيرة من ابن رشيق وسّعها ابن أبي الإصبع (٤). أما السكاكي فكان تعريفه للمقابلة بما تميّز به من منهج علمي محدّدًا وجامعًا في إيجازٍ بليغ ؛ إذ قال : " هي أن تجمعَ بين شيئين متوافقين أو أكثرَ وبين ضديهما . ثمّ إذا شرطت هنا شرطاً شرطتَ هناك ضده " (٥). وعرفها الخطيب القزويني بقوله : " هو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقةٍ ثمّ بما يقابلها على الترتيب ، والمراد بالتوافق خلاف التقابل " (٦).

وهو التعريف الذي أخذ به كلّ من جاء بعده إلى وقتنا الحاضر .

وللمقابلة عدّة صور :

● قال بعضهم : إما لواحدٍ بواحد : وذلك قليلٌ جدًّا ، كقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٧) (٨) ، ولكن هذا لا يدخل في المقابلة ، ولكنّه من الطبايق على رأي جمهور البلاغيين .

(١) علم البديع ، لعبد العزيز عتيق ، ص ٨٤ ، (نقلًا عن (نقد النثر) ، لقدامة ، ص ٨٤) ، وانظر تعريف قدامة

للمقابلة تحت عنوان : (صحة المقابلات) في (نقد الشعر) ، ص ١٣٣ .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٤٦ .

(٣) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٨٧ .

(٤) قال ابن رشيق : " فإذا جاوز الطبايق ضديّين كان مقابلة " . العمدة ، ج ١ ، ص ٥٩٠ ، وانظر تعريف

ابن أبي الإصبع للمقابلة في كتابه (تحرير التحبير) ، ص ١٧٩ .

(٥) مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ٤٢٤ .

(٦) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٧) سورة البقرة : الآية (٢٥٥) .

(٨) ما نقله السيوطي في (الإتقان) ، ص ٦٧٠ .

- أو اثنين باثنين ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ ^(١).
- أو ثلاثة بثلاثة ، نحو قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ ^(٢).
- أو أربعة بأربعة ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسُنِّيْسْرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسُنِّيْسْرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ^(٣).
- وذكر السيوطي من مقابلة خمسة بخمسة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ ﴾ ^(٤) .. ، قابل بين : ﴿ بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ ، وبين : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وبين : ﴿ يُضِلُّ ﴾ و﴿ يَهْدِي ﴾ ، وبين : ﴿ يَنْقُضُونَ ﴾ و﴿ مِيثَاقَهُ ﴾ ، وبين : ﴿ يَقْطَعُونَ ﴾ و﴿ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ^(٥).
- أو ستة بستة ، كقوله : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ قُلْ أُوتِبْتُكُمْ ﴾ ^(٦) ، قابل : (الجنات) و(الأنهار) و(الخلد) و(الأزواج) و(التطهير) و(الرضوان) ، بإزاء : (النساء) و(البنين) و(الذهب) و(الفضة) و(الخيول المسومة) و(الأنعام) و(الحرث) ^(٧).

(١) سورة التوبة : الآية (٨٢) .

(٢) إلا أنَّ هذه الآية التي ذكرها السيوطي من مقابلة اثنين باثنين لا تدخل في المقابلة ، إنما هي من الطباق على رأي جمهور البلاغيين أيضاً .

(٣) سورة الأعراف : الآية (١٥٧) .

(٤) سورة الليل : الآيات (٥-١٠) .

(٥) سورة البقرة : الآية (٢٦) .

(٦) الإتقان ، للسيوطي ، ص ٦٧٠ ، إلا أنَّ هذا من الطباق المتعدد .

(٧) سورة آل عمران : الآيتان (١٤-١٥) .

(٨) انظر : الإتقان ، ص ٦٧٠ ، ويبدو أنَّ هذه الآية الكريمة لا تتفق مع مفهوم المقابلة عند الخطيب القزويني .

انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١١ ، ١٢ .

• وذكر ابن معصوم أنّ بعضهم قسّم المقابلة إلى ثلاثة أنواع : نظيري ، ونقيضي ، وخلافي . ثم عقب " أنّ هذا تقسيم غريب ، قلّ من ذكره ، ولعلّ قائله تفرّد به " ^(١) .

وقد بنى العلماء هذا التقسيم على أساس عدد المتقابلات ، ويرى بعض الباحثين " أنّه لا ينبغي أن نشغل أنفسنا بعد وإحصاء الأشياء المتقابلة ؛ لأنّ ذلك يصرفنا عن تأمل أثر المقابلة في أداء المعنى المقصود ، مع أنّ هذا - أي مدى ما تؤدّيه المقابلة من أثر في إبراز المعنى المراد - هو المقياس الوحيد لجودة المقابلة " ^(٢) ، وهذا صحيح .

الفرق بين الطباق والمقابلة :

إذا كانت المقابلة تدور في فلك الطباق ، فإنّه ينبغي التفريق بينهما ؛ ليظلّ لكلّ مصطلح مفهومه الواضح وخصوصيّته التي يتميّز بها ويُعطى كلّ ذي حقّ حقه .

ولعلّ أول من حدّد الفرق بين اللّونين وحصره في أمرين اثنين : هو ابن أبي الإصبع العدواني في كتابه (تحرير التحبير) ، وكتابه (بديع القرآن) ؛ إذ يقول : " والفرق بين المقابلة والمطابقة من وجهين :

أحدهما : أنّ المقابلة لا تكون إلا بالجمع بين ضدّين فذّين ، والمقابلة تكون غالباً بالجمع بين أربع أضداد : ضدّان في صدر الكلام ، وضدّان في عجزه ، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد : خمسة في الصدر ، وخمسة في العجز .

والثاني : أنّ المطابقة لا تكون إلا بالأضداد ، والمقابلة تكون بالأضداد وغير الأضداد " ^(٣) .

وقال في مكان آخر : " والمقابلة بالأضداد أفضل مراعاة للاشتقاق ؛ لأنّ التقابل التضادّ والتناقض " ^(٤) .

(١) انظر تفصيل هذه الأقسام في : أنوار الريح ، لابن معصوم ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ، والإتقان ، للسيوطي ، ص ٦٧٠ ، والبرهان ، للزركشي ، ج ٣ ، ص ٥٠٤ .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٣٢ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١٧٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٢ ، ونقل عنه ابن حجة قوله : " ولكن الأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعاً " . انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، ولم أعثر على هذه العبارة في أيّ من كتابيه .

وقد عوّل كثيرٌ من المتأخرين والمحدثين على ما جاء عند ابن أبي الإصبع ، وأصبح معتمداً عندهم . قال ابن حجة : " المقابلة أدخلها جماعة في المطابقة ، وهو غير صحيح ، فإنّ المقابلة أعمّ من المطابقة ، وهي التنظير بين شيئين وأكثر ، وبين ما يخالف وبين ما يوافق ، فبقولنا : " وما يوافق " صارت المقابلة أعمّ من المطابقة ، فإنّ التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة ، وهذا مذهب زكيّ الدين ابن أبي الإصبع " ^(١) .

وذكر السيوطي شرطَي ابن أبي الإصبع ، ودعّمه بقول السكاكي إذ قال : قال السكاكي : " ومن خواصّ المقابلة أنّه إذا شرطَ في الأوّل أمر شرطَ في الثاني ضده " ^(٢) .

وعلّل الزركشي في البرهان كون الطباق أحد أنواع المقابلة عند ابن الأثير بقوله : " لا يكون الطباق إلا بالأضداد ، والمقابلة بالأضداد وغيرها ، ولهذا جعل ابن الأثير الطباق أحد أنواع المقابلة " ، ثم فصلّ في أنواعها ^(٣) . وقوله هذا يدلّ على تأثره بابن أبي الإصبع أيضاً .

ولعلّ من الفروق التي تلتبس أيضاً بين اللونين : ارتباط المقابلة بالتشطير كما عند قدامة ؛ إذ يقول : " اعلم أن المقابلة والتشطير هو : أن يقابل مصراع البيت الأول كلمات المصراع الثاني ، كقول جرير :

وَبَاسِطُ خَيْرٍ فَيَكُمُ يَمِينِهِ وَقَابِضُ شَرٍّ عَنْكُمُ شِمَالِيَا " ^(٤)

واختصر بعض المحدثين الفرق بين الطباق والمقابلة من حيث العدد فقط ^(٥) ، وأضاف

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ، لابن حجة الحموي ، تحقيق : د. كوكب دياب ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٢) انظر : الإتيان ، للسيوطي ، ص ٦٦٩ ، وهذا تعبيره عن قول السكاكي ، وليس القول نفسه . انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٢٤ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ٥٠٤ .

(٤) البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق : د. أحمد بدوي ، و د. حامد عبد المجيد ، مكتبة ومطبعة الحلبي ، مصر ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ، ص ١٢٨ .

(٥) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، د. عبد العظيم المطعني ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ط ٣ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ١٦ .

آخر أن المقابلة عندما تقع بغير الأضداد لا بدّ أن يكون هناك اعتباراً للتقابل على نحو ما ..
كما في قول صفّي الدين الحلّي :

كَانَ الرِّضَا بِدُنُويٍّ مِنْ خَوَاطِرِهِمْ فَصَارَ سُخْطِي لِبُعْدِي عَنْ جَوَارِهِمْ^(١)

وعلق الدكتور أحمد مطلوب على تلك الفروق قائلاً : " ولعلنا نلاحظ بجلاء أن أوجه التفريق بين المقابلة والطباق على ذلك النحو لا تستقيم حدوداً فاصلة تقطع ما يصل بين الفنين كلّ القطع ، وآية ذلك أن أولئك الباحثين أنفسهم أقرّوا بأنّ المقابلة أعظم من الطباق ، ومعنى هذا أنّهما يتلازمان تلازم العامّ والخاص ، كما أنّ حصرهم للطباق في لفظين متضادّين وإطلاق هذا العدد للمقابلة إلى العشرة أمرٌ شكلي لا يغير من وحدة طبيعة الفنين ... - إلى أن قال - : وإذن فلا ضير أن نُوحّد مصطلح المقابلة والطباق ، ونُدخل الفنين في نوع واحدٍ نسّميه الطباق ، ونجنب بحث هذا الموضوع ، كثرةً للخلافات بين البلاغيين الأسلاف "^(٢).

المزية البلاغية للطباق والمقابلة :

سبقت الإشارة في أول الحديث عن هذين اللونين أن الإمام عبد القاهر الجرجاني كأنه أشار إلى مزية هذا اللون البديعي عندما أتى بشواهد لهما في باب (ما يتحدّ فيه الوضع ويدقّ

(١) انظر : علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٥٥ .

(٢) البلاغة والتطبيق ، تأليف : د. أحمد مطلوب ، و د. كامل حسن البصير ، وزارة التعليم العالي والبحث

العلمي ، العراق ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، ص ٤٤٢ .

ولعلّ المؤلّفين كانا متأثرين بقول ابن سنان في (سرّ الفصاحة) : " فأما التسمية فلا حاجة بنا إلى المنازعة فيها ؛ لأنّ الغرض فهم هذه المناسبة دون الكلام في أحقّ الأسماء بها ، على أنّ الذي اختاره تسمية الجميع بالمطابق ؛ لأنّ الطبق للشيء إنما قيل له طبق لمساواته إياه في المقدار ؛ إذ جعل عليه أو غطي به ، وإن اختلف الجنس ... " . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٠٠ . ويفهم من تعريف الرازي للمطابقة أنّها والمقابلة شيء واحد ، حيث قال في (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) معرّفاً الطباق : " وهو الجمع بين المتضادّين في الكلام ، مع مراعاة التقابل " . وجاء في أمثلته ما هو من المقابلة ، رغم أنّه أفرد لها كلاماً . وتبرز الشواهد التي استشهد بها المزية البلاغية للونين ، وكيف أنّهما يمتزجان مزجاً حسناً ؛ ليؤدّيا غرضاً واحداً . انظر كتابه ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .

فيه الصُّنع) ، وليس من شكٍّ في أنَّ هذين اللونين أثرهما القويّ في إبراز بلاغة الكلام ، وفيما يظهر على واجهته من الرونق والحسن والحلاوة ، وفي الصلة الوثيقة والتلاحم المتلائم بين المعاني والألفاظ^(١) ، ثمَّ في الكشف عن الأفكار بصورة جليّة مشرقة قريبة إلى النفس ، خاصة إذا ما وقع هذا التضادُّ عن غير تكلف أو قصد ، بل جرى مجرى الطبع ، وهو ما يستحسن منه كما أشار ابن سنان^(٢) ، بصرف النظر عن كثرة المتضادات .

والقول إنَّه كلما كثرت المقابلات كان الكلام أبلغ ، قولٌ غيرُ مُسلمٍ به ؛ إذ قد يؤدي هذا إلى التكلف ، واستدعاء القوافي لأجل ذلك ، فتأتي غير متمكنة ، وهذا مما يقلل من قيمة هذا اللون البديعي ، ويُفوّت الغاية منه ، التي يؤكّد عليها عبد القاهر بقوله : " فأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع ، فلا شبهة أنَّ الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة ، من غير أن يكونَ للألفاظ في ذلك نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب " . وقوله : " وأما التطبيق فأمره أبين ، وكونه معنوياً أجلى وأظهر "^(٣) .

فلولا المعاني التي يوظفُ لأجلها التضادُّ وتلك الأهداف السامية والغايات غير المتناهية التي يسعى إليها ، لأصبح الجمع بين أيِّ متضادين أمراً شكلياً ، وزينةً باهتة ، وزحرفاً خاوياً ، بل عبثاً لا طائل من ورائه ، وضرباً من الهذيان^(٤) .

كقول أحدهم :

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ رِقَّةَ طَبِيعِهِ هُوَ مُقْسِمٌ أَنَّ الْهَوَاءَ ثَخِينُ

(١) وقد التفت قدامة إلى هذا المعنى عندما قال : " وقد يضع الناس من صفات الشعر : المطابق والمجانس ، وهما داخلان في باب اتلاف اللفظ والمعنى " . انظر : نقد الشعر ، ص ١٦٢ . وكذا الزمخشري ؛ إذ " قد يذكر الطباق ويُراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها " . انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص ٥٨٨ .

(٢) انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٠٠ .

(٣) أسرار البلاغة ، للجرجاني ، ص ٢٠ .

(٤) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٣٧ ، بتصرف .

فأيّ قيمة شعورية خلف هذه الصورة التعبيرية المركّبة جبراً والزماً؟!.

وأين هي من قول الشاعر :

مُتَّصِدُ زَفْرَاتِهِ ، مُتَحَدِّرُ
عَبْرَاتِهِ أَبَدًا قَرِيحُ مَاقٍ
رَقَّتْ مِيَاهُ وَجُوهِهِنَّ لِنَاطِرٍ
وَقُلُوبُهُنَّ عَلَيْهِ غَيْرُ رِقَاقٍ

ولا بدّ أيضاً من الربط بين الظاهرة البلاغية في الكلمة أو الجملة وبين السياق والمقام ؛ للوقوف على الأثر الذي تؤدّيه تلك الظاهرة في إطار الغرض العام من النص^(١) ، ولعلّ هذا الربط يجعل من تلك الظاهرة معرضاً فنياً يخلق صوراً ذهنية ونفسية وعقلية متعاكسة .. تترك في الشعور آثاراً عميقة^(٢) ؛ مما يؤكد أنّ الطباق والمقابلة من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع التي تميل إليها النفوس بطبعها ، وتتأثر بها وتتوثر فيها^(٣).

خذ مثلاً قول الشاعر أبي الحسن بن القاسم الحجازي :

أَخْفِي هَوَاكَ وَإِنَّهُ لَيَبِينُ
وَأُورِي عَدُوِّي أَتْنِي مُتَصَبِّرُ
فَالِي مَتَى أَذْنُو وَأَبْعَدُ مِنْكُمْ
وَأَعِزُّ فِي حُكْمِ الْهَوَى وَأَهْوَنُ
وَاهَا لِقَلْبِي كَيْفَ أَبْذُلُهُ لِمَنْ
هُوَ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْوِصَالِ ضَنِينُ
تَبْدُو سَرِيرَاتُ النُّفُوسِ وَحُبُّكُمْ
يَعْلُو بَيْنَ سَرَائِرِي مَكْنُونُ^(٤)

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٤٠ ، بتصرّف يسير .

(٢) البلاغة والتطبيق ، ص ٤٣٣ ، بتصرّف .

(٣) الصبغ البديعي ، ص ٤٧١ ، بتصرّف .

(٤) وردت هذه الأبيات في (مقدمة الدرّ الفريد وبيت القصيد) ، لمحمد بن أيّدمر ، دراسة وصفية تحليلية ،

د. عبد الله الزهراني ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، ص ٢٩ .

وقد علّق عليها ابن أيّدمر بقوله : " وهذه الأبيات جميعها فيها تطبيقات مصنوعة المعاني ، محرّرة الألفاظ " .

فإنك تجد هذه الأبيات قطعةً فنيةً ناطقةً ، وصورةً شعوريةً صادقةً ، وإذا بحثت عن أوجه الحسن فيها تحيرت ؛ أهى المعاني ، أم الألفاظ ، أم السياق ، أم التضاد ؟!

يبد أنها لوحة امتزج فيها إحساسُ الشاعر بكلِّ ما تحيرت فيه ، لقد صاغت المعاني ألفاظها مع كلِّ نفثةٍ من نفثات الشاعر ، وتناغمت صورُ الطباق عفواً بصياغة المعاني وطوع الألفاظ ، فتآزرت جميعها مترجمةً إحساساً نابعاً من القلب ، وإذا ما كان المنبع واحداً بهذه الروعة ، وهذه الحرارة ، وهذا الانفعال ، فإنه يجد صدىً يتجاوب معه من الكيفيات التعبيرية التي لم تخلُ من طباق استدعاه معنىً من المعاني ، فجاءت الصورة مكتملةً حيةً نابضةً بالحسن والحسّ ..

فيلاحظ إذن أن كلَّ كلمة في هذه القصيدة كانت مسخرةً طيعةً بين يدي الشاعر كما احترق وانفعل . ولم يدُر في خلده أنه سيُطابق ، أو سيتقي ، فيغتنب كلمة ، أو يطرد عبارة ، أو يتحير في اختيار سياق ، بل كلَّ شيءٍ جاء عفواً كأجمل ما يكون ، وارتبط طوعاً فجاءت هذه الظاهرة البلاغية عاكسةً لهذه الصور الذهنية والنفسية والعقلية التي اعتمدت في نفس الشاعر .

وقد طغى الطباق والمقابلة على صياغة المعاني حتى تكاد تنفرد بنسيج تلك المعاني في تلقائية تبرز منتهى المفارقة بين واقع الشاعر المؤلم - والذي لا حيلة له فيه - ، وبين ما يتطلّع إليه ، يُمثّل هذا كلَّ المتضادات الواقعة في القصيدة .

" أما المعجز الذي لا تصل إليه قدرة مخلوق ، فقولته تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾^(١) .

فانظر إلى عِظَم هذه المطابقة وما فيها من الوجازة "^(٢) .

(١) سورة فاطر : الآيات (١٩-٢٢) .

(٢) خزانة الأدب ، لابن حجة ، ج ٢ ، ص ٧٤ . وبقيّة الآية لم يشر إليها ابن حجة ، هي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ، وهي من المطابقة أيضاً كما هو واضح .

وأحسن الطباق كما يقول ابن معصوم : " ما ترشح بنوع آخر من أنواع البديع يكسوه طلاوة وبهجة لا توجد عند فقده ، وما وقع منه في القرآن أكثره كقوله تعالى : ﴿ تُولَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتُولَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ^(١) ، فترشحت المطابقة فيها بالعكس الذي لا يدرك ؛ لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل الذي لا تليق بغير القدرة الإلهية ، فإنّ في العطف بقوله : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ دلالة على أنّ مَنْ قَدِرَ على تلك الأفعال التي لا يُقَدِر عليها غيره ، قادرٌ على أن يرزق من يشاء من عباده بغير حساب ، وهذا من مبالغة التكميل المشحونة بالقدرة الربانية " ^(٢) .

والترشيح في اللغة معناه التقوية ، وترشيح الطباق أي تقويته بلونٍ بديعي آخر معه ، يكتسب به المعنى بياناً ، والكلامُ بهاءً ^(٣) .

" وقد أكثر الشعراء من استخدام المطابقة المجردة والارتفاع بجمالها وبلاغتها بما يضمّونه إليها أو يكملونها أو يكسونها به من فنون البديع والبيان ، كالجناس واللف والنشر والتورية والتشبيه والاستعارة والتضمين " ^(٤) .

كقول امرئ القيس :

مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَجُلُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عِلِّ

(١) سورة آل عمران : الآية (٢٧) .

(٢) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ٢ ، ص ٤٨-٤٩ .

(٣) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٥٠ ، بتصرّف .

ومن الدارسين مَنْ يُفهم من كلامه أنّ الترشيح من أنواع الطباق ، وأطلق عليه : (الطباق المرشّح) ، وهذه التسمية غير مقبولة ؛ لأنّ الترشيح إنما هو حالة تطرأ على الطباق فتقويه وتزيده بهاءً ، " والترشيح لا يختصّ فناً بعينه ، ولذلك قال المدني : " فظهر أنّ الترشيح لا يختصّ بنوع من البديع ، فمنّ زعم أنّه ضرب من التورية فلا معنى لجعله نوعاً برأسه ، فقد توهم " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٧٣ .

(٤) علم البديع ، لعبد العزيز عتيق ، ص ٨٤ . وانظر إلى شواهد من ذلك في خزانة الأدب ، لابن حجة .

" فالمطابقة في الإقبال والإدبار ، ولكنه لما قال : (معاً) زادها تكميلاً ؛ فإنّ المراد بها قُرب الحركة في حالتي الإقبال والإدبار ، وحالتي الكرّ والفرّ . فلو تركّ المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل لها هذه البهجة ولا هذا الموقع . ثمّ إنّهُ استطرد بعد تمام المطابقة وكمال التكميل إلى التشبيه على طريق الاستطراد البديعي ، هذا ولم يكن قد ضُرب لأنواع البديع في بيوت العرب وتَد ، ولا امتدّ سَبَب ، وقد اشتمل بيت امرئ القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد على طريقه " (١) .

فإذن لا يكفي الإتيان بالطباق لمجرّد التضادّ بعيداً عن أيّ غايةٍ تُقصّد أو مجرداً عن كلّ تأثيرٍ يُحسّ ويُشهد ، بل من المهمّ أن يأتي مُرشّحاً بنوعٍ من أنواع البديع يشاركه في البهجة والرونق ، وهذا ما أكّد عليه كثيرٌ من البلاغيين ، منهم ابن حجة ؛ إذ يقول : " إنّ المطابقة إذا أتى بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر ، ونهاية ذلك أن تطابق الضدّ بالضدّ ، وهو شيء سهل ، اللهم إلا أن يترشّح بنوعٍ من أنواع البديع ، يشاركه في البهجة والرونق " (٢) .

أما عن بلاغة المقابلة ، فإنّها " تأتي على أنّها سَبَبٌ من أسباب وفاء المعنى وتمام الغرض " (٣) ، فتأمّل هذا الحديث النبوي الشريف :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإنّ من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة :

(١) خزانة الأدب ، لابن حجة ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، وانظر : ديوان امرئ القيس ، ص ٣٣ .

والتكميل : " هو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى تام ، من مدح أو ذم أو وصف أو غيره من الأغراض الشعرية وفنونها ، ثم يرى الاقتصار على الوصف بذلك المعنى فقط غير كامل ، فيأتي بمعنى آخر يزيده تكميلاً " . انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

أما الاستطراد فهو : " الانتقال من معنى إلى آخر متصل به لم يُقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٣٣ .

الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفهبون » ، قالوا : يا رسول الله ، فما المتفهبون ؟ قال :
« المتكبرون » . [رواه الترمذي]^(١) .

فإنه لما كان الغرض بيان قيمة الأخلاق ، والرفع من مكانة أهلها ، والحث عليها ، ثم
التنفير من التجرد من الفضيلة والتعري عن حميد الأخلاق ، كانت المقابلة أتم في أداء المعنى ،
وأوفى في الغرض ؛ إذ تقابل قوله ﷺ : « أحبكم إليّ وأقربكم مني » مع قوله عليه الصلاة
والسلام : « أبغضكم إليّ وأبعدكم مني » ..

ثم إن هذه المقابلة تعكس حرصه عليه الصلاة والسلام على أمته ، وسعيه الحثيث إلى
الأخذ بها إلى النجاة . وصدق الله سبحانه إذ يقول : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

وهي مقابلة تُثير في النفس الهمم ، وتنهض العزائم للتسابق في مضمار الخير هنا ؛ لتسعد
بجوار النبي الكريم هناك في دار المقامة والنعيم الخالد ، فأَيُّ شرفٍ ، وأَيُّ علوٍّ أكثر من هذا ؟!
ثم أَيُّ خسارة ، وأَيُّ حسرة في مقابل من حُرِم من مجلس الأنس والسعادة والرفعة في جواره
الشريف ؟!

فإذن كل هذه الفيوضات من المعاني تعكسها هذه المقابلة البليغة .



(١) انظر : الجامع الصحيح من سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق وتعليق : أحمد

محمد شاكر ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، د.ت ، كتاب البر والصلة ، باب : ما جاء في معالي

الأخلاق ، حديث رقم : (٢٠١٨) ، ج ٤ ، ص ٣٢٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية (١٢٨) .

الطباق والمقابلة بين ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني :

بالنظر إلى هذين اللونين عند الرجلين يُلاحظ لأول وهلة اختلاف العرض عند كلٍّ منهما .. سأوجزه في خطوطٍ عامة لأبدأ تفصيلها من بعد .

أولاً : بدأ ابن أبي الإصبع بإشارة يسيرة إلى ضربَي الطباق عنده ، فالفرق بينه وبين المقابلة ، فعرضٌ لتلك الأنواع بالتفصيل والتمثيل مع التعليق ، بينما كانت البداية عند الخطيب القزويني بالتعريف له ، ثم ذكر أنواعه بشواهد تخلو من التعليق إلا نادراً ، وترك لعقل القارئ الفصل بين اللونين كما عرض تعريفهما ، إلا أنه فاجأه وختم الباب بقولٍ للسكاكي يظهر فيه الفصل بينهما بشيءٍ من التهذيب ، كما هي عادة المنهج العلمي .

ثانياً : كلا الرجلين أشار إلى مزية الطباق من خلال تعليقٍ على شاهدٍ أو اثنين ، أحدهما : تضمنَ تكميلاً حسناً كما أشار الخطيب ، وهو من الطباق الخفي^(١) ، والآخر : يجمع إلى بلاغته تسجيح فصيح ؛ لمحيء المناسبة التامة في فواصل الآي ، كما أشار ابن أبي الإصبع^(٢) .

ثالثاً : تحدّث الخطيب القزويني عن المقابلة أثناء عرضه للطباق باعتبارها داخلة فيه ، إلا أنه أخرها بطبيعة الحال بحكم خصوصيّتها ، وعرض لها بالتفصيل ، بينما أشار ابن أبي الإصبع في باب الطباق إشارةً يسيرة لا تُذكر للمقابلة ؛ لأنه أفرد لها باباً من بعد سمّاه (صحّة المقابلات) ، والتسمية بهذا الاسم لها ما تحتها ، يُشار إليها في حينها .

رابعاً : كان من المسلّم به عند الخطيب القزويني أنّ المعنيين المتقابلين في الطباق قد يكون التقابل بينهما حقيقياً أو اعتبارياً ، وسواء أكان تقابل تضادّ أو غيره ، ولم يأت

(١) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٢) بديع القرآن ، ص ٣٣ .

على ذكر أنّ الطباق على ضربين : حقيقيّ ، ومجازيّ ، كما أشار ابن أبي الإصبع ، بينما كان لهذا اعتباره عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ فرق في الطباق بين الحقيقي والمجازي ، وأنّ ما كان منه بالفاظ الحقيقة أبقوا عليه اسم الطباق ، وما كان كله بالفاظ المجاز أو بعضه سمّوه تكافؤاً .

وكلا الرجلين مثلاً على ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾^(١) ، فكان عند الخطيب من الطباق ، وعند ابن أبي الإصبع من التكافؤ .

خامساً : تميّز الخطيب القزويني بميزات عدّة في عرض صور الطباق بطريقة منسّقة ومهذّبة ومحدّدة ، بينما امتاز ابن أبي الإصبع بتحليلاته الأدبية الشافية لبعض الشواهد ..

وتلك كانت أهمّ النقاط الفارقة بينهما .

وفيما يلي تحليلٌ وعرضٌ وتفصيلٌ لما جاء عند الرجلين ، مع عقد الموازنة بينهما :

تعريف الطباق :

عرّفه الخطيب القزويني بقوله - وقد سماه المطابقة - : " وهي الجمع بين المتضادّين ، أي معنيين متقابلين في الجملة " ^(٢) .

وذكر مسمّياته من الطباق والتضادّ ، " قال الشيرازي ^(٣) : وتُسمى أيضاً التطبيق والتكافؤ " ^(٤) .

(١) سورة الأنعام : الآية (١٢٢) .

(٢) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ٤ .

(٣) هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي ، قطب الدين الشيرازي الشافعي العلامة ، وُلد بشيراز سنة (٦٣٤هـ) ، كان من بحور العلم ، ومن أذكّاء العالم ، يخضع للفقهاء ، له : شرح المختصر لابن حاجب ، وشرح المفتاح ، وشرح كلمات ابن سيناء .. وغيرها . مات في (١٤) رمضان ، سنة (٧١٠هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٤) عروس الأفراح ، لبهاء الدين السبكي ، تحقيق : د. خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ج ٣-٤ ، ص ٣٢٩ .

ولعلّ الخطيب القزويني لم يأتِ على ذكر التكافؤ ؛ لأنّ معنى قوله : " ومنه المطابقة " فسرّها العلامة عصام الدين ابن عربشاه في كتابه (الأطول) بقوله : " وما يلتحق بها إما بمعنى الموافقة أو المساواة ، ويؤيد الثاني تسميته بالتكافؤ ، فإنه بمعنى الاستواء " ^(١).

وقول الخطيب : " هي الجمع بين متضادّين " ، هذه عبارة السكاكي كما ذكر صاحب (الأطول) ^(٢) ، وفسرّها الخطيب بقوله : " أي معنيين متقابلين في الجملة " ؛ ليتجاوز بذلك المعنى اللغوي الذي ربّما قد يتوارد على الذهن ، وليكون الجامع بين المتطابقين أعمّ من التضادّ . قال السعد : " يعني : ليس المراد بالمتضادّين هاهنا الأمرين الوجوديّين المتواردَيْن على كلّ واحدٍ بينهما غاية الخلاف ، كالسواد والبياض ، بل أعمّ من ذلك ، وهو ما يكون بينهما تقابل وتنافٍ في الجملة " ^(٣).

وهذه هي الغاية التي وصل إليها الخطيب بتعريفه ، وتصدّقها شواهد ، وهي التي فهمها من تعريف السكاكي الموجز ، ففسرّها وزاد عليها .

أما ابن أبي الإصبع فإنه لم يأتِ على تعريف الطّباق ، ولا على هذا التحديد الواضح كما هو عند الخطيب ، وربّما كان هذا تنقيّةً لعرضه من التكرار ؛ لأنّه عرفه أثناء التفريق بينه وبين المقابلة ، فقال : " فالفرق بين الطّباق والمقابلة إذاً من وجهين : أحدهما : أنّ الطّباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدّين فذين فقط " ^(٤) ، أي مفردين .

(١) ينظر : الأطول ، لعصام الدين بن عربشاه ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٢) ينظر : المفتاح ، للسكاكي ، ص ٤٢٣ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٣) المطوّل ، لسعد الدين التفتازاني ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، ص ٦٤١ ، وانظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٢٩ .

وقال ابن عربشاه : " وقيل : لا يجعل التضاييف تقابلاً ، فلا يسمّى الجمع بين الأب والابن طباقاً على ما هو ظاهر ، بل هو بمراعاة النظير أقرب " . انظر : المطول ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

(٤) بديع القرآن ، ص ٣١ . والفدّ : هو الفرد ، وجمعه : أفذاذ وفنوذ . والناظر في كتابه (تحرير التحبير) يجد أنّ ابن أبي الإصبع قد فسّر الطّباق تفسيراً لغوياً فقط . انظر : تحرير التحبير ، ص ١١١ .

أو لأنّه قد فسّره لغويّاً في كتابه (تحرير التحبير) ، وهذه خصيصة من خصائصه التي يفسّر بها بعض أبوابه^(١) ، ثمّ من هذا التفسير يستطيع القارئ أن يلمح صلة النسب بين الأصل اللغوي للمصطلح ، وما انتهى إليه من معنى بلاغي .

فإذن كان تعريف الخطيب للطباق يتّسم بالتحديد والتوضيح ، بينما لم يحفل بهذا التحديد ابن أبي الإصبع ؛ إذ تكفي الإشارة عنده في الطباق أنّه الجمع بين ضدّين . أمّا تحديدها بمعنيين متقابلين في الجملة كما زاد الخطيب ، فليست غايته التي يسعى إليها في الطباق ، إنّما ترك هذا لذوق القارئ بسرد الأمثلة وتعليقه عليها ، ثمّ تفسيره للطباق لغويّاً فقط في كتابه (تحرير التحبير) رجاء أن يصلّ بإحساسه إلى غاية الطباق الكبرى ، وهي التوافق والتناسب والانسجام بين اللفظين المتضادّين ، وإن كان ظاهرهما التضادّ .

التكافؤ وإيهام التضادّ :

التكافؤ داخلٌ في الطباق عند الخطيب القزويني ؛ إذ لا مشاحة في التسمية عند الجمهور ، والمتضادات قد تتكافأ وقد لا تتكافأ ، يعني أنّها تكون من نوعين مختلفين أو من نوع واحد كما ذكر الخطيب ، وهو في هذا يتّفق مع قدامة الذي كان التكافؤ عنده الطباق أو التضادّ بكلّ صورته ، وإنّما أراد بقوله التكافؤ ما ذكره هو ؛ إذ قال : " والذي أريد بقولي : متكافئين في هذا الموضع : متقاومان ، إما من جهة المضادة ، أو السلب ، أو الإيجاب ، أو غيرها من أقسام التقابل "^(٢) ..

إلا أنّ هناك فرقاً بينهما عند ابن أبي الإصبع العدواني ، وإن كان الجميع داخلاً في باب الطباق عنده كما صرّح في أوّل الباب ؛ إذ قال : " فما كان منه بألفاظ الحقيقة أبقوا عليه اسم الطباق ، وما كان كلّهُ بألفاظ المجاز أو بعضه سمّوه تكافؤاً ، بشرط أن تكون الأضداد لموصوفٍ واحد ، فإن كان الضدّان أو الأضداد لموصوفين والألفاظ حقيقة فهو الطباق إن كان

(١) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٧٦٣ ، بتصرّف .

(٢) نقد الشّعْر ، لقدامة ، ص ١٤٣ ، بل إنّ ما جاء ملحقاً بالطباق عند الخطيب جاء عنده من المطابقة ،

كقول دعبل :

لَا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

الكلام جامعاً بين ضدّين فذّين ، وإن كانت الأضداد أربعة فصاعداً كان ذلك مقابلة" ^(١).

وفهم من تفريقه هذا أنّه قد يُطلق التكافؤ على المقابلة أيضاً ما دامت الأضداد المتقابلة بألفاظ المجاز .

وكأنّ التكافؤ أعمّ من الطباق ما دام الطباق بألفاظ الحقيقة فقط ، والتكافؤ قد يكون كلّهُ بألفاظ المجاز أو بعضه ، ثمّ هو في نفس الوقت أخصّ من الطباق ما دام أنّه لموصوفٍ واحد ، والطباق لموصوفين ^(٢).

وجاءت شواهد ابن أبي الإصبع بناءً على هذا الفرق ، وربّما يُحقّق بهذا غايته ؛ إذ إنّ أبواب البديع معدودة عنده كلّها محاسن جمالية ذات لغة أدبيّة ^(٣).

وإذا كان التعبير بالحقيقة يُحقّق غايةً ويعكس إحساساً بالصّدق فتبدو الصورة واضحة لا لبس فيها ، وحيّة تنبض ، ومشركة تلوح ، ثمّ لا أروع من التصوير أو التعبير بالحقيقة من القرآن الكريم ، فكيف هو والتعبير بالمجاز الذي هو أذهل للعقول ، وأذهب للأفئدة بروعته وخطورته ، وهو يجسّد الأفكار والعواطف ، فتستجيب له كلّ جارحة وجانحة !.

لذا فإنّ ابن أبي الإصبع يدرك الفرق بين التعبيرين ، ويغضّ الطّرف عن مجرّد الجمع بين لفظين متضادّين لا معنى لهما غير التضادّ أو التجاور والتقابل ؛ لأنّه بصدد الكشف عن سرّ هذا اللون البديعي خاصة في القرآن الكريم .

(١) بديع القرآن ، ص ٣١ .

(٢) وهو في هذه الجهة يوافق قدامة الذي عرّف التكافؤ - وهو الطباق عند الجمهور - بقوله : " هو أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمّه ، أو يتكلّم فيه بمعنى ما ، أي معنى كان ، فيأتي بمعنيين متكافئين " . ومثّل عليه بقول أبي الشغب العبسي :

حُلُو الشّمائل ، وهو مُرٌّ باسِلٌ يَحْمِي الذّمَارَ صَبِيحَةَ الإِرْهَاقِ

فقوله : (حلوّ) و(مرّ) : تكافؤ . نقد الشعر ، ص ١٤٣ .

وهو الشاهد الذي استشهد به ابن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحبير) ، ص ١١٢ .

(٣) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٦١٢ ، بتصرّف .

والتأمل لتحليل ابن أبي الإصبع لشواهد التكافؤ خاصة دون شواهد الطباق ، يتكشف له إلى أيّ تعبير تميل نفسية الرجل خاصة إذا ما احتوى الشاهد الواحد على أكثر من محسن بديعي ، فإنه ينكبُّ عليه ويترك لنفسه العنان للتعبير ؛ " لأنه يعدُّ أبواب البديع مقاييس جمالية ، فبقدر ما يكثر منها في القرآن تعلو نسبة الجمال ، ويسمو قدر البلاغة " ^(١) .

يقول في الشاهد الذي يُدلل به على الفرق بين الطباق والتكافؤ ، وكيف أنهما قد يجتمعان في شاهدٍ واحدٍ فيتضح الفرق ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ^(٢) .

يقول : " فهمود الأرض واهتزازها ضدّان ؛ لأنّ همود الأرض سكونٌ خاص ، والاهتزاز هاهنا حركة خاصة ، وهما مجازان ؛ والربو والإنبات ضدّان ، وهما حقيقتان . وإنما قلنا ذلك لأنّ الأرض تربو حالة نزول الماء عليها ، وهي لا تُنبِت في تلك الحالة ، فإذا انقطعت مادّة السماء وجفّ الهوائ رطوبة الماء حمّد الربو وعادت الأرضُ إلى حالها من الاستواء ، وتشقّقت وأنبتت . فصدر الآية تكافؤ ، وما قابله في عجزها طباق ، وفيها مع التكافؤ والطباق إرداف ، وهو ضربٌ من البديع ... " ، إلى أن يقول : " وقد جاء نظم هذه الآية مع ما تضمّن من التكافؤ والطباق والإرداف والائتلاف منعوتاً بالتهذيب ؛ لما فيه من حُسن الترتيب ، حيث تقدّم فيه لفظ الاهتزاز على لفظ الربو ، ولفظ الربو على الإنبات ؛ لأنّ الماء إذا نزل على الأرض فرّق أجزاءها ، ودخل في خلالها ، وتفريق أجزاء الجواهر الجمادية هو حركتها حالة تفرّق الاتصال ؛ لأنّ انقسام الجوهر يدلّ على انتقال قسميه أو أحدهما عن حيّزه ، ولا معنى للحركة إلا هذا ، فالاهتزاز يجب أن يُذكر عقيب السقي ، كما جاء الربو بعد الاهتزاز ، فإنّ التراب إذا دخله الماء ارتفع بالنسبة إلى حاله قبل ذلك ، وهذا هو الربو بعينه ... إلخ " ^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧١ .

(٢) سورة الحج : الآية (٥) .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٤ .

وإذا كان العلماء قبل ابن أبي الإصبع قد أشاروا إلى مخالفة قدامة الجمهور في تسمية التضاد بالتكافؤ ؛ فإن ابن أبي الإصبع هو أول من التمس الفرق بين الاثنين ، حتى قال ابن حجة الحموي : " لقد شفى زكي الدين ابن أبي الإصبع القلوب فيما قرّره ؛ فإنه قال : المطابقة ضربان ... [إلخ كلام ابن أبي الإصبع في مقدّمة باب الطباق] ^(١) ، ويقصد بذلك أنه فرق بينهما .

وإن كان الباقلاني قبله قد أحسّ بهذا الفرق عندما أفرد للتكافؤ باباً وقال : " ومن البديع باب : (التكافؤ) ، وذلك قريب من (المطابقة) ، كقول المنصور : لا تخرجوا من عزّ الطاعة إلى ذلّ المعصية " ^(٢) ، إلا أنه لم يفرّق فعلياً بينهما كما فرق ابن أبي الإصبع ، إلا من خلال الشواهد ، وهذا يعكس إحساس العدوانية بتمييز التكافؤ عن الطباق ، لذا كان له نصيبٌ من الاهتمام عنده ، " إلا أنه لا يبدو أنّ هناك مناسبة بين المفهوم اللغوي للتكافؤ والمفهوم الاصطلاحي الذي أطلقه عليه ابن أبي الإصبع ، ولكنها مجرد تسمية مُفرّقة بين التضادّ بألفاظ الحقيقة ، والتضادّ بألفاظ المجاز " ^(٣) ؛ ليميّز ما يُعدُّ ذا قيمة في الطباق ، وهو ما كان منه بألفاظ المجاز ، ويُشير بذلك إلى أهميته ، وأنّه هو الذي يكشف سرّ الطباق وسحره ، بل يوقظ في القارئ الحسّ بأنّ الطباق له غاية وقيمة وأثر في المعنى غير ما يفهمه العامة ، أو غير ما هو ظاهر .

وعند تأمل شواهد التكافؤ عند ابن أبي الإصبع ، كقوله تعالى : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَخِيْنَاهُ﴾ ^{(٤)(٥)} .

وقول ابن رشيق الذي استشهد به في كتابه (تحرير التحرير) :

(١) انظر : خزانة الأدب ، لابن حجة ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٢) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٩٧ .

(٣) من توجيهات الأستاذ المشرف .

(٤) سورة الأنعام : الآية (١٢٢) .

(٥) بديع القرآن ، ص ٣٢ .

وَقَدْ أَطْفَأُوا شَمْسَ النَّهَارِ وَأَوْقَدُوا نَجُومَ الْعَوَالِي فِي سَمَاءٍ عَجَاجٍ^(١)

يجدها المتتبع أنها هي عينها التي استشهد بها الخطيب على الطباق ؛ إذ جاء الأول من الطباق الذي هو بلفظين من نوعين ، وقد فسر الشراح النوعين - أي بين اسم وفعل ، أو حرف وفعل ، أو اسم وحرف - وهي أقسام ثلاثة تتضاعف باعتبار التقدم والتأخر ، وعلى هذا تقتضي القسمة أن تكون ستة أقسام ، بيد أن الخطيب استشهد على نوع واحد^(٢) .

والشاهد الثاني عدّه الخطيب من لطيف الطباق ، ولعلّ كونه كذلك لأنه خرج مخرج الاستعارة ، وعند ابن أبي الإصبع هو هذا التكافؤ ؛ إذ يقول : " وعلى هذا فلا بدّ أن يأتي في الكلام المتضمّن التكافؤ استعارة ، فإن لم تكن فيه استعارة فلا تكافؤ "^(٣) .

والحقّ القزويني بالطباق ما سمّاه بـ(إيهام التضادّ) ، ومثّل عليه بقول دعبل :

لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى^(٤)

" فـ(الضحك) هنا من جهة المعنى ليس بضدّ (البكاء) ؛ لأنه كناية عن كثرة الشيب ، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة "^(٥) .

(١) تحرير التحرير ، ص ١١٢ .

(٢) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ، والمطول ، ص ٦٤١ . ولعلّه هو أحد الأقسام الممكنة والموجودة في القرآن الكريم كما أشار السبكي . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣١ . وجاء فيه (ص ٣٣٠) : " أنّ ورود اللفظين إما من نوع واحد أو نوعين هو رأي الجمهور ، بينما نقل المطرزي وصاحب المعيار أنّه لا بدّ في الطباق من مراعاة التقابل ، فلا يجيء اسم مع فعل ، ولا فعل مع اسم " .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٢ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١١ ، وعرفه الصعيدي بقوله : " هو أن يجمع بين معنيين غير متقابلين عبّر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان " . انظر : الهامش (١) .

وعلّل الخطيب التسمية في كتابه (التلخيص) ص ١٧٦ بقوله : " لأنّ المعنيين قد ذكرا بلفظين يوهمان التضادّ نظراً إلى الظاهر " .

(٥) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، والحقّ أنّ ما استشهد به الخطيب على الطباق ، وعدّه من خفيه ،

فأحد طرفي الطباق هنا مجاز ، والآخر حقيقة ، وعلى هذا فإنه يلتقي هنا مع ما قصده ابن أبي الإصبع من التكافؤ ، وإن لم يمثل ابن أبي الإصبع للتكافؤ بهذا البيت ، إلا أنه عدّه مما اجتمع فيه التكافؤ والطباق ؛ إذ قال : " وهذا البيت - مع سهولة سبكه ، وخفة ألفاظه ، وكثرة الماء في جملته - قد جمع بين لفظي التكافؤ والطباق معاً ؛ لأنّ ضحك المشيب مجاز ، وبكاء الشاعر حقيقة " (١) .

ومثل الخطيب على إيهام التضادّ أيضاً بقول أبي تمام :

مَا إِنْ تَرَى الْأَحْسَابَ بَيضاً وَضَحًا إِلَّا بَحِثْ تُرَى الْمَنَايَا سُودًا

فإنّه قابل بين لفظين مجازيين ظاهرهما التضادّ ، وهما : بياض الأحساب ، وسواد المنايا . فالأولى : استعارة لنقاء الأحساب من الدنس ، والثانية : كناية عن القتل في الحرب . وهو في هذا يلتقي أيضاً مع مقصد ابن أبي الإصبع من التكافؤ ، إلا أنّ الذي جعل ابن

وهو قول ابن رشيق :

وَقَدْ أَطْفَأُوا شَمْسَ النَّهَارِ وَأَوْقَدُوا نُجُومَ الْعَوَالِي فِي سَمَاءِ عَجَاجٍ

هو من قبيل إيهام التضادّ أيضاً ، فالمعنيان المجازيان (أطفأوا) و(أوقدوا) لا تقابل بينهما .

إذ المراد بالأول : إثارة الغبار حتى يغطي ضوء الشمس .

والمراد بالثاني : إشهار السيوف وتشريع الرماح .

إنّما التقابل بين المعنيين الحقيقيّين لكلّ من الإطفاء والإيقاد . انظر : علم البديع ، د. بسيوني

فيود ، ص ١٤٩ .

(١) انظر : تحرير التحرير ، ص ١١٣ ، وذكر (د. حفي شرف) أنّه ورد في إحدى نسخ الكتاب عبارة تخالف

ما ورد فيه لفظاً لا معنى ، وهذا نصّها : " وهذا البيت قد استشهد به على المطابقة ، وهو لا مطابقة محضة ، ولا تكافؤ بحت ؛ لأنّ ضحك المشيب مجاز ، وبكاء الشاعر حقيقة ، والمطابقة لا مجاز فيها ، والتكافؤ لا حقيقة فيه " .

ويبدو أنّ هذه العبارة التي ذكرها الدكتور حفي شرف بهذا اللفظ تتفق مع ما ذهب إليه ابن أبي الإصبع ، وهو بهذا يقترب من الخطيب القزويني في أنّ هذا من إيهام التضادّ ؛ إذ لا تكافؤ ولا مطابقة . والله أعلم .

أبي الإصبع يعدُّ هذا داخلاً في الطباق وإن كان له خصوصية - إذ قال : " الطباق على ضربين : حقيقي ، ومجازي ، وكلٌّ من الضربين على قسمين : لفظي ، ومعنوي ، فما كان منه بألفاظ الحقيقة ... إلخ " ^(١) - هو أنَّ اللفظين المجازيين لو ظهر معناهما الحقيقي ، فإنَّ الطباق باقٍ ، والتضادَّ بينهما قائم .

والذي جعل الخطيب القزويني يعدُّ إيهام التضادَّ ملحقاً بالطباق ، وإن التقى مع ابن أبي الإصبع في كون أحد اللفظين أو كليهما مجازاً ، هو أنَّ اللفظين المجازيين لو ظهر المعنى الحقيقي لأحدهما انتفى الطباق وارتفع التضادَّ بينهما ^(٢) ، وذلك فيما استشهد به مما سبق .
لذا يكاد يتفق الخطيب مع ابن أبي الإصبع فيما استشهد به من شواهد التكافؤ ، وعده من الطباق ، وليس من الملحق به ^(٣) .

طباق السلب وطباق الإيجاب :

التقى الرجلان فيما ذكره عن طباق السلب والإيجاب ، إلا أنَّه نظراً لاختلاف الاتجاه عندهما اختلفا في التناول ، فإنَّ الخطيب القزويني عرّف طباق السلب بقوله : " وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي " ^(٤) ، ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْلَمُونَ ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿ ^(٥) .

(١) بديع القرآن ، ص ٣١ .

(٢) من توجيهات الأستاذ المشرف .

(٣) ومن المهمّ هنا الإشارة إلى ما قاله ابن معصوم : " والطباق المجازي ما كان بألفاظ المجاز ، كذا قالوا ، والذي أراه أنَّه يشترط فيه أن يكون المعنيان المجازيان متقابلين أيضاً ، وإلا دخل فيه إيهام الطباق - وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين - عبّر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان ، وقد جعلوه نوعاً آخر غير المجازي " . وقال في مكانٍ آخر : " إنَّ المجازي خصّه البعض باسم التكافؤ " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٣٣ ، ٣٧ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧ . " إلا أنَّه قد أخذ عليه أنَّه حصر طباق السلب في الأفعال دون الأسماء " .

انظر : علم البديع ، د. بسيوني فيود ، ص ١٤٦ .

(٥) سورة الروم : الآيتان (٦-٧) .

وكان ما استشهد به على هذا القسم يعكس ما تميّز به الخطيب القزويني أيضاً من الحسّ الأدبي بعيداً عن جفاف التقسيم والتحديد ، كقول البحري :

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ النَّوَى وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ
وهو من شواهد الخطيب الجميلة على طباق السلب^(١).

وقد ترك تعريف طباق الإيجاب ، ولعله كان واضحاً ، لذا اكتفى بقوله : " كما تقدّم " ، أو لأنه أتى على تعريفه في كتابه (التلخيص)^(٢).

بينما كان اهتمام ابن أبي الإصبع بالشواهد القرآنية ، وما احتوت عليه من إعجاز ، والوقوف عندها هي شغله الشاغل الذي صرفه عن التعريف ، إلا أنه على العكس من الخطيب القزويني ؛ إذ أخذ طباق الإيجاب عنده النصيب الأكبر من الاهتمام ، وكان له شواهد الخاصة التي استوقفته عندها ؛ إذ جاء في كتابه (بديع القرآن) : " والقسم الثاني من الطباق : وهو طباق الإيجاب ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾^(٣) . وعلق قائلاً : " فانظر إلى فضل هذا الطباق كيف جمع إلى الطباق البليغ التسجيع الفصيح ؛ لمحيء المناسبة التامة في فواصل الآي " ^(٤).

(١) عدّ ابن رشيّق هذا الشاهد مما اختلط فيه التحنيس بالمطابق ، وقال : " فهذا مجانس في ظاهره ، مطابق في باطنه ؛ لأنّ قوله : " لا أعلم " كقوله : " أجهل " ... وقد جاء في القرآن : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٦ . وهو ما لم يُشِرْ إليه الخطيب القزويني ، ولعله يدخل ضمن الطباق المعنوي الذي أشار إليه ابن أبي الإصبع كما سيأتي .

(٢) جاء في كتابه قوله : " وهو ما لم يختلف فيه الضدّان إيجاباً وسلباً " . انظر : التلخيص ، ص ١٧٦ .

(٣) سورة النجم : الآيات (٤٣-٤٥) .

(٤) وجاء في تحرير التعبير قوله : " فانظروا إلى فضل هذه العبارة ، كيف أتت المناسبة " . انظر : تحرير التعبير ، ص ١١٢ . مستتيراً في هذا بقول لأبي هلال العسكري حول نفس الآية : " وهذا من المطابقة التي لا تجد في كلام الخلق مثلها حسناً ولا شدة اختصاراً على كثرة المطابقة في الكلام " . انظر : الصناعتين ، ص ٢٦٦ .

ومثل على طباق السلب بقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾^(١) ،
وبقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ﴾^(٢) .

وهي شواهد تستدعي التأمل .

بل إن ابن أبي الإصبع عقد باباً خاصاً سمّاه : (السلب والإيجاب) ، وفسّره تفسيراً أدبياً
رائقاً ؛ إذ يقول : " وهو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة ، وإيجابه من جهة أخرى ،
أو أمر بشيء من جهة ، ونهي عنه من غير تلك الجهة " ^(٣) .

والخطيب القزويني لا يهمل الوقوف عند بعض الشواهد إن احتاج الأمر إلى هذا ، فقد
نقل عن بعضهم ما استشهد به على طباق السلب ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا
أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٤) .

" أي : لا يعصون الله في الحال ، ويفعلون ما يؤمرون في المستقبل " ^(٥) . فعلق على
تفسيرهم هذا قائلاً : " وفيه نظر ؛ لأنّ العصيان يُضادّ فعل المأمور به ، فكيف يكون الجمع
بين نفيه وفعل المأمور به تضاداً ؟ " ^(٦) .

(١) سورة المائدة : الآية (١١٦) .

(٢) سورة الأعراف : الآية (١٤٦) .

(٣) انظر : بديع القرآن ، ص ١١٦ . وهو متأثر في تفسيره هذا بأبي هلال العسكري في تفسيره لباب
(في السلب والإيجاب) . انظر : الصناعتين ، ص ٤٢١ . وهو بهذا يكون قد تكلم عن السلب والإيجاب
فيما أخذه عن السابقين ، وفيما عرّفه في (تحرير التحرير) بنفي الشيء وإيجابه ، وهذا نوعٌ مزيدٌ في البديع ،
وهو من الاضطراب الذي وقع فيه ابن أبي الإصبع ، كما ذكر د. حفي شرف . انظر : مقدّمة تحقيقه
لبديع القرآن ، ص ٩٣ .

(٤) سورة التحريم : الآية (٦) .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨ .

ووافقه في هذا النظر عصام الدين ابن عربشاه صاحب (الأطول)^(١).

وخالفه السبكي في (عروس الأفراح) وقال : " لا يعنون بالطباق أن يكون مضمون الكلامين متضاداً ، بل يعنون أن يكون المذكوران لو جُرِّدا من النفي والإثبات كانا في أنفسهما متضادين ، فالتضاد هنا بين العصيان وفعل المأمور به . ألا ترى أن المصنف - أي القزويني - وغيره جعلوا من الطباق : ﴿ وَتَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾^(٢) ؟ . وإن كان (تحسبهم أيقاظاً) يفهم أنهم رقود ، فيوافق (وهم رقود) ولا تضاد ... إلخ "^(٣).

والحق أنها وجهات نظر كلها يمكن أن تقبل ، لذا لم يتطرق لها السعد بالرفض أو الرد^(٤) ؛ إذ إن مقصد الخطيب كما فسره الصعيدي هو : " أنه ليس فيه جمع بين فعلي مصدر واحد كما هو في طباق الإيجاب والسلب "^(٥).

وكان الخطيب - رحمه الله - مُحَقِّقاً في أن يستوقفه هذا الشاهد ، إلا أن لابن أبي الإصبع وقفة أطول عند هذا الشاهد ؛ إذ إنه يعي ما فيه من غموض وإبهام ، فجاء عنده تحت باب خاصّ عقده منفصلاً عن الطباق ، وهو : (باب السلب والإيجاب) الذي سبقت الإشارة إليه ، ولا شك أن لهذا غاية عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ إنه في معرض التحليل للشواهد القرآنية ، فيحق له أن يفرد أبواباً إذا ما استوقفته بلاغة القرآن الكريم ، بل قد أفرد له كتابه هذا كله لتمييز فيه بلاغته وبديعه ، ويسهل استخراج إعجازه ، وتقريب طرق إطنابه وإيجازه ، كما أشار هو في مقدمته^(٦).

قال عن هذا الشاهد : " ومن شواهد السلب والإيجاب أيضاً : قوله تعالى :

(١) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٢) سورة الكهف : الآية (١٨) .

(٣) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٢ .

(٤) انظر : المطول ، للسعد ، ص ٦٤٠ .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨ ، هامش (٤) .

(٦) انظر : مقدمة تحقيق بديع القرآن ، ص ٩١ .

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) . فإنه ﷻ سلبَ عن هؤلاء الموصوفين العصيان ، وأوجبَ لهم الطاعة .

فإن قيل : " على ظاهر هذه الآية إشكالٌ من جهة التداخل والتكرار ، فإن معنى عجزها داخلٌ في معنى صدرها ، فهو مكرّر ، وإن اختلف لفظه ، وهذا عيبٌ يتحاشى عنه نظم القرآن العزيز ، فإن من لا يعصي مُطيع " .

أجاب الإمام فخر الدين الخطيب عن ذلك بأن قال : " ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ في الحال ، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ في المستقبل " .

وكنْتُ قد أجبت عن الإشكال بجوابٍ قبل أن أسمع جواب الإمام فخر الدين ، فقلت : الوصف بالطاعة والعصيان على ثلاثة أقسام : تقول : زيدٌ لا يعصي ويُطيع ، ونقيضه : لا يطيع ويعصي ، والواسطة : لا يعصي ولا يطيع .. والأوّل وصفٌ أعلى ، والثاني وصفٌ أدنى ، والثالث وصفٌ متوسط . والحقّ سبحانه أراد - وهو أعلم - أن يصفَ هؤلاء الملائكة بالوصف الأعلى ، فلو اختصر ﷻ على قوله : ﴿لَا يَعْصُونَ﴾ احتمل أن يوصل بقولك : ولا يطيعون ، فلا يوفي ذلك بالمعنى المراد ، فإنّ المراد وصفهم بأعلى الأوصاف ، فوجبَ أن يقول : ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾ ، فتكتل الوصف ، والله أعلم^(٢) .

فتأمّل هذا البيان الشافي ، وهذا الوضوح المشرق ، وقِفْ عند قوله : (فتكتل الوصف) لتدرك حسّه الأدبي ، ثمّ قارِنْ بين وقفة الرجلين عند هذا الشاهد .

ودراسة ابن أبي الإصبع للقرآن الكريم تتطلّب منه هذا الوضوح ، بل إنّ الوضوح من خصائصه التي يصدقها هذا الشاهد وغيره من الشواهد كما سيأتي ، وهو هنا يزيل عن هذا الشاهد الإشكال البياني الذي قد يتوجه على التكرار والتداخل في الآية الكريمة^(٣) .

(١) سورة التحريم : الآية (٦) .

(٢) بديع القرآن ، ص ١١٦-١١٧ .

(٣) ملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٧٧ ، بتصرّف .

الطباق المرشح :

كِلَا الرجلين متَّفَقان على أَنَّ الطباق يكتسب جمالاً وبهاءً إذا ما أتى مرشحاً بنوع من البديع ، وهو ما سماه المحدثون : (الترشيح) أو (الطباق المرشح) .. ومثلاً على ذلك بقول الفرزدق :

لَعَنَ الْإِلَهَ بَنِي كُلَيْبٍ إِنَّهُمْ لَا يَغْدُرُونَ وَلَا يَفُونَ لَجَارِ
يَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نَهْيَقِ حِمَارِهِمْ وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ

فقال ابن أبي الإصبع : " غير أَنَّ هذين البيتين من أفضل شعر سمعته في هذا الباب ؛ لأنهما جمعا بين طباق السلب والإيجاب ، ووقع فيهما مع الطباق تكميل لم يقع مثله في باب التكميل " (١) .

وقال الخطيب : " وفي البيت الأول تكميل حسن ؛ إذ لو اقتصر على قوله : (لا يغدرون) لاحتمل الكلام ضرباً من المدح ؛ إذ تجنب الغدر قد يكون من عفة ، فقال : (ولا يفون) ؛ ليفيد أنه للعجز ، كما أَنَّ ترك الوفاء للثوم ، وحصل مع ذلك إيغال حسن " (٢) .

قال ابن أبي الإصبع : " وحصل في البيت مع الطباق والتكميل الدالّين على غاية الهجاء إيغال حسن ؛ لأنه لو اقتصر على قوله : (لا يغدرون ولا يفون) تم له القصد الذي أراده ، وحصل المعنى الذي قصده ؛ لكنه لما احتاج إلى القافية ليصير الكلام شعراً ، أفاد بها معنىً زائداً ، حيث قال : (لجَارِ) ؛ لأنَّ الغدر بالجَار أشدَّ قبحاً من الغدر بغيره " (٣) .

(١) تحرير التحرير ، ص ١١٢ . وقد سبقت الإشارة في كتابه (بديع القرآن) ما علّق به على قوله تعالى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ..﴾ الآية ، وكيف أنه جمع إلى الطباق البليغ التسجيع الفصيح . انظر : ص ٣٣ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦ .

والإيغال هو : " ختم الكلام - ثراً كان أو نظماً - بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها " . انظر : أنوار

الربيع ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

(٣) تحرير التحرير ، ص ١١٤ .

واستشهد ابن أبي الإصبع أيضاً في هذا المجال بقوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١).

وقال : " فجمعت هذه الآية الكريمة بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوي ، فالمقابلة جاءت من صدر قوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ ، فقابل الكراهية بالحُب ، والخير بالشر ، والطباق المعنوي في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ لأنّ تقدير المعنى فيه : والله يعلم وأنتم تجهلون^(٢) .

وإن كان الذي أكسب الطباق بهاءً وحُسناً فيما مثّل به هنا ليس لوناً بديعاً آخر بعيداً عنه ؛ إنما هي المقابلة التي من بابها قد تعاطفت وتآزرت ، فأكملت الحُسن .

" وليس معنى ذلك أنّ التضادّ أو المطابقة حينما تأتي من غير ترشيح تفقد قيمتها ، بل إنّ التضادّ هو الذي يكسبها قيمة ؛ لأنّه يؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة ، وهي كما قال الشاعر :

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِدِّ^(٣)

الطباق الخفي :

قد " يدقّ أمر الطباق ، فلا يُدرك إلا بعد تأمّل وفكر "^(٤).

(١) سورة البقرة : الآية (٢١٦) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٣٣ .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، للدكتور : أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م ، ص ٣٧١ .

وقد اختلف في نسبة هذا البيت ، فقليل : للعكوك ، أو دوقلة المنجي ، أو لأبي الشيص ، كما ورد في المعجم المفصّل في الأدب ، لمحمد التويني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م ، ص ٨٨٩ .

(٤) البديع من المعاني والألفاظ ، د. المطعني ، ص ١٣ .

وهو ما سَمَّاه الخطيب بالطباق الخفيّ ، ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾^(١) ، فقد " طابق بين (أُغْرِقُوا) و(أُدْخِلُوا نَاراً) " ^(٢) .

قال السعد شارحاً : " لأنّ إدخال النار يستلزم الإحراق المضادّ للإغراق " ^(٣) .

وكان لابن عربشاه شرح آخر ؛ إذ قال : " فإنّ (أُغْرِقُوا) و(أُدْخِلُوا) فعلان لا تضادّ بينهما ، وإنّما حصل التضادّ بجعل مفعوله (ناراً) " ^(٤) .

واستشهد الخطيب لهذا النوع أيضاً بقول أبي تمام :

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانَسُ قَنَا الْخَطِّ إِلَّا أَنْ تَلَكْ ذَوَابِلُ
" طابق بين (هاتا) و(تلك) " ^(٥) .

وعلق الصعيدي مفسّراً : " لأنّ (هاتا) اسم إشارة للقريب ، و(تلك) اسم إشارة للبعيد " ^(٦) .

أما ابن عربشاه ، فكما جاء التضادّ عنده من التصرّف في أحد اللفظين المتضادّين أو فيهما في الاستعمال في الآية الكريمة ، فـ " كذلك (هاتا) و(تلك) ليستا إلا اسم إشارة ،

(١) سورة نوح : الآية (٢٥) .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧ . قال أسامة بن منقذ : " إنّ هذا أخفى تطبيق في القرآن " . انظر : نقد الشعر ، ص ٣٦ . وعدّ ابن رشيق قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [سورة البقرة : الآية ١٧٩] من أملح الطباق وأخفاه . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٠ .

(٣) انظر : المطول ، ص ٦٤٣ . وقال السيوطي في الإتقان ، ص ٦٦٩ : " لأنّ الغرق من صفات الماء ، فكأنّه جمع بين الماء والنار " .

(٤) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧ ، هامش (٢) . وقال د. بسيوني فيود : " ويمكن أن يعدّ الطباق بين الحروف من الطباق الخفيّ ؛ لأنّ الحروف لا تظهر معانيها إلا بالاستعمال " . انظر : كتابه البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٤٣ .

فليس هناك متضادان ، إنما صارا متضادين لتصرفٍ فيهما بما جعل المشار إليه بها تارةً بعيداً
بعداً تاماً ، وتارةً بعيداً في الجملة لا بعداً تاماً ^(١) .

وكان الأجدد بالخطيب القزويني أن يلحق هذا النوع من الطباق بالملحق به ، كما
ذهب إلى ذلك الشراح ^(٢) ، خاصةً وأنه يفهم مما عدّه من الملحق أنه " الجمع بين معنيين يتعلّق
أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق مثل السببية واللزوم " ^(٣) .

فمثّل على القسم الأول من الملحق بالطباق بقوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ ﴾ ^{(٤)(٥)} .

وقال : " فَإِنَّ الرحمة مسبّبة عن اللين الذي هو ضدّ الشدّة " ^(٦) .

ومثّل عليه أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(٧) .

وقال : " فَإِنَّ ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون ، والعدول عن لفظ الحركة
إلى لفظ ابتغاء الفضل ؛ لأنّ الحركة ضربان : حركة لمصلحة ، وحركة لمفسدة ، والمراد
الأولى لا الثانية " ^(٨) .

(١) الأطول ، ص ٣٧٢ .

(٢) انظر : المطول ، ص ٦٤٢ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٣) المطول ، ص ٦٤٢ .

(٤) سورة الفتح : الآية (٢٩) .

(٥) من اللافت أنّ الخطيب ذكر هذا الشاهد من القسم الثاني في الملحق بالطباق ، وهو (إيهام التضاد) في
كتابه (التلخيص) ، ص ١٧٦ .

(٦) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٠ . وقد اعترض عليه السبكي بقوله : " وفيه نظر ؛ لأنّ الرحمة من الإنسان
ليست مسبّبة عن اللين ، بل هي نفس اللين ؛ لأنّها رقة القلب وانعطافه " . انظر : عروس الأفراح ،
ج ٣-٤ ، ص ٣٣٣ ، إلا أنّه يمكن القول : إنّ رقة القلب وانعطافه تستلزم الرحمة .

(٧) سورة القصص : الآية (٧٣) .

(٨) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠ .

وعلى هذا فإنّ ما استشهد به على الطبايق الخفيّ ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَغْرَقُوا
فَأَدْخِلُوا نَاراً ﴾ يدخل في هذا الشاهد الثاني ؛ لأنّ إدخال النار - كما ذكر السعد -
يستلزم الإحراق المضادّ للإغراق ، فبين المعنيين المجموعين تعلّق لزوم .

وجاء عند ابن أبي الإصبع نوعٌ من الطبايق يمكن أن يلحق به كما ألحق الشُّراح
الطبايق الخفيّ ، وهو الطبايق المعنوي ، وقد أشار إليه إشارةً يسيرةً في أول الباب ؛ إذ
قال : " الطبايق على ضربين : حقيقي ، ومجازي ، وكلّ من الضربين على قسمين :
لفظي ، ومعنوي " ^(١) .

ومثّل عليه من طبايق الإيجاب بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ^(٢) ، فقال : " فجمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين
الفعل والتّرك ؛ إذ وصفهم بالخشوع في الصلاة وترك الغلو " ^(٣) .

وإذا كان في هذا تكلف في بادئ الأمر ، إلا أنّ له موقعه من الاستحسان والصحة ، بل
يُصدّق غاية ابن أبي الإصبع التي هي سهولة استخراج مزايا التعبير القرآني وكشفه للناس .

يقول الزمخشري حول هذه الآية : " يعني أنّ بهم من الجِدِّ ما يشغلهم عن الهزل ، لما
وصفهم بالخشوع في الصلاة اتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والتّرك
الشاقّين على الأنفس ، اللّذين هما قاعدتنا بناء التكليف " ^(٤) .

ومثّل أيضاً بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا
تَزْدَادُ ﴾ ^(٥) ، " أي : ما تنقص " . ثمّ ذكر أنّ هذا كله من طبايق الإيجاب المعنوي .

(١) بديع القرآن ، ص ٣١ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان (٢-٣) .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٣ .

(٤) تفسير الكشاف ، لأبي القاسم الزمخشري ، تحقيق : خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ،

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ص ٧٠٣ ، وانظر : إرشاد العقل السليم ، لأبي السعود ، ج ٥ ، ص ٤٩ .

(٥) سورة الرعد : الآية (٨) .

ثمّ مثل عليه من طباق السّلب بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١).

وذكر أنّ تقدير المعنى فيه : والله يعلم وأنتم تجهلون ، وقد خصّ هذا النوع في كتابه (تحرير التحبير) بقوله : " وقد يقع في الطّباق ما هو معنويّ ، كقوله تعالى : ﴿ .. إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾^(٢) ، " معناه : (ربّنا يعلم إنّنا لصادقون) . والله أعلم "^(٣).

ورغم أنّ ابن أبي الإصبع اكتفى بذكر شواهد على هذا النوع من الطّباق ، إلا أنّ ابن معصوم عرفه بقوله : " هو مقابلة الشيء بضدّه في المعنى لا في اللفظ "^(٤).

وابن معصوم مسبوق بهذا التعريف ؛ إذ ورد عند ابن الأثير ، حيث قال موضحاً له بأسلوب أدبي معهود : " وأما المقابلة في المعنى دون اللفظ في الأضداد ، فمما جاء منه قول المقنع الكندي من شعراء الحماسة :

لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنَى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلِفْهُمْ رِفْدًا^(٥)

فقوله : (تتابع لي غنى) بمعنى قوله : (كثر مالي) ، فهو إذاً مقابلة من جهة المعنى ، لا من جهة اللفظ ؛ لأنّ حقيقة الأضداد اللفظية إنّما هي في المفردات من الألفاظ ، نحو : قام وقعد ، وحلّ وعقد ، وقلّ وكثر ، فإذا ترك المفرد من الألفاظ وتوصّل إلى مقابلته بلفظ مركّب ، كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، كقول هذا الشاعر : (تتابع لي غنى) في معنى (كثر مالي) ، وهذه مقابلة معنوية ، لا لفظية "^(٦).

فيمكن القول في الشاهد الأوّل من الطّباق المعنوي عند ابن أبي الإصبع أنّ قوله تعالى :

(١) سورة البقرة : الآية (٢١٦) .

(٢) سورة يس : الآيتان (١٥-١٦) .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١١٥ .

(٤) أنوار الربيع ، لابن معصوم المدني ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٥) الرد : العطاء والصلة .

(٦) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

﴿ .. إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾^(١) ، " يستلزم الصدق المضاد للكذب في قوله : ﴿ إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ، والمعنى : ربنا يعلم إنا لصادقون ، فقد جمع في الآية بين الكذب وبين ما يتعلق بمقابله ، وهو ﴿ .. إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾^(٢) .

وكذلك يمكن القول فيما استشهد به ابن الأثير والعلوي والسيوطي وابن معصوم على هذا النوع من الطباق ، وهو قول المقنع الكندي السابق^(٣) : " أن تتابع الغنى يستلزم كثرة المال المضادة لقوله : (قل مالي)^(٤) .

وبناءً على هذا فإنَّ الطباق المعنوي هو الطباق الخفي ، والذي ألحقه الشراح بالملحق بالطباق الذي هو " الجمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق مثل السببية واللزوم .. كما ذكر السعد وابن معصوم^(٥) .

ويُفهم من أضرب الطباق عند العلوي - أو التطبيق كما سمّاه - أنَّ هناك فرقاً بين النوعين ؛ إذ الطباق المعنوي هو من الضرب الثاني عنده ، وهو " مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دون لفظه "^(٦) . غير أنه مثل عليه بما مثل عليه الخطيب القزويني من الطباق الخفي ، وهو قول أبي تمام :

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنْ هَائَا أَوَّانِسُ قَنَا الْخَطِّ إِلَّا أَنْ تَلَكْ ذَوَابِلُ

ويُفهم من الضرب الثالث عنده - وهو مقابلة الشيء بما يخالفه من غير مضاده -^(٧) : أنَّ هذا

(١) سورة يس : الآية (١٦) .

(٢) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، د. بسيوني فيّود ، ص ١٤٢ .

(٣) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، وأنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، والإتقان ، للسيوطي ، ص ٦٦٨ ، والطراز ، للعلوي ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٤) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، د. بسيوني فيّود ، ص ١٤٢ .

(٥) انظر : المطول ، ص ٦٤٢ ، وأنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٦) الطراز ، للعلوي ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

(٧) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

هو الطباق الخفي ، إلا أنه مثل عليه بقوله تعالى : ﴿ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) .
وسبقت الإشارة إلى هذا الشاهد أنه من الملحق بالطباق عند الخطيب القزويني ، وليس من
الخفيّ عنده .

وقد ذكر السيوطي النوعين (الطباق الخفي ، والطباق المعنوي) ، ويفهم من هذا أن
هناك فرقاً ، إلا أنه وهو يُمثّلُ على الطباق الخفي قال : " وقال ابن المعتزّ : من أملح الطباق
وأخفاه : قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾^(٢) ؛ لأنّ معنى القصاص القتل ، فصار
القتلُ سببَ الحياة "^(٣) .

فكونه قال : " لأنّ معنى القصاص القتل " يعادل قوله : " معناه : (ربّنا يعلم إنّنا
لصادقون) "^(٤) .

وهو توضيح لقوله تعالى : ﴿ .. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴾^(٥) ، الذي استشهد به على الطباق المعنوي .

وإذا كان لابن أبي الإصبع أو للخطيب القزويني فضل التسمية لهذا النوع من الطباق
- وإن اختلفا فيما أطلقاه عليه - ، إلا أنّهما مسبوقان باكتشافه ؛ إذ إنّ له جذوره عند
الأقدمين ؛ إذ ورد عند قدامة قول الفرزدق :

(١) سورة الفتح : الآية (٢٩) .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٧٩) .

(٣) الإتيان ، ص ٦٦٩ . وقد ورد هذا الشاهد عند ابن المعتزّ في كتابه (البديع) ص ١٢٤ ، إلا أنّ الذي قال :
إنّه " من أملح الطباق وأخفاه " هو ابن رشيق ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك . انظر : العمدة ، ج ١ ،
ص ٥٨٠ ، ويبدو أنّ السيوطي - رحمه الله - قد التبس عليه ، إلا أنه وهو يوضّح معنى الآية المشار إليها
كان أبلغ من ابن رشيق ؛ إذ قال : " لأنّ معنى القصاص القتل " ، بينما قال ابن رشيق : " لأنّ معناه :
(القتل أنفى للقتل) " . وهناك فرق واضح ؛ إذ شتان بين البلاغة القرآنية وما ترمي إليه من معانٍ ، وبين
كلام العرب وإن كان بليغاً .

(٤) الإتيان ، ص ٦٦٩ .

(٥) سورة يس : الآيتان (١٥-١٦) .

لَعَمْرِي لَنْ قَلَّ الْحَصَى فِي رِجَالِكُمْ بَنِي تَهْشَلِ مَا لَوْكُمْ بِقَلِيلٍ^(١)

فمعنى قوله : (ما لؤمكم بقليل) يقابل قوله : (قلّ الحصى) من جهة الكثرة ، وهذا هو نوع الطباق الذي ورد باسمين مختلفين عند الخطيب والمصري .

وورد أيضاً عند أبي هلال العسكري هذا النوع ، غير أنه لم يُسمّه ، إنما قال : " وقد طابق جماعة من المتقدمين بالشيء وخلافه على التقريب ، لا على الحقيقة ، وذلك كقول الخطيئة :

وَأَخَذَتْ أَطْرَارُ^(٢) الْكَلَامِ فَلَمْ تَدَعْ شَتْمًا يَضُرُّ وَلَا مَدِيحًا يَنْفَعُ

والهجاء ضدّ المديح ، فذكر الشتم على وجه التقريب . وهكذا قول الآخر :

يُجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانًا

فجعل ضدّ الظلم المغفرة^(٣) . وإلا " فالذي يضادّ الظلم هو العدل لا المغفرة ، ولكن لما كانت المغفرة تجاوزاً عن المجازاة ، والعدل مجازاة بالمثل ، كانت المغفرة قريبة من العدل ، فالجمع بينهما وبين الظلم جمع بين المعنى وما يتعلّق بمقابله ، فهو من الطباق الخفي^(٤) ، أو المعنوي .

قال ابن الأثير : " فقابلَ الظلم بالمغفرة ، وليس ضدّاً لها ، وإنما هو ضدّ العدل ، إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسّنت المقابلة بينها وبين الظلم .

(١) نقد الشعر ، لقدامة ، ص ١٤٥ . وقال : " فهذا ضربٌ من المكافأة من جهة السلب " ، وقد مثل ابن أبي الإصبع على طباق السلب المعنوي كما مرّ .

(٢) الطّرة - بالضم - : جانب الثوب الذي لا هدب له ، وشفير النهر والوادي ، وطرف كلّ شيء ، وحرّفه ، والناحية . القاموس ، ص ٥٥٣ ، مادة (طرّ) .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٢٤ . ولعلّ العلوي بنى الضرب الثالث من أضرب الطباق عنده على كلام أبي هلال ، وهو : المطابقة أو المقابلة بين الشيء وخلافه على التقريب ، لا على الحقيقة ، أي : على ما هو قريب من المضادة ، وليس كذلك .

(٤) علم البديع ، د . بسيوني فيود ، ص ١٤٣ ، وانظر تعليق العلوي على هذا الشاهد : ج ٢ ، ص ٢٠١ من كتابه (الطراز) .

وعلى هذا جاء قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾^(١) " (٢) .

أما ابن رشيق فإنّ هذا النوع جاء عنده تحت عناوين عدّة ، منها :

● قوله : " ومن أنواع الطباق قول هذبة بن خشرم :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي فِي الْحَدِيدِ فَإِنِّي قَتَلْتُ أَخَاكُمْ مُطْلَقاً لَمْ يَكْبَلِ

فقوله : (في الحديد) ضدّ قوله : (مطلقاً لم يكبل) ، وإن لم يأت على متعارف المضادة " (٣) .

وهذا من الطباق المعنوي ، " فإنّ معناه : فإن تقتلوني مقيّداً ، وهو ضدّ المطلق ، فطابق بينهما في المعنى " (٤) .

● وقوله : " ومما يغلط فيه الناس كثيراً في هذا الباب : الجمال والقبح ، كقول بعض المحدثين :

وَجْهُهُ غَايَةُ الْجَمَالِ وَلَكِنْ فَعَلَهُ غَايَةُ لِكُلِّ قَبِيحٍ

وليس ضدّه ، وإنّما ضدّه الدّمامة ، والقبح ضدّه الحُسن " (٥) .

(١) سورة الفتح : الآية (٢٩) .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ . واستشهاده بهذه الآية التي استشهد بها الخطيب على الملحق بالطباق يؤكد على أنّ هذا الطباق الخفي ملحق بالطباق ، وإن كان يفهم من كلام ابن الأثير أنّه فرّق بين الطباق الخفي والمعنوي ؛ إذ الأول جاء ضمن المقابلة عنده في المعنى دون اللفظ بغير الأضداد ، والثاني جاء ضمن المقابلة في المعنى دون اللفظ في الأضداد ، وهذه التفرقة تجعل النوعين ضمن نوع واحد ما دامت كلّها في المعنى دون اللفظ ، وكلّها إذن بتأوّل .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٢ .

(٤) معجم المصطلحات ، ص ٣٧٠ .

(٥) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٥ .

وهذا من الطباق الخفي ، " فَإِنَّ ضِدَّ الجمال الدمامة ، لكنها لما كانت تستلزم القبح ،
طابقَ بينه وبين الجمال " (١) .

● واستشهد بما استشهد به قدامة (٢) ، وهو قول الفرزدق :

لَعَمْرِي لَنْ قَلَّ الْحَصَى فِي عَدِيدِكُمْ بَنِي تَهْشَلِ مَا لَوْكُمْ بِقَلِيلِ

وجاء عنده في باب (ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة) ، وقال معلقاً على بيت
الفرزدق : " فَإِنَّ ظاهره تجنيس بالقلة ، وباطنه تطبيق بالكثرة ؛ إذ كان معنى :
(قلَّ الحصى في عديدكم) أنكم كثرة ، ومعنى (ما لؤمكم بقليل) : أنه كثيرٌ
أيضاً ، فخالَفَ الأول " (٣) .

والحقَّ أنَّ هذا الاختلاط بالتجنيس عنده لم يلتفت إليه أحدٌ قبله ولا بعده ؛ إذ لم يُشر
إليه ابن أبي الإصبع ، ولا الخطيب القزويني ، أو قدامة وأبو هلال العسكري قبلهما ،
أو السيوطي والعلوي بعدهما ، وإن اشتركا في الشواهد التي استشهد بها ابن رشيق على هذا
الباب من مثل قول البحرزي :

يُقَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ الْهَوَى وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

(١) أنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٤٣-٤٤ . وقد أشار ابن رشيق إلى الطباق الخفي قبل أن يذكر البيت السابق ؛
إذ قال معلقاً على بيت للسيد أبي الحسن ، وهو :

أَلَا لَيْتَ أَيَّاماً مَضَى لِي نَعِيمُهَا تَكَرَّرْ عَلَيْنَا بِالْوَصَالِ فَنَنعَمُ

قال : " وأتى في البيت الأول من قوله : (مضى) و(تكرَّر) بأخفى مطابقة ، وأطرف صنعة " . انظر :
العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٥ .

(٢) انظر : نقد الشعر ، ص ١٤٥ .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٦ . وسبقت الإشارة إلى هذا الشاهد على أنه من الطباق المعنوي أو الخفي .

(٤) سورة الزمر : الآية (٩) .

ثمَّ إنّ كثيراً من شواهد هذا الباب عند ابن رشيق يدخل في الملحق بالطباق الذي هو الطباق الخفي أو المعنوي - كما اتضح - ، وإيهام التضادّ من مثل قول الشاعر :

لَعَمْرِي لَنْ طَالَ الْفُضَيْلُ بِنُ دَيْسَمٍ مَعَ الظِّلِّ ، مَا إِنَّ رَأْيَهُ بِطَوِيلٍ
" كأنه قال : إنّ رأيه قصير " (١) .

أما القاضي الجرجاني فقد وقف من هذا النوع من الطباق موقفاً وسطاً يعكس ما اشتهر به من القضاء ، والحكمة ، ونفاذ البصيرة ، والنقد الذي يصيب مفصل المطبق ؛ إذ قال : " وقد يخلط من يقصر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه ، كقول كعب ابن سعد :

لَقَدْ كَانَ : أَمَّا حِلْمُهُ فَمُرَّوحٌ عَلَيْنَا وَأَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبٌ

لما رأى (الحلم والجهل) ، و(مروحاً وعزيباً) جعلهما في هذه الجملة . ولو ألحقنا ذلك بها - أي بالمطابقة - لوجب أن نلحق أكثر أصناف التقسيم ، ولا تسع الخرق فيه حتى يستغرق أكثر الشعر " (٢) .

ونقل ابن رشيق كلمته وقال : " وأما قولنا : إنّ الكلمتين غير متضادتين فظاهر ؛ لأنّ الحلم ليس ضده في الحقيقة الجهل ، وإنّما ضده السّفه والطيش ، وضدّ الجهل العلم والمعرفة وما شاكلهما ، وكذلك المروّح ، ليس ضدّ العزيب ، وإنّما ضده المغدوُّ به ، أو المبكّر به وما أشبههما . ولما ثقل وزن (المروّح) من هاتين اللفظتين وقلّ استعماله ، تسمّحتُ فيهما . وأمّا العزيب فهو البعيد والغائب ، ولا مضادةً بينه وبين المروّح إلا بعيدة ، كأنه يقول :

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٦ .

(٢) الوساطة ، ص ٤٥ .

ومعنى : (مروّح علينا) : قريب منّا ، و(العزيب) : البعيد . وقوله هذا يتفق مع ما ذهب إليه من أنّ المطابقة شعب خفية ، ومكان تغمض ، وربّما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف ... انظر : ص ٤٤ من كتابه .

إنّ هذا لدقته ، وذلك بعيدٌ خفيّ لا يأتي ولا يُعرف ^(١) .

فإذن لم يكن للخطيب القزويني وابن أبي الإصبع العدواني سوى البراعة في إطلاق اسمٍ مناسبٍ لهذا النوع من الطباقي ، فأطلق عليه ابن أبي الإصبع الطباقي المعنوي ، وأطلق عليه الخطيب القزويني الطباقي الخفي ، وكلاهما أصاب كيد المعنى الحقيقي لهذا النوع ، وعبر عنه بما هو أَلصَقُ به ، وشفَى القلوبَ بهذه التسمية ، وإن كانت تسمية الخطيب ألطف وأليق ؛ لأنّه طباقي خفي لا يُفطن إلى التضادّ فيه إلا بفضل تأملٍ وفضل تبصُّرٍ بمعاني اللغة ، لذا استشهد عليه بقول أبي علي الفارسي ^(٢) في كتابه (الحجّة) : " لما كان البناء رفعاً للمبنى قوبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء ، ومن ثمّ وقع البناء على ما فيه ارتفاع في نصيبه إن لم يكن مدداً " ^(٣) .

وهو تعليقٌ منه على قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ ^(٤) .

أمّا ما ذهب إليه العلماء من ذمّ قول أبي الطيب المتنبّي في هذا الباب - وهو ما ذهب إليه الخطيب أيضاً - :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَرُدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمٍ

فذلك لما بين المتقابلين من بُعدٍ كبير ؛ إذ ليس المحبّ ضدّ المجرم ؛ إنّما ضده المبغض ، فاتَّفَقوا على أنّ طباقي المتنبّي بين المحبّ والمجرم فاسد ، وليس كلّ من أجرم إليك كان مُبْغِضاً

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٢ .

(٢) إمام النحو ، أبو علي ، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الفسّوي ، صاحب التصانيف الكثيرة النافعة ، أشهرها : (الحجّة) في علل القراءات ، و(الإيضاح) و(النكتة) . من تلامذته : أبو الفتح ابن جني ، عاش (٨٩) سنة ، ومات ببغداد سنة (٣٧٧هـ) في ربيع الأول . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٦ ، ص ٣٧٩ .

(٣) البرهان ، ج ٣ ، ص ٥٠٢ ، وانظر : الإتيان ، ص ٦٦٩ ، وأنوار الربيع ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

والفارسيّ شيخ ابن جني في اللغة والنحو ..

(٤) سورة البقرة : الآية (٢٢) .

لك . فابن أبي الإصبع لم يتطرق إلى هذا الشاهد بحكم خصوصية كتابه (بديع القرآن) ، أمّا الخطيب القزويني فإنه مع ذمّه ذكر أنّه ربما يكون له وجهٌ بعيد ، وهو : " أنّ بين الإجماع والبغض تلازماً ادّعائياً ، كأنّه يشير إلى أنّ المجرم لا يكون إلا مُبغضاً له ؛ لمنافاة حاله لحاله " (١) .

وقال ابن معصوم من وجهٍ آخر : " وأمّا طباقه بين السرور والإساءة ، فقد يُقال إنّهُ من الملحق بالطباق ؛ لأنّ مَنْ أحسنَ إلى شخصٍ فقد سرّه . وفساد المطابقة أمرٌ محذور " (٢) .

وتفرّد ابن أبي الإصبع بذكر نوعٍ من أنواع الطباق لم يذكره الخطيب القزويني ، سمّاه : (طباق الترديد) ، وهو ما لم يذكره أحدٌ قبله ولا بعده حسب علمي القاصر ، وتسميةٌ لم ترد ، وهو في هذا التفرّد يلتقي مع أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) في ابتكاراته ، إمّا في وضع مصطلحات لم ترد عند أحدٍ غيره ، أو أن يُغيّر ما اصطُلح عليه من أسماء .

وعرّف ابن أبي الإصبع هذا اللون من الطباق بقوله : " أن يُردّ آخر الكلام المطابق على أوّله ، فإن لم يكن مطابقاً فهو ردّ الأعجاز على الصّدور " (٣) .

ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وهذا من أمثلة الموجب منه ؛ إذ هو عنده على ضريّين : سلب وإيجاب (٥) .

وابن أبي الإصبع على غير عادته لم يحلّل هذا الشاهد ، لكنّ موضعه هو قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فهذا هو الكلام المطابق ؛ إذ ردّ آخره - وهو قوله : ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ - على أوّله - وهو قوله : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ، على تقدير : والله يعلم وأنتم تجهلون ؛ إذ لولا مطابقة الإيجاب هذه بالتقدير لكان هذا الشاهد من باب ردّ الأعجاز على الصّدور .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٠ ، هامش (٥) .

(٢) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ٢ ، ص ٤٣-٤٤ .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية (٢١٦) .

(٥) انظر : بديع القرآن ، ص ٣٣ .

وابن أبي الإصبع هنا يُريد أن يُعطي هذا النوع من الطباق - الذي جاء على هذه الصفة - خصوصية ، وإلا فإنه بناءً على كلامه فإن أيّ طباق يمكن رده للتصدير ما دام أنه قد وقع أحد المعنيين المتقابلين في الأول ، والثاني في الآخر ، فيردّ هذا على ذاك ، مثل :

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَشْتُمُ عَرَضَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيعٍ

وهو في هذا كالترديد والجناس والمطابقة ، والذي جعله " داخلاً في هذه الألوان كلّها أنه يكون بلفظين متماثلين غير مقيدتين بكونهما مكرّرين لفظاً ومعنى كالترديد ، أو لفظاً لا معنى كالتجنيس ، أو أحدهما مثبتاً والآخر منفيّاً كما في الطباق ، فصار التصدير حراً يتحوّل بين هذه الفنون على أن يكون أحد اللفظين في العجز ، والآخر في الصدر " (١) .

فيمكن أن يُعدّ هذا من مشاركة بعض الألوان ببعض ، لذلك فهو يلتقي مع التصدير فيما سبقت الإشارة إليه ، ويختلط بالتجنيس كما أشار ابن رشيق من قبل ، وبالترديد كما عند ابن أبي الإصبع .. وقد يدخل هذا ضمن ترشيح الطباق .

ويظهر أنّ ابن أبي الإصبع هنا قد وسّع من مفهوم التّرديد ، وأدخل فيه الطباق ؛ إذ التّرديد هو : " أن يعلّق المتكلّم لفظه من الكلام (بمعنى) ثمّ يردّها بعينها ، ويعلّقها بمعنى آخر " (٢) .

فالمتفق عليه في التّرديد أن يكون بين أمرين مثبتتين أو منفيّتين ظاهريّين من غير تقدير لأجل التّرديد ، مثل قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (٣) .

فجاء ابن أبي الإصبع واستخدم هذا المصطلح في مفهوم زائد على ما أطلق .

فظاهر اللفظ في المثال الذي ذكره - وهو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ -

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٣٣ .

(٢) البرهان ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية (١٠٨) .

فيه شبه ترديد ؛ لأنه بين (لا يعلمون) و(يعلم) ، الذي هو طباق السلب المعروف . وابن أبي الإصبع لم يلتفت إلى طباق السلب هذا في هذه الآية ؛ إنما هو عدّ هذا الشاهد من طباق الترديد الموجب أو الإيجاب .

فإذن ظاهره كما سبق - شبه ترديد ، طباق سلب - ، وباطنه طباق إيجاب على تقدير : (تجهلون) ، لذلك جاء في آخر حديثه عن الطباق ، وأشار أنّ هذا من الطباق المعنوي^(١) .

فكأنّ الشاهد ظاهره طباق سلب لفظي لم يلتفت إليه ، وإنّما ذكر أنّه طباق سلب معنوي فيما بعد ، وباطنه طباق إيجابي معنوي ، ولتوسّعه في مفهوم الترديد سماه طباق ترديد .

وتوسّعه هذا جاء من طريقتين ، أو من جهتين :

الأول : أنّه جعل الترديد بين أمرين مختلفين : مثبت ومنفي ، وليس هذا من المتفق عليه في الترديد .

الثاني : أنّه جعله مرةً على تلك الصفة ، وهو ما يُعرف بطباق الترديد السليبي ، وهو ما لم يمثل عليه هنا ، ومرةً بين أمرين متماثلين ، لكن بطريق التأوّل ؛ لأجل الطباق الإيجابي ، وهو ما يُعرف عنده بطباق الترديد الإيجابي بعد تقديرٍ كما سبق ، وهو الذي استشهد به فقط على ما سماه : (طباق الترديد) .

ومن اللافت أنّ الخطيب القزويني مثّل بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿^(٢) ، على طباق السلب^(٣) . ومثّل به الزركشي على الترديد^(٤) .

فالسلب عند الخطيب بين ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (في آخر الآية) ، وبين ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾

(١) انظر : بديع القرآن ، ص ٣٤ .

(٢) سورة الروم : الآيتان (٦-٧) .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٤) البرهان ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(في أولها) ، والترديد عند الزركشي جاء من ترديد كلمة (يعلمون) معلقة مرةً بأمرٍ غيبي ، وأخرى معلقة بأمرٍ ظاهر ، إلا أنَّ الكلمة هي واحدة (يعلمون) .

ولعلَّ ابن أبي الإصبع التفتَ إلى هذه الآية قبلهما ، واستشهد بما يشبهها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فجمعَ بين الإطْلَاقَيْن ، وسماه : (طباق التّرديد) .

إلا أنَّه مع ذلك فالتوسّع ظاهر في مفهوم الترديد عنده كما تبين ، بل هو توسّع كبير ، بحيث يجعله على ضربين أيضاً فيما يخصّ الطباق .

" وكان حريّاً به أن يقف عند حدود الترديد التي اتفق عليها العلماء " ^(١) ، فلا يزيد أو يتعدّى فيدخل الطباق في الترديد ، ويدخل الترديد في الطباق ، فيفقد كلّ منهما خصوصيته وتميّزه شيئاً من بهائه ، فيلتبس ويختلط مع غيره .

وكان الأولى إذن أن يغضّ الطرف عن هذا الإطلاق المُلبس ؛ حتى لا يتّسع الخرق - كما ذكر الجرجاني - فيدخل في اللون الواحد ما ليس من جنسه .

الطباق المسمّى تدبيجاً :

التدبيج في اللغة : مأخوذ من " الدبج : النقش ، والديباج معرّب ، والمدبج : المرّينُ به " ^(٢) .

وجاء أيضاً أنَّ التدبيج مشتقٌّ من الديباج ، و" الديباج : ثوبٌ سداؤه ولحمته إبريسمٌ ، ويقال هو مُعرّب ، ثم كثر حتى اشتقت العرب منه ، فقالوا : (دبج) الغيثُ الأرضَ (دبجاً) - من باب (ضرب) - : إذا سقاها ، فأنبئت أزهاراً مختلفة ؛ لأنّه عندهم اسم للمنقّش ، واختلف في الياء ، فقليل زائدة ، ووزنه فيعال " ^(٣) .

ولهذا اختار البلاغيون تسمية هذا اللون البديعي بهذا الاسم ، فعرفه ابن أبي الإصبع

(١) من توجيهات الأستاذ المشرف .

(٢) القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، ص ٢٣٩ ، باب (الجيم) ، فصل (الدال) ، مادة (دبج) .

(٣) المصباح المنير ، ص ١٨٨ ، كتاب (الدال) ، مادة (دبج) .

- وهو أول من عرّفه - بقوله : " هو أن يذكر المتكلم ألواناً يقصد الكناية بها ، والتورية بذكرها عن أشياء من وصفٍ ، أو مدحٍ ، أو هجاءٍ ، أو نسيبٍ ، أو غير ذلك من الفنون ، أو لبيان فائدة الوصف بها " (١) .

قال ابن حجة : " هذا نوع التدييع من مستخرجات ابن أبي الإصبع " (٢) .

وعده ابن أبي الإصبع نفسه من أبوابه التي استنبطها ، وضروبه التي استخرجها (٣) .

وبالتقصي لهذا اللون البديعي ، فإن ابن رشيق كان قد التفت إلى هذا التدييع واقترّب منه ، لكن لم يقع على مصطلح مناسب ؛ إذ يقول : " والناسُ متفقون على أنّ جميع المخلوقات : مخالفٌ ، وموافق ، ومُضادٌّ ، فمتى وقع الخلاف في باب المطابقة ، فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة . وأنشد غير واحدٍ من العلماء لحسين بن مطير :

بَسُودٌ نَوَاصِيهَا ، وَحُمْرٌ أَكْفُهَا وَصَفَرٌ تَرَاقِيهَا ، وَبَيْضٌ خُدُودُهَا (٤)

ثم جاء ابن سنان والنقط هذه الإشارة من ابن رشيق ، وهي المخالفة ، وسَمَّى هذا النوع بالمُخالف ؛ إذ قال : " فأما المخالف - وهو الذي يقرب من التضاد - فكقول أبي تمام :

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خَضَرُ (٥)

(١) بديع القرآن ، ص ٢٤٢ .

(٢) خزانة الأدب ، لابن حجة ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ .

(٣) انظر : مقدّمة كتابه (تحرير التحبير) ، ص ٩٤ .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٤ .

(التراقي) : جمع ترْقوة - ولا تُضَمّ تاؤه - : وهو العظيم بين ثَغرة النحر والعاتق .

(٥) السندس : ضربٌ من رقيق الديباج . قال الفيروزآبادي : مُعَرَّبٌ بلا خلاف . ومنع جماعة القول

بوقوع المعرّب في القرآن ، وقالوا : هو من توافق اللغات . انظر : القاموس المحيط ، باب (السين) ،

فصل (السين) ، ص ٧١٠ .

فإنّ (الحمر والخضر) من المخالف ، وبعض الناس يجعل هذا من المطابق . وكذلك قول عمرو بن كلثوم :

بِأَنَّا نُوْرِدُ الرِّايَاتِ بِيضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوِينَا^(١)

لكن يظهر على كلّ حال - والله أعلم - أنّ ابن سنان وابن رشيق لم يقصّدا الألوان قصداً ، وإنّما هو بمثل ما هو متضاد^(٢) .

إلا أنّه يظلّ لابن أبي الإصبع الفضيلة في تسمية هذا اللون بالتدييج ، وهي لائحة به ؛ إذ التمس ابن أبي الإصبع أنّ هذا اللون البديعي يقترب في أمثلته من المعنى اللغوي للتدييج ، الذي هو مشتقّ من الدياج ، وكأنّ شواهد أرض مذبّجة بتلك الألوان المورّى أو المكنّى بها عن معانٍ ، والتي هي بعضها ألوان زهور .

وله الفضيلة أيضاً في تفسير هذا اللون البديعي تفسيراً أدبياً كما جاء ، وكأنّه " يقصد أولاً وبالذات : استخدام اللون في أسلوب كناية أو تورية ؛ للتعبير عن معنى من معاني الأدب ، فهو باب غارق في الفنّية ، أصيل كلّ الأصالة ، نفتقده في كتب من سبقه من بلاغيين " ^(٣) .

أما الخطيب القزويني فإنّه تحدّث عنه وعدّه من الطباق ، وقدم له بمثالين ، أحدهما قول أبي تمام السابق ، لكنّه قال : " ومن الناس من سمّى نحو ما ذكرناه تدييجاً ، وفسّره بأن يُذكر في معنى من المدح أو غيره ألواناً بقصد الكناية أو التورية " ^(٤) .

ولم يزد على هذا التحديد أو الإيجاز بشيء سوى ما مثل به دون تحليل ، بل لم يزد عليها بأمثلة أخرى ، غير التي وردت عند غيره ، وكان يمكن أن يقول موضحاً في بيت أبي تمام ، الذي استشهد به هو :

(١) سرّ الفصاحة ، ص ٢٠٤ .

(٢) ملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٣٧ ، بتصرّف .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣٧ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩ ، وهو هنا كما يظهر ناقداً لابن أبي الإصبع ، فهو الذي عرفه بهذه الصورة التي ذكرها .

تَرَدَّى ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُندُسٍ خُضْرُ

أنّ التدبيج كما يرد على وجه المدح هنا ، وهو كناية عن حال القتال بالثياب الحمر من الدماء ، وكناية عن دخول الجنة بالثياب الخضر ، فقابل بين اللونين : الأحمر ، والأخضر ، يمكن أن يرد أيضاً على وجه الذم ، كقول الحريري : " فمُذْ أزوَرَّ المحبُوبَ الأصفر ، واغبرَّ العيشَ الأخضر ، اسودَّ يومي الأبيض ، وابيضَّ فودي الأسود ، حتى رثى لنا العدوَّ الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر " ^(١).

" فقول : المحبوب الأصفر تورية عن الذهب ، وإنما كان تورية لأنّ المحبوب الأصفر معناه القريب (الإنسان) ، والبعيد (الذهب) . ولا شك في كون الأصفر هنا مراداً به الذهب " ^(٢).

ويبدو أن لا قيمة لهذا الطباق في قول الحريري ، ولا طائل من ورائه سوى تباهيه بالقدرة على الجمع بين الألوان ، على الرغم من تباعد المعاني المقصودة ، إلا أنّه شاهدٌ على التدبيج على أي حال ^(٣).

لكن يظهر من قول الخطيب القزويني : " ومن الناس من سمّى نحو ما ذكرناه تدبيجاً " ^(٤) . ومن مروره السريع على أمثلة هذا اللون أنّه يتحفّظ على هذه التسمية ، ربّما لأنّه يدرك أنّ هذا داخلٌ في تفسير الطباق لما بين الألوان من تقابل ، فصرّح بأنّه من أقسام الطباق ، وهذا ما علّل به السعد كونه داخلًا في أقسام الطباق ^(٥).

(١) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٤٤ . وقد ذكر الخطيب في الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩ ، قول الحريري وأبي تمام ، لكنّه لم يبيّن أنّ أحدهما جاء على وجه المدح ، والآخر على وجه الذم .

(٢) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٣ . وقد اعترض السبكي على الخطيب في قوله في التعريف : (ألوان) وليس في بيت أبي تمام سوى لونين ، وليست التورية في كلام الحريري إلا في واحدٍ منها ، وهذا اعتراضٌ في موضعه .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٢٩ ، بتصرّف يسير .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩ .

(٥) انظر : المطول ، ص ٦٤٢ ، وقال ابن معصوم ، ج ٢ ، ص ٤٨ من كتابه (أنوار الربيع) معلقاً على قول

إلا أنّ ما ذكره الخطيب عن التدييج يُعدّ زيادة وإضافة ؛ إذ لم يرد جملةً وتفصيلاً عند السّكاكي^(١).

والتدييج - كما ذكر العلوي - لونٌ بديعيّ له أصلٌ في البلاغة راسخ ، وفرعٌ في الفصاحة باسقٌ شامخ ، وهو يُكسبُ الكلامَ بلاغةً ، ويزيده حلاوة^(٢).

وكلّ ألوان البديع عند ابن أبي الإصبع محاسنٌ جمالية اجتمع فيها الجمال اللفظي إلى الجمال المعنوي ، وكانت غايته أن يكشف هذا الحُسن في القرآن الكريم وفي آيهِ كلّهُ ، فارتضى أن يكون لهذا اللون البديعي بابٌ خاص ، كما أفرد من قبل السلب والإيجاب عن الطباق ، رغم أنّه من أنواعه ، ولا أظنّ أنّ هذا الأفراد عنده من باب الخلط والتداخل واللبس على ابن أبي الإصبع ، كما ذكر بعض المحدثين^(٣) ، وإلا فلو كان يخفى عليه هذا لَمَّا أتى على ذكر الضدّ في هذا الباب - باب التدييج - وهو يحلّل شواهدهُ .

إذ استشهد عليه بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾^(٤).

وتوقّف طويلاً عند هذه الآية المعجزة ، فقال محلاً : " فإنّ المراد بذلك - والله أعلم - الكناية عن المشتبه والواضح والطرق ؛ لأنّ الجادة البيضاء هي الطريق المالحوب التي كثر السلوك عليها جداً ، وهي أوضح الطرق وأبينها ، ولهذا قيل : ركب بهم المحجة البيضاء ، ودونها الحمراء ، ودون الحمراء السوداء ، كأنّها في الخفاء . والالتباس (ضدّ البيضاء) في

ابن الأثير في أحد أنواع المقابلة عنده ، وهي مقابلة الشيء بضدّه ، كالسود والبياض ، وما جرى مجراها ، قال : " والحقّ أنّ التدييج داخلٌ في تفسير الطباق لما بين اللونين من التقابل ، فإنّهم فسّروا المتضادّين في حدّ الطباق بالمعنيين المتقابلين في الجملة ... " ، إلى أن قال : " وعلى هذا فبين كلّ لونين من الألوان غير البياض والسود تقابل ، وإن لم يكن تقابل التضادّ فهو داخل في الطباق " .

(١) انظر : مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ٤٢٣ .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

(٣) الصبغ البديعي ، ص ٢٩٠ .

(٤) سورة فاطر : الآية (٢٧) .

الظهور والوضوح ، ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة بينهما ، فالطرف الأعلى في الظهور البياض ، والطرف الأدنى في الخفاء السواد ، والأحمر بينهما على وضع الألوان في التركيب ^(١).

فتأمل هذا البيان المساق بهذه التعليقات المتواترة ، التي هي كالحجج لا تقبل الرد أو الجدال . ولعلّ ما ختم به قوله السابق من أنّ " الطرف الأعلى البياض ، والأدنى السواد ، والأحمر بينهما على وضع الألوان ... " ، متأثراً بما نقله ابن رشيق عن الرمانى ؛ إذ قال : " السواد والبياض ضدّان ، وسائر الألوان يُضادّ كلّ واحدٍ منها صاحبه ، إلا أنّ البياض هو ضدّ السواد على الحقيقة ؛ إذ كلّ واحدٍ منهما كلّما قوي زاد بُعداً من صاحبه ، وبينهما من الألوان كلّما قوي زاد قرباً من السواد ، فإنّ ضَعْفَ زاد قرباً من البياض ... " ^(٢).

ومن ثمّ فإنّ ما ذهب إليه ابن أبي الإصبع من أنّ ما بين اللونين : الأبيض والأسود من الألوان يعود إليهما فصحيح ، فكّلما قوي زاد قرباً من السواد ، فإنّ ضَعْفَ زاد قرباً من البياض .

(١) بديع القرآن ، ص ٢٤٢ . والطريق المألوف : الموضح البائن ، وهو من " اللَّحَب : الطريق الواضح ، كاللّاحب ، وَلَحَبَ : وطفه وسلّكه " . القاموس المحيط ، ص ١٧١ . ويظهر أن استخدام ابن أبي الإصبع لكلمة (المألوف) كانت أدلّ من اللَّحَب أو اللَّاحِب على المحجة البيضاء ؛ إذ علّل عليها بقوله : " التي كثر السلوك عليها جداً " ، وهذا دالٌّ على حسّه اللغوي ، ثمّ إنّ استخدامه لهذه الكلمة متناسباً مع أصل لفظة (جُدّد) في الوزن والصياغة .

قال الراغب الأصفهاني عن (جُدّد) أنّها : " جمع جُدّة ، أي طريقة ظاهرة ، من قولهم : طريق مجدود ، أي : مسلوكة مقطوع ، ومنه جادّة الطريق " . وهذا دالٌّ أيضاً على سعة ثقافته وتنوعها . انظر : مفردات غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص ٨٩ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٨٤ . وجاء في تحقيق (ثلاث رسائل في الإعجاز) أنّ ابن رشيق نقل هذا الكلام عن الرمانى في باب المطابقة ، وهذا الباب لم يرد عنده أصلاً . انظر : (ثلاث رسائل في الإعجاز) ، ص ١٩٥ ، وانظر : النكت ، للرمانى (ضمنها) ، فإنّك لن تجد باباً بهذا الاسم عنده أصلاً .

وما زال سياق ابن أبي الإصبع الأدبي متّصلاً ؛ إذ بناءً على تلك الطرق الثلاثة ، البين منها والمشتبه والمظلم التي كُنّي عنها بألوان الجبال ، عَقِبَ قائلاً : " وكانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة ، والهداية بكلّ علمٍ نصب للهداية منقسمة هذه القسمة ، أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم ، فحصل فيها التدييج ، وصحّة التقسيم ، وهي مسوقة للاعتداد بالنعم على ما هدت إليه من السعي في طلب المصالح والمنافع ، وتجنب المعاطب والمهالك الدنيوية والأخروية ^(١) .

فيمكن القول هنا أنّ ابن أبي الإصبع يستهويه الكشف عن ألوان البديع في الآية الواحدة ، فلا يغادرها حتى يرتوي من تدبّره وتأملّه ، ويستقرّ المقام بنفسه عند آخر حسّ بلاغيّ استشعره في الآية التي يقصدها ؛ إذ احتوت كذلك على صحّة التقسيم ، فلم تفته الإشارة إلى هذا .

وقد استشعر ابن أبي الإصبع هنا الهدف الديني من هذه الآية فكشف عنه ، وهو إثارة النفس لتقدّر أنعم الله عليها وتشكره من بعد على سياقة هذه الطرق المتنوّعة ؛ إذ في الواضح منها يسعى لطلب المصالح والمنافع ، وقد يلجأ إلى الملتبس منها فراراً بدينه أو بنفسه تحقيقاً لقوله سبحانه : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ ^(٢) ^(٣) .

ثم أفاض ابن أبي الإصبع بآخر خاطرة في نفسه حول هذه الآية الكريمة ؛ إذ قال : " وألطف حياء وقع في هذه الآية : إشارته سبحانه فيها بقوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ إلى ما في الألوان من الوسائط بين مركّباتها ، وهي لا تدخل تحت الحصر ، فعبر - سبحانه وتعالى - عنها بعبارة غير حاصرة لها ، واكتفى بذكر الاختلاف عن تعديد الألوان . والله أعلم ^(٤) .

(١) بديع القرآن ، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية (٥٦) .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٢٨ ، بتصرّف .

(٤) بديع القرآن ، ص ٢٤٣ .

وكأنَّ باب التدييج عنده فنيٌّ خالص يستخدم عنصر اللون كما هو مستخدم في توشية الديباج ونقشه ؛ إذ يلحظ درجات اللون وأنواعه ، وكأنَّه بهذه الخاتمة قد شقَّق الآية كلّها من ناحية جمالها البديعي والمعنوي^(١) .

ثمَّ استشهد على التدييج بيت شعري ، هو :

زِيَادُ بْنُ عَيْنٍ عَيْنُهُ تَحْتَ حَاجِبِهِ وَيَبِضُ الثَّنَايَا تَحْتَ خُضْرَةِ شَارِبِهِ

إلاَّ أنه خرج به عن التدييج إلى غرضٍ آخر ، وهو الردُّ على بعض النقاد الذين ساقوا هذا البيت في شواهد العيوب ، وقالوا : وجه العيب فيه كون العين لا تكون إلا تحت الحاجب ، والثنايا تحت الشارب .

فقال : " وعندي أنَّ مثل هذا لا يُعدَّ عيباً ، ولا يحتاج إلى تكليف مثل هذا العذر ؛ ليجيء أمثاله في الكلام الفصيح ، ويكفي ما جاء منه في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾^(٢) ، والسقف لا يكون إلا من فوق ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾^(٣) ، لاسيما في هذا الموضع الذي رفع سبحانه وتعالى فيه الاحتمال الذي يتوهم من أنَّ السقف قد يكون تحت بالنسبة ، فإنَّ كثيراً من السقوف يكون أرضاً لقوم ، وسقفاً لقوم آخرين ، فرفع الله تعالى هذا الاحتمال بجملتين ، وهي قوله : ﴿ عَلَيْهِمُ ﴾ ، وقوله : ﴿ خَرَّ ﴾ ؛ لأنَّها لا تُستعمل إلا فيما يهبط أو يسقط من العلو إلى السفلى ، كقوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾^(٤) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾^(٥) . فلم يبقَ لقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ حمل إلا التعويل على سامع هذه الموعظة ؛

(١) ملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٤٨ ، بتصرّف .

(٢) سورة النحل : الآية (٢٦) .

(٣) سورة الأنبياء : الآية (٣٢) .

(٤) سورة الأعراف : الآية (١٤٣) .

(٥) سورة ص : الآية (٢٤) .

ليحصل الازدجار عن فعل مَنْ حلَّ به ذلك ، وهو من بليغ المواظ " (١) .

ثمَّ مثل بشواهد أخر يُدَلَّل بها على أنَّ ما وقع في البيت السابق ليس من العيوب ، فكان ما تحدَّث عنه في هذا الخصوص أوسع مما كان منه في التدبيج نفسه .

وقد يُعدَّ هذا استطراداً منه ، وربما دفاعاً عما عدّه من اختراعاته ، وهو التدبيج ، فهو عنده لو أنَّ بديعي مستحسنٌ ، وإلا فإنَّ الفرقَ بين الآية الكريمة والبيت الشعري كما يَبَيِّنُ السماء والأرض ، بصرف النظر عن ردّه المقنع على بعض النقاد ، ولو استمرَّ في الاستشهاد بما جاء في القرآن الكريم من صور التدبيج لكان أفضل ، ولأشقى القلوب بتعليقاته وتحليلاته الأدبية ، كقوله تعالى - مثلاً - : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً ﴾ (٢) ؛ إذ ذكر هذا الشاهد الزركشي ضمن الطباق الخفي ، ثم قال : " فكأنَّه جمع بين الأخضر والأحمر ، وهذا أيضاً فيه تدبيجٌ بديعي " (٣) .

ويمكن أن يُعدَّ من التدبيج قوله تعالى : ﴿ ظِلٌّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٤) ؛ " لأنَّ (ظلّ) لا تستعمل إلا نهاراً ، فإذا لُمح مع ذكر السواد كأنَّه طباق يُذكر البياض مع السواد " (٥) .

لكنَّ ابن أبي الإصبع لم يتطرَّق في باب التدبيج إلا لشاهدٍ قرآنيٍّ واحد ، فاستطرد بعيداً عنه ؛ لما التمس له من سببٍ سابق .

وهذا فرقٌ كبير بينه وبين الخطيب القزويني يكشف عن مدرستين مختلفتين مهمتين تحتاجها البلاغة العربية معاً . فرغم استمتاع النفس بالمنهج الأدبي عند ابن أبي الإصبع ،

(١) بديع القرآن ، ص ٢٤٤ .

(٢) سورة يس : الآية (٨٠) .

(٣) البرهان ، ج ٣ ، ص ٥٠٣ .

(٤) سورة النحل : الآية (٥٨) .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠٣ . ذكر هذا الشاهد ضمن الطباق الخفي ، إلا أنَّه لم يُشير إلى أنَّه في التدبيج أيضاً .

إلا أنها تحتاج إلى مَنْ يُصَرِّها بألوان البديع ويُحدِّدها لها ؛ كيلا تختلط ، وإلى مَنْ يُدرج ألوانها المتفرعة عنها إلى بابها الخاص بها ، ويحصيها في شواهدا الخاصة بها ؛ ليحفظ لها الكيان الموحد ، والخصوصية الواضحة من غير لبس ، فيعيد للنفس شتاتها وهي تحاول التمييز بين لونٍ ولون ، بل بين نوعٍ ونوع في اللون الواحد .

المقابلة بين العالمين :

كما أفرد ابن أبي الإصبع التديج عن الطبايق في بابٍ مُستقلٍّ ، فقد أفرد للمقابلة باباً قائماً بذاته أيضاً ، وسَمَّاه : (باب صحّة المقابلات) ، وجاء متأخراً عن المطابقة . واختياره لهذه التسمية مناسبٌ مع ما جاء في تعريفه من شروط المقابلة من الصحّة والموافقة والموازنة ، وهو إطلاقٌ يرتبط بصحّة التوحي عند المتكلم ، وقدرته على تجويد هذا اللون البديعي وحُسن استخدامه .

ومنهج ابن أبي الإصبع هذا في التأخير والإطلاق منهج القدماء قبله ، كقدامة وابن سنان من حيث ارتباط المقابلة بالمعنى أكثر من اللفظ ، ومن حيث شرط قبولها واستحسانها^(١) ، لذا كان أبو هلال العسكري مدركاً أنّ غاية استخدام أي لونٍ بديعي بناؤه على المعنى أولاً ، ثم يأتي اللفظ البديعي تبعاً ، وهذا ما يفسّر منهج ابن أبي الإصبع من حيث إفراد الكلام عن المقابلة بعيداً عن الطبايق ، وإن كان في الطبايق تقابل ، لكنه في المقابلة مشروطٌ ومؤكّدٌ عليه على وجهٍ من التناسب والتوافق والتوازي .

يقول ابن الأثير : " واعلم أنّ في تقابل المعاني باباً عجيب الأمر ، يحتاج إلى فضل تأمل ، وزيادة نظر ، وهو يختصّ بالفواصل من الكلام المنشور ، وبالأعجاز من الأبيات الشعرية "^(٢) .

(١) انظر : نقد الشعر ، ص ١٣٣ ، وسرّ الفصاحة ، ص ٢٦٧ . قال ابن سنان : " ومن الصحّة صحّة المقابلة في المعاني ، وهو أن يضع مؤلف الكلام معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض ، والمخالفة ، فيأتي في الموافق بما يوافق ، وفي المخالف بما يخالف على الصحّة والأصل في هذه المناسبة ، فإنّ لها تأثيراً قوياً في الحسن " . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٦٧ .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

فهذا المنهج الذي سارَ عليه البلاغيون من جعل المقابلة قسماً برأسه من المحسنات المعنوية خالفه الخطيب القزويني . وقد جعل هذا القسم مما يدخل في باب الطباق ، حيث قال : " ودخل في المطابقة ما يُخصَّ باسم المقابلة " ^(١) .

وظاهر عبارته أنَّ الطباق أعمّ ، والمقابلة أخصّ ؛ لأنها داخلة فيه ، بينما يقول في مكانٍ آخر : " وقد تتركَّب المقابلة من طباق وملحق به " ^(٢) ؛ مما يوهم أنَّ في كلامه تناقضاً ؛ إذ مرّةً يجعل الطباق أعمّ ، والمقابلة أخصّ ، ومرّةً يجعل المقابلة هي الأعمّ ، ويدخل فيها الطباق وما هو ملحق به ، لكن المتأمل بدقّة يجد أنه ليس هناك تناقضٌ ولا تخالف بين العبارتين ، بل إنّ العبارة الثانية تؤكد عبارته الأولى من أنَّ المقابلة قسمٌ يدخل في باب الطباق ، ولما كان كذلك كان لا بدّ من أن يأخذ حكم شواهد الطباق من أنها إما أن تكون من الطباق أو من الملحق به ، لذا نقل في آخر الباب كلام السكاكي ليؤكد ما ذهب إليه كما ذكر السعد ^(٣) . وسيمرّ الحديث عن هذا إن شاء الله تعالى بالتفصيل .

إلا أنه من المهمّ هنا نقل كلام بهاء الدين السبكي لإزالة اللبس ؛ إذ قال : " فإن قلت : إذا كان التقابل المراد أخصّ من الطباق ، فكيف يدخل في الطباق ، والأخصّ لا يدخل في الأعمّ ، بل الأعمّ يدخل في الأخصّ ؟. قلت : كثيراً ما يقال عن الفرد إنّه داخل في الجنس ، والمراد إعلام أنّه فرد من أفراد الجنس غير خارج عنه ، لم يريدوا دخول النوع بجميع أجزائه ، بل دخول ما فيه من حصّة الجنس " ^(٤) .

وبالنظر إلى تعريف هذا اللون عند الرجلين ، يُلاحظ أنَّ ابن أبي الإصبع مفسّرٌ وشارحٌ أدبيّ ؛ إذ يقول : " صحّة المقابلات عبارة عن توحّي المتكلّم ترتيب الكلام على ما ينبغي ، فإذا أتى في صدره بأشياء قابلها في عجزه بأضدادها أو بأغيارها من المخالف

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٣) المطوّل ، ص ٦٤٤ .

(٤) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٥ .

والموافق ، ومتى أُخلّ بالترتيب كان الكلام فاسدَ المقابلة " ^(١) .

ومعقد تعريفه هذا على المتكلم أو الشاعر كما ذكر قدامة ، فإنَّ حُسنَ المقابلة وجودتها مرتبطة بقدرة المتكلم وسلامة قريحته وصفاء طبعه .

فكأنَّ الشرط الأول في جودة المقابلة هو هذا ، وإلا فإنَّ المتكلم يمكن أن يتوخى صحّة المقابلة ، وكيف ينبغي أن تكون ، لكنّها لا تجري على يديه مجرى العفوية والطبع .

وابن أبي الإصبع في هذا التحديد الأدبي ناقلٌ عن غيره ، كابن رشيق ، وقدامة . قال قدامة في باب (صحّة المقابلات) : " وهي أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض ، أو المخالفة ، فيأتي في الموافق بما يوافق ، وفي المخالف بما يُخالف على الصحّة ، أو يشترط شروطاً ، ويُعدّد أحوالاً في أحد المعنيين ، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي اشترطه وعدّده ، وفيما يخالف بأضداد ذلك " ^(٢) .

وتعريف ابن رشيق لا يختلف عن هذا كثيراً ^(٣) .

إلا أن ابن أبي الإصبع أضاف : " ومتى أُخلّ بالترتيب كان الكلام فاسدَ المقابلة " ^(٤) . وهي خاتمة قابلت ما بدأ به كلامه ، وإن كان معنى العبارة مفهوماً عند مَنْ سبقه .

أما الخطيب القزويني فكان في منأى عن هذا التحديد الأدبي للمقابلة ؛ إذ هي عنده داخلية في الطباق كما سبق ، فإنه يقول : " ودخل في المطابقة ما يخصّ باسم المقابلة ، وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثمَّ بما يقابلها على الترتيب ، والمراد بالتوافق خلاف التقابل ، وقد تركّب المقابلة من طباق وملحق به " ^(٥) .

(١) بديع القرآن ، ص ٧٣ .

(٢) نقد الشعر ، لقدامة ، ص ١٣٣ .

(٣) ينظر : العمدة ، لابن رشيق ، ج ١ ، ص ٥٩٠ . وجاء في (تحرير التحبير) لابن أبي الإصبع : " بحيث يقابل الأول بالأول ، والثاني بالثاني ، لا يخرم من ذلك شيئاً في المخالف والموافق " . ص ١٧٩ .

(٤) بديع القرآن ، ص ٧٣ . وزاد عليها في (تحرير التحبير) : " وقد تكون المقابلة بغير الأضداد " . ص ١٧٩ .

(٥) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ١١-١٢ .

فجاء التحديد عنده بمعنيين أو أكثر ، وعلى هذا التقسيم والتحديد جاءت أمثله .

قال السعد (ت ٧٩٢هـ) مُعلِّلاً دخولها في الطباق : " فيدخل الطباق ؛ لأنه حيثئذ يكون جمعاً بين معنيين متقابلين في الجملة " ^(١) .

وقول الخطيب : " والمراد بالتوافق خلاف التقابل " ، فسره الشَّراح بأن " (المراد بالتوافق) ليس (التناسب) ، بل خلاف التقابل مطلقاً ، سواء كانا متناسين أم لا " ^(٢) .

وهذا ما يتفق مع ما ذهب إليه ابن أبي الإصبع من أن " المقابلة تكون غالباً بالجمع بين أربعة أضداد ... وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد " ^(٣) .

فكأنَّ الغاية هي الجمع والتقابل ، سواء أكان هناك تناسب أم لا ! .

وخصَّ الخطيب القزويني " اسم المقابلة بالإضافة إلى العدد الذي وقعت عليه المقابلة ، مثل مقابلة الاثنين بالاثنتين ، ومقابلة الثلاثة بالثلاثة ، والأربعة بالأربعة .. إلى غير ذلك " ^(٤) .

بينما خصَّها ابن أبي الإصبع العدوانى بصورها المعجزة الواقعة في كتاب الله ﷻ ، وليس هذا فقط في كتابه (بديع القرآن) ، وإنما خصَّها في كتابه (تحرير التحبير) أيضاً بالحسن والصحة ، ومثَّل عليها بشواهد في هذا الخصوص ، بل إنه يلتمس لها أحياناً صفة الحسن والصحة في بعض الآيات التي عُذَّت من فاسد المقابلة ، كبيت أبي نواس :

(١) المطول ، للسعد التفتازاني ، ص ٦٤٣ .

(٢) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٥ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١٧٩ ، وانظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٥ .

(٤) المطول ، ص ٦٤٣ .

أَرَى الْفَضْلَ لِلدُّثْيَا وَلِلدِّينِ جَامِعاً كَمَا السَّهْمُ فِيهِ الْفُوقُ وَالرِّيشُ وَالنَّصْلُ^(١)

بصرف النظر عن العدد الذي وقع عليه المقابلة .

ولعلّ الخطيب في اختصاصه هذا ينظر إلى بلاغة المقابلة من حيث العدد ، وهذا ما يؤكّد كلام ابن حجة في (خزانة الأدب) ؛ إذ يقول : " وقال علماء البديع : المقابلة كلّما كثر عددها كانت أبلغ " ^(٢) .

بينما ينظر ابن أبي الإصبع إلى ما وراء العدد ، إلى الغاية ، ومقدار ما تؤدّيه هذه المتقابلات من أثر في تصوير المعنى ، والوفاء به ليخرج صادقاً معبراً دون تزييف وتعقيد ، كما يظهر من استشهاده وتحليله .

وبالانتقال إلى ما استشهد به كلّ منهما على هذا اللون ، فإنّ الناظر في كتاب (بديع القرآن) - وهو مدار الموازنة - يجد أنّ ابن أبي الإصبع اكتفى بشاهدٍ واحدٍ فقط خصّه بكلّ ما وهبه الله من قدرة على التحليل والبيان ، وانتهى إلى القول بأنّ " في ذكر هذه الآية الكريمة أتمّ غناء في هذا الباب ، فقس عليها غيرها . والله أعلم بالصواب " ^(٣) .

وهذا مما يؤكّد أنّ بلاغة المقابلة عند ابن أبي الإصبع تتجاوز الكم الذي ذهب إليه الخطيب القزويني .

قال - رحمه الله - : " ومن معجز هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(٤) .

فانظروا إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام وهما ضدّان ، ومجيء السكون والحركة

(١) انظر تفصيل هذا في : تحرير التحرير ، ص ١٨٢ .

(٢) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٣) بديع القرآن ، ص ٧٤ .

(٤) سورة القصص : الآية (٧٣) .

في عجز الكلام وهما ضدّان ، ومقابلة كلّ طرفٍ منه بالطرف الآخر على الترتيب ^(١) .

فهو يُلفت نظر القارئ بهذا الأسلوب الإنشائي اللطيف لا على سبيل الأمر والإلزام ؛ وإنّما على سبيل الإرشاد بقصد إثارة عبادة التأمل والتفكير الكامنة لتتحرك ، ويلفته إلى هذا التقابل المعجز مرتّباً منسّقاً متوازياً .

ثم يُلفت القارئ أيضاً إلى شيءٍ آخر ، فيقول : " وكيف عبّر سبحانه عن الحركة بلفظ الإرداف ، فاستلزم الكلام ضرباً من المحاسن زائداً على المقابلة ، والذي أوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل كون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة ، وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة ، وهي اشتراك الإعانة بالقوة وحُسن الاختيار الدالّ على راحة العقل ، وسلامة الحسّ ، ويستلزم إضاءة الظرف الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه ؛ ليهتدي المتحرّك إلى بلوغ المآرب ووجوه المصالح ، ويتقي أسباب المعاطب ^(٢) " .

فهذا المقطع يكشف فيه عن بلاغة الكلمة في القرآن الكريم فضلاً عن بلاغة المقابلة .

وختم بإشارة إلى أنّ حُسن الاختيار هذا دالٌّ على راحة العقل وسلامة الحسّ ، فقال : " وهي اشتراك الإعانة بالقوة وحُسن الاختيار الدالّ على راحة العقل ، وسلامة الحسّ ^(٣) " .

ثم قف عند قوله : " ويستلزم إضاءة الظرف الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه ... " ^(٤) ؛ لتشعر بمقدار ملازمة ابن أبي الإصبع للقرآن الكريم ، وتأمله لكلّ كلمة فيه ؛ إذ أيّ ظرف إما أن يكون مُظلماً أو مُنيراً ، أما كونه يُضيء النهار وهو مضيء أصلاً - كونه نهاراً - كما عبّر في قوله : " إضاءة الظرف " ، فهذه قوة من نور الله فوق نور النهار لتلك الغايات التي وضّحها من بعد .

وهذا يعكس إدراك ابن أبي الإصبع أنّ كلّ كلمةٍ في الآية موجّهةٌ لغاية ، فضلاً عن

(١) بديع القرآن ، ص ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٣ .

اللون البديعي الذي بتدبره في الآية الكريمة ، وتذوق ابن أبي الإصبع لها يقع على بُعدهِ وقراره المستكين المتمكّن .

ثمّ يستمرّ في بيانه في أسلوبٍ سهلٍ يسير ، موضّحاً الغرض الديني من هذه الآية الكريمة ؛ إذ يقول : " والآية سيقّت للاعتداد بالنعم ، فوجبّ العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه ؛ ليتّمْ حسن البيان " ^(١) ، مؤكّداً على أنّ هذا العدول في القرآن من تمام حُسن البيان الذي أضيف إلى حُسن المقابلة وبلاغتها .

وقوله : " فتضمّنت هذه الكلمات - التي هي بعض آية - عدّة من المنافع والمصالح التي لو عُدّدت بألفاظها الموضوعّة لها لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظٍ كثيرة " ^(٢) ، هو بداية التعداد عنده لضروب المحاسن في هذه الآية الكريمة ؛ إذ يبدأ من الإيجاز البليغ المساق لبيان عدّة من المنافع والمصالح . ثمّ يقول : " فحصلَ في الكلام بهذا السبب ضروب من المحاسن " ، ثمّ عدّها مُلفِتاً إليها النظر بأسلوب جذّاب ، فقال : " ألا تراه سبحانه جعل العلة في وجود الليل والنهار حصول منافع الإنسان ، حيث قال : ﴿ لَتَسْكُنُوا ﴾ و ﴿ لَتَنبَغُوا ﴾ بِ(لام التعليل) ، فجمعت هذه الكلمات المقابلة ، والتعليل ، والإشارة ، والإرداف ، والاتّلاف ، وحُسن النسق ، وحُسن البيان " ^(٣) .

واستيعاب ابن أبي الإصبع لهذه الضروب في الآية الواحدة هي من خصائصه الأدبية ، ومن غاياته المقصودة هنا ، خاصة في كتابه (بديع القرآن) ، وليس هذا فقط ، بل إنّهُ يكشف عن سرّ هذا الكمّ البديعي في الآية الواحدة ويُعلّله ، فيقول : " لمحيء الكلام فيها متلاحماً آخذة أعناق بعضها في أعناق بعض " ^(٤) .

ثمّ ختم تحليله وعرضه الأدبي لهذه الآية بضربٍ أخيرٍ من محاسن هذه الآية القرآنية التي

(١) بديع القرآن ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

أتى بها على كلّ ما في نفسه من حسٍّ أدبي بلاغي ، فقال : " ثمّ أخير بالخير الصادق أنّ جميع ما عدّده من النعم بلفظه الخاص ، وما تضمّنته العبارة من النعم التي هي من لفظي الإشارة والإرداف بعض رحمته ؛ حيث قال بحرف التبعيض : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ " (١).

فانظر كيف يدعو بتحليله هذا إلى تأمل كتاب الله ﷻ وإثارة الرغبة في معرفة المزيد عن إعجازه ، وهو يكشف عنه وعن سرّه بوقفاته الطويلة هذه !.

ف" كلّ هذا في بعض آية عدّتها إحدى عشرة لفظة ، فالْحَظْ هذه البلاغة الظاهرة ، والفصاحة المتظاهرة ، وفي ذكر هذه الآية الكريمة أتمّ غناء في هذا الباب ، فقسّ عليها غيرها . والله أعلم بالصواب " (٢).

والنفس الأدبية تكفيها الوقفة الواحدة ما دامت تستغرقها طويلاً للكشف عن لآئها ومكنوناتها ، وهي إشارة منه للسير على هذا المنهاج في الكشف البلاغي عن سرّ الإعجاز القرآني ، وقد نقل ابن حجة نصّ تحليله هذا كاملاً في كتابه (خزانة الأدب) (٣).

والحقّ أنّ هذا الشاهد عكسَ هدفاً عملياً فنياً من أهداف كتابه (بديع القرآن) ، وهو التزينة الأدبية والرياضة الجمالية ؛ إذ بهذا الانتقال من مقطع إلى مقطع ، وبهذا التنوّع في أسلوب العرض يرسم طريقاً يُسلك من بعد في النقد الأدبي (٤).

ولم يكن الخطيب القزويني في منأى عن هذا الشاهد البليغ ، لكنّه ذكر الآية فيما يلحق بالطباق ، بناءً على أنّ المقابلة عنده تتركّب من طباقٍ وملحقٍ به ، فلم يحتج إلى إعادة ذكره فيما خصّه باسم المقابلة ، إلّا أنّ هذا كان من المآخذ عليه . قال عصام الدين ابن عربشاه : " وحيثنذ يتّجه أنّه ينبغي أن يقدم قوله : ودخل فيه ما يختصّ باسم المقابلة على قوله : (ويلحق به) ، ولكنه دفعه بأنّ المراد بقوله : (ودخل فيه) : أنّه دخل في الطباق ، والملحق به

(١) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(٣) انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٥ .

(٤) ملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٧٦ ، بتصرّف .

بقرينة بعض الأمثلة المذكورة للمقابلة مما ذكر فيه الملحق بالطباق ، ومنهم مَنْ تكلف ، وقال : هذان الشيئان داخلان في الطباق ، إلا أنّ غيره من الطباق أغرق في التقابل ، فنّه على التفاوت بذكر لفظ الإلحاق ، وبهذا التكلف يندفع الأمان^(١) .

وعلى كلّ حال فإنّ هذا كلّه داخلٌ في التقابل عند الخطيب القزويني ، وهو المهمّ .
ثمّ ضربَ بعض الأمثلة من مقابلة اثنين باثنين ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾^(٢) .

قال السبكي : " وتوافق الضحك والقلة ؛ لكونهما لا يتقابلان ، وكذلك البكاء مع الكثرة "^(٣) .
والتقى مع ابن أبي الإصبع فيما استشهد به من قول النبي ﷺ : « فإنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه »^(٤) .

غير أنّ ابن أبي الإصبع ذكره برواية أخرى في كتابه (تحرير التحبير) ، وهو : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا الخرق في شيء إلا شانه »^(٥) .

فسكتَ عن تناوله الخطيب ، وقال ابن أبي الإصبع : " فقابلَ الخطيب الرفق بالخرق ،

(١) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية (٨٢) .

(٣) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٥ .

(٤) انظر : صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب : فضل الرفق ، حديث رقم : (٦٦٠٢) ، ص ٩٧٥ .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٦) لم أعثر على هذا الحديث بهذه الرواية فيما توفّر لديّ من مصادر ، كالصحيحين ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، والدارقطني ، والبيهقي ، ومسنند أحمد ، والحميدي ، وموطأ مالك ، لكن جاء في الأدب المفرد للإمام البخاري ، تحقيق : فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، ص ١٦٥ : " لا يكون الخرق في شيء إلا شانه ، وإنّ الله رفيق يحب الرفق " ، حديث رقم : (٤٦٦) .

(٧) تحرير التحبير ، ص ١٨١ .

والخرق - بالضم ، وبالتحريك - : ضدّ الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العملَ والتصرّف في الأمور .
انظر : القاموس المحيط ، ص ١١٣٥ ، باب (القاف) ، فصل (الخاء) .

والزّين بالشين بأحسن ترتيب ، وأتمّ مناسبة بين الرّقق والخرق ، ولفظي (شانه) و(زانه) ^(١) .

وابن أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) ما كان ليتجاوز الشواهد القرآنية إلا نادراً ، ولغاية الموازنة فقط ، كما في باب (الاستقصاء) ، أو أنّ الباب مما يحتاج فيه إلى التمثيل بالشعر ، كما صرّح بهذا في باب (جمع المختلفة والمؤتلفة) ^(٢) .

لكن لما كان ما استشهد به الخطيب متوافقاً مع ما استشهد به ابن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحبير) ، كان لا بدّ من ذكر هذا ، وبيان ما أضافه المصري وقصر عن إضافته الخطيب القزويني .

فمثلاً كان مما استشهد به الخطيب من مقابلة اثنين باثنين ، قول الآخر :

فَوَاعَجِبَا كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاصِحٌ وَفِيٍّ وَمَطْوِيٍّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرٌ

فلم يزد الخطيب القزويني على أن قال : " فَإِنَّ الْغِلَّ ضِدُّ النَّصِيحِ ، وَالْغَدْرُ ضِدُّ الْوَفَاءِ " ^(٣) .

وهذا إيجازٌ منه يتلاءم مع ما يقصده ويلفت النظر إليه ، وهو مقابلة اثنين باثنين ، ولو لم يكن الخطيب القزويني في مجال لَمْ شعث ما تفرّق من علوم البلاغة ، وتحديد مصطلحاتها وأقسامها ، وما يندرج تحت تلك الأقسام ، لاستطردّ وحلّل هذا الشاهد ، خاصة وأنّه يعكس حسّاً ذوقياً في وقوع الاختيار عليه .

أما ابن أبي الإصبع فعَدّ هذا البيت أولاً من صحّة المقابلات الشعرية ، ثمّ هو يتقصّى اسم هذا الشاعر ، بينما هذا التقصّي والإيضاح لم يكن وارداً عند الخطيب ، فذكر أنّ هذا البيت ربّما يكون لكثير عزّة ، وذكر أيضاً أنّه من أناشيد قدامة ، كما ذكر ابن رشيق ^(٤) .

(١) تحرير التحبير ، ص ١٨١ .

(٢) بديع القرآن ، ص ٢٤٧ و ١٢٧ . وقد يذكر شواهد قرآنية ويؤيد بها جانباً معيّناً في ظاهرة بلاغية في كتابه (تحرير التحبير) . انظر : ص ١٨٣ ، باب (صحّة المقابلات) .

(٣) الإيضاح ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٤) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٩٠ .

وقال : " فَإِنَّ هذا الشاعر لما قدّم ذكر النصّح والوفاء في صدر البيت ، قابلهما بذكر الغلّ والغدر في عجزه على الترتيب ؛ لأنّ الغلّ ضدّ النصّح ، والغدر ضدّ الوفاء " ^(١) . وهذا زيادة توضيح على ما جاء عند الخطيب ؛ إذ كان لا بدّ من ذكر الترتيب الذي هو من صحّة المقابلات .

ومن الشواهد التي استشهد بها الرجلان ، قول أبي دلامة :

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالْدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

وهو عند الخطيب القزويني من مقابلة ثلاثة بثلاثة ، ولم يزد . قال عصام الدين : " ولما كان هذا التقسيم والتسمية من التطويل بلا طائل ، لم يلتفت إليه المصنّف " ^(٢) .

فكأنّه كان يكفي من الخطيب الإشارة اليسيرة إلى أقسام المقابلة عنده ، والاستشهاد لها سريعاً ، وليس المجال مجال تحليل ، إنّما يُقاس على ما جاء من تعليق في بيت كثير عزة ، ثمّ تُستنبط المتضادات .. فهذا أمرٌ هيّئ ، لذا لم يلتفت إليه هو ! .

أمّا مَنْ أراد التوضيح فليتأمل ما ذكره ابن أبي الإصبع من تفصيلٍ حول هذا البيت ؛ إذ قال : " وقد وقع في مقابلة الأضداد ما جمع بين ستّة أضداد ، وهو بيتٌ أنشده أبو دلامة للمنصور ، وقد سأله عن أشعر بيتٍ في المقابلة ، فأنشده :

ما أحسن ... البيت " ^(٣) .

وهذا كلّه مما يتعلّق بالبيت ، ولمن هو ؟ . وما مناسبتة ^(٤) ؟ .

(١) تحرير التحبير ، ص ١٨١ .

(٢) الأطول ، ص ٣٧٨ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١٨١ .

(٤) جاء في معاهد التنصيص : " يُحكى أنّ أبا جعفر المنصور سأل أبا دلامة عن أشعر بيتٍ قالته العرب في

المقابلة ، فقال : بيتٌ يلعبُ الصبيان به ، قال : وما هو على ذاك ؟ . قال : قول الشاعر : ... وأنشده

البيت " . انظر : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

ثم بين وجه الاستشهاد من بعد ، فقال : " فإنَّ الشاعرَ قابلٌ أحسن بأقبح ، والدين بالكفر ، والدنيا بالإفلاس ، فجمع بيته ما لم يجمعه بيتٌ قبلَ قبله في التقابل ، ولا خلاف في أنه لم يقلْ قبله مثله ، وأمّا بعده فقد غيّر المتنبّي في وجوه الناس بقوله :

أزورهم وسوادُ الليلِ يشفعُ لي وأثنِي وبياضُ الصُّبحِ يُغري بي ^(١)

وكان هذا الشاهد مما استوقف الخطيب القزويني ، ويظهر أنّ ما ينقله الخطيب عن غيره هو ما يستوقفه عادة ، ويُبيّن فيه رأيه ؛ إذ جاء في الإيضاح : " قيل : وفي قول أبي الطيب :

أزورهم وسوادُ الليلِ يشفعُ لي وأثنِي وبياضُ الصُّبحِ يُغري بي

مقابلة خمسة بخمسة ، على أنّ المقابلة الخامسة بين (لي) و(بي) ^(٢).

وفيه نظر ؛ لأنّ اللام والباء فيهما صلة الفعلين ، فهما من تمامها . وقد رجّح بيت أبي الطيب على بيت أبي دلالة بكثرة المقابلة ، مع سهولة النظم ، وبأنّ قافية هذا ممكنة ، وقافية ذاك مُستدعاة ، فإنّ ما ذكره غير مختص بالرجال ^(٣) ، وبيت أبي دلالة على بيت أبي الطيب بجودة المقابلة ، فإنّ ضدّ الليل المحض هو النهار ، لا الصبح ^(٤).

(١) تحرير التحرير ، ص ١٨١ .

(٢) قال ابن سنان : " فهذا البيت مع بُعده من التكلف ، كلّ لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها من طريق المعنى بمنزلة الضدّ : فأزورهم وأثنِي ، وسواد وبياض ، والليل والصبح ، ويشفع ويغري ، ولي وبي " . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٠١ .

(٣) وعقب صاحب الأطول على قول الخطيب : " فإنّ ما ذكره غير مختصّ بالرجال " ، بأنّ " ذكر الرجل تغليب ؛ إذ حديث المرأة معلوم بطريق الأولى ؛ لأنّه إذا لم يدفع قبح الكفر والإفلاس كمال الرجل برجلته ، كيف يدفعه نقصان المرأة ، لكونها امرأة " ١٩ . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٣ . ويؤيد هذا ما ذكره ابن سنان من أنّ " أصحاب صناعة الشعر لا يجعلون الليل والصُّبح ضدّين ، بل يجعلون ضدّ الليل النهار ؛ لأنّهم يراعون في المضادة استعمال الألفاظ ، وأكثر ما يقال الليل والنهار ، ولا يقال : الليل والصبح . وبعضهم يقول في مثل هذا : مطابق محض ، ومطابق غير محض ، فالليل والصبح عنده من بيت المتنبّي طباق غير محض " . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٠١ .

فهذه الموازنة التي نقلها الخطيب بين البيتين تعكس عنده رؤية مُنصفة بحكم اشتغاله بالقضاء ؛ إذ كلُّ بيتٍ مُرجَّحٌ على صاحبه بفريدةٍ ليست عند غيره ، ولم يكن مع مَنْ رجَّح بيت المتنبي على بيت أبي دلالة ولا العكس ، لذا كان ما فعله هو النقل فقط ، ولم يكن له وجهة نظرٍ سوى في التقابل بين الحرفين في بيت أبي الطيب ، وهذا ما أيده فيه السبكي وزاد عليه ^(١) .

وهذا يُعدّ من آرائه السديدة التي لا تُجافي الصواب .

أما ابن أبي الإصبع فكان له رأيه الخاص ، وتفصيلاته الدقيقة حول هذه المفاضلة ؛ إذ قال مؤيداً قول المتنبي على كلّ حال بعد أن ذكر المتقابلات العشرة فيه : " ولا أعلم في باب التقابل أفضل من هذا البيت ؛ لجمعه من المقابلات ما لم يجمعه بيتٌ لشاعرٍ قبله ولا بعده إلى يومنا هذا ، مع ما فيه من تمكُّن قافيته " ^(٢) .

ثم فصل ما ذكره الخطيب من أنّ قافية أبي دلالة مستدعاة ؛ لأنّ ما ذكره غير مختصّ بالرجال ، فقال : " بخلاف البيت الذي أنشده أبو دلالة ، فإنّ قافيته مستدعاة ؛ لكون حُسن الأشياء التي ذكرها ، وقُبْحها لا يختصّ بالرجل دون المرأة ، والمعنى قد تمّ بدون ذكر الرجل ، ولو كان لَمَّا اضطرَّ إلى القافية التي أفاد بها معنىً زائداً ، بحيث يقول : (بالْبَشَر) لكان البيت نادراً " ^(٣) .

وهو بهذا البيان الشافي يفترق عن الخطيب في إيجازه غير المُخلّ ، بل في تصوّره فيما لو استبدل الشاعر كلمة (الرجل) بكلمة (البَشَر) لكان البيت نادراً ، وهذه نظرة أدبية لها اعتبارها في كون ابن أبي الإصبع شاعراً أيضاً ، وإن لم يصل بشعره - كما سبقت الإشارة من قبل - إلى فحولة السابقين ، غير أنّه لم يوضّح مقصده من (كون البيت نادراً) ، وهل يكون حينئذٍ مدحاً للبيت أم ذمّاً ؟.

(١) زاد السبكي : " وهذا بخلاف (اللام وعلى) في قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [سورة

البقرة : بعض آية ٢٨٦] " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٦ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ١٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

وافترق عن الخطيب القزويني أيضاً في أنه نقل تعليلاً آخر عن أفضلية بيت أبي دلالة ، فقال : " غير أنّ المقابلة التي في البيت الذي أنشده أبو دلالة أفضل من المقابلة التي في بيت أبي الطيب ؛ لأنّ المقابلة التي في البيت الأول بالأضداد ، والتي في بيت المتنبي بالأضداد وبغير الأضداد ، والمقابلة بالأضداد أفضل ؛ مراعاةً للاشتقاق^(١) ؛ لأنّ التقابل : التضاد والتناقض ، فبيت المتنبي فضّل بالكثرة ، والبيت الأول أفضل بمجودة المقابلة "^(٢).

ومن مواطن المفارقة بين الرجلين : موقفهما من قيد السكاكي ، الذي أضافه في تعريفه للمقابلة ؛ إذ قال : " وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر ، وبين ضديهما ، ثمّ إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده "^(٣).

و " المراد بالشرط : الاجتماع في أمر ، لا الشرط المعروف "^(٤).

واستشهد السكاكي لذلك بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾^(٥).

فبيّن أنّه " لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق ، جعل ضده - وهو

(١) ربّما يكون هذا خطأ مطبعياً ؛ إذ إنّ ما يستقيم مع السياق هو : (مراعاة للاتفاق) ، أي الاتفاق بين كلّ مفردات الجملتين في التضاد ، كما ذكر الأستاذ المشرف .

(٢) تحرير التحرير ، ص ١٨٢ . وقال ابن حجة مُعقِّباً على قوله : (والمقابلة بالأضداد أفضل) : " وهذا مذهب السكاكي " . وقال أيضاً : " وبيت المتنبي أفضل بالكثرة عند غير السكاكي ، فإنّ المقابلة عنده لا تصحّ إلا بالأضداد " . انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

ويظهر أنّ هذا ليس هو مذهب السكاكي ، إنّما مذهبه هو الاشتراط بين المتضادين ، فإذا شرط هنا شرطاً ، شرط هناك ضده ، كما سيأتي . وفُسّر الشرط بالاجتماع .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٤ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٤ ، هامش (٢) .

(٥) سورة الليل : الآيات (٥-١٠) .

التعسير - مشتركاً بين أضداد تلك ، وهي : المنع والاستغناء والتكذيب ^(١) .

أما ابن أبي الإصبع فلم يعتدّ بهذا القيد ، ولم يعتبره ؛ لأنه عدّ من المقابلة قول أبي دلالة :

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالْدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

قال ابن معصوم : " ومع ذلك فالقيد المذكور معلومٌ فيه ؛ لأنه اشترط في الدين والدنيا الاجتماع ، ولم يشترط في الإفلاس والكفر ضده ، فلا يكون هذا البيت عند السكاكي من المقابلة " ^(٢) .

بينما أثنى عليه ابن أبي الإصبع فقال : " فجمع بيته ما لم يجمعه بيتٌ قيلَ قبله في التقابل " ^(٣) .

وقد نقل الخطيب شرط السكاكي ، ونسبه إليه بعد أن فرغ من تعريف المقابلة والاستشهاد لها بما يشير إلى أنه مجرد عرض لوجهة نظر السكاكي . يقول : " وقال السكاكي : " المقابلة أن يجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما ، ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده ... لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والاتقاء والتصديق ، جعل ضده - وهو التعسير - مشتركاً بين أضداد تلك ، وهي : المنع والاستغناء والتكذيب " ^(٤) .

لكن الخطيب - في نفس الوقت - سبق أن استشهد ببيت أبي دلالة الذي لا يتحقق فيه هذا الشرط ، فهل يمكن أن يُعدّ هذا اضطراباً وقع فيه الخطيب ، ومخالفة لما نقله عن السكاكي ؟

الجواب : لا ، لا يمكن أن يُعدّ هذا اضطراباً ؛ لأسباب منها :

(١) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٤ .

(٢) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ١ ، ص ٢٩٩ . وذكر أنّ الكثيرين لم يعتبروا بهذا القيد الذي زاده السكاكي ، ولعلّ منهم ابن أبي الإصبع المصري ، إلا أنّ لبعض الشراح رأياً في هذا الشاهد ، وتوجيهاً بلاغياً له .

قال ابن عربشاه : " بل الظاهر أنّه مبني على الاجتماع ؛ إذ الإفلاس مع الإسلام ليس قبيحاً " .

انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١٨١ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٤ .

● احتفاله بمنهج السكاكي وتأثره به ، والاعتراف بفضله ؛ إذ من الملاحظ أنه يكثر من ذكره في أثناء تلخيصه والاستشهاد بأقواله^(١) ، فهو أستاذ له في المنهج العلمي ، وكونه ناقلاً عنه ليس معناه أنه موافق له ؛ إنما هو متفهم لرأيه ، أو متفهم له على وجه آخر ، وهو ما ذكره عصام الدين : " ولكلام المصنف احتمال أنه زاد السكاكي حكماً على القوم ، هو أن يكمل المقابلة بذلك ، لا أنه زاد في تعريف المقابلة قيماً "^(٢) ، خاصة وأن قول السكاكي : " ثم إذا شرطت هنا شرطاً شرطت هناك ضده "^(٣) ، يفهم منه أنه " كما يحتمل أن يكون بيان ما لا بد منه للمقابلة ، يُحتمل أن يكون بيان ما به يكمل ويزيد حسنهما "^(٤) .

● هذا النقل يتفق مع ما ذهب إليه الخطيب من أن المقابلة تتركب من الطباق ومن الملحق به . قال السعد : " ففي هذا المثال تنبيه على أن المقابلة قد تتركب من الطباق ، وقد تتركب مما هو ملحق بالطباق ؛ لما مر من أن مثل مقابلة الاتقاء والاستغناء من قبيل الملحق بالطباق ، مثل مقابلة الشدة والرحمة "^(٥) .

وقال ابن معصوم موضحاً كونه ملحقاً بالطباق : " فإن قلت : كون البخل ضد الإعطاء ، والتكذيب ضد التصديق ظاهر ، فما وجه كون الاستغناء ضد التقى ؟ . قلت : هو مبني على اعتبار ما يلزم الاستغناء من ترك الاتقاء "^(٦) . وهذا ما فهمه الخطيب من السكاكي فزاده بعد الشاهد المشار إليه .

(١) الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي ، ص ١٧١ ، بتصرف يسير .

(٢) الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٤ .

(٤) انظر تفصيل هذا في : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٩ ؛ لأن صاحبه يرى أن إثبات مذهب جديد للسكاكي بلا سند معتد به ، مما لا يستحسنه العقلاء ، إلا بتأول احتمال كما يفهم منه .

(٥) المطول ، ص ٦٤٤ ، وانظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٦ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٦) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

" وشبيه بما استشهد به السكاكي قول البحري :

وَأَرَاكَ خُنْتَ عَلَى النَّوَى مَنْ لَمْ يَخُنْ عَهْدَ الْهَوَى ، وَهَجَرْتَ مَنْ لَمْ يَهْجُرِ
هَلْ دِينَ عُلُوَّةٌ يُسْتَطَاعُ فَيُقْتَضَى ؟ أَوْ ظُلْمٌ عُلُوَّةٌ يَسْتَقِينُ فَيَقْصُرُ

وقول الإمام علي - كرم الله وجهه - : " يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا يُغَيَّرُونَ ، وَتَغْزُونَ وَلَا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ " (١).

وجاء عند ابن رشيقي ما عدّه من (خفي المقابلة) فقال : " ومن خفي المقابلة والقسمة : قول عباس بن الأحنف ، وأحسن ما شاء :

الْيَوْمُ مِثْلُ الْحَوْلِ حَتَّى أَرَى وَجْهَكَ ، وَالسَّاعَةُ كَالشَّهْرِ

وهذا مليح ؛ لأنّ الساعة من اليوم كالشهر من الحول جزءٌ منه من اثني عشر " (٢).

ويظهر أنّ خفاء المقابلة عند ابن رشيقي أنّها من قبيل المقابلة بغير الأضداد بين اليوم والساعة ، والحول والشهر ، فالساعة من اليوم كالشهر من الحول جزءٌ منه من اثني عشر ، كما ذكر ابن رشيقي ، وليس بينهم تضادّ .

ومثل هذه الشواهد من المقابلة بغير الأضداد لم يتطرّق لها الخطيب القزويني أو ابن أبي الإصبع العدواني ، ربما لأنّ المقابلة بالأضداد يرونها أفضل وأتمّ وأبلغ .

وهناك نوعٌ من المقابلة شواهدُ تُعدّ في أعلى مراتب الفصاحة ، وكان حريّاً بابن أبي الإصبع خاصة أن يستشهد به في كتابه (بديع القرآن) على وجه الخصوص ، وهو ما ذكره الزركشي : " أن يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر ، وإذا توّمل كان من أكمل المقابلات ، ولذلك أمثلة :

(١) البلاغة والتحليل الأدبي ، للدكتور : محمد أبي حاقّة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ١٨٦ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٩٣ . وعبارته : " أحسن ما شاء " لعلّه يقصد بها : " أحسن ما أنشأ " .

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ^(١) ، فقابلَ الجوع بالعُري ، والظمأ بالضحي . والواقف مع الظاهر ربّما يحيل أنّ الجوع يُقابل بالظمأ ، والعُري بالضحي .

والمُدقّق يرى هذا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة ؛ لأنّ الجوع ألم الباطن ، والضحي موجب لحرارة الظاهر . فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً ، وقابل الخلو بالخلو ، والاحتراق بالاحتراق ^(٢) .

ونقل عنه السيوطي هذا النوع وسَمّاه : (ترصيع الكلام) ، وعرفه بقوله : " وهو اقتران الشيء بما يجتمع معه في قدر مشترك " ^(٣) ، ولم يكن عنده ضمن المقابلة ، بل هو لونٌ بديعيّ مستقلّ ، ويُفهم من تسميته له أنّه غير السجع المرصّع ، غير أنّ ترصيع الكلام أدخل في المعنى ، والسجع المرصّع في اللفظ أدخل .

ويُفهم من قوله : " بما يجتمع معه في قدر مشترك " أنّه يتفق مع قيد السكاكي بتوسّع ؛ إذ قال : " لكن الجوع والعُري اشتركا في الخلو ، فالجوع خلوّ الباطن من الطعام ، والعُري خلوّ الظاهر من اللباس . والظمأ والضحي اشتركا في الاحتراق ، فالظمأ : احتراق الباطن من العطش ، والضحي : احتراق الظاهر من حرّ الشمس " ^(٤) .

فقابلَ الخلو بالخلو ، والاحتراق بالاحتراق كما ذكر الزركشي . فكأنّه اشترط الخلو ليجتمع الجوع مع العُري ، واشترط الاحتراق ليجتمع أو يتقابل الظمأ مع الضحي .

لكن الحقّ أنّ هذه المقابلة في هذا الشاهد من أدقّ المقابلات وألطفها ، بل وأعجزها .

وما من شكّ أنّ في القرآن الكريم من البلاغة والإعجاز البياني ما عجزت عن احتوائه المصطلحات العلمية ، وما اندرج تحتها من أقسام وأنواع وإن دقت وقلّت ،

(١) سورة طه : الآيتان (١١٨-١١٩) .

(٢) البرهان ، ج ٣ ، ص ٥١٠ .

(٣) الإتيقان ، ص ٦٦٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦٩ .

فما في القرآن من الأسرار والخفايا ما هو أدقّ من ذلك وأجلّ ..

ثمّ من الملاحظ أنّ المقابلة في هذه الآية الكريمة اتصلت بالفاصلة ، قال الزركشي :
" واعلم أنّ في تقابل المعاني باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل ، وهو يتّصل غالباً بالفواصل " (١).

وقد وُفّق الزركشي والسيوطي في الكشف عن هذا اللون البديعي وبيانه غاية التوفيق ،
وحُقّق للسيوطي أن يخصّه باسم فريد ، هو : (ترصيع الكلام) .

ومما هو من بابه أيضاً : قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ ﴾ (٢).

وهو ما ذكره الزركشي ، وقال عنه : " فإنه قد يتبادر فيه سؤال ، وهو أنه لم لا قيل :
(مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، والأصمّ والسميع) لتكون المقابلة في لفظ (الأعمى)
وضدّه (البصير) ، وفي لفظ (الأصمّ) وضدّه (السميع) ؟ .

والجواب : أنه يقال : لمّا ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضدّ ذلك لمّا
ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ، فما تضمّنته الآية الكريمة هو الأنسب في المقابلة
والأتمّ في الإعجاز " (٣).

وهذا في رأيي القاصر يمكن أن يدخل في المقابلة بغير الأضداد في الظاهر التي لم
يتطرّق أو يلتفت لها الخطيب أو المصري ، كما سبق بيانه من قبل ، وإن اعترفا بها
كما ذكر ابن أبي الإصبع في تفريقه بين الطباق والمقابلة من أنّ المقابلة تكون
بالأضداد وبغير الأضداد .

(١) البرهان ، ج ٣ ، ص ٥٠٨ .

(٢) سورة هود : الآية (٢٤) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥١١ .

المبحث الثاني : مراعاة النظر :

لما أدخل فخر الدين الرازي هذا اللون البديعي تحت الجملة الثانية من كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، وهي النظم ، قال : " اعلم أنّ الجمل الكثيرة نظمت نظماً واحداً ، فلا يخلو إما أن يتعلّق البعض ببعض أو لا يتعلّق .

فإن لم يتعلّق البعض ببعض لم يحتجّ واضع ذلك النظم إلى فكرٍ ورويةٍ في استخراج ذلك النظم ...

وأما القسم الثاني ، وهو الذي تكون الجمل المذكورة متعلّقة بعضها ببعض ، فهناك تظهر قوّة الطبع ، وجودة القرينة ، واستقامة الذهن ، وكلّما كانت أجزاء الكلام أقوى ارتباطاً وأشدّ التحاماً ، كان أدخل في الفصاحة " (١).

إنّ هذا التعلّق الذي يعكس قوّة الطبع وجودة القرينة إنما هو عن ائتلاف بين الكلام ومراعاة من الناظم أو الناصر لهذا الائتلاف بالجمع والضمّ ..

والنظر هو المثلّ المساوي ، وهذا نظير هذا ، أي : مساوية ، والجمع (نظراء) (٢) ، وتعلّق النظر بالنظر ارتباطه واجتماعه ، قال العلوي في باب الائتلاف : " وهو افتعال من قولهم : ألّف الخرز بعضها إلى بعض : إذا جمعها " (٣).

وقد أجمع علماء البلاغة المتأخرون على أنّ مراعاة النظر هي الجمع بين أمرٍ وما يناسبه لا على جهة التضادّ ، لتخرج بذلك المطابقة .. أو هي الجمع بين التشابهات كما عرفها السكاكي (٤) ، ويسمى بالتوفيق والتلفيق والتناسب والائتلاف والمؤاخاة .

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، للرازي ، ص ٢٨٣ .

(٢) انظر : المصباح المنير ، ص ٦١٢ ، والقاموس المحيط ، ص ٦٢٣ ، مادة (نظر) .

(٣) الطراز ، للعلوي ، ج ٣ ، ص ٨٠ .

(٤) انظر : مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ٤٢٤ .

جاء في سورة الرحمن قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾^(١) ، وقوله تعالى :
﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾^(٣) .

فقد جمع في الآية الأولى مثلاً بين الشمس والقمر ، " وهما متناسبان ؛ لتقارنهما في
الخيال ، وكونهما كوكبين سماويين " ^(٤) ..

" وهما يجريان بحساب مقدر في بروجهما ومنازلهما ، بحيث تنتظم بذلك أمر الكائنات
السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، وتعلم السنون والحساب " ^(٥) .

" واللؤلؤ والمرجان والياقوت أمورٌ متناسبة ؛ لكونهما معادن نفيسة مقترنة في
الأذهان " ^(٦) ، وهما يخرجان من الملح ، وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ^(٧) .

ومن الشواهد البينة في هذا : " قول الشاعر :

وَالطَّلُّ فِي سِلْكِ الْغُصُونِ كُلُّوْلُو رَطْبٌ يُصَافِحُهُ النَّسِيمُ فَيَسْقُطُ
وَالطَّيْرُ يَقْرَأُ وَالْغَدِيرُ صَحِيفَةً وَالرَّيْحُ تَكْتُبُ وَالْغَمَامُ يُنْقِطُ

فالجمع بين كلٍّ أمر وما يناسبه في البيتين أوضح من أن يُدَلَّ عليه " ^(٨) ، وفي نور هذا
المثال - كما يقول ابن حجة - ما يمحو ظلمة الإشكال عن مراعاة النظر .

(١) سورة الرحمن : الآية (٥) .

(٢) سورة الرحمن : الآية (٢٢) .

(٣) سورة الرحمن : الآية (٥٨) .

(٤) الصبغ البديعي ، لأحمد موسى ، ص ٤٧٢ .

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم تفسير أبي السعود ، للقاضي محمد العمادي الحنفي ، تحقيق :

الشيخ محمد حلاف ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، ج ٦ ، ص ٢٤٧ .

(٦) علم البديع دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٥٧ .

(٧) راجع تفسير أبي السعود ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ .

(٨) علم البديع ، ص ١٨١ .

وعند تتبع نشأة هذا اللون البديع تجده مركزاً في طبيعة الشعر عند الأقدمين ، وإن لم يعلموا له اسماً ، فمن ذلك قول امرئ القيس :

فَدَمَعُهَا سَكْبٌ وَسَحٌّ وَدِيمَةٌ وَرَشٌّ وَتَوَكَّافٌ وَتَنَهَمْلَانُ^(١)

وقول ذي الرمة :

لَمِيَاءٌ فِي شَفَتِهَا حُوءٌ لَعَسٌ وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَنْبٌ^(٢)

إذ المقصد الذي تسعى إليه العرب في كلامها إنما هو الائتلاف والتلاؤم والانسجام بأكمله ، سواء بين اللفظ واللفظ ، أو بين اللفظ والمعنى ، أو بين المعنى والمعنى ، وائتلاف ذلك كله مع الوزن أو مع سائر البيت أو الجملة ، وما مراعاة النظير إلا فرعٌ من شجرة الائتلاف هذه !. وكأنما كانوا يتمثلون قول أبي هلال العسكري : " وينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقاً هاديه لعجزه ، ولا تتخالف أطرافه ، ولا تتنافر أطواره ، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أحبتها ، ومقرونة بلفقتها ، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام ، ولا يكون ذلك بين حشوٍ يُستغنى عنه ويتم الكلام بدونه "^(٣).

لذا كانت البديهة حاضرة عندهم ، فإذا وقع إخلالٌ بهذا التناسب أو الائتلاف كان هذا موضع نقدهم .

من ذلك ما وقع فيه الكميث^(٤) من سقطٍ في قوله :

(١) (سكبٌ) : منسكب أو مسكوب ، (سحٌّ) : السحج : الصبّ والسيلان من فوق ، (الديمة) : مطر يدوم في

سكون بلا رعد ولا برق ، (توكاف) : مصدر وكف البيت وكفاً : أي : قطر ، (تنهملان) : تفيضان .

(٢) (لمياء) : بينة اللمي ، وهي سمرة في الشفة ، (اللعس) : سواد مستحسن في الشفة ، (الشنب) : ماءٌ ورقّة ، وبردٌ وعذوبةٌ في الأسنان ، أو نُقْطٌ بيضاء فيها ، أو حدة الأنياب .

(٣) الصناعتين ، للعسكري ، ص ١٤٨ .

(٤) هو الكميث بن زيد الأسدي ، شاعر مقدم ، عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها ، فصيح ، كان معروفاً

بالتشيع لبني هاشم ، مشهوراً بذلك ، وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره ، كانت ولادته أيام

مقتل الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنه - سنة (٦٠هـ) ، ووفاته سنة (١٢٦هـ) في خلافة مروان بن

محمد ، ودُفن في الكوفة . انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعُلْيَاءِ نَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنْبُ

فقد روي أنّ الكميت اجتمع مع نصيب ، فاستشهده نصيب من شعره ، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت عقد نصيب بيده واحده ، فقال الكميت : ما هذا ؟. فقال : أحصي خطأك ، تباعدت في قولك : الدّلّ والشنب ؛ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لُمِيَاءُ فِي شَفِئِهَا حُوءٌ لَعَسُ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أُتْيَابِهَا شَنْبٌ^(١)

فمعروف أنّ الدّلّ يذكر مع الغنج وما أشبهه ، والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه ، كما ذكر ابن الأثير وعلّق قائلاً : " وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيراً ، وهو مظنة الغلط ؛ لأنّه يحتاج إلى ثاقب فكر وحذق ، بحيث توضع المعاني مع أخواتها ، لا مع الأجنبي منها " ^(٢) ، كي لا تكون الصّورة كما قال الشاعر :

وَشِعْرُ كُبْعَرِ الْكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسَانُ دَعْيٍ فِي الْقَرِيضِ دَخِيلٌ^(٣)

" وكان هذا هو دأب النقاد والبلاغيين ؛ إذ نبهوا إلى مزية التآخي بين الكلمات ، وعابوا الكلام الذي تتخالف أطرافه ، وكانوا يسجلون ذلك تحت ما عرف عندهم بالتناسب أو الائتلاف أو المؤاخاة " ^(٤) ..

ولعلّ أوّل مَنْ تحدّث عن التناسب هو بشر بن المعتمر ^(٥) في صحيفته ، فقال :

(١) انظر : الخصائص ، لابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، د.ت ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ . ولقد فصل القول في هذا كثيراً .

(٣) ورد هذا البيت في (البيان والتبيين) ، للجاحظ ، ج ١ ، ص ٥٠ ، ساقه في مقياس جودة الشعر ، وعلّق عليه تعليقاً في غاية الرّوعة من البيان .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٥١ .

(٥) هو العلامة أبو سهل الكوفي ثمّ البغدادي ، شيخ المعتزلة ، وصاحب التصانيف ، له كتاب : تأويل المتشابه ، وكتاب : الردّ على الجاهل ، وكتاب : العدل ، كان ذكياً فظناً . مات سنة (٢١٠هـ) .

انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٠ ، ص ٢٠٣ .

" ومن أراغ معنىً كريماً فليلتبس له لفظاً كريماً ، فإنَّ حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف " ،
ثمَّ الجاحظ ؛ إذ قال : " ولكلَّ ضربٍ من الحديث ضربٌ من اللفظ ، ولكلَّ نوعٍ من المعاني
نوعٌ من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيفُ للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح
في موضع الإفصاح ... " ^(١) .

ولم يردْ شيءٌ من ذلك عند ابن المعتزِّ ، ربَّما لأنَّ هذا الائتلاف والتناسب تنصَّب به كلُّ
ألوان البديع عنده ، وهو سارٍ فيها ويجري عليها ، أما قدامة فقد كانت أوجه الائتلاف عنده
مقسمة ، وسلك في بعض أوجهه بعض الألوان البيانية .. إذ قال : " ومن أنواع ائتلاف
اللفظ مع المعنى : المساواة ، الإشارة ، الإرداف ، التمثيل ، المطابق ، والمجانس " ^(٢) . وذكر
من عيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى : الإخلال ، والحشو ، والتثليم ، والتذنيب ، والتغيير ،
والتفصيل ^(٣) .

وجاء الائتلاف والتلاؤم من جهة الحروف فقط عند الرماني ، فالتأليف عنده ثلاثة أوجه
متنافرة ، ومتلائم من الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ، وهو القرآن الكريم ؛
والسبب في هذا التلاؤم راجعٌ عنده للحروف ، " والفائدة في التلاؤم حُسن الكلام في
السمع وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حُسن الصورة
وطريق الدلالة " ^(٤) .

ويبدو أنَّ طلائع هذا اللون البديعي بدأت تظهر عند أبي هلال العسكري ؛ إذ عقد في
كتابه (الصناعتين) باباً سماه : (في جمع المؤتلف والمختلف) ، وعرفه بقوله : " هو أن يجمع في
كلامٍ قصيرٍ أشياء كثيرة مختلفة أو مؤتلفة " ^(٥) .

(١) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٤١٩ ، بتصرف يسير ، (نقلًا عن : البيان ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٤٥) .

(٢) نقد الشعر ، ص ١٥٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٦ .

(٥) الصناعتين ، ص ٤١٧ .

والناظر لشواهدة يجدها تصدق على ما عُرف عند المتأخرين بـ (مراعاة النظر) ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾^(١) .

وقول امرئ القيس السابق ، وقوله من نظمه :

أَنْتَ الرَّبِيعُ الْغَضُّ رَقَّ نَسِيمُهُ وَاخْضَرَّ رَوْضَتُهُ وَطَابَ غَمَامُهُ

وقوله :

مِنْ الْغُرِّ لَاحُوا أَشْمُسًا وَمَضَوْا ظُبًى وَصَالُوا أَسُودًا وَاسْتَهَلُّوا سَوَارِيَا^(٢)

لكن يبدو أنَّ أبا هلال كان مسبقاً بهذا الجمع ، فقد مثل القاضي الجرجاني عليه بقول النابغة :

حَدِيدُ الطَّرْفِ وَالْمَنْكِ بِ الْعُرْقُوبِ وَالْقَلْبِ

وسماه جمع الأوصاف ، وقال : " وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرناه بديعاً ؛ لكنه أحد أبواب الصنعة ، ومعدود في حلى الشعر ، وله أشباه تجري مجراه ، وتذكر معه ، كالاتفات والتوصيل وغيرهما ... " ^(٣) .

وهناك إشارات واضحة عند ابن رشيق عن هذا اللون في باب (النظم) ، فبعد أن استهله بقولٍ للجاحظ ، هو : " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم

(١) سورة الأعراف : الآية (١٣٢) .

(٢) انظر : الصناعتين ، ص ٤٢٠ .

و(سواريا) : جمع سارية ، وهو السحاب يسري ليلاً .

(٣) الوساطة ، ص ٤٧ .

و(الطرف) : العين ، (المنكب) : مجتمع رأس الكتف والعضد ، وعريف القوم أو عونهم ، (العرقوب) : عصب غليظ فوق عقب الإنسان .

بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان " ، واستأنس ببعض ما أنشد للجاحظ ، وهو :

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَبْنَاءُ عَلَّةٍ يَكْدُ لِسَانُ النَّاطِقِ الْمُحَفِّظِ

قال : " والناسُ مُخْتَلِفُو الرَّأْيِ فِي مَزَاجَةِ الْأَلْفَاظِ ، مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الْكَلِمَةَ وَأَخْتَهَا " ، من ذلك قول البحري :

تَطِيبُ بِمَسْرَاهَا الْبِلَادُ إِذَا سَرَتْ فَيَنْعَمُ رِيَّاهَا ، وَيَصْفُو نَسِيمُهَا

ففي القسم الآخر تناسب ظاهر ..

ومنهم مَنْ يَقَابِلُ لَفْظَتَيْنِ بِلَفْظَتَيْنِ ، وَيَقَعُ فِي الْكَلَامِ حِينَئِذٍ تَفْرِقَةٌ ، وَقَلَّةٌ تَكْلَفُ ، فَمِنْ الْمُنَاسَبِ قَوْلُ عَلِيٍّ عليه السلام فِي بَعْضِ كَلَامِهِ : " أَيْنَ مَنْ سَعَى وَاجْتَهَدَ ، وَجَمَعَ وَعَدَّدَ ، وَزَخَرَفَ وَنَجَّدَ ، وَبَنَى وَشَيَّدَ ؟ ، فَأَتَبَعَ كُلَّ لَفْظَةٍ مَا يَشَاكِلُهَا ، وَقَرَنَهَا بِمَا يَشَبِهَا " ^(١).

أما ابن سنان فقد تكلّم عن الألفاظ المؤلفة ، وجاء حُسن التّأليف مرتبط عندّه بترادف الكلمات المختارة وتواترها ^(٢) ، ورغم أنّه تحدّث عن تناسب الألفاظ من جهتين : من جهة الصيغة ، ومن جهة المعاني ؛ إلا أنّ هذا اللون البديعي لم يأتِ عنده ضمن هذا التناسب رغم أولويته ، إنما كانت منه إلماعةٌ إلى ما هو مرتبطٌ بمراعاة النظر عندما قال في الطّباق : " فأما إذا كان معنيا الكلمتين غير متناسبتين لا على التقارب ولا على التضادّ ، فإنّ ذلك يقبّح ، ومنه ما أنكره نصيب على الكُميت ... " ^(٣) . ثمّ أورد الرّواية المشهورة .

وجاء عند أسامة بن منقذ باباً سمّاه : (التهذيب والترتيب) ، يُفهم منه الغاية من كلّ لونٍ بلاغيٍّ ، بما فيه مراعاة النظر ؛ إذ يقول : " ولا يجعل كلّ الكلام شيئاً واحداً ، بل

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٤٤٢ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

تفصّله ؛ لتكون كلّ كلمة مكانها ، وإلا كان كالجسد المعكوس الأعضاء ^(١) .

لكن كان أوّل ظهور لهذا اللون البديعي بهذه التسمية المستقرّ عليها الآن ، وهي (مراعاة النظر) ، كانت عند الإمام فخر الدين الرازي في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، وجاء عنده ضمن جملة الحديث عن النظم كما سبقت الإشارة ، وعرفه قائلاً : " وهو عبارة عن جمع الأمور المتناسبة ، كقوله :

أَخَا الْفَوَارِسَ ، لَوْ رَأَيْتَ مَوَاقِفِي وَالْخَيْلَ ، مِنْ تَحْتِ الْفَوَارِسَ ، تَحْطُ ^(٢)
لَقَرَأْتُ مِنْهَا مَا تَخْطُ يَدُ الْوَعَى وَالْبَيْضُ تَشْكُلُ وَالْأَسِنَّةُ تَنْقُطُ ^(٣)

ولما كانت قضية النظم عند عبد القاهر الجرجاني هي الوعاء الذي يضمّ كثيراً من الألوان البلاغية ويفسّر مزيّتها ، فقد جاء عنده ما يحدثه الجمع بين الألفاظ المتناسبة من المؤانسة والمواءمة ، وهو سبيل الحكم على الكلمة بالفصاحة ؛ إذ يقول : " وهل تجد أحداً يقول : " هذه اللفظة فصيحة " إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحُسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ^(٤) . وقال في مكان آخر : " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل ^(٥) .

أما السكاكي والخطيب القزويني فقد تبعوا الرازي في هذه التسمية ، فعرفه السكاكي بالجمع بين التشابهات ^(٦) كما مرّ ، وعرفه الخطيب بأنه : " الجمع في الكلام بين أمرٍ وما يناسبه لا بالتضادّ ^(٧) . إلا أنّهما أدخلا ضمن المحسنات المعنوية ، وأدخلا الرازي ضمن جملة

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٦ .

(٢) أي : تزفر زفيراً .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٩٢ .

(٤) دلائل الإعجاز ، ص ٤٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(٦) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٤ .

(٧) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ١٤ .

النظم ، وربطه الخطيب خاصة بمفهومه عند القدماء ، وهو التناسب والائتلاف والتوفيق ، وهذا من زياداته على السكاكي . وجاء معنى الائتلاف ومُراعاة النظر من قبل عند ابن الأثير تحت عنوان : (المؤاخاة بين المعاني) ، وعرفه بقوله : " هو أن يُذكر المعنى مع أخيه ، لا مع الأجنبي ؛ مثاله : أن تذكر وصفاً من الأوصاف ، وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحاً في الصناعة ، وإن كان جائزاً " ^(١) ، لذا عدّ ما وقع فيه أبو نواس عيباً عندما قال :

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِيناً مَبْرُورَةً لَا تُكَذِّبُ
بِرَبِّ زَمْزَمَ وَالْحَوْ ضِ وَالصِّفَا وَالْمُحَصَّبِ ^(٢)

فقال : " فإنّ ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان ، وما جرى مجراها ، وأما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم ، وما جرى مجراها " ^(٣) .

ويُعدّ ما عند ابن الأثير مرحلة متقدّمة من مراحل نشأة مراعاة النظر قبل أن يستقرّ عند السكاكي والخطيب القزويني .

الفرق بين مراعاة النظر والائتلاف :

إنّ أغلب ما استشهد به على مراعاة النظر عند المتأخّرين من مثل قول أسيد بن عناق ^(٤) الفزاري :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشَّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْبَدْرُ ^(٥)

(١) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) (والمُحَصَّب) : موضع بمكة على طريق منى ، ويسمى : البطحاء ، وهو أيضاً مرعى الجمار بمعنى .

(٣) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٤) هي أمّه ، وقد اشتهر بنسبته إليها ، واسم أبيه بجرة .

(٥) (الثرى) : كواكب في عنق الثور ، و(الشعري) : كوكب في الجوزاء .

وقول البحري :

كَالْقِسِيِّ الْمُعْطَفَاتِ بَلِ الْأَسْ هُمْ مَبْرِيَّةٌ بَلِ الْأَوْتَارِ^(١)

تتناول مناسبة اللفظ للفظ أو ائتلاف اللفظ مع اللفظ الذي هو " أن تريد معنى من المعاني تصح تأديته بألفاظ كثيرة ، ولكنك تختار واحداً منها لما يحصل فيه من مناسبة ما بعده وملاءمته "^(٢) ، وهذا النوع من الائتلاف ليس أقل تأثيراً كما أشار بعض الدارسين ، بل هو من أهم عوامل إشاعة جو من التلاؤم والانسجام في سائر النص ، وإلا لما ورد في القرآن الكريم .

غير أن ما يذكر للخطيب القزويني ومن تبعه ممن شرحوا تلخيصه أنهم اتجهوا إلى الاهتمام بالمناسبة المعنوية عندما ألحقوا بمراعاة النظر ما يسمى بتشابه الأطراف ، وهو أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله في المعنى ، ولم يستشهدوا له من غير القرآن ؛ لأنها ميزة انفرد بها القرآن الكريم ، الذي بلغ قمة الفصاحة والبلاغة حتى ترقى إلى الإعجاز ، وتشابه الأطراف خاص بالفواصل التي تأتي على أوثق ما يكون ارتباطاً بمعنى سائر الآية^(٣) ، بل إن هذه الدائرة عند الخطيب كانت قد اتسعت من قبل عند ابن أبي الإصبع العدواني ، والعلوي ، وعند من جاء بعده ، كالزركشي ، وابن حجة ، والسيوطي ؛ لتشمل ضرباً ثالثاً من ضروب الائتلاف غير مناسبة اللفظ للفظ ، أو مناسبة المعنى للمعنى ، وهو مناسبة اللفظ للمعنى ، وعرفه العدواني بقوله : " أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريباً قبحاً كانت ألفاظه غريبة محضة ، وإذا كان المعنى مولداً كانت الألفاظ

(١) (القسي) : جمع قوس ، و(المبرية) : المنحوتة ، و(الأوتار) : جمع وتر ، وهو الخيط الجامع بين طرفي

القوس ، والإضراب في ذلك للترقي ؛ لأن السهام أرق من القسي ، والأوتار أرق من السهام .

(٢) الطراز ، للعلوي ، ج ٣ ، ص ٨١ ، وعرفه قريب منه ابن حجة في : (خزانة الأدب) ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ،

والسيوطي في : (الإتقان) ، ص ٦٥٥ .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٥٢ ، و ص ٥٤ ، بتصرف يسير .

مولدة ، وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان غريباً كانت الألفاظ غريبة ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ معروفة مستعملة ، وإذا كان متوسطاً بين الغرابة والاستعمال كانت ألفاظه كذلك" (١).

وذكر العلوي أنّ " هذا بابٌ عظيمٌ في علم البديع ، وجاء القرآن الكريم على هذا الأسلوب ، فإذا كان المعنى بعيداً وزجراً وتهديداً ، أو إنزال عذاب ، أو إيقاع واقعة ، أتى فيه بالألفاظ الغريبة الجزلة ، وإذا كان المعنى وعداً وبشارة ، أتى فيه بالألفاظ الرقيقة العذبة " (٢).

فمن ذلك ما استشهد به الزركشي ، وهو قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ (٣) ، قال : " فإنه لم يخلُ هذا الكلام من حُسن الأدب مع أبيه ، حيث لم يصرّح فيه بأنّ العذاب لاحقٌ له ، ولكنه قال : (إني أخاف) ، فذكر الخوف والمسّ ، وذكر العذاب ونكّره ، ولم يصفه بأنّه يقصد التهويل ، بل قصد استعطافه ؛ ولهذا ذكر (الرحمن) ، ولم يذكر (المنتقم) ولا (الجبار) ، على حدّ قوله :

فَمَا يُوجِعُ الْحَرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَازِمٍ كَمَا يُوجِعُ الْحَرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقٍ " (٤)

ويدخل هذا ضمن بلاغة الكلمة والجملة والعبارة في القرآن الكريم الموظفة لخدمة الغرض الأكبر والأسمى من الكتاب المبين ، وهو طرق القلوب لإخراجها من الظلمات إلى النور (٥) ، بل هو من التناسق المعنوي والنفسي بين ما يعرضه القرآن والسياق الذي يعرضه فيه ،

(١) بديع القرآن ، لابن أبي الإصبع ، ص ٧٦ ، وذكر ابن حجة أنّ هذا النوع ذكره قدامة وترجمه منفرداً ، ولم يبين معناه ، وشرحه الآمدي وأطال ، ولم توفّر عبارته بإيضاح ، وأوضحه ابن أبي الإصبع . انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ٨٠ ، وذكره أيضاً القاضي الجرجاني والمرزوقي . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ١٥ .

(٣) سورة مريم : الآية (٤٥) .

(٤) البرهان ، للزركشي ، ج ٣ ، ص ٤٣٩ .

(٥) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٦٤ ، بتصرف .

وانسجام هذا كله مع الغرض الديني والمظهر الفني ، سواء بسواء ، وهو تناسق أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية^(١) .

ف " تسمع كلمة (يصطرخون) في الآية : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ ۞ وَهُمْ يَصْطَرَخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۞ ﴾^(٢) .

فيخيل إليك جرسها الغليظ ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة ، كما تلقي إليك ظلاً من الإهمال لهذا الاضطراب الذي لا يجد من يهتم به أو يليه ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون^(٣) .

" وهكذا فإنّ اللفظ لا يُعدّ مناسباً لمعناه إلا عندما يؤدي الغرض المطلوب ، وبحيث يلائم السياق^(٤) ، وبالتالي فإنّ مراعاة النظر تتسع حقيقته عند تأمل شواهد وإن حصره بعض المتأخرين في بعض أوجه الائتلاف ، بل إنّ كلا الأمرين وحدة متصلة غير منفصلة ؛ لأنّ الحديث عنهما لا يكون إلا من خلال الحديث عن الألفاظ والمعاني أو التعبير والشعور ، وهذان الأمران يكمل بعضهما البعض ؛ إذ لا تعبير إلا وهو ثمرة لمعنى أو شعور ، وليس ثمرة معنى أو شعور يؤدي بغير لفظ ، ومن هنا فإنّه ليس هناك فرق بين الائتلاف ومراعاة النظر إلا لأجل الدراسة فقط^(٥) .

فقد جاء في أنوار الربيع عن مراعاة النظر : " وهو عبارة عن أن يجمع المتكلم بين أمر

(١) التصوير الفني في القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ص ٨٩ و ص ٩٢ ، بتصرّف يسير .

(٢) سورة فاطر : الآية (٣٦-٣٧) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٥٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٠ ، بتصرّف .

وما يناسبه لا بالتضاد ، سواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى ، أو لفظاً للفظ ، أو معنى لمعنى ؛ إذ القصد جمع الشيء مع ما يناسبه من نوعه ، أو ملائمة من أحد الوجوه ^(١) .

قال ابن معصوم : " ولا يخفى أنّ هذا التفسير يدخل فيه ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وائتلاف اللفظ مع اللفظ ، وائتلاف المعنى مع المعنى ، وكلّ من هذه الأقسام عدّه أرباب البديعيات نوعاً برأسه ، ونظموا له شاهداً مستقلاً ، وجعلوه مُغايراً لهذا النوع ، مع أنهم مثلوا لائتلاف اللفظ بما مثلوا به لمراعاة النظر بعينه ولا وجه لذلك ، بل كان الصواب تنويع هذا النوع إلى هذه الأنواع الثلاثة كما فعل صاحب التبيان ^(٢) .

ونقل عنه : " أنّ هذا كتنويهم اللف والنشر إلى أنواعه المذكورة ، والالتفات إلى أنواعه الستة ، وغير ذلك من أنواع البديع التي هي تنوّع إلى أنواع ^(٣) ، ثم نقل عنه حداً بين النوعين ، وهو أنّ مراعاة النظر عبارة عن أن يجمع المتكلم بين لفظين أو ألفاظ متناسبة المعاني ، إما حقيقة أو ظاهراً ، بينما يُحد ائتلاف بما ذكره العلامة السيوطي في الإتيان ^(٤) . ومما يؤكّد الصلة الوثيقة بين مراعاة النظر والائتلاف قول ابن حجة عن مراعاة النظر : " وهو في الاصطلاح أن يجمع الناظم أو الناثر بين أمرٍ وما يناسبه ، مع إلغاء ذكر التضادّ لتخرج المطابقة ، وسواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى أو لفظاً للفظ ، أو معنى لمعنى ؛ إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو إلى ما يلائمه من أحد الوجوه ^(٥) .

ويُلحق بمراعاة النظر ما يسمى بإيهام التناسب ؛ إذ يبدو أنّ في اللفظ تناسباً في ظاهر

(١) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٤) انظر : الإتيان ، للسيوطي ، ص ٦٥٥ ، وهو ما ذكره ابن أبي الإصبع عن ائتلاف اللفظ مع المعنى مع اختلاف الأسلوب ، وقد سبق ذكره .

(٥) خزانة الأدب ، لابن حجة ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

الأمر ، وأشهر شواهد هذا النوع هو قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ والنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ^(١) .

فالمقصود بالنجم : هو النبات الذي لا ساق له ، وبحسب هذا المعنى يكون التناسب قد انتفى بينه وبين الشمس والقمر ، وبقي تناسبه مع الشجر فقط ، لكن التناسب ظاهر بين العناصر الأربعة وإن خفي ، " والحق أن القرآن لم يعبر عن النبات الذي لا ساق له بالنجم مجرد المناسبة اللفظية مع الشمس والقمر ، ولكن أولاً لأن هذا هو أوجز وأدق الألفاظ دلالةً على المراد الذي يناسب الشجر ، ثم ترتب على هذا أن جاءت تلك المناسبة مع الشمس والقمر " ^(٢) .

المزية البلاغية لمراعاة النظر :

إذا كشفت اللثام عن مراعاة النظر أو الائتلاف ، ستجد أن القيمة الفنية لهما والمزية البلاغية تتجاوز مسألة انتظام الألفاظ وجمع بعضها إلى بعض ، فهذا أمر هين لا يحتاج واضعه إلى فكر وروية ، بل ترى سبيله في ضم بعضها إلى بعض ، " سبيل من عمد إلى لال فخرطها في سلك ، لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمّن نضد أشياء بعضها على بعض ، فلا يريد في نضده ذلك أن تحيى له منه هيئة أو صورة ، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين " ^(٣) .

إنما الذي يأسر النفس ويهزّها ويؤثر فيها هو ما بين الألفاظ من تآلف وانسجام ، وما بين اللفظ والمعنى من مؤاخاة وتلاحم ، وما يضيفه اللفظ إلى المعنى من دلالات وتحليلات حتى لا يكون بينك وبينه واسطة ، بل هو متمكّن في دلالاته ، مستقلّ بواسطته ، " يسفر بينك وبينه أحسن سفارة ، ويشير لك إليه أبين إشارة ، حتى يُخَيِّلَ إليك أنك فهمته من حاقّ

(١) سورة الرحمن : الآيتان (٥-٦) .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٥٩ .

(٣) دلائل الإعجاز ، للجرجاني ، ص ٩٦ .

اللفظ ، وذلك لقلّة الكلفة فيه عليك ، وسرعة وصوله إليك " (١) .

وتلك موهبة تجدها عند الشعراء المطبوعين الذين يُلهَمون القول إلهاماً ، فما هو إلا الانفعال ، فتغرف الألفاظ من معينه عفواً ، فإذا بالكلمة التعبيرية تستنفذ الطاقة الشعورية وتطابقها ، " فيتناسق التعبير مع الشعور ، ويتطابق الانفعال مع شحنات الألفاظ ، وتستنفذ العبارة اللفظية الطاقة الشعورية " (٢) ، وكأنه عمل من صنع الإلهام ! .

" وما يدلّ على أهمية النظر في بلاغة الكلام ، ما روي أنّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ زَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴾ (٣) ، ولم يكن الأعرابي يقرأ القرآن ، فقال : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنّه إغراء عليه . وقد تحقّق فقه الأعرابي ، فختام الآية : ﴿ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والعزّة والحكمة هما اللتان تناسبان مَنْ يزلّ من بعد ما وضع الحقّ وتبين " (٤) .

ولا يقتصر هذا الأثر النفسي على هذا الائتلاف الظاهر المتسلل إلى النفس بعفويته وسلاسته ، بل إنّ السياق الذي وقع فيه الائتلاف يسهم في استكمال الصورة وتبرجها بصورة أبهى لتبلغ المقصد والغاية ، وكلّما اشتدّ التآلف والتآزر بين المعاني والألفاظ والسياق والجو العام كانت النفوس إليه أميل وآلف ، ولا أدلّ على هذا التآلف من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿٢﴾ ﴾ (٥) ، فإنّك " تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصُّور على اختلافها " (٦) .

ومن هذا الوادي التعبير عن الجنة بأنّها : ﴿ رَوْحٌ وَرِيحَانٌ ﴾ وما في لفظهما من جرس خلّابٍ رقيق وظلالٍ من الإحساس بالحياة والاسترواح بها ..

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ . و(حاقّ اللفظ) : أي : ظاهره .

(٢) النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، لسيد قطب ، دار الشروق - لبنان ، ط ٥ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ٣٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية (٢٠٩) .

(٤) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٤٩ ، وانظر : الإتيقان ، للسيوطي ، ص ٦٨١ .

(٥) سورة التكويد : الآية (١٧) .

(٦) النقد الأدبي ، لسيد قطب ، ص ٤١ .

ولك أن تتأمل المؤاخاة بين المباني والمعاني والتعبير والشعور في قول طفيل الغنوي
لبنى جعفر بن كلاب :

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَرْلَقْتُ بَنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَرَلَّتْ
أَبَوْا أَنْ يَمْلُونَا ، وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا تُلَاقِي الَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتْ
هُمْ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْجَأُوا إِلَى حُجُرَاتٍ أَذْفَاتُ وَأَظَلَّتْ
وقول البحري :

إِذَا بَعُدَتْ أَبْلَتْ ، وَإِنْ قَرَبَتْ شَفَتْ فَهَجْرَانَهَا يُبْلِي ، وَلُقيَانَهَا يَشْفِي

ويقوي هذا الميل في نفسك إلى هذه الأبيات مُلاءمة السياق بحيث يؤدي الغرض ويفي به ؛
فتخير الألفاظ ، وإبدال بعضها من بعض يوجب الثام الكلام ، وهو من أحسن نعوته وأزین
صفاته ، فيكون قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام^(١).

ومن محاسن مراعاة النظر ما نقله ابن معصوم عن ابن الخشاب في المستضيء قوله :

وَرَدَ الْوَرَى سِلْسَالُ جُودِكَ فَارْتَوُوا وَوَقَفْتُ دُونَ الْوَرْدِ وَقَفَّةَ حَائِمٍ
ظَمَّانَ أَطْلُبُ خِفَةً مِنْ رَحْمَةٍ وَالْوَرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحِمٍ

فانظر إلى هذين البيتين فإنهما كادا يجريان مع الماء في السلاسة ، مع أنَّ قائلهما لم
يتجانف فيهما عن حكاية الماء وما يناسبه ، حتى عدَّ فيها ائتلاف عشر^(٢).

قال ابن معصوم : " أي بين عشرة أشياء هي : الورد ، والسلسال ، والارتواء ، والحائم ،
والظماء ، والخفة ، والزحمة ، ثم الورد مرة أخرى والتزاحم "^(٣).

(١) الصناعتين ، لأبي هلال ، ص ١٤٧ ، بتصريف يسير .

(٢) أنوار الربيع ، لابن معصوم ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ، بتصريف يسير .

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

فأساليب مراعاة النظر التي عمادها جمع أمرٍ وما يناسبه لا بالتضادّ مما تقتضيهما الأحوال ، وتستدعيها الأغراض ، وإلا فإنه يمكن القول في غير القرآن : " الشمسُ بحسبان ، والقمر بحسبان " ، إلا أنه لغوٌ وعبثٌ وباطلٌ من التأليف ؛ لأنه إطنابٌ لا داعي له ^(١).

وأختمُ الحديث عن مزية مراعاة النظر أو الائتلاف بكلامٍ للعلوي ، إذ يقول : " يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة ، والجمل المركبة ، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة ، آخذاً بعضها بأعناق بعض ، وعند ذلك يقوى الارتباط ، ويصفو جوهر نظام التأليف ، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء ، أو كالعقد من الدرّ فصلت أسماطه بالجواهر والآلئ ، فخلص على أتمّ تأليف ، وأرشق نظام " ^(٢).

" هذا وقد يلحق الشاعر بالأمور المتناسبة أمراً لا يتلاءم معها في الحقيقة والواقع ، وإنما يتلاءم معها في الخيال والتصوّر ، وهو يهدف من وراء ذلك إلى غرض بلاغي ، كالمبالغة في المديح وغيره من المعاني ، كقول محمد بن وهيب في مدح المعتصم ^(٣) :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

تجده قد جمع بين الشمس والقمر ، ولا يخفى عليك ما بينهما من تناسب ، أما أبو إسحاق فلا يتناسب معهما في الواقع ، وإنما يتناسب معهما في خيال الشاعر الذي سوى بينه وبينهما في الإشراق والبهجة ^(٤).

(١) الصبغ البديعي ، لأحمد موسى ، ص ٤٧٢ ، بتصرف يسير .

(٢) الطراز ، للعلوي ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٣) هو محمد بن وهيب الحميري ، شاعر من أهل بغداد ، من شعراء الدولة العباسية ، وأصله من البصرة ، وكان يستميتح الناس بشعره ويتكسب بالمديح ، ولم يزل منقطعاً إلى المأمون حتى مات ، وكان يتشيع ، وله ميراث في أهل البيت - رضوان الله عليهم - ، وهو متوسط بين شعراء طبقة . وأبو إسحاق كنية المعتصم . انظر : معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٤) علم البديع دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٥٨ .

مراعاة النظر بين ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني :

لما كان ابن أبي الإصبع سابقاً للخطيب القزويني ، فإنّ هذا اللون البديعي بهذا الاسم ، وهو (مراعاة النظر) لم يكن معروفاً قبل الخطيب القزويني والسكاكي ، إلا عند الإمام فخر الدين الرازي ، لكن يبدو أنّ هذه التسمية لم ترُق عند مَنْ جاء بعده ، ولم تلقَ القبولَ إلا عند المتأخرين ، لذا جاء هذا اللون البديعي عند ابن أبي الإصبع العدواني تحت عنوان : (المناسبة) ، وهو ينزع في هذا منزع القدماء رغم تأخره ، بل ينزع إلى الأدباء منهم خاصةً كابن الأثير ، فإنّ هذا اللون عنده حمل اسم (المؤاخاة بين المعاني) ، وهو أحد أضرب التناسب بين المعاني^(١) . إلا أنّ الخطيب القزويني مُتَّفَقٌ ومُقرَّرٌ عنده أنّ هذا اللون البديعي يسمى بالتناسب والائتلاف والتوفيق أيضاً ، وهو مرادفٌ له ، لكن معنى النظر - وهو المثل والشبيه - وكميّته وعدده في الشاهد الواحد كان هو خطُّ الارتكاز الأول عند الخطيب القزويني ، ويأتي تبعاً لذلك لفت النظر إلى ما بين الأشباه من تناسب تبعاً للمراعاة . بينما كان ابن أبي الإصبع العدواني مشغولاً إلى حدٍّ كبير بمقدار التناسب والتآلف بين النظائر لا بعددها ، حتى إنه عقد أبواباً عدّة في هذا الخصوص ، كـ (باب الانسجام) و (باب التهذيب) و (باب حُسن النسق) و (باب جمع المؤتلفة والمختلفة) .

وربما هذا يُفسّر الإتيان بلفظ (النظر) عند الخطيب القزويني ، وتخيّر لفظ (المناسبة) عند ابن أبي الإصبع العدواني ، ولا يخفى عليك أنّ هذا مرتبط بالميل الشخصي عند كلٍّ منهما ، وبالمنهج الذي يتبعه كلاهما ، بل إنّ أشدّ ما يعكس هذا الميل واختلاف المنهج أنّ مظاهر هذا اللون البديعي أو ظواهره جاءت عند الخطيب القزويني مجموعة تحت بابه ، وميّزها بقوله - مثلاً - : (ومِمَّا يلحق به ، ومن خفي هذا الضرب ، ومن التناسب ما يُسمّى) .

أما ابن أبي الإصبع ، فقد جاءت ظواهره مفرّقة في كتابه (بديع القرآن) ، وكذلك (تحرير التعبير) تحت أسماء عدّة ، وكأنّ لكلّ ظاهرة خصوصيتها المتفرّدة ، وبلاغتها التميّزة ، وإن اجتمعت مع بقية الظواهر في الانسجام والائتلاف وحُسن النسق والتناسب .

(١) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

فجاء عنده (باب المناسبة) و(باب ائتلاف اللفظ مع المعنى) و(باب تشابه الأطراف) ، وهو في هذا الباب الأخير خاصةً مفترقٌ عن الخطيب القزويني .

و(باب جمع المختلفة والمؤتلفة) ، وأتى فيه بشواهد من ائتلاف الألفاظ بمعانيها .

وأضاف الخطيب ضرباً من ضروب هذا اللون البديعي ، وهو إيهام التناسب ، لم يذكره ابن أبي الإصبع ، إلا أنه تفرّد عن الخطيب بذكر مظهر من مظاهر التناسب ، وهو ائتلاف اللفظ مع المعنى كما سيأتي .

تعريف مراعاة النظر :

قال الخطيب القزويني : " ومنه - أي من المحسن المعنوي - : مراعاة النظر ، وتُسمّى التناسب والائتلاف والتوفيق أيضاً ، وهو أن يُجمع في الكلام بين أمرٍ وما يُناسبه لا بالتضادّ " ^(١) .

والخطيب القزويني هنا عدل عن عبارة السكاكي : " الجمع بين المتشابهات " ^(٢) ؛ " لأنه لا يصدّق على جمع المتناسين لا بالشبه ، كالقوس والسهم والوتر " ^(٣) .

وذكر الشّراح أنّ قوله : " بالتضادّ " قيد أخرج به الطباق ؛ لأنّ قوله : " يجمع في الكلام بين أمرٍ وما يُناسبه " شاملٌ للطباق والمشكلة ومراعاة النظر ^(٤) .

وقد مثل عليه الخطيب القزويني بقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ^(٥) ، فجاء الجمع بين أمرين متناسين ، هما : الشمس والقمر ؛ " لتقارنهما في الخيال ، وكونهما كوكبين سماويين يبدّدان ظلام الكون " ^(٦) .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٤ .

(٢) انظر : مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ٤٢٤ .

(٣) الأطول ، لعصام الدين ابن عربشاه ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨١ ، والمطول ، لسعد الدين التفتازاني ، ص ٦٤٤ .

(٥) سورة الرحمن : الآية (٥) .

(٦) الصبغ البديعي ، ص ٤٧٢ .

ومعنى الآية : " قال قتادة وغيره : أي : هما يجريان بحسبان مقدّر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم السنون والحساب " ^(١) .

أما ابن أبي الإصبع العدواني فإنه قابل هذا اللون البديعي بما هو ملحق بمراعاة النظر عند الخطيب القزويني ، وهو (تشابه الأطراف) ، مع العلم أنّ هذا المصطلح أطلقه ابن أبي الإصبع على وجه آخر من أوجه البديع ، كما سيأتي . إنما المقصود هنا جاء تحت باب (المناسبة) .

وتشابه الأطراف هو أن يُختتم الكلام بما يُناسب أوله في المعنى ، واستشهد له الخطيب القزويني ، وابن أبي الإصبع العدواني - مع فارق الإطلاق - والبلاغيون عامة بفواصل القرآن الكريم بما يُشير إلى أنهم لم يروا تشابه الأطراف ، أو مناسبة نهاية الكلام لأوله إلا في القرآن الكريم ، أو أنهم لم يعتدوا بغيره ^(٢) .

قال ابن أبي الإصبع تحت باب (المناسبة) : " هي على ضربين : مناسبة في المعاني ، ومناسبة في الألفاظ ، فالمعنوية هي : أن يبتدئ المتكلم بمعنى ، ثم يتمّ كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ " ^(٣) .

والمناسبة المعنوية هي المقصودة هنا ، وهي ما سماها ابن معصوم بتناسب الأطراف ، وعرفها بقوله : " عبارة عن أن يبتدئ المتكلم كلامه بمعنى ، ثمّ يختمه بما يُناسب ذلك المعنى الذي ابتداء به ، وهذا النوع جعله الخطيب في التلخيص والإيضاح من مراعاة النظر . قال : ومن مراعاة النظر ما يُسمّيه بعضهم تشابه الأطراف ، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى " ^(٤) .

ثم قال : " وقد علمت أن الشيخ زكي الدين بن أبي الإصبع نقل هذا الاسم - وهو

(١) انظر : روح المعاني ، للألوسي ، ج ٢٧-٢٨ ، ص ١٤١ .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٦٤ ، بتصرف يسير .

(٣) بديع القرآن ، ص ١٤٦ .

(٤) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

تشابه الأطراف - إلى نوع التسيغ الذي هو عبارة عن أن يعيد الشاعر لفظة القافية في أول البيت الذي يليها ، فتكون الأطراف متشابهة ، وهي تسمية مطابقة للمسمى " (١) .

وقال : " وسمي بعضهم هذا النوع تشابه الأطراف المعنوي ، وهو تطويل في العبارة ، فرأينا نحن تسميته بتناسب الأطراف أولى ؛ لمطابقته لسمّاه ، وهو نوعان : ظاهر وخفي " (٢) .

والمناسبة المعنوية " هي أحد أنواع البديع المعبر عنها بـ (اثتلاف المعنى مع المعنى) " (٣) .

وكما استشهد الخطيب القزويني على مراعاة النظر بقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (٤) ، فإنه استشهد عليه أيضاً بقول ابن رشيق :

أَصَحَّ وَأَقْوَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى مِنْ الْخَبَرِ الْمَأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمٍ (٥)
أَحَادِيثُ تُرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمٍ (٦)

فكان هذا هو الشاهد الوحيد الذي استوقفه وحلّله ، فقال : " فإنه ناسب فيه بين الصحة والقوة والسماع والخبر المأثور ، والأحاديث والرواية ، ثم بين السيل والحيا ، والبحر وكفّ تميم ، مع ما في البيت الثاني من صحّة الترتيب في العننة ، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع في سند الأحاديث ، فإنّ السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر على ما يقال ، ولهذا جعل كفّ الممدوح أصلاً للبحر مبالغة " (٧) .

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٥ ، وانظر : بديع القرآن ، ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٤٤ .

(٤) سورة الرحمن : الآية (٥) .

(٥) (النّدى) : الكرم ، وقوله : " من الخير " بيان لما في قوله : " ما سمعناه " ، (المأثور) : المروي .

(٦) (الحيا) : المطر ، (الأمير تميم) : هو أبو علي تميم بن المعز بن باديس ، كما ذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي .

(٧) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٥ .

وفي البيت الثاني مناسبة أخرى ذكرها عصام الدين بن عربشاه في كتابه (الأطول) فقال :
" ومما في البيت الثاني وغفل عنه ومن تبعه أنه جمع السيول جمع كثرة ؛ لتصير الرواية في
كمال القوة بكثرة الرواة ، ويبلغ حد الشهرة ، بل التواتر ، فيفيد اليقين ، وفي هذا والعننة
إثبات ما ادّعه من كون تلك الأحاديث أصحّ .

ولا يخفى أنّ صحّة العننة ، وتكثير الراوي ودعوى الأصحّة من الأمور المتناسبة ،
فليستا لطيفتين خارجتين عن التناسب " (١) .

وهذا الشاهد الذي استشهد به الخطيب القزويني استشهد به ابن أبي الإصبع أيضاً ،
لكن في كتابه (تحرير التحبير) ، إذ المتأمل في الكتاين يدرك أنّ المناسبة المعنوية في كتابه
(تحرير التحبير) يندرج تحتها مراعاة النظر ، وتشابه الأطراف (٢) .

والمناسبة المعنوية في كتاب (بديع القرآن) يندرج تحتها تشابه الأطراف ، وما خفي ودقّ
منه وهو ما يتعلق بالفواصل القرآنية ، لكن دون مراعاة النظر .

وهذا الاختلاف في الكتاين راجع إلى خصوصية كتابه (بديع القرآن) ، إذ لم يُمثل على
مراعاة النظر فيه ، بل لم يأت على ذكر هذا المصطلح كما مرّ ، وإنما استبدل به اسم :
المناسبة ، وهو إما أنه ينزع في ذلك منزع القدماء - وخاصة الأدباء - باعتباره منهم
- كما مرّ - ، أو هو تأدّب مع القرآن الكريم ، إذ ما يجوز إطلاقه من مصطلحات بلاغية
على كلام البشر لا يجوز إطلاقه على ما في القرآن الكريم ، وإن كانت الظاهرة واحدة ،
إلا أنها في القرآن أبلغ ، باعتباره أسلوباً معجزاً قهر من البلغاء والفصحاء القوي والقدر ،

(١) الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .

(٢) ذكر الدكتور حفي شرف أنه يندرج تحتها التوشيح أيضاً . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٦٧ ، ولم
يتبين لي ضمن شواهد التي استشهد بها في الكتاين ما يمكن أن يُعدّ فيه توشيحاً ، وربما نقل هذا الكلام
عن ابن معصوم دون مراعاته لما عند ابن أبي الإصبع العدوانى ، فقد ذكر ابن معصوم أنّ هذا النوع
- وهو التوشيح - داخل في المناسبة المعنوية . انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، وهو كذلك ،
لكن ليس معنى ذلك أنه وارد عند ابن أبي الإصبع .

وقيّد الحَوَاطِر والفِكر ، ولم ينقدح لأحدٍ منهم زَنْدٌ ، ولم يمضِ له حدٌّ ، وحتى أسال الوادي عليهم عَجْزاً ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً^(١) .

لكنه أشار إلى مراعاة النظر إشارة يسيرة في (بديع القرآن) عندما فرّق بين الملاءمة والمناسبة في أوّل الباب ، فقال : " والفرق بين هذا الضّرب وبين الملاءمة : أنّ الملاءمة تكون في مفردات الألفاظ ومعانيها ، وهذا الضّرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها "^(٢) .

فيبدو أنّ الملاءمة عنده هي مراعاة النظر ، غير أنه لم يُمثّل لها إلا في كتابه (تحرير التحبير) . يمثل قول ابن رشيق السابق الذي استشهد به الخطيب القزويني لخصوصية (بديع القرآن) ، ووفاءً بالغرض الذي قصده من تأليفه لهذا الكتاب .

ومما يدلّ على أنّ هذه الملاءمة هي مراعاة النظر عنده ، تعريف السيوطي لائتلاف اللفظ مع اللفظ ، إذ قال : " أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً ، بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله ، رعاية لحسن الجوار والمناسبة "^(٣) .

فقوله : " يلائم بعضها بعضاً رعاية لحسن الجوار والمناسبة " متّفقٌ مع الملاءمة عند ابن أبي الإصبع ، غير أنّ هذا الأخير لم يذكر رعاية حسن الجوار هذه ، لكنها تُفهم من شواهد الشعرية في كتابه (تحرير التحبير) ، كبيت ابن رشيق . وانظر ما ختم به حديثه عن المناسبة المعنوية ، مما يؤكّد على مراعاة النظر^(٤) .

ومما يدلّ أيضاً على أنّ الملاءمة عنده يقصد بها مراعاة النظر : تعريف العلوي لائتلاف اللفظ مع اللفظ ، وهو قوله - كما مرّ - : " أن تريد معنى من المعاني تصحّ تأديته بألفاظ كثيرة ، ولكنك تختار واحداً منها لما يحصل فيه مناسبة ما بعده وملاءمته "^(٥) .

(١) انظر : مقدّمة دلائل الإعجاز ، ص ٩ ، بتصرّف يسير .

(٢) بديع القرآن ، ص ١٤٦ .

(٣) الإيتقان ، للسيوطي ، ص ٦٥٥ .

(٤) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٦٦ .

(٥) الطراز ، للعلوي ، ج ٣ ، ص ٨٠ .

ومثل عليه بقول البحرّي في وصف الإبل بالهزال :

كَالْقِسِيِّ الْمُعْطَفَاتِ بَلِ الْأَسَدِ هُمْ مَبْرِيَّةٌ بَلِ الْأَوْتَارِ^(١)

وهو ما استشهد به الخطيب القزويني على مراعاة النظير ، وسيأتي بيانه .

ومثل عليه العلوي أيضاً بقول ابن رشيّق السابق ، وهو البيت الذي استشهد به الرجلان معاً : الخطيب القزويني ، وابن أبي الإصبع العدواني .

وقال العلوي بعد تعداده للألفاظ المتلازمة : " فهذه الأمور كلّها متقاربة ، فلأجل هذا لاعم بينها في تأليف الألفاظ ، فصار الكلام بها مؤتلف النسخ ، مُحكم السُدى " ^(٢) .

ولا بدّ من النظر إلى تحليل ابن أبي الإصبع لبيت ابن رشيّق القيرواني في كتابه (تحرير التحبير) ؛ لمعرفة الفرق بينه وبين الخطيب القزويني الذي سبق عرض تحليله للبيت .

قال ابن أبي الإصبع : " وهذا أحسن شعرٍ سمعته في المناسبة المعنوية ؛ لأنّه ناسب فيه بين الصحة والقوّة ، والرواية والخير والمأثور ، والقِدَم مناسبة معنوية ؛ إذ هذه الألفاظ يُناسب بعضها بعضاً ، وكذلك ناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعنّة مناسبة معنوية أيضاً " ^(٣) .

فانظر إلى قوله : " وهذا أحسن شعرٍ سمعته " ، فصيغة الأسلوب في هذه العبارة هي من خصائص المذهب الأدبي ، كما قال صاحب (معاهد التنصيص) ^(٤) :

(١) هذه القصيدة قالها في مدح أبي جعفر بن حُميد ، ومطلعها :

أبكاءً في الدار بعد الدار ؟! وسُلوّاً (بزينب) عن (نوار) ؟!

انظر : التلخيص ، للخطيب القزويني ، ص ١٧٨ ، هامش (٢) ، نقلاً عن (ديوانه ، ج ٢ ، ص ٩٨٦، ٩٨٧) .

و(المُعْطَفَات) : المنحنية المائلة .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ٨١ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٦٦ .

(٤) هو الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، من أهم آثاره : معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص ، ويقال : له شرح على البخاري ، وله شعر وإنشاء ومدائح في المولى المحقق سعدى ، توفي سنة (٩٦٣هـ) .

" وما أَرشَق قول ابن رشيْق ... " ^(١).

فابن أبي الإصبع يَندُّ في أغلب كتابيه عبارات الإعجاب والاستحسان وآيات الطَّرب والانتشاء ، ولا يخلو منها إلا نادراً ^(٢) ، وهو يعكس وجهة نظرٍ نقدية .

ثم يتابع الكشف عن جمال المناسبة المعنوية ، فيقول : " وأحسن من المناسبة الواقعة في البيت الأول ما وقع في البيت الثاني من صحّة ترتيب العننة ، حيث أتى بها صاغراً عن كابر ، وآخر عن أول ، كما يقع في سند الأحاديث " ^(٣).

فقوله : " وأحسن من المناسبة الواقعة ... " يُعدّ مظهراً أيضاً من مظاهر خبرته الأدبية والنقدية ، إذ كما أنه يوازن بين أبيات وأبيات ، أو بين بيت شعري وآية كريمة لغرضٍ من الأغراض في كلا كتابيه ، فإنه يعقد هنا موازنة بين بيتٍ وبيت ، بل بين فنٍّ في التعبير وفنٍّ آخر .

ورغم أنّ الخطيب القزويني ذكر مزية هذا البيت الثاني ، فإنه قد ساقها مساقاً علمياً بحثاً دون هذه المفاضلة وهذا النقد الواضح عند ابن أبي الإصبع العدواني ؛ إذ اكتفى بقوله فقط : " مع ما في البيت الثاني من صحّة التّرتيب في العننة ... " ^(٤).

وقد علّل ابن أبي الإصبع هذا التّرتيب كما يقع في سند الأحاديث بقوله : " لأنّ السيل فرع ، والحيا أصله ، ولذلك جعلها تروى عن الحيا ؛ إذ هي بمنزلة الولد ، وهو بمنزلة الوالد ، وكذلك الحيا فرع ، والبحر أصله ، ولذلك جعل الحيا يروى عن البحر ؛ إذ الحيا بمثابة الولد ، والبحر بمثابة الوالد ، ثم نزل البحر بمنزلة الولد ، وجود الممدوح بمنزلة الوالد له

انظر : مقدّمة تحقيق كتابه (معاهد التنصيص) ، ص ٦ ، (نقلاً عن الشهاب الخفاجي في كتابه : ريحانة الألباب ، وزينة الحياة الدنيا) .

(١) انظر : معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٧٦٦ ، بتصرّف .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٦٦ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٥ .

لقصد المبالغة في المدح ، ولذلك جعل البحر راوياً عن جود المدوح ، وهذا الذي تقتضيه الصناعة من الأدب مع المدوح ، وحُسن المبالغة في وصف جوده ^(١) .

والحق أنّ هذا إسرافٌ في البيان ، وسيولة في الإنشاء ، وأحسن منه إيجاز الخطيب البليغ ؛ إذ قال : " فإنّ السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر على ما يُقال ، ولهذا جعل كفّ المدوح أصلاً للبحر مبالغة " ^(٢) .

لكن مَنْ أراد الزيادة في التوضيح والبيان فليقرأ ما كتبه ابن أبي الإصبع .

وكما يوجز الخطيب القزويني فقد يوجز ابن أبي الإصبع أحياناً ؛ إذ استشهد على المناسبة المعنوية ، وهو ما يُعدّ من مراعاة النظر بقول المتنبي :

عَلَى سَاحِجِ مَوْجِ الْمَنَايَا بِنَحْرِهِ غَدَاةً كَأَنَّ النَّبْلَ فِي صَدْرِهِ وَبُلٌّ ^(٣)

وقال : " فإن بين لفظة (السباحة) ، ولفظة (الموج) ولفظة (الوبل) تناسباً معنوياً صار البيت به متلاحماً شديداً ملائمة الألفاظ " ^(٤) .

وربما جاء هذا الإيجاز ؛ لأنه في معرض موازنة بين هذا البيت وبيت ابن رشيق ، أو لأنه يعكس إعجابه ببيت ابن رشيق ، فمالَ إلى تحليله بشكلٍ أوسع ؛ إذ قال بعد تعليقه على بيت المتنبي : " وأحسن منه قول ابن رشيق القيرواني " ^(٥) .

والخطيب القزويني تنوّعت شواهد في هذا الباب من قرآنٍ وشعرٍ ونثر ، فمن النثر مثلاً : " قول بعضهم للمُهلّي الوزير : أنت أيها الوزير إسماعيلي الوعد ،

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٦٦ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٥ .

(٣) (السابح) : الفرس الذي كأنه من حُسن جريه يسبح ، (النبل) : السهام العريّة ، (الوبل) : المطر الشديد .

(٤) تحرير التحبير ، ص ٣٦٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٦٦ .

شعبي التوفيق ، يوسف العفو ، مُحَمَّدِي الخُلُق " (١) .

فَ " التناسب بين إسماعيل وشُعيب ومحمد ؛ لأنهم أنبياء ، وبين الوعد والتوفيق والعفو والخُلُق ؛ لأنها أخلاق " (٢) .

وهذا شاهدٌ نثري لم يُمثّل له ابن أبي الإصبع المصري ولا لمثيله من النثر ، إلا أنه على أيّ حال فيه من التكلّف ما فيه ، والذي أذهب ببهائه وأظهر تكلفه الواضح ياء النسب هذه إلى كلّ نبيّ ، مع أنّ كلّ نبيّ منهم فيه كلّ صفة من هذه الصفات ، لكن بتفاضل ، لذا أهمل ذكره بعض الشُّراح ، كبهاء الدين السبكي . وربّما للسبب نفسه أعرض عنه ابن أبي الإصبع .

ومن أجمل الشواهد التي استشهد بها الخطيب من الشعر في هذا الباب : قول أبي الفتح المعروف بابن خفاجة في فرس :

مِنْ جَلَنَارٍ نَاضِرٍ خَدَهُ وَأُذُنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ (٣)

ولا أدري لِمَ لَمْ يتعرّض لذكره الشُّراح ؛ إذ المراد تشبيه خدّه بالجلنار في طراوته ، وأذنه بورق الآس في انتصابها .

و(الجلنار) : زهر الرمان ، و(الآس) : الريحان .

والشاهد في تناسب الجلنار والآس ، وفي تناسب الخدّ والأذن (٤) .

ومن الشواهد التي تدلّ على ذوقٍ رفيعٍ يملكه الخطيب القزويني ، وهي من التي أهمل

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٤ ، هامش (٤) . ويبدو أنّ الشيخ الصعيدي نسي ذكر النبي يوسف عليه السلام .

(٣) وقبل هذا البيت هو :

وأشقر تضرم منه الوغى بشعلةٍ من شعل الباسِ

انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ، ومعاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٥ ، هامش (١) .

ذكرها الشُّراح أيضاً : قول البحري في صفة الإبل الأنضاء :

كَالْقِسِيِّ الْمُعْطَفَاتِ بَلِ الْأَسَدِ هُمْ مَبْرِيَّةٌ بَلِ الْأَوْتَارِ

وهذا أجمل مما استشهد به السكاكي في هذا الباب ، وهو قول أبي العلاء المعري :

وَحَرْفٍ كَوْنٍ تَحْتَ رَاءٍ وَلَمْ يَكُنْ بِدَالٍ ، يَوْمَ الرَّسْمِ غَيْرِهِ النَّقْطُ

لذا أعرض عنه الخطيب ؛ لما فيه من المبالغة في إيهام التناسب ؛ إذ في " ذكر الحرف والنون والراء والدال والنقط إيهام أنّ المراد بها معانيها المتناسبة " ^(١).

وهو بيت شعري يفيض بالسماجة ، ويصدق عليه ما قاله ابن حجة عن أبي العلاء المعري في باب (التورية) من أنه شديد العقادة والتكليف ^(٢).

وفي إعراض الخطيب عنه ما يعكس رهافة حسّه ، وما يحمله من رونق أدبي ، غاية في حسن الاختيار ، وكأنّ القزويني يرسم أيضاً منهجاً لدراسة البلاغة العربية في العصر المائل في أن تكون من خلال المختار من الأدب العربي الراقي ، وهذا ما وصل إليه المشتغلون المُحدثون في البلاغة العربية ، ومناهج تجديدها ، وهذا فهم متوافق بين القزويني ونظرة المحدثين في البلاغة العربية ، له سببه ؛ إذ إنّهُ جعل تلخيصه كما اتضح من مقدّمته محتوياً على إضافاتٍ زيادة على ما كتبه السكاكي في القسم الثالث من المفتاح ^(٣).

(١) انظر توضيح هذا في : المطول ، ص ٦٤٦ ، وقال صاحب (الأطول) حول هذا المثال : " والأظهر كما نبّه

عليه المصنّف أنّ إيراد البيت في المفتاح تنظير لا تمثيل " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ .

(٢) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ، إلا أن ابن معصوم عدّه من أعظم شواهد مراعاة النظير ؛

إذ الشاعر هنا ناسب بين حروف الهجاء والرسم والنقط ، ومقصودها غيرها ؛ لأنّه أراد بـ(الحرف) : الناقة ،

وبـ(الراء) : الراكب الذي يضرب رثتها ، وبـ(الدال) : الرافق بها ، وبـ(الراسم) : رسم المنزل ،

وبـ(النقط) : المطر . انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ١٣٨ .

(٣) الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي ، ص ١٨٠ ، بتصرف يسير .

ويمثل هذا الشاهد اللفظ الغليظ أعرض عن شاهد آخر للسكاكي في باب (ردّ العجز عن الصدر)^(١)، إلا أنه أعرض أيضاً عن تحليل الشواهد البديلة !.

وبيت البحّري السابق ذكره ابن أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) ، لكن في باب آخر سمّاه : (الاستقصاء) ، مما يَخْتَم وَيُصَدَّق على اختيار الخطيب القزويني - رحمه الله - بالجودة والحسن والذوق الرفيع . ووجه الغرابة لاستشهاد ابن أبي الإصبع لهذا البيت في هذا الباب يأتي من وجهين :

أولهما : أنه استشهد به في (بديع القرآن) ، وهو لا يستشهد غالباً فيه إلا بالشواهد القرآنية فقط ، وقد أخذ على نفسه عهداً بهذا الخصوص^(٢) !.

ثانيهما : أنه استشهد به في باب آخر غير باب (المناسبة) الذي يدخل فيه (مراعاة النظر) ، خاصة في كتابه (تحرير التحبير) و(تشابه الأطراف) في كتابه (بديع القرآن) !.

لكن يظهر - والله تعالى أعلم - أنّ حاجة باب (الاستقصاء) إلى هذا الشاهد أولى من حاجة باب (المناسبة) إليه ؛ لأنّ فيه من ألوان البديع التي تقصّها ابن أبي الإصبع الكثير ، وهذه من خصائصه الأدبية أنّه يأتي على ألوان البديع كلّها في الشاهد الواحد ، ويتذوّقها ويقف عندها ، فهو بباب (الاستقصاء) ألصق من باب (المناسبة) ؛ لأنّ هذا البيت جمع التشبيه والتتميم في موضعين ، وحسن النسق ، والتهذيب ، والإيغال ، ومراعاة النظر^(٣) .

وقد صرّح ابن أبي الإصبع مرّةً أنّ " لا نكير على الإتيان بالشاهد الواحد في أبواب عدّة بحسب ما يكون فيه من أنواع البديع وأصناف المحاسن "^(٤)، إلا أنّ الحاجة هنا لم تدعه إلى الإعادة .

(١) انظر : المفتاح ، ص ٤٣١ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٧ .

(٢) انظر : مقدّمة تحقيق د. حفي شرف لبديع القرآن ، ص ٩٤ .

(٣) انظر تفصيل هذا في : بديع القرآن ، ص ٢٤٧ ، وباب (الاستقصاء) عنده هو " أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه ، فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية ، بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالاً يقوله " .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

أما عن استشهاده بهذا البيت الشعري في (بديع القرآن) ، فإنما جاء لغاية الموازنة بينه وبين الآية الكريمة : ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾^(١) ، ليكشفَ عن وجهٍ من أوجه الإعجاز القرآني ، ويعلم الناظر في هذه الموازنة مقدار ما في نظم القرآن من البلاغة ، ويتبين له أنّ الإعجاز فيه بالفصاحة كما ذكر^(٢) .

وهي موازنة في غاية الروعة والارتقاء في التعبير تنمّ عن قدرة أدبية ، وموهبة فطرية ، وبصيرة وإلهام وتوفيق من الله سبحانه وتعالى يملكها ابن أبي الإصبع العدواني ، إلا أنّ المهمّ نقله هنا : هو ما يتعلق بالمناسبة في هذا البيت ، إذ يقول : " ولم يخرج عن الألفاظ الملائم بعضها لبعض ، ليأتي الكلام موصوفاً بالائتلاف ، إذ الأسهم من أنسب الأشياء للقسيّ ، والأوتار أنسب وأقرب إليها ، وهذا أفضل بيت وقع فيه الاستقصاء المولّد ، وما بلغ هذا المبلغ في الجودة إلا لأنّه أشرقت عليه أنوار كلام النبوة الذي أخذ معناه بلفظه مصالته^(٣) منه ، وهو قول رسول الله ﷺ : « لو صلّيتُم لله حتى تعودوا كالقسيّ ، وصمتم حتى تعودوا كأوتار .. » . وقال في الأول : كالحنايا ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام^(٤) .

فهل علمت لِمَ وقع اختيار الخطيب عليه !؟

لهذا الذي ذكره ابن أبي الإصبع في آخر تحليله .

وهل علمت لِمَ كان باب الاستقصاء أولى به من غيره ؟.

لأنّ هذا البيت جمع ما قد سبقت الإشارة إليه .

(١) سورة البقرة : الآية (٢٦٦) .

(٢) انظر : بديع القرآن ، ص ٢٤٩ .

(٣) مُصَالَتَةٌ : أصلها من الصلّت : البارزُ المستوي ، والسيف الصقيل الماضي ، أو من الصلّتان - محرّكةً - :

النشيط الحديد الفؤاد من الخيل .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ . ولقد بحثُ عن أصلٍ لهذا الحديث الشريف فيما توفّر لديّ من الصحاح والأسانيد

والسنن ، فلم أعرثر عليه .

ثمّ ألا يستحقّ هذا الشاهد وقفة من الخطيب القزويني كما وقفها ابن أبي الإصبع ،
أو موازنة بينه وبين البيت الذي أعرض عنه عند السكاكي ؛ إذ كلا الشاهدين في
وصف الإبل ؟.

تشابه الأطراف :

عدّ الخطيب القزويني تشابه الأطراف من مراعاة النظير ، ناقدًا مَنْ أخرجّه عن إطاره
وعدّه منفصلاً عنه كما يُفهم من كلامه ؛ إذ يقول : " ومن مراعاة النظير ما يسميه بعضهم
تشابه الأطراف ، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى " ^(١).

وسبقت الإشارة من قبل كما ذكر ابن معصوم أنّ تشابه الأطراف عند ابن
أبي الإصبع غير ما هو عند الخطيب وعند غيره ، إنّما غيّر مفهومه تماماً وفسّره
بمفهوم جديد ، وجلب له شواهد كما فعل أيضاً في باب (المشاكلة) وباب
(جمع المختلفة والمؤتلفة) ؛ إذ يكشف فيها عن صنيعة البلاغي في نقد مصطلحات البديع
وشرحها والتمثيل لها ^(٢).

وكان الأجدر به أن يُقَي على هذا الباب اسمه الأصلي ، وهو التسيغ الذي هو أدخل
في ردّ العجز على الصدر أو التصدير ، كيلا يختلط الحابل بالنابل ، فهذا من التداخل غير
المقبول في المصطلحات البلاغية الذي يشوّش على الدارسين ^(٣).

إلا أنه من المهمّ جداً الإشارة إلى أنه استشهد لهذا الباب بشاهد قرآني لم يذكره أحدٌ

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٢) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٧٧٤ ، بتصرّف ، وانظر : تحرير التعبير ،
ص ٣٤٤ ، و ص ٣٩٣ .

(٣) من الغريب أنّ بعض الدارسين التمس لإطلاق ابن أبي الإصبع وجهاً ؛ إذ قال معرّفًا تشابه الأطراف : "
أو هو جعل عجز جملة صدر تاليها ، أو قافية بيت صدر ما يليه ، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ ... ﴾ الآية ، فمثّل عليه بمثل ما استشهد به ابن أبي الإصبع من الآية الكريمة في سورة النور ،
ومن قول ليلى الأخيلى في مدح الحجاج بن يوسف . انظر : زهر الربيع ، للحملاوي ، ص ١٩٧ . "

قبله حسب علمي ، وهو قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. ﴾ ^(١) ، ووافقه ابن معصوم في هذا الإطلاق ، وذكر أنه قد يقع في فواصل القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴾ ^(٣) ، فأعاد فاصلة الآية الأولى في أول الآية الثانية " ، وقد يقع في غير الفواصل ، كالشاهد الذي مثل به ابن أبي الإصبع ^(٤) ، الذي يدلّ على مقدرة علمية هائلة تدلّ على مدى تقصّيه ودقّة استخراجيه ، ومدى اعتكافه على تدبّر القرآن الكريم وتأمله وملازمته له بعد توفيق الله ﷻ ، مُدَلِّلًا بذلك " على أنّ الأنواع البلاغية والحسنات البديعية غير مقصورة على شعر الشعراء ، ونثر الكتاب ، بل هي موجودة في القرآن الكريم " ^(٥) .

وقوله : " ولم أظفر من الكتاب العزيز في هذا الباب إلا بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ ... ﴾ الآية ، فالخط تشابه أطراف هذه الجمل ؛ لتقدر هذا النظم قدره " ^(٥) ، رغم أنه ينزع منزعاً استقصائياً ، إلا هذا يؤكد أنه درس أنواع البديع بالقرآن الكريم دراسةً وافية ، وأن صنيعه وقدرته العلمية والأدبية في هذا الكتاب تتوافق مع قوله هذا ، فإن كان قال فقد صدق .

وما استشهد به الخطيب القزويني على تشابه الأطراف ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٦) ، هو ما استشهد به ابن أبي الإصبع في باب (المناسبة) المعنوية الذي يشمل عنده تشابه الأطراف فقط في كتابه (بديع القرآن) ، وهو ما

(١) سورة النور : الآية (٣٥) .

(٢) سورة الروم : الآيتان (٦-٧) .

(٣) انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(٤) مقدّمة تحقيق بديع القرآن ، ص ٩١ .

(٥) بديع القرآن ، ص ٢٣٠ .

(٦) سورة الأنعام : الآية (١٠٣) .

سمّاه : (المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها)^(١) . ويشمل أيضاً ما دقّ من صوره كما تبين .

قال الخطيب القزويني محلاً المثل : " فإن اللطف يناسب ما لا يُدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يُدرك شيئاً ، فإنّ من يُدرك شيئاً يكون خبيراً به " ^(٢) .

واكتفى بهذا ولم يزد غير شاهدٍ آخر ، هو قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ^(٣) ، وقال : " قال : (الغني الحميد) لينبه على أن ما له ليس لحاجة ، بل هو غني عنه جواد به ، فإذا جاد به حمده المنعم عليه " ^(٤) .

فهذا الإيجاز البليغ الذي يتبع منهجاً له أسسه وقواعده راجع إلى الاهتمام بوضع المقاييس البلاغية في إطارٍ علمي بعيدٍ عن التحليل والذوق الوجداني ، وما يدخل ضمن المقاييس الفنية عند أصحاب المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها ابن أبي الإصبع العدواني .

وطريقة تناول الرجلين لهذا الشاهد هي من الفروق الواضحة التي تؤكد أصالة التوجّه عند كلّ منهما ، وصدق الانتماء إلى المنهج الذي يتبعه كلّ واحدٍ منهما والوفاء بمتطلباته .

قال ابن أبي الإصبع : " فإنّ معنى نفي إدراك الأبصار للشيء يناسب اللطف ، وهذا الكلام خرج مخرج التمثيل ؛ لأنّ المعهود عند المخاطب أنّ البصر لا يُدرك الأجسام اللطيفة ، كالهواء وسائر العناصر ، ولا الجواهر المفردة ، وإنما يُدرك اللون من كلّ مُتَلَوّن ، والكون من كلّ مُتَكَوّن ، فجاء هذا التمثيل ليتخيّله السامع ، فيقيس به الغائب على الشاهد ، وكذلك

(١) وهو ما سمّاه ابن الأثير : تقابل الجملة بالجملة . انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ، ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ [سورة النمل : الآية (٨٦)] .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٣) سورة الحج : الآية (٦٤) .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦ . وذكر السبكي أنه " قد يقال : الختم في الآيتين وقع بما يناسب وسط الكلام ، لا ابتداءه ، إلا أنّ المصنف جعل الختم بمجموع الجملة " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٨ . وربما تعمّد الخطيب ذكر هذا ؛ ليستدلّ بهما على تشابه الأطراف . وانظر ما ذكره ابن الأثير عن الآية الثانية في المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤-٢٨٥ . بما يتوافق مع الخطيب .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ، فإنّ ذلك يناسبه وصف المدرك بالخبرة ، فإنه سبحانه لما أثبت له إدراك الأبصار : أي ألباب الأبصار التي نفى عنها إدراكه تكميلاً للتمدح حسب ما اقتضته البلاغة من تصحيح معنى التمدّح ، واحتراساً ممن يظنّ أنه إذا لم يكن مدركاً لم يكن موجوداً ، فوجب أن تقول : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ؛ لتثبت لذاته الوجود وزيادة ، ثمّ عطف على الأول والثاني : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ؛ ليناسب معنى آخر الكلام أوّله ، وعجزه صدره . ورجّح لفظة (الخبير) على لفظة (البصير) ؛ لما فيها من الزيادة على الإبصار والإدراك ، إذ ما كلّ من أبصر شيئاً أو أدركه كان خبيراً به ، فتضمّنت على ذلك الفاصلة معنى زائداً على معنى الكلام ، وصِفَتْ لأجله بالإيغال ، وهو إيغال متمم لمعنى التمدّح ^(١) .

ولم يكتفِ بتحليل ما في الآية من لونٍ بديعي ، وإنما يعدّد المحسنات البديعية جميعها في الآية في انسيابية مُسرفة عجيبة !. إذ يقول : " فحصل في هذه الآية على ذلك اثنا عشر ضرباً من البديع ، وهي : التعطف الذي هو قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ، لجيء لفظة (الأبصار) في أوّل الكلام وآخره ، والمقارنة ؛ لاقترانه بالمطابقة في قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ، والإدماج ؛ لما أدمج في التعطف من الاحتراس الذي شرحناه ، والمناسبة التي هي أمّ الباب ، والترشيح بالمناسبة إلى الإيغال ، والإيغال الذي بيّناه ، والإشارة لدلالة اللفظ القليل على المعاني الكثيرة ، والجواز ؛ لحذف المضاف من قوله : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ ، أي : ذوي الأبصار ؛ لتقرب ألفاظ التعطف بعضها من بعض ، فيكون ذلك أحسن وأبين ، والتخيير ؛ للعدول في الفاصلة عن البصير ، والمدرك إلى الخبير ، والإيجاز ؛ فإنّ هذه الآية تسع لفظات تضمّنت اثني عشر ضرباً من البلاغة ^(٢) .

ثم استشهد أيضاً على هذا الباب بخمسة شواهد أخر غير هذا وحلّلها ، وكلها أمثلة

(١) بديع القرآن ، ص ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٦-١٤٧ .

قرآنية ، وهذه الكثرة ملمحٌ من ملامح النزعة الأدبية ، خاصة إذا ما كان هذا النوع من المناسبة المعنوية كثيراً في الكتاب العزيز ، كما ذكر ابن حجة^(١) .

فأيُّ عصبية وأيّ حماسٍ لهذه النزعة يؤمّي إليها هذا الباب خاصة !! . وكم كان موقفاً غاية التوفيق في التماس هذا التشابه أو هذه المناسبة المعنوية كما سمّاها ، مما يؤكد مرةً أخرى أنّ هذا الرجل لم يكن يمرّ على ما يقرأ من كتاب الله ﷻ مروراً سريعاً ؛ بل يغوص إلى قرار المعاني فيها ، لا بل ويفتّش عن سرّ كلّ قرارٍ وما اكتنفه من خفايا وأسرار .

خذ مثلاً هذا الشاهد ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾^(٢) .

وتأمّل قوله بعده : " فانظر إلى قوله تعالى في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية ؛ لكونهم لم ينظروا القرون الهالكة ، وإنما سمعوا بها : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ ، لم يقل كما قال في التي بعدها : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ ، وقال تعالى بعد الموعظة السمعية : ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، وبعد الموعظة المرئية : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ؛ لأنّ الزرع مرئيٌّ لا مسموع ؛ ليناسب آخرُ كلّ كلامٍ أوله " ^(٣) .

وهذا قولٌ لم أجده عند الزخشي في كشفه^(٤) ، ولا عند أبي السعود في إرشاده^(٥) . لكنني وجدتُ الألوسي يقول في آخر تفسيره لهذه الآية : " وجعلت الفاصلة هنا (يبصرون) ؛ لأنّ ما قبله مرئيٌّ ، وفيما قبله (يسمعون) ؛ لأنّ ما قبله مسموع ، وقيل : توقياً إلى الأعلى في الاعتاظ مبالغة في التذكير ورفع العذر " ^(٦) ، وربما يكون متأثراً بابن أبي الإصبع في هذا الكلام .

(١) انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ .

(٢) سورة السجدة : الآيتان (٢٦-٢٧) .

(٣) بدیع القرآن ، ص ١٤٨ .

(٤) انظر : الكشف ، ص ٨٤٥-٨٤٦ .

(٥) انظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، تفسير أبي السعود ، ج ٥ ، ص ٣٩٠ .

(٦) انظر : روح المعاني ، ج ٢١-٢٢ ، ص ١٧٨ .

وإن شئت تأمل أيضاً ما سطرته نفسه حول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^{(١)(٢)}.

قال ابن الأثير عن هذا النوع تحت باب (التناسب بين المعاني) : " واعلم أيها المتأمل لكتابنا هذا أنه قلما توجد هذه الملاءمة والمناسبة في كلام ناظمٍ أو ناثر " ^(٣).

قال ابن معصوم عن تشابه الأطراف وقد سمّاه تناسب الأطراف ؛ لأنه أفرد لتشابهها باباً ، قال : " وهو نوعان : ظاهر وخفي " ^(٤).

فالأول هو يمثل ما استشهد به الخطيب القزويني وكل ما استشهد به ابن أبي الإصبع .

أما الثاني الخفي ، والذي قال فيه ابن الأثير : " ومن الآيات ما يُشكل فاصلته فيحتاج إلى فكرة وتأمّل ... ليس في علم البيان أكثر منه نفعاً ، ولا أعظم فائدة " ^(٥).

فالغريب أنّ ابن أبي الإصبع لم يُمثّل عليه بشاهدٍ واحد كما يبدو لي ، رغم أنه أحقّ بالاستشهاد من الخطيب القزويني في هذا الباب بحكم خصوصية كتابه (بديع القرآن) وغرضه من تأليفه .

لكن يمكن القول إنّ الشاهد الذي استشهد به ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ^(٦) ، يمكن أن يكون من الخفيّ !.

(١) سورة القصص : الآيتان (٧١-٧٢) .

(٢) بديع القرآن ، ص ١٤٧ .

(٣) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(٤) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

(٥) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٥-٢٨٦ ، وعدّه السيوطي من مشكلات الفواصل . انظر : الإتيان ، ص ٦٨٣ .

(٦) سورة الأنعام : الآية (١٠٣) .

قال عصام الدين بن عربشاه معلّقاً على قول الخطيب : فإنّ اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخبرة تناسب من يُدرك شيئاً ، فإن من يدرك شيئاً يكون خبيراً به^(١) ، قال : " كذا ذكره الشارح ، وفيه نظر ؛ لأنّ الخبير هو المدرك للشيء لا ما يُناسبه ، فالأولى يُقال : الخبير يناسب كونه مدركاً للأبصار ؛ لأنّ الخبير هو المدرك ، فيتحقق المناسبة باعتبار العموم والخصوص ، وقد يكون خفياً "^(٢).

ويمكن أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾^(٣) ، الذي استشهد به في هذا الباب أن يكون من الخفي أيضاً ، فقد روي أنّ أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية وقد وضع ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مكان ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فقال الأعرابي : ليس هذا كلام الله ، فالحكيم لا يذكر الرحمة عند إنزال العقاب ، فعزّته وحكمته تقضي بقطع يد السارق .

ويتوافق هذا مع قول ابن أبي الإصبع : " لأنّ من عزّ حَكَم ، ومن ثبت تنزيهه عن سِمَاتِ النقص والظلم ثبت عدله ، ومن عدله قطعُ السارق ؛ لما في قطعه من صيانة الأموال ، وذلك مقتضى الحكمة "^(٤).

بل إنّ الأعرابي وابن أبي الإصبع يلتزمان هذه المناسبة من قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴾^(٥) ، فقلوه : ﴿ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ ﴾ يدلّ على أنّ الحكيم لا يغفر عند الزلل .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٢) الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ، وقال عبد المتعال الصعيدي : " ويجوز أن يكون من اللطف بمعنى الرأفة ، فيكون من إيهام التناسب الآتي ، لا من التناسب " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ ، هامش (١) .

(٣) سورة المائدة : الآية (٣٨) .

(٤) بديع القرآن ، ص ١٤٩ .

(٥) سورة النور : الآية (٢) .

فذاك إذاً من التناسب الخفي الذي يختصّ بالفواصل من الكلام المشور وبالأعجاز من الأبيات الشعرية ، كما ذكر ابن الأثير وقال : " وآيات القرآن جميعها فصلت هكذا " ^(١) .

وإذا كان ابن أبي الإصبع لم يُمثل عليه فيما يبدو إلا بذلك التوجيه المدعوم بقول صاحب (الأطول) وبقول الأعرابي ، فإنّ الخطيب القزويني ما استشهد له إلا لأنّه في مجال حصر واستقصاء وتحديد تبعاً لمنهجه العلمي ، وليكون كتابه من بعد - وهو كذلك - ، " أوفى كتاب في بحوث البلاغة ، وأوضح الكتب المؤلفة فيها نظاماً وأسلوباً " ^(٢) .

إلا أنه لم يُمثل عليه إلا بشاهد واحد ، وهذا يكفي من وجهة نظره ، خاصة أنه وقف عنده وفصل فيه ما لم يفصله في غيره ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ تَعَذُّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٣) .

فقال : " فإنّ قوله : ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يوهّم أنّ الفاصلة ﴿ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴾ ، ولكن إذا أُنعِمَ النظر عُلم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة ؛ لأنّه لا يغفر لمن يستحقّ العذاب إلا مَنْ ليس فوقه أحدٌ يردُّ عليه حكمه ؛ فهو العزيز ؛ لأنّ العزيز في صفات الله هو الغالب ، من قولهم : (عَزَّ يَعُزُّ عَزّاً) إذا غلبه ، ومنه المثل : (مَنْ عَزَّ بَزَّ) ، أي : مَنْ غلب سلب ، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضاً ؛ لأنّ الحكيم مَنْ يضع الشيء في محله ، والله تعالى كذلك ، إلا أنه قد يخفى وجه الحكمة في بعض أفعاله ، فيتوهّم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة ، فكان في الوصف بالحكيم احتراز حسن ، أي : وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا مُعْتَرِض عليك لأحدٍ في ذلك ، والحكمة فيما فعلته " ^(٤) .

وهذا تحليلٌ يمكن الرّدّ به على مَنْ يُدخله في جملة من " ينقصهم الذوق المرفه والحسّ الحادّ ، كما كانت تنقصهم الملكة البصيرة التي تستطيع تحليل النماذج الأدبية وتبيين

(١) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٢) مقدّمة تحقيق الإيضاح ، للخفاجي ، ص ١٠ .

(٣) سورة المائدة : الآية (١١٨) .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ .

مواطن الجمال الخفية فيها ، بل أيضاً المواطن الظاهرة " (١) .

وقد اعترض عصام الدين ابن عربشاه على الخطيب في اعتبار قوله تعالى : ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ من الإطناب (٢) ، فقال عصام الدين ابن عربشاه : " الأظهر أنّ الحكيم ليس من الإطناب ، بل كما لا بدّ من الوصف بالعزة لتحقق تمكّنه من المغفرة لمستحقّ العذاب ، لا بدّ من الوصف بالحكمة ؛ لأنّه لا يغفر لمن يستحقّ العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرّد حكمه عليه ، والمتفوّق على الفاعل قد يكون متفوّقاً بالقدرة ، فيمنعه بالغلبة ، وقد يكون متفوّقاً بالعلم فيمنعه بالحكمة والعلم ، فلا يستفاد نفي المتفوّق عليه مطلقاً بمجرد حصر العزة فيه ، لا بدّ في الاستفادة حصر الحكمة أيضاً " (٣) .

لكن المتأمل لكلام الخطيب يدرك أنّه قد فسّر هذه الفاصلة على وجهين ؛ لأنّه قال : " ووجب أن يوصّف بالحكيم أيضاً " (٤) . فالوجه الأول عنده مرتبطٌ بالعزة والقوّة ؛ إذ قال : " لأنّه لا يغفر لمن يستحقّ العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرّد عليه حكمه " (٥) .

وهذا النصّ ذكره ابن عربشاه باختلافٍ يسير رادّاً به ما فهمه من قول الخطيب .

وعلى هذا الوجه فإنّ الخطيب القزويني لا يعدّه إطناباً أبداً .

أما الوجه الآخر فيتّضح من قوله : " لأنّ الحكيم من يضع الشيء في محله " (٦) . لذلك عدّ (الحكيم) هنا إطناباً .

(١) البلاغة تطوّر وتاريخ ، ص ٢٧٣ .

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ ، لما قال : " فكان في الوصف بالحكيم احتراز حسن " .. إلخ . والاحتراز نوع من الإطناب ، وهو : " أن يؤتى في كلام يوهّم خلاف المقصود بما يدفعه " . انظر : الإيضاح ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، وذكر أنّه ضربان : ضربٌ يتوسّط الكلام ، وضربٌ يقع في آخر الكلام ، والشاهد المقصود هو منه .. [أي : من الضرب الثاني] .

(٣) الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٦ .

فإذن إذا كان (الحكيم) يُفسَّر بالحاكم الذي لا يُردُّ حُكمه فليس إطناباً ، وإذا كان (الحكيم) يُفسَّر بمن يضع الشيء في محله فهذا إطناب .

والوقوف عند قول الرّمخسري يحسم المسألة ؛ إذ قال : " وإن غَفَرْتَ لَهُمْ مع كُفْرِهِمْ لم تعدم في المغفرة وجه حكمة " ^(١) .

فالمغفرة مرتبطة بالحكمة ارتباطاً وثيقاً ، وهما في النهاية من حكم الله ﷻ النافذ ، وبالتالي فليس هناك إطناب ^(٢) .

وذكر السيوطي نظائر لهذا المثال ، منها قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٥) ، ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٦) ، وقال : " فإنَّ بادئ الرأي يقتضي ﴿ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ ؛ لأنَّ الرحمة مناسبة للتوبة ، لكن عبر

(١) الكشف ، ص ٣١٧ .

(٢) قال ابن عثيمين - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : " فإنَّ الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً ، فيكون كلّ منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه ، وهو العزة في العزيز ، والحكم والحكمة في الحكيم ، والجمع بينهما دالٌّ على كمال آخر .

وهو أنَّ عزَّته - تعالى - مقرونة بالحكمة ، فعزَّته لا تقتضي ظلماً وجوراً وسوء فعل ، كما قد يكون من أَعْزَاء المخلوقين ، فإنَّ العزيز منهم قد تأخذه العزّة بالإثم ، فيظلم ويجور ، ويسيء التصرف . وكذلك حكمه - تعالى - وحكمته مقرونان بالعزّ الكامل ، بخلاف حُكم المخلوق وحكمته ؛ فإنهما يعتزّيهما الذلّ " . انظر : القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، لمحمد الصالح العثيمين ، مكتبة الفيصلية - مكة المكرمة - دار السنّة المحمدية للطباعة ، مصر ، ص ٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية (٧١) .

(٤) سورة الممتحنة : الآية (٥) .

(٥) سورة غافر : الآية (٨) .

(٦) سورة النور : الآية (١٠) .

به إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته ، وهي السّتر عن هذه الفاحشة العظيمة ^(١) .

و " المتأمل لنظم القرآن الكريم يجد هذه الأسماء الكريمة قد انتشرت في خلال آياته على اختيارٍ دقيقٍ لكلٍّ منهما ، سواء منها ما انفرد بموضعه ، أو اجتمع مع غيره ، والعزّ بن عبد السلام يشير إلى المغزى العظيم الذي تذكر له أسماء الله الحسنى في كتابه ، يقول : "... وَقَلَّ أَنْ تَوْجَدَ صِفَةً مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِلَّا وَهِيَ مُنَاسِبَةٌ لِمَا قُرُنَتْ بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ حَاطَّةٍ أَوْ زَاجِرَةٍ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ تِلْكَ الْمُنَاسِبَةُ تَارَةٌ تَكُونُ ظَاهِرَةً جَلِيَّةً ، وَتَارَةٌ تَكُونُ بَاطِنَةً خَفِيَّةً " ^(٢) .

إيهام التناسب :

ومما تفرّد به الخطيب القزويني ولم يظهر لي عند ابن أبي الإصبع : هو إلحاقه بالتناسب نوعاً آخر سمّاه إيهام التناسب ، عرّفه بقوله : " هو أن يجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان متناسبان ، ولكنهما غير مقصودين " ^(٣) ، واستشهد له بآية واحدة ، ربّما تكون هي الوحيدة في القرآن الكريم في هذا الباب ، وهي قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ^(٤) .

قال السعد شارحاً : " والنجم : أي : النبات الذي ينجم ، أي : يظهر من الأرض لا ساق له ، كالبقول ، [والشجر] الذي له ساق ، يسجدان : أي : ينقادان لله تعالى فيما خلّقا له ، فالنجم بهذا المعنى ، وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر ، لكنه قد يكون بمعنى الكوكب ، وهو مناسب لهما ، [و] لهذا [يسمى إيهام التناسب] كما مرّ في إيهام التضادّ " ^(٥) .

(١) الإتيان ، ص ٦٨٤ .

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٤٠ ، وانظر ما نقله السيوطي عن العزّ بن عبد السلام في المناسبة في كتابه (الإتيان) ، ص ٦٩٤ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٧ ، هامش (١) .

(٤) سورة الرحمن : الآيتان (٥-٦) .

(٥) المطول ، ص ٦٤٦ ، وانظر : شرح السبكي لذلك في : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٣٨ .

إلا أنّ صاحب (الأطول) ذكر أنّه يمكن عدّه من التناسب ، وإن أخبر العلماء وتواطأت الآراء على ذلك على اعتبار أنّ المقصود في الآية هو جريان حكم الله تعالى في العلويات والسفليات . فجمع (الشجر والنجم) مع (الشمس والقمر) من جمع المعاني المناسبة^(١) .

ولعلّ هذا الرأي التمسّه عصام الدّين من قول الزّخشي في تفسيره لهذه الآية الكريمة ؛ إذ قال : " فإن قلت : أيّ تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسّط بينهما العاطف ؟. قلت : إنّ الشمس والقمر سماويّان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل . وأنّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين ، وأنّ جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر "^(٢) ، وهذا من مراعاة النظير عند الزّخشي .

ويُفهم من تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٣) ، أنّ هذا من تشابه الأطراف عنده^(٤) ، وإن جاء من المقابلة التي " بمعنى الموافقة في نظم الجمل "^(٥) ؛ إذ جاء تشابه الأطراف أيضاً عند ابن أبي الإصبع تحت اسم " المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها "^(٦) .

ولما كان ابن أبي الإصبع يقصد من كتابه (بديع القرآن) دراسة أنواع البديع في القرآن الكريم ، بل ويستقصيها لوناً لونا في الآية الواحدة ، فقد كان حريّاً به ، وهو مما يتناسب مع

(١) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ .

(٢) تفسير الكشاف ، ص ١٠٦٩ .

(٣) سورة النمل : الآية (٨٦) .

(٤) انظر : تفسير الكشاف ، ص ٧٩١ ، إذ قال : " فإن قلت : ما للتقابل لم يُراعَ في قوله : (ليسكنوا) و(مبصراً) ، حيث كان أحدهما علّة ، والآخر حالاً !. قلتُ : هو مُراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ؛ لأنّ معنى (مبصراً) : ليصروا فيه طرق التغلب في المكاسب " ، وهذا المعنى نقله عنه ابن الأثير في المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(٥) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٨٧ .

(٦) بديع القرآن ، ص ١٤٦ .

صنيعه هذا أن يقع على هذا اللون البديعي الذي سماه الخطيب بـ (إيهام التناسب) ، لكن يظهر أنه كان حفيماً بما في القرآن من تناسب بين المعاني .

التفويف :

إذا كان الخطيب القزويني استنكر على بعض البلاغيين إفرادهم تشابه الأطراف باعتباره لوناً مستقلاً عن مراعاة النظر كما يفهم من لهجة أسلوبه ، فإنه استنكر أيضاً إفراد بعضهم لوناً بديعياً آخر ، هو في حقيقته بعضه من مراعاة النظر ، وبعضه من المطابقة ، وهو التفويف ، ويُعدّ من الألوان التي زادها الخطيب في كتابه (الإيضاح) ، ولم يذكرها السكاكي في (المفتاح) ، ولا الخطيب نفسه في (التلخيص) .

والتفويف في اللغة مأخوذ من الفَوَفُ - بالفتح والضم - ، وبالضم : البياض الذي في أظفار الأحداث ، والقشرة التي تكون على حبة القلب والنواة دون لَحْمَةِ التمر ، وضرب من برود اليمن ، وقَطَعَ القطن ، وما ذاق فَوْفاً ، وما أغنى عني فَوْفاً : شيئاً . وُبرِدَ مُفَوَّفٌ : رقيق ، أو فيه خطوط بيض^(١) .

ومن الثوب المَفَوَّف الذي فيه خطوط بيض ، اشتقَّ التفويف ، والمراد تلوينه ونقشه^(٢) ، " فكأنَّ المتكلم خالفَ بين جمل المعاني في التَّقْفِيَةِ كمخالفة البياض لسائر الألوان ؛ لأنَّ بُعدَه من سائر الألوان أشدَّ من بُعد بعضها عن بعض " ^(٣) .

قال الخطيب القزويني : " وأما ما يسمّيه بعض الناس التفويف ، وهو أن يؤتى في الكلام بمعانٍ متلائمة في جملٍ مستوية المقادير أو متقاربتهـا ... فبعضه من مراعاة النظر ، وبعضه من المطابقة " ^(٤) .

ومثّل عليه بأربعة شواهد ، فمما هو من مراعاة النظر : قول من يصف سحاباً :

(١) القاموس المحيط ، ص ١٠٨٩ ، باب (الفاء) ، فصل (الفاء) ، مادة (فوف) .

(٢) انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٢٦٠ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٧ .

تَسْرِبُلٌ وَشَيْئاً مِنْ خُرُوزٍ تَطَرَّرَتْ مَطَارِفُهَا طُرُزاً مِنَ الْبَرْقِ كَالْتَّبَرِ
فَوْشِيٌّ بِلا رَقْمٍ وَنَقْشٌ بِلا يَدٍ وَدَمْعٌ بِلا عَيْنٍ وَضِحْكٌ بِلا ثَغْرِ^(١)

ومما هو من المطابقة : قول ديك الجن :

أَحْلُ وَامْرُزٌ وَضُرٌّ وَانْفَعٌ وَلَنْ وَاخٍ شُنُّ وَرِشٌ وَابِرٌ وَانْتَدَبٌ لِلْمَعَالِي^(٢)

فالبيت الثاني من الشاهد الأول اجتمع فيه أربع جُمَل متساوية المقادير ، ومعانيها متلائمة ، وهذا الاجتماع فيه تناسب .

والشاهد الثاني اجتمع فيه خمس جُمَل ؛ ثلاث منها بينها تقابل وتضاد ، واعترض عليه عصام الدين صاحب (الأطول) بأنّ الدمع والضحك ليسا من الأمور المتناسبة ، بل المتضادة ، ثمّ إن في جعل العبارات متناسبة المقدار بالاستواء أو التقارب لتكون كمعانيها في التناسب ليسا طباقاً ولا تناسباً^(٣) .

فقوله الأول يُردّ عليه بأنّ في التضادّ تناسباً ، وأنّ الدمع ليس ضدّ الضحك ، إنّما ضده البكاء ، وما الدمع إلا من لوازمه .

(١) ذكر عبد المتعال الصعيدي أنّ هذان البيتان لأبي العباس الناشئ كما في (زهد الآداب) ، وقيل : إنّها لغيره .

(تسربل) : ليس من السربال ، وهو القميص أو الدرع ، (وشياً) : ثوباً منقشاً ومنمماً ، (خزوز) : جمع خَزَّ ، وأصله اسم دابة ، ثم أطلق على الثوب المتخذ من وبرها ، (مطارفها) : جمع مُطَرَف ، وهو ثوب من خَزَّ له أعلام ، ويقال : ثوبٌ مَرِيعٌ من خَزَّ ، (طُرُزاً) : جمع طِرَاز ، وهو عَلم الثوب ، وهو مُعَرَّبٌ ، (التَّبَر) : ما كان من الذهب والفضة غير مصوغ ، (رقم) : الرِّقْم : كلُّ ثوب رقيم ، أي : وشي برقم معلوم حتى صار عَلماً ، و(رقمت) الشيء : أعلمته بعلامة تُميّزه عن غيره ، كالكتابة ونحوها ، و(الدمع) : استعارة للمطر ، و(الضحك) : استعارة للبرق .

(٢) (رِش) : أمر من رَاشَ السهم يَريشه : ألزق عليه الرِّيش ، (ابِر) : أمر من (بَرى) السَّهم يَبريه بَرِيّاً وابتراه : نَحَته ، (انتدب) : أمر من نَدَبَه إلى الأمر : دعاه وحثّه ووجّهه .

(٣) انظر : الأطول ، ص ٣٨٦ .

أما قوله الثاني فإنّ الخطيب كان ينقل عن بعضهم تعريف التفويف ولم يقرّه ، إنما كان يقرّ أنّ من شواهد ما هو من الطّباق وما هو من مراعاة النظير .

لكن قد يُفهم من كلام عصام الدين أنّ الشاهد الواحد للتفويف قد يجتمع فيه مراعاة النظير مع الطباق ، كما جاء في بيت ديك الجن ، فإنّ قوله (رَشْ وأبِر) من التناسب وليس من التضادّ ؛ إذ الغرض من الفعلين إصلاح السهم ؛ لذا كان الخطيب دقيقاً في كلامه ، فقال : " من مراعاة النظير " أو " من المطابقة " ، فقال بالتبعيض وليس معنى ذلك أنّ الشاهد الواحد هو كلّ من مراعاة النظير أو كلّ من المطابقة ؛ لذا التفت ابن أبي الإصبع في (بديع القرآن) إلى ما في الجمل من تساوي وتوازٍ ، بصرف النظر عمّا فيها من مراعاة نظير أو ما سماه هو بـ(المناسبة) ، وبصرف النظر عما فيها من الطباق ، وسمى هذا بـ(التفويف) ، وخصّه بباب منفرد ، وهو لون بديعي مستقلّ عنده وعند غيره من المتأخرين ، كالسيوطي الذي سماه (التفويت)^(١) ، وابن معصوم .

قال ابن أبي الإصبع : " التفويف عند أرباب البيان : إتيان المتكلم بمعانٍ شتى من المدح والوصف والنسيب ، وغير ذلك من الفنون التي ينتجها المتكلّمون كلّ فنّ في جملة منفصلة من أختها بالسجع غالباً ، مع تساوي الجمل في الزّنة ، ويكون بالجمل الطويلة ، والجمل المتوسطة ، والجمل القصيرة " ^(٢) .

ويبدو أنّ هذا ليس تفسيراً علمياً لهذا المصطلح من وجهة نظري ؛ إذ يفتقر إلى التحديد والإيجاز .

ومثّل عليه من الجمل الطويلة بقوله تعالى حكايةً عن الخليل عليه السلام : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ﴿ رَبُّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) انظر : الإتيان ، ص ٦٥٧ . ويبدو أنّ هذا خطأ مطبعي واقع في هذه النسخة .

(٢) بديع القرآن ، ص ٩٨ .

(٣) سورة الشعراء : الآيات (٧٨-٨٣) .

ومثل عليه من الجمل المتوسطة بقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾^(١).

فقال : " وفي كلا هاتين الآيتين من المحاسن بعد التفويف طرف من المحاسن يستفز العقول طرباً " ^(٢).

ثم وازن بين الآيتين وحللّهما ، وبيّن ما فيهما من ضروب المحاسن الأخرى غير التفويف ، ثم قال في نهاية الباب : " ولم يأت شيء من المركب من الجمل القصيرة في شيء من الكلام الفصيح ، والله أعلم " ^(٣).

قال ابن حجة : " ومثال ما جاء منه بالجمل المتوسطة : قول أبي الوليد بن زيدون :

تَهْ أَحْتَمِلُ وَاحْتَكِمُ أَصْبِرْ وَعِزَّ أَهْنُ وَذَلَّ أَخْضَعُ وَقُلْ أَسْمَعُ وَمُرُّ أُطْعُ^(٤)

وهو ما مثل به الخطيب وابن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحبير) معاً^(٥).

والذي يظهر أنّ هذا اللون البديعي هو كما ذهب إليه الخطيب القزويني وزيادة ، إذ منه ما هو داخل في السجع كما يفهم من كلام ابن أبي الإصبع ، وجاء في شواهد ما هو من مراعاة النظير وما هو من التضاد ، كما هو واضح ولا يحتاج إلى تفصيل .

بل إنّ من هذا اللون ما هو من التقسيم والتقطيع كما عند ابن رشيق ؛ إذ استشهد له بقول ديك الجنّ السابق الذي استشهد به الخطيب^(٦).

(١) سورة آل عمران : الآية (٢٧) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٤) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

وقوله : (تَهْ) : تكبر ، (ذَلَّ) : أمر من الدّلال ، وهو جرأة المرأة في تكسّر وتغنّج كأنّها مخالفة وليس بها خلاف .

(٥) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٨ ، وتحرير التحبير ، ص ٢٦١ .

(٦) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦١٤ .

بل إنّ الشاهد الثاني الذي استشهد به ، وهو قول مَنْ يصف السحاب ذكره صاحب (معاهد التنصيص) ضمن شواهد التقسيم^(١) .

وعليه فإنّه لا وجه لأنْ يكون التفويف لوناً بديعاً مستقلاً بذاته ؛ لأنّه غير مستقلّ أصلاً ، إنّما يدخل في ألوانٍ أُخر ، بل لا وجه لمن جعله على ضربين : ضرب منه معنوي ، وهو كما جاء عند ابن أبي الإصبع ، وضربٌ منه لفظيٌّ ، وهو كما جاء في التقسيم عند ابن رشيّق ، فهذا من التكلّف^(٢) .

ثمّ لا وجه لذلك أيضاً كيلا تتكاثر المصطلحات وتعدّد فتتداخل .

قال ابن حجة في شأنه : " التفويف تأملته ، فوجدته نوعاً لم يُفد غير إرشاد ناظمه إلى طرق العقادة ، والشاعر إذا كان معنوياً وتجنّس مشاقّه ، تقصر يده عن التطاول إلى اختراع معنى من المعاني الغريبة ، وتجفوه حسان الألفاظ ، ولم تعطف عليه برقةٌ ، وتأنف كلّ قرينة صالحة أن تسكن له بيتاً "^(٣) .

ائتلاف اللفظ مع المعنى :

كما تفرّد الخطيب القزويني عن ابن أبي الإصبع بما ألحقه بمراعاة النظر ، وهو (إيهام التناسب) ، فقد تفرّد ابن أبي الإصبع عنه بذكر نوعٍ آخر يمكن أن يلحق بمراعاة النظر أو يدخل في المناسبة عنده ، وهو (ائتلاف اللفظ مع المعنى) ، غير أنه عقد له باباً خاصاً سمّاه به وقال : " وتلخيص تفسير هذه التسمية : أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً وليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريباً فُحّاً كانت ألفاظه غريبة محضة ، وإذا كان المعنى مولّداً كانت الألفاظ مولّدة ، وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان غريباً كانت الألفاظ غريبة ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ معروفة

(١) انظر : معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

(٢) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

(٣) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

مستعملة ، وإذا كان متوسطاً بين الغرابة والاستعمال كانت ألفاظه كذلك " ^(١) .

فهذا تفسير أدبي شامل لهذا الباب ، ولهذا ربما أفردته .

ويظهر أنّ الائتلاف في هذا الباب منه ما هو ظاهر ومنه ما هو خفيّ أيضاً ، أو كما جاء عنده معنوي ولفظي .

فمن الأول اللفظي (الظاهر) :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ ^(٢) .

فقال : " فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها ، فإن التاء أقلّ استعمالاً ، وأبعد من أفهام العامة ، والباء والواو أعرف عند الكافة ، وهي أكثر دوراناً على الألسنة ، واستعمالاً في الكلام ، أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها ، فإنّ (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ) ، وهم لـ(كان) وما قاربها أكثر استعمالاً منها ، وكذلك لفظ (حَرَضًا) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك " ^(٣) .

فهو ينظر هنا إلى ملائمة الألفاظ ، وكيف أنها انتظمت واتخذت كلّ لفظة صفة اللفظة المجاورة رغبة في الائتلاف وطوعاً للتجاور الذي فرض عليها أن تصطبغ جميعها بصفة واحدة ، لذا قال بعد ذلك : " فافتضى حُسن الوضع في النظم أن تجاور كلّ لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيّاً لحُسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع ، وتتناسب في النظم " ^(٤) .

ثمّ استشهد بآيةٍ أخرى من نفس النوع اللفظي للموازنة بين نوعين من الملائمة ،

(١) بديع القرآن ، ص ٧٧ .

(٢) سورة يوسف : الآية (٨٥) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٧-٧٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

فالأولى اتّخذت ألفاظها جميعاً صفة الغرابة لأجل الائتلاف ورعايةً للجوار ، فالملاءمة فيها من حيث الغرابة .

أما الثانية : وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾^(١) ، فقد جاءت جميع ألفاظها مألوقة مستعملة ، فكانت الملاءمة من حيث هذا الاستعمال المألوف المتداول ، وقال : " لما كانت جميع ألفاظ هذا الكلام المجاورة لهذا القسم كلّها مستعملة متداولة ، لم تأت فيها لفظة غريبة تفتقر إلى مجاورة ما يشاكلها في الغرابة ويلائمها "^(٢) .

وقد فصل السيوطي بين النوعين (اللفظي والمعنوي) من هذا الباب ، فقال في الأول : " أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً ، بأن يقرب الغريب بمثله ، والمتداول بمثله ، رعايةً لحسن الجوار والمناسبة "^(٣) .

ومثل عليه بمثل ما استشهد ابن أبي الإصبع ، ونقل عنه ما قاله .

ثم عرّف المعنوي بقوله : " أن تكون ألفاظ الكلام ملائمةً للمعنى المراد ؛ فإن كان فحماً كانت ألفاظه فحمة ، أو جزلاً فجزلة ، أو غريباً فغريبة ، أو متداولاً فمتداولة ، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك "^(٤) .

وتعريف ابن أبي الإصبع جامعٌ للونين ، لذلك مثل على الثاني دون تعريف له ، وقال : " ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾^(٥) " .

ثم تأمل كيف حلّ فقال : " لما كان الركون إلى الظالم دون فعل الظالم واجب أن يكون العقابُ عليه دون عقاب الظالم ، ومسّ النار في الحقيقة دون الإحراق ، ولما كان الإحراق عقاباً للظالم أوجب العدل أن يكون المسّ عقاب الرّاكن إلى الظالم ، فلهذا عدل عَنْكَ

(١) سورة فاطر : الآية (٤٢) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٧٨ .

(٣) الإيتقان ، ص ٦٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥٥ .

(٥) سورة هود : الآية (١١٣) .

عن قوله : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فتدخلوا النار ؛ لكون الدخول مَظِنَّةَ الإحراق ، وخصّ المسّ ليشير به إلى ما يقتضي الركون من العقاب ، ويميّز بين ما يستحقّ الظالم وبين ما يستحقّ الراكن له من العقاب ، وإن كان مسّ النار قد يُطلق ويُراد به الإحراق ، لكن هذا الإطلاق مجاز ، والحقيقة ما ذكرناه ؛ لأنّ حقيقة المسّ أوّل ملاقة الجسم حرارة النار ، وإذا احتمل اللفظ احتمالاتٍ صُرِفَ منها إلى ما تدلّ عليه القرائن ^(١) .

وهذا تحليلٌ دالٌّ شديد الدلالة على دقّة حسّه ومقدار تدوّقه لكلام الله ﷻ ، وكيف تستوقفه كلّ لفظة فيوازن بينها وبين أخرى ، ثم يجمع الاثنين في ذهنه فيتأملهما جميعاً ثم يقرنهما بثالثة .. وهكذا في تأملٍ مُجملٍ فدقيقٍ مُفصّلٍ ثمّ بحملٍ مرة أخرى ، فإذا هو واقع على سرّ عظيم من أسرار هذا الكلام الإلهي ، فيكشف عنه بما يناسبه من دقّة نظمه ، وجمال أسلوبه ، وروعة بيانه .

وهو تحليلٌ - حسب علمي - لم يقع عند من سبقه ، بل كان هو السابق ، وهو المؤثر الأول ، فتبعه العلوي والزرکشي والسيوطي في هذا إن لم يكونوا ناقلين عنه .

لكن يُذكر للزخشري لفظة واحدة قالها عند تفسير هذه الآية ، فلفت بها النظر ؛ إذ قال : " وتأمل قوله : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا ﴾ ، فإنّ الركون هو : الميل اليسير ، وقوله : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، أي : إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين " ^(٢) .

فيبدو أنّ لفظة (وتأمل) عند الزخشري هي النبع الذي وقع عليه ابن أبي الإصبع ومتح منه ما متح ، وهي الإشارة المضيئة التي فهمها من الزخشري ، وانطلق من خلالها يفيض من فيض نفسه ما يفيض ، بل إنّ هذه الآية أشار إليها أيضاً في باب (التهذيب) ، وقال : " ومن أحسن ما وقع في هذا الباب قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ ﴾ ^(٣) ، وإن كان قد تقدّمت هذه الآية وتقدّم الكلام عليها ، ولا نكير على الإتيان بالآية الواحدة في أبواب عدّة بحسب ما يكون فيها من أنواع البديع وأصناف المحاسن ، ونحن

(١) بديع القرآن ، ص ٧٨ .

(٢) تفسير الكشاف ، ص ٥٠٠ .

(٣) سورة هود : الآية (١١٣) .

هاهنا تدعونا الحاجة إلى إعادة الكلام عليها ؛ لينساق فيه ما يتعلق بهذا الباب ... " (١) .

وهذه علامة مُضيئة لابن أبي الإصبع لم يقف الخطيب عليها ، رغم أنها من الائتلاف والتناسب الذي وقع الكثير منه في القرآن الكريم ، كما ذكر العلوي والزركشي والسيوطي (٢) . فائتلاف اللفظ مع المعنى أساس الكلام البليغ . وربما كان الجاحظ هو أول مَنْ نبّه إلى أهميته في قوله : " ومتى شاكل - أبقاك الله - ذلك اللفظُ معناه ، وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وقفاً ، ولذلك القدر لفقاً (٣) ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسَلِمَ من فساد التكلف ، كان قميناً (٤) بحسب الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العيابين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً في جنسه ، وكان سليماً من الفضول (٥) ، بريئاً من التعقيد ، حُبِّبَ إلى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهشّت (٦) إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخفّت على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظُم في الناس خطرُه ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلّم الرّيّض (٧) ... " (٨) .

ومن اللافت للنظر عند الرجلين : أنّ هناك آية قرآنية أشار إليها بعض القدماء ، كابن رشيّق ، ثمّ مَنْ جاء بعده من المتأخرين ، كالعلوي ، بل كانت تشغل اهتمامهم ، فمنهم مَنْ عدّها من المقابلة ، كالزركشي ، والسيوطي ، الذي أدرجها - لخصوصيتها - تحت لونٍ

(١) راجع للاستزادة : بديع القرآن ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٢) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٨٠ ، والبرهان ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ ، والإتقان ، ص ٦٥٥ .

وتأمل الشواهد القرآنية الكثيرة في هذا الخصوص ، خاصة عند الزركشي ، وكذلك ما زاده السيوطي من شواهد غير ما ذكرها ابن أبي الإصبع .

(٣) لفقاً : موافقاً .

(٤) قميناً : جديراً .

(٥) الفضول : الزوائد .

(٦) هشّت : مالت .

(٧) الرّيّض : المتمرّن .

(٨) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

بديعيّ مستقلّ لم يُسمع عند أحدٍ قبله ولا بعده إطلاقه عليها ، وهو (ترصيع الكلام) برغم أنّه أفرد للترصيع حديثاً آخر ، كما سبق ذكر هذا في المبحث الأول - وهو الطباق والمقابلة - ، ومنهم من عدّها من مراعاة النظر أو الائتلاف ، كما جاءت عند ابن رشيق والعلوي ، وكما يفهم من تفسير الزمخشري لها ، وهي يمكن أن تندرج تحت اللونين ، لكن الالاف كما قلت : أنّ الخطيب القزويني وابن أبي الإصبع العدواني لم يُشيرإ إليها لا في المقابلة ، كما سبق التنويه إلى ذلك في المبحث الأول ، ولا في مراعاة النظر هنا ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿^(١) .

قال الإمام ناصر الدين بن المنير^(٢) (ت ٦٨٣هـ) صاحب كتاب (الانتصاف من صاحب الكشاف) قال : " تنبيه حسن ، وفي الآية سرٌّ بديع من البلاغة يسمّى : قطع النظر عن النظر ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرّن كلّاً بشكله لتوهّم المعدادات نعمة واحدة ، وقد رُمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكنديّ الأول [ويقصد امرأ القيس] :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَرْشَفِ الرِّقَ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَثُلْ لِخَيْلِي كَرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ^(٣)

فقطع ركوب الجواد عن قوله : لخيلى كرى كرة ، وقطع تبطن الكاعب عن ترشف

(١) سورة طه : الآيتان (١١٨-١١٩) .

(٢) أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار بن أبي بكر الجذاميّ الاسكندراني المالكي القاضي ، ناصر الدين ، أبو العباس بن المنير ، كان إماماً في النحو والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طولى في علم البيان والإنشاء . صنّف التفسير ، الانتصاف من صاحب الكشاف ، مناسبات تراجم البخاري ، وغير ذلك .. مولده ثالث ذي القعدة سنة (٦٢٠هـ) . ومات - قيل - مسموماً يوم الجمعة ، مستهلّ ربيع الأول سنة (٦٨٣هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣٨٤ .

(٣) (أَتَبَطَّنْ) : أعرف وأخبر باطنها ، (كاعباً) : المرأة إذا نهدت وتأتأ ثديها ، (الخلخال) : واحد خلاخيل ، وهي الحلية من الفضة عادةً تلبسها المرأة في رجلها كالسوار في اليد ، (الرّويّ) : المملوء المشبع ، (كرّى) : اهجمي ، (إجفال) : سرعة وزهاب في الأرض .

الكأس ، مع التناسب ، وغرضه أن يعدّد ملاذّه ، ومفاخره ، ويكثرها ^(١) .

إلا أنّ ابن رشيق كان من قبل نازع في الاحتجاج بهذه الآية على من اعترض على بيت الكندي الأول ، وهو امرؤ القيس ، وقيل : لو قال - حسب رواية أخرى للبيت - :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أَسْبَأُ الزَّقَّ الرَّوِّيَّ لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ ^(٢)

لكان أفضل ^(٣) ، فقال ابن رشيق : " قول امرئ القيس أصوب ، ومعناه : أغزر وأغرب ؛ لأنّ اللذة التي ذكرها إنما هي الصيد ، هكذا قال العلماء ... وأما احتجاج الآخر بقول الله تعالى ، فليس من هذا في شيء ؛ لأنّه إنما أجرى الخطاب على مستعمل العادة ، وفيه مع ذلك تناسب ؛ لأنّ العادة أن يُقال : فلانٌ جائعٌ عريان ، ولا يستعمل في هذا الموضع عطشان ولا ظمآن . وقوله : (تظماً) و(تضحى) مُتناسب ؛ لأنّ الضاحي هو الذي لا يستره من الشمس شيء ، والظمأ من شأن من هذه حاله " ^(٤) .

ويُفهم من كلامه أنّ اجتماع تلك الكلمات الأربع في الآية الكريمة بينها تناسب ومُراعاة نظير ..

وقال الزمخشري في تفسيره الكشاف : " الشبع والري ، والكسوة والكنّ : هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان ، فذكره استجماعها له في الجنة ، وأنّه مكفي لا يحتاج إلى كفاية كافٍ ، ولا إلى كسب كاسب ، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا ، وذكرها

(١) الانتصاف لابن المنير على هامش الكشاف ، ص ٦٦٨ .

(٢) (سبأ الزّق والخمرة) : اشتراهما ليشربها ، و(الزّق) : وعاء الخمرة ، ويكون من جلد .

(٣) انظر كلاماً آخر حول بيتين للمتنبي يشبهان هذين البيتين ، ذكرهما ابن الأثير في المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ . وذكر في قول المتنبي : " إن صحّ أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا هو أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أنّ الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك ؛ لأنّ البزاز يعرف جملته ، والحائك يعرف تفاصيله " . انظر : ص ٢٨٧ .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ٤٤٤-٤٤٥ .

بلفظ النفي لنقائضها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحو ؛ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها ؛ حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها " (١).

وهذه إشارة واضحة منه إلى مقدار التناسب بين تلك الكلمات ، فكلها نظائر روعي فيها الاجتماع لأجل ما بينها من ائتلاف وانتساب إلى صنف واحد كما ذكر ، " هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإنسان " ، ثم قال : " ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة ... " (٢).

وقال بهذا التناسب العلوي (٣) ، بل استدلل ابن رشيق بقول للجاحظ ، وهو : " في القرآن معانٍ لا تكاد تفرق ، مثل : الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ، والرغبة والرغبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس ، والسمع والبصر " (٤).

وقد سبق التحدث عما بين الألفاظ من تقابل في المبحث الأول ، كما ذكر الزركشي والسيوطي ، وذكر صاحب (الانتصاف) : " أن في هذه الآية سرّاً لذلك زائداً على ما ذكر ، وهو أن قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظمأ بالجوع ، فقليل : " إن لك ألا تجوع فيها ولا نظماً ، لانتشر سلك رؤوس الآي ، وأحسن به منتظماً ، والله أعلم " (٥).

فإذن كانت هذه الآية الكريمة بعيدةً عن كتاب (الإيضاح) للقزويني ، وكتاب (بديع القرآن) للمصري ، رغم أهمية الكتاتين وأهمية الآية القرآنية !!.

لكنني في الحقيقة تفاجأت وأنا أبحث في باب آخر غير مراعاة النظر ، أن وقعت عيني على

(١) الكشف ، ص ٦٦٨ ، وجاء في خزنة الأدب لابن حجة : " فإنه تعالى لم يراع فيه مناسبة الريّ بالشبع ، والاستظلال للبس في تحصيل نوع المنفعة ، بل راعى مناسبة اللبس للشبع في حاجة الإنسان إليه وعدم استغنائه عنه ، ومناسبة الاستظلال للريّ في كونهما تابعين للبس والشبع " . انظر : ج ٣ ، ص ١٥٩ .

(٢) الكشف ، ص ٦٦٨ .

(٣) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .

(٥) الانتصاف لابن منير على هامش الكشف ، ص ٦٦٨ ، هامش (٢) .

باب عند ابن أبي الإصبع سَمَاه (التوهيم) قد ذكر فيه هذه الآية ، وعرفه بقوله : " أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيها وهو يريد غير ذلك .

ومنها أن يأتي في ظاهر الكلام ما يوهم أن فيه لحنًا خارجًا عن اللسان .

ومنها ما يأتي ظاهره يوهم أن الكلام قد قلب عن وجهه لغير فائدة .

ومنها ما يأتي دالاً على أن ظاهر الكلام فاسد المعنى ، وهو صحيح ^(١) .

ثم قال : " فأما القسم الأول فلم أظفر منه في الكتاب العزيز بشيء ، وإن جاء في الشعر ^(٢) .

والباب عامة غزير الشواهد ، منها : قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ ^(٣) ، وهي الآية التي استشهد بها الزركشي على خفي المقابلة ، وقد عدها ابن أبي الإصبع من القسم " الذي يوهم ظاهره أن نظم الكلام جاء على غير طريق البلاغة ؛ لكون لفظه غير مؤتلف بمعناه ؛ لما ترى بين الألفاظ من سوء الجوار ؛ لعدم الملاءمة ، وإذا تؤمل حق التأمل وجد جارياً على منهج البلاغة ، بحيث لو جاء على ما توهمه المعترض لكان النظم معيباً ^(٤) .

فذكر الآية ثم وضح كونها من هذا القسم بشيء من البسط والبيان الأدبي الذي تميز به ، ثم ذكر قصة سيف الدولة الحمداني لما اعترض على قول المتنبي بمثل ما اعترض على امرئ القيس ، فساق الآية المقصودة ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ ^(٥) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ^(٥) في هذا السياق ، وقال : " وقد تكلمت عن الشعرين ، واستدللت على أنهما لا عيب فيهما ، وأن ألفاظهما مؤتلفة بمعانيهما ، ملائم بعضها لبعض ،

(١) بديع القرآن ، ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٣) سورة هود : الآية (٢٤) .

(٤) بديع القرآن ، ص ١٣٧ .

(٥) سورة طه : الآيتان (١١٨-١١٩) .

وما هذا الكتاب بموضع ذكر ذلك ^(١)، يعني بديع القرآن ، ثم استأنف قائلاً : " والآية الأولى قد ذكرت فيها آنفاً ما ذكرت " ^(٢)، ويقصد الآية التي ذكرها الزركشي ، ثم قال عن الآية في سورة طه : " أمّا الآية الثانية : فما ادّعى فيها من عدم الملائمة هو من حيث قال سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ ، فقال المتوهم : لو قيل : لا تجوع ولا تظمأ ، ولا تضحى ولا تعرى ، لكان ذلك جارياً على ما توجهه البلاغة من الملائمة " ^(٣).

ومن هنا جاءت عنده تحت باب (التوهم) إذ يقول : " والجواب أن يُقال : مجيئها على ما توهمه التوهم يُفسد معنى النظم ؛ لأنه لو قيل : إنّ لك ألا تجوعَ فيها ولا تظمأ ، لوجب أن يقول : وأنت لا تعرى فيها ولا تضحى " ^(٤).

ثم استشهد على كلامه ببيت من الشعر الجاهلي للهللي ، وهو :

سَلَبْتُ عِظَامِي مِنْ لَحْمِهَا فَتَرَكْتُهَا مُجَرَّدَةً تَضْحَى لَدَيْكَ وَتَخْصِرُ ^(٥)

وهذا دأبه في إبراز البلاغة القرآنية وهو يوازن بين آية كريمة وبيت شعري ، ويستدلّ بهذا الشعر على تلك البلاغة العالية التي يتضاءل أمامها وينحسر كلّ كلام بشري دونها ويسقط ^(٦). ثم قال : " ولما كان هذا الفساد لازماً للنظم على الوجه الذي توهمه المتوهم ، وجب العدول عنه إلى لفظ القرآن ، وهو أن يضمّ سبحانه لنفي الجوع نفي العري ؛ لتطمئن النفس بسدّ الجوع وستر العورة اللذين تدعو إليهما ضرورة الحياة ، وتطلبها طبيعة

(١) بديع القرآن ، ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٥) " أي : تلقى الشمس الضاحية مجرّدة فينال منها حرّها ، وتلقى برد الليل مجرّدة ، فينال منها برده ، فهي معذبة نهارها وليلها " . انظر : بديع القرآن ، ص ١٤٠ .

(٦) انظر ربطه بين الشاهدين ، واستدلّاله بالبيت الشعري على فصيح الآية القرآنية وبلاغتها السامية ، ص ١٣٩-١٤٠ من بديع القرآن .

الإنسان بالجِبَلَّة ، وَلَمَّا كَانَ الْجُوعُ مُقَدِّمًا عَلَى الْعَطَشِ كَتَقْدِيمِ الْأَكْلِ عَلَى الشَّرَابِ ، أَوْجِبَتِ الْبَلَاغَةُ تَأَخُّرَ ذِكْرِ الظَّمَا عَنْ الْجُوعِ ، وَتَقْدِيمَهُ عَلَى التَّضْحِي ؛ لِأَنَّهُ مَهْمٌّ يَجِبُ أَنْ يَتَقَدَّمَ الْوَعْدُ بِنَفْيِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ الْوَعْدُ بِنَفْيِ الْجُوعِ ، وَيَتَأَخَّرُ ذِكْرُ التَّضْحِي كَمَا تَأَخَّرَ ذِكْرُ الْعَرِيِّ عَنِ الْجُوعِ ؛ لِأَنَّ التَّضْحِيَّ مِنْ جِنْسِ الْعَرِيِّ ، وَالظَّمَا مِنْ جِنْسِ الْجُوعِ " (١) .

وزاد زيادة لم أجدها عند غيره ، وهي قوله : " فَإِنْ قِيلَ : لِمَ ذَكَرَ التَّضْحِيَّ وَهُوَ عَرِيٌّ فِي الْمَعْنَى ، وَقَدْ أُنْحِيَ ذِكْرُ الْعَرِيِّ ؟ . قُلْتُ : فِي ذِكْرِ التَّضْحِيَّ فَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَهِيَ وَصْفُ الْجَنَّةِ بِأَنَّهَا لَا شَمْسَ فِيهَا ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ (٢) ، فَإِنَّ التَّضْحِيَّ عَرِيٌّ مَخْصُوصٌ بِمَشْرُوطِ الْبُرُوزِ لِلشَّمْسِ وَقَتِ الضَّحَى ، لِذَلِكَ سُمِّيَ تَضْحِيًّا ، وَالانتقال من الْأَعْمَى إِلَى الْأَخْصَ بِلَاغَةٌ ؛ لِاخْتِصَاصِ الْأَخْصَ بِمَا لَا يَوْجَدُ فِي الْأَعْمَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ " (٣) .

ورغم تأثره بالزخشي - كما يظهر في أوّل كلامه - ، فَإِنَّ هَذَا دَالٌّ عَلَى مَا وَهَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ قُوَّةِ اسْتِشْفَافٍ وَعَمِيقِ تَفَكُّرٍ ، فَهُوَ كَأَنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى الْغَيْبِ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ رَقِيقٍ ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فِي حَقِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (٤) .

أما مجيء هذه الآية عنده تحت هذا الباب ، فهذه وجهة نظر ؛ إذ لا يخفى على كلّ امرئ أنّه قد تتعدّد المصطلحات البلاغية في الآية الواحدة ، بل يمكن أن تندرج تحت لونٍ يُخَالَفُ مَا هُوَ مُتَعَارَفٌ عَلَيْهِ كَمَا عِنْدَ ابْنِ أَبِي الْإِصْبَعِ ، وَإِنْ كَانَتْ تَسْمِيَتُهُ لِهَذَا الْبَابِ مُسَبَّوْقَةً ؛ إِذْ وَرَدَتْ عِنْدَ أُسَامَةَ بْنِ مَنْقَذٍ (٥) ،

(١) بديع القرآن ، ص ١٤٠ .

(٢) سورة الدهر : الآية (١٣) .

(٣) بديع القرآن ، ص ١٤٠ .

(٤) انظر : مقدّمة البرهان في علوم القرآن ، ص ١٠١ .

(٥) انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ٨٦ ، فَقَدْ عَرَفَهُ بِقَوْلِهِ : " اعْلَمْ أَنَّ التَّوْهِيمَ أَنْ تُجِيءَ الْكَلِمَةُ تَوْهِيمًا أُخْرَى ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ [سورة النور : الآية (٢٥)] ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : (يُؤْفِكُهُمُ) يَوْهِمُ مَنْ لَا يَحْفَظُ : (دَيْنَهُمُ) - بِالْفَتْحِ - ، فَكَأَنَّ التَّوْهِيمَ عِنْدَهُ فِي اللَّفْظِ ، وَهَذَا يَدْخُلُ فِي الْجَنَاسِ ، وَضُمَّ إِلَيْهِ الْمَصْرِيُّ الْمَعْنَى .

إلا أنّ توضيحه وتحليله وبيانه الشافي لا يدع أحداً يُنكر عليه هذا الإدراج تحت هذا الباب .

وعليه فإنّ الآية المذكورة لا خلاف فيها بين العلماء ، فمن أدرجها في المقابلة فهي كذلك ، ومن أدرجها في مراعاة النظر فكذلك ، ومن وافق فيها ابن أبي الإصبع فلا استنكار ولا عجب .

جمع المؤتلفة والمختلفة :

من اللافت عند ابن أبي الإصبع خاصة أنّه عقد باباً منفصلاً يكاد لا يخرج عن المناسبة ومراعاة النظر ، وهو (جمع المؤتلفة والمختلفة) الذي بحثه أبو هلال العسكري كما مرّ أثناء الحديث عن نشأة مراعاة النظر ، وذكرت فيه أنه أول ظهور لهذا اللون البديعي ، إلا أنّ ابن أبي الإصبع أخذ منه الاسم فقط ، وأطلقه على مفهوم آخر فسّره تفسيراً مختلفاً عنه ، ومثّل عليه بشواهد تتناسب مع تفسيره ، إلا أنّه لم يسرّ في طريقته التي رسمها وعلى تعريفه الذي وضعه ، حتى عاد إلى تعريف وشواهد أبي هلال العسكري ، فوقع في اضطراب شديد كما ذكر الدكتور حفني شرف^(١) .

ثمّ يكشف عن صنيعة في نقد هذا المصطلح الذي يحمل اسماً لا يليق بمقامه من وجهة نظره ، فقال : " رأيت من المؤلفين من فسّر هذه التسمية بما لا يليق بها ، وقد استشهد عليها بشواهد من جنس ما فسّر به ، فاطّرحْتُ ذلك وفسّرتها بما يليق ، واستشهدتُ عليها بشواهد مطابقة لتفسيري ، وكذلك فعلتُ في أكثر الأبواب ، ومن وقف على كتابي وكتب الناس في هذا الشأن علمَ صديق دعواي "^(٢) .

ثمّ عرفه قائلاً : " وهو عبارة عن أن يريد المتكلّم التسوية بين ممدوحين ، فيأتي بمعانٍ

(١) انظر : تحرير التحرير ، ص ٣٤٧ ، هامش (١) ، لكن يبدو أنّ هذا الاضطراب ليس بالدرجة الشديدة في كتابه (بديع القرآن) ، إنما كان في (بديع القرآن) أكثر دقّة وحصرًا لشواهد تتناسب مع ما ذهب إليه من تفسير لهذا الباب ، رغم أنّ تفسير أبي هلال كان أكثر موافقةً منه لمسمّاه .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .

مؤتلفة في مدحهما ، ثم يروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر بزيادة فضل لا ينقص بها مدح الآخر ، فيأتي لأجل الترجيح بمعانٍ تُخالف معاني التسوية ^(١) .

قال الدكتور حفني شرف : " وكان الأجدد بابن أبي الإصبع عند تفسيره لهذا النوع تفسيراً مُغايراً لمن سبقه أن يدقق النظر في شواهد التي أتى بها وليس فيها جمع للمؤتلف والمختلف ، بل ليس فيها زيادة بعد مساواة ^(٢) .

وذكر أنّ تعريف أبي هلال العسكري لهذا النوع ينطبق عليه تمام الانطباق ، كما أنّ شواهد توافقت تعريفه موافقةً تامةً ^(٣) .

ومما استشهد به ابن أبي الإصبع في هذا الباب : قول عباس بن الأحنف :

وَصَالِكُمْ صِرْمٌ وَحُبُّكُمْ قِلْيٌ وَعَظْفُكُمْ صَدٌّ وَسَلْمُكُمْ حَرْبٌ ^(٤)

وهذا يُشبهه ما استشهد به أبو هلال العسكري من قول ابن مُطير :

بِسُودٍ نَوَاصِيهَا ، وَحُمْرٍ أَكْفَهَا وَصُفْرٍ تَرَاقِيهَا وَبَيْضٍ خُدُودَهَا ^(٥)

وهما بيتان يشبهان ما جاء عند الخطيب القزويني ، وهو قول أسيد بن عتقاء الفزاري :

(١) بديع القرآن ، ص ١٢٧ . وتأثر بما عند ابن أبي الإصبع السيوطي ، إلا أن هذا اللون كان عنده أكثر اتساقاً وتقييداً وانتظاماً مما جاء عند المصري . انظر : الإتيان ، ص ٦٦٣ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٣٤٤ (الهامش) .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٣٤٤ (الهامش) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٤٧ .

و(صِرْمٌ) : قطعٌ وكسرٌ وذهابٌ وتفرُّقٌ وتمزُّقٌ ، (قِلْيٌ) - بالكسر والقصر ، وقد يُمدّ - : إذا أبغضته .

(٥) الصناعتين ، ص ٤١٨ .

(نواصيها) : جمع (ناصية) ، وهي مُقدِّمُ الرأس ، وقيل : قُصاصُ الشعر ، (تراقِيها) : جمع (ترْقُوة) ، وزنها (فَعْلُوة) - بفتح الفاء وضمّ اللام - ، وهي العظم الذي بين ثَغْرَةِ النّحر والعَاتِقِ من الجانبين . قال بعضهم : ولا تكون (الترْقُوة) لشيءٍ من الحيوانات إلا للإنسان خاصّةً .

كَأَنَّ الثَّرِيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشَّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْبَدْرُ^(١)

فالشاهد الأول : وصلٌ ، وحبٌ ، وعطفٌ ، وسلّمٌ ، تناسبت فاجتمعت ثم تقابلت مع مثلها في الاجتماع والتناسب ، وهي : صرْمٌ ، وقِلْيٌ ، وصدٌ ، وحرب .

والشاهد الثاني : سودٌ ، وحرٌّ ، وصفَرٌ ، وبيضٌ ، تناسبت فتقابلت مع : نواصيها ، وأكفّها ، وتراقبها ، وخذودها .

والشاهد الثالث : الثَّرِيَّا ، والشَّعْرَى ، والبدر ، مع : الجبين ، والخذ ، والوجه .

فيمكن القول : إنّ هذا من مراعاة النظر ، أو جمع مؤنث مع مختلف ، بل إنّ العلوي عدّ (جمع المؤنث مع المختلفة) ضرباً رابعاً من أضرب الائتلاف التي تدخل فيها ائتلاف اللفظ مع اللفظ أو (مراعاة النظر)^(٢) ، فإذاً هو نوعٌ من الائتلاف ملحقٌ بمراعاة النظر ، إلا أنّ الخطيب أهمله ، أو التفت إلى الائتلاف ولم يلتفت إلى الاختلاف . وابن أبي الإصبع فصله عن باب المناسبة الذي هو ملحق بمراعاة النظر ، وعدّه لوناً بديعاً مستقلاً .

خلاصة المبحث :

والخلاصة في هذا المبحث أنّ الخطيب القزويني جمع تحت باب (مراعاة النظر) كلّ ما هو من الائتلاف ، ما عدا ضربين ، هما : ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وجمع المؤنث مع المختلفة التي تفرد بذكرهما ابن أبي الإصبع .

أما ابن أبي الإصبع نفسه فقد تعدّدت عنده أبواب كثيرة ، كلّها داخلية في الائتلاف ، أهمها :

المناسبة ، ائتلاف اللفظ مع المعنى ، جمع المؤنث مع المختلفة ، وتشابه الأطراف .. بل إنّ اللونين الأخيرين غير من مفهومهما إلى غير ما هو متعارف عليه عند جمهور البلاغيين

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٤ .

و(الثريا) : النّجم ؛ لكثرة كواكبه مع ضيق المحل ، وهو في عنق الثور ، (الشَّعْرَى) : نجم في الجوزاء .

(٢) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

كما مرّ ، ويظهر لي أنّ هذا التعدّد وإن كان حقّه الإدراج تحت عنوانٍ واحد - وهو المناسبة عنده - كما هو ظاهر من كلام ابن معصوم ؛ إذ يقول : " المناسبة ضريين : معنوية ولفظية ، والمعنوية هي التناسب في المعاني ، ويندرج فيها مراعاة النظر ، والتوشيح ، وتناسب الأطراف ، وائتلاف المعنى مع المعنى " ^(١) ، لكنه يعكس وجهة نظر ابن أبي الإصبع النقدية وروحه الأدبية ، خاصةً وهو باحثٌ عن ألوان البديع في القرآن الكريم ، ومستقصٍ لها في الآية الواحدة ؛ لذا فهو يعطي لكلّ بابٍ حقّه من القول والبيان والإيضاح ، بل والتحليل المفصّل المتفاعل مع الشاهد الواحد ، ثمّ لكلّ بابٍ مزيةً خاصّةً عنده وخصوصيةً متميّزة ، زدّ على هذا أنه يمتلك صفة أدبية ينطبع بها كتاباه ، من أهمّ معالمها سمة الوضوح ؛ فابن أبي الإصبع حريص على ألاّ يترك باباً بديعاً أو مثلاً عليه ظلٌّ من غموض أو إبهام إلاّ بيّنه ، ولا يمرّ بابٌ بديعيّ يقترب من آخر - كما هو الحال فيما يتعلّق بصور الائتلاف - إلاّ بيّنه ووضّحه ، لتزى الصورة مُشرقة مُعبّرة في كلّ كتابيه ^(٢) .

فهو مطبوع على المنهج الواضح في التفكير والبحث ، وهو رجلٌ ذوّاق تستوقفه الشواهد ، فضلاً عن الألوان الداخلة تحت لونٍ واحد ، لذا ظهر لي ولعه الشديد بصور هذه المناسبة وهذا الائتلاف وما طُبِع عليه القرآن الكريم من التناسب والانسجام والإعجاز البلاغي بكلّ صوره ...

فها أنت تجد الآية الواحدة يتنقّل بها من بابٍ إلى آخر بعد أن يكون قد استغرقها في الباب الواحد ، كما هو الحال في تكراره ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ ^(٣) ، في باب (ائتلاف اللفظ مع المعنى) ، ثمّ في باب (التهذيب) .

فالتهذيب وحسن النسق والانسجام والمناسبة كلّها أسماءٌ لأبواب تعكس حسّه الأدبي وولعه بعلاقات المعاني وما بينها من انسجامٍ عجيب ، فاختار لكلّ صورة من هذه الصور اسماً خاصّاً بها .

(١) أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

(٢) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٥٧٧ ، بتصرّف .

(٣) سورة هود : الآية (١١٣) .

المبحث الثالث : المشاكلة :

هذا اللون البديعي هو أسلوب من أساليب البيان الذي لولاه - كما يقول عبد القاهر - لم تكن لتتعدى فوائذ العلم عالمه ، ولتعتلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ، ولظلت المعاني مسجونة في مواضعها^(١) ، وهو داخلٌ في نسيج البلاغة ، ودالٌّ على السمو والارتفاع بجلاء يتكشف لكل متأمل ومتذوق .

وأرقى شواهد أي لون بلاغي وأبلغه هو ما وقع في القرآن الكريم ، يقول الله ﷻ مخاطباً الذين كفروا : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾^(٢) .

فالله سبحانه لا يضل ولا ينسى ، وإنما أطلق النسيان في الآية على ذات الله سبحانه لوقوعه في صحبة نسيان الذين كفروا ، ولمشاكلة تلك اللفظة ، والمعنى : " نترككم في العذاب - ترك المنسي - كما تركتم عدة ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ، وهي الطاعة ، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالي به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال ، كالشيء الذي يُطرح نسياً منسياً "^(٣) .

قال الألوسي^(٤) (ت ١٢٧٠هـ) : " نترككم في العذاب من باب إطلاق السبب على المسبب ؛ لأن من نسي شيئاً تركه ، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالي به ... وجوز أن يكون التعبير بنسيانه لأن علمه مركوز في فطرتهم أو لتمكنهم منه بظهور دلائله ، ففي النسيان الأول مشاكلة "^(٥) . والمعنى : نُجازيهم جزاء نسيانهم ، والجزاء من جنس العمل "^(٦) .

(١) انظر : أسرار البلاغة ، ص ٣ .

(٢) سورة الجاثية : الآية (٣٤) .

(٣) الكشف ، ص ١٠٠٨ ، وجاء ما بين الشرحين في تفسير أبي السعود ، ج ٦ ، ص ١٢١ .

(٤) خاتمة المحققين ، وعمدة المدققين ، مرجع أهل العراق ومفتي بغداد ، العلامة أبو الفضل شهاب الدين

السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) . انظر : أول مقدمة تحقيق كتابه (روح المعاني) .

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ج ٢٥-٢٦ ، ص ٢١٨ .

(٦) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٢٢ .

ومن المشاكلة : قول النبي ﷺ : « مَه ، عليكم ما تطيقون من الأعمال ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا »^(١).

فالله سبحانه وتعالى لا يوصف بالسَّام أو الملل وما يتبع هذا ، ولكن نُسب الملل إليه مشاكلةً للملل العباد وتضجرهم ، والمعنى أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْطَعُ ثَوَابَهُ وَعِطَاءَهُ حَتَّى تَمَلُّوا مِنْ مَسْأَلَتِهِ وَعِبَادَتِهِ^(٢).

قال ابن حجة : " الأصل : فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْطَعُ عَنْكُمْ فَضْلَهُ حَتَّى تَمَلُّوا مِنْ مَسْأَلَتِهِ . فَوْضَعَ (لَا يَمَلُّ) مَوْضِعَ (لَا يَقْطَعُ [الثواب]) ، عَلَى جِهَةِ الْمَشَاكَلَةِ ، وَهُوَ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ لَفْظُ الْمَشَاكَلَةِ أَوَّلًا " ^(٣).

والمشاكلة في اللغة : الموافقة ، والمشابهة ، والمماثلة .

و" الشَّكْلُ : الشَّبَهُ ، وَالْمِثْلُ ، وَيُكْسَرُ ، وَمَا يُؤَافِقُكَ وَيَصْلُحُ لَكَ ، تَقُولُ : هَذَا مِنْ هَوَايَ وَمِنْ شَكْلِي " ^(٤) . " وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ أَشْكَالٌ وَشُكُولٌ ، وَهَذَا مِنْ شَكْلِ ذَاكَ : مِنْ جَنْسِهِ ، ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاجٌ ﴾ ^(٥) " ^(٦) .

وهي في اصطلاح البلاغيين " ذِكْرُ الشَّيْءِ بِلَفْظٍ غَيْرِهِ لَوُقُوعِهِ فِي صَحْبَتِهِ ؛ تَحْقِيقًا أَوْ تَقْدِيرًا " ^(٧) .

(١) صحيح البخاري ، تصنيف : الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، باب مَا يُكْرَهُ مِنَ التَّشْدِيدِ فِي الْعِبَادَةِ ، ص ٢٠٠ ، حديث رقم (١١٥٠) .

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٧٧ ، بتصرف .

(٣) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٤) القاموس المحيط ، ص ١٣١٧ ، باب (اللام) ، فصل (الشين) .

(٥) سورة ص : الآية (٥٨) .

(٦) أساس البلاغة ، ص ٣٣٥ ، مادة (شكل) .

(٧) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٩ .

فالأول كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ... ﴾^(٢) .

فقد أطلق لفظ (سيئة) ولفظ (فاعتدوا) على الجزاء والعقاب ، وكلاهما حق لا يوصف بالسيئة والاعتداء ، فجاء الإطلاق مشاكلةً للفظ المصاحب لهما تحقيقاً ، وهو (سيئة) و(اعتدى) الموجودان في الآيتين ؛ لذا تُسمَّى المشاكلة تحقيقية .

ومثلها قول الشاعر :

قَالُوا : اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدُ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ : اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً^(٣)

فالشاعر أراد : (حيطوا لي جبّة وقميصاً) ، فذكر الخياطة بلفظ (اطبخوا) ؛ لوقوعها في صيغة المصدر (طبخه) .

وهذا النوع من المشاكلة التحقيقية هو الأشهر والأكثر في الاستعمال ، لذلك بنى أربابُ البديعيات أبياتهم عليه^(٤) .

أما النوع الثاني من المشاكلة ، فإنَّ "الألفاظ المشاكَل بها غير موجودة ، وإنما تفهم من السياق ، وحينئذٍ تُسمَّى المشاكلةُ تقديريةٌ"^(٥) ، كقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾^(٦) .

قال السيوطي شارحاً هذا المثال : " قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ : أي : تطهير الله ؛

(١) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٣) ذكر صاحب (معاهد التنصيص) أنَّ البيت لأبي الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي (ت ٣٩٩هـ) . انظر : المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٤) اقترح : اطلب من غير تكليف ، (نجد) : نُحسن ، و(الجُبّة) : من الملابس معروفة ، والجمع (جُبَب) .

(٥) أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ ، بتصرف .

(٥) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٧٥ .

(٦) سورة البقرة : الآية (١٣٨) .

لأنّ الإيمان يطهّر النفوس ، والأصل فيه : أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمّونه (المعمودية) ، ويقولون : إنه تطهير لهم ، فعبر عن الإيمان بـ(صبغة الله) ؛ للمشكلة بهذه القرينة ^(١) .

وقد تكون المشكلة باللفظ المضادّ كقول شريح القاضي لرجل شهد عنده : " إنك لسبّط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تجعد عني " ^(٢) .

فلما أراد القاضي وصف شهادة الرجل بحسن الأداء والاستقامة دون اعوجاج أو التواء ، استعار لها السبوطه ، وهي صفة الشعر المسترسل ، فقابلها الرجل مشاكلةً بأنّ هذه الشهادة لم تجعد عنه ، أي لم تتردّد في نفسه أو يتعسّر أداؤها أصلاً ، فاستعار لها صفة الشعر غير المسترسل ، وهو التجعيد الذي هو ضدّ السبوطه ^(٣) .

وقد تكون المشكلة باللفظ المناسب كما " قيل لوهب بن منبه : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟. فقال : بلى ، ولكن ليس مفتاحٌ إلا له أسنانٌ ، فإن جئت بمفتاحٍ له أسنانٌ ، فتح لك ، وإلا لم يُفتح لك " ^(٤) .

فذكرت (الأعمال) بلفظ (الأسنان) ؛ ليتناسب هذا مع لفظ (المفتاح) المعبر به عن كلمة التوحيد ، فبين اللفظين المتشاكلين مناسبة وتناسب .

والمقرر في هذا الفنّ أنه لا يلزم أن تكون المشاكلة دائماً باللفظ الثاني المشاكل للأول كما أشار بعض الدارسين ^(٥) ، وينقض كلامهم قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ ^(٦) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » ، فالمشاكلة هنا في الشاهدين وقعت في اللفظ الأول المشاكل للثاني .

(١) الإتيان ، ص ٦٦٧ .

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٥ ، بتصرّف .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ص ٢١٦ ، معلق .

(٥) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٢٥-٢٦ .

(٦) سورة الجاثية : الآية (٣٤) .

نشأة المشكلة :

بالنظر إلى نشأة هذا اللون البديعي كفنٌ قولِيّ يُلاحظ أنه كغيره من الألوان البديعية الأخرى قد طرقة الشعراء قديماً وجرى على ألسنتهم عفو الخاطر ، وطرح السجية ، وفيض الفطرة النقية دون معرفة لاسمه حتى يمكن أن يُسوَّغ لهم مثلاً التنقيب عنه أو تقصيه ، ثم التكلف له والإكثار منه ، وذلك كقول عمرو بن كلثوم :

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فقد سمى الشاعرُ المعاقبة والمجازاة جهلاً مشاكلة ؛ لقوله : (لا يجهلن) ، وما من شك أن وراء هذا مبعثاً نفسياً يتجاوز مجرد المشاكلة اللفظية ، وهذا ما سيُشار إليه أثناء الحديث عن المزية الخاصة لهذا اللون .

ومن ذلك أيضاً : قول شريح القاضي كما تقدّم ، فالذي سوَّغ تجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، فلولا سبوطه الشهادة لامتنع تجعيدها ، كما قال صاحب (الإيضاح)^(١) .

وكان الفراء^(٢) قد تحدّث عن المشاكلة ، ولكنه لم يسمّها باسمها المصطلح عليه الآن ، ولعله أوّل من لاحظها في القرآن الكريم ؛ إذ يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٣) : " فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : " أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ : ﴿ فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أعدوان هو وقد أباحه الله لهم ؟. قلنا : ليس بعدوان في المعنى ، إنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾^(٤) ،

(١) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٢) الإمام العلامة الحافظ الأديب ، أبو أحمد ، محمد بن عبد الوهاب ابن حبيب بن مهران ، العبدى ، الفراء النيسابوري ، كان وجه مشايخ نيسابور عقلاً وعلماً وجلالاً وحشمة ، وُلد بعد الثمانين ومائة ، كان يفتي في الفقه والحديث والعربية ، ويرجع إليه فيها ، مات عن نيف وتسعين سنة في أواخر سنة (٢٧٢هـ) ، وقيل : عاش خمساً وتسعين سنة . انظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج ١٢ ، ص ٦٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية (١٩٣) .

(٤) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

فالعُدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى ، والعُدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص ، فلا يكون القصاص ظلماً وإن كان لفظه واحداً ^(١) .

ووردت عند المبرد تحت اسم (المزج) ، وهو ما اتفق لفظه ^(٢) .

وقد أشار ابن قتيبة ^(٣) إلى صورٍ منها في باب (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) ، وفي باب (الاستعارة) ^(٤) .

وجاء مفهوم المشكلة من بعد مختلطاً بألوان بديعية أخرى ؛ إذ لوحظ أنَّ بعض شواهد المشكلة جاءت تحت ما عُرف بالتجانس عند الرماني وعند الباقلاني ، وهي عندهما من المزوجة ، ولم يكن الباقلاني حقيقةً إلا ناقلاً عن الرماني ، خاصة في هذا اللون ^(٥) .

وجاءت عند أبي هلال العسكري تحت ما يُعرف عنده بالمقابلة في المعنى ؛ إذ قال : " والمقابلة : إيراد الكلام ، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة ، فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل ... " ^(٦) .

ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا ﴾ ^(٧) ، وقال : " فالمكر من الله تعالى العذاب ، جعله الله ﷻ مقابلةً لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته " ^(٨) .

(١) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٦٢١ ، (نقلاً عن معاني القرآن ، ج ١ ، ص ١١٦) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢٢ ، بتصرّف ، (نقلاً عن " ما اتفق لفظه " ، ص ١٢ ، ١٣) .

(٣) العلامة الكبير ، ذو الفنون أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، وقيل : المروزي ، الكاتب صاحب التصانيف ، منها : غريب القرآن ، غريب الحديث ، عيون الأخبار ، مشكل القرآن ، طبقات الشعراء .. وغيرها . كان ثقة ديناً فاضلاً . مات فجأة في رجب ، سنة (٢٧٦هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٣ ، ص ٢٩٦ .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٢ ، بتصرّف يسير .

(٥) انظر : النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٩ ، وإعجاز القرآن ، ص ٢٧١ .

(٦) الصناعتين ، ص ٣٤٦ .

(٧) سورة النمل : الآية (٥٠) .

(٨) المصدر السابق ، ص ٣٤٦ .

وكذا بقوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾^(١) ، وهي بهذا المعنى عند الزمكاني (ت ٦٥١ هـ) ؛ إذ قال : " والمقابلة كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اغْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾^(٢) ، وفي هذا ردٌ للثاني إلى لفظ الأول ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾^(٣) ، وهذا ردُّ الأول إلى لفظ الثاني ؛ لأنَّ الاقتصاص ليس بمعاقبة ... " ^(٤).

وعدها ابن الأثير من التناسب بين المعاني ، فجاءت تحت الفرع الأول من مقابلة الشيء بمثله ، وهو مقابلة المفرد بالمفرد ، وفرّق بينها وبين الألفاظ المترادفة ، فبعد أن مثّل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا ﴾^(٥) ، قال : " وقد روعي هذا الوضع في القرآن الكريم كثيراً ؛ فإذا ورد في صدر آية من الآيات ما يحتاج إلى جوابٍ كان جوابه مماثلاً ، كقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾^(٦) ، وكقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٧) ، وهذا هو الأحسن ، وإلا فلو قيل : مَنْ كفر فعليه ذنبه ، كان ذلك جائزاً ، لكن الأحسن هو ما ورد في كتاب الله تعالى ، وعليه مدار الاستعمال .

وهذا الحكم يجري في النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية .

فأما إن كان ذلك غير جواب ؛ فإنه لا يلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية ، ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هي في معناها ، وإن لم تكن مساوية لها في اللفظ ، وهذا يقع في الألفاظ المترادفة ؛ ولذا يستعمل ذلك في الموضع الذي ترد فيه الكلمة غير جواب ^(٨) .

(١) سورة التوبة : الآية (٦٧) .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٣) سورة النحل : الآية (١٢٦) .

(٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ١٠٣ .

(٥) سورة النمل : الآية (٥٠) .

(٦) سورة الروم : الآية (٤٤) .

(٧) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٨) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٨١ ، وفي كلامه هذا ما يُميّز المشكلة عن مجرد الترادف فقط ، وانظر الاشتراك عنده في الجزء الأول من كتابه ، ص ٧٦ .

ويسمى الزمخشري المقابلة كغيره ، إلا أنه يعني بالمقابلة معناها اللغوي ، لكن قد يطلق المزوجة على صور المشكلة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾^(١) ، أنه : " سمى الفعل الأول باسم الثاني للمزوجة ، والمعنى : إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه ، فقابلوه بمثله ، ولا تزيدوا عليه " ^(٢) .

وأدرج أسامة بن منقذ شواهد من الجناس ، ومراعاة النظير ، والمقابلة خاصة - رغم أنه أفرد لها عنواناً مستقلاً - ، وكذلك المشكلة تحت مصطلح واحد سَمَاهُ : (باب الازدواج) فقال : وهو أن تزواج بين الكلمات والجمل بكلامٍ عذب ، وألفاظ عذبة حلوة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾^(٣) .

وإذا كان الفراء هو أول من لاحظ المشكلة في القرآن الكريم ، فلعل أبا علي الفارسي كان أول من أطلق عليها هذا الاسم ^(٤) .

وجاء السكاكي ونظر إليها نظرة الفراء ، وحدد مفهومها ، ودعمها بالشواهد اللائقة بها ، وأصبحت بذلك المشكلة فناً منفصلاً ومختلفاً عن تلك الألوان التي سميت بها ، كالجنانسة ، والمقابلة ، والمزوجة ، والازدواج ؛ إذ إن هناك فروقاً بين تلك الألوان عند تأمل الشواهد والمفهوم الاصطلاحي لكل فن منها عند المتأخرين ، وتبع السكاكي في ذلك ابن مالك والقزويني وشراح التلخيص وغيرهم .

صلة المشكلة بالمجاز :

ارتبطت المشكلة بالمجاز عامة عند بعض علماء البلاغة ، كالزمخشري في بعض شواهد ؛

(١) سورة النحل : الآية (١٢٦) .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٧٦-٥٧٩ ، بتصرف يسير ، وانظر : الكشاف ، ص ٥٨٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٤) البديع في نقد الشعر ، ص ١١١ .

(٥) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٦٢٢ (نقلاً عن الحجة ، ج ١ ، ص ٢٣٦) ، بتصرف .

إذ جاء عنده أنّ " ذكر الشيء بلفظ المذكور في صحبته يصلح أن يكون مبنياً على الشبيه ، ولكن الزمخشري يجعله من طريق المشاكلة ، ثم يشير إلى ما ينطوي عليه هذا التعبير من فوائد أساسها علاقة الشبه "(١) .

وكذلك العلوي ؛ إذ جاءت شواهد المشاكلة عنده تحت المرتبة الأولى من مراتب المجازات المفردة ، وهي : (تسمية الشيء باسم ضده) ، وقال : " فيمكن أن يقال : إنّ وجه المجاز هاهنا تسمية الشيء باسم ضده ، وإذا جاز إطلاق اللفظة الواحدة على الضدين في لسانهم كإطلاق الحنيف على المعوج ، والمستقيم ، والسُدفة على الضوء والظلام ، جاز إطلاق السيئة على جزائها كما يطلق عليها نفسها ، ويمكن أن يقال : إنّ هذا من باب التشبيه في المجاز ؛ لأنّ جزاء السيئة يشبهها في كونها سيئة بالنسبة إلى مَنْ وصل إليه ذلك الجزاء "(٢) .

ولما ارتبطت المشاكلة بالمجاز - كما سبق - ، كان لا بدّ من بيان صلتها به والتفصيل في هذا ، وهل هي مجاز ، أم واسطة بين الحقيقة والمجاز ؟.

فمن العلماء أيضاً مَنْ ذهب إلى أنها من المجاز ، متأثرين في ذلك بالزمخشري والعلوي ، كالزملكاني ؛ إذ هي عنده من المقابلة التي هي القسم الرابع من أقسام المجاز الإفرادي (٣) .

وكذلك الزركشي ؛ إذ جاء قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ تحت النوع التاسع

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٧٩ ، وانظر ما قاله الزمخشري حول قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ... ﴿ [سورة الشعراء : الآيتان (٤٦-٤٧)] ؛ إذ قال : " وإنما عبّر عن الخور بالإنلقاء ؛ لأنّه ذكر مع الإنلقاءات ، فسلك به طريق المشاكلة ، وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرْحاً " . انظر : الكشاف ، ص ٧٦٠ .

(٢) الطراز ، للعلوي ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(٣) انظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، تأليف : كمال الدين الزمكاني ، تحقيق : د. خديجة الحديثي ، د. أحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ، ص ١٠٣ .

من أنواع المجاز ، وهو إطلاق اسم الخاص وإرادة العام ، وقال : " أي : كل سيئة " ^(١).

ثم وردت الآية نفسها تحت النوع التاسع عشر من المجاز ، وهو إطلاق اسم الضدين على الآخر ، وقال : " وهي من المبتدئ سيئة ، ومن الله حسنة ، فحُمِلَ اللفظ على اللفظ . وعكسه : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ^(٢) ، سُمِّيَ الأول إحساناً لأنه مقابل لجزائه وهو الإحسان ، والأول طاعة ، كأنه قال : هل جزاء الطاعة إلا الثواب ! . وكذلك : ﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرًا لِلَّهِ ﴾ ^(٣) ، حُمِلَ اللفظ على اللفظ ، فخرج الانتقام بلفظ الذنب ؛ لأنَّ الله لا يَمَكُرُ ^(٤).

وإذا كان الزمخشري والعلوي ذهباً إلى القول بالمجاز لعلاقة المشابهة كما يبدو ، فإنَّ السيوطي كان ممن قال بالمجاز أيضاً ، لكن لعلاقة المصاحبة ، وأنكر مَنْ قال بالوساطة بين الحقيقة والمجاز على اعتبار أنَّ لفظ المشكلة لم يوضع لما استعمل فيه ، فيكون حقيقة ، ولا لعلاقة معتبرة ، فيكون مجازاً ^(٥) ؛ " إذ لا علاقة بين لفظي المشكلة سوى وقوع اللفظ الثاني في صحبة اللفظ الأول حقيقة أو تقديرًا ، وهذا الوقوع غير معتبر بين علاقات المجاز " ^(٦) ، وإذا ما كان الوقوع المذكور سوَّغ محيى المعنى الثاني بلفظ المعنى الأول ، إلا أنه لا يرقى به إلى درجة المجاز ^(٧).

(١) البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٢) سورة الرحمن : الآية (٦٠) .

(٣) سورة آل عمران : الآية (٥٤) .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ ، وانظر تفصيله في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : الآية (٩٩)] ، راداً على مَنْ قد تقع في نفسه شبهة ما .

(٥) انظر : الإتيان ، ص ٥٦٣ ، وكان ممن ذهب إلى هذا القول : بهاء الدين السبكي ؛ إذ قال : " والتحقيق أنَّ المشكلة من حيث هي مشكلة ليست حقيقة ولا مجازاً ؛ لأنها مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما " . هذا ما نقله الدكتور عبد العظيم المطعني في كتابه (البديع من المعاني والألفاظ) ص ٢٨ ، غير أنني لم أجده مذكوراً في المشكلة عند السبكي في (عروس الأفراح) .

(٦) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٢٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، بتصرف يسير ، وانظر ما نقله صاحب (الصبح البديعي) في هذا الخصوص عن صاحب (فيض الفتاح) ص ٤٧٣ .

إلا أنّ ما جاء عند الرماني ولم يُلفت إليه في هذا الخصوص يُفهم منه الفصل في هذه المسألة ؛ إذ يقول مُعلّقاً على أحد شواهد المشاكلة ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اِغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ : " أي : جازوه بما يستحقّ عن طريق العدل ، إلا أنه استُعير للثاني لفظ الاعتداء ؛ لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ، فجاءَ على مزاجاة الكلام ؛ لحسن البيان " (١) .

ويظهر من تعليقه هذا ومن تعليقاته الأخرى أنّ المجاز لا بدّ من مصاحبته للمشاكلة أو المزاجاة كما سمّاها ؛ لأنّ كليهما يُسهم في حُسن البيان بأسلوبٍ جميل ، وبلاغة سامية ، بل ربّما كانت المشاكلة قالباً للمجاز يعكس روعته ، كما يُفهم من قوله : " فجاءَ على مزاجاة الكلام لحسن البيان " ، أو ربما كان المجاز هدفاً للمشاكلة لتتجاوز الحقيقة ، وينفث الروح في حليتها اللفظية ، إلا أنه كما قال استعير للثاني لفظ الأول لتأكيد الدلالة على المقصود .

وعليه فإنّه يمكن القول باطمئنان : إنّ المشاكلة ما هي إلا أسلوب من أساليب المجاز ، منها ما يندرج تحت المجاز المرسل ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٢) ، ومنها ما ينطوي تحت المجاز بالاستعارة (٣) ، كقول الشاعر :

قَالُوا : اقْرِحْ شَيْئاً نَجِدُ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ : اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً

" ولا بأس في أن يجتمع المجاز والمشاكلة ، فيكون المجاز في اللفظ المشاكل ، وتكون المشاكلة من اللفظين معاً " (٤) .

(١) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٩ .

(٢) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٣) الصبغ البديعي ، ص ٤٧٤ ، بتصرّف يسير ، بل إن ابن رشيق لما ذكر شواهد الرماني في المزاجاة ،

كقوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [سورة النساء : الآية (١٤٢)] ، وغيرها من الشواهد

المشابهة ، قال : " وكلّ هذه استعارات ومجاز ؛ لأنّ المراد المجازاة ، فزواج بين اللفظين " . انظر :

العمدة ، ج ١ ، ص ٥٦٢ .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٥ .

بل لا بأس في أن يتسع الشاهد الواحد لأوجه بلاغية متعددة ؛ لأنها ستسهم في كشف المعنى وإبرازه في أبهى صورة وأحسن معرض من اللفظ .

وروعة أيّ تعبير وجمال أيّ صورة ما هو إلا انعكاس لمعنى رائع !! . والإحساس بهذا التكامل بين التعبير والشعور وهذا الازدواج أو الانسجام بينهما لا يأتي موزعاً جزئياً ، بل يأتي مجموعاً كلياً بحيث تتداخل عناصر الجمال في النص ؛ لأنها متقاربة متآزرة متساندة ، فالجهاز أو أيّ لون بديعي داخل مع المشكلة يُجسّد المعنى ويصوره ويوضحه بطريقه المعهود ، ثم تأتي المشكلة لتحث الإيناس والانسجام لوقوع اللفظ مع مشاكله^(١) .

إلا أن للمشكلة خصوصية ما تظل محتفظة باسمها لأسرار بلاغية ، هذه التسمية التي تتجاوز الشكلية اللفظية ، والتي لولاها لتاهت في الجواز المحض أو الخالص .

المزية البلاغية للمشكلة :

يؤدي مجاورة اللفظين المتشاكلين إلى فضل مؤانسة ، وربما هذا هو الذي حصره المتأخرون فيه^(٢) . إلا أن للمشكلة قيمة بلاغية تتجاوز هذه الوظيفة المحدودة أو هذا النظر القاصر إلى ظاهر اللفظ فقط ، إذ لو قلب التأمل بصره ودقق فكره وحققه في الشواهد القرآنية خاصة لهذا الفن ، لأدرك السرّ البلاغي الذي يستتر خلف هذه المشكلة اللفظية فضلاً عن مزية التجاوز عن اللفظ الحقيقي .

فعند النظر إلى هذه الشواهد القرآنية مثلاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(٤) ، وقوله سبحانه :

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، بتصرف .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، بتصرف .

(٣) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٤) سورة آل عمران : الآية (٥٤) .

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٢﴾ ، وقوله ﴿٣﴾ : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿٤﴾ ، وقوله عزّ من قائل : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ﴿٥﴾ ..

يجد الناظر بتدبر وتعمّق وتأنّ أنّ التجاوز في اللفظ المشاكل قد بلغ الغاية ومنتهى المبالغة في التحذير والوعيد والتنفير من ارتكاب السيئات والمكر والاستهزاء بالله سبحانه وتعالى والاعتداء على حُرّماته ، والمخادعة والمحيلة في ذلك ، إذ جزاء تلك الأفعال المشينة لن يكون مجرد جزاءٍ وعقاب ، بل (سيئة) و(مكر) و(استهزاء) و(اعتداء) و(خداع) ^(٤) ، وهذا زيادة في البيان والكشف ، ومبالغة في التعنيف والتنديد ، وجزاء في غاية الشدّة ، فضلاً عمّا تبعته خصوصية السياق لكلّ آية في النفس من إحياءات ودلالات تعكس إعجاز النظم القرآني وروعة بيانه ، ودقّة تصويره للجزاء والعقاب بما يتناسب مع المعتدين وجنس عملهم في غير ظلم أو تجاوز .

ومن أبلغ المشكلات في القرآن الكريم غير ما سبق ، وهو ما لم يُشر إليه كثير من البلاغيين - حسب علمي - ، هو قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ^{(٥)(٦)} .

(١) سورة البقرة : الآيتان (١٤-١٥) .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٣) سورة النساء : الآية (١٤٢) .

(٤) علم البديع دراسة تاريخية ، ص ١٩٥ ، بتصرّف .

(٥) سورة سبأ : الآية (١٦) .

(٦) (خَمْط) : أي : ثمر بشع ، فإن الخَمْط كلّ نبت أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله ، وقيل : هو الحامض والمرّ من كلّ شيء ، وقيل : هو الأراك أو كلّ شجر ذي شوك ، (الأثل) : هو الطرفاء ، وقيل : شجر يشبهه أعظم منه لا ثمر له . وذكر أبو السعود في السّدر أنّ الصحيح أنه صنفان : صنف يؤكل من ثمره ويُنتفع بورقه لغسل اليد ، وصنف له ثمرة عَفْصَة لا تؤكل أصلاً ولا ينتفع بورقه ، وهو الضّال ، والمراد هنا هو الثاني حتماً . انظر : تفسير أبي السعود ، ج ٥ ، ص ٤٤٤-٤٤٥ .

" قال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيّره الله تعالى من شرّ الشجر بأعمالهم ، وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكّم " (١) .

وقال الزمخشري : " وتسمية البدل جنتين لأجل المشاكلة ، وفيه ضرب من التهكّم . وعن الحسن - رحمه الله - : قلّل السّدر لأنّه أكرم ما بدلوا " (٢) .

فتأمل الغاية التي وصلت إليها المشاكلة في الفائدة ، وكيف أثّرت وأضافت في قدرة بيانية معجزة لا تصل إليها أو حتى تُدانيها أيّ قدرة أخرى أو بلاغة مهما ارتقت وتفوّقت .

والناظر قد يتوهّم أنّ المعنى الثاني - وهو لفظ المشاكلة - هو عين الأول ، فإذا ما استشعر خصوصية اللفظ المُشاكِل وأدام التفكير فيه علِم أنه معنى آخر مصوّراً خير تصوير ، ومُستوعباً المعنى الأول وزيادة تبعث في النفس إيجاءات عدّة تكون سبباً لاستقراره في الذهن ورسوخه في الفهم ، واطمئنان النفس إليه ، فإذا هو أدعى للثبوت وعدم التفلّت (٣) .

وهذه المزية تُفتقد ويذهب حُسْنُها ، وينقشع بهاؤها ، بل وتنضب شيئاً فشيئاً إن لم تكن بالكلية لو عبّر عن المعنى المقصود بلفظ الحقيقة والواقع .

والمُتأمل للشواهد الشعرية في هذا السياق كقول ابن جابر الأندلسي مثلاً :

قَالُوا اتَّخِذْ دُهْنًا لِقَلْبِكَ يَشْفِهِ قُلْتُ ادْهِنُوهُ بِخَدِّهَا الْمُتَوَرِّدِ (٤)

يجد أنّ هناك باعثاً ودافعاً نفسياً يختبئ وراء هذه المشاكلة ، فالشاعر التقط الدّهن وعبّر به ، فوضع (ادهنوه) مكان (متّعوه) أو (طبّبوه) ؛ لمشاكلة (دُهْنًا) السابق ، إلا أنّ المشاكلة ليست قصداً لذاتها ، إنّما جاءت لتحقيق في نفس الشاعر رغبة خاصة تعتمل وتعتلج ، متجاوزة بذلك المعنى حقيقة ، فتلبّست هذه المشاكلة بمعناه النفسي وخاطره الذهني ، فجاء البيت عفواً منسجماً طيّعاً صادقاً مع هذه المشاكلة المُعبّرة عن المعنى خير تعبير بكلّ سهولة وسلاسة .

(١) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٤٥ .

(٢) الكشف ، ص ٨٧٢ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٧٨ ، بتصرّف .

(٤) معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

المشاكلة بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني :

يقول ابن أبي الإصبع في مقدّمة كتابه (بديع القرآن) : " ولما فُتِح عليّ بعمل الكتاب الذي وسمته ببيان البرهان في إعجاز القرآن ، وعلمت أنّه لا بدّ له من تتمة تتضمّن ما في الكتاب العزيز من أبواب البديع ، فأفردتُ ما يختصُّ بالقرآن ، فكان ذلك مائة باب وثمانية أبواب " (١) .

فقوله : أفردتُ ما يختصُّ بالقرآن يُعلّلُ عدم ذكره لباب (المشاكلة) في (بديع القرآن) ، بينما هي مذكورة في كتابه (تحرير التحبير) .

قال الدكتور حفي شرف : " لأنّه لم يجد لها أمثلة في القرآن الكريم ، وإن وُجد بعض المؤلفين لبعضها فيما بعد " (٢) .

وليست المسألة في كونه لم يجد لها أمثلة ، بل لأنّ مفهومه للمشاكلة مختلفٌ تمام الاختلاف عما هو مُتعاهدٌ عليه عند جمهور البلاغيين ، مُخالفاً بذلك ما ذهب إليه السكاكي والخطيب ومَن تبعه . فبعد أن ذكر معنى كلام التبريزي (٣) ، وهو : " أن يأتي المتكلّم في كلامه أو الشاعر في شعره باسم من الأسماء المشتركة في موضعين فصاعداً من البيت الواحد ، وكذلك الاسم في كلّ موضع من الموضعين مسمّى غير الأول ، تدلّ صيغته عليه بتشاكل إحدى اللفظتين الأخرى في الخط واللفظ ، ومفهومهما مختلف " (٤) .

(١) مقدمة بديع القرآن ، ص ١٥ .

(٢) مقدّمة تحقيق بديع القرآن ، ص ٩٣ ، ومن أبرز هؤلاء المؤلفين : السيوطي ، فانظر : الإتقان ، ص ٦٦٧ .

(٣) قلت : (معنى) كلام التبريزي وليس كلامه (نفسه) ؛ لأنّ الصياغة كما يظهر لي هي صياغة ابن أبي الإصبع العدواني .

والتبريزي هو : إمام اللغة ، أبو زكريا ، يحيى بن علي بن محمد بن حسن بن بسطام الشيباني ، الخطيب التبريزي ، أحد الأعلام ، ارتحل وأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره ، أقام بدمشق مدّة ، ثمّ بغداد ، وكثرت تلامذته ، وأقرأ علم اللسان . كان ثقةً ، صنّف شرحاً للحماسة ، ولديوان المتنبي ، ولسقط الزند ، وأشياء .. وله شعر رائع . توفّي في جمادى الآخرة سنة (٥٠٢هـ) ، وله (٨١) سنة .

انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٢٦٩ .

(٤) تحرير التحبير ، ص ٣٩٣ .

ثم ذكر بعض إنشادات التبريزي ، وهو قول الشماخ :

كَادَتْ تُسَاقِطُنِي وَالرَّحْلَ أَنْ نَطَقْتُ وَرَقَاءَ حِينَ دَعَتْ سَاقًا عَلَى سَاقٍ^(١)

ونقل قوله بأنّ (ساقاً) الأولى هي ذكر الحمام ، والثانية هي ساق الشجرة ، وبينهما مشكلة في الخطّ واللفظ^(٢).

ثم انتقد هذا المفهوم عند التبريزي وغيره تماماً ؛ إذ قال : " وعندي أنّ ما أنشده التبريزي في هذا الباب داخل في أحد قسمي التجنيس المماثل ، والذي ينبغي أن تُفسّر به المشكلة قولنا : إن الشاعر يأتي بمعنى مشاكل لمعنى في شعر غير ذلك الشعر ، أو في شعر غيره بحيث يكون كلّ واحد منهما وصفاً أو نسباً أو غير ذلك من الفنون ، غير أنّ كلّ صورة أبرز المعنى فيها غير الصورة الأخرى ، فالمشكلة بينهما من جهة الغرض الجامع لهما ، والتفرقة بينهما من جهة صورتيهما اللفظية " ^(٣).

قال ابن حجة : " قول الشيخ زكي الدين ظاهر ليس في صحته سقم ، وهذا البيت الذي أنشده التبريزي من أحسن الشواهد على الجناس التام ، ولو اعتمد البديعيّون على المشكلة المعنوية لخلصوا من هذا الاعتراض ، وعلى كلّ تقدير فالمعارضة نفّذت حكم الالتزام في نظم هذا النوع ، أعني (المشكلة اللفظية) " ^(٤).

وابن أبي الإصبع بتغييره لمصطلح المشكلة يكون منفرداً بهذا اللون لهذا الباب ، وهو (المشكلة المعنوية) كما ذكر الدكتور حفني شرف^(٥).

(١) (الرَّحْل) : هو رحل البعير ، وقيل : هو ما يستصحبه الرَّحْل من الأثاث ، و(ورقاء) : اسمٌ يقال للحمامة ؛ لأنّ في لونها بياضاً إلى سواد .

(٢) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

(٤) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٥) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٩٣ (الهامش) ، غير أنّي وجدت في العمدة (لابن رشيق) قولاً له ، وهو : " وأما المشكلة في المعنى فنبتّه عليها في أماكنها إن شاء الله تعالى " . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، لكنّي بحثت عنها في كتابه فلم أجد له غير هذه الإشارة المبهمة .

وإذا كان الدافع إلى المشاكلة اللفظية هو مشاكلة معنوية ، أي أنّ المشاكلة في اللفظ تأتي تبعاً لإحساس الشاعر بالمشاكلة في المعنى^(١) ، فإنّ المشاكلة المعنوية عند ابن أبي الإصبع ليست هذه هي المقصودة التي تكمن وراء مشاكلة لفظية ؛ لأنه ليس هناك من مشاكلة لفظية أصلاً .

قال الدكتور أحمد موسى : " وما أخرى ما ذهب إليه ابن أبي الإصبع بأن يكون نوعاً من أنواع السرقات "^(٢) .

فقد يدخل هذا ضمن سرقة المعاني والأغراض التي ذكرها القاضي الجرجاني التي يفسرها بقوله : " وأدل ما يلزمك في هذا الباب ألا تقصر السرقة على ما ظهر ودعا إلى نفسه دون ما كُمن ، ونضح عن صاحبه ، وألا يكون همك في تتبع الآيات المتشابهة ، والمعاني المتناسخة طلب الألفاظ والظواهر دون الأغراض والمقاصد "^(٣) .

إذ استشهد ابن أبي الإصبع بقول جرير :

قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِ قَتْلَنَا	إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ
وَهُنَّ أضعُفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانًا ^(٤)	يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ لَه
وهو مُشاكِلٌ لقول عديّ بن الرّقاع :	

وَكَانَهَا بَيْنَ النِّسَاءِ أَعَارَهَا	عَيْنِيهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرِ جَاسِمٍ
---	---

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٤ ، بتصرف .

(٢) الصبغ البديعي ، ص ٢٨٦ .

(٣) الوساطة ، ص ٢٠١ .

(و) (نضح عن صاحبه) : دفع عنه .

(٤) (الحَوْر) : اسوداد المقلة كلها كعيون الأطباء على التشبيه ، ولا يُطلق إلا على النساء ، (أركاناً) : جهات وجوانب .

وَسَنَانُ أَقْصَدُهُ النَّعَاسَ فَرَنْقَتُ فِي عَيْنَيْهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمٍ^(١)

وقال : " فالمشكلة بين الرَّجلين من جهة أنَّ كلاً منهما وصف العيون بالمرض والفتور ، فأبرز معناه في صورة غير الصورة الأخرى بحسب قوة عارضته في السبك ، وحسن اختياره اللفظ ، وجودة ذهنه في الزيادة والنقص في التفضيل بين هذين الشَّعْرَيْنِ : شَعْر جَرِير ، وَعُديّ ، بحيث لا يسعه هذا المكان "^(٢) .

فسرقة الغرض مثلاً يمكن أن تتضح في وصف العيون بالحور والفتور كما ذكر ، بل وفي تردّد بعض الألفاظ عند الشاعرين ، لكنّ كلاً منهما ساقه بأسلوبه وبصورة غير صورة الآخر ، كلٌّ بحسب ما أوتي من قدرة على الإبانة ، وما وُهب من قوّة الطبع ، وذوقٍ في اختيار اللفظ يختلف عن الذّوق الآخر ، غير أنّها سرقة قد لا تُطلق هنا ؛ لأنّ المعنى عند جرير أجْدُّ وأَجْمَلُ وأُخْلَبُ .

وكان باستطاعة ابن أبي الإصبع أن يُبقي مصطلح المشكلة على ما هو عليه ، إلا أنه تنبّه إلى هذه المشكلة المعنوية التي يمكن أن تدخل تحت نوع من أنواع السَّرقات من وجهٍ بعيد ، لكنّها على كلّ حال وجهة نظر تعكس رغبته في " تغيير بعض التعريفات إذا وجدها غير منطبقة على النوع الذي يجري عليه اختياره "^(٣) ، إذ يقول في مقدّمة كتابه (تحرير التحبير) :

(١) (جاذر) : جمع جَوْذِر - بفتح الجيم وكسر الذال - : ولد البقرة الوحشية ، (جاسم) : حيّ قديم ، أو قرية بالشام تَحُلُّها تلك البقر .. (وسنان) : فاطر الطرف نَعَسَان ، (رَنْقَت) : خالطت ، (سِنَّة) : من الوسن ، وهو الغفلة والغفوة . وعُديّ بن الرقاع هذا أخذ منه أبو الطيب المتنبي قوله :
يتعاوران مِنَ الْغُبَارِ مُلَاءَةً هَدَبَاءُ سَابِغَةٌ هُمَا نَسْجَاهَا
وقال :

خافيات الألوان قد نسج النَّقْدُ عَ عليها براقعاً وجلالا

انظر : الوساطة ، ص ٣٦٣ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٣٩٥ .

(٣) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٣٠٢ .

"وربما أبقيت اسم الباب وغيّرت مسمّاه إذا رأيت اسمه لا يدلّ على معناه ..."^(١)، وذكر من ذلك المشاكلة ، وهو بذلك يخالف ما عليه جمهور البلاغيين ؛ بل إنّه ذكر أنّ هذه المشاكلة قد تكون مشاكلة من الشاعر لنفسه ، ومثّل عليه بقول امرئ القيس في صفة الفرس :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ^(٢)

وقوله في صفة الفرس أيضاً :

إِذَا مَا جَرَى شَوَاطِينِ وَابْتَلَّ عَطْفُهُ تَقُولُ هَزِيْزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثَابٍ^(٣)

ثم قال : " فكلّ معنى من هذين المعنيين مشاكلٌ لصاحبه ؛ إذ الجامع بينهما وصف الفرس بشدّة العدو ، غير أنّ قدرة الشاعر تلاعبت به ، فأبرزته في صور مختلفة ، فهذا ما شاكل الشاعر فيه نفسه "^(٤).

وهذا يؤكّد رغبته المُلحّة في تغيير المصطلح ، وربما هو دالٌّ على عمق فكره ، وسعة أفقه ؛ إذ يوسّع من مفهوم المشاكلة المعروف ، ثم يجعل من هذه المشاكلة المعنوية صورتين ؛ صورة بين الشاعر ونفسه ، وصورة بين الشاعر وغيره .

(١) مقدمة تحرير التحرير ، ص ٩٢ .

(٢) (وكناتها) : جمع وكن ، وهو مأواه في غير عش ، كما ذكر الأصمعي ، كأن يكون في رؤوس الجبال وغيرها ، (المنجرد) : الفرس القصير الشعر رقيقه ، وهو من صفات الخيل العتاق ، و(الأجرد) : السباق ، (الأوابد) : الوحوش ، مفردا : أبدة ، سُميت كذلك لأنّها لم تمت حتف أنفها ، وجعل الفرس قيداً لها لأنّه سبقها ، فكأنّه قيدها ، (هيكل) : فرس ضخّم طويل ، وهو على التشبيه ببيت النصارى الذي يقال له الهيكل .

(٣) وفي رواية أخرى للبيت : (جرى شأوين) ، و(الشأوان) : مثنى شأو ، وهو الطلق ، والشّوط ، (عطفه) : جانبه ، (ابتلّ) : أصابه البلل من العرق ، (هزيز الرياح) : خفقتها ، صفيها ، صوتها ، (أثاب) : شجر يشبه الأثل ، يشتدّ صوت الريح فيه إذا جرى هذا الفرس طلقين أو شواطين ، وابتلت جوانبه من العرق المتصبّب منه ؛ سمعت له خفقاً وصوتاً كخفق وصوت الريح إذا مرّت بشجر يشبه الأثل ، حيث يشتد صوتها فيه . انظر : شرح ديوانه ، ص ٩٣ .

(٤) تحرير التحرير ، ص ٣٩٥ .

وليت ابن أبي الإصبع وقف في هذا الباب عند هذا الحد ، إنما استطرد - والاستطرد
دارجٌ عنده في بعض أحيانه - ، وأخذ يناقش قضية الاعتراض على بعض الشعراء في أبياتهم ،
كامرئ القيس ، وأبي تمام .. وعدي بن الرقاع في بيته السابق الذي كان هو مدخله إلى
هذا الاستطرد والنقاش^(١) .

إلا أنّ خصوصية حصر الموازنة بين الخطيب القزويني وابن أبي الإصبع العدواني في
ألوان البديع المشتركة بينهما ، وما جاء منها في كتاب (بديع القرآن) خاصة لابن أبي
الإصبع تفرض عليّ أن أقف عند هذا الحد ولا أتجاوزه إلى عرض وتحليل القضية التي
ناقشها ابن أبي الإصبع في هذا الباب وفي كتابه (تحرير التحبير) ، إنما يكفي النظر إلى
هذه المخالفة في الرأي حول باب (المشكلة) بينه وبين الخطيب القزويني ومَن تبعه ،
وهي مخالفة ظاهرة جداً يتضح منها أنّ ابن أبي الإصبع كان منفرداً في هذا الباب .
ولم يظهر من سبقه في هذا الرأي المنفرد البين في المخالفة سوى عبارة ابن رشيق الغامضة
التي مرّت .

لكن العجيب أنني لم أقع على مصطلح المشكلة بمفهومها المعروف عند السكاكي
والخطيب ومَن تبعهما تحت أيّ مسمى عند ابن أبي الإصبع ، غير أنني وجدت شواهدا
تحت باب (المناقضة) في كتابه (بديع القرآن) ؛ إذ قال : " ومن هذا النوع (أي المناقضة)
قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اِغْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِغْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾^(٢) ، فشرط
سبحانه المثلية في المجازة أمراً بالعدل ، فناقض في ذلك الجاهلية فيما كانوا عليه من مدح
الظلم ، كقول عمرو بن كلثوم :

(١) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٩٦ ، وانتهى في هذا النقاش إلى الانتصار لبيت عدي بن الرقاع العامري
وأبي تمام ، واعتبار بيت امرئ القيس مُعيب ، مخالفاً بذلك رأي ابن سنان ! .
والبيت هو :

فصرنا إلى الحسنى ورقاً كلامنا ورضتُ فذلّتُ صعبة أيّ إذلال

(٢) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)

قال الرماني معلقاً على هذا البيت : " فهذا حسنٌ في البلاغة ، ولكنه دون بلاغة القرآن ؛ لأنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن الكريم ، وإنما فيه الإيذان برجع الوبال فقط "^(٢).

وذكر ابن أبي الإصبع في مقدمة كتابه (تحرير التحبير) أنَّ هذا اللون من مبتدعاته وضروبه التي استخرجها^(٣) ، غير أنَّ هذا الباب مسبوقة عند الكثير غيره كما تبين لي ، فهو عند قدامة بن جعفر^(٤) وابن سنان الخفاجي^(٥) وأسامة بن منقذ^(٦) ، ولم يستشهد أحدٌ منهم بمثل ما استشهد به ابن أبي الإصبع من شواهد تتوافق مع باب (المشاكلة) اللفظية المعروفة ، وهي وإن كانت تصحّ في مكانها حسب ما ذهب إليه من مفهومه للتناقض ، إلا أنَّ هذا الإطلاق لا يتناسب مع هذه الشواهد خاصة ، فهي أدخل في باب (المشاكلة) منها في باب (المنافضة) ، وظني على ما يبدو أنَّ هذا الباب بعيدٌ عن ألوان البديع أصلاً ؛ وإلا فإنه يمكن القول بصرف النظر عن نوع المناقضة التي أدرج فيها الشاهدين ، إن قوله تعالى مثلاً : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾^(٧)

(١) بديع القرآن ، ص ٣٢٦ ، والمنافضة كما عرّفها هي : " تعليق الشرط على نقيضين : ممكن ومستحيل ، ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن ليؤثر التعليق على عدم وقوع المشروط ، فكان المتكلم ناقض نفسه في الظاهر ، إذ شرط وقوع أمر بوقوع نقيضين " . انظر : بديع القرآن ، ص ٣٢٣ ، ولعلّ استشهاد ابن أبي الإصبع ببيت عمرو بن كلثوم في كتابه (بديع القرآن) يؤكّد قوله في مقدّمته : " وأمثلة جميع هذه الأبواب من الكتاب العزيز ، ولم أشرك معه غيره ، خلا موضوع نادر أذكر فيه البيت والبيتين " . انظر : مقدّمة بديع القرآن ، ص ١٥ ، هامش (٣) .

(٢) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر : مقدّمة تحرير التحبير ، ص ٩٤ .

(٤) بحّته قدامة بن جعفر تحت عنوان : (الاستحالة والتناقض) . انظر : نقد الشعر ، ص ٢٠٤ .

(٥) انظر : سرّ الفصاحة ، لابن سنان ، ص ٢٣٨ ، إذ قال : " ومن الصحة تجنب الاستحالة والتناقض ... " .

(٦) بحثه أسامة بن منقذ تحت باب : (المعارضة والمنافضة) ، ومرة أخرى تحت باب : (التناقض) . انظر :

البديع في نقد الشعر ، ص ١٥٢ ، ١٧٦ .

(٧) سورة البقرة : الآية (١٧٩) .

ناقض حكم الجاهلية في قولهم : " القتل أنفى للقتل " ؛ لأنّ الحكم في الآية حكم عادل وحقّ مطلوب ، وهو القصاص ، أما في المثل العربي فلا يفهم منه هذا ، بل قد يكون القتل ثأراً أو ظلماً .

ويبقى سؤالٌ ، وهو : هل من اللائق في حقّ الله سبحانه وتعالى أن يُقال أنّه ناقض ؟!

إلا أنّ هذه الشواهد تحت هذا الباب تؤكد أنّ ابن أبي الإصبع ربما يكون غير مُقرّ بمفهوم المشكلة عند جمهور البلاغيين ، كما يفهم من مقدّمة كتابه (تحرير التحبير) ، إذ يقول : " ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي ، غير أنّي توخيتُ تحرير ما جمعتُه من هذه الكتب جهدي ، ودقّقتُ النظر حسب طاقتي ، فتحرّستُ من النوادر ، وتجنّبتُ التداخل ، ونقحتُ ما يجب تنقيحه ، وصحّحتُ ما قدرتُ على تصحيحه ، ووضعتُ كلّ شاهدٍ في موضعه ، وربما أبقيتُ اسم الباب وغيّرتُ مسمّاه إذا رأيتُ اسمه لا يدلّ على معناه ... " (١) .

وقد سبقت الإشارة إلى هذه المقدّمة في أوّل الحديث ، وأنّه قد ذكر المشكلة من ضمن الأبواب التي عدّها تحت هذا الكلام ، ولعلّها من الأبواب التي قام بتنقيحها خاصّةً وتصحيحها بعد تدقيق النظر تحرّساً من النوادر ، وتجنّباً للتداخل ، فأطلق اسمها على مسمى آخر اختاره هو ، واستشهد عليه بشواهد مختلفة تمام الاختلاف عنها ، وفي المقابل يُلاحظ عنده انتشار شواهد المشكلة المصطلح عليها تحت أبواب عدّة ، منها : الباب الذي مرّ بيانه ، وباب (المساواة) ؛ إذ استشهد فيه بقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٢) ، وعدّه في باب (المساواة) من الإيجاز الموصوف بالمساواة ، وقارنَ بينه وبين قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا ﴾ (٣) ، وقال : " وكلّ ما تقدّم من هذه الآيات جاء عن طريق الإيجاز والتوالي بعد المتقدّمات على طريق الإطناب ، وكلّها موصوفة بالمساواة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا ﴾ ،

(١) مقدّمة تحرير التحبير ، ص ٩١-٩٢ .

(٢) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٣) سورة الأنعام : الآية (١٦٠) .

والأول إيجاز ، والثاني إطناب ، وهذا الفصل الحاجة ماسة إلى ذكره وتحفظه ؛ لئلا يظنّ ظانّ أنّ الإطناب لا يوصف بالمساواة ^(١) .

أما الخطيب القزويني فقد اتفق مع ما جاء عند السكاكي ، وعرف المشاكلة بقوله : " هي ذكر الشيء بلفظ غيره ؛ لوقوعه في صحبته ، [وزاد على السكاكي بقوله] : تحقيقاً أو تقديرًا " ^(٢) .

فمثل على الأول - وهو التحقيق - بقول الشاعر السابق :

قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لي جبةً وقميصاً ^(٣)

ثم قال موضحاً : " كأنه قال : خيطوا لي " ^(٤) ، ولم يزد .

قال صاحب (معاهد التنصيص) : " والشاهد فيه : المشاكلة ... وهي هنا قوله : اطبخوا ، فإنه أراد : خيطوا ، فذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ ؛ لوقوعهما في صحبة طبخ الطعام " ^(٥) .

(١) بديع القرآن ، ص ٨٢ ، مع العلم أنّ هذه الشواهد الثلاث المذكورة في باب (الناقضة) وباب (المساواة) لم يستشهد بأيّ منها في هذه الأبواب نفسها في (تحرير التحرير) . انظر : باب (المساواة) ، ص ١٩٧ ، وباب (الناقضة) ، ص ٦٠٧ من كتابه (تحرير التحرير) .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٩ ، وانظر : مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ٤٢٤ .

(٣) جاء في معاهد التنصيص ما يروى عن الشاعر أبي الرقعمق أنه قال : " كان لي إخوان أربعة ، وكنت أنادهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدي ، فجاءني رسولهم في يوم بارد ، وليست لي كسوة تحصني من البرد ، فقال : إخوانك يقرؤون عليك السلام ويقولون لك : قد اصطبحنا اليوم ، وذبحنا شاةً سمينة ، فاشتد علينا ما نطبخ لك منها ، قال : فكتبت إليهم :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة فأتى رسولهم إليّ خصوصاً

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبةً وقميصاً

قال : فذهب الرسول بالرقعة ، فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع ، وأربع صرر ، في كلّ صرة عشرة دنائير ، فلبست إحدى الخلع ، وصرت إليهم " . انظر : معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٥) معاهد التنصيص ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

قال السبكي : " والذي يظهر في قول : (اطبخوا) أنه ليس من مجاز المقابلة ، بل من الاستعارة ؛ لمشابهة الطبخ للخياطة ، والإطعام للكسوة في النفع " ^(١).

فلما " قالوا : (نجد لك طبخه) ، علم أنهم رغبوا في الطبخ له ، فرغّبهم في الخياطة بتصويره بصورة الطبخ " ^(٢).

قال عصام الدين بن عربشاه : " ومن هذا ظهر أيضاً تأثير المشاكلة في المعنى ، واضمحلّ ما يوسوس في صدور القاصرين أنه لا يتجاوز تحسين المشاكلة الألفاظ " ^(٣).

وهذه شهادة كبرى تؤكد مزية المشاكلة وخصوصيتها البلاغية وأثرها في المعنى عبر هذا الشاهد الذي استشهد به الخطيب القزويني دون بقية الشواهد .

وهذا شاهد مشهور من شواهد المشاكلة ، بيد أن بيت عمرو بن كلثوم هو أشهر منه ، وهو ما ذكره ابن أبي الإصبع في باب (المنافضة) ولم يذكره الخطيب ، لكن يظهر أنه فضل الاستشهاد ببيت أبي الرقعمق ؛ لأنه سبق أن استشهد ببيت عمرو بن كلثوم في باب (المجاز المرسل) لعلاقة السببية ، فذكر أن الجهل الأول حقيقة ، والثاني مجاز ، عبّر به عن مكافأة الجهل ^(٤).

والفرق بين الشاهدين : أن الأول من قبيل الاستعارة ، والثاني من قبيل المجاز المرسل ؛ لعلاقة السببية ، حيث تسهم المشاكلة مع المجاز المرسل أو الاستعارة في براعة الأسلوب وسمو بلاغته والارتقاء به ، والكشف عن المعنى بصورة جليّة ^(٥).

ومما استشهد به الخطيب أيضاً : قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ^(٦) ،

(١) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٠ .

(٢) الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٤) انظر : الإيضاح ، ج ٣ ، ص ٨٤ ، وقال الشيخ الصعيدي : " ومكافأة الجهل ليست جهلاً وإن كانت فوقه " . هامش (٢) .

(٥) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٩٥ ، بتصرف .

(٦) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

وهو الشاهد الذي التقى فيه مع ابن أبي الإصبع ، إلا أنه كان عند الأخير في باب (المساواة) .

وهو أيضاً شاهداً ذكره في باب (المجاز المرسل) بعلاقة السببية ، حيث ترك الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾^(١) ، الذي ذكره ابن أبي الإصبع في باب (المنافضة) ، وترك أيضاً الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكَرَ اللَّهِ ﴾^(٢) ، وهما من قبيل المشاكلة على سبيل المجاز المرسل ؛ لأنه سبق الاستشهاد بهما في باب (المجاز المرسل)^(٣) .

وعلى أي حال فإن الخطيب القزويني في معرض الاستشهاد على المشاكلة مرة على سبيل الاستعارة كما في البيت السابق ، ومرة على سبيل المجاز المرسل كما في الآية ، لم يتطرق إلى أي منهما بشيء من الإيضاح ، ولعلهما أوضح من أن توضّح في نظره .

ومن الشواهد المشكلة التي استشهد بها ، وكانت محلّ نظر عند الشراح ، قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾^{(٤)(٥)} ، على اعتبار أنه " ذكر (نفسك) ، والمراد (الذات) ، ولكنها ذكرت بلفظ النفس ؛ لتقدّم ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ " ^(٦) .

وقال السعد : " أطلق النفس على ذات الله تعالى " ^(٧) .

وقد فسّر الزمخشري هذه الآية بقوله : " (في نفسي) : في قلبي ، والمعنى : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من

(١) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٢) سورة آل عمران : الآية (٥٤) .

(٣) الإيضاح ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

(٤) سورة المائدة : الآية (١١٦) .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ولم يقل الخطيب أكثر من ذكره للشاهد فقط .

(٦) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٠ .

(٧) المطول ، ص ٦٤٨ .

فصيح الكلام ويبيّنه ، فقيل : (في نفسك) ؛ لقوله : (في نفسي) " (١) .

وقد اعترض بأنّ " ما في الآية ليس من المشاكلة ؛ لأنّ إطلاق النفس على ذات الله وردّ في قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٢) ، فيكون إطلاقه على معناه لا على معنى غيره " (٣) .

وقال السبكي : " واعترض بجواز أن يكون المراد بـ(نفسك) : (الذات) ، فتكون حقيقة من غير ملاحظة المشاكلة " (٤) ، لكن المشاكلة تُفهم من كلام الزمخشري وإن ذكر الجملة التي لأجلها عبر عن المعلوم بما في النفس ، ومن ثمّ فلا يكون إرادة الذات والحقيقة منافياً للمشاكلة " (٥) .

إنما يمكن أن يقال إنّ " النفس وإن أُطلقت على الذات في حقّ غير الله - تعالى - فلا تُطلق في حقّه ؛ لما فيه من إيهام معناها الذي لا يليق بغير المخلوق ، فلذلك احتيج إلى المشاكلة " (٦) .

قال عصام الدين بن عربشاه : " ولعلّ ذلك لكون إطلاق الألفاظ عليه تعالى توقيفياً . ولم يوجد إطلاق النفس في غير صورة المشاكلة " (٧) .

ولعلّ الخطيب القزويني هنا في عدّه هذه الآية من المشاكلة دون اعتراض متأثراً بدراسة الزمخشري لألوان البديع (٨) ، كما سيأتي في بقية الشواهد التي منها :

(١) تفسير الكشاف ، ص ٣١٦ .

(٢) سورة آل عمران : الآية (٢٨) ، (٣٠) .

(٣) انظر : تعليق الصعيدي على الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، هامش (١) .

(٤) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٠ ، بتصرّف .

(٦) المصدر السابق ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٠ .

(٧) الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٨) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٦٢١ ، بتصرّف .

١- قول أبي تمام :

مَنْ مُبْلِغُ أَفْنَاءٍ يَغْرُبُ كُلُّهَا أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ^(١)

٢- وما شاهده رجل عند شريح فقال : " إِنَّكَ لَسِبْتَ الشَّهَادَةَ ، فقال الرَّجُلُ : إنها لم تجعد عني " .

قال الخطيب القزويني موضحاً المشكلة في المثالين : " فالذي سوَّغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مُرَاعَاةُ المشكلة ، ولولا بناء الدَّار لم يصحَّ بناء الجار ، ولولا سبوطه الشهادة لامتنع تجعيدها "^(٢) .

فهذا الإيضاح والبيان يكاد يكون هو بلفظه الذي ذكره الزمخشري^(٣) في سياق تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾^(٤) .

لكن من الفائدة الجليلة والزيادة البليغة التي قصر عن نقلها الخطيب منه هي قوله : " والله درّ أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاجه وأسدّ مدارجه "^(٥) .

وكان أخرى وأجدر بابن أبي الإصبع المصري لو أنه سلك مسلك الخطيب القزويني في المشكلة أن يلتقط هذه الدرة النفيسة من درر الزمخشري ، فهي به أليق ، وهو بها آنق ؛ لكن بُعدت الشُّقَّةُ بينه وبين الخطيب القزويني ، ففاته الالتقاء .

ومن الشواهد التي تُظهر وتكشف تأثر الخطيب بالزمخشري أيضاً ما استشهد به على المشكلة التقديرية التي تكون ألفاظ المشكلة فيها غير موجودة ، إنما تُفهم من السياق ، وهو

(١) (أفناء) : جمع (فنء) ، وهو الجماعة .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٧٨ ، بتصرف يسير ، وانظر : تفسير الكشاف ، ص ٦٥ .

(٤) سورة البقرة : الآية (٢٦) .

(٥) تفسير الكشاف ، ص ٦٥ .

قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾^(١).

فيُلاحظ على الخطيب القزويني أولاً : أنه بتر الشاهد واكتفى بذكر أول الآية فقط ، وهو في هذا البتر والاختصار الشديد في هذا الشاهد إلى درجة الإخلال ، على الضد من ابن أبي الإصبع إلا نادراً . ثانياً : حلل الشاهد وقال : " وهو مصدر مؤكّد منتصب عن قوله : (آمنا بالله) ، والمعنى : (تطهير الله) ؛ لأنّ الإيمان يُطهّر النفوس ، والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمّونه (المعمودية) ، ويقولون : هو تطهير لهم . فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا بالله ، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا . أو يقول المسلمون : صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم يصبغ صبغتهم . وجيء بلفظ الصبغة للمشاكلة وإن لم يكن قد تقدّم لفظ الصبغ ؛ لأنّ قرينة الحال التي هي سبب النزول من غمس النصارى أولادهم في الماء الأصفر دلّت على ذلك ؛ كما تقول لمن يغرس الأشجار : " اغرس كما يغرس فلان " ، تريد رجلاً يصطنع الكرام^(٢) .

فإنّ المتأمل لهذا النصّ التحليلي يجده هو .. هو الموجود عند الزمخشري في كشّافه باختلاف يسير ، كحذف واختصار واستبدال لبعض مفردات الزمخشري^(٣) .

قال السبكي : " وهذا الكلام كلّه من الكشاف "^(٤).

وما لم ينقله الخطيب عن الزمخشري هو قوله بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ : " يعني أنه يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهّهم به من أضرار الكفر ، فلا صبغة أحسن من صبغته "^(٥) ، وذلك لأنّ الخطيب القزويني كان قد اكتفى بذكر صدر الآية فقط ، ولم يذكر آخرها !!.

(١) سورة البقرة : الآية (١٣٨) .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢١ .

(٣) انظر : الكشاف ، ص ٩٩ .

(٤) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤١ .

(٥) الكشاف ، ص ١٠٠ .

المبحث الرابع : المبالغة :

" قيل للأصمعي : مَنْ أشعر الناس ؟. قال : مَنْ يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه حسناً ، ويأتي إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً ، وذلك عن طريق المبالغة والإفراط في الصفة " (١).

وعلى هذا فالمبالغة هي فنٌّ من الفنون وجذرٌ متأصل في البيان العربي يُثمر بحسن رسمه ووقعه ، ويرفع صاحبه بمقدار براعته وصنعه .

ولقد أطلق علماء البلاغة عليها تسميات متعدّدة ، منها : الغلوّ ، والإغراق ، والتبليغ ، والإفراط في الصفة ، والإيغال . كما أنّهم عدّوا المبالغة غرضاً لكثيرٍ من الفنون ، كالتشبيه والاستعارة والجاز المرسل والإيجاز والإطناب والقصر والكناية وغيرها ..

فهذه الألوان تفيد المبالغة وتتضمّنُها بصورة أو بأخرى ، إلّا أنّها تتفاوت في حظّها منها زيادةً ونقصاناً ، أو شدّةً وضعفاً (٢). لكن تظلّ للمبالغة أطرها المحدّدة ، وخصوصيتها المتفرّدة عند العلماء باعتبارها فناً مستقلاً له حدّه وأقسامه وشروطه .

فكيف نشأ هذا اللون حتى استوى واستقلّ كنوع منفرد من أنواع البديع ؟.

البداية عند ابن وهب (٣)، صاحب كتاب (البرهان في وجوه البيان) ، حيث يقول :
" وأما المبالغة فإنّ من شأن العرب أن تبالغ في الوصف والذمّ ، كما من شأنها أن تختصر وتوجّز ، وذلك لتوسّعها في الكلام واقتدارها عليه ، ولكلّ من ذلك موضع يُستعمل فيه " (٤).

فإذن كما سبقّت الإشارة ، كانت المبالغة طبيعة فطرية لدى العرب ، متأصلة عندهم ،

(١) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ١٥٦ ، (نقلاً عن حلية المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، العملة ، ج ٢ ، ص ٥٧) .

(٢) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٩٦ ، بتصرف يسير .

(٣) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصن الحارثي ، أبو علي ، كاتب ، من الشعراء ، كان معاصراً لأبي تمام ، وله معه أخبار ، توفي سنة (٢٥٠هـ) . انظر : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٥٨٣ ، (نقلاً عن (البرهان في وجوه البيان) ، ص ١٥٣) .

مطروقة في شعرهم ، دون معرفة منهم باصطلاحها ، فمن ذلك قول امرئ القيس :

أَنَا الشَّاعِرُ الْمُوهُوبُ حَوْلِي تَوَابِعِي مِنْ الْجِنَّ تَرَوِي مَا أَقُولُ وَتَعْرِفُ^(١)
إِذَا قُلْتُ أَيْبَاتًا جِيَادًا حَفِظْتُهَا وَذَلِكَ أَنِّي لِلْقَوَائِي مُثَقَّفُ^(٢)
إِذَا مَا اغْتَلَجْنَا خِلْتِ فِي الصَّدْرِ قَاصِفًا كَرَجَّةٍ رَعْدٍ صَادِقٍ حِينَ يَرْجُفُ^(٣)

وهذه الأبيات المتفرقة للنابعة :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ^(٤)
جَوَانِحُ ، قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَّقَى الْجُمُعَانِ أَوَّلَ غَالِبِ^(٥)

وقال :

بَلَعْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا^(٦)

حتى يروى أَنَّ النبي ﷺ لما أنشده النابغة هذا البيت قال له عليه الصلاة والسلام :

(١) ديوان امرئ القيس ، ص ٣٣٥ .

(تعريف) : من العزيف ، وهو صوت الجن .

(٢) (القوافي) : القصائد ، (مُثَقَّفٌ) : مُقَوِّمٌ ؛ مُهَذَّبٌ ؛ مجوّدٌ ، إذا كان فيها اعوجاج حتى تستقيم .

(٣) قوله : (اعتلجنا) : يريد نفسه وصاحبه ؛ وهو تابعه من الجنّ ، جماعة كانوا أو واحداً ، ومعنى (اعتلجنا) :

(افتعلنا) من المعالجة ، أي : اشتزكنا في معالجة نظم الشعر ، يريد : أَنَّ صاحبه يُلقِّنه الشَّعْرَ ، (القاصيف) :

الذي يكسر كلّ شيء ، من الرعد كان أو من الريح أو الصواعق ، (الصادق) : الصُّلْبُ من كلّ شيء .

وقوله : (حين يرجف) : يعني : حين يردد بقوة . انظر : شرح ديوانه ، ص ٣٣٥ .

(٤) الوساطة ، ص ٢٧٤ .

(عصائب) : جماعات . يمدح جيشاً أنّه موعود بالنصر ، لذا تنق الطير به ، فتتبعه عصائب تهتدي بأخرى

في كلّ مرة يخرج ؛ لأنها ستظفر بلحوم أعدائه غنيمة لها .

(٥) البديع في نقد الشعر ، ص ٢٢٤ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٢١ .

« أين المظهر يا أبا ليلى » ؟. فقال : الجنة يا رسول الله ، فقال : « أجل إن شاء الله ... » ^(١) .

لكنّها لم تكن في الشعر الجاهلي إلا مبالغات مقبولة تعكس بساطة البيئة البدوية وعفويتها ، وصفاءها من شوائب التعقيد والتكلف المفقوت ، هي صورٌ مشرقةٌ صادقة واضحة .
خذ مثلاً قول أبي الطمحان :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْجِرْعُ ثَاقِبُهُ ^(٢)

وقول الأعشى :

فَتَى لَوْ يُنَادِي الشَّمْسُ أَلْتِ قِنَاعَهَا أَوِ الْقَمَرِ السَّارِي لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا ^(٣)

أما التأمل لشواهد صور المبالغة بعد هؤلاء الفحول يجدها تتطوّر من عميق إلى أعمق ، وذلك باختلاف الزمان والمكان ^(٤) ، ثم تسلك مسلك المبالغات المفقوتة ، وتخوض مضمار التنافس ، خاصة لدى شعراء عصور الصنعة ، حتى تخرج إلى المحال ، وتسوء بسوء الاستعارة ، وقبيح العبارة ^(٥) .

كقول أبي نواس في الخمر :

تَوَهَّمْتُهَا فِي كَاسِهَا فَكَأَنَّهَا تَوَهَّمْتُ شَيْئاً لَيْسَ يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ

(١) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٢١ . لم أعر على نصّ هذا الحديث فيما توفّر لديّ من مصادر ، وقد سبق بيانها ..

(٢) الصناعتين ، ص ٣٧٢ .

(و) (الجزع) - بالفتح - : خرز فيه بياض وسواد ، الواحدة (جزعة) ، مثل : تمر وتمرّة .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٧٢ .

(و) (ألقي المقاليد) : أطاع وانقاد .

(٤) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ٦٨ ، بتصرّف .

(٥) الصناعتين ، ص ٣٧٦ ، بتصرّف .

وصَفَاءُ أَبْقَى الدَّهْرُ مَكُونُ رُوحِهَا وَقَدْ مَاتَ مِنْ مَخْبُورِهَا جَوْهَرُ الْكُلِّ^(١)
فَمَا يَرْتَقِي التَّكْيِيفُ مِنْهَا إِلَى مَدَى تَحْدُ بِهِ إِلَّا وَمَنْ قَبْلَهُ قَبْلُ^(٢)

وقول المتنبي :

فَتَى أَلْفُ جُزْءٍ رَأْيُهُ فِي زَمَانِهِ أَقَلُّ جُزْءٍ بَعْضُهُ الرَّأْيُ أَجْمَعُ

وهو من الغلوّ الغثّ ، كما ذكر أبو هلال العسكري ، وقال : " ومثل هذا من الكلام مردود ، لا يشغل بالاحتجاج له ، والتحسين لأمره ، وهو بترك التداول أولى ، إلا على وجه التعجب منه ومن قائله " ^(٣) .

ومثّل على هذا الإفراط القاضي الجرجاني بكثير من الأمثلة ، ثم قال : " وأمثال هذا مما لو قصدنا جمعه لم يعوز الاستكثار منه وجدّ مَنْ بعدهم سبيلاً مسلوکاً وطريقاً مُوطَّأً ، فقصدوا ، وجاروا ، واقتصدوا ، وأسرفوا ، وطلب المتأخر الزيادة ، واشتاق إلى الفضل فتجاوز غاية الأول ، ولم يقف عند حدّ المتقدّم ، فاجتذبه الإفراط إلى النقص ، وعدّل به الإسراف نحو الذمّ " ^(٤) .

وإذا انتقل الحديث من النشأة القولية للمبالغة إلى العرض التاريخي لها لمعرفة نشأتها العلمية ، فإنّ أول النصوص التي تحمل فكرة المبالغة في الفكر العربي وتسميتها صراحة ، فإنّك تجدها عند النحاة الأوائل ، وبالتحديد عند الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) عندما حدّد لتلميذه سيبويه الفرق بين (خشن واخشوشن) ، وقد حكى ذلك سيبويه ^(٥) بقوله :

(١) (مخبورها) : المخبور : ضدّ المنظر وضدّ المراءة .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٧٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٧٦ .

(٤) الوساطة ، ص ٤٢٣ .

(٥) هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، إمام البصريين سيبويه ، أبو بشر ، ويقال : أبو الحسن ، مولى بني الحارث ابن كعب ، ولقب سيبويه ، ومعناه رائحة التفاح ، قيل : كانت أمّه ترقصه بذلك في صغره ، وقيل غير

" قالوا : خشن ، وقالوا : اخشوشن ، وسألتُ الخليل فقال : كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد ، كما أنه إذا قال : (اعشوشبت الأرض) فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيراً عاماً قد بالغ " ^(١).

إلا أنّ فكرة المبالغة هذه لا تتعدّى اللفظة المفردة كما هي أيضاً عند ابن جني (ت ٣٩٢هـ) ^(٢)،
والثعالبي ^(٣) (ت ٤٢٠هـ) ^(٤)، وهي مع ذلك " لا تعني في اللغة إلا بلوغ الغاية والنهاية ، ولا تتجاوز ذلك إلى ما اقتزن بها عند النقاد والبلاغيين من الإسراف والإفراط والكذب والادّعاء " ^(٥).

ولمحاولة تتبّع ما وصلت إليه عند الدارسين يجد الباحث أنّ المبالغة حقيقة قد مرّت بمراحل قبل استقرارها ، إذ تمثّلت بدايةً في تسجيل شواهدا من الشعر كما هو في (قواعد الشعر) لأبي العباس ثعلب ، وفي (البديع) لعبد الله بن المعتز ^(٦)، والملاحظ على (قواعد الشعر) أنّه جمع أكثر ما عرف من الألوان البديعية ، وتكلّم عن الإفراط في الصفة تحت اسم الإفراط في الإغراق ^(٧).

ذلك ، أصله من أرض فارس ، ونشأ بالبصرة ، كان علامة ، حسن التصنيف ، جالس الخليل وأخذ عنه وعن غيره . قيل : مات بشيراز سنة (١٨٠هـ) ، وقيل : مات بالبصرة سنة (١٦١هـ) أو (١٨٨هـ) ، وقيل : مات بساوه سنة (١٩٤هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١) المبالغة في البلاغة العربية تاريخها وصورها ، تأليف : عالي سرحان القرشي ، مطبوعات نادي الطوائف الأدبي ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م ، ص ١٧ ، بتصرّف يسير .

(٢) أشار إليها ابن جني تحت باب (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) ، انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٣) هو أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ، والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها ، قيل ذلك لأنّه كان فراء . رأس المؤلفين في زمانه ، له تأليف كثيرة ، منها : فقه اللغة ، وسحر البلاغة وسرّ البراعة ، وبيتمة الدهر في محاسن أهل العصر ، وشعره مدوّن ، كانت ولادته سنة (٣٥٠هـ) ، ووفاته (٤٢٠هـ) . انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٤) انظر : فقه اللغة ، للثعالبي ، ص ٣٥٧ ، فصل (زيادة المعنى حسناً بزيادة لفظ) .

(٥) المبالغة في البلاغة العربية ، ص ٣٥٣ .

(٦) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٧٦ ، بتصرّف يسير .

(٧) الصّور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ١٦٣ ، بتصرّف ، (نقلاً عن : قواعد الشعر ، ص ٧٥) .

وإذا كان قدامة بن جعفر هو أول من عرفها بقوله : " المبالغة هي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعرٍ لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في قصده " ^(١) . فإن الذين تحدثوا عنها قبله كثير ، كابن قتيبة ، والمبرد ، والجاحظ ^(٢) ، ثم أتى من بعد قدامة من سَمّاها التبليغ ، إلا أن الناس على تسمية قدامة كما ذكر ابن أبي الإصبع المصري ^(٣) .

وبصرف النظر عن التسمية فإنّ كلّ من جاء من بعد قد توسّع في شواهد المبالغة وتصنيفها ، وذكر آراء العلماء في قبول المبالغة أو ردّها ، كأبي هلال العسكري ، وابن رشيّق ، وابن سنان الخفاجي ، " ولقد غلب على منهج هؤلاء العلماء التوسّع في مفهوم المبالغة ؛ لأنهم يقصدون بها كلّ صورة أو أسلوب يؤدي إلى قوّة المعنى وزيادته عن المطلوب الذي يؤدي أصل المعنى " ^(٤) ، بل إنها استوعبت عند بعض النقاد معظم أساليب الأداء اللغوي في الصورة البلاغية أو في أساليب التقديم والتأخير ، والتنكير والتعريف ، وفي بعض أنواع البديع ^(٥) ، ثم تأخذ المبالغة سمة التحديد إلى حدّ ما عند عبد القاهر الجرجاني عند مظنة حديثه عن شيء من المبالغة في النوع الثاني من أنواع المعاني التخيلية ، وعند ابن الأثير لمّا قسّمها إلى ثلاثة أقسام : إفراط ، واقتصاد ، وتفريط ، فطرح عنها كلّ ما ليس منها .

حتى إذا جاء المتأخرون وهم بإزاء التقسيم والتحديد وتمييز الفنون البلاغية إلى : بيان

(١) نقد الشعر ، ص ١٤١ .

(٢) قال قتيبة : " وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفنّ وينسبها فيه إلى الإفراط ، وتجاوز المقدار ، وما أرى ذلك إلا جائزاً حسناً " .

وقال الجاحظ : " وإذا قد ذكرنا شيئاً من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف واقتصاد من اقتصد " . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، (نقلاً عن : الحيوان ، ج ٦ ، ص ٤١٨ ، وتأويل مشكل القرآن ، ص ١٣١) .

(٣) انظر : بديع القرآن ، ص ٥٤ .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٧٧ .

(٥) المبالغة في البلاغة العربية ، ص ٣٢٧ ، بتصرّف .

ومعانٍ وبديع ، حدّدوها وحصروها في ذلك اللون البديعي المعروف الخاصّ بها مُخلّصينها مما كان يُعدّ منها عند السابقين ، كالتميم ، والإيغال عند ابن رشيق ، والمدح بما يشبه الذمّ عند ابن سنان ، والمجاز العقلي عند ابن أبي الإصبع ، وأتخذ كلّ لون من تلك الألوان مكانه اللائق به من البيان أو المعاني^(١) .

وقُيِّدَت المبالغة بـ(المقبولة) إشارةً وردّاً بهذا القيد على مَنْ زعم أنّ المبالغة مردودة مطلقاً ، أو من زعم أنّها مقبولة مطلقاً^(٢) ، واستقرّ تعريفها عند الخطيب القزويني ومَنْ تبعه من المتأخرين على أنّها : " أن يدعى لوصف بلوغه في الشدّة أو الضعف حدّاً مستحيلاً أو مستبعداً ، لئن يظنّ أنّه غير متناهٍ في الشدّة أو الضعف "^(٣) .

وحصروها في ثلاثة أقسام : التبليغ ، والإغراق ، والغلو .

فالأوّل : أن تكون الصفة التي بولغ فيها ممكنة عقلاً وعادةً ، كقول ابن الرومي يهجو بخيلاً :

لَوْ أَنَّ قَصْرَكَ يَا ابْنَ يَوْسُفَ مُمْتَلٍ إِبْرًا يَضِيقُ بِهَا فَنَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يَوْسُفُ يُسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً لِيَخِيطَ بِهَا قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلْ^(٤)

فهذا تصويرٌ مبالغٌ فيه لغرض الهجاء المقذع ، وهي صورة ليست ممتنعة عقلاً ولا عادة .

والثاني : وهو الإغراق : أن يكون الوصف البالغ فيه ممكناً عقلاً ، ممتنعاً عادةً ، كقول ابن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبِي دُمْعِي تَحَدَّرَ ، إِنَّمَا رُوحِي جَرَتْ فِي دُمْعِي الْمُتَحَدَّرِ^(٥)

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٧٨ ، بتصرّف .

(٢) علم البديع ، ص ٩٥ ، بتصرّف .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤١ . ولم يتعرّض السكاكي للمبالغة أبداً في كتابه (مفتاح العلوم) ، كما يظنّ كثير من الدارسين ،

كعبد العزيز عتيق مثلاً . انظر : علم البديع ، ص ٩٥ ، وراجع القسم الثالث من مفتاح العلوم ، ص ٤٢٣ .

(٤) معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٥) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

فصورة تحدر الروح مع البكاء ممكنة عقلاً ؛ لشدة الموقف ، وإن كانت ممتنعة عادة .

والثالث : وهو الغلوّ : أن يكون الوصف المبالغ فيه غير ممكن لا عقلاً ولا عادةً .

كقول ابن هانئ في المعزّ لدين الله :

أَتَبَعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَضْعِيدٍ^(١)

رَأَيْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ بَيْنَ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدٍ^(٢)

وهذا مدحٌ يليق بالخالق سبحانه لا بالمخلوق ، وهو في شعره كثير جداً ، كما قال ابن معصوم ، وذكر أن القاضي ابن خلكان قال في ترجمته : ولولا ما في ديوانه من الغلوّ في المدح والإفراط المؤدي إلى الكفر ، لكان من أحسن الدواوين .

وكقول بعضهم :

وَلَوْ شِئْتُ فِي طَيِّ الْكِتَابِ لَزُرْتُكُمْ وَلَمْ تَدْرِ عَنِّي أَحْرَفٌ وَسُطُورٌ^(٣)

وأزيد منه في الغلوّ قول أبي عثمان الخالدي :

بِنَفْسِي حَبِيبٌ بَانَ صَبْرِي بَيْنِهِ وَأُودَعَنِي الْأَحْزَانُ سَاعَةً وَدَّعَا

وَأُثْلَلْنِي بِالْهَجْرِ حَتَّى لَوْ أَتَيْتُ قَدْزَى بَيْنَ جَفْنِي أُرْمِدٍ مَا تَوَجَّعَا^(٤)

وهذه صورٌ ذهب بها الشاعران في الخيال مذهباً بعيداً إلى حدّ الاستحالة عقلاً وعادةً .

(١) (الإصابة) خلاف الإصعاد ، والإتيان بالصواب ، وإرادته ، والوجدان ، والاحتياج ، والتفجيع .

(٢) (التكْيِيف) : من الكيف : وهو القطع ، وكَيْفَهُ : قطعه ، وقول المتكلمين : كَيْفَتَهُ فَتَكْيِيفٌ : قياس لا

سماع فيه ، (التحديد) : تمييز الشيء عن الشيء .

(٣) معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(و) (القذى) : ما يسقط في العين والشراب ، (أرمد) : مصاب بداء الرمد ، وهو تعب العين وهيجانها .

قال صاحب (معاهد التنصيص) : " والمتساهلون في هذا النوع كثيرون - كأبي نواس ، وابن هانئ الأندلسي ، والمتنبي ، وأبي العلاء المعري ، وغيرهم من المتأخرين - ، كابن النبية ، ومن جرى مجراه ، والإضراب عن ذكر ذلك أنسب ، والله أعلم " (١) .

والقسمان الأولان وهما : (التبليغ والإغراق) مقبولان عندهم ، وقسموا الغلو إلى ما هو مقبول ومردود كما سيأتي من بعد عند الخطيب القزويني .

" وفرّق ابن الأثير الحلبي بين الإغراق والغلو والمبالغة ، فقال : الإغراق والغلو والمبالغة هي ثلاث تسميات متقاربة وردت في باب واحد ؛ لقرب بعضها من بعض ، وسنذكر التمييز بين كلّ نوع منها . فأما الإغراق فهو الزيادة في المبالغة حتى يُخرجها عن حدّها ... وأما الغلو فهو الزيادة في الخروج عن الحدّ ... وأما المبالغة فهي مشتقة من (بلغ المنزل وادياً) : جاءه . وحدّها بلوغ القصد من غير تجاوز الحدّ " (٢) .

آراء النقاد حول المبالغة :

ربما كان تأرجح مدلول المبالغة بين ثلاث معانٍ - بين الدلالة على بلوغ الغاية في المعنى والنهاية فيه ، وبين الزيادة فيه بعد تمامه ، وبين الكذب ، وكثرة طرقها والتوسع فيها عند بعض النقاد - ، وربما هو الذي يفسّر الكثير من المواقف والآراء إزاء المبالغة حمداً وذكماً وتسويغاً (٣) .

وقد أشار إلى هذه المواقف أو المذاهب كثيرٌ من علماء البلاغة ، وأفصحوا فيها عن

(١) معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٣٤ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٥٤٠ (نقلًا عن جوهر الكنز ، ص ١٣٥) ، وجاء في اللغة : بالغت في كذا : بذلت الجهد في تتبعه . وبلغت المنزل : إذا وصلته . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ ، أي : إذا شارفن انقضاء العدة . وبالغ مبالغةً وبلاغاً : إذا اجتهد ولم يقصّر . انظر : المصباح المنير ، ص ٦١ ، والقاموس المحيط ، ص ١٠٠٧ ، باب (الغين) ، فصل (الباء) .

وقال العلوي : " المبالغة هي مصدر من قولك : بالغت في الشيء مبالغة : إذا بلغت أقصى الغرض منه " . انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

(٣) المبالغة في البلاغة العربية ، ص ٣٢٧ ، بتصرف .

رأيهم ، كالقاضي الجرجاني ، وعبد القاهر الجرجاني ، وابن رشيق ، وابن سنان الخفاجي ، وابن أبي الإصبع المصري ، وابن معصوم المدني ... وغيرهم ، وهي ثلاثة آراء :

الرأي الأول : يردُّها ويرفضها مطلقاً ، ويرى أنها من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج مخرج الصدق ، وجاء على منهج الحق^(١) ، وأنها " ربّما أحالت المعنى ، ولبّسته على السامع ، فليست لذلك من أحسن الكلام ، ولا أفخره "^(٢).

وقد استدّلوا في هذا الرأي بالحجج الآتية :

● قول حسان رضي الله عنه :

وَأِنَّمَا الشَّعْرُ لُبُّ الْمَرْءِ يَعْزُضُهُ عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمُقًا^(٣)
وَإِنْ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَتَتْ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ : صَدَقًا^(٤)

● قول الخُذّاق : " خير الكلام الحقائق ، فإن لم يكن ، فما قاربها وناسَبها "^(٥) .
والقول المشهور : " إنّ خير الشعر أصدقه " .

● ما روي عن ابن عباس قوله : " قال لي عمر - رضي الله عنه - : أنشدني لأشعر شعرائكم .

(١) تحرير التخبير ، ص ١٤٨ ، بتصرف يسير .

(٢) العمدة ، ج ٢ ، ص ٦٥٠ .

(٣) (الكيس) : خلاف الحمق ، وهو العقل ، وله عدّة معاني ، منها : الطب والجود .

(٤) تحرير التخبير ، ص ١٥٠ . قال عبد القاهر معلقاً على هذا القول : " فقد يجوز أن يُراد به أن خير الشعر

ما دلّ على حكمة يقبلها العقل ، وأدب يجب به الفضل ، وموعظة تروّض جهاح الهوى ، وتبعث على

التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال ، وتفصيل بين الحمود والمذموم من الخصال ... " .

انظر : أسرار البلاغة ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

(٥) العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦١ . وأنشد المبرّد قول الشاعر :

فلو أنّ ما أبقيت منّي مُعلّقٌ بِعُودٍ تُمامٍ ما تأوّد عُودُها

فقال : " هذا متجاوز ، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبّه ، وأحسن ما أصاب الحقيقة فيه " .

انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦٢ .

قلت : مَنْ هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قلت : وكان كذلك !. قال : كان لا يعاقل بين الكلام ، ولا يتبع وحشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " (١) .

● وقولهم : إنَّ من أهمِّ أغراض الشاعر والمتكلم : الإبانة والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ، والعرب إنما فضَّلت بالبيان والفصاحة ، وحَلا منطِقُها في الصدور ، وقيلته النفوس ؛ لأساليب حسنة ، وإشارات لطيفة ، تُكسيه بياناً ، وتصوِّره في القلوب تصويراً ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء " (٢) .

● " ويزعمون أن المبالغة من ضعف المتكلم وعجزه عن أن يخترع معنىً مبتكراً ، أو يفرِّع معنى من معنى ، أو يحلي كلامه بشيء من البديع ، أو ... ، فإذا عجز عن ذلك كلَّه أتى بالمبالغة لسدد خلله ، وتتميم نقصه ؛ لما فيها من التهويل على السامع " (٣) .

وقال الحموي : " وعند أهل هذا المذهب : إنَّ المبالغة لم تسفر عن غير التهويل على السامع ، ولم يفرِّ الناظم إلى التخميم عليها إلا لعجزه وقصر همته عن اختراع المعاني المبتكرة ؛ لأنَّها في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد المعاني الغريبة ، فيشغل الأسماع بما هو مُحال وتهويل " (٤) .

الرأي الثاني : يختارها ولا يتحرَّج منها ، بل هي " من أجلِّ المقاصد في الفصاحة ، وأعظمها في البراعة " (٥) .

(١) انظر : طبقات فحول الشعراء ، تأليف : محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، ج ١ ، ص ٦٣ ، ولذلك عابوا قول أبي نواس :

وَأَخَفَّتْ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ

كما ذكر ابن سنان . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٧١ .

(٢) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦٥٠ ، ناقلاً عن أحد النقاد .

(٣) تحرير التعبير ، ص ١٤٨ .

(٤) خزانة الأدب ، لابن حجة ، ج ٣ ، ص ١٣٤ . وأورد ابن رشيق كلاماً مثله عن أحد النقاد ، وكذلك

العلوي . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦٥١ ، والطراز ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٥) معجم المصطلحات ، ص ٥٨٤ .

قال الحاتمي^(١): " وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلو والإغراق ،
ويختلفون في استحسانها واستهجانها ... ويرى بعضهم أنها من إبداع الشاعر الذي يوجب
الفضيلة له "^(٢).

ويستندون في هذا الرأي إلى :

● " أن أجود الشعر أكذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه "^(٣).

● قول النابغة وقد سئل : مَنْ أشعر الناس ؟. فقال : مَنْ استجيد كذبه ، وأضحك
رديئه ، وهذا هو مذهب اليونانيين في شعرهم كما ذكر ابن سنان^(٤).

● ما جرى بين النابغة الذبياني وبين حسّان في استدراك النابغة عليه تلك المواضع في قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا^(٥)

فإن النابغة إنما عابَ على حسّان ترك المبالغة ، والقصة مشهورة كما ذكر ابن
أبي الإصبع^(٦).

(١) إمام اللغة والأدب ، أبو علي محمد بن الحسين بن المظفر البغدادي الكاتب . وله (الرسالة الحاتمية) ،
فيها ما جرى بينه وبين المتنبي من إظهار سرقاته وعيوب شعره وحمقه وتيممه . مات في ربيع الأول
سنة (٣٨٨هـ) . وحاتم بعضُ جدوده . انظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ج ١٦ ، ص ٤٩٩ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦٣ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١٤٨ ، وجاء في العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦٣ : " وقالوا : إذا أتى الشاعر من الغلو بما
يخرج عن الموجود ، ويدخل في باب المعلوم ، فإنما يريد به المثل ، وبلوغ الغاية في النعت " .

(٤) انظر : سرّ الفصاحة ، ص ٢٧١ .

(٥) (الجفّنات) : جمع جفنة ، وهي القصعة الكبيرة ، (الغرّ) : البيض من كثرة الشحم . والشاعر يصف قومه
بالندى وشدة البأس ، (النجدة) : الإعانة والشجاعة وسُرعة المبادرة إلى مَنْ استغاث بك .

(٦) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٤٨ . وجاء في أنوار الربيع : (إذ قال : الجفّنات ، والجفّنات ما دون العشر ،
ولو قال : الجفان لكان أكثر ، وقال : يلمعن في الضحى ، ولو قال : يشرقن بالدجى لكان أكثر ؛ لأنّ
الإشراق أدوم من اللمعان . وقال : يقطرن دما ، ولو قال : يسيلن لكان أكثر) . انظر : أنوار الربيع ،
ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

● قول الحاتمي : " وقد طعن قومٌ على هذا المذهب بمنافاته الحقيقة ، وأنه لا يصحّ عند التأمل والفكرة " ^(١) .

● ما ذهب إليه البحري في قوله :

كَلَفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ فِي الشَّعْرِ يَكْفِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ

" أراد : كلفتمونا أن نحري مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندّعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجئ إلى موجهه " ^(٢) .

فالشعر يقوم على التخيل والتصوير والإغراق في الوصف وسائر أغراض الكلام ، فهذا هو الإبداع في العمل الفني ، وهذه هي البراعة في الرسم بالكلمات .

ولا شكّ أن البحري إلى هذا النحو من الكذب قصد ، وإياه عمد ، إذ يبعد أن يريد بالكذب معناه ، كإعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصنعة حظاً من التعظيم ليس هو أهله ... ؛ لأنّ هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ، والقوانين العقلية ^(٣) .

ولعلّ مَنْ قال : خير الشعر أصدقه " كان تركّ الإغراق والمبالغة والتجوّز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماداً ما يجري من العقل على أصلٍ صحيح ، أحبّ إليه وآثر عنده ؛ إذ كان ثمره أحلى ، وآثره أبقي ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومَنْ قال : (أكذبُهُ) ، ذهب إلى أنّ الصنعة إنما تُمَدّ باعها ، وتنشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرّع أفنانها ، حيث يعتمد

(١) نقله محمد بن أيدير في مقدمة (الدر الفريد) ، ص ٤٤ ، وابن رشيق في العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦٣ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٢٧٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧١ ، بتصرّف يسير . وقال الزملكاني : " اعلم أنّ هذا الغرض [أي الإفراط والنزول في الصفة عنده] لا يوصف قاصده بالكذب إذا كان غرضه معلوماً وكان متجوّزاً في مقاله غير قاصد إلى البتّ به والقطع بمقتضاه كما لم يقضِ على مَنْ قال : (زيد أسد) بالكذب ، وأنه بحر متلاطم الأمواج " . انظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ٣١٠ .

الاتّساع والتخييل ، ويُدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ^(١).

الرأي الثالث : يتوسّط بين الرأيين السابقين فيقبل من المبالغة ما كان معتدلاً مقبولاً قريباً إلى الإمكان والصحة ، ولم يتجاوز حدود العرف والعادة .

وأكثر النقاد كما قال ابن أبي الإصبع وهو منهم " على أنّ خير الكلام ما كان متوسطاً بين الغلو والاقتصاد والسلامة والمتانة والغرابة والاستعمال والتصنع والاسترسال " ^(٢).

والمُتَّبِع لأكثر البلاغيين يجد أنّهم يتبنّون هذا الرأي في مؤلفاتهم ، كابن سنان ، إذ يقول :
" والذي أذهبُ إليه : المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو ؛ لأنّ الشعر مبني على الجواز والتسمح ، لكن أرى أن يُستعمل في ذلك - كاد - وما جرى في معناها ؛ ليكون الكلام أقرب إلى حيز الصحة ، كما قال أبو عبادة :

أَتَاكَ الرَّيْعُ الطَّلُوقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا مِنْ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ

وقال أبو الطيب :

يُطْمَعُ الطَّيْرُ فِيهِمْ طُولُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

فهذان البيتان قد تضمّنا غلوّاً ، لكن لما جاءت فيها - كاد - قرّبتُهما إلى الصحة ^(٣).

ويذهب ابن الأثير إلى مذهب الوسط في قبول المبالغة ؛ إذ جاء في (المثل السائر) قوله :
" وأما الإفراط فقد ذمّه قومٌ من أهل هذه الصناعة ، وحمّده آخرون ، والمذهب عندي استعماله ، فإن أحسن الشعر أكذبه ، بل أصدقه أكذبه ، لكنه تتفاوت درجاته ، فمنه المستحسن الذي عليه مدار الاستعمال ... ومنه ما يُستهجن ، كقول النابغة الذبياني :

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٧٢ . وعبد القاهر هنا هو أفضل من شرح العبارتين عند أصحاب الرأيين السابقين

باختصارٍ وافٍ ووضوحٍ مُشرقٍ كالشمس ، وبكلامٍ يؤكل بالفؤاد ويُشرب .

(٢) تحرير التحبير ، ص ١٥٨ .

(٣) سرّ الفصاحة ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

إِذَا ارْتَعَشْتُ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا وَمَنْ يَتَعَلَّقُ حَيْثُ غُلِقَ يَفْرَقُ^(١)

وهذا يصف طول قامتها ، لكنه من الأوصاف المنكرة التي خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان^(٢) .

ورغم إعجاب ابن رشيقي بمن ذهب إلى استحسان المبالغة مطلقاً بوصفه لهم بالحدائق ، إلا أنه يميل إلى التوسط بقوله : " ومن الناس من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هي في معرفته بوجوه الإغراق والغلو . ولا أرى ذلك إلا مُحالاً ؛ لمخالفته الحقيقة وخروجه عن الواجب والمتعارف "^(٣) .

وكذا يذهب ابن أبي الإصبع إلى القول بالتوسط وتفضيله ؛ إذ يقول : " وعندي أنّ المذهبيين مردودان :

أما الأول : فلقول صاحبه : إنّ خير الكلام ما بُولغ فيه ، وهذا قول من لا نظر له ؛ لأننا نرى أنّ أكثر الكلام والأشعار جارية على الصدق ، خارجاً مخرج الحقّ ، وهو في غاية الجودة ونهاية الحسن ، وتمام القوة ، كيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن ، والمحاسن لا تنحصر ضروبها ، فكيف يُقال : إنّ هذا الضرب على انفراده يفضل سائر المحاسن على كثرتها ... "^(٤) .

وفضّل التوسط - أيضاً - العلوي وابن حجة^(٥) .

(١) (ارتعشت) : تَقَرَّطت ، يريد : لبست القُرط ، (رِعَاثَهَا) : جمع رُعْثَة ، ويُحرّك ، وهو القُرط ، (يَفْرَقُ) : يخاف ويفزع .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٣١٣-٣١٤ .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦١ ، وانظر : ص ٦٥٢ .

(٤) تحرير التعبير ، ص ١٤٨ ، وقد مثّل على شعر زهير وطرفة وحسان ، فعَلّق قائلاً : إنّ هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة ، وإن قلّت من المبالغة ، وإن هؤلاء الفحول وإن رجّحوا مذهب الصدق ، فإنّهم لا يكرهون ضده ، ولا يجحدون فضله . انظر : ص ١٤٩-١٥٠ .

(٥) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٦٥ ، وخزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

والحاصل : أنَّ المسألة في تعدّد الآراء ليست مسألة قبول على الإطلاق أو منع على الإطلاق ، إنما المسألة هي مسألة تفضيل ، فمن فضّل الحقيقة لا يمنع المبالغة المقبولة ، ومن فضّل المبالغة المقبولة لا يتنكّر للحقيقة ، وإذا وُجد من يُنكر المبالغة فإنما يقصد الغلوّ المردود منها لا المبالغة على الإطلاق ، وإلا فإنه ليس من أحدٍ مهما فسد ذوقه يستجيد قول أبي نواس^(١) :

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ^(٢)

وما كان مثله كقول ابن هانئ :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَإِنَّتِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
وَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ^(٣)

وقول أبي العلاء المعري :

وَقَدْ عَلِمْتُ هَذِي الْبَسِيطَةَ أَنَّهَا تَرَاثُكَ فَلْتَشْرَفْ بِذَاكَ وَتَزْدَدْ
وَإِنْ شِئْتَ فَارْغِمِ أَفْ مِنْ فَوْقَ ظَهْرِهَا عَيْدُكَ وَاسْتَشْهَدْ إِلَهَكَ يَشْهَدُ^(٤)

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٨٧ ، بتصرف يسير .

(٢) ومن ألطف ما يُحكى هنا أن العتابي الشاعر لقي أبا نواس فقال له : أما استحييت من الله بقولك :
* وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ ... البيت * ؟ .

فقال له أبو نواس : وأنت ما استحييت من الله بقولك :

مَا زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُنْطَرِحاً يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيلِي
فَلَمْ تَزَلْ دَائِماً تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي حَتَّى اخْتَلَسَتْ حَيَاتِي مِنْ يَدَيِ أَجْلِي

فقال له العتابي : قد علم الله وعلمت أنّ هذا ليس مثل ذاك ، ولكنك أعددت لكلّ ناصح جواباً .

انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

قال ابن معصوم : " نعوذ بالله من هذا الغلوّ القبيح ، فإن فوق الأرض من عباد الله الأخيار ، والصلحاء والأبرار ، والأقطاب ، والأبدال ، وما لا يعلمهم إلا الله تعالى ، فماله يقول هذا القول الشنيع الذي تصمّ منه الأسماع ، وتنفر عنه الطباع ؟ " (١) .

فالغلوّ إذن باتفاق الآراء وإجماع النقاد والعلماء إن أفضى إلى الكفر أو أقاربه كان مبالغة مردودة ، ويُقبل في غير ذلك في ثلاث حالات :

١- إذا اقترن بما يقربه إلى الإمكان والصحة ، كـ (قد) للاحتمال ، و (لولا) للامتناع ، و (كاد) للمقاربة .. وما أشبه ذلك من أنواع التقريب (٢) .

٢- إذا تضمّن نوعاً حسناً من التخيل ..

٣- إذا خرج مخرج الهزل والخلاعة (٣) .

٤- ورخصه البعض بانتظامه في سلك المدائح النبوية ، كابن حجة (٤) ، إلا أنّ النبي نفسه ﷺ نهى عن ذلك .

" عن ابن عباس رضي الله عنهما : سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر : سمعتُ النبي ﷺ يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم ، فإنما أنا عبده ، فقولوا : عبد الله ورسوله » " رواه البخاري (٥) .

وأختم القول في نهاية عرض هذه الآراء وترجيح الحقّ وفصل القول فيها بقول لأستاذي أجدني أتفق معه فيه ؛ إذ يقول : " وأكبر ظنّي أنّ هذه القضية - قضية قبول المبالغة أو ردّها - كانت منطلقاً لقضية نقدية كبرى شغلت النقاد كثيراً ، هي قضية الصدق والكذب " (٦) .

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

(٢) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٣) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٣ . وسيأتي تفصيل هذا فيما بعد .

(٤) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب (الأنبياء) ، ص ٦٢٧ ، حديث رقم (٣٤٤٥) . و (لا تطروني) : لا تمدحوني .

(٦) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٩٠ .

المبالغة في الشعر وقيمتها الفنية :

وردَ في أمالي المرتضى^(١) : " إنَّ الشاعر لا يحبُّ أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد ، فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعاً ، وكلام القوم مبنيٌّ على التجوُّز والتوسُّع والإشارات الخفية والإيماء على المعاني تارة من بُعد ، وأخرى من قُرب ؛ لأنَّهم لم يخاطبوا من يشعروهم (هكذا) الفلاسفة وأصحاب المنطق ، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم " ^(٢) .

فإذن المبالغة في الشعر داعيةٌ من دواعي الحسن فيه ، وسببٌ من أسباب تأثيره في النفوس وإقبالها عليه ، فيأخذ بمجامعها ويشاركها معه حية في صورته البهية التي تفتنت في إبداعها المبالغة فأخرجتها حية نابضة تفيض صفاءً ورونقاً وظلالاً مؤثرة تهتزُّ لها كلُّ نفسٍ ولو لم تملك أدنى ذوقٍ أو شعور .

و " ليس معنى ذلك أن اللغة الأدبية تقبل كلَّ قولٍ يُخلَق فيه صاحبه في أودية الوهم ، وينأى عن المعقول ، وإنما الذي يقبل من ذلك ما كان له في السياق وجود يُظهر أصالته ، ويتناسق به مع غيره في التركيب اللغوي للكلام " ^(٣) ، بل معنى قوي يعتمل في نفس صاحبه ويضجُّ بين جنبيه حرارةً وصدقاً وانفعالاً ، فتأتي المبالغة وتُسكَّتُ هذا الغليان بأروع صورة وأصدقها وأقربها إلى النفس .

(١) هو علي بن الحسين بن محمد بن محمد ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي عليه السلام ، الملقَّب بالمرتضى ، علم الهدى ، أخو الرضى . توخَّد في علوم كثيرة ، مثل : الكلام ، والفقه وأصوله ، والأدب وفنونه ، وُلِد سنة (٣٥٥هـ) ، وله تصانيف كثيرة ، منها : الغرر ، والذخيرة في الأصول .. وغيرها . وله ديوان شعر ، مات سنة (٤٣٦هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) المبالغة في البلاغة العربية ، ص ٣٣٥ (نقلاً عن أمالي المرتضى ١٩٥/٢) . والصحيح في العبارة : لم يخاطبوا بشعروهم .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥١ . يقول ابن أبي الإصبع : " ورُبَّ شعرٍ في غاية الجودة ونهاية القوة مع كونه قد بلغ فيه قائله إلى حدِّ الإغراق أو الغلو ، ورُبَّ شعرٍ في غاية الرِّداءة مع الخلو من هذين الضربين [ضرب ممكن غير مقترن ، ضرب غير ممكن إلا مقترناً] ، فإنَّ الكلام يكون جيداً بدون البديع ، ورديئاً مع وجوده ، فإنكار المبالغة في الكلام القوي الجيد ما لا سبيل إليه " . انظر : تحرير التحرير ، ص ١٥٧ .

والحقّ " أنّ المبالغة فضيلة عظيمة لا يمكن دفعها ، ولولا أنها في أعلى مراتب علم البيان لما جاء القرآن ملاحظاً لها في أكثر أحواله ، وجاءت فيه على وجوه مختلفة لا يمكن حصرها "(١).

وهي ليست صورة شكلية يُعدّد النقاد والبلاغيون مقدارها ومدى إمكانها بقدر ما هي قيمة شعورية وتعبيرية ، وهذا هو سرّ جمالها وانعكاسه على النصّ الأدبي .

هي مادّة وروح لا يقدر على صوغها وإحباكها إلا مبدعٌ صادقُ الشعور ، حادّ العاطفة ، فيّاض القريحة جيّدها ، وما رأيتُ أقرب وصفٍ لها على هذه الصورة كتعريف أبي هلال العسكري لها بعيداً عن تقسيمات المتأخرين .

تأمّله يقول : " والمبالغة أن تبلغ بالمعنى أقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازل وأقرب مراتبه "(٢)، حتى لكأنّك تشعر أنّ صورة المبالغة قد مسّت قلب المعنى والتبست به ، فخرج حيّاً في صورة أبهى وأشفى لكلّ نفسٍ مُعوّدة على التحليق خارج إطار الواقع المُملّ .

فإنّ كانت في مقام المدح كانت أبهى وأفخم ، وأهزّ للعطف ، وأسرع للإلف (٣)، كقول البحّري :

دَتَوْتُ فَقَبَّلْتُ النَّدَى فِي يَدِ امْرِئٍ جَمِيلٍ مُحَيَّاهُ ، سِبَاطٍ أَنَامِلُهُ
صَفْتُ مِثْلَمَا تَصْفُو الْمُدَامُ خِلَالُهُ وَرَقْتُ كَمَا رَقَّ النَّسِيمُ شَمَائِلُهُ (٤)

(١) الطراز ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٧٨ .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ١١٥ ، بتصرّف يسير . ومع أنّ حديث عبد القاهر كان عن التمثيل ، فإنّ كلامه يصلح للمبالغة التي هي في تلك الشواهد ثمرة من ثمرات التمثيل .

(٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحّري ، لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٥ ، د.ت ، ص ٣٧٠ .

(النّدَى) : السّخاء والعطاء ، ويدخل فيه المطر والبلل والكلأ ، وشيءٌ يُطَيّب به ، كالبخور ،

وإن كانت في الذمّ كان مسّها أوجع ، وميسمها ألدع ، ووقعها أشدّ ، وحدّها أحد^(١) ،
كقول الطرماح :

تَمِيمٌ بِطَرُقِ اللَّوْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتِ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتِ
وَلَوْ أَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ قَمَلَةٍ يَكُرُّ عَلَى صَفِيٍّ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ^(٢)

وإن كانت افتخاراً ، كان برهانها أنور ، وسلطانها أفهر ، وبيانها أبهر^(٣) . كقول
عمرو بن الأهمتم التغلبي :

وَنُكْرُمُ جَارَتَنَا مَا دَامَ فِينَا وَتُبْعُهُ الْكَرَامَةُ حَيْثُ مَا لَا^(٤)

وقول امرئ القيس :

نَحْنُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَنَا مُلْكٌ بِهِ عَاشَ هَذَا النَّاسُ أَحْقَابًا^(٥)

فالمعاني في هذه الشواهد بدون المبالغة كأنها معان معروفة وصور مشهورة ،
وهي " وإن كانت شريفة ، فإنها كالجواهر تُحَفِّظُ أَعْدَادَهَا ، ولا يُرْجَى
ازديادها ، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمي ولا تزيد ، ولا تربح ولا تُفِيدُ ،

(سباط أنامله) : سهلة ليّنة ، (المدام) : المطر الدائم ، والخمر ، وهي المقصودة ، (خلاله) : خِصَّالَه ،
(شمائله) : أخلاقه .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١٥ ، بتصرف يسير .

(و) ميسمها) : أثر كيّها .

(٢) الصناعتين ، ص ٣٧٣ .

(و) (القطا) : ضرب من الحمام ، الواحدة (قَطَاة) ، (يكرّ) : من كرّ الفارس (كرّاً) : إذا فرّ للجولان ثم
عاد للقتال ، والجواد يصلح (للكرّ والفرّ) ، والجواد هنا (قملة) ، والفارس (برغوث) .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ١١٥ ، بتصرف يسير .

(٤) معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

(٥) ديوان امرئ القيس ، ص ٢٩٠ .

و كالحسناء العقيم ، والشجرة الرائقة لا تُمتع بِحَيِّ كَرِيم^(١) .

فمعنى الفقد مثلاً يحسُّ به كلُّ امرئٍ شاعرٍ كان أم غير شاعر ، لكن حينما تنهياً له إحدى صور المبالغة تخرجه من معنى خفي يعتلج في النفس وتتأثر به إلى معنى جليّ تزداد به تأثراً ، فيكون له مذاق آخر ، وشأن مختلف .

فانظر إلى قول أبي تمام :

بَدَتْ لِلنَّوَى أَشْيَاءُ قَدْ خَلَتْ أَهْهَا	سَيَبْدُونِي رَيْبُ الزَّمَانِ إِذَا تَبَدَّو ^(٢)
وَقَالُوا أَسَىُّ عَنْهَا وَقَدْ خَصَمَ الْأَسَى	جَوَانِحُ مُشْتَاكِ إِذَا خَاصَمَتْ لُدَّ ^(٣)
وَعَيْنٌ إِذَا هَيَّجَتْهَا عَادَتِ الْكَرَى	وَدَمْعٌ إِذَا اسْتَجَدَّتْ أَسْرَابَهُ نَجَدُ ^(٤)
وَمَا خَلَفُ أَجْفَانِي شُؤُونٌ بِخَيْلَةٍ	وَلَا بَيْنَ أَضْلَاعِي لَهَا حَجَرٌ صَلَدُ ^(٥)
وَكَمْ تَحْتَ أَرْوَاقِ الصَّبَابَةِ مِنْ قَتَى	مِنْ الْقَوْمِ حُرٌّ دَمْعُهُ لِلْهَوَى عَبْدُ ^(٦) !

(١) أسرار البلاغة ، ص ٢٧٣ .

(٢) ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي ، ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(ربيب الزمان) : مصائبه .

(٣) (أُسَىُّ) : أي اصبر صبراً ، (الجوانح) : الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر ، (لُدَّ) : شديدة الخصومة .

(٤) (عادت) : من المعادة ، (نجد) : قوي يُجيب إذا استنجد ، وفي رواية : (إذا نههتها) .

(٥) (الشؤون) : مخارج الدموع ، (الصلد) : الصلب ، يقول : شؤوني ليست ببخيلة على عيني بالدمع ، ولا

بين أضلاعي حجر يصبر ، إنما هو قلب يألم ويجزع .

(٦) (عبد) : لأنه يتصرف في هواه ، (أرواق) : كأنه جمع (رواق) ، يعني ظلالها . هكذا في شرح الديوان ،

والصحيح أنه جمع (رَوَق) ، وهو من الليل طائفة ، ومن البيت رواقه ، أي : شقته التي دون الشقة العليا ،

وألقي عليك أرواقه ، وهو : أن يحبه شديداً . وألقت السحابة أرواقها : مطرها ووبلها . وأرواق الليل :

أثناء ظلمته ، أما رواق فجمعه : أروقة ورُوق - بالضم - . انظر : القاموس المحيط ، ص ١١٤٧ ،

باب (القاف) ، فصل (الراء) .

ولعل قوله : (خلف أرواق الصبابة) قد يعني به أيضاً آثارها .

وَمَا أَحَدٌ طَارَ الْفِرَاقَ بِقَلْبِهِ بِجَلْدٍ وَلَكِنَّ الْفِرَاقَ هُوَ الْجَلْدُ^(١)

فبراعة الشاعر هنا لم تكن في نقل إحساسه فقط ، إنما البراعة في أنه يثور الإحساس نفسه في كل جزء منه فينطق كلُّ حسٍّ ويُعبر كلُّ جزءٍ عن إحساسه الخاص .

فأنت ترى صوراً من المبالغة متتابعة تترى تُعينُ الشاعر على البوح بعفوية ؛ لأنها صورٌ نابعة عن قوّة إحساس بالمعنى تفوح رائحته بين أعطاف القصيدة ، فيأذن المَعُول في قبول المبالغة في الشعر هو مدى تليبيتها لحاجة المقام ومقصد الكلام ، ومقدار صدق الشاعر مع نفسه ، " فَإِنَّ النفوس المرفهة عندما تتلقى صورة ما لا تشغل نفسها بالبحث عن مقدار المبالغة وعن الإمكان أو عدمه ، ولكنها تجوس خلال نبرات الشاعر وأنفاسه وظلال معانيه وحرارة كلماته لترى مدى صدقه وقوّة إحساسه ، وكثير من الصياغات تقرر الآذان وقد تحمل أفكاراً وتوليد معاني ، ولكنها عاجزة عن أن تمسّ شغاف القلوب ، وغير قادرة على أن تضرب على أوتار النفوس " ^(٢).

المبالغة في القرآن الكريم :

" قال بعض المتأخرين : الحقّ أن فضل المبالغة لا يُنكر ؛ لوقوعها في القرآن الكريم ، ومنها جميع أبواب التشبيه والاستعارة والكناية " ^(٣).

وقال بدر الدين بن مالك : " لو كانت معيبة لَمَا أتت في القرآن الكريم على وجوه شتى " ^(٤).
لكن هل ما جاء في القرآن الكريم هو من المبالغة مع ما فيها من الغلو أو الإغراق أو الإفراط ؟.

وهل ما استشهد به العلماء من الآيات القرآنية في هذا الباب كان تجاوزاً منهم كما أشار بذلك أحد الدارسين ؟.

(١) الجلد : الشّدِيد القوي . والمعنى : أنّ من أشرف الفراق على قلبه ، وراعه ذكره ، وإن تجلّد وتصبّر ، ففي آخر الأمر يغلبه الفراق .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٩٣ .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢١٠ . وجاء فيه أنّ هذا هو القول الأعم والمذهب الأقوم .

(٤) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٨٤ ، (نقلاً من المصباح ، ص ١٠١) .

إن المتأمل لكل شواهد القرآن التي استشهد بها الدارسون للمبالغة هي من قبيل التصوير أو التمثيل أو المجاز العقلي أو الحذف^(١).

وهذه من طرق المبالغة التي أشار إليها بعض البلاغيين ، كالعلوي في كتابه (الطراز) ، وابن معصوم في كتابه (أنوار الريح) ، وهي تؤدي إليها ولا تقصدها بذاتها ؛ لأن الغرض من تلك الصور والأساليب تشخيص المعنى وتصويره وإبرازه ، لا تجاوز الحد فيه وإخراجه عن الأصل ، كما هو شأن المبالغة !!.

فما استشهد به الرماني كقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٢) . وذكر أنه من الضرب الثالث من المبالغة ، وهو : " إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة " ^(٣) . نقله ابن أبي الإصبع ، وأضاف أن الإخبار عنه مجاز^(٤) .

وهو كذلك ! إذ هو من المجاز العقلي الذي يُسند الفعل إلى غير ما هو له ، وهذا يؤدي إلى قوة الدلالة التي عدّها الرماني مبالغة ، إذ يقول مُعَقِّباً على الآية : جعل مجيء دلائل الآيات مجيئاً له - أي لله سبحانه - على المبالغة في الكلام^(٥) .

ومما جاء بطريق التشبيه ما استشهد به ابن أبي الإصبع ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾^(٦) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ^(٧) .

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٩٦ ، بتصرف يسير .

(٢) سورة الفجر : الآية (٢٢) .

(٣) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٥ .

(٤) بديع القرآن ، ص ٥٦ .

(٥) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٩٦ ، بتصرف . وانظر : النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٤-١٠٥ ، وعدّ منه قوله تعالى : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ [سورة النحل : الآية (٢٦)] ، وقال : " أي : أتاهاهم بعظيم بأسه ، فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة " .

(٦) سورة المرسلات : الآيتان (٣٢-٣٣) .

(٧) بديع القرآن ، ص ٥٧ .

وما استشهد به أبو هلال العسكري للمبالغة كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾^(٢).

فإنَّ المتأمل لقوله بعد الآية الأولى ، وهو : " وإنما حصَّ المرضعة للمبالغة ؛ لأنَّ المرضعة أشفق على ولدها ... " . وقوله بعد الآية الثانية : " ولو قال : يحسبه الرائي لكان جيد ، ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن "^(٣)، لوجد أنَّ أبا هلال العسكري يعدُّ إحياء اللفظ المفرد مبالغة للدلالة على شدة الدهول وشدة مقارنة السراب للحقيقة ، وهذا ما أشار إليه الباقلائي في إعجاز القرآن ، وهو قوله : " ومن ذلك - أي : من أضرب المبالغة - : أن يبالغ باللفظة التي هي صفة عامّة "^(٤)، مع أنَّ ما في الآيتين من تصوير وتمثيل يجعل تلك اللفظة التي ركّز عليها أبو هلال ذاتبة فيهما .

وإذا صحَّ الاستنكار والتعجب على أبي هلال في أنه عقد باباً خاصاً للغلوّ استشهد فيه بآيات من القرآن الكريم ، وعلى الخطيب القزويني فيما عدّه من الغلوّ المقبول في القرآن^(٥)، وعلى غيرهما من البلاغيين كالباقلائي^(٦)، والزملكاني^(٧)، والسيوطي^(٨)، أمثال قوله تعالى : ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(٩)، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(١٠)،

(١) سورة الحج : الآية (٢) .

(٢) سورة النور : الآية (٣٩) .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٧٨ .

(٤) إعجاز القرآن ، ص ٢٧٤ .

(٥) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

(٦) انظر : إعجاز القرآن ، ص ٧٨ ، إذ جاء فيه : " ومن البديع عندهم : الغلوّ والإفراط في الصفة ، ومن هذا

الجنس في القرآن : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [سورة ق : الآية (٣٠)] " ،

وغيرها من الشواهد .

(٧) انظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، إذ عقد باباً سمّاه : الإفراط والتزول في الصفة ، ص ٣١٠ .

(٨) انظر : الإتقان ، ص ٦٦٧ ، إذ ذكر أنَّ هذا من المبالغة بالوصف .

(٩) سورة الأحزاب : الآية (١٠) .

(١٠) سورة إبراهيم : الآية (٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾^(١) ، وقوله سبحانه : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾^(٢) .. وغيرها من الشواهد القرآنية ، فإنَّ ما جاء في تعريف أبي هلال للغلو ، وهو قوله : " والارتفاع فيه - أي المعنى - إلى غاية لا يكاد يبلغها "^(٣) ، وتسمية ابن طباطبا (ت ٣٢٢ هـ) له بالتشبيهات البعيدة^(٤) ، يخفف هذا الاستكار ؛ إذ إنَّ ما جاء في القرآن من صور التمثيل والتصوير كما هو واضح في الآيات السابقة تبلغ من سموِّ والارتفاع والبعد في أسلوبها وصياغتها للمعنى ، وكيفيَّتها التعبيرية له ما لا تبلغه صور التمثيل والتصوير في كلام البشر ، ولا ريب في ذلك ! فقد جمع القرآن في أسلوبه أرقى ما تحسُّ به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ، فهو مُتباين بنفسه ، منفرد عن كلِّ ما عُرف من أساليب العرب ؛ لأنَّه ليس وضعاً إنسانياً البتَّة ، ولو كان من وضع إنسانٍ لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليبهم ، أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد^(٥) ، لكن المشاحة هنا في المصطلح ، فهل يُتسامح في إطلاق الغلوِّ والإغراق على معاني القرآن كما قد يُتسامح في إطلاق المبالغة ؟ .

فالأوَّل إذن تنحية تلك المصطلحات عن معاني القرآن الكريم ؛ لأنَّها لا تليق أن تقترن بها ولا حتى بشيءٍ من صور صياغتها وتصويرها ؛ لما سبق تعليله ، " فليس في القرآن تعبير جامع يمكن أن يطلق عليه اسم (الغلو) إخضاعاً له للضوابط التي ابتدعها البديعون ، ولا يستطيع مُنصف أن يضع قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ بإزاء قول الشاعر :

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافَكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

(١) سورة الأعراف : الآية (٤٠) .

(٢) سورة النور : الآية (٣٥) .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٦٩ .

(٤) انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٥٣٩ ، (نقلاً عن عيار الشعر ، ص ٨٩) .

(٥) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ، ص ١٩١ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، بتصرّف .

في أن كلا منهما يدعى معنى محالاً في حكم العقل والعادة ، فشتان ما بين النصين ^(١) .

فلغة القرآن الكريم أفصح اللغات ، كما قال ابن رشيق ، وأنت تسمع قول الله تعالى : ﴿ يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا ﴾ ^(٣) ، وتضع بجوار هذا قول أبي صخر الهذلي :

تَكَادُ يَدِي تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسْتُهَا وَنَبْتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخَضِرُ ^(٤)

ويمكن الاستشهاد هنا بما قاله ابن رشيق أيضاً : " وأصح الكلام عندي ما قام عليه الدليل ، وثبت فيه الشاهد من كتاب الله تعالى ، ونحن نجد قد قرن الغلو فيه بالخروج عن الحق ، فقال جلّ من قائل : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ ^(٥) " ^(٦) .

فالقرآن " حقائق ثابتة ليس فيها ادّعاء أو مُزايدة فقط قد تثبت هذه الحقائق بطريق مؤكّد يُقنع ويؤثّر " ^(٧) .

وذكر ابن أبي الإصبع أن " من المبالغة ما جرى مجرى الحقيقة ، كأن يكون مجازاً ثم يصير بالقرينة حقيقة ، كقوله تعالى : ﴿ يَكَاذُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ ^(٨) ، فإن اقتران هذه الجملة بـ (يكاذ) يصرفها إلى الحقيقة " ^(٩) .

وهذا يؤكّد ما سبق الإشارة إليه من أن صور المبالغة في القرآن تتوزّع بين موضوعات

(١) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٦٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية (٢٠) .

(٣) سورة النور : الآية (٤٠) .

(٤) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦٨-٦٦٩ .

(٥) سورة المائدة : الآية (٧٧) .

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٦٢ .

(٧) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٩٥ .

(٨) سورة النور : الآية (٤٢) .

(٩) بديع القرآن ، ص ٥٦ .

بلاغية كثيرة ، فقد تجدد المبالغة في التشبيه^(١) ، وقد تجدها في الكناية ، والاستعارة ، والمجاز العقلي ، والمجاز المرسل ، وفي المجاز عموماً^(٢) ، كما تجدها بالحذف كما أشار إلى ذلك الرماني في (النكت) ، والباقلاني في (إعجاز القرآن) ، إذ " الحذف أبلغ من الذكر ؛ لأنّ الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم إلى كلّ وجه من وجوه التعظيم ؛ لما قد تضمنه من التفخيم "^(٣).

كما تجدد المبالغة " بتكرّر لفظٍ يتمُّ بتكرّره التهويل والتعظيم ، ويقوم مقام أوصاف ، كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾^(٤) "^(٥).

كما قد تجدها فيما يسمّى بالإيغال والتكميل والتميم ، كقوله تعالى :

(١) قال الدكتور عبد العزيز عتيق : " ومن مقاصد التشبيه إفادة المبالغة ، ولهذا قلّما خلا تشبيه مصيب عن هذا القصد " . انظر : علم البيان ، ص ١٢٤ .

(٢) من مقال نُشر بمجلة كلية الدعوة الإسلامية ، العدد (١١) ، الصادرة عن كلية الدعوة الإسلامية بالجامعة العربية الليبية ، طرابلس ، ص ٣٢٠ ، بقلم الأستاذ : شلتاغ عبود ، بعنوان : (مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية) .

(٣) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٥ . ولعلّ الرماني يقصد من أنّ الذكر يقتصر على وجه ، أي : وجه واحد . ومثل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ [سورة الأنعام : الآية (٢٧)] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ [سورة البقرة : الآية (١٦٥)] ، ثم قال : " كأنّه قيل : لجاء الحقّ أو لعظم الأمر ، أو لجاء بالصدق " . انظر : ص ١٠٦ . وراجع : إعجاز القرآن ، ص ٢٧٤ .

(٤) سورة الحاقة : الآيتان (١-٢) .

(٥) البرهان في علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٣ . وقد أشار العلوي من قبل إلى ترادف الصفات وتكرارها لإعظام حال الموصوف ورفع شأنه ، ومن أجل قصد التهويل في المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... ﴾ الآية من سورة النور : (٣٥) . انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٦٦ ، وهذا ذكره الزركشي أيضاً ، وقال : " أن يُشفع ما يُفهم المعنى بالمعنى على وجه يقتضي زيادة ؛ فتترادف الصفات بقصد التهويل ، كما في قوله تعالى : ﴿ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ [سورة النور : الآية (٤٠)] " . انظر : البرهان ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

﴿يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(١)، فقلوله : (على حُبِّه) تتميم للمبالغة التي تعجز عنها قدرة المخلوقين^(٢).

وكلّ هذا من طرق المبالغة في القرآن الكريم التي أشار إليها أصحاب المدرسة الأدبية ، كالعلوي ، والزرکشي ، وابن أبي الإصبع العدواني .. فهذا شأنهم في النظر إلى المبالغة ، أما أصحاب المدرسة العلمية فكانوا ينظرون فقط إلى مستوى المبالغة من حيث الزيادة والنقصان .

ثم إنّ المبالغة في القرآن الكريم يُلاحظ أنّها تأتي تبعاً لتلك الأساليب ، وهي ثانوية في الجاز أو التمثيل والتصوير ، بدليل استقرار شواهد المبالغة من القرآن ، التي أوردها الدارسون ، فليس هناك حقيقة قرآنية بُولغ فيها ، ولكن جاءت المبالغة من خلال التمثيل لمعنى يُراد تقريره من الأفهام^(٣)؛ بل إنّ الإعجاز القرآني لا يتعلّق بها وحدها دون التضمين ، والفواصل ، والتلاؤم ، والتصرّف في الاستعارة البديعية ، والإيجاز ، والبسط^(٤).

وليس المقياس في القرآن الكريم وجود (كاد) أو عدم وجودها ، بل بلوغ (المعنى أقصى غاية وأبعد نهاية) دونما إفراط أو إحالة أو خروج عن التعبير بدون طائل .

خذ - مثلاً - قوله تعالى : ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(٥)، فسواء قلتَ بتقدير (كاد) أو لم تقل ، فإنّ القلوب قد بلغت الحناجر ، ولكننا نفهم هذا البلوغ منهجاً نفسياً عن طريق الإيحاء الأدبي والتصوير البياني ، وليس عن طريق البلوغ الحقيقي^(٦)، إنما هو تعبير يقصد به ما وراء دلالة الظاهرية ، فتكون ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أنّها بلغت من

(١) سورة الإنسان : الآية (٨) .

(٢) انظر : علم البديع ، ص ١١٦ ، ١٢٠ .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٩٩ ، بتصرّف يسير .

(٤) انظر : إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية (١٠) .

(٦) جاء في البرهان للزرکشي : " وقيل هو حقيقة ، وإنّ الخوف والروع يوجب للخائف أن تنتفخ رثته ،

ولا يبعد أن ينهض بالقلب نحو الحنجرة . ذكره الفراء وغيره ... وردّ ابن الأنباري تقدير (كادت) ،

فإنّ (كاد) لا تضمّر " . انظر : البرهان ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

الرعب والخوف والهلع ما يكون بدرجة خروجها من نياطها وشرائينها وأعصابها إلى حيث أيّ منفذ^(١).

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾^(٢).

ففي الآية من الإيحاءات والدلالات الكثيرة التي تنتهي بك إلى التسليم بأنّ خسارة المشرك خسارة فادحة عظيمة ، وعاقبته مريعة مُفجعة أليمة ، فهي مبالغة تبلغ بالصورة ما تشمئزّ معها النفوس من الشرك ، وترتعب من مآله ، وتبتعد عن مقدّماته وصورة بعد أن اقترنت بصورة معاناة بالحسّ والوجدان^(٣).

وتأمّل ما جاء في تفسير الزمخشري لهذه الآية ؛ إذ يقول : " فكأنّه قال : مَنْ أشرك بالله فقد أهلك نفسه هلاكاً ليس بعده نهاية ، بأنّ صُور حاله بصورة حال مَنْ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ، فاختطفه الطّير فتفرّق مزعاً في حواصلها ، أو عصفت به الريح حتى هَوّت به في بعض المطاوح البعيدة "^(٤).

فهذه هي المبالغة القرآنية التي تأخذ بمجماع النفس وتحيط بأقطارها فتشدّها إلى المقصد والغاية ؛ والتي لا تقاس بالمقاييس ذاتها التي يقاس بها كلام البشر ، " فالبون شاسع ، والمصادر متباينة على الرغم من أنّ القرآن الكريم قد نزل بلغة البشر أنفسهم ، وبالأساليب التي درج عليها البيان العربي "^(٥)، إلا أنه كما وصفه ﷻ :

(١) مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية ، ص ٣١٨-٣١٩ ، بتصرّف . قال ابن قتيبة : " وقد يجوز أن يكون أراد : إنها ترجف من شدة الفزع ، وتحف ويتصل وجيفها بالخلق ، فكأنها بلغت الخلق بالوجيب ، وهم يصفون القلوب بالخفقان ، والنزوع عند المخافة والذعر " . انظر : المبالغة في البلاغة العربية ، ص ٣٢٦ (نقلاً عن (تأويل مشكل القرآن) ، ص ١٧٢) .

(٢) سورة الحج : الآية (٣١) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ، بتصرّف يسير .

(٤) تفسير الكشاف ، ص ٦٩٥ .

(٥) مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية ، ص ٣٠٩ .

﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١) ، وهو كتاب الله الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢) .

" أما المبالغة الواضحة في الدلالات الباشرة المقصودة لذاتها ، والتي قد تقترن بالادعاء والكذب ، فإنها لا توجد في القرآن الكريم ، باستثناء أسلوب الحوار ؛ لأنه وإن كان بأسلوب القرآن وصياغة ألفاظه ، فإنه حكاية كلام بشر تعرض أفكارهم ونفسياتهم وما جرى على ألسنتهم صدقاً أو كذباً وادعاءً "^(٣) .

وأكثر هذا ما جاء حكاية على السنة اليهود والنصارى من مثل قولهم كما جاء في القرآن الكريم :

• ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾^(٤) .

• ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ غُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾^(٥) .

• ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾^(٦) .

وقولهم فيما دار بينهم وبين المصلحين من المؤمنين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾^(٧) ، فإن حكاية قولهم هذا فيه مبالغة كذب وادعاء وزور وبهتان^(٨) .

(١) سورة الإسراء : الآية (٨٨) .

(٢) سورة فصلت : الآية (٤٢) .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٠ ، (نقلاً عن (الحوار في القرآن الكريم) ، ص ٨ ، ٨١) .

(٤) سورة المائدة : الآية (١٨) .

(٥) سورة التوبة : الآية (٣٠) .

(٦) سورة المائدة : الآية (٦٤) .

(٧) سورة البقرة : الآية (١١) .

(٨) المرجع السابق ، ص ١٠٠ ، بتصرف .

والمتَّبِع لأقوالهم في القرآن الكريم يجدها كثيرة ، وفي المقابل يجد التشنيع عليهم من الله سبحانه وتعالى ، ودحض افتراءاتهم البينة ، وكشف زيفهم ، وفضح ادّعاءاتهم الباطلة ، ففي قوله سبحانه وتعالى - مثلاً - : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ فيه قصد المبالغة في التشنيع كما ذكر الزركشي^(١).

أمّا عن صفات الله سبحانه التي على صيغ المبالغة ، فالنظر إليها يكون كما جاء في (الإتقان) من " أنّ كلّها مجاز ؛ لأنها موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها ؛ لأنّ المبالغة أن تثبت أكثر مما له ، وصفاته تعالى متناهية في الكمال لا يمكن المبالغة فيها . وأيضاً : فالمبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله منزّهة عن ذلك " ^(٢).

وأختم القول في المبالغة في القرآن الكريم بهذا المقال :

أنه قد يُساء الفهم عند تحليل بعض صور المبالغة في القرآن الكريم ، ويتبع الخطأ في الفهم خطأ آخر في التسمية^(٣) ، إلا أنه ينبغي حُسن الظنّ بالعلماء ، وعدم التسرّع في وصمهم بعدم التورّع في إطلاقهم على صور المبالغة في القرآن ما أطلقوه على غيره من أدب البشر ، أو وصم صنعهم هذا بأنه ما هو إلا مجازة لما استقرّ عندهم من قواعد اصطلاحوا عليها في شأن المبالغة ؛ بل ينبغي تفهّم وقفاتهم وإجلالها في فهم أسرار الأسلوب القرآني وتقدير ما بذلوه .

فلسنا نحن بأكثر تورّعاً منهم ، ولا أتقى الله ﷻ ، ولا أكثر منهم تأدّباً مع القرآن الكريم .

وينبغي كذلك توجيه آرائهم وجهة تليق بهم بعيداً عن الاتهام ، بل يمكن أن يقال فيهم ما قيل في حقّ ابن قتيبة من أنه " إنما كان محوطاً بعاملين كان لهما أبلغ الأثر في توجيه رأيه ، هما : بلاغة القرآن ذاتها ، وقد أخذ بها من غير شكّ ، ووجد فيها نماذج ظنّها من المبالغة

(١) انظر : البرهان ، ج ٢ ، ص ٤١٨ .

(٢) الإتقان ، ص ٦٦٨ .

(٣) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٦٣ ، بتصرّف .

الغالية ، ولم يستطع تبريرها على غير المبالغة ، والعامل الثاني : هو التأثير البالغ الذي مسّ نفسه وهيّجها بما وجه إلى القرآن من الطعن عليه ، والنيل من بلاغته ، فكان هذان العاملان معاً هما اللّذين دفعاه إلى تبرير المبالغة ، والبحث عن مخرج ينفي عنها الغلوّ والإغراق ، ويجعلها في شكل الممكن . ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم ، كانت المبالغة جائزة في لغة العرب وفي أساليبهم على التأويل الذي رآه " (١) .

وإذا كان بعض الدارسين تسرّع في وصم العلماء بما سبق بيانه ، فإن بعضهم ذكر أنّ الإغراق والغلوّ موجودان في القرآن الكريم ، ولكن بداليتين اثنتين ، أولهما : هو الفارق بين صدور الفعل من الإنسان ، وبين صدوره من الله ﷻ ، فمع الفعل البشري يكون الامتناع عقلاً أو عادةً ، ولكن مع الفعل الإلهي لا يكون امتناع في العادة أو العقل .

وثانيهما : أن الإغراق والغلوّ يرفقان بأدوات التقريب ، وهي الأدوات التي تجعل المبالغة مقبولة ومستحسنة ؛ لأنّها تكون من قبيل الفرض الذي يجعل المبالغة القرآنية في غاية الحُسن كما يعبر القدماء ، وهي التي تجعل السامع أو القارئ يتجاوب مع الدلالة دون شكّ في أنها حقيقة واقعية (٢) .

ويمكن القول هنا أنّ هذا ربما كان مستمدّاً من كلام ابن أبي الإصبع العدواني المصري في شأن الغلوّ والإغراق ؛ إذ يقول : " إن علم ذلك بالنسبة إلينا هو متعذّر علينا ، وسهلّ بالنسبة إلى علم الله سبحانه ، فالمبالغة فيها إذاً بالنسبة إلينا لا إلى الله ﷻ " (٣) .

(١) المبالغة في البلاغة العربية ، ص ٣٥٠ ، (نقلاً عن كتاب (نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي ، للدكتور : عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال) ، ص ٢٧٦-٢٧٧) .

(٢) مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية ، ص ٣١٣-٣١٤ ، بتصرّف يسير . وقد مثّل لذلك بعدة أمثلة ، منها : أنّ ما جاء في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [سورة الحج : الآية (٢)] ، هو مبالغة بالقياس إلى الأحداث المشهورة في حياتنا ، لكنها واقعية من حوادث يوم القيامة التي لا تشبه شيئاً مما نرى هنا على الأرض ونسمع . انظر : ص ٣١٠-٣١١ .

(٣) بديع القرآن ، ص ٥٧ .

المبالغة بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني :

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ ابن أبي الإصبع يذكر أنواعاً بديعية في كتاب (بديع القرآن) لا يذكرها في (تحرير التحبير) ، وكذلك العكس^(١) ، لخصوصية كتابه (بديع القرآن) ؛ إذ يقول - ولا بدّ من الإعادة - : " ولما فُتح عليّ بعمل الكتاب الذي وسمته ببيان البرهان في إعجاز القرآن ، وعلمت أنّه لا بدّ له من تتمّة تتضمّن ما في الكتاب العزيز من أبواب البديع ، فأفردتُ ما يختصُّ بالقرآن ، فكان ذلك مائة باب وثمانية أبواب " ^(٢) .

وترتب على هذا إذاً أن يخرج منه ما لا يختصّ بالقرآن الكريم في نظمه ، كالغلوّ والإغراق ، وهو ما لم يذكره فيه ، بينما ذكر فقط ما سماه (الإفراط في الصفة) ، وهو يُقابل جزءاً من المبالغة المقبولة عند الخطيب القزويني ، إذ كانت نظرتّه للمبالغة أوسع مما هي عند الخطيب . كانت كنظرة القدماء ، كالرمانى وغيره ، كما سيأتي .

وهذا اختلاف ظاهر بين الرجلين في تسمية هذا اللون البديعي ، ورغم أنّ ابن أبي الإصبع جعل هذه التسمية عنواناً لهذا الباب ، إلاّ إنه يظهر أنّه مع تسمية قدامة والناس الذين تبعوه في تسمية هذا اللون بالمبالغة ، وما كان هذا الإطلاق إلاّ إشارة منه إلى أنّ لها تسمية أخرى فقط ، وهي الإفراط في الصفة ؛ لأنّه قال من بعد : " وقد جاءت المبالغة في الكتاب العزيز على ضروب " ^(٣) ، ولم يقل : جاء الإفراط - مثلاً - !! .

ومما يؤكّد هذا أيضاً قوله : " وهذه تسمية ابن المعتزّ ، وسماه قدامة : المبالغة ، وسماه من بعدهما : التبليغ ، والناس على تسمية قدامة ، وعرفه بأن قال : هو أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عندها لأجزأت ، فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده " ^(٤) .

(١) انظر ما ذكره الدكتور حفيّ شرف من التوافق والتخالف بين الكتّابين في مقدمة تحقيقه لبديع القرآن ، ص ٩٢ .

(٢) بديع القرآن ، ص ٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٤ ، وانظر : نقد الشعر ، لقدامة ، ص ١٤١ ، باختلاف يسير ، غير أن ما ذكره ابن أبي الإصبع كان أميل للإيجاز وأكثر منه اتساقاً .

وكونه ناقلاً لكلام قدامة يعني أنه متوافقٌ معه في هذا التوضيح لمفهوم المبالغة ، إلا أنه ربما قصدَ من العنونة بـ(الإفراط في الصفة) التعميم الذي يتناسب مع أضرب المبالغة التي ذكرها ، وهي كثيرة ، فتمثّلُ بهذه الكثرة مفهوماً عاماً لها وليس محدّداً ، وهذا المفهوم العام يتجاوز حدّ الإطار التي وضعها فيه المتأخرون ، خاصة الخطيب القزويني ، وهذا هو معنى الإفراط في اللغة ، وهو مجاوزة الحدّ . قال تعالى حكايةً عن موسى وهارون : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾^(١) ، ولعلّه يرى أنّ الأليق بشواهد القرآنية أن يُقال في حقّها إفراطٌ في الصفة ، ولا يُقال مبالغة ؛ لأنّ المبالغة مرتبطة عادةً بالكذب والادّعاء في أذهان الناس ، والإفراط في الصفة من محاسن الكلام عند ابن المعتزّ .

ورغم أنّ الإفراط عنده هو باب الغلوّ عند أبي هلال العسكري أيضاً ، إلا أنه فضّل هذه التسمية متفقاً في هذا مع الزملكاني في كتابه (البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن) ؛ إذ عقد فصلاً سمّاه (الإفراط والنزول) ، وكان جُلّ ما استشهد عليه من القرآن الكريم^(٢) ، ومؤيداً ما ذهب إليه ابن الأثير من أنّ أحسن صور الاقتصاد عنده هو أن يجعل الإفراط مثلاً ، ثم يُستثنى فيه بـ(لو) أو بـ(كاد) وما جرى مجراهما ، وذكر أنّ هذا وردَ في القرآن كثيراً^(٣) . فلما كان كذلك تخيّر له المصري هذه التسمية دون غيرها .

تعريف المبالغة :

إذا وضعت بجوار هذا التفسير الأدبي لمفهوم المبالغة - كما ذكر ابن أبي الإصبع عن قدامة - الوصف العلمي لمفهومها عند الخطيب القزويني ، وهو : " أن يُدعى لوصف بلوغه في الشدّة أو الضعف حدّاً مستحيلاً أو مستبعداً ؛ لئلا يُظنّ أنه غير مُتناهٍ في الشدّة أو الضعف "^(٤) .

فإنّك تجد أنه تعريفٌ منطقيّ يرتبط بالواقع والعادة ، وما هو إلا تقنين للمبالغة لتكون

(١) سورة طه : الآية (٤٥) .

(٢) انظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ٣١٠ .

(٣) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤١ .

درساً علمياً مطروحاً من بعد ، وهو حدُّ لها وحصرٌ على أساس مقدار هذه المبالغة ومدى إمكانها كما سيأتي عند التعرُّض لأقسامها .

أما حينما تضع اليد على المفهوم الأول ، وهو ما جاء عند ابن أبي الإصبع ، وتقرأ خاصة ، " فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده " ^(١) ، فيظهر لك أنَّ المبالغة عند المصري وقدامة هي ذات غاية ومقصد ، وهو الوصول بالمعنى إلى ما هو أبلغ منه ، والتناهي في أدائه ، وهذا هو المفهوم الأصلي للمبالغة ، وهو الارتقاء بالمعنى وتصويره ليؤثر ويخلب .

أما في تعريف الخطيب القزويني ، فلا يظهر قصد من المبالغة أو غاية وهدف سوى التركيز على أنها بلغت حدّاً معقولاً أم غير معقول ؟. مستبعداً أم غير مستبعد ؟!. ولا نظر فيه إلى قيمة المعنى معها أو أثرها فيه ، إلا أنه كان دقيقاً في تحديده لمفهوم المبالغة ؛ إذ " أشار إلى تفسير المبالغة مطلقاً وإلى تقسيمها ليتعيّن المقبولة من المردودة ، ولذا لم يقل (وهي) ، بل قال : [والمبالغة أن يُدعى لوصف بلوغه في الشدّة أو الضعف حدّاً] ... " ^(٢) .

وقوله قبل ذلك : " ومنه المبالغة المقبولة " ، فإنه يعني " خلاف المردودة ، فإنها لا تكون من المحسنات ، وفي عدّها من المحسنات ردٌّ على مَنْ ردّها مُطلقاً ، وفي التقييد بالمقبولة ردٌّ على مَنْ قبلها مطلقاً ، والشارح جعل التقييد بالقبول ردّاً عليهما " ^(٣) .

قال عصام الدين : " وبالجملّة فالمصنّف اختار مذهب القصد كما قال بعضهم : أحسن الشعر أقصده " ^(٤) ، وكذلك ذهب ابن أبي الإصبع ، فبعد أن عرض طرفي النقيض من الآراء في مسألة قبول المبالغة مطلقاً ، أو ردّها مطلقاً ، ذكر أنَّ المذهبين مردودان عنده ، وقال من بعد : " فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة

(١) بديع القرآن ، ص ٥٤ .

(٢) المطوّل ، ص ٦٦٥ .

(٣) الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ .

على الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساطها ^(١) .

وتعدّ المبالغة عند الخطيب القزويني من زياداته على السكاكي ؛ إذ لم يذكرها أبو يعقوب في القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) .

أقسام المبالغة :

إذا كانت المبالغة قد انحصرت عند الخطيب القزويني في ثلاثة أقسام ، هي : التبليغ ، والإغراق ، والغلو ، وهي التي سمّاها ابن الأثير بالاقتصاد ، والإفراط ، والتفريط ^(٢) ، فإنها عند ابن أبي الإصبع قد أخذت سمة التوسّع في مفهوم المبالغة أصلاً ، متأثراً في ذلك بالرماني ^(٣) ؛ إذ جعل من المبالغة " زيادة المعنى لزيادة المبنى ، وخاصة صيغ المبالغة والدلالة على الواحد بلفظ العموم ، وحذف الأجوبة للشرط " ^(٤) ، فنقل عن الرماني الأضرُب الأربعة الأولى ، وزاد عليها ، وهي :

* " المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة ، فإنها جاءت على ستة أمثلة : فَعْلَان كـ(رحمان) ، عدل عن (راحم) للمبالغة ، ولا يوصف به إلا الله تعالى ، ولم تنعت العرب به أحداً في جاهلية ولا إسلام ، إلا مُسَيْلَمَةُ الكَذَّاب ، نعتوه به مضافاً ، فقالوا : رحمان اليمامة ... فأما (الرحمن) بالألف واللام فلم يوصف به إلا الله ﷻ ؛ لأنّ رحمته وسعت كلّ شيء ، وليس للباري سبحانه صفة لا يُشَارِكُ فيها سواه .

وفَعَالٌ معدول عن (فاعل) للمبالغة ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ ^(٥) ، ﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ ^(٦) ، ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ ^(٧) ، ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ^(٨) .

(١) تحرير التحرير ، ص ١٥٠ .

(٢) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٣) انظر : النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٤ .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٧٨ .

(٥) سورة طه : الآية (٨٢) .

(٦) سورة طه : الآية (٨٢) .

(٧) سورة المائدة : الآية (١١٦) .

(٨) سورة البروج : الآية (١٦) .

وفُئُول ، عدل عن (فاعل) للمبالغة ، كـ(غفور ، رحيم ، شكور ، ودود)^(١) .

وفُعِيل ، عدل عن (فاعل) للمبالغة ، كـ(عليم ، حكيم ، حليم ، سميع ، بصير ، حسيب ، وكيل ، عظيم ..) ، فهذه الأربعة الأمثلة من الستة جاءت في الكتاب العزيز ، وبقيّة الستة ، وهي : مِفْعَل ، معدول عن (فاعل) للمبالغة ، كـ(مَدْعَس) عدل عن (داعس)^(٢) ، و(مَطْعَن) عدل عن (طاعن) .

ومِفعَال ، معدول عن (فاعل) للمبالغة ، كـ(مِطْعَام) عن (طاعم) ، و(مِقدَام) عن (قادم) . ولم يأتِ لهُذين المثالين في الكتاب الكريم شيء " ^(٣) .

فيظهر في هذا الضرب أنّه قد زاد على ما قاله الرماني للتوضيح والبيان ، فهذا من خصائصه الأدبية ، وكذلك فعل في بقية الأضرب التي نقلها عن الرماني كما يظهر لكلّ متصفح .

* والضرب الثاني من المبالغة : هو ما جاء بالصيغة العامّة موضع الخاص . فقد مثل عليه الرماني بقوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^{(٤)(٥)} .

بينما ذكر ابن أبي الإصبع أنّ هذا الضرب لم يأت له مثال في القرآن المجيد ، لكنّه ألحق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ^(٦) ، إلا أنّه لم يكن مثله من كلّ وجه كما قال ^(٧) . ثمّ وضّح المثال وحلّله .

ولما كان هذا الضرب يحتاج إلى تقريب وإفهام ، بيّنه بهذا المثال ، وهو " قولك : أتاني

(١) من سورة البروج : الآية (١٤) .

(٢) مَدْعَس : اسمٌ لمكان الدّعس ، مشتقٌّ من الدّعس ، وهو شدّة الوطء ، أو الأثر ، أو الطعن .

(٣) بديع القرآن ، ص ٥٤-٥٥ .

(٤) سورة الأنعام : الآية (١٠٢) .

(٥) انظر : النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٤ .

(٦) سورة الزمر : الآية (١٠) .

(٧) انظر : بديع القرآن ، ص ٥٦ ، لكنّ العجيب أنّه عدّها من الضرب نفسه في كتابه (تحرير التحرير) .

انظر : ص ١٥١ منه .

الناسُ كلَّهم ، ولم يكن أتاكَ إلا واحد منهم ، أردتَ تعظيمه " ^(١) .

وكذلك فعل الرماني ، وإن اختلفت الصياغة ^(٢) .

* " والضرب الثالث من المبالغة : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة ، والإخبار عنه مجاز ، كقول من رأى موكباً عظيماً ، أو جيشاً خضماً : جاء الملكُ نفسه ، وهو يعلم حقيقة أنَّ ما جاء جيشه . وقد جاء من ذلك في الكتاب الكريم قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ^(٣) ، فجعل مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه ؛ للمبالغة ، وكقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ ﴾ ^(٤) ، فجعل نقله بالهلكة من دار العمل إلى دار الجزاء ، وجداناً للمجازي " ^(٥) .

* " والضرب الرابع من المبالغة : إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع ؛ ليمتنع وقوع المشروط ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ ^(٦) . وكان بهاء الدين السبكي قد علّق على هذه الشواهد وعلى مثلها لما ذكر المبالغة عند الرماني ، فقال : " وهذا كله مما سبق من علم المعاني والبيان " ^(٧) . وهذا صحيح ، فإنّ الضرب الثالث من المجاز العقلي ، والضرب الرابع هو من التمثيل الذي يُخرج المعنى من الصورة التقريرية المباشرة الخالية من المؤثرات إلى صورة مشحونة بعنصر الإثارة المعتمد على التجربة الإنسانية ^(٨) .

والحقُّ ما قاله السبكي ، فإنّ علم البيان أحقّ وأولى بالمجاز من المبالغة التي قد تحصل من الدلالات المباشرة للألفاظ والتراكيب ، إلا أنّ في المبالغة إثباتاً للشيء ، وهو غير ثابت أصلاً

(١) بديع القرآن ، ص ٥٦ .

(٢) انظر : النكت ، ص ١٠٤ .

(٣) سورة الفجر : الآية (٢٢) .

(٤) سورة النور : الآية (٣٩) .

(٥) بديع القرآن ، ص ٥٦ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٧) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٦٢ .

(٨) مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية ، ص ٣١٦ ، بتصرّف .

كما هو الحال في الغلو والإغراق مثلاً ، وهذا بخلاف المجاز والاستعارة ؛ فإنهما يكونان لشيء ثابت أصلاً والقصد إبرازه^(١) ، لكن يظلّ للمجاز والاستعارة خِلافةً وشيئاً من السّحر ، كما ذكر عبد القاهر ؛ لأنّ المعاني إذا وردت على النفس مورده " كان لها ضربٌ من السرور خاصٌ ، وحدث بها من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة التي لم تُكدرها المنة ، والصنّعة لم يُنغصها اعتداد المصطنع لها "^(٢).

فإذن كلّ هذه الأضرب التي ذكرها ابن أبي الإصبع هي من باب التوسّع في مفهوم المبالغة وفي أقسامها ، وهو على خلاف ما هو محدّد عند الخطيب القزويني وعند غيره من المتأخرين ، بل هو على خلاف ما هو عند ابن الأثير أو عبد القاهر ، رغم أنّ ابن أبي الإصبع يُعدّ لاحقاً وليس سابقاً .

ومما أضافه أيضاً إلى المبالغة ووسّع به من مفهومها ، ما دلّ على تكثير المعنى ، وهو التعبير بصيغة أفعل التّفضيل^(٣) ، وكذلك بما كان مجازاً ثم صار بالقرينة حقيقة . وكلاهما من المبالغة التي جرت مجرى الحقيقة كما ذكر ، إذ قال : " والضرب الخامس من المبالغة ما جرى مجرى الحقيقة ، وهو قسمان : قسمٌ كان مجازاً فصار بالقرينة حقيقة ، كقوله تعالى : ﴿ يَكَاذُ سَنَّا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾^(٤) ، فإنّ اقتران هذه الجملة بـ (يكاد) يصرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان . وقسمٌ أتى بصيغة (أفعل) التّفضيل ، وهو محض الحقيقة من غير قرينة ، كقوله تعالى : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾^(٥) " ^(٦).

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ٧٩ ، بتصرّف ، وللاستعارة والمبالغة تفسيرٌ عند عبد القاهر . انظر :

أسرار البلاغة ، ص ٢٥١ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٢٢٤ .

(٣) أشار الطيبي إلى أنّ هذه الصيغة من أدوات التشبيه ، بينما ذكر السبكي أنّ فيها بُعداً وإن شهد لها كلام بعض العلماء ، كالشجري ، والظاهر أنّ هذا البعد الذي ذكره السبكي ربّما يكون راجعاً إلى أنّها لا تفيد التشبيه إلا ضمناً . انظر : أساليب البيان والصورة القرآنية ، للدكتور : محمد شادي ، ص ٥٨ ، بتصرّف .

(٤) سورة النور : الآية (٤٢) .

(٥) سورة الكهف : الآية (٣٤) .

(٦) بديع القرآن ، ص ٥٦-٥٧ .

والآية الأولى التي ذكرها ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾^(١) ، هي من جنس ما استشهد به الخطيب القزويني على المقبول من الغلو ؛ إذ قال : " والمقبول منه أصناف - أي : المقبول من الغلو - .. أحدها : ما أدخل عليه ما يقرب به إلى الصّحة ، نحو لفظة (يكاد) في قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾^(٢) " ^(٣) .

فمن الواضح أنّ كلا الآيتين تُعدّان من المجاز عندهما ، إلا أنّها جاءت عند ابن أبي الإصبع تحت الضرب الخامس من المبالغة ، وهو ما جرى مجرى الحقيقة ... وجاءت عند الخطيب القزويني ضمن الغلو المقبول ؛ فعبر كلّ منهما بأسلوبه ، ومن وحي منهجه الذي يتبعه ؛ فقال المصري : " فإنّ اقتران هذه الجملة بـ(يكاد) يصرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان " ^(٤) .

وذكر القزويني أنّه قد أدخل عليها ما يقربها إلى الصّحة ، وهو (يكاد) ^(٥) .

وهو هنا يلتقي مع قول ابن أبي الإصبع في أول باب (الإغراق) في كتابه (تحرير التعبير) ، وهو : " ولا يقع شيء من الإغراق والغلو في الكتاب العزيز ، ولا الكلام الصحيح الفصيح إلا مقترناً بما يُخرجه من باب الاستحالة ، ويُدخله في باب الإمكان ، مثل (كاد) وما يجري مجراها " ^(٦) .

وهو ما لخصه في آخر باب (الإفراط في الصفة) في كتابه (بديع القرآن) ؛ إذ قال : " وجميع مبالغات الكتاب على ضربين : ضرب غير ممكن لا يأتي إلا مقترناً ، كما تقدّم من

(١) سورة النور : الآية (٤٢) .

(٢) سورة النور : الآية (٣٥) .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

(٤) بديع القرآن ، ص ٥٧ ، وتأثّر به ابن حجة ، وقال : " إذ لا يستحيل في العقل أنّ البرق يخطف الأبصار ، لكنّه يمتنع عادة ، وما زاد وجه الإغراق هنا جمالاً إلا بقريّة (يكاد) ، واقتران هذه الجملة بها هو الذي صرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان " . انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٥) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

(٦) تحرير التعبير ، ص ٣٢١ .

قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ^(١) ... " ^(٢) .

ومما أضافه ابن أبي الإصبع أيضاً إلى مفهوم المبالغة هو ما بولغ فيه بطريق التشبيه ، ومثل عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ^(٣) ^(٤) .

وهو يقصد هنا الصورة أو الأسلوب الذي يؤدي إلى قوّة المعنى وإثباته وإظهاره بتشبيه المحسوس بالمحسوس .

قال الزمخشري : " أي كلُّ شررة كالقصر من القصور في عِظَمها ، وقيل : هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قَصْرَة ، نحو : جَمْرَة وجَمَر ... " ^(٥) .

وقال : " شُبِّهَتْ بالقصور ثم بالجمال ؛ لبيان التشبيه " ^(٦) .

فالمبالغة التي يقصدها ابن أبي الإصبع هنا هي من قبيل التصوير أو التشبيه الذي يصوّر عِظَم هذا الشرر المترامي من نار جهنّم ، ولا شك أنّها صورة تقشعرّ منها القلوب قبل الأبدان . فإذا هي مبالغة من جهة صورة المعنى لا من جهة المعنى نفسه ، وهذا بعلم البيان أولى من علم البديع ، بل إنّ هذه الآية من جنس قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ^(٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ ^(٨) ،

(١) سورة النور : الآية (٣٥) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٥٧ .

(٣) سورة المرسلات : الآيتان (٣٢-٣٣) .

وقُرئ (جُمالات) - بالضم - ، وهي قلوس الجسور ، وقيل : قلوس سُفن البحر ، الواحدة : جُمالة .

وقُرئ (جِمالة) - بالكسر - ، بمعنى جمال . انظر : الكشاف ، ص ١١٧٠ .

(٤) انظر : بديع القرآن ، ص ٥٧ . وتأثّر به الزركشي فذكر هذا الضرب من المبالغة . انظر : البرهان في

علوم القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

(٥) الكشاف ، ص ١١٧٠ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١١٧٠ .

(٧) سورة الرحمن : الآية (٢٤) .

(٨) سورة الأعراف : الآية (١٧١) .

التي استشهد بهما في باب (التشبيه)^(١)، وهذا من المفارقة عنده وإن فرّق بين البابين .

ولخصوصية كتاب (بديع القرآن) عن كتاب (تحرير التحبير) أو حتى عن كتاب (الإيضاح) للخطيب القزويني ، كان لا بدّ من كشف حقيقة المبالغة في القرآن الكريم ، وهذا ما يفهم من آخر كلام ابن أبي الإصبع في باب (الإفراط في الصفة) ، وهو ما تفرّد به عن الخطيب القزويني ؛ إذ إنه لمّا ذكر أنّ جميع مبالغات الكتاب على ضربين : ضرب غير ممكن لا يأتي إلا مقترناً ، قال عن الضرب الثاني : " والممكن قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾^(٢) ، لما كانت ممكنة جاءت المبالغة فيها غير مقترنة ؛ لأنّها في هذه الآية عرفيّة ، معنى الكلام فيها : " أن علم ذلك بالنسبة إلينا هو متعذّر علينا " ، وسهلّ بالنسبة إلى علم الله ، فالمبالغة فيها إذاً بالنسبة إلينا لا إلى الله ﷻ " ^(٣) .

فهذا يؤكّد أنّ المبالغة في القرآن الكريم إنّما هي صورٌ وحقائق ، لكنّها تتخذ القوالب والصيغ المتناسبة والأساليب المنسجمة معها لتصل بالمعنى إلى أن يقع في النفس موقع الحقّ والخشوع والتأثير والإذعان بإعجاز الأداء وروعة البيان .

قال الزركشي : " فإنّ المبالغة في هذه الآية مدججة في المقابلة ، وهي بالنسبة إلى المخاطب ، لا إلى المخاطب ، معناه أنّ علم ذلك متعذّر عندكم ، وإلا فهو بالنسبة إليه سبحانه ليس بمبالغة " ^(٤) .

(١) انظر : بديع القرآن ، ص ٥٨ ، وقد ذكرهما الزملكاني في البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، في باب (الإفراط والنزول في الصفة) ، ص ١٥٤ .

(٢) سورة الرعد : الآية (١٠) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٧ . وذكر في كتابه (تحرير التحبير) أنّه قد جاء من هذه المبالغة المدججة في سنة رسول الله ﷺ غير هذه الآية ما لا يُحصى كثرة ، ولا يلحق بلاغة ، كقوله ﷺ مخبراً عن ربّه أنّه قال سبحانه : « كلّ عمل ابن آدم له إلا الصوم ؛ فإنه لي ، وأنا أجزي به » ، وذكر حديثاً آخر وفصل فيهما القول ، وهي من المبالغة بالنسبة إلى المخاطب لا إلى المخاطب . انظر : تحرير التحبير ، ص ١٥٣ .

(٤) البرهان ، ج ٣ ، ص ١٣٢ . ولا شك أنّه متأثرٌ بقول ابن أبي الإصبع بأنّ " هذه المبالغة بالنسبة إلى المخاطب لا إلى المخاطب " . انظر : تحرير التحبير ، ص ١٥٣ .

فإذن هي " مبالغة بحدود إدراك البشر وتصوّره لما يحيط به من محسوسات ، ولكنها وفقاً للقدرة الإلهية ومقدار علم الله ليست مبالغة " ^(١).

وقد سبقت الإشارة في أوّل هذا المبحث إلى أنّ الأفعال الصادرة من خالق الأفعال لا مبالغة فيها ، بينما يجد فيها القارئ معنى المبالغة من حيث كمال الصورة ودقّة توصيل المعنى الذي يستعصي على الفهم البشري إلا من خلال الإيضاح الذي يسلكه القرآن ^(٢).

وهذه الإضافة من ابن أبي الإصبع تعكس سمّته الروحية وثقافته الدّينية ؛ إذ أخذ نفسه في أواخر حياته بالبحث والدّرس في العلوم القرآنية والحديث والفقه ، إذ له (الكافلة في تأويل تلك عشرة كاملة) و(الخواطر السوانح في أسرار الفواتح) ^(٣) ؛ وكأنّه بهذه الثقافة المتنوّعة يعكس رؤية الزمخشري فيمن أراد أن يتصدّى لفهم القرآن الكريم ؛ إذ لا يغوص على شيء من حقائقه إلا من برع في علمين مختصّين بالقرآن ، وهما : علم المعاني ، وعلم البيان ، وبعثته همّة في معرفة لطائف حجة الله بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظّ ، جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ^(٤) ، مشتعل القريحة وقادها ^(٥) ، يقظان درّاكاً للّمحة وإن لطف ^(٦) شأنها ، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مُرتاضاً غير ريّض ^(٧) بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يُرتّب الكلام ويؤلّف ، وكيف ينظّم ويرصف ، طالما دُفع إلى مضايقه ، ووقع في مُداحضه ومزلقه ^(٨).

(١) مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية ، ص ٣١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١٦ ، بتصرّف يسير .

(٣) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٧٦٨ ، بتصرّف .

(٤) مسترسل الطبيعة منقادها : متّمد ذو عفوية وسلاسة .

(٥) مشتعل القريحة وقادها : جيّدها ، قادرٌ على استنباط العلم بجودة الطبع .

(٦) لطف : دقّ .

(٧) مُرتاضاً : أي صار مرّوضاً ، غير ريّض : أي لا يصعب عليه شيء .

(٨) مداحضه ، ومزلقه : مواقف تستدعي الزلل والانزلاق . انظر : مقدّمة الكشف ، ص ٢٣ ،

بتصرّف يسير .

بل إن ابن أبي الإصبع نفسه ذكر أنّ الفقيه التقي محمد بن علي بن وهب القشيري - رحمه الله تعالى - سألته عن قوله تعالى : ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾^(١) ، فقال : " فاستخرجتُ منها عشرة أوجه من المبالغة لم يتسع هذا الهامش لذكرها ، قد علّقتها في أوراق مفردة توضع في هذا الباب إن شاء الله تعالى " ، ويقصد به باب الاستقصاء^(٢) .

ثم إن الآية المقصودة بالحديث هنا كما نقل عنه الزركشي من الضرب الثاني من أقسام المبالغة في الكلام عنده ، وهي المدحجة ، إذ قال : " والمبالغة في الكلام على ضربين : ظاهرة ، ومدحجة ، وكلّ ما قدّمنا من الظاهرة . ومن أمثلة المدحجة قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(٣) ، فإنّ مبالغة هذه الآية جاءت مدحجة في المقابلة "^(٤) .

وهذه إضافة أخرى منه في هذا الباب ، غير أنها إشارة فقط إلى أنّ الآية الواحدة أو الشاهد الواحد قد يجتمع فيه أكثر من لونٍ بديعي ، وهذا من المعروف والمشهور ، لذا تركه الخطيب ؛ لأنه أبين من أن يُشار إليه .

الإغراق والغلو والتبليغ :

لا يخرج تقسيم المتأخرين - كالفزويني وشراح التلخيص - عمّا تقدّم من تسميات المبالغة ، فهي تبليغ وإغراق وغلو ، ولكن أصحاب البديعيات عدّوا كلّ لونٍ من هذه الألوان الثلاثة قائماً بذاته^(٥) .

قال ابن حجة : " وهذا النوع - أعني المبالغة - شرّكه قومٌ مع (الإغراق) و(الغلو) ؛ لعدم معرفة الفرق ، وهو مثل الصبح الظاهر "^(٦) .

(١) سورة إبراهيم : الآية (١٧) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٢٥١ .

(٣) سورة الرعد : الآية (١٠) .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٥) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٥٨٤ ، بتصرّف يسير .

(٦) خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٣٥ . وقال : " تقرّر أنها - أي المبالغة - في الاصطلاح : إفراط وصف

وذهب إلى ذلك ابن معصوم ؛ وربما كانا متأثرين بآبي الإصبع العدوانى ؛ إذ بصرف النظر عن عدم ذكر الإغراق والغلو في كتابه (بديع القرآن) لخصوصيته ، فإنه عقد لكل منهما باباً في كتابه (تحرير التحبير) ، وهو يفسر هذا بقوله : " وقد رأيتُ مَنْ لا يفرّق بين الغلوّ والإغراق ، ويجعل التسميتين لبابٍ واحد ، وعندى أنّ معنى البابين مختلف كاختلاف اسميهما ، إلا أنّ الإغراق أصله في النزاع ، وأصل الغلوّ بعد الرمية - ثم فصلّ في هذا - " (١) .

أولاً : التبليغ :

الإبلاغ والتبليغ في اللغة : الإيصال ، والاسم منه (البلاغ) ، والبلاغ أيضاً الكفاية (٢) .

" وفي الحديث : « كلّ رافعة رفعت علينا من البلاغ » (٣) ، أي : ما بلغ من القرآن والسُنن ، أو المعنى من ذوي البلاغ ، أي : التبليغ ، أقام الاسم مقام المصدر ، ويُروى بالكسر ، أي : من المُبالغين في التبليغ ، مِنْ بالغ مُبالغةً وبلاغاً : إذا اجتهد ولم يُقصر " (٤) .

لم يُشر ابن أبي الإصبع إلى التبليغ في كتابه (بديع القرآن) ، إنّما أشار إليه دون تسمية في كتابه (تحرير التحبير) في باب (الإفراط في الصفة) ، وهو عنده يساوي المبالغة مُطلقاً .

فكان ما في (تحرير التحبير) أشمل مما في (بديع القرآن) ، إذ بعدما تحدث عن تلك الأضرب التي سبق التحدّث عنها من قبل ، قال : " ومن أمثلة المبالغة في الشعر قول امرئ القيس :

الشيء بالممكن وقوعه عادةً ، وتقرّر أنّ الإغراق فوقها في الرتبة ، وهو في الاصطلاح : إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادةً . والغلوّ فوقهما ، فإنّه الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلاً وعادةً " . انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٢٣ .

(٢) مختار الصحاح ، تأليف : ابن أبي بكر الرازي ، ترتيب : محمود خاطر ، ضبط وتحقيق : حمزة فتح الله ، مؤسسة الرسالة ، د.ت ، ص ٦٣ ، مادة (بلغ) .

(٣) لم أعثر على نصّ هذا الحديث في كلّ ما توفّر لديّ من مصادر ، وقد سبق بيانها .

(٤) القاموس المحيط ، ص ١٠٠٧ ، باب (الغين) ، فصل (الباء) ، مادة (بلغ) .

فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعَجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يُنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلَ^(١)

فإنه أخير عن هذا الفرس أنه أدرك ثوراً وبقرة وحشيّة في مضمارٍ واحد ، ولم يعرق ..
ومثله قول أبي الطيّب :

وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفِيئُهُ وَأُنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ^(٢)

وهو عنده الممكن الذي لا يخرج إلى المستحيل .

أما الخطيب القزويني فقد سمّى التبليغ وعرفه بأنه هو الممكن عقلاً وعادةً ، ومثّل عليه بمثل ما مثّل عليه ابن أبي الإصبع ، وحلّل بيت امرئ القيس بمثل تحليله ، فقال : " وصف هذا الفرس بأنه أدرك ثوراً وبقرة وحشيّين في مضمارٍ واحد ولم يعرق ، - وزاد - : وذلك غير ممتنع عقلاً ولا عادةً "^(٣) .

ويبدو أنّ الإفراط في الصفة كان مفهومه عند ابن أبي الإصبع واسعاً ، بحيث يتناول كلّ ضروب المبالغة ، بحيث لا يقتصر على التبليغ ، ومن الشواهد الجيدة التي ذكرها للإفراط في الصفة - وهي أقرب إلى الغلو - قول قيس بن الخطيم :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً تَائِرَةً لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا

(١) (عادي) بين الصيدين مُعادةً وعِدَاءً : والى ، وتابع في طلق واحد ، (الثور) : الذكر من بقر الوحش ،
(والنعجة) : الأنثى منها ، و(دِرَاكًا) : المداركة ، (لم ينضح بماء) : لم يتوشّح بماء أو لم يعرق .

(٢) تحرير التعبير ، ص ١٥٤ .

ومعنى البيت : أني إذا طاردتُ بفرسي وحشاً لحقته فصرعته ، وإذا نزلتُ عنه بعد الصيد والطرد كان مثله حين أركبه . يريد : لم يلحقه تعبٌ ، ولا يعتريه كلال ؛ لقوّته .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٢ . واعترض عليه السبكي بأنّ هذا إخبار بالواقع بغير مبالغة . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٦٠ ؛ بينما ذكر عصام الدين بن عربشاه أنّ هذا ممكن عادة ، إلا أنه مُستبعد . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا يُرَى قَائِمًا مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا^(١)

فإنَّ اتساع الطعنة حتى يرى ما وراءها قائماً من الأمور المستحيلة .. فهو شاهدٌ يعكس تفسيره الأدبي للمبالغة ، وكيف أنَّ القصدَ منها إنما هو بلوغ النهاية في المعنى ، وما تؤدِّيه من تصويرٍ له بصورة مؤثِّرة غنيَّة بالإيحاءات والظلال ؛ إذ يقول : " فإنَّ ذلك من جيد المبالغة إذا لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف المعنى "^(٢).

ويظهر أنَّ الإفراط في الصفة عند ابن أبي الإصبع هو نفسه المبالغة عند قدامة ، الذي لخصه بعضهم وقال : " المعنى إذا زاد على التمام سُمِّي (مبالغة) "^(٣).

وداخلٌ أيضاً في الحدِّ الذي ذكره ابن رشيق للمبالغة ، وهو " بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء "^(٤)، وسماه التقصِّي .

فكأنَّ جُلَّ القصد من المبالغة عندهم هو " الإمكان والخروج عن المستحيل " ، كما ذكر ابن حُجَّة^(٥) .

قال ابن معصوم : " غير أنَّ هذا الحدَّ للمبالغة بالمعنى الشامل للإغراق ، والغلو ، والتبليغ ، لا للتبليغ وحده كما توهمه ابن حجة ، ويدلُّك على ذلك أنَّه مثل لها - أي قدامة - بما مثَّل به غيره للإغراق ، وهو :

وَنُكْرِمُ جَارِئًا مَا دَامَ فِينَا وَتُبَّعُهُ الْكَرَامَةُ حَيْثُ مَالَا^(٦)

وكذلك مثَّل لها ابن رشيق بنفس الشاهد ، وقال : " فتقصَّى بما يمكن أن

(١) (نَفَذَ) : اختراق ، (أَنْهَرْتُ) : وسَّعْتُ ، (فتَقَّها) : شَقَّها .

(٢) تحرير التعبير ، ص ١٥٤ .

(٣) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

(٤) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦٥٢ .

(٥) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

(٦) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢١٤ .

يقدر عليه ، فتعاطاه ، ووصف به قومه " (١) .

ومثل لها ابن أبي الإصبع بقول أبي تمام :

تَكَادُ تَنْتَقِلُ الْأَرْوَاحُ لَوْ تَرَكْتُ مِنْ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

وقال : " فإنه لم يَقْنَعْ في تصحيح المبالغة وقربها من الوقوع ، فضلاً عن الجوار بتقديم (كاد) حتى قال : لو تركت ، وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه وأبلغه " (٢) .

وهذا بيت يُعتبر من الغلوّ المقبول ؛ لاقتراحه بـ (كاد) عند الخطيب القزويني ، مما يؤكد وجهة نظر ابن معصوم ، ومع ذلك فقد عقد ابن أبي الإصبع بآيين خاصين بالإغراق والغلوّ كما سيأتي ، لكن يظهر أنه أدخل التبليغ في المبالغة مطلقاً في باب (الإفراط في الصّفة) الذي هو في كتاب (تحرير التحبير) ؛ لأنه كان في معرض الحديث عن موقف النقاد والبلاغيين من المبالغة والتفصيل في هذا ، وبيان وجهة نظره ؛ إذ كيف تُعاب المبالغة وقد وجدت في الكتاب العزيز ، وذكر أنّ المذهب المرضي عنده هو أنّ " المبالغة ضربٌ من المحاسن إذا بعدت عن الإغراق والغلوّ ، وإن كان الإغراق والغلوّ أيضاً ضربين من المحاسن إذا اقتربنا ، وعييين إذا أُطلقا " (٣) .

وقال : " رُبَّ شِعْرٍ في غاية الجودة ونهاية القوة ، مع كونه قد بلغ فيه قائله إلى حدّ الإغراق أو الغلوّ ، ورُبَّ شِعْرٍ في غاية الرّداءة مع الخلوّ عن هذين الضّرّين " (٤) .

وبالتالي فإنّ ما استشهد به على التبليغ أو الإغراق أو الغلوّ في باب (الإفراط في الصّفة) في كتابه (تحرير التحبير) كان بغرض الكشف عن مزية المبالغة ودورها في الارتقاء بالمعنى وتقديمه في صورة مُعبّرة ، وأنه من غير المقبول أو المعقول أن تُرفض مطلقاً أو تُقبل مطلقاً ؛

(١) العملة ، ج ١ ، ص ٦٥٢ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ١٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

بل كان ينظر إلى الشعر الجيد ويحكم عليه بمقدار صحّة المبالغة فيه وجودتها ، بصرف النظر عن كونها أخرجت المعنى إلى المستحيل أو لم تخرجه إليه .

فهاهو يعدّ أبلغ شعير سمعه هو قول شاعر الحماسة :

رَهْنْتُ يَدَيَّ بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتِطَاعُهُ وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فرغم أنّ هذا الشعر داخلٌ عنده في القسم المعيب من المبالغة لكونه أخرج الكلام من حدّ الإمكان إلى حدّ الامتناع ، حيث جعل شكر هذا المدح لا يُستطاع ، إلا أنّ هذا أبلغ شعر سمعه وعلل إعجابه بقوله : " لجودة مفردات ألفاظه ، وسهولة سبكه ، ومساواة لفظه لمعناه ، ومتانة مبناه ، وكثرة معانيه ، وصحّة المبالغة فيه " (١) .

بل علل صحّة هذه المبالغة فيه بقوله : " ليس كلّ برٍّ يمكن شكره ، ولا يقوم المدح بحقه ، فإنّا لو قدرنا أنّ إنساناً فكّ إنساناً من الأسر واستنقذه من القتل لمّا وفى شكره ببرّه ولو كان أشكر الناس ، واستنفذ في شكره بقية عمره ، لاسيّما لو قدر أنّ ذلك الممتنّ ببقاء النفس أضاف إلى ذلك توابع إحسان ، وعوارف امتنان ، على ممرّ الزمان ، فإنّ الشكر لا يقوم ببرّ ذلك الإنسان ، ولو تجاوز فيه الشكور حدّ الإمكان ، فقد وضع أنّ من البرّ ما لا يؤدّي شكره " (٢) .

وعدّ هذا كقول سيد المرسلين ﷺ مُعْظِماً نعمة ربّه عليه : « لا أحصي ثناءً عليك » (٣) .

إلا أنّ بين بلاغة أحدنا وبين بلاغة الرسول ﷺ كما بين نعمة أحدنا ونعمة الله سبحانه وتعالى كما قال (٤) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

(٣) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب : ما يقال في الركوع والسجود ، حديث رقم : (١٠٩٠) ، ص ١٧٩ .

(٤) تحرير التحبير ، ص ١٥٦ .

الخلاصة :

وعلى الجملة فإنه إذا كان ابن أبي الإصبع قد عقد لكل من الإغراق والغلو باباً ، فقد اكتفى بذكر بعض شواهد التبليغ في باب (الإفراط في الصفة) أو المبالغة في كتابه (تحرير التحبير) ؛ لبيان مدى جودة بعض صور المبالغة وأنه لا بد منها في الشعر ، بشرط أن يكون لها غاية .

واكتفى كذلك بذكر بعض شواهد في باب (الغلو) وفي باب (الإغراق) ؛ ليردّ بهذا على بعض النقاد الذين أدخلوا بعض شواهد إما في الإغراق فقط ، وإما في الغلو فقط .

فمن ذلك - مثلاً - : قول النابغة في صفة السيوف - وهو ما جاء في باب (الغلو) - :

تَقْدُ السَّلْوَى الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَيُوقِدُنْ فِي الصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَّاجِ^(١)

فذكر أنه لا يجوز أن يؤتى به في باب (الغلو) ، ولا يخرج عن كونه مبالغة .

وقال : " بيت النابغة أحسن أحواله أن يُعدّ من المبالغة لا من الإغراق " ^(٢) .

فالمبالغة التي عدّ منها بيت النابغة هي التبليغ عند الخطيب القزويني ، وهي التبليغ عنده أيضاً . فالشاعر وصف السيوف بأنها تحترق وتشقّ الدروع المتينة الصنع التي هي أشدّ على السيوف من غيرها ؛ لأنها معمولة حلقتين حلقتين ، وبتصادم واحتكاك حوافر الخيول بالحجر في رحي المعركة فإنّها تقدح شرراً يتطاير في الهواء ، وهذا من الممكن عقلاً وعادة .

وهو لم يفصله عن المبالغة المطلقة ، ولم يعقد له باباً ، ربّما لأنّ هذا النوع من المبالغة أقرب إلى الحقيقة والصدق والصواب دون مزايدة تدخله في باب (الغلو) أو (الإغراق) اللذين هما من أبرز أوجه المبالغة وأكثرها أهميّة وأشدّها اختلافاً في القبول أو الرفض عند

(١) (تَقْدُ) : القَدّ : الشقُّ طولاً ، (السَّلْوَى) : السيوف ، وقيل إنه يُنسب إلى (سلوق) ، وهي مدينة بالروم ، أو مكان باليمن تُنسب إليه الدروع السلوقية ، (المضاعف نسجه) : المتين الصنع من الدروع ، وهو المعمول حلقتين حلقتين ، (الصُّفَّاح) : حجارة عراض رقاق ، (الحُبَّاج) - بالضم - : ذباب يطير بالليل له شعاع كالسراج ، ومنه : نار الحُبَّاج ، أو هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٣٢٦ .

جمهور البلاغيين ، بينما التبليغ ليس عليه اختلاف إلا عند مَنْ ندر ، وهو واضح لا لبس فيه ،
بينما الإغراق والغلو فكثيراً ما يخلط الناس بين شواهدهما .

ثانياً : الإغراق :

أصله في اللغة من : أغرقَ الرامي في القوس : استوفى مدّها ، و(أغرقَ) في الشيء : بالغَ
فيه وأظنّب ، كلاهما بالألف^(١) . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ
وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾^(٢) .

والإغراق ذكره الخطيب القزويني أنه هو الممتنع عادةً لا عقلاً ، ومثّل عليه بقول عمرو
ابن الأيهم التغليي :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِيْنَا وَتُبْعُهُ الْكَرَامَةُ حَيْثُ مَا لَا^(٣)

وقال : " فَإِنَّهُ ادَّعى أَنَّ جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا وهو يتبعه الكرامة ، وهذا ممتنعٌ
عادةً ، وإن كان غير ممتنع عقلاً "^(٤) .

(١) المصباح المنير ، ص ٤٤٦ ، باب (الغين) ، مادة (غرق) .

(٢) سورة العنكبوت : الآية (٤٠) .

(٣) (حيث مال) : أي : حيث رحل عنهم إلى غيرهم .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٢ . واعترض السبكي عليه وقال : " وفيه نظر ؛ لإمكان حمل ذلك على تزويده

بما يصاحبه في كلّ جهة يميل إليها " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٦٠ .

إلا أن الفعل (تُبْعُهُ) فعلٌ متعدٍّ ؛ مما يؤكد كلام الخطيب وهو من الإلحاق والاتباع ؛ لأنّ (تَبِعَهُ) (تُبْعَهُ)
في اللغة إذا مشى خلفه ، وإذا كان قد سبقه فلحقه .

وقال الأخفش : (تبعه وأتبعه) بمعنى مثل (ردّفه وأردّفه) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ
فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [سورة الصافات : الآية (١٠)] . انظر : مختار الصحاح ، ص ٧٤ .

وعليه فلا يُفهم من قول الشاعر تزويده بما يصاحبه ، إنما يلحقه ويتبعه بالكرامة في كلّ مرّة وفي كلّ
جهة يميل إليها ، وإلا لقال : نلزمه الكرامة ، وما احتاج إلى : (حيث مال) .

قال ابن معصوم : " يُرسل الكرامة والعطاء على أثره " ، وقال في موضعٍ آخر : " إنه من المستحيل
عادةً " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ، ٢١٤ .

والخطيب القزويني هنا لم يشترط في هذا النوع من المبالغة اقترانه بـ(كاد) أو ما يجري مجراها ؛ لعدم حاجته إليها كحاجة الغلو ، بينما كان هذا مشروطاً عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ قال - كما تقدّم - : " ولا يقع شيء من الإغراق والغلو في الكتاب العزيز ولا الكلام الصحيح الفصيح إلا مقروناً بما يخرج من باب الاستحالة إلى باب الإمكان ، مثل (كاد) وما يجري مجراها " ^(١) .

ولعله متأثر في ذلك بابن رشيق ؛ إذ يقول : " وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بـ(كاد) وما شاكلها ، نحو (كأنّ) و(لو) و(لولا) ، وما أشبه ذلك ... ألا ترى ما أعجب قول زهير :

لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِأَحْسَابِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فبلغ ما أراد من الإفراط ، وبنى كلامه على صحة " ^(٢) .

والمستغرب أنّ ابن أبي الإصبع كأنه كان يُشير إلى ابن رشيق في قوله في أول باب (الغلو) : " وقد رأيتُ مَنْ لا يفرّق بين الغلو والإغراق ويجعل التسميتين لباب واحد ، وعندي أنّ معنى البابين مختلف كاختلاف اسميهما ... " ^(٣) .

ثم هو يقع في هذا الخلط نفسه عندما يجعل الإغراق غير مقبول كـالغلو ما لم يقترن بـ(كاد) وما أشبهها ، بينما هو مقبول مطلقاً عند الخطيب من غير شرط ، كما ذكر عصام الدين بن عربشاه ^(٤) .

بل والأكثر استغراباً أن يستشهد عليه بقول ابن المعتز :

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٢٣ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٦٦٨ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٢٣ .

(٤) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

وبقوله هو :

جَهَلْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّكَ جَاهِلٌ فَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي^(١)

فهذان الشاهدان - كما هو واضح - غير مقترنين بـ (كاد) أو ما يجري مجراها !!.

وبيت ابن المعتزّ خاصة هو من الإغراق المقبول مطلقاً ، الذي لا يحتاج إلى ما يقربه إلى الصحة أو الإمكان ، وهو كذلك عند ابن رشيق كما يفهم من كلامه ، وقد ذكره^(٢).

إلا أنّ هذا التناقض الذي يبدو عند ابن أبي الإصبع بين ما اشترطه لقبول الإغراق مطلقاً وبين ما استشهد به قد حاولتُ تفسيره من عدّة أوجه :

● كأنّ يقال مثلاً : إنّ هذا الاشتراط ربما يقصده في المعاني المستحيلة ، ويتربّب عليه أنّ هناك إغراق مقبول ، كالشواهد التي استشهد بها ، وآخر غير مقبول إلا بما يقترن بما يقربه إلى الصحة ، فيكون هذا الإغراق الغير مقبول هو الغلوّ نفسه !.

● أو يُقال : إنّهُ قد يدخل تحت قوله : (كاد وما يجري مجراها) بعض القرائن اللفظية الدّالة على الإغراق ؛ لأنّه قال موضّحاً موضع الإغراق في بيت ابن المعتزّ : " فموضع الإغراق من البيت قوله : (ظالمين) يعني أنّها استفرغت جهدها في العدو ، فما ضربناها إلا ظُلماً ، ولا جرم أنّها خرجت من الوحشية إلى الطيريّة ، ولو لم يقل : (ظالمين) لَمَّا حَسُنَ قوله : (فطارت) ، ولكنه بذكر الظلم صارت الاستعارة كأنّها حقيقة "^(٣). وهذا قد يكون غير مقبول ، فالقرائن اللفظية هي مثل (لو) و(لولا) للامتناع ، وأداة التشبيه ، وآلة التشكيك كما ذكر هو^(٤).

(١) ذكر أسامة بن منقذ هذا الشاهد في باب (الإغراق) . انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ٨٤ .

(٢) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٦٥٢ . فما استشهد به ابن رشيق في باب (المبالغة) يدخل فيه التبليغ والإغراق كما يبدو ، أما الغلوّ عنده فهو الغلوّ المصطلح عليه وإن سمّاه الإغراق .

(٣) تحرير التحرير ، ص ٣٢١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢٣ .

ومن ثمّ فإنه يظهر عند ابن أبي الإصبع خلافٌ بين تنظيره وبين تطبيقاته على هذا التنظير .

فشواهد من الإغراق ، وما ذكره من وجوب اقترانه بما يخرج من باب الاستحالة إلى باب الإمكان لا يكون إلا في الغلوّ خاصّةً ؛ ليصحّ ويُقبل عند جمهور البلاغيين ؛ قال أبو هلال العسكري : " ومخرج الغلوّ إنّما هو على (كاد) ، فما لا يصحّ فيه (كاد) فإنّه لا يحسن " ^(١) .

بل إنه استشهد في هذا الباب بقول امرئ القيس :

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرَعَاتٍ وَأَهْلُهَا يَشْرِبُ أَذْنَى دَارِهَا نَظْرٌ عَالِي ^(٢)

وذكر أنّه يباب الإغراق أولى ^(٣) ، ثم يذكره في باب الغلوّ ويُصرّحُ إنه داخلٌ في باب الاستحالة ، مع خلوه مما يقربّه إلى الإمكان ^(٤) ! .

وهذا خلطٌ واضحٌ بين شواهد البابين ، ودليلٌ آخر على أنّ تعريفه للإغراق - وهو أنّه " فوق المبالغة ، ودون الغلوّ " ^(٥) - لا يتفق مع تطبيقه ، وهو يمثل عليه بما هو يباب الغلوّ أدخل وأليق ، وهو بيت امرئ القيس السابق ، وبهذا يكون قد وقع في الخطأ الذي عاب عليه غيره دون أن يشعر .

وإذا كان بعض المتأخرين - كابن حجة وابن معصوم - يُحلّلان البيت على وجه آخر حسبما يقصده الشاعر - وهو خلاف الظاهر - ، فيذكران أنّ " رؤية النار من بعد هذه المسافة - إذا لم يكن ثمّ حائلٌ من جبلٍ ونحوه - لعظم جرمها لا يمتنع عقلاً ويمتنع عادةً ،

(١) الصناعتين ، ص ٣٧٧ .

(٢) (تنوّر) النار من بعيد : تبصّرها ، (أذرعَات) : من حدود الشام ، (يشرب) : مدينة الرسول ﷺ وبينهما مسافة بعيدة ، (نظرٌ عالي) : مرتفعٌ بعيد .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٢٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٢١ .

هذا إن فُسِّرَ قوله : (تنوَّرتُها) بمعنى : (نظرتُ إلى نارها الحقيقية) ، وأما إن فُسِّرَ بمعنى : (توهَّمْتُ نارها ، وتخيَّلْتُها في فكري) لم يكن فيه إغراق ^(١) .

فإنَّ هذا التحليل يجعل من بيت امرئ القيس داخلاً مرَّةً في باب (الإغراق) ، ومرَّةً في باب (الغلو) ، وهما بهذا التحليل كأنَّما يُسوَّغان صُنْع ابن أبي الإصبع العدواني ، إلا أنَّ معنى (تنوَّرتُها) في اللغة هو بمعنى (تبصَّرتُها) ، لا (توهَّمْتُها) ، وليس من داعٍ إلى تأويل هذا الظاهر وتحويله إلى شِقٍّ غير ظاهر .

وهذا التبصُّر الذي يقصده الشاعر هو على حقيقته لا توهُّم ؛ لذا فهو من الغلو ؛ لأنَّ المسافة بين البلدين بعيدة جداً ، ولذلك عدَّه ابن رشيق من الغلو ، وإن كان قد أطلق عليه إغراق ، وقال : " وبين المكانين بُعد آيام " ^(٢) .

واللَّفت أنَّ هذا الشاهد لم يستشهد به أحدٌ من القدماء - حسب علمي القاصر - غير ابن رشيق ، ثمَّ لم يستشهد به أحدٌ بعده سوى ابن أبي الإصبع ، مما يشير إلى تأثره به ؛ بل وواقعٌ في الخطأ نفسه ، وهو إدخال بعض شواهد الإغراق في الغلو وبعض شواهد الغلو في الإغراق .

ثالثاً : الغلو :

هو في اللغة من : غَلا بالسَّهم غُلُوًّا وغلُوًّا : أي رفع يديه لأقصى الغاية ، ورجلٌ غَلاءٌ : أي : بعيد الغلوِّ بالسهم ، والسهم : ارتفع في ذهابه ، وجاوز المدى ، وكلَّ مرماةٍ غَلوةٌ ج : غلواتٌ وغلَلاءٌ . وغلا في الأمر غُلُوًّا : جاوز حدَّه ^(٣) .

قال الراغب الأصفهاني : " الغلوُّ تجاوزُ الحدِّ ، يقال ذلك إذا كان في السَّعر : غَلاءٌ ، وإذا كان في القَدْرِ والمنزلة : غُلُوًّا ، وفي السَّهم : غَلُوًّا ، وأفعالها جميعاً غَلا يَغْلُو .

(١) أنوار الريع ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ، وانظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٢) العمدة ، ج ٢ ، ص ٦٥٣ .

(٣) القاموس المحيط ، ص ١٧٠٠ ، باب (الألف اللينة) ، فصل (الغين) ، مادة (غلا) .

قال [الله تعالى] : ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾^(١) " (٢).

وهو عند الخطيب القزويني : الممتنع عقلاً وعادةً ، وذكر منه ما هو غير مقبول ، كقول أبي نواس :

وَأَخَفْتُ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ^(٣)

وهذا خروجٌ عن المعقول والحقّ المقبول ، يُقابل هذا قول ابن أبي الإصبع وهو يعرض للغلوّ ويفسّره لغوياً ، ويفرّق بينه وبين الإغراق : " وَلَمَّا كَانَ الْخُرُوجُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ يَشْبَهُ خُرُوجَ هَذِهِ الرَّمِيَةِ عَنْ حَدِّ الْغَرَضِ الْمَعْتَادِ إِلَى غَيْرِ حَدٍّ سُمِّيَ غُلُوءًا . قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾^(٤) " (٥).

" وقد استعمل أبو نواس معنى البيت ثانياً ، فقال :

حَتَّى الَّذِي فِي الرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً لِفُؤَادٍ مِّنْ خَوْفِهِ خَفَقَانٌ^(٦)

وابن أبي الإصبع بتفسيره لمعنى الغلوّ ، وأنه خروج عن الحقّ إلى الباطل متفقٌ مع شاهد الخطيب القزويني ، وإن لم يذكر له شاهداً ؛ إلا أنه أضاف أنّ الغلوّ قد يكون حقّاً من جهة

(١) سورة النساء : الآية (١٧١) .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، تأليف : أبي القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، د.ت ، ص ٣٦٤ .

(٣) ذكر ابن عربشاه أنه " يمكن أن يُقال : يريد الشاعر : فلا تخرج من خوفك إلى ساحة الوجود ، فيتضمّن تخيلاً حسناً ، وأن يُقال : ليس من الغلوّ ؛ لأنّ المراد بقوله : (تخافك) المستقبل ، يعني : تخافك النطف التي لم تُخلق في وقت أخافتك في الاستقبال بعد وجودها ، وبلوغها سنّ التمييز ، وسماعها ما فعلت مع آبائهم " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ . إلا أنّ العقل يرفض ويمجّ هذا التخييل حتى لو كان في نظرهم حسناً ؛ لأنّه في الواقع خيالٌ فاسد .

(٤) سورة المائدة : الآية (٧٧) .

(٥) تحرير التحرير ، ص ٣٢٣ .

(٦) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

المعنى ، كالغلوّ في الدين ، فقال : " فإنه قسمان : حقّ وباطل ، فالحقّ فحص الإنسان عن دينه ، وإفراط ورعه وتحرّجه ، كقول بعضهم : إنما الزهد في الحلال ، والغلوّ : الباطل ، كقول النصارى في المسيح عليه السلام .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ دليل على أنّ من الغلوّ ما هو حقّ ، وهو ما أشرنا إليه ، وإن كان الغلوّ في الدين دين الله قد يكون في بعض الأحيان حقاً ، فالتوسّط خير منه ، كقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « خير الأمور أوسطها » ^{(١)(٢)} .

وكأنّ ذلك الشاهد في الغلوّ مردود ؛ لتعلّقه بالعقيدة وتجاوزه الحدّ إلى الخروج عنه والدخول في دائرة تقدح في تلك العقيدة وتمسّسها ، فيُعاب الشاعر ويؤتّم في دينه ؛ لأنّ بيته هذا ناتج عن عقيدة فاسدة غير سليمة .

لذا أكمل ابن أبي الإصبع ما سكت عنه الخطيب في بيان هذا النوع من الغلوّ الذي يمسّ العقيدة .

ثمّ مثل كلّ منهما على ما هو مستحسن ومقبول في الغلوّ ، فاستشهد له ابن أبي الإصبع بقول مهلهل :

فَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمَعَ مَنْ بِحَجَرٍ صَلِيلِ الْبَيْضِ تَقَرُّعُ بِالذِّكُورِ ^(٣)

قال ابن معصوم : " وهذا من الغلوّ ، فإنّه ممتنع عقلاً وعادةً ؛ لأنّه كان بين حجر وبين

(١) انظر : السنن الكبرى ، للإمام البيهقي ، دار الفكر ، د.ت ، كتاب صلاة الخوف ، باب : ما ورد من التشديد في لبس الخنز ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

(٢) تحرير التحرير ، ص ٣٢٣-٣٢٤ .

(٣) (حَجَرٌ) - بفتح الحاء - : مدينة اليمامة وأمّ قراها ، و(الْبَيْضُ) - بفتح الباء - : واحدة بيضة ، وهي الخوذة التي تُلبس على الرأس عند الحرب ، و(قَرَع) الشيء يقرعه ، ويقدع : يضربه بعصا أو سيف حتى يُسمع له صوت ، وأراد بالذكر : السيوف من أجود الحديد ، سُميت بذلك ؛ لأنّها على شكل بيضة النعام .

موضع الوقعة عشرة أيام ، ولهذا قيل فيه : إنه أكذب بيت قالتة العرب " (١) .

وقد وازن ابن أبي الإصبع بينه وبين بيت امرئ القيس السابق ، الذي ذكره في باب (الإغراق) ، وانتهى إلى " أن بيت مهلهل أقرب إلى الصدق والاستحسان من بيت امرئ القيس على شرطهم ، فإنهم شرطوا أن كل كلام تجاوز التكلم فيه حد المبالغة إلى الإغراق والغلو ، واقترن بما يقربه من الإمكان ، خرج من حد الاستقباح إلى حد الاستحسان ، وقد تقدّم في بيت مهلهل (لولا ...) ، وهي من الحروف التي زعموا أن الكلام باقترانه بها يبعد من العيب بته ، وليس في بيت امرئ القيس شيء من ذلك " (٢) .

ومثل الخطيب القزويني بقول ابن حمديس الصقلي :

وَيَكَاذُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وبقوله تعالى : ﴿ يَكَاذُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (٣) .

وهو يقابل ما استشهد به ابن أبي الإصبع في (بديع القرآن) : ﴿ يَكَاذُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (٤) ، وقد سبق التفصيل في هذا (٥) .

ومما يقرب الغلو إلى القبول : أن يتضمن تخيلاً ، قال ابن حجة : " ويجب على ناظم الغلو أن يسكنه في قوالب التخيلات الحسنة التي يدعو العقل إلى قبولها في أول وهلة " (٦) . وهذا القسم من الغلو لم يذكره ابن أبي الإصبع ، وقد ذكره الخطيب ومثّل له بقول أبي الطيب :

(١) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

(٢) انظر : تحرير التعبير ، ص ٣٢٤-٣٢٥ ، ويدخل في هذا بيت امرئ القيس الذي استشهد به في باب

(الإفراط في الصفة) ، ص ١٥٧ ، وهو من الشواهد التي تعكس حسّه الأدبي :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مَحَوَّلٌ مِّنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَرَا

(٣) سورة النور : الآية (٣٥) .

(٤) سورة النور : الآية (٤٢) .

(٥) انظر : ص ٢٥٧ .

(٦) خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عَثِيرًا لَوْ تَبَتَّغِي عَنْقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَّا^(١)

ولم يوضَّح الخطيب معنى هذا البيت إلا في كتابه (التلخيص) ؛ حيث قال : " فقد ادَّعى تراكم الغبار المرتفع من سنابك الخيل فوق رؤوسها ، بحيث صار أرضاً يمكن السير عليه ، وهذا ممتنع عقلاً وعادةً ، ولكنه تخيل حسن " ^(٢) .

قال ابن حجة : " معنى هذا البيت أنَّ (سنابك الخيل) ، وهي أطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيراً - وهو الغبار - ، حتى لو أراد أن يمشي عليه عَنْقاً لَأَمْكَنَ ، و(العَنَق) هو المشي السريع ، وانعقاد الغبار في الهواء حتى يمكن المشي عليه مستحيل عقلاً وعادةً ، إلا أنه تخيلٌ حسنٌ مقبول " ^(٣) .

وقال عصام الدين : " ادَّعى بلوغ العثير في الكثرة إلى أنه صار أرضاً يمكن سير الفرس عليه سريعاً ، وهذا ممتنع عقلاً ، لكنه تخيلٌ حسنٌ " ^(٤) .

وكان للسبكي تعليق على هذه الشواهد الثلاث التي ذكرها الخطيب ، فقال : " وفي جميع هذه الأمثلة وكونها من المستحيل عقلاً ، نظر ؛ إذ العقل لا يمنع أن يضيء الزيت ، وأن يخرج الفرس عن ظله ، وأن تعقد حوافر الخيل غباراً ويتكاثف حتى يمكن السير عليه ، ولا استحالة في انعقاد الغبار " ^(٥) .

(١) (السنابك) : جمع سنبك ، وهو طرف الحافر ، و(العثير) : الغبار ، و(العَنَق) : السير السريع للإبل والدابة .

(٢) انظر : التلخيص ، ص ١٨٨ ، وهذا يؤكد أنَّ في (التلخيص) إيضاحاً وفي (الإيضاح) تلخيصاً .

(٣) خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٥١ . وكان هذا الشاهد موضع اعتراض عند ابن معصوم ؛ إذ قال : " وقول أبي الطيب المذكور مما قرب إلى الصحة بـ(لو) ، حيث قال : (لو تبَتَّغِي عَنْقاً عليه لَأَمْكَنَّا) ، وهو محل الشاهد ، فإن صدره لا غلو فيه البتة ، فكيف يُقال إنه من الغلو بغير أداة التقريب " ؟! انظر : أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ ، وكان يقصد بذلك الخطيب القزويني وابن حجة .

(٤) الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٥) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٦١ .

ويمكن أن يُعدَّ لاعتراضه هذا وجهاً من الصحة فيما يتعلق بالآية القرآنية فقط ؛ لأنَّ المستحيل في عقول البشر ليس مستحيلاً على الله سبحانه ؛ إذ يمكن للزيت أن يُضيء .

وهذا التخيل الحسن الذي يجعل من الغلو مقبولاً عند الخطيب القزويني يقابل بيت امرئ القيس الذي استشهد به ابن أبي الإصبع ، وهو :

وَقَدْ تَوَرَّتْهَا مِنْ أَذْرُعَاتٍ وَأَهْلُهَا يَشْرَبُ أَذْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِي

فهذا تخيلٌ حسن ؛ إذ لم يقترن به ما يقربه إلى الصحة ، لكنّه لا يُغيّر من أنَّ معنى كلمة (تَوَرَّتْهَا) هنا : (تبصّرتها) ، لا (تخيّلتها) ، فالخيال متعلّق بجملة البيت لا بالكلمة المفردة ، لذا ذكر ابن أبي الإصبع أنَّ بيت امرئ القيس يدخل في باب الاستحالة ، مع خلوه مما يقربه من الإمكان^(١).

وليس من شيءٍ أدخله في باب الاستحالة أو الغلو سوى هذا التخيل في جملة البيت .

ومن الشواهد التي تفرّد بذكرها الخطيب ، هو قول الأرجاني :

يُخَيِّلُ لِي أَنَّ سُمْرَ الشُّهْبِ فِي الدُّجَى وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِمْ أَجْفَانِي^(٢)

لأنّه ذكر أن القاضي الأرجاني قد جمع بين الإدخال والتخييل في بيته هذا ، مما زاده قبولاً وهو يصف الليلَ بالطول^(٣) ، إلا أنّه لم يُشر إلى موضع كُلِّ منهما ، واكتفى بما ذكره في التلخيص ؛ إذ قال محلاً له : " فقد أراد أن يصف الليلَ بالطول ، فقال : يُخَيِّلُ لِي أَنَّ الشُّهْبَ مُحْكَمَةً بِالمسامير في الظلام ، لا تنتقل من مكانها ، وأنَّ أجفان عيني قد شُدَّتْ بأهدابها إلى الشُّهْبِ ؛ لطول سهري في هذا الليل . فهذا تخيلٌ حسن ، وزاده لفظ (يُخَيِّلُ)

(١) انظر : تحرير التعبير ، ص ٣٢٥ .

(٢) (سُمْرٌ) : أي : مُحْكَمَةً بالمسامير لا نزول عن مكانها ، (الدُّجَى) : جمع دُجِية ، وهي الظلمة ، (الأهداب) : جمع هذب ، وهو شعر أشفار العين .

(٣) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

حُسْنًا" ^(١)، وكان بيت أبي الطيب السابق قد اجتمع فيه هذا أيضاً ، لكنّ القزويني لم يذكره سوى في التلخيص فقط ^(٢).

قال ابن معصوم : " فقلوه : (يُخَيَّل) هي أداة التقريب ، فإنه جعل المدعى توهمًا لا حقيقة ، وأما حُسن التَّخْيِيل فهو ما ادَّعاه من أنه لطول ليله وشدة سهره يوقع في خياله أن الشهب محكمة بالمسامير لا تزول عن مكانها ، وشُدَّت أجفانه إليها بأهدابه ؛ لعدم انطباقها والتقاءها ، فجعل الأهداب بمنزلة الحبال ، ولا خفاء بما في هذا التخييل من الحُسن " ^(٣).

والاستشهاد بشاهد اجتمع فيه أمران يزيدانه قبولاً لم يذكره ابن أبي الإصبع ، بل إنّ الخطيب القزويني ذكر أيضاً أمراً ثالثاً يمكن أن يقرب الغلو من القبول والإمكان ، وهو ما لم يذكره ابن أبي الإصبع كذلك . وهو أن يخرج الغلو مخرج الهزل والخلاعة ، كقول الشاعر :

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الْـ شُرْبِ غَدًا إِنْ ذَا مِنَ الْعَجَبِ ^(٤)

ووضّح المعنى ابن معصوم ، وقال : " فَإِنَّ السُّكْرَ فِي الْأَمْسِ لِلْعَزْمِ عَلَى الشُّرْبِ فِي الْغَدِ مُحَالٌ ، لَكِنَّهُ مَقْبُولٌ ؛ لِإِخْرَاجِهِ مَخْرَجَ الْهَزْلِ وَالْخَلَاعَةِ " ^(٥).

(١) التلخيص ، ص ١٨٨ .

(٢) انظر : التلخيص ، ص ٤٩ .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ . وقد اعترض السبكي على قول الخطيب أنّ لفظة : (يُخَيَّل لي) تقرّبه إلى الصحة ، فقال : " وفيه نظر ؛ لأنها تجعله صحيحاً ؛ لأنّ قوله : (يُخَيَّل لي) ممكن بأن يكون خيالاً فاسداً ، وفيه تخييل بليغ ، وهو تسمير الشَّهْب في الدَّجَى " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٦١ .

(٤) ذكر ابن معصوم أنّ هذا البيت لأبي الشكر محمود بن سليمان بن سعيد الوصلي ، المعروف بابن المحتسب . وقبل هذا البيت قوله :

أمرٌ بالكرم خلف حائطه تأخذني نشوة من الطَّربِ

انظر : أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ . واعتبره ابن حجة من الغلو الغير مقبول ، وهو من جنس بيت أبي نواس : وَأَخَفَّتْ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ الْيَ لَمْ تُخْلَقِ

انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٥٢ . إلا أنّ ابن معصوم ذكر أنّه لا عبرة بقوله هذا ، والمنصوص عليه هو ما ذكره الخطيب في كتابه ، وتبعه غيره من المحققين . انظر : أنوار الربيع ، ج ٤ ، ص ٢٤١ .

المبحث الخامس : التورية :

"ومن البديع ما هو نادر الوقوع ، ملحقٌ بالمستحيل المنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام ، فإنه نوعٌ تقف الأفهامُ حسرى^(١) دون غايته من مرامي المرام .

نَوْعٌ يَشُقُّ عَلَى الْغَبِيِّ وَجُودُهُ مِنْ أَيْ بَابٍ جَاءَ يَغْدُو مُقْفَلًا

لا يفرع هضبته^(٢) فارع ، ولا يقرع بابه قارع ، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب ، ويجري ريجها بأمره رُخاءً حيثُ أصاب^(٣) .

هذا ما جاء في ديباجة كتاب صلاح الدين الصفدي المسمى بـ (فض الختام عن التورية والاستخدام) .

وهذا ولوعٌ ظاهر بالتورية في محلّه ؛ لمزية اختصّ بها هذا اللون البديعي يُشار إليها لاحقاً .

جاء معنى هذا اللون في اللغة من (ورّيتُ) الحديث (تورية) ، أي : سترته وأظهرتُ غيره ، وقال أبو عبيد : لا أراه إلا مأخوذاً من وراء الإنسان ، فإذا قال : (ورّيته) فكأنه جعله وراءه حيث لا يظهر ، و(واراه مُواراةً) : ستره ، و(توارى) : استخفى^(٤) .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾^(٥) ، وقال سبحانه : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾^(٦) .

(١) (حسرى) : واقعة في حسرة .

(٢) (يفرع هضبته) : يصعد ويرتقي .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٥ ، ٦ . وجاء أيضاً هذا النصّ في خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٦ .

(٤) انظر : المصباح المنير ، ص ٦٥٦-٦٥٧ كتاب (الواو) ، مادة (ورى) ، وجاء في القاموس المحيط ،

ص ١٧٣٠ ، باب (الألف) ، فصل (الواو) : ووراه تورية : أخفاه كواراه ، وورّى الخير : جعله وراءه ،

وورّى عن كذا : أراه ، وأظهر غيره ، وتوارى : استتر .

(٥) سورة الأعراف : الآية (٢٦) .

(٦) سورة ص : الآية (٣٢) .

وروي أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرًا ورى بغيره^(١)، أي ستره وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره .

ونقل الراغب الأصفهاني^(٢) عن الخليل : " أن الورى الأنام الذين على وجه الأرض في الوقت ، ليس من مضى ولا من يتناسل بعدهم ، فكأنهم الذين يسترّون الأرض بأشخاصهم "^(٣) .

وللتورية أسماءٌ أخر ، كالإيهام والتوجيه عند بعضهم ، والتخييل ، إلا أن التورية أولى في التسمية ؛ لقربها من مطابقة المسمى كما ذكر ابن حجة الحموي وابن معصوم المدني ؛ لأنها مصدر (وريتُ الخبر تورية) : إذا سترته وأظهرت غيره ، كأن التكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر^(٤) .

" كما جاء في النهاية لابن الأثير : أنه لقيهما - أي النبي ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ - في الحجره رجل بكراع الغميم ، فقال : من أنتم ؟ فقال أبو بكر : باغ وهادٍ . عرض ببغاء الإبل ، أي طلبها ، وهداية الطريق ، وهو يريد الطلب ، والهداية من الضلال "^(٥) .

وهذا من التورية ، إذ توهم الرجل لأول وهلة أن الرجلين أحدهما طالبٌ للإبل ، والآخر هادٍ له يدلّه على الطريق ، وهذا هو المعنى القريب المتبادر ، أما البعيد الخفي فهو أن أبا بكر طالبٌ للهداية والرشاد ، والنبي عليه الصلاة والسلام هو الهادي .

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب : من أراد غزوة فورى بغيرها ومن أحب الخروج يوم الخميس ، حديث رقم : (٢٩٤٧) و(٢٩٤٨) ، ص ٥٢٩ ، وانظر أيضاً : كتاب المغازي ، باب : حديث كعب بن مالك ، وقول الله ﷻ : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾ [سورة التوبة : الآية ١١٨] ، حديث رقم : (٤٤١٨) ، ص ٧٩٩ .

(٢) هو أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل ، المعروف بالراغب الأصفهاني ، أحد أئمة أهل السنة ، له آثار أدبية ، منها : محاضرات الأدباء ، المفردات في غريب القرآن .. وغيرها . توفي سنة (٥٠٢هـ) . انظر : مقدّمة تحقيق كتابه المفردات في غريب القرآن ، ص ٣ .

(٣) انظر : المفردات في غريب القرآن ، ص ٥٢٠ . وهذا يؤكد أن الكلمة بعمومها وخصوصها تدور حول الخفاء والستر .

(٤) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ، وأنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٥) أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٦ . ولم أعثر على نصّ هذا الأثر فيما توفّر لديّ من مصادر .

نشأة التورية :

إنَّ أول وقعٍ لأيِّ لونٍ بديعي في شعر العرب إنما هو وقعٌ عن بديهة وارتجال ، وسيلٌ عن عفو خاطرٍ بلا كدٍّ واعتماد ... وكذلك التورية .

يكشف عن هذا ابن حجة في قوله : " وكانت خواطر المتقدمين عن (نظم) التورية معزلة ، وأفكارهم مع صحتها ما خيَّمت عليها بمنزل ، لكنها ربما وقعت لهم عفواً من غير قصد ؛ لأنهم على كلِّ حالٍ وُلاة هذا الشأن ، وأدلة هذا الركب " (١) .

وما وقع عفواً كان عذبا ، كقول عمرو بن كلثوم في معلقته عن الخمرة :

مُشْعَشَعَةٌ كَأَنَّ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا (٢)

فالتورية في (سخينا) ، حيث يحتمل السخاء الذي هو عبارة عن الكرم ، ويحتمل السخونة ، فإنَّ العرب كانوا يسخنون الماء في الشتاء ؛ لشدة برده ، ثم يمزجونها . ف(سخينا) على هذا التقدير نعت لموصوف محذوف (٣) .

وذكر ابن رشيق أنَّ التورية في أشعار العرب ، فإنما هي كناية : بشجرة ، أو شاة ، أو بيضة ، أو ناقة ، أو مِهْرة ، أو ما شاكل ذلك ..

كقول المسيب بن علس :

دَعَا شَجَرُ الْأَرْضِ دَاعِيَهُمْ لِيَنْصُرَهُ السِّدْرُ وَالْأَثَابُ (٤)

فكنى بالشجر عن الناس . وهم يقولون في الكلام المنشور : جاء فلان

(١) خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

(٢) (الحصّ) : هو الزعفران على أحد الأقوال ، وهو الذي شبه صفرتها به .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٤) (السدر) : شجر النبق ، واحدها : سدر ، وهو من العضاء ذو شوك ، ورقه عريض ، (الأثاب) : شجرٌ واحدٌ الأثابة .

بالشوك والشجر : إذا جاء بجيشٍ عظيم^(١) .

فالتورية عند ابن رشيق نوعٌ من أنواع الإشارة ، وهي عنده إنما هي كناية عما أشار إليه ؛ لكن ما يقصده هو معناها اللغوي ، وإلا فإنّها ليست كذلك في أشعار العرب كما تقدّم في شعر المتقدمين ، وهم وإن كانت خواطرهم بها صحيحة ، وأفكارهم لا تقصد مطابقتها ، وإن كانت سليمة صحيحة كما ذكر ابن حجة ، إلا أنّها وقعت في شعرهم بغير معناها الذي ذكره ابن رشيق ، بل بصورة أحلى وأجود ، لكن كما يقال : لم يتنبّه لمحاسنها إلا المتأخرون ، بل " قيل إنّ أول مَنْ كشف غطاءها وجلا ظلمة أشكالها : أبو الطيب المتنبي بقوله :

بِرْغَمِ شَيْبٍ فَارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ وَكَانَا عَلَى الْعِلَاتِ يَصْطَحِبَانِ
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِيٌّ^(٢)

" ولكن التحقيق يُظهر أنّ شعراء البديع في العصر العباسي الأول والثاني من أمثال أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحرّي قد سبقوه إليها "^(٣) .

وبصرف النظر عن أوّل مَنْ التفت إليها ، فإنّ التورية أخذت منحىً آخر بعد عصر المتنبي ؛ إذ مرّ بالأدب عامّة وبالشعر خاصة مرحلة ضعف وفتور وركود ، فتكلّفها الشعراء ، وزاد اهتمامهم بها لغير مقصد ولا غاية ، وتوسّعوا في استعمالها إلى ما لا نهاية ، حتى مجّ الذوق شعرهم ؛ لسماحته وثقله وخوائه .

والحقيقة " أنّ تلك العصور كانت عاجزة عن أن تنفح الأدب بجديد ، سواء أكان ذلك

(١) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٣٠ .

(٢) يريد أن كفّ شبيب وسيفه متنافران ، فلا يجتمعان ؛ لأنّ شبيباً كان قيسياً ، والسيف يقال له (يماني) ، فورى به عن الرّجل المنسوب إلى (اليمن) ، ومعلوم ما بين قيس ويمن من تنافر . انظر : خزانة الأدب ،

ج ٣ ، ص ١٨٧-١٨٨ .

(٣) علم البديع ، ص ١٣٣ .

في الأغراض أم في المعاني أم في الأساليب والقوالب الفنية^(١). وجاءت التورية عند شعرائهم من أهم الألوان البديعية التي شغفوا بها ، وكانوا يعتقدون أنهم السابقون لاجتلاء محاسنها ، وما هو إلا فقر في المعاني ، وجذب في الخيال ، واعتياد للتقليد ، وانتحال لمعاني الشعر^(٢). كبعض ما جاء عند القاضي الفاضل^(٣) ومن تبعه وجاراه في عصره وبعد عصره من شعراء مصر والشام ، كابن سناء الملك ، وأبي الحسن الجزار ، والنصير الحمّامي ، والسراج الوراق .. وغيرهم ، كما ذكر ابن حجة^(٤).

حتى إنه قيل لهذا الأخير : " لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك .

فمن ذلك قوله :

شِعْرِي مُذْ رَمَدْتُ قَدْ حَبَسْتُ طَرَفِي عَنْكُمْ فَصِرْتُ مَحْبُوسًا
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ زَادَنِي شَرْفًا كُنْتُ سِرَاجًا فَصِرْتُ فَأُوسًا^(٥)

وقول القاضي الفاضل :

أَمَّا الثُّرَيَّا فَنَعْلٌ تَحْتَ أَخْمَصِهِ وَكُلُّ قَافِيَةٍ قَالَتْ لِذَلِكَ : طَا^(٦)

وقول جمال الدين بن نباتة :

(١) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، د. جودت الركابي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٩ م ، د. ط ، ص ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، ١٥١ ، بتصريف .

(٣) هو العلامة ، صاحب الطريقة أبو طالب محمود بن علي بن أبي طالب التميمي الأصبهاني ، الشافعي ، تخرّج به أئمة ، وكان آية في الوعظ ، صاحب فنون ، مات في شوال سنة (٥٨٥هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، ص ٢٢٧ .

(٤) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٩٨ .

(٥) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٨ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٤ .

مَالِي عَلَى هَجْرِكَ مِنْ طَاقَةٍ فَهَلْ إِلَى وَصْلِكَ مِنْ بَابٍ^(١)

وليس من شك في أن هذه نماذج للتكلف والتعقّد الظاهر المجوج الذي ينطبق عليه قول القائل :

وَمَا مِثْلُهُ إِلَّا كَفَارِغٍ جَمَّصٍ خَلِيٍّ مِنَ الْمَعْنَى وَلَكِنْ يُفَرِّقُ^(٢)

ولا ينبغي التسليم مطلقاً بقول ابن حجة أن أبا العلاء المعري كان يأتي بالتورية على عقادة وتكلف ؛ لأنّ هذا قد يصحّ على بعض ما جاء في شعره من تورية ، كقوله :

وَحَرْفٍ كَنُونٍ تَحْتَ رَاءٍ وَلَمْ يَكُنْ بِدَالٍ يَوْمَ الرَّسْمِ غَيْرُهُ النَّقْطُ

لكن هذا ليس نهجاً مطرداً في شعره ، فقد تجد فيه التورية المقبولة المؤدية للغرض المقصود^(٣) ، كقوله :

صَلَبُ الْعَصَا بِالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا يَوَدُّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْنَاهَا
إِذَا أَرَادَتْ رَشْدًا أَغْوَاهَا محاله مِنْ رِقِّهِ إِيَّاهَا^(٤)

وحول النشأة العلمية للتورية ، وجدت عند التتبع أن هذا المصطلح لم يرد عند كثير من البلاغيين ، كابن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، والرماني ، والباقلاني ، وابن سنان .. لكن

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ . رغم ما لجمال الدين من أبيات مطبوعة كما سيأتي .

(٢) ورد هذا البيت في خزنة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٥ .

(٣) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١٠ ، بتصرف يسير .

(٤) فالضرب يُطلق على معنيين : الضرب بالعصا ، والضرب في الأرض ، وهو المسير فيها ، وكذلك (دمّاه) ؛ إذا أسال دمه ، أو جعله كالدمية ، وهي الصورة . وهكذا لفظ الفناء ، فإنه يُطلق على غيب الثعلب وعلى إذهاب الشيء إذا لم يبق منه بقية ، ويقال : أفناه ؛ إذا أذهب ، أو أطعمه الفناء ، وهو غيب الثعلب ، والرشد والغوى : نبتان ، يقال : أغواه ؛ إذا أضلّه ، وأغواه ؛ إذا أطعمه الغوى ، ويقال : طلب رشداً ؛ إذا طلب ذلك النبت ، وطلب رشداً ؛ إذا طلب الهداية . انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

جاءت بعض شواهد عند أبي هلال العسكري في باب (المماثلة) . وورد معناها اللغوي في باب (الكناية) ؛ إذ قال : " وهو أن تكنّي عن الشيء وتعرض به ولا تصرّح ، على حسب ما عملوا في اللحن ، والتورية عن الشيء " ^(١) .

وكذلك جاءت عند ابن رشيق كما مرّ نوعٌ من أنواع الإشارة ، ومثّل عليها بقول عُليّة بنت المهدي في (طلّ) الخادم :

أَيَا سَرَحَةَ الْبُسْتَانِ طَالَ تَشَوُّقِي فَهَلْ لِي إِلَى ظِلِّ إِلَيْكَ سَبِيلُ
مَتَى يَشْتَقِي مَنْ لَيْسَ يُرْجَى خُرُوجُهُ وَلَيْسَ لِمَنْ يَهْوَى إِلَيْهِ دُخُولُ ^(٢)
فقال : " فَوَرَّتْ بِظِلِّ عَنْ طَلِّ " ^(٣) .

وما قصدت الشاعرة هنا إلا السّتر والخفاء الذي عناه ابن رشيق ، وهو المعنى اللغوي للتورية .

وذكر الدكتور أحمد مطلوب أنّ الجاحظ أشار إلى التورية من قبل ، وأراد بها التغطية واستعمال الحيلة ^(٤) .

أما الزمخشري فقد تحدّث عنها وذكر أنها من أدقّ أبواب البيان والطفها ، ومثّل عليها بقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ^{(٥)(٦)} .

ولعلّ أسامة بن منقذ كان أقرب في تعريفه للتورية إلى المعنى الاصطلاحي لها ؛ إذ قال :

(١) الصناعتين ، ص ٣٨١ ، وانظر : ص ٣٦٤ ، باب (المماثلة) .

(٢) (السّرحة) : شجرة من العضاء لا شوك لها ، ومنبتها السهل ، يستظلّون بها . وفي البيت تصحيف من الشاعرة لاسم الخادم ، فهو أقرب إلى الجناس منه إلى التورية .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(٤) انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٤٣٤ ، (نقلاً عن : الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ ، ٢٨٠) .

(٥) سورة طه : الآية (٥) .

(٦) راجع كلام ابن حجة في ذلك : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٦ . وسيأتي التعليق على هذا النقل .

" اعلم أنّ التورية هي أن تكون الكلمة بمعنيين ، فتريد أحدهما ، فتورّي عنه بالآخر " ^(١).

ومثّل عليه بقول البحّري :

ووراءَ تَسْدِيَةِ الوُشَاحِ مِلْيَةٌ بِالْحُسْنِ تَمْلُحُ فِي الْقُلُوبِ وَتَعْذِبُ ^(٢)

وقال : " أراد الملاحه ولم يرد الملوحة ، فورّي بقوله : (وتعذب) عن ذلك " ^(٣).

ومثله أيضاً في هذا الاقتراب من المفهوم الاصطلاحي لها قول ابن أبي الإصبع ، وهو " أن تكون الكلمة تحتل معنيين ، ويستعمل المتكلّم أحد احتماليها ويُهمل الآخر ، ومُرادُه ما أهمله لا ما استعمله " ^(٤).

وسمّاها التوجيه ، غير أنه لم يذكر نوعاً من أنواعها ولا قسماً من أقسامها ، مع أنّ كتابه ما وضع له نظير في هذا الفنّ كما ذكر ابن حجة ^(٥).

أما العلوي فقال في أوّل الحديث عن التورية : " اعلم أنّ هذا الاسم عبارة عن كلّ ما يُفهم منه معنى لا يدلّ عليه ظاهر لفظه ، ويكون مفهوماً عند اللفظ به ... وهذا نحو الكناية والتعريض ، والمغالطة والأحاجي والألغاز ، فهذه الأمور كلّها مشتركة في كونها دالة على أمورٍ بظواهرها ، ويُفهم عند ذِكْرِها أمورٌ أُخر غير ما تُعطيهِ بظواهرها " ^(٦).

فظاهر كلامه أنّه خلط وإدخالاً لها في الكناية والتعريض والمغالطة والأحاجي والألغاز

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ٦٠ .

(٢) (السدى) من الثوب : ما مُدّ منه ، و(السُدّة) - بالضمّ - في كلام العرب : الفناء لبيت الشعر وما أشبهه ، وقيل : (السُدّة) كالصُفّة أو كالسقيفة فوق باب الدار . (الوشاح) - بالضمّ والكسر - : أديمٌ عريض يُرصّع بالجوهر ، تشدّه المرأة بين عاتقها وكشحيها ، (مليّة) : مُتمتعة .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٤) بديع القرآن ، ص ١٠٢ .

(٥) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

(٦) الطراز ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

كما فهم الدكتور أحمد مطلوب^(١)، إلا أنه بالنظر إلى الكناية وشواهدا عنده وما فرق به بينها وبين التعريض يُلاحظ أنه لم يُدخل التورية معهما ، إنما قصد أنها تشترك جميعها فيما اشتركت فيه ، لكنه أدخل التورية في المغالطة والألغاز فقط ، إلا أن بين الثلاثة فرقاً تظهره شواهد ، وهو بهذا يكون واقعاً فيما وقع فيه ابن الأثير قبله ، وعندما عدّ التورية من المغالطات المعنوية ، وقال في أول الباب : " وهذا النوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه ؛ لما فيه من التورية .

وحقيقته : أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض ، والنقيض أحسن موقعاً ، وألطف مأخذاً " ^(٢).

ومثل من الأول بقول أبي الطيب :

يَشْلَهُمْ بِكُلِّ أَقْبَ نَهْدٍ	لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ ^(٣)
وَكُلِّ أَصَمٍّ يَعْسِلُ جَانِبَاهُ	عَلَى الْكُعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مُمَارُ ^(٤)
يُغَادِرُ كُلَّ مُلْتَقٍ إِلَيْهِ	وَلَبَّثَهُ لثَعْلِبُهُ وَجَارُ ^(٥)

وقال : " فالثعلب : هو هذا الحيوان المعروف ، والوجار : اسم بيته ، والثعلب أيضاً هو طرف سنان الرمح ، فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار في طرف السنان ، وهذا نقل المعنى من مثل إلى مثله " ^(٦).

(١) انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٤٣٥ .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣) (يشلهم) : يطردهم ، (الأقْبَ) : الضامر البطن ، و(النهد) : العالي المرتفع .

(٤) (الأصم) : الشديد الذي ليس بأجوف ، (يعسيل) : يضطرب ، و(الكعبان) : اللذان في عامل الرمح ، وهما يغييان في المطعون ، و(الممار) : السائل الجاري .

(٥) (الثعلب) : الحيوان المعروف ، (الوجار) : اسم بيته كما فسّره ابن الأثير .

(٦) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

وهذا الذي ذكره ابن الأثير ينطبق على ما خصّ باسم التورية^(١).

ولم توضع التورية في قالبٍ علميٍّ محدّدٍ إلا عند السكاكي والخطيب^(٢)، والحقّ أنّ تعريفها عند الخطيب كان بشكلٍ أدقّ وأوضح مما هي عند السكاكي ؛ إذ قال : " ومنه التورية ، وتُسمّى الإيهام أيضاً ، وهي أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما "^(٣).

وقسمها إلى ضريين ، هما : المجردة والمرشحة .

فالمجرّدة : هي التي لا تجمّع شيئاً مما يُلائم المورّى به - وعنّى به القريب - ، كقوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٤).

والمرشحة : هي التي قرن بها ما يُلائم المورّى به إما قبلها ، كقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾^(٥) ، أي بقوة .

وإما بعدها : كلفظ (الغزاة) في قول القاضي الإمام أبي الفضل عياض في صيفيّة باردة :

كَأَنَّ كَانُونَ أَهْدَى مِنْ مَلَابِسِهِ	لَشَهْرٍ تَمُوزَ أَنْوَاعاً مِنَ الْحَلَلِ
أَوِ الْغَزَاةِ مِنْ طُولِ الْمَدَى خَرِفَتْ	فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجَدْيِ وَالْحَمَلِ ^(٦)

(١) انظر : الصبغ البديعي ، ص ٢٧١ .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١١ ، بتصرّف يسير . ويمكن القول : إنّها كذلك عند فخر الدين الرازي قبلهما رغم أنّه سماها بالإيهام ، فقال : " أن يكون للفظٍ معنيان : أحدهما قريب ، والآخر بعيد ، فالسامع يسبق فهمه إلى القريب ، مع أنّ المراد هو ذلك البعيد " . انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٩١ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٤) سورة طه : الآية (٥) .

(٥) سورة الذاريات : الآية (٤٧) .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦ . وسيأتي توضيح هذين القسمين عند التعرّض للموازنة بينه وبين ابن أبي الإصبع .

وتبعه في هذا التعريف والتقسيم شراح التلخيص .

ويُضيف عادةً اللاحقَ على السابق ، كابن حجة والسيوطي وابن معصوم المدني ، فقد أضاف ابن حجة فائدة عدّها مسك الختام في حديثه عن التورية ، وهي : " أنّ التورية إذا جاءت بلازمين فتكافآ ولم يترجّح أحدهما على الآخر ، فكأنّهما لم يُذكرا ، وصار المعنى القريب والمعنى البعيد بذلك في درجة واحدة ، وتلحق هذه التورية بالمجرّدة ^(١) .

وليس هناك من دراسة مكتملة محدّدة للتورية في مدرسة المتأخرين كما هي عند السيوطي الذي بسط فيها القول ، واستوفى أقسامها ونوع من شواهدا ^(٢) .

أما ابن معصوم فقد ذكر تنبيهين في التورية ، أولهما : الفرق بين اللفظ الذي تنهياً به التورية ، واللفظ الذي تترشح به .

ثانيهما : أنه ليس كلّ لفظ مشترك يتصوّر فيه التورية ^(٣) .

وأضاف هو وابن حجة قسمين آخرين إلى التورية ، هما : التورية المبينة ، والتورية المهيأة ^(٤) .

(١) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٤٥ ، وقد استشهد على ذلك بقول البحري الذي ذكره أسامة بن منقذ ، وبقول جمال الدين بن نباتة :

حَمَلْتُ خَاتَمَ فِيهِ فَصًّا أَزْرَقًا مِنْ كَثْرَةِ اللَّثَمِ الَّذِي لَمْ أَحْصِهِ
لَوْلَاهُ مَا عَلِمَ الرَّقِيبُ فَيَالَهُ مِنْ خَاتَمٍ نَقَلَ الْحَدِيثَ بِفَصِّهِ

فالتورية في لفظة (فصّه) يحتمل أن يكون فصّ الخاتم ، وهذا هو المعنى القريب ، ولازمه (خاتم فيه فصّاً أزرقاً) ، ويحتمل أن يكون تفاصيل الحديث ودقائقه ، ولازمه (نقل الحديث) ، وهذا هو المعنى البعيد .
(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١١ ، بتصرف يسير . وراجع الإتقان ، ص ٦٤٦ . وقد وجدت عند ابن حجة وابن معصوم ما هو أوسع مما عنده .

(٣) انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ١٤ . وسيأتي بيان هذا .

(٤) انظر تفصيل هذين النوعين الإضافيين في : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ ، ٥٤١ ، وأنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وستأتي الإشارة إليها لاحقاً أثناء الموازنة .

المزية البلاغية للتورية :

لم يكن خافياً على البلاغيين فضل التورية وحسنها في الكلام ، وأثرها على النفوس ، وإلا لما وقعت في القرآن الكريم كأحسن ما تكون ، وكأبدع صورة يتكشف من خلفها معنى خفي مكنون .

فذا فخر الدين الرازي يجعلها وجهاً من أوجه النظم^(١) الذي أطبق العلماء على تعظيم شأنه وتفخيم قدره ، وأنه لو بلغ الكلام في غرابة معناه ما بلغ فإنه لا فضل له مع عدمه كما ذكر عبد القاهر الجرجاني^(٢) .

" وما كان بهذا المحل من الشرف ، كان حرى بأن توقظ له الهمم ، وتوكل به النفوس ، وتحرك له الأفكار ، وتستخدم فيه الخواطر "^(٣) .

وعدها السيوطي هي والاستخدام من أشرف أنواع البديع^(٤) .

ونقل عن العلامة الزمخشري قوله : " لا ترى باباً في البيان أدق ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله "^(٥) .

وتنبه لمحاسنها حدائق الشعر وأعيان الكتاب كما أشار ابن حجة ، وهؤلاء نظروا إليها

(١) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٧٧ ، ٢٩١ .

(٢) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٤) انظر : الإتقان ، ص ٦٤٨ .

(٥) ورد هذا النقل في الإتقان ، ص ٦٤٦ . وفي خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ، وفي أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٥ .

ويظهر أن هذا تحريف في اتجاه الزمخشري ؛ لأنه لم يقل بالتورية في سياق هذه العبارة كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد شادي في كتابه (من وجوه تحسين الأساليب) ، ص ١١٩ ، وإنما قاله مريداً به طريقه من التخييل والتصوير . وانظر : الكشف ، ص ٩٤٧ ، وستجد أن ما نقل عنه غير مقصود به التورية . ونصّه : " لا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً ... " . انظر : ص ٩٤٧ .

على أنها من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة^(١)، لكن هل قيمة التورية محصورة في خفاء المعنى المراد ثم كدّ النفس في فهمه ، فالاستئناس به فقط من بعد ذلك ؟!

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾^(٢) ، وانظر ما فيه من تورية قيّمة موجّهة لما يقتضيه السياق ، وهو التهديد والتوبيخ ، ولهذا أُوثر (يتوفّاكم) على (يُنيمكم) ونحوه ، و (جرحتم) على (كسبتم) إدخالاً للمخاطبين الكفرة في جنس جوارح الطير والسباع ، وتخصيص التوفي بالليل والجرح بالنهار ؛ للجرى على السنن المعتاد ، وإلا فقد يُعكس^(٣) ؛ إذ المعنى القريب للفظ التورية (جرحتم) هو إحداث أثر في الجلد ، وهو ما يُسمّى بالجرح^(٤) ، والمعنى البعيد الخفي المراد هو : اكتساب الآثام واقترافها ، والغرض هو إدخال المخاطبين الكفرة المنسذلين كالجيف في الليل - كما ذكر الزمخشري في تفسيره^(٥) - إدخالهم في جنس الجوارح ، وتسمّى كذلك إما لأنها تجرح ، وإما لأنها تكسب ، كما ذكر الراغب الأصفهاني^(٦) ، وهو تصوير لبشاعة ما يرتكبونه من ذنوب وآثام لآءٍ ما اقتضاه السياق من التهديد والتوبيخ .

فمثل هذه التورية تؤثر في النفوس وتحركها وتثيرها لا لتبحث عن لغز أو أحجية ، إنما لتتعظ وتستشعر ، ولتتدبّر وتعمل . وهي تورية ليست لمجرد لطف المعنى وخفائه ، إنما لغاية عظمى تدور في فلكها معانٍ استدعاها مقام سياق الآية الكريمة من التهديد والتوبيخ ، وإدخال الكفرة في جنس الجوارح ، وتصوير بشاعة آثامهم ليتعظ غيرهم بعد تأمل حالهم .

(١) انظر : خزنة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٥ .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٦٠) .

(٣) روح المعاني ، ج ٧-٨ ، ص ٢٢٥ .

(٤) انظر : مفردات غريب القرآن ، كتاب (الجيم) ، ص ٩٠ ، وجاء فيه أنّ الاجترّاح : اكتساب الإثم ،

وأصله من الجراحة ، كما أنّ الاقتراف من قرَفَ القرّحة . قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

السَّيِّئَاتِ ﴾ [سورة الجاثية : الآية ٢١] .

(٥) انظر : الكشف ، ص ٣٣١ .

(٦) راجع مفردات غريب القرآن ، ص ٩٠ .

وهي إنما تحسُن " إذا كان الغرض تصوير ذلك المعنى البعيد بالمعنى الظاهر " (١).

وخذ مثلاً هذه التورية اللطيفة التي جاءت على لسان أبلغ الناس وأفصحهم لساناً وأنطقهم بياناً ؛ رسول الله ﷺ : " يُروى في الأخبار الواردة في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدرأ ، فلقاهم رجلٌ من العرب ، فقال : ممن القوم ؟. فقال النبي ﷺ : « من ماء » ، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول : من ماء ، من ماء ؛ لينظر أي بطون العرب يُقال لها ماء . فسار النبي ﷺ لوجهته وكان قصده أن يكتُم أمره " (٢).

فرغم أن التورية ثمرة من ثمار اللفظ المشترك ، ونتيجة من نتائج شيوعه في اللغة (٣) ، إنما ليست هي هنا لجرد التلاعب باللفظ ، فتكون التورية حليلة لفظية ومقصودة لذاتها ، لكن " تمكن المتكلم من أن يخفي المعاني التي يخشى التصريح بها فيورى عنها بمعانٍ تفهم من لفظ التورية ، وبهذا يدفع المحذور مع الصدق " (٤).

وبهذا الخفاء المقصود لغاية انصرف الرجل الذي قد يكون عيناً لقريش ، وتحقق للنبي ﷺ السير لوجهته التي يريد مبرئاً من الكذب .

ولا يُحرز قصبات سبق التورية بعد بلاغتها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة غير شاعرٍ فحلٍ أوتي قدرة على الاتساع في الكلام والتفنن فيه ، واقتدر على المعاني وتمكّن منها ؛ لأنّ التورية " بلاغة عجيبة تدلّ على بُعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرّز ، والحاذق الماهر " (٥).

خذ مثلاً قول جمال الدين بن نباتة فيمن أهدى له تمرّاً رديئاً غالبه نوى :

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٩١ .

(٢) المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ . ولم أعثر على هذا الأثر عن النبي ﷺ فيما توفّر لديّ من مصادر .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٠٩ ؛ إذ يمكن أن يطلق ماء على أحد بطون العرب ، أو هو الماء المعروف ، وكان قصد النبي ﷺ أننا مخلوقون من ماء .

(٤) علم البديع دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٨١ .

(٥) العمدة ، ج ١ ، ص ٥١٣ ، وهذا كلامه عن الإشارة ، وقد عدّ التورية نوعاً من أنواعها .

أَرْسَلْتَ تَمَرًا بَلَّ نَوَى فَقَبِلْتَهُ بِيَدِ الْوِدَادِ فَمَا عَلَيْكَ عِتَابُ
وَإِذَا تَبَاعَدَتِ الْجُسُومُ فَوَدُّنَا بَاقٍ وَنَحْنُ عَلَى النَّوَى أَحْبَابُ^(١)

فالتورية عنده في لفظة (النوى) في البيت الثاني ، فإنّ المعنى القريب هو نوى التمر ؛ لما تقدّم ذكره في البيت الأول ، وهو المتبادر لأوّل وهلة ، غير أنه غير مقصود ، أما المعنى البعيد فهو البعد والتحوّل ، وهذا عتابٌ رقيق شَفَّتْ عنه رَقّة الألفاظ ، وغرض طاهر نبيل أفصحت عنه روح شفاقة ، فجاءت التورية خدمةً لهذا المقصد الجميل دون تكلفٍ وتعقّد ، رغم ما تنيره في النفس من عجبٍ وحيرة !!.

ومثله قوله أيضاً :

أَحَاوَلُ صَبْرًا عَنْ هَوَى قَدْ كَتَمْتُهُ فَلَا أَجِدُ الصَّبْرَ الْمَحَاوِلَ يَعْذِبُ
وَأَلْقَى بِهِ ثَوْبَ الْمَشِيبِ مُطْبَعًا فَأَغْسِلُهُ بِالدَّمْعِ وَالطَّبْعِ أَغْلَبُ^(٢)

(١) خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ . والشواهد فيه كثيرة ، ولعلّ تقيّ الدين بن حجة - كما ذكر الدكتور عبد العزيز عتيق - من أكثر رجال البديع المتأخرين اهتماماً بالتورية ؛ لأنّ ما استشهد به عليها من شعر شعراء البديع بمصر والشام يمثل في الواقع ربع كتابه (خزانة الأدب) . انظر : علم البديع ، ص ١٣٣ ، بل إنّ ابن حجة ينبئ من سبب اهتمامه بالتورية إلى هذا الحدّ بأنّه كان ينوي بعد الفراغ من تأليف (خزانة الأدب) أن يؤلّف كتاباً خاصاً بالتورية والاستخدام يسميه : (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) . انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٢٩١ . إلا أنّ كتابه - كما ذكر ابن معصوم - قد جاء فيه من شواهد التورية بالطّم والرّم ، ولم يميّز بين الروح والجرم ، وأورد الغثّ والسمين ، وجمع بين الرخيص والسمين . انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٨٧ .

وجاء بالطّم والرّم في اللغة ، أي : جاء بالبحر والثرى ، أو الرطب واليابس ، أو التراب والماء ، أو بالمال الكثير . انظر : القاموس المحيط ، باب (الميم) فصل (الراء) ، ص ١٤٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٦ ، يريد الشاعر أنّ محاولته لكتمان الهوى لم تقلح ، فاستمرّ أثره فيه إلى أن شاب . فالتورية في لفظة (الطبع) فإنّ المعنى القريب هو السجية والعادة ، وهذا ممثّل يُضرب في غلبة الطبع على العادة والتطّبع ، أما المعنى البعيد الذي يرمي إليه الشاعر ختم الهوى وأثره فيه وإن حاول غسله بمرارة الصبر وفيض الدمع ، فإنّ الصبر لم يحلّ ، والدّمع لم يغض .

ومثله أيضاً في هذا المعنى قوله :

بُرُوحِي جِيْرَةَ أَبْقُوا دُمُوعِي وَقَدْ رَحَلُوا بِقَلْبِي وَاصْطَبَارِي
كَأَنَّا لِلْمُجَاوِرَةِ اقْتَسَمْنَا فَقَلْبِي جَارُهُمْ وَالْدَّمْعُ جَارِي^(١)

فإذا كانت التورية ساقطتها المعاني والغايات كانت لها قيمة ومعنى ، وكان لها دور وأثر وقبول واستحسان ، " أمّا أن يتعمّدها الشعراء لمجرّد الإلغاز والإلباس أو إظهار القدرة على التمويه والمخادعة ، فإنّها حينئذٍ تكون متكلّفة سمجة غير مقبولة " ^(٢).

وقسّ هذه الشواهد بما سبق الإلماع إليه من شواهد سمجة تنمّ عن رداءة ذوق ؛ لتعرف الفرق وتستشعره ، فتذوق حلاوة الطبع ، وتلفظ رداءة الصنع المتكلّف .

التوجيه البلاغي للتورية في القرآن الكريم :

لم يرد عند المتقدمين - حسب علمي القاصر عند التحقيق - شواهد للتورية من القرآن الكريم ، إنّما كان الاستشهاد لها من الشعر كما جاءت عند أسامة بن منقذ ، ثم كان لها شاهدٌ واحدٌ عند الزمخشري ، بل ليس للزمخشري نفسه حديث عن التورية في تفسيره إلا إشارة غامضة في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ ^{(٣)(٤)} ؛ إذ قال : " مثل ذلك الكيد العظيم كدنا (ليوسف) ، يعني علمناه إياه وأوحينا به إليه ، و ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ تفسير للكيد وبيان له ...

(١) أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٤٥ . وواضح جداً أنّ التورية في كلمة (جاري) . ومثله قول ابن نباتة يرثي ولداً له مات صغيراً :

اللَّهُ جَارُكَ إِنَّ دَمْعِي جَارِي يَا مُوحِشَ الْأَوْطَانِ وَالْأَوْطَارِ

وهو بيت من قصيدة طويلة مؤثّرة جداً تفيض بالحُرقة واللوعة . انظر : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، ص ١٩٠ .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١٥ .

(٣) سورة يوسف : الآية (٧٦) .

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٨٦ ، بتصرّف يسير .

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ، أي : ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه . فإن قلت : ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً ، فمن أي وجه حسن هذا الكيد ، وما هو إلا بهتان وتسريق لمن يسرق ، وتكذيب لمن يكذب ، وهو قوله : ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ، قلت : هو في صورة البهتان وليس يبهتان في الحقيقة ؛ لأن قوله : ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم ييوسف ، وقيل : كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف ^(١) .

" والتورية لا تظهر بمعناها الاصطلاحي في هذا التعبير ؛ لأنها إطلاق لفظ له معنيان ؛ قريب وبعيد ، وإرادة البعيد ، واللفظ هنا ليس ذا معنيين ، ولذلك يمكن أن يقال : أن التورية هنا أقرب إلى المعنى اللغوي الذي هو الاختفاء من قولهم : وراه تورية ، أخفاه كواراه ؛ لأنه ^(٢) أخفى مراده في هذا التعبير " .

ثم جاءت بمعناها الاصطلاحي تحت مسمى الإيهام عند الرازي والسكاكي والسيوطي التي هي عنده من بدائع القرآن الكريم .

وذكر الأولان أن أكثر التشابهات في القرآن من هذا الجنس أو من هذا القبيل ^(٣) . وجاء تمثيلهم عليها بقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ^(٥) .

والمقصود عندهم بالمتشابهات " الآيات التي يفيد ظاهرها إثبات شيء لا يليق بالله تعالى ،

(١) الكشف ، ص ٥٢٥ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الكشف ، ص ٥٨٦ . وأضاف الزمخشري : " هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأَيُّوبَ ^(٦) : ﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ يتخلص من جلدها ولا يحنث ، وكقول إبراهيم ^(٧) : هي أختي ؛ لتسلم من يد الكافر " . انظر : الكشف ، ص ٥٢٥ .

(٣) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٩١ ، ومفتاح العلوم ، ص ٤٢٧ .

(٤) سورة الزمر : الآية (٦٧) .

(٥) سورة طه : الآية (٥) .

كالاستقرار واليد في الآيتين السابقتين" (١).

وفضّل الخطيب القزويني اسم التورية ، واستشهد عليها بقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٣) (٤).

وعند النظر إلى هذه الآيات المتشابهات يجد المتأمل لها عند العلماء ثلاثة اتجاهات :

الأول : اتجاه الزخشي للكناية ؛ لأنّ الاستواء على العرش من لوازم الملك ، وبسط اليد من لوازم الجود ، وغلّها من لوازم البخل في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٥) (٦).

الاتجاه الثاني : " للسكاكي والخطيب وأكثر شراح التلخيص والسيوطي أنّ في التعبير باستوى أو اليد في جانب الله ﷻ من باب التورية التي يذكر فيها اللفظ ، وله معنيان :

(١) الإيضاح بتعليق البغية ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، هامش (٨) .

(٢) سورة الذاريات : الآية (٤٧) .

(٣) سورة طه : الآية (٥) .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

(٥) سورة المائدة : الآية (٦٤) .

(٦) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١٧ ، بتصرف يسير . وانظر كلام الزخشي حول قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ؛ إذ قال : " لما كان الاستواء على العرش - وهو سرير الملك - مما يردف الملك ، جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا : استوى فلان على العرش ، يريدون ملك ، وإن لم يقعد على السرير البتة ... " . انظر : الكشف ، ص ٦٥١ ، بينما أتجه في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [سورة الزمر : الآية ٦٧] ، إلى القول بالتصوير والتخييل ؛ إذ قال : " وما قدروا ... وقرئ بالتشديد على معنى : وما عظموه كنه تعظيمه ، ثم نبههم على عظمتهم وجلال شأنه على طريقة التخييل ، فقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ، والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو وبجملته ومجموعه تصوير عظمتهم والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة الحقيقة ، أو جهة المجاز " . الكشف ، ص ٩٤٧ .

أحدهما قريب غير مُراد ، وآخر بعيد هو المراد ^(١) .

الاتجاه الثالث : لعبد القاهر ؛ إذ يرى أنّ هذا من التمثيل للمعنى ، وأن اللفظة المفردة (استوى) في : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ^(٢) ، واليد في : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ^(٣) ، والقبضة واليمين في : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ^(٤) ، لا تفيد المقصود إلا بانضمامها إلى ما يجاورها ؛ ليؤلف مجموعه مثلاً أو تمثيلاً ^(٥) .

والمرجح في النظر إلى هذه التشابهات هو اتجاه عبد القاهر ؛ لأن الغرض من التعبير بالاستواء أو اليد أو اليمين في جانب الله ﷻ هو من باب توضيح المعنى وتقريبه إلى الأذهان بصورة مألوفة إلى الناس ، وهي طريقة التمثيل ^(٦) الذي يُكسِب المعاني منقبة ، ويكسوها أبهة ، ويرفع من أقدارها ، ويضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعوة القلوب إليها ،

(١) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١٨ . وكذلك اتجاه الرازي . انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٩١ .

(٢) سورة طه : الآية (٥) .

(٣) سورة الحجرات : الآية (١) .

(٤) سورة الزمر : الآية (٦٧) .

(٥) المرجع السابق ، ص ١١٨ ، بتصرف يسير . وراجع كلام عبد القاهر حول اليد واليمين والقبضة ، ص ٣٥٨ من كتابه (أسرار البلاغة) ، وذكر أنّ إطلاقها بمعنى القدرة عند كثير من الناس إنما هو تفسير منهم على الجملة ، وقصد إلى نفي الجارحة بسرعة ، خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهال وأهل التشبيه ، جلّ الله تعالى عن شبه المخلوقين ، ولم يقصدوا إلى بيان الطريقة والجهة التي منها يُحصل على القدرة والقوة . وإذا تأملت علمت أنه على طريقة المثل . انظر : أسرار البلاغة ، ص ٣٥٩ .

أما كلامه حول قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فقد ورد تحت التفريط في تأويل القرآن الكريم عند بعضهم من مثل قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ .. وأشبه ذلك ، وقد عدّه من النبؤ عندهم عن أقوال التحقيق . انظر : أسرار البلاغة ، ص ٣٩١ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١١٨ ، بتصرف يسير .

وقسر الطُّباع على أن تعطيتها محبة وشغف بعد أن يكون قد استثار لها من أقاصي الأفتدة صباية وكلفاً^(١).

لكن مع الاعتقاد بأن " استواء الربّ على عرشه عقيدة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة السلف ، ولا يجوز تأويل ذلك بالاستيلاء والقهر والملك ، وإثبات صفة اليد لله تعالى صفة ثابتة بالكتاب والسنة ، ولا يُقال : إن أثبتنا اليد لله فهي جارحة ، والجارحة منزّه عنها الله ؛ لأننا نقول : يد الله ليست جارحة ، وليست كيدنا ، بل يده وحياته وعِلْمه ... كلّ صفاته هي صفات كمال وجلال تليق بكماله وجلاله ، وصفاتنا صفات نقص وعجز تليق بنقصنا وعجزنا " ^(٢).

" ويلزم في إثبات الصفات التخلّي عن محذورين عظيمين ؛ أحدهما : التمثيل ، والثاني : التكييف " ^(٣)؛ إذ نُقل عن أمّ سلمة أنّها سئلت عن الاستواء فقالت : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة " . وكذلك سئل عنه مالك ، فأجاب بما قالته أمّ سلمة ، وزاد : " أنّ من عادَ إلى هذا السؤال أضرب عنقه " ^(٤).

" ويبدو أنّ الذي دفع البعض للقول بالتورية في الآيات المتشابهات ، هو تجنب القول بالتمثيل والتصوير مع ما يرتبط بهما من خيال أو تخيل ، مع أنّ التورية ذاتها لا تخلو من تخيل المعنى القريب والإيهام به لغرضٍ من الأغراض ، فهذه هي الغاية الأساسية للتورية ،

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١٥ ، بتصرّف يسير .

(٢) الإتيان ، ص ٦٤٧ ، هامش (١ ، ٢) ، نقلاً عن (الصفات) لعبد الغني المقدسي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، ص ٨٤ ، ٨٥ . وكان الأفضل أن يستبدل عبارة : (ولا يجوز تأويل ذلك بالاستيلاء) إلى عبارة : (مع إرادة الاستيلاء) .

(٣) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، ص ٢٨ .

(٤) انظر : البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ . ويمكن العودة إليه في حكم الآيات المتشابهات الواردة في الصفات .

وهذا ما دفع البعض إلى تسمية التورية باسم التخيل ، كالحلي^(١) والنويري^(٢) " (٣) .

وبصرف النظر عن الآيات المتشابهة واتجاه العلماء في ذلك ، فإن التورية وقعت في غير المتشابه من الآيات القرآنية الكريمة ، كالتى ذكرها ابن أبي الإصبع ؛ إذ يقول : " وإذا ما وصلت إلى ما وقع من التورية في الكتاب العزيز وصلت إلى الغاية القصوى ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَأْتِيَنَّا اللَّهُ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾^(٤) .

فانظر إلى كون الضلال له حملان ، وهما : الحبّ وضدّ الهدى ، وكيف أهمل أحد الاحتمالين - وهو الحبّ - ، واستعمل دلالته على ضدّ الهدى ، والمراد ما أهمل لا ما استعمل ، فستجده أوجزَ لفظٍ وأحلاه ، والله أعلم " (٥) .

ووافقه السيوطي ، ونقل عنه كلّ ما استشهد به ، وزاد عليه قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾^(٦) ، وقال : " فإنّ النجم يُطلق على الكواكب ، ويرشحه له ذكر الشمس والقمر ، وعلى ما لا ساقَ له من النبات ، وهو المعنى البعيد له ، وهو المقصود في الآية " (٧) .

(١) هو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن أحمد بن سعيد الحلبي ثمّ المصري ، الجمال ابن الكمال ، ابن الأثير ، وُلد سنة (٧٠٨هـ) ، وكان ماهراً في العربية ، ومات بالقاهرة في جمادى الآخرة سنة (٧٧٨هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

(٢) هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري ، شهاب الدين النويري ، عالم بحاث غزير الاطلاع ، نسبه إلى نيرة (من قرى بني سويف في مصر) ، مولده ومنشؤه بقوص سنة (٦٧٧هـ) . أشهر مصنفاته : نهاية الأرب في فنون الأدب . توفي في القاهرة سنة (٧٣٣هـ) . انظر : الأعلام ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٣) أساليب البيان والصورة القرآنية ، ص ٥٦١ ، وذكر الدكتور أحمد مطلوب أنّ هذا الاسم - وهو التخيل - أفضل من أن يُطلق على ما في كتاب الله من روعة وتخيل لفظ الإيهام . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٤٣٥ . وهذا صحيح .

(٤) سورة يوسف : الآية (٩٥) .

(٥) تحرير التحرير ، ص ٢٧٠ . وسيأتي التعرّض لبقية شواهد في (بديع القرآن) .

(٦) سورة الرحمن : الآية (٦) .

(٧) الإتقان ، ص ٦٤٧ .

وقال : " ونقلت من خطِّ شيخ الإسلام ابن حجر^(١) : أنَّ من التورية في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾^(٢) ، فَإِنَّ (كَافَّةً) بمعنى (مانع) ، أي : تكفُّهم عن الكفر والمعصية ، والهاء للمبالغة ، وهذا معنى بعيد . والمعنى القريب المتبادر أنَّ المراد جامعة بمعنى (جميعاً) ، لكن منع من حمله على ذلك أنَّ التأكيد يتراخى عن المؤكِّد ، فكما لا تقول : رأيت جميعاً الناس ، لا تقول : رأيتُ كَافَّةً الناس^(٣) .

واستشهد بعض الدارسين على التورية من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾^(٤) ، وقد سبق الكلام عنها .

وعلى هذا فَإِنَّ التورية وإن لم تَرِدْ في القرآن الكريم إلا قليلاً ، وربَّما من طلبها فيه فَإِنَّه يجدها بإلهامٍ وتوفيقٍ من الله ﷻ ، إلا أَنَّها على ندرتها فَإِنَّها من بدائعه المِثَال التي جاءت على أكمل وجهٍ وأتمَّه ، وأبهى صورة وأزكاها ، منظويةً على مقاصد وغايات شتى ، ولولا تلك الصور والأساليب الموجهة لَمَا لَانَ ما كان عصياً من الأفئدة . إلا أنَّ للعلماء المتأخرين تفاوتاً في إطلاقها على القرآن ، وذلك تقيّةً وتحرّجاً ، وربما هرباً من القول بالمجاز - وإلا فَإِنَّ المتقدمين لم يأتوا لها بمِثَال - لذلك نجد بعضهم سَمَّى التورية توجيهاً كما هو الحال مع ابن أبي الإصبع مثلاً ، إلا أنَّ هناك فرق بين التورية والتوجيه كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الموازنة .



(١) سبقت ترجمته في التمهيد .

(٢) سورة سبأ : الآية (٢٨) .

(٣) الإقتان ، ص ٦٤ .

(٤) سورة الأنعام : الآية (٦٠) .

التورية بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني :

ذكر ابن أبي الإصبع التورية ضمن الأبواب التي دقق النظر فيها ، ونقحها وصحح ما قدر على تصحيحها ؛ لأنه كما قال : " قلما رأيت منها - أي مؤلفات من سبقه - كتاباً خلا عن موضع نقدٍ ، بحسب منزلة واضعه من العلم والدراية ، فمن قليل ومن كثير ، وكلّ أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا من عصمه الله من أنبيائه ، صلوات الله عليهم وسلامه " (١) .

وقد تناولها في إطار المفهوم العام للبديع ، وهو الطريف الجديد ، لكنّ الخطيب القزويني تناولها في إطار علم البديع باعتباره مُحسّناً معنوياً ، وكذلك شأنهما في بقية الألوان . وقد اتفق الرجلان على تسمية هذا اللون البديعي بهذا الاسم - أعني التورية - ، إلا أنّ كلاّ منهما أضاف اسماً آخراً معه .

فأضاف الخطيب الإيهام ، وقال : " ومنه التورية ، وتُسمى الإيهام أيضاً " (٢) .

وأضاف ابن أبي الإصبع التوجيه ، وقال : " وتُسمى التوجيه " (٣) ؛ إذ لا إشكال عنده بأن تسمى التورية بالتوجيه ، ولا إشكال عند القزويني أن تسمى التورية بالإيهام ، فهذه أسماء مرادفة لها ، ولكلّ منهما وجهة نظره الخاصة في إضافة هذه التسمية إلى هذا اللون البديعي ستتكشف من بعد .

وليست التورية من زيادات الخطيب على السكاكي كما ذكر بعض الدارسين (٤) ، بل ذكرها السكاكي تحت اسم (الإيهام) (٥) ، إلا أنّ الخطيب فضّل تسميتها بالتورية ، وجعل

(١) مقدمة تحرير التحرير ، ص ٩١ ، وانظر : مقدمة بديع القرآن ، ص ١٣ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٣) بديع القرآن ، ص ١٠٢ .

(٤) الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي ، ص ١٨٤ .

(٥) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٧ . ولعلّ السكاكي متأثّر في إشارته هذه التسمية بفخر الدين الرازي .

انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ٢٩١ .

الإيهام اسماً ثانياً لها ، وقد تأثر به في ذلك ابن حجة وابن معصوم المدني^(١) ، وهم في هذا على العكس من السيوطي ؛ إذ سمّاها الإيهام ، وجعل التورية اسماً ثانياً لها^(٢) .

وإذا كان الخطيب جلال الدين قد عقد للتوجيه باباً ولم يُسمَّ به التورية كما فعل ابن أبي الإصبع ؛ فإنّ أبا محمد ابن أبي الإصبع قد عقد لما يُشبه الإيهام باباً ولم يُسمَّ به التورية كما فعل أبو عبد الله الخطيب ، فجاء في (بديع القرآن) ما يُسمَّى (الإيهام) - بالباء - ، وما يُسمَّى (التوهم) .

تعريف التورية :

بالنظر إلى تعريف كلٍّ منهما يجد المتأمل أنّ هناك فروقاً بينهما رغم اتفاقهما على أنّ التورية تحتل معنيين :

فأحدهما : مهمل ، والآخر : مستعمل عند ابن أبي الإصبع ، ويُراد ما أهمل لا ما استُعمل .

أو أحدهما : قريب ، والآخر : بعيد عند القزويني ، ويُراد البعيد منهما .

وأوّل ما يلفت النظر لأوّل وهلة ويدلّ على اختلاف المنهج عند كلّ منهما ، أنّ أبا عبد الله الخطيب اعتمد التقعيد والتقسيم والتحديد لما حدّد التورية وقسمها إلى ضربين : مجردة ، ومُرشّحة ، بينما كان المصري أبو محمد عارضاً مُحللاً لا مُقعداً ومقسماً ، فعرف التورية ومثّل عليها مع التحليل والتوضيح في صفحتين اثنتين كقطعة واحدة دون توزيع وتحديد حتى يبدو عرضه هذا وكأنه نصّ أدبي مطروح !

قال ابن أبي الإصبع : " وهي أن تكون الكلمة تحتل معنيين ويستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله " ^(٣) .

(١) خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ١٨٤ ، وأنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٢) الإقتان ، ص ٦٤٦ .

(٣) بديع القرآن ، ص ١٠٢ .

وعرّفها الخطيب جلال الدين بقوله : " وهي أن يُطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد به البعيد منهما " ^(١) .

قال السبكي : " والمراد بقولنا : قريب ، وبعيد ؛ قريب الفهم وبعيده ، فإنّ المعنى نفسه لا يوصف ببعيد ولا قرب " ^(٢) .

والفرق واضح بين الصياغتين ؛ إذ حرص زكي الدين ابن أبي الإصبع على ذكر المتكلم وكأنّه يعوّل في حُسن التورية وجودتها عليه ، بينما غصّ القزويني طرفه عن ذكره ؛ لأنّه في معرض تعريفٍ لهذا اللون وتحديدٍ وتوضيح ، بصرف النظر عن جودتها أو غير ذلك ، فكان اصطلاحاً علمياً في معزلٍ عن أيّ مُتعلّق .

وإذا كان الخطيب يقصد بالبعد فهم المعنى لا المعنى نفسه كما ذكر السبكي ، فإنّ ابن أبي الإصبع يقصد المعنى نفسه بالإهمال أو الاستعمال .

لذا مثّل عليه بما يتناسب مع تعريفه ؛ إذ قال : " ومنها قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ^(٣) ، فانظر إلى كون الضلال هاهنا يحتمل الحبّ وضدّ الهدى ، وكيف استعمله أولاد يعقوب - السبكي - ضدّ الهدى ، فورّوا به عن الحبّ ؛ ليعلم أنّ المراد ما أهملوا لا ما استعملوا " ^(٤) .

ومما يستوقف القارئ في هذه الوقفة أو هذا النصّ التحليلي : (اللام) في قوله : (ليعلم) ، فقد تُفسّر في ظاهر الأمر على أنّها تعليل للتورية ، إلا أنّ التعليل يكون مُبيّناً للغرض من هذه التورية كاشفاً قيمتها البلاغية ، فهل يُعقل أن يُورّوا ليعلموا من بعد ؟!

ما الفائدة إذن من التورية ؟!

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٢) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٤ .

(٣) سورة يوسف : الآية (٩٥) .

(٤) بديع القرآن ، ص ١٠٢ .

إنما الذي يظهر أنّ هذه اللام موجّهة للقارئ ، أي لتعلم إيّها القارئ أن المراد هنا في هذه الآية هو الحبّ وليس الضلال .

ولو كانت العبارة بهذه الصيغة " فورّوا به عن الحبّ ؛ إذ المراد ما أهملوا لا ما استعملوا " ، لكانت غير مُلبسة على فهمي القاصر .

ويظهر أن المصري ابن أبي الإصبع زكي الدين مُصرّ على تسمية التورية بالتوجيه ، رغم أنه مصطلح آخر .

إذ قوله : " يحتمل الحبّ وضدّ الهدى " يدلّ على التوجيه الذي هو " إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين " ^(١) .

وقوله : " فورّوا به عن الحبّ ؛ ليعلم أنّ المراد ما أهملوا لا ما استعملوا " يدلّ على التورية التي هي : " أن يريد المتكلّم بكلامه خلاف ظاهره " ^(٢) .

ويظهر أنّ تسمية التورية عنده توجيهاً جاءت منطلقاً من تحليله للشاهد الثاني ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ^{(٣)(٤)} ، وهذه نظرة خاصّة لهذا الشاهد ؛ إذ قال : " على رأي من رأى أنّ البدن هاهنا الدّرع ، فإنّ البدن يُطلق على الجسد ، وعلى الدّرع ، وهو بهذا التفسير في الظاهر قد استعمله بمعنى الجسم ، وأهمل

(١) التعريفات ، ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٣) سورة يونس : الآية (٩٢) .

(٤) " قرأ يعقوب (ننحيك) من باب الأفعال ، وهو بمعنى التفعيل ... ، وأخرج ابن الأنباري عن محمد بن السميع اليماني ، ويزيد البربري أنّهما قرآ (ننحيك) - بالحاء المهملة - ، ونُسبت إلى أبيّ بن كعب ، وأبي السمال ، أي : نجعلك في ناحية ونلقيك على الساحل . وقرأ أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه : (بأبدانك) على صيغة الجمع يجعل كلّ عضو بمنزلة البدن ، فأطلق الكلّ على الجزء مجازاً ... أو بإرادة دروعك بناءً على أنّ المخذول كان لابساً درعاً على درع .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنّه قرأ : (بندائك) ، أي : بدعائك .

انظر : روح المعاني ، ج ١١-١٢ ، ص ٢٤٣ .

معنى الدرع ، ومراده ما أهمل لا (معنى) ما استعمل ، فإنّ نجاة فرعون - أي خروجه - من البحر بعد الغرق بدرعه أعجب آية من خروجه مجرداً^(١) .

فقوله مثلاً : " على رأي من رأى أنّ البدن هاهنا الدرع "^(٢) ، يفهم منه أنّ التوجيه عنده يتّجه به نحو التورية تبعاً لتوجيهه على أحد التفاسير الذي يكشف عن المعنى البعيد المراد ، وهو البدن المقصود به الدرع .

قال الزمخشري : " أي في الحال التي لا روح فيك ، وإنما أنت بدن ، أو بيدنك كاملاً سوياً لم ينقص منه شيء ولم يتغيّر ، أو عرياناً لست إلا بدنّاً من غير لباس ، أو بدرعك . قال عمرو بن معديكرب :

أَعَاذِلْ شِكِّي بَدَنِي وَسَيْفِي وَكُلُّ مُقْلَصٍ سَلَسِ الْقِيَادِ^(٣)

وكانت له درع من ذهب يُعرف بها ، وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - : (بأبدانك) ، وهو على وجهين : إمّا أن يكون مثل قولهم : هوى بأجرامه ، يعني بيدنك كله وافيّاً بأجزائه ، أو يريد بدروعك ، كأنه كان مظاهراً بينها "^(٤) .

ويؤكد ابن أبي الإصبع على هذا المعنى بما يتناسب مع الإعجاز القرآني ولا يتعارض

(١) بديع القرآن ، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٢) قال السيوطي : " على تفسيره بالدرع ، فإنّ البدن يُطلق عليه وعلى الجسد ، والمراد البعيد ، وهو الجسد " . انظر : الإتيان ، ص ٦٤٧ .

(٣) (شِكِّي) : الشَّكَّةُ - بالكسر - : السَّلاح ، وخشبة عريضة تُجعل في خُرْتِ الفأس - أي فتحته - ونحوه يُضَيَّقُ بها . والشَّكُّ - بالكسر - : الحُلَّة التي تلبس ظُهورَ السَّيِّتَيْن ، وهو نوعٌ من الثَّياب . ومن المليح ذكره هنا كما يظهر أنّ الزمخشري مُعجَبٌ بشعر عمرو بن معديكرب ، بينما كان عبد القاهر الجرجاني معجباً بشعر البحري كما يظهر أيضاً .

(مُقْلَصٌ) : أي للقلوص ، وهو من الإبل بمنزلة الجارية من النساء ، وهي الشَّابَّة . وأقلص البعير : ظهر سنامه شيئاً ، وفرس مُقْلَصٌ : مُشَمَّرٌ مُشْرِفٌ طويل القوائم .

(٤) الكشف ، ص ٤٧٣ ، وانظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ج ٣ ، ص ٥٣٧ .

معه ، وهو قوله : " فَإِنَّ نَجَاةَ فِرْعَوْنَ - أي خروجه - من البحر بعد الغرق بدرعه أعجب آية من خروجه مجرداً " (١) .

ويظهر أنّ زكيّ الدين المصري لما سمّى التورية توجيهاً كان يقصد من التوجيه معناه اللغوي (٢) . وهذا ظاهر في الشاهد السابق خاصة ؛ لأنّه وجّه التورية على أحد أوجه التفاسير . والله أعلم . أما مفهوم التوجيه كما هو عند الخطيب فقد عقد له ابن أبي الإصبع باباً آخر كما فعل الخطيب ، لكن أطلق عليه اسم (الإبهام) كما سيأتي .

أقسام التورية :

لم يُشر ابن أبي الإصبع إلى أقسام التورية ؛ لأنّه كان في معرض تحليل وتوضيح لمفهوم التورية فقط بصرف النظر عن أنّ كونها مجردة أو مرشحة ، كما جاءت عند المتأخرين ، رغم أنه يُعدّ منهم ، بل يظهر أنه غير مُهتم أصلاً بهذا التقسيم ، كما يظهر من تحليله للشواهد ، وخاصة الشاهد الأخير ، فقد صرفه اهتمامه بالتحليل عن أيّ شيء آخر .

أما القزويني فقد كان يتعيّن عليه أن يُحدّد الإطار للتورية ، ويُضيفُ إليها المزيد من المتعلقات التي لا بدّ لها منها كالملائم مثلاً .

فقال : " وهي ضربان : مجردة ومُرشحة " (٣) .

فعرّف المجردة بأنّها " التي لا تجامع شيئاً مما يُلائم المورى به - أعني المعنى القريب - ، كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٤) " (٥) .

(١) بديع القرآن ، ص ١٠٣ .

(٢) قال ابن معصوم : " لا يخفى على أصغر الطلاب أنّ (التوجيه) مصدر وجهه إلى كذا توجيهاً ، كما يقال : وجهت وجهي لله سبحانه . وقد يقال : وجهت إليك بمعنى توجهت لازماً ، وأما توجهه فمصدره التوجه ، وهذا أمر قياسي ولا يحتاج فيه إلى سماع " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ١٤٣ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

(٤) سورة طه : الآية (٥) .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

واكتفى بهذا وترك لمن يطلع على كتابه أن يحلل الشاهد وفق تعريفه للتورية المجردة .

ذكر ابن معصوم أنّ هذا الشاهد من أعظم أمثلة هذا النوع ، فإنّ الاستواء يطلق على معنيين : الأول : قريب غير مراد ، وهو الجلوس أو الاستقرار ، والثاني : بعيد مراد ، وهو السيطرة والاستيلاء^(١) .

وليست هنا قرينة تلائم المعنى القريب ، إلا أن بعض الشراح - كالسبكي وعصام الدين ابن عربشاه - ذكرا أنّ في الشاهد ما يلائم المعنى القريب ، وهو قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ؛ لأنّ العرش يلائم الاستقرار ، ومُعَدّ للاستقرار لا للاستيلاء^(٢) .

قال ابن معصوم : " واعترض بعض المحققين بأنّ فيه ما يلائم المورى به ، وهو العرش ؛ لأنّه ملائم للاستقرار ، فهي إذن مرشحة لا مجردة " ^(٣) .

بل ذهب بعض الدارسين إلى أنّ شواهد الخطيب القرآنية في هذا الباب غير مسلمة له ، فقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾^(٥) ، هي من صور البيان ، وأنّه بهذا يخالف شيوخ البيان حين اعتبر هذه الأمثلة من التورية^(٦) .

وهذا يترجم ما ذهب إليه الزمخشري من أنّه تمثيل ؛ لأنّه لما كان الاستواء على العرش - وهو سرير الملك - مما يرادف الملك ، جعلوه كناية عن الملك ، ولما امتنع هاهنا المعنى الحقيقي صار مجازاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، أي هو بجبل ، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾^(٧) ، أي : هو جوادٌ من غير تصور يد ولا غلّ ولا بسط .. ^(٨) .

(١) انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٢) انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٥ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٤) سورة طه : الآية (٥) .

(٥) سورة الذاريات : الآية (٤٧) .

(٦) انظر : البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٨٧ .

(٧) سورة المائدة : الآية (٦٤) .

(٨) انظر : الكشاف ، ص ٦٥١ ، والمطول ، ص ٦٥٢ .

لكن كما قال السعد : " قد جرى المصنف في جعل الآيتين مثالين للتورية على ما اشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين " ^(١) ، مُلتقياً في هذا مع ابن أبي الإصبع الذي جرى هو أيضاً مع أوجه التفسير لتسمية التورية بالتوجيه . وهذا إنما هو دالٌّ على ثقافتهما الدينية وانعكاس هذا التشرب على ما يؤلفانه .

وذكر بعض الدارسين أنَّ المجردة لا تجامع شيئاً مما يلائم المورى عنه أيضاً ، لكن قد يفهم من الآية أنَّ ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ كما يمكن أن تلائم المعنى القريب ، فإنها قد تلائم البعيد أيضاً ، وهو ما سماه البعض بالمبينة .

أليس السيطرة والاستيلاء يكون متعدياً بِـ(على) ؟! .

وبالتالي فإنه يمكن أن يكون كلام الخطيب صائباً من هذه الوجهة في كونها مجردة ^(٢) ، بل كأنَّ المثال استوى فيه اللزمان وتكافأ ، فلم يترجح أحدهما عن الآخر ، فكأنهما لم يُذكرَا ^(٣) .

أما القسم الثاني من التورية - وهي المرشحة - فقد عرفه الخطيب بقوله : " هي التي قرن بها ما يلائم المورى به : إما قبلها ... وإما بعدها " ^(٤) .

فمثَّل على الملائم قبل المورى به بقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ ^(٥) ، وقال : " أي بقوة " ^(٦) .

(١) المطول ، ص ٦٥٣ ، وانظر تفصيل الاستواء في هذه الآية ، خاصة عند الزركشي في : البرهان في علوم القرآن ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٢) ذكر الدكتور عبد العظيم المطعني أنَّ المجردة نوعان : ما خلعت من ملائم المعنيين ، أو ما قرنت بملائم المعنى البعيد . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٣٥ .

(٣) انظر ما قاله ابن معصوم حول هذا في الجزء الخامس من كتابه (أنوار الربيع) ، ص ٨ .

ولعلَّه كان ناقلاً عن ابن حجة . انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٤٥ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

(٥) سورة الذاريات : الآية (٤٧) .

(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

واعترض عليه السبكي وقال : " وفيه نظر ؛ لأنَّ قوله تعالى : ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ له معنيان : (القوة) ، فيكون

فقوله تعالى : ﴿ بِأَيْدٍ ﴾ يحتمل المعنى القريب الظاهر المتبادر إلى الذهن أولاً - وهو الجارحة - ، وقد مهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ بَنَيْنَاهَا ﴾ ، خاصة وأنّ البيان من لوازم الجارحة ، ويحتمل القوة والقدرة ، وهو المعنى البعيد المراد ، والذي لا يُدرك إلا بالتأمل والتفكير تنزيهاً لله سبحانه وتعالى عن المراد الأول^(١).

وهذا كقوله تعالى من المرشحة : ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾^(٢) ، فإنّ المراد من اليد الدّلة . وقد اقترنت بالإعطاء الذي يُناسب المعنى القريب ، وهو العضو^(٣).

ورغم أنّ ابن أبي الإصبع لم يأت على هذه الأقسام ، لكنّها تفهم من شواهد وتحليلها ،

مفرداً وجمع (يد) ، وهما معنيان مستويان ، ليس أحدهما قريباً والآخر بعيد ، وكلّ منهما صالح لأن يُراد ، فإن البناء يكون بالأيد الذي هو (القوة) ، وبالأيدي التي هي جمع (يد) ، ثم لو كان أحدهما قريباً ، فهذه ليست كلمة واحدة لها معنيان ، بل كلمتان ... جزم الزمخشري وغيره بأنّ المراد في الآية (الأيد المفرد) ، وهو (القوة) " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٤٥ . ويُردّ على هذا بمثل ما قاله السعد أيضاً ؛ لأنّ المؤلف - وإن جزم الزمخشري - إلا أنه يجري على ما اشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين . انظر : المطول ، ص ٦٥٣ .

قال ابن يعقوب : " فكانت تورية مبنية على ما اشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين الذين يقتضرون على ما يبدو ، ولم يظهر لهم هنا للأيدي إلا المعنى البعيد ، وأما عند مَنْ يوسم بالتحقيق ممن يُمارس مقتضى تراكيب البيان ، فالكلام تمثيل على سبيل الاستعارة ، وهو أنّ مجموع ﴿ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ نقل عن أمثلة على طريق التشبيه ، وأصله وضع لبنة وما يشبهها على أخرى بقوة الأيدي إلى الإيجاد بالقوة ... " . انظر : الصبغ البديعي ، ص ٤٧٨ ، (نقلاً عن شروح التلخيص ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٦) .

قال الصعدي موضحاً الاستعارة التمثيلية : " شُبّهت فيها هيئة إيجاد الله السماء بقدرته بهيئة البناء الذي هو وضع لبنة على آخر باليد " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٦ ، هامش (٣) .

(١) انظر : الإيقان ، ص ٦٤٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية (٢٩) .

(٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، تأليف : السيد أحمد الهاشمي ، تحقيق : د. محمد التونجي ،

مؤسسة المعارف ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ص ٣٨٨ ، الهامش .

خاصة في كتابه (تحرير التحبير) ؛ إذ استشهد على المرشحة بقول عمر بن أبي ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَّا سُهَيْلاً عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانٌ^(١)

وذكر " أن هذه أحسن تورية وقعت في شعرٍ لمتقدم مرشحة ، فإن قوله (المنكح) ترشيح للتورية على قلّتها في أشعار المتقدمين وكثرتها في أشعار المحدثين ، وخصوصاً شعراء العجم العصريين ، كالأرجاني وأمثاله " ^(٢).

فقوله : إنّ هذه التورية مرشحة ، وأن المنكح في البيت ترشيح لها ^(٣) ، يشير إلى أنه لم يهمل الإشارة إلى أنواع التورية ، إلا أنّ جُلَّ همّه كان منصرفاً إلى تحليل هذا النصّ الشعري ، فقال : " فذكر عمر الثريّا وسُهَيْلاً ؛ ليوهم السامع أنّه يريد النّجمين المشهورين ؛ لأنّ الثريا من منازل القمر الشامية ، وسُهَيْلاً من النجوم اليمانية ، وهو يريد صاحبتة الثريّا ، وكان أبوها قد زوّجها برجلٍ من أهل اليمن ، يُسمّى سُهَيْلاً ، فتمكّن لعمر أن ورى بالنّجمين عن الشخصين ؛ ليلبغ من الإنكار على من جمع بينهما ما أراد " ^(٤).

وليس هذا فقط ، بل عقد موازنة بين البيتين ، موضحاً أنّ البيت الثاني هو أبداع من الأول ، وذلك بعدما تتبّع ألوان البديع فيه ، فأبرزها في هذه الموازنة ، مما يدلّ على دقّة حسّه وشغفه بالبديع وصوره ، ودالٌّ أيضاً على اتساق عرضه وهو ينقد بصورة مشرقة لا لبس فيها .

(١) ذكر ابن معصوم أنّ هذين البيتين ذكرهما عمرو بن أبي ربيعة في محبوبته الثريّا بنت عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر ، وقد تزوّجها سُهَيْل بن عبد الرحمن بن عوف . انظر : أنوار الريع ، ج ٥ ، ص ١٤ .
(الثريّا) : مرّ ذكرها ، (سُهَيْل) : نجمٌ عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ ، وهو أيضاً حصن بالأندلس ، ووادٍ بها .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

تأمله يقول : " وأما البيت الثاني فإنه أبدع من البيت الأول ؛ إذ أخرجه مخرج التعليل ؛ للإنكار الذي وقع في عجز البيت الأول ، وجاء فيه مع التعليل تنكيت حسن مُدمج في تجنيس الازدواج ، فإنّ قوله : " إذا ما استقلّت " و " إذا استقلّ " تجنيس ازدواج ، والنكته في ترجيح (استقلّت) على أخواتها فيما يقوم مقامها إشارته بها إلى أنّ الزوج يبعد بالزوجة عن أهلها ووطنها ، فيكون ذلك أشدّ تأنيباً له على تزويجه ، وأدعى لندامته على ذلك ، وكان من الاتفاق الحسن أنّ الرجل يمانى القبيلة والبلد ، والمرأة شامية ، فحصل الاتفاق مُدججاً في الاستخدام ، فإنه استعمل في هذا البيت احتمالي كلّ لفظة من قوله : شامية ويمان ، وختم البيت بالتوشيح ، وهو دلالة معنى صدر البيت على قافيته ، فجاء في البيت سبعة أضرب من البديع ؛ وهي : التعليل ، والاتفاق ، والاستخدام ، وتجنيس الازدواج في (استقلّت واستقلّ) ، والإدماج ، والتنكيت ، والتوشيح ^(١) .

وإذا انتقلت إلى الخطيب القزويني ورأيت إيجاز عرضه ، تكشف لك البون الشاسع بين العالمين بحسب ما ينتمي إليه كلّ منهما .

إذ استشهد جلال الدين على هذا بقول الحماسي :

فَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَا فَحَالَفَنَا السُّيُوفُ عَلَى الدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْنَا عِنْدَ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَتَرٍ ^(٢)

(١) تحرير التحبير ، ص ٢٦٩ .

(٢) الشاهد ليحيى بن منصور ، وأول البيتين قوله :

وجدنا أبانا كان حلّاً ببلدة سوى بين قيس قيس عيلان والفرز

انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٩ .

(نأت) : ابتعدت ، (أنخنا) : من التوخة ، وهي الإقامة ، والمناخ - بالضم - : مبرك الإبل ، وهو هنا كناية عن إقامتهم بدارهم واكتفائهم بأنفسهم بعد نأي العشيرة عنهم ، (الكريهة) : الحرب ، أو الشدة في الحرب ، والنازلة ، (الوتر) - بالكسر ، ويُفتح - : الظلم في يوم عرفة ، والرجل أوتره : أفزعه وأدركه بمكرهه ، والموتور : مَنْ قتل له قتيلاً فلم يُدرك بدمه ، وقد يعني الثأر . ويقصد بـ(الجفون) في البيت : أي أغمد السيوف .

وحلّله قائلاً : " فَإِنَّ الإغضاء مما يُلائم جفن العين لا جفن السيف ، وإن كان المراد به إغماد السيوف ؛ لأنّ السيف إذا أغمد انطبق الجفن عليه ، وإذا جُرّد انفتح الخلاء الذي بين الدّقتين " (١).

وكأنّ الخطيب بقوله : " وإن كان المراد به إغماد السيف " يشير إلى أنّ لفظ (أغضينا) رجّحه في الظاهر ؛ لإرادة إغماض جفون العيون على إغماض السيوف ، بمعنى إغمادها ، لكن دلّ سياق كلامه على إرادة أنّهم لا يغمدون سيوفهم ولهم وتر عند أحد (٢).

وهذا الشاهد ألطف تورية وقعت من هذا النوع كما ذكر ابن معصوم (٣).

وهو لا يقلّ عن التورية اللطيفة التي وقعت في الشاهد الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، مما يدلّ على توخي الدقّة في اختيار الشواهد التي تُربّي الذوق وتُنمّي الإحساس بالجمال في النصوص الشعرية الأصيلّة ، وترفع من مستوى أصحاب الملكات الأدبية ، وهو ما يسعى إليه كلّ من القزويني والعدواني المصري معاً ، وإن كانت تلحظ عند الأخير بشكلٍ أظهر وأوسع .

ومن المهمّ الإشارة هنا إلى ما سكت عنه كلّ منهما ، وهو الفرق بين اللفظ الذي تنهياً به التورية ، واللفظ الذي تترشّح به ، واللفظ الذي تتبيّن به !!.

قال ابن معصوم : " إنّ الأول لو لم يذكر لما تهيات التورية أصلاً ، والثاني والثالث إنّما هما مقويان للتورية ، ولو لم يُذكرا لكانت التورية موجودة ، غير أنّ الثاني يكون من لوازم المعنى القريب المورّى به ، والثالث يكون من لوازم المعنى البعيد المورّى عنه " (٤).

وما كان الثاني من لوازم المعنى القريب إلا لأنّ هذا المعنى " ضعيف بطبعه ؛ لكونه غير مراد ، فإذا ذكر لازمه الذي يلائمه ويُرشّحه قوى انصراف الذهن إليه ، فتكون التورية بهذا أبعد في الخفاء " (٥).

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٢) انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ١٠ ، بتصرّف يسير .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤ .

(٥) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١١٣ .

وما كان الثالث من لوازم المعنى البعيد إلا لتبينه " وتجعله أقلّ خفاء " (١).

كقول الشاعر :

أَرَى ذَنْبَ السَّرْحَانِ فِي الْأَفْقِ سَاطِعًا فَهَلْ مُمَكِّنُ أَنْ الْغَزَالَةَ تَطْلُعُ

ففي البيت تورتان بائتان !!.

الأولى : في قوله : " ذنب السرحان " ، فالقريب ذنب الحيوان ، والبعيد المراد : أول ضوء الفجر ، وقد بينه بقوله : " ساطعاً " .

والثانية : في قوله : " الغزالة " ، فالمعنى القريب هو الحيوان المعروف ، وهو الظبي ، والبعيد المراد : الشمس ، وقد بينه بقوله : " تطلع " (٢).

والخطيب جلال الدين وكذا زكي الدين ابن أبي الإصبع لم يتطرقا إلى هذه الأنواع الأخر التي زادها المتأخرون ، كابن حجة وابن معصوم وغيرهما من الدارسين ؛ وذلك لأنّ المرشحة يمكن أن تدخل في المهيئة (٣) ، كالشاهد الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، وهو قول عمر ابن أبي ربيعة :

* أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَّا سُهَيْلًا *

فالمرشح هو " المنكح " ، والمهيئة للتورية هو أحد اللفظين (ثريّا) أو (سهيلًا) ، ولو استبدل أحدهم بلفظ آخر لم يكن هناك تورية في اللفظين أصلاً .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٤٠ .

(٣) عرّف ابن حجة هذا النوع " بأنّه هو الذي يقع فيه التورية ، ولا تهياً إلا باللفظ الذي قبلها ، أو باللفظ الذي بعدها ، أو تكون التورية في لفظين لولا كلّ منهما لمّا تهيات التورية في الآخر " . ص ٥٤١ .

أما التورية المبيّنة فهي ما ذكر فيها لازم المورّى عنه قبل لفظ التورية أو بعده . ص ٥٣٩ .

انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ ، ٥٤١ ، وكذلك أنوار الريح ، ج ٥ ، ص ١٠ ، ١١ .

وقد سبق التنبيه إلى هذا في أوّل المبحث .

كأن يُقال : أيّها المنكح هنداً سهيلاً ، أو أيّها المنكح الثرياً عمرّاً^(١) . والظاهر أنّ ذلك المهيأ هو نفس لفظ التورية ، وأنّه لا يوجد إلا عند وجود تورية مع وجود تورية أخرى .

والعالمان الفاضلان مُحَقّقان أيضاً في الكفّ عن ابتداع نوعٍ ثالثٍ من أنواع التورية هو الميّنة ؛ لأنّ هذا النوع من التورية يُميت الإحساس بمعنى التورية ما دام أنّ المتكلّم سيُبينها ، إلا إن كان يقصد عنصر المفاجأة بعد هنةٍ يسيرة ، وهذا ربّما يؤدي إلى الاستخفاف بالتورية الواقعة في كلامه والتقليل من شأنها وشأنه ، لكنه على أيّ حالٍ نوعٌ من أنواع التورية ، غير أنّه لا يرقى إلى مستوى المجردة والمرشحة التي يشعر القارئ معها بلذّةٍ ونهمٍ وهو يُنقّب عن التورية فتبادره بوجهها الجميل بعد طول مُعاناة وطول تفكّرٍ وتأملٍ من وراء سترٍ شفيف ، وهذا سرٌّ بديعٍ من أسرار التورية ، وغرضٌ قيّمٌ تسعى إليه ، إنّما التورية المهيأة تتضح من شواهد الرّجلين وإن لم يُشيرإ إليها صراحة ؛ لأنّها تأتي عفواً في المرشحة ، ولا تحتاج إلى مزيد بيانٍ وتفصيل .

ومن الشواهد التي استشهد بها العالمان معاً على التورية - إلا أن ابن أبي الإصبع ذكرها في كتابه (تحرير التحبير) لخصوصية (بديع القرآن) كما هو معلوم - هو قول الإمام أبي الفضل عياض في صيفيّة باردة :

كَأَنَّ كَانُونَ أَهْدَى مِنْ مَلَابِسِهِ لَشَهْرٍ تَمُوزَ أَنْوَاعاً مِنَ الْحُلَلِ
أَوْ الْغَزَالَةِ مِنْ طُولِ الْمَدَى خَرِفَتْ فَمَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْجَدْيِ وَالْحَمَلِ^(٢)

(١) علم البديع دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٨٠ ، بتصرّف .

(٢) وفي رواية للبيت : (كأنّ نيسان) ، وهما شهران من أشهر السنة الشمسية يقعان في قلب الشتاء ، (تموز) : شهر يقع في زمن الدفء ، (الحلل) : جمع حلّة - بالضم - : إزارٌ ورداءٌ بُردٌ أو غيره ، ولا تكون حلّة إلا من ثوبين ، أو ثوبٍ له بطانة ، (الغزالة) : تُقال للشمس ، و(غزالة) الضحى : أوّلها ، يقال : جاء فلان في غزالة الضحى ، (خَرِفَتْ) : من الخَرْف - بفتحين - ، وهو فساد العقل من الكبر ، (الجدّي) : من النجوم ، الدائر مع بنات نعشٍ ، والذي يلزقُ الدلو برجٌ لا تعرفه العرب ، وهو برج البرد ، (الحمل) : محرّكة برجٌ في السماء ، وهو برج الدّفء وأول بروج الرّبيع .

والعجيب أنَّ كلاهما لم يتعرَّض لهذا الشاهد بشيءٍ من التحليل أو البيان ، واكتفى ابن أبي الإصبع بقوله : " وما رأيت لعربي ولا لعجمي مثل تورية وقعت للقاضي عياض صاحب (الشِّفا في تعريف حقوق المصطفى) - ﷺ - ، وصاحب الإكمال في شرح مسلم ، وغيرهما في بيتين وصف فيهما صيغة نادرة - هكذا - ... " ^(١) . واكتفى الخطيب بعده من التورية المرشحة .

قال ابن معصوم : " والذي مشى عليه الخطيب في الإيضاح ، والعلامة التفتازاني في المطوَّل أنها من المرشحة " ^(٢) .

قال السعد شارحاً مقصد الخطيب : " يعني كأَنَّ الشمس من كبرها وطول مدتها صارت خَرَفَةً قليلة العقل ، فنزلت في برج الجدي في أوان الحلول ببرج الحمل ، أراد بالغزالة معناها البعيد - أعني : الشمس - ، وقد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذي ليس بمراد - أعني الرشاء - ، حيث ذكر الخرافة ، وكذا ذكر الجدي والحمل ، وقد يكون كلٌّ من التوريتين ترشيحاً للأخرى " ^(٣) .

وكذا ذكر عصام الدين أنَّه قد يجتمع في الكلام توريتان ، كلٌّ منهما مرشحة للأخرى ، وقال : " وفي الجدي والحمل تورية ، حيث أُريدَ بهما المعنى البعيد ، وهما البرجان دون ما هو حقيقة اللغة ، وذكر الغزالة ترشيح لها " ^(٤) .

ويظُلُّ هذا الشاهد من المختلف عليه ، وهو ما يُفسَّرُ سكوت العالمين عنه ، واكتفاء ابن أبي الإصبع خاصة بعبارة الإعجاب تلك التي تحكي متعته الجمالية بالنص ، وهو في ذلك إنما يُدللُّ على مذهبه التأثري الذي هو من سماته الأدبية ^(٥) .

(١) تحرير التحرير ، ص ٢٦٩ . ويتَّضح أنَّ قوله : (صيغة نادرة) خطأ مطبعي ، والصحيح ما قاله الخطيب : (صيغة باردة) .

(٢) أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٧ .

(٣) المطوَّل ، ص ٦٥٢ .

(٤) الأطوَّل ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٥) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٧٦٦ ، بتصرف يسير .

والشاهد عدّه البعض من شواهد التورية المجردة على اعتبار أنّ الشاعر لم يذكر قبل (الغزاة) ولا بعدها شيئاً من لوازم المورى به ، كالأوصاف المختصة بالغزاة الوحشية من طول العنق ، وحُسن الالتفات ، وسرعة النفرة ، وسواد العين .. ولا من أوصاف المورى عنه ، كالأوصاف المختصة بالغزاة الشمسية من الإشراق ، والسمو ، والإطلاع ، والغروب^(١) .

وبعضهم نفى التورية مطلقاً ، على اعتبار أنه لا يقال : الغزاة - بالتاء - مخصوصة بالشمس ، ولا يقال لأنثى الغزال : غزاة ، بل ظبية ، كما نصّ عليه اللغويون ، فلا تصحّ التورية فيها ؛ لأنّه لم يثبت إجماع اللغويين على ذلك^(٢) .

ومنهم من ذهب إلى أنّ التورية مرشحة بـ (حرفت) في (الغزاة) ، ومجردة في (الجدي) و(الحمل)^(٣) .

ومنهم من قال : إنها من التورية المبيّنة في ألفاظ (الغزاة) ، والجدي ، والحمل) ؛ إذ المعنى القريب لها جميعاً الحيوانات المعروفة ، والمعنى البعيد هو الشمس والأبراج ، وقد ذكر في البيت الأول ما يلائم هذه المعاني البعيدة المورى عنها ، وهو إهداء كانون من ملابسه لتمّوز ألواناً من الحلل . وقد علّل كونها من المرشحة خطأ ؛ لأنّ المعنى قائم على التصوير والتخييل ، فإسناد (حرفت) إلى (الغزاة) استعارة تخيلية^(٤) .

وكلّ تلك الأقوال وجهاتُ نظرٍ لها ما يُسوِّغها ، وإن كان الخطيب في رأيي كان أقرب إلى الصواب .

(١) انظر : خزنة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٣٥ ، وزاد : " فإن قيل : إنّ الغزاة قد رشحت بذكر (الجدي) و(الحمل) ، وهما مرشّحان بـ(الغزاة) ، فالجواب أن لازم التورية من شرطه أن يكون لفظه غير مشترك ، و(الغزاة) هنا مشتركة ، وكذلك (الجدي) و(الحمل) - فإنهما يُطلقان على الحيوان المعروف وعلى بعض البروج - كما ذكر ابن معصوم " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٧ .

(٢) انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ٨ .

(٣) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٣٢ .

(٤) انظر : علم البديع دراسة تاريخية وفنية ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

وأخلصُ من هذا كله إلى أنّ ابن أبي الإصبع رغم إعجابه بهذا البيت كان صائباً أيضاً حينما أعرض عن ذكر هذا الشاهد في كتابه (بديع القرآن) ؛ وذلك لأنّ الترشيح في توريات القرآن الكريم لا يؤدي إلى لبسٍ كما قد يؤدي في توريات الشعراء ، كقول أبي الفضل عياض السابق .

الإيهام :

جعل الخطيب القزويني الإيهام اسماً ثانياً للتورية ؛ لأنّ السامع يتوهم أنّ المتكلم يريد المعنى القريب لأوّل وهلة ، ولأجل هذا سُمّيَت (إيهاماً)^(١) ، إلا أنه قدّم اسم التورية أولاً .

وانطلاقاً من هذا الاسم فإنّ القزويني قسّم التوهم فيها إلى ضربين : ضرب يستحكم حتى يصير اعتقاداً ، وضرب لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولكنّه يجري في الخاطر ، وأنت تعرف حاله كما ذكر^(٢) .

وربّما كان بهذا التقسيم يُدعّم تسمية التورية بالإيهام .

فمثل على الضرب الأول بقول الشاعر :

حَمَلْنَاهُمْ طُرّاً عَلَى الدُّهْمِ بَعْدَمَا خَلَعْنَا عَلَيْهِمُ بِالطَّعَانِ مَلَابِساً^(٣)

فلفظة (الدّهْم) لها معنيان ؛ تحتل الأفراس السود ، وهذا قريب متبادر إلى الذهن ، لكنّه غير مراد ، ولأعمّه قوله : (حملناهم) ؛ لأنّ الحمل من لوازم الخيل ، وتحتل القيود السوداء ، وهو المعنى البعيد المراد ، بدليل قوله : (خلعنا عليهم بالطّعان ملابس) .

وهذه تورية مرشّحة بما يلائم المعنى القريب .

(١) انظر : خزنة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٣٣ .

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

(٣) (طُرّاً) : جميعاً ، (الدّهْم) : جمع أدهم ، ويقال للفرس وللبعير والناقة دهماء ، أي : سوداء وأسود ، قال

الله تعالى : ﴿ مُذْهَبَاتَانِ ﴾ ، أي : سوداوان ، ويقال للقيد : الأدهم ، (الطّعان) : أي الطعن .

والمعنى أنهم أسروهم وقيدوهم بالحديد بعد أن أثخنوهم بالجراح .

" والشاهد في أنّ قوله : (حملناهم) يفيد استحكام التوهم في البيت حتى لا يدرك عدم إرادة القريب إلا بتأمل وطول نظر ^(١) .

وهذا هو مقصد الخطيب من قوله : " يستحكم حتى يصير اعتقاداً " ^(٢) .

وقد مثل على الضرب الثاني بقول ابن الريع :

لَا التَّطِيرُ بِالْخِلَافِ وَأَنْتَهُمْ قَالُوا : مَرِيضٌ لَا يَعُودُ مَرِيضًا ^(٣)
لَقَضَيْتُ نَحْبِي فِي فَنَائِكَ خِدْمَةً لَأَكُونَ مَدُوبًا قَضَى مَفْرُوضًا ^(٤)

وقال : " ولا بدّ من اعتبار هذا الأصل في كلّ شيء بُني على التوهم - فاعلمه - " ^(٥) .

فالتورية وقعت في لفظة (مندوبا) ، والشاهد يظهر في أنّ عدم إرادة المعنى القريب ظاهر لا يحتاج إلى تأمل وطول نظر ^(٦) .

إذ المقصود هو ندب الميت والبكاء عليه ، لا المسنون الذي هو خلاف الفرض .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، هامش (٣) .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

(٣) (التطير) : التشاؤم ، (الخلاف) : مخالفة العرف والعادة .

(٤) (النحب) : الأجل ، (المدوب) : اسم مفعول من الندب . ومعناه القريب : المسنون ، وهو خلاف الفرض ،

أو هو أحد الأحكام الشرعية ، ومعناه البعيد - وهو المراد هنا - : من ندب الميت : إذا بكاه ،

و(قضى) : مات . والمعنى : لأكون ميتاً مرثياً قضى مفروضاً عليه ، وهو الموت حزناً على ذلك المريض ،

كما ذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي في تعليقه هامش (٥) ، ص ٢٨ من الإيضاح ، ج ٤ .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٨ . قال ابن عريشاه موضحاً قوله : " يعني لا ينبغي الإيهام بحيث يصير اعتقاداً ؛

لأنّه إخلال ، وإنما ينبغي رعاية القسم الثاني ، والمحافظة عليه " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ .

وقال الصعيدي : " هو الاكتفاء بمجرد خطور المعنى بالبال وإن لم يكن مستحكماً ، وإنما وجب اعتباره ؛

لأنّ كثيراً من مطالب علوم البلاغة مبني على الإيهام ، ولو قصر على الضرب الأول تعذر طرده في جميع

هذه المطالب " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، هامش (٦) .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، هامش (٥) .

وعدّ كثيرٌ من الدارسين أنّ هذه التورية مهيأة بلفظٍ بعدها ، وهو قوله : (قضى مفروضاً) ، ولو لم يكن لَمَّا كان فيه تورية البتة ، ولَمَّا تنبّه السامع لمعنى المندوب القريب ، ولكنه لما ذكر تهيأت التورية بذكره^(١) .

وهذا الشاهد يُقابل شاهد ابن أبي الإصبع الذي ذكره في أوّل باب (التورية) في كتابه (تحرير التحرير) ، وهو قول عليّ - كرم الله وجهه - في الأشعث بن قيس : وهذا كان أبوه ينسج الشمال باليمين^(٢) .

وقال موضّحاً : " لأنّ قيساً كان يحوك الشّمال التي واحدتها شَمْلَة " ^(٣) .

ولم يزد على هذا ، وكأنّه يقصد أنّ المعنى البعيد المراد للشمال هو جمع (شَمْلَة) ، وليس الشّمال إحدى اليدين الذي هو المعنى القريب المتبادر إلى الذهن لأوّل وهلة وغير مراد . وهو شاهدٌ من التورية المهيأة أيضاً ؛ إذ لولا ذكر (اليمين) بعد (الشّمال) لَمَّا تنبّه السامع لمعنى اليد^(٤) .

وإذا كان ابن أبي الإصبع أخطأ في هذا المثال كما ذكر بعض المحققين^(٥) .

(١) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٤٢ ، وأنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ١٣ .

(٢) انظر : تحرير التحرير ، ص ٢٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

والشَمْلَة الصّماء - في الميم وبالفتح - : كساء صغير دون القطيفة يُشتملُ به ويؤتزر ، والجمع (شملات) ، مثل : سجدة وسجّدت ، واشتمل بالثوب : أدّاه على جسده كلّهُ حتى لا تخرج منه يده . والشَمْلَة - بالكسر - : هيئة الاشتمال .

(٤) انظر : خزانة الأدب ، ج ٣ ، ص ٥٤٢ .

(٥) اعترض عليه بعض المحققين وقال : " تواری وجه التورية عن هذا المثال ، وليس فيه غير إيهام الطباق بين اليمين والشمال ؛ لما قالوه من أن التورية إطلاق لفظ له معنيان يمكن حمله على كلّ منهما ، ووصف الشمال بالحياكة نفى أن يراد بها مقابل اليمين ، فانحصر لفظ الشمال في معنى الجمع كما لا يخفى " . نقله ابن معصوم وقال : " وهو في محله " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٥ ، ص ١٣ . والحقّ أنّه قولٌ لا غبار عليه ، ويقبله العقل دون تردّد ، وإلا فأيّ معنى لأنّ يحوك الرّجل إحدى يديه بالأخرى إذا كان هذا هو

لكن يُفهم من شاهده هذا على أيّ حال وشاهد الخطيب القزويني السابق أنّ أنواع التورية الأخرى قد وردت في شواهدهما من غير تصريح ، وإن كان زكي الدين المصري لم يُشر إلى أيّ نوع منها في الأصل ، بينما اكتفى الخطيب بذكر نوعين فقط ؛ لما سبق تعليله .

ومن التوريات اللطيفة التي ذكرها ابن أبي الإصبع ولم يُشر إليها جلال الدين الخطيب ؛ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾^(١) ، ثمّ وضع هذا بقوله : " أي خياراً ، وظاهر اللفظ يوهم التوسط مع ما يعضده من توسط قبلة المسلمين صدق على لفظ (وسط) هاهنا أن يُسمّى تعالى به ؛ لاحتماها المعنيين ، ولما كان المراد - والله أعلم - أحد المعنيين^(٢) الذي هو الخيار دون الآخر ، صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب . والله أعلم^(٣) .

فقوله محلاً : " وظاهر اللفظ يوهم التوسط ... " يدلّ على أنه لا يخفى عليه أنّ في التورية إيهاماً ، ويمكن أن تُسمّى كذلك ، لكنه فضّل تسميتها بالتوجيه ؛ لما سبق تعليله ، أضف إلى أنه ربما كان يتوخّى الدقة والحذر والاحتياط في إطلاق المصطلحات وهو يتعامل هنا مع النصوص القرآنية ؛ إذ لم أحدّ عنه باباً اسمه (الإيهام) في كتابيه ، وإن كان عنده (التوهم) ، وهو مختلف عن باب (التورية) أو الإيهام^(٤) ، لكنه يلتبس عنده بالتورية ولم يُنبّه

المعنى القريب المتبادر إلى ذهن لا يعي ، خاصة وأنّ جمع (شَمْلَة) (شَمَلَات) ، وليس (شِمَال) ؟! . وإنما قد تُسمّى مفردة : (شِمَال) . انظر : مختار الصحاح ، ص ٣٤٧ ، والمصباح المنير ، ص ٣٢٣ ، باب (الشين) .

(١) سورة البقرة : الآية (١٤٣) .

(٢) قال السيوطي : " أبعد المعنيين وهو الخيار " . انظر : الإتيقان ، ص ٦٤٧ .

(٣) بديع القرآن ، ص ١٠٣ .

(٤) التوهم عنده : " هو أن يأتي المتكلم بكلمة يوهم ما بعدها من الكلام أن المتكلم أراد تصحيحها وهو يريد غير ذلك " . انظر : بديع القرآن ، ص ١٣١ ، وتحرير التحبير ، ص ٣٤٩ . ومثّل عليه بقول المتنبي :

وإنّ الفئام التي حولهُ لتَحسُد أرجلها الأَرؤُسُ

" فإنّ لفظة (الأرجل) أوهمت السامع أنّ لفظة (الفئام) - بالقاف لا بالفاء - ، ومراد الشاعر الفئام - بالفاء - التي هي الجماعات ، هكذا روى البيت ، والمبالغة تقتضيه ؛ إذ القيام بالقاف يصدق على أقلّ الجمع من العدد ، والفئام - بالفاء - الجماعات ... " . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٤٩ ، وكذا ما مثّل به عليه (ص ٣٥١) ، وهو أوضح .

على الفرق بينهما كما هي عادته كما ذكر الدكتور حفني شرف^(١).

والفرق بينهما من ثلاثة أوجه - كما ذكر ابن معصوم - :

" أحدها : أن التورية توهم وجهين صحيحين ؛ قريباً وبعيداً ، والمراد البعيد منهما والتوهم يوهّم صحيحاً وفساداً ، والمراد الصحيح منهما .

الثاني : أن التورية لا تكون إلا باللفظة المشتركة ، والتوهم يكون بها وبغيرها .

الثالث : أن إيهام التورية مما يتعمده الناظم ، والتوهم مما يتوهمه القارئ أو السامع "^(٢).

ومما يميّز به ابن أبي الإصبع عن الخطيب القزويني فضلاً عن أنه يذكر الشاهد دون بتر ،

وهذا اللون سماه صاحب عروس الأفراح : (التوهم) ، وذكر أنه إما أن يوتى بكلمة يوهّم ما بعدها أن المتكلم أراد تصحيحها ، أو يوهّم أن فيه لحناً ، أو أنه قلب عن وجهه ، أو أن ظاهره فاسد المعنى ، أو أراد غير معناها ، ويكون الأمر بخلاف ذلك في الجميع . وذكر أن لهذه الأقسام أمثلة ذكرها صاحب (بديع القرآن) . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٤٠١ .

(١) انظر : تحرير التحرير ، ص ٣٤٩ (الهامش) . إلا أنني وجدت ابن أبي الإصبع يقول في آخر باب (التوهم) : " ومن التوهم توهم يوهّم أنه طباق أو تورية ، أو غير ذلك من المحاسن ، وليس عند التحقيق كذلك " . ثم يذكر شاهد توهم التورية ويحلّله ، وهو قوله من نظمه :

رَمَى - ولا وترَ عندي - قوسُ حاجِبِهِ قَلْبِي فَقَدَرْتُ أَنَّ الْقَوْسَ مَوْثُورُ

ويقول " فإنّ لفظة (مَوْثُور) تُوهِم أن فيها تورية ، وليست بتورية ؛ لأنّ الصحيح أن يُقال : قوسٌ مَوْثُورَةٌ لا مَوْثُورَةٌ ؛ لأنّها من فعل رباعي ، والمَوْثُور هو الذي ثَارَ لطلب وتره ، والوتر والتره والتار بمعنى " . انظر : تحرير التحرير ، ص ٣٥١ .

وهذا شاهدٌ دالٌّ على صبغته الأدبية أولاً ، وكيف أنه قد ينظّم بيتاً شعرياً إن احتاج الأمر إلى ذلك ، وهو شاهد يعكس إحساسه بالفرق بين التوهم والتورية ، وأنّها قد تلتبس وإن لم يصرّح بهذا الفرق علمياً ، وهذا المثال لم يذكره في كتابه (بديع القرآن) .

(٢) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ٣٨ . ورغم هذه الفروق ، إلا أن لابن حجة رأياً آخر ؛ إذ يقول : " هذا النوع - أعني التوهم ، وتقّدمه باب الترشيح - كان الأليق بهما أن ينتظما في سلك باب التورية ، ويذكر التوهم مع إيهامها ، والترشيح مع المرشحة منها " . انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .

وكان ابن حجة قد أشار إلى ما يسمى بإيهام التورية ، وقال : " ولهم إيهام الطباق ، كما لهم إيهام التورية " . انظر : ج ٢ ، ص ٧٦ . إلا أنني بحثت عن شاهدٍ لذلك فلم أجد .

فإنه قد يذكر السياق أحياناً الذي يرد فيه الشاهد لمزيد من البيان والإيضاح ، وهذه من سماته الأدبية المشرقة ، خاصة إذا كان الشاهد قد يُثير جدلاً في قبوله ، كالمثال السابق ؛ فإنك تجد أنه قد ذكر النصّ القرآني أو السياق الذي ورد فيه هذا المثال ، وقال : " ومن التوراة اللطيفة قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، حيث قال : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ^(١) . ولما كان الخطاب لموسى عليه السلام من جانب الطور الغربي وتوجّهت اليهود إليه ، وتوجّهت النصارى إلى الشرق ، وكانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبليتين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ^(٢) ... " ^(٣) .

وقد نظر السيوطي إلى بقية الآية من بعد ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ^(٤) ، وقال : " وهي مرشحة بلازم المورى عنه ، وهو قوله : ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ؛ فإنه من لوازم كونهم خياراً ، أي عدولاً ، و(الإتيان) قبلها من قسيم المحرّدة " ^(٥) .

ولعلّ بسط ابن أبي الإصبع لهذا الشاهد والسعة التي انتهجها في تحليله له هو الذي ألهم السيوطي إلى قوله السابق ، وبذلك يكون هذا المثال من أمثلة التورية المرشحة التي لا يفطن إليها السامع إلا بعد تأمل وطول نظرٍ إليه وإلى السياق الذي ورد فيه من قبل ومن بعد .

(١) سورة البقرة : الآية (١٤٥) .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٤٣) .

(٣) بديع القرآن ، ص ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية (١٤٣) .

(٥) الإتيان ، ص ٦٤٧ . وقد ذكر أنّ هذا من قبيل قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [سورة الرحمن : الآية ٦] ، وقال : " فإنّ النجم يُطلق على الكوكب ، ويرشّحه له ذكر الشمس والقمر ، وعلى ما لا ساق له من النبات ، وهو المعنى البعيد له ، وهو المقصود في الآية " .

وكما دلّ هذا الشاهد من قبل على إيهام التناسب ، فإنه يؤكّد على أنّ الإيهام داخلٌ في أصل التورية ونسيجها . وكان الأحرى بابن أبي الإصبع أن يُسمّيها كذلك ، لكنّها على كلّ حال وجهة نظر لها ما يُسوّعها كما ذكّرت .

التوجيه :

إذا كان جلال الدين القزويني قد عقد باباً خاصاً للتوجيه ولم يشأ إطلاقه على التورية كما فعل ابن أبي الإصبع ؛ فإنّ العجيب أنّ ابن أبي الإصبع يعقد باباً هو الآخر للتوجيه ، لكنه يغيّر اسمه إلى اسم آخر يرتضيه هو ، ويسميه (الإبهام) ؛ لأنّ كلاهما استشهادا عليه بقول بشار بن برد :

خَاطِلِي عَمْرُو قَبَاءَ لَيْتَ عَيْنِيهِ سَوَاءُ^(١)

وقد يقول قائل : إنّ وجود الشاهد عند كليهما ليس مقياساً لتوحد اللون عندهما ، لكن برغم أنّ ابن أبي الإصبع عدّ (الإبهام) من أبوابه التي ابتدعها وضروبه التي استخرجها كما ذكر هذا في مقدّمة كتابه (تحرير التحبير)^(٢) ، وأنّه غير التوجيه^(٣) ، لكن الذي يظهر أنّ شطراً من هذا الباب هو عينه التوجيه عند السكاكي والخطيب ، وشطراً منه داخلٌ فيما سمّاه .

(١) انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ١٣٨ . ولم ينسب الخطيب ولا ابن أبي الإصبع البيت إلى بشار ، إنّما حكى ابن أبي الإصبع حكايةً نسبَ فيها البيت إلى شاعرٍ مطبوع ، وذكر أنّه فصلّ قباء عند خياط أعور اسمه زيد - أو عمرو كما ذكر صاحب معاهد التنصيص - ، فقال له الخياط على طريق العبث به : سأتيك به لا يُدرى أقباء هو أم دُواج ، فقال الشاعر : لئن فعلت لأعملنّ فيك بيتاً لا يعلم أحدٌ من سمعه أدعوتُ لك فيه أم دعوتُ عليك . ففعل الخياط ، فقال الشاعر :

جاء من زيدٍ قبَاءَ ليت عينيه سواء

[وهذه رواية أخرى للبيت] .. فما علم أحدٌ هل أراد أن الصحيحة تساوي السقيمة أو العكس .

انظر : تحرير التحبير ، ص ٥٩٧ ، وبدیع القرآن ، ص ٣٠٩ .

(٢) انظر : مقدمة تحرير التحبير ، ص ٩٤ .

(٣) بينما ذكر ابن معصوم أنّ الإبهام هو التوجيه ، وقال : " الإبهام - بالباء الموحدة - وسماه بعضهم : التوجيه ، ومحتمل الضدين ، وهو عبارة عن أن يقول المتكلم كلاماً محتملاً لمعنيين متضادين ، لا يتميز أحدهما عن الآخر ، كالمديح والهجاء وغيرهما . ولا يأتي بعده بما يميز المراد منهما ، قصداً للإبهام .

وزاد بعضهم : وينبغي أن يكون المراد أنه إذا جرد عن القرائن ولم ينظر إلى القائل والمقول فيه ، كان احتمالاه للمعنيين على السوية " . انظر : أنوار الريع ، ج ٢ ، ص ٥ .

إذ عرّفه قائلاً - وقد أزال كل لبس يمكن أن يُفهم خطأً من إطلاقه أو يعتقد أنه
تصحيّف - ، فقال : " بقاء معجزة من تحت بواحدة ، وهو أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل
معنيين متغايرين ، لا يتميز أحدهما عن الآخر " ^(١) .

ويلتقي هذا مع تعريف الخطيب ، وهو : " إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين " ^(٢) .

وزاد السكاكي : " وللمتشابهات من القرآن مدخل في هذا النوع باعتباره " ^(٣) .

وكذا قال في التورية بأن " أكثر التشابهات من هذا القبيل " ^(٤) ، وهو ما نقله الخطيب
عنه في البابين ولم يزد عليه في الإيضاح ، بينما علّق في كتابه (التلخيص) موضحاً عبارته
فقال : " وهو احتمالها للوجهين المختلفين مع عدم وجود التضادّ كما في التوجيه عموماً " ^(٥) .

وكان حرياً به أن يضرب أمثلة على هذه التشابهات التي أشار إليها السكاكي .

وعلى أيّ حال فإنّ مفهوم التوجيه من هذه الجهة عند ابن أبي الإصبع هو نفسه عند
السكاكي والخطيب ، إلا أنّ ابن أبي الإصبع فرّق بينه وبين الاشتراك المغيّب ، وذكر

(١) يدعي القرآن ، ص ٣٠٦ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٥٦ . وقد اعترض عليه السبكي وقال : " كذا أطلقه المصنف ، ويجب تقييده
بالاحتمالين المتساويين ، فإنّه إن كان أحدهما ظاهراً ، والثاني خفياً ، والمراد هو الخفي ، كان تورية " .

انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٧١ .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .

(٥) التلخيص ، ص ١٩٤ . والعجيب رغم هذا البيان ، إلا أنه كان محلّ نقد عند السبكي لما نقل الخطيب
عبارة السكاكي دون اعتراض ، فقال : " ونقله المصنف عنه ولم يعترض ، وفيه نظر ؛ لأنّ تشابهات
القرآن تقدّم أنها من التورية ؛ لأنّ أحد احتماليها - وهو ظاهر اللفظ - غير مراد ، وقوله : (باعتبار)
يريد باعتبار مطلق الاحتمالين ، لا باعتبار استواء الاحتمالين ، فإنه لا استواء في احتمال التشابهات " .
انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٧١ . بينما فسّر السعد عبارة السكاكي وقال : " ومن التوجيه
[متشابهات القرآن باعتبار] وهو احتمالها للوجهين المختلفين وتفرقه باعتبار آخر ، وهو أنه يجب في
التوجيه استواء الاحتمالين ، وفي التشابهات أحد المعنيين قريب والآخر بعيد ، ولهذا قال السكاكي : وأكثر
متشابهات القرآن من قبيل التورية والإيهام " . انظر : المطول ، ص ٦٧٨ .

ويظهر أنّ تفسير السعد لعبارة السكاكي أقرب إلى الصواب ، وأدعى إلى القبول من تفسير السبكي .

" أن الاشتراك لا يقع إلا في لفظة مفردة لها مفهومان لا يعلم أيُّهما أراد المتكلّم . والإبهام لا يكون إلا في الجمل المؤتلفة المفيدة ، ويختصّ بالفنون كالمدح ، والهجاء ، والعتاب ، والاعتذار ، والفخر ، والرّثاء ، والنّسيب .. وغير ذلك ، ولا كذلك الاشتراك " ^(١) .

ومن هنا يتوسّع مفهوم التوجيه عند ابن أبي الإصبع ، ويبدأ بتفريعه إلى نوعين ، حيث يتابع فيقول : " ومنه نوعٌ آخر يقع لأحد أمرين : إما لامتحان جودة الخاطر ، وإما لامتحان قوة الإيمان من ضعفه " ^(٢) .

ويمثّل على كلّ نوع ، ويعدّ بيت بشار بن برد من النوع الثاني .

قال ابن حجة : " ولم أسمع من شواهد الإيهام غير البيت المنظوم في الخياط ، والبيتين المنظومين في الحسن بن سهل ، وهذا النوع صعب المسلك في نظمه ؛ لأنّ المراد من الناظم أن يُيهم المعنيين ، بحيث لا يكاد أحدهما يترشّح على الآخر " ^(٣) .

ولعلّ اختلاف التسمية عند زكي الدين المصري ، والتفصيل فنياً في مفهوم التوجيه عما هو عند السكاكي والخطيب ، ثم التوسّع فيه بحيث أتى بنوعٍ ثانٍ لم يُشر إليه كلاهما ، هو الذي دفع بعض الدارسين إلى أن يُسلّم هذا الباب - وهو (الإبهام) - لابن أبي الإصبع وحده وغير مسبوق إليه ، خاصة وأنه لم يتصل بكتاب السكاكي ولم يرجع إليه كما ذكروا ؛ لأنّه لم يأت على ذكره في ثبت مراجعه ^(٤) .

وذكر ابن حجة أنّ " تسمية النوع بالإبهام هنا أليق من تسميته بالتوجيه ، ومطابقة التسمية فيه لا تخفى على أهل الذوق الصحيح ، وهذا مذهب زكيّ الدين ابن أبي الإصبع ،

(١) بديع القرآن ، ص ٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٧ .

(٣) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ . وقد أورد ابن أبي الإصبع البيتين المنظومين في الحسن بن سهل ، وهما :

بَارِكْ اللَّهُ لِلْحَسَنِ وَلِبُورَانَ فِي الْخِطَانِ

يَا إِمَامَ الْهَدَى ظَفَرَ تَ وَلَكِنْ بَيْنَتِ مَنْ ؟

انظر : بديع القرآن ، ص ٣٠٨-٣٠٩ ، وتحرير التحرير ، ص ٥٩٦-٥٩٧ .

(٤) انظر : ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٥٤٠-٥٤١ .

فإنه هو الذي تحيّر الإبهام ... وقال في ديباجته : وربما أبقيت اسم الباب ، وغيرت مسمّاه إذا رأيت اسمه لا يدلّ على معناه ، وقد أجمع الناسُ على أنّ كتابه المسمّى بِـ (تحرير التحبير) أصحّ كتاب ألف في هذا الفنّ ؛ لأنّه لم يتكلّ فيه على النقل دون نقد ... " (١).

وإذا كان ابن حجة قد نافح عن تسمية ابن أبي الإصبع ، فإنه هو نفسه الذي يقول : " وقد أدخل جماعة نوع التوجيه في التورية وليس منها " (٢).

فربّما يقصد بهذا الكلام : زكي الدين المصري وغيره ، وإن لم يصرّح بذلك . ثمّ فرّق بينهما وقال : " والفرق بينهما من وجهين : أحدهما : أنّ التورية تكون باللفظة (٣) ، والتوجيه باللفظ المصطلح عليه ، والثاني أنّ التورية تكون باللفظة الواحدة ، والتوجيه لا يصحّ إلا بعدّة ألفاظ متلازمة " (٤).

ولخصّ الدكتور عبد الفتاح لاشين هذه الفروق في ثلاث نقاط :

● أنّ المقصود في التورية أحد المعنيين ، وهو البعيد ، أما في التوجيه فالمعنيان سواء .

(١) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ . وانظر كلامه في أوّل الباب ، ص ٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ .

(٣) ذكر الدكتور عبد العظيم المطعني أنّه لا بدّ في التورية من قرينة خفية ، ولا بدّ فيها كذلك من تفاوت المعنيين في القرب والبعد ، فإن تساويا فيهما فلا تورية ، مثل كلمة (جون) ، فلها معنيان : أبيض - أسود ، لكنهما متساويان في القرب والبعد ما لم تدلّ قرينة على المراد منها .

هذه الكلمة لا تورية فيها ؛ لعدم تفاوت المعنيين . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٣١ . وهو بهذا يُدللّ على أنّه لا بدّ من تقييد لعبارة ابن حجة ، وهي : (أنّ التورية تكون باللفظة المشتركة) ، ولا ينبغي أن تُطلق هكذا . واعتبر ابن معصوم هذه الفروق التي ذكرها ابن حجة إنّما هي على مذهب الشيخ صفي الدّين في فهم التوجيه ، فقال : " وأما على مذهب الشيخ صفي الدين من أنّه - أعني التوجيه - تأليف المتكلم مفردات بعض كلامه وجُمّله وتوجيهها إلى أسماء الأعلام ، أو قواعد علوم ، أو غيرها ، فالفرق بينه وبين التورية من وجهين : أحدهما : أنّ التورية تكون باللفظ المشترك ، والتوجيه باللفظ المصطلح ، والثاني : أنّ التورية تكون باللفظ الواحد ، والتوجيه لا يصحّ إلا بعدّة ألفاظ متلازمة " .

انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ١٧٧-١٧٨ .

(٤) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٥٣-٣٥٤ .

- أنّ التورية تكون في الألفاظ المفردة ، بينما التوجيه يكون في التركيب كله .
- أنّ التورية لها معنيان في اللغة وفي أصل الوضع ، بينما التوجيه يدلّ على معنييه بمعونة السياق^(١) .

وذكر ابن معصوم " أنّ التوجيه يلتزم فيه أن يكون المعنيان متضادّين لا يتميّز أحدهما عن الآخر ، بخلاف التورية ؛ فإنه لا يلتزم فيه تضادّ المعنيين ، ولا عدم تمييز أحدهما عن الآخر " ^(٢) .

وإذا كان ابن أبي الإصبع قد سمّى التورية توجيهاً فربّما يكون منطلقاً في هذه التسمية من شاهدٍ واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ ^(٣) ، اتّكأً على أوجه التفاسير المتعدّدة التي تحتل الصحة كلها وتحتل استواء المعاني ، وقد كان حريّاً به أن يُدرج هذا الشاهد في باب (الإبهام) عنده إذا كان هذا الباب يضمّ التوجيه أيضاً بمفهومه عند السكاكي والخطيب .

أو يعقد للتوجيه باباً منفصلاً عن باب (التورية) وعن باب (الإبهام) ، ويستشهد عليه بما يليق به من الشواهد التي لن يعجزه العثور عليها أو حتى نظمها ، لكنّ ابن أبي الإصبع قد

(١) انظر : البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١١١ . وكذا قال الدكتور أحمد مطلوب في كتابه (معجم المصطلحات البلاغية) ، ص ٤٣٢ ، متأثراً بقول ابن الأثير الحلبي ، وهو : " حدّ التورية أن تكون الكلمة تحتل معنيين ، فيستعمل المتكلّم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله . وحدّ التوجيه أنّه اللفظ المحتمل وجهين يحمل المتكلم مراده على أيّهما شاء " . انظر : معجم المصطلحات ، ص ٤٣٢ ، (نقلاً عن جوهر الكنز ، ص ١١١) .

(٢) أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ١٧٨ . وقد ردّ ابن معصوم على من قال بأنّ التورية منها ما يحتاج إلى توجيه ألفاظ قبلها ترشح الكلام للتورية ، ومنها ما لا يحتاج ، فيكون هذا الاسم خاصّاً لما يحتاج ، كالنوع منها ، واسم التورية كالجنس لها ؛ بأن قال : إنّ تخصيص التوجيه بما يحتاج إلى ألفاظ قبلها ترشح الكلام للتورية هو بعينه التورية المرشحة ، ولا يؤثر عن أحد تسميتها بالتوجيه ، فهو اصطلاحٌ جديد ، إذا اختير فلا مُشاحة في الاصطلاح . انظر : أنوار الربيع ، ج ٣ ، ص ١٧٧-١٧٨ .

(٣) سورة يونس : الآية (٩٢) .

يُعذر في هذا التداخل ؛ لأنه كان مُقدَّراً عليه أن يعيش في زمنٍ قد تداخلت فيه المصطلحات البلاغية ، ولم يكن قد استوى بعضها بعد ، أو حتى استقلَّ وتحدَّد ، فله أجر الاجتهاد وشرف المحاولة .

وبقيت نقطة هامة هنا لا بدَّ من الإشارة إليها في نهاية هذا المبحث ، وهي أن ابن أبي الإصبع والخطيب القزويني مسبقان إلى التوجيه .

فقد " التفتَ إليه الفراء وإن لم يُسمِّه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ^(١) .

فُيُفهم منها الذمُّ الذي أراده اليهود ، والمدح الذي قصده المسلمون ، حيث رغبوا في أن يرعاهم الرسول ﷺ ^(٢) .

وقد أضاف القزويني إلى كلام السكاكي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا .. ﴾ ^(٣) ، نقلاً عن الزمخشري الذي سماه القول ذا الوجهين ^(٤) .

وقال : " قولهم : (غير مُسْمَع) حالٌ من المخاطب ، أي : اسمع وأنت غير مُسْمَع ، وهو قولٌ ذو وجهين يَحْتَمِلُ الذمَّ ، أي : اسمع منَّا مدعواً عليك بِ(لا سَمِعْتَ) ؛ لأنَّه لو أُجِيبَتْ دعوتُهُمْ عليه لم يسمع ، فكان أصمَّ غير مُسْمَع . قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم : (لا سَمِعْتَ) دعوة مستجابة ، أو (اسمع) غير مجاب إلى ما تدعو إليه . ومعناه : غير مُسْمَع جواباً يوافقك ، فكأنك لم تسمع شيئاً ، أو اسمع غير مُسْمَع كلاماً ترضاه فسمُكْ عنه نابٍ . ويجوز على هذا أن يكونَ غير مُسْمَع مفعول (اسمع) ، أي : اسمع كلاماً غير مُسْمَع إِيَّاكَ ؛ لأنَّ أذنك لا تعيه نبواً عنه . ويَحْتَمِلُ المدح ، أي : اسمع غير مُسْمَعٍ مكروهاً ، من قولك : اسمع فلاناً إذا سبه . وكذلك قولهم : (راعِنَا) يَحْتَمِلُ راعِنَا نكلِّمك ، أي : ارقبنا وانتظرنا ،

(١) سورة البقرة : الآية (١٠٤) .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٤٣٢ ، (نقلاً عن معاني القرآن ، ج ١ ، ص ٦٩) .

(٣) سورة النساء : الآية (٤٦) .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص ٤٣٢ ، والبلاغية القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٨٥ .

وَيَحْتَمِلُ شَبَهَ كَلِمَةِ عِبْرَانِيَّةٍ أَوْ سَرِيَانِيَّةٍ كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ بِهَا ، وَهِيَ (رَاعِنَا) ، فَكَانُوا سَخَرِيَّةً بِالْدِينِ وَهَزْوَاً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَكْلَمُونَهُ بِكَلَامٍ مُحْتَمَلٍ يَنْوُونَ بِهِ الشَّتِيمَةَ وَالْإِهَانَةَ ، وَيُظْهِرُونَ بِهِ التَّوْقِيرَ وَالْإِكْرَامَ ﴿لَيْتَ بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ : فَتَلَّأَ بِهَا وَتَحْرِيفاً ، أَي : يَفْتَلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمُ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ ، حَيْثُ يَضْعُونَ (رَاعِنَا) مَوْضِعَ (انْظُرْنَا) ، وَ(غَيْرُ مُسْمَعٍ) مَوْضِعَ (لَا أَسْمَعْتُ مَكْرُوهاً) ، أَوْ يَفْتَلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا يُضْمِرُونَهُ مِنَ الشَّتْمِ إِلَى مَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ التَّوْقِيرِ نِفَاقاً .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ جَاءُوا بِالْقَوْلِ الْمُحْتَمَلِ ذِي الْوَجْهِينِ بَعْدَمَا صَرَّحُوا وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصِينَا ؟ .

قُلْتُ : جَمِيعُ الْكُفْرَةِ كَانُوا يُوَاجِهُونَهُ بِالْكَفْرِ وَالْعَصِيَانِ ، وَلَا يُوَاجِهُونَهُ بِالسَّبِّ وَدَعَاءِ السَّوِّءِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَنْطَقُوا بِذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا جَعَلُوا كَأَنَّهُمْ نَطَقُوا بِهِ .

وَقَرَأْتُ أَبِي : ﴿وَانْظُرْنَا﴾ ، مِنْ الْإِنْظَارِ ، وَهُوَ الْإِمْهَالُ ^(١) .

قَالَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ أَبُو مُوسَى : " وَقَدْ نَقَلَ صَاحِبُ الْإِيضَاحِ هَذَا التَّحْلِيلَ وَلَمْ يَزِدْ فِي بَيَانِ التَّوْجِيهِ زِيَادَةً ذَاتَ فَائِدَةٍ عَنْ مَا ذَكَرَهُ الرَّمَحْشَرِيُّ " ^(٢) .

وَقَدْ نَقَلَ الْوُطَوَاطُ أَيْضاً هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الرَّمَحْشَرِيِّ ، وَسَمَاهُ : (الْمُحْتَمَلُ لِلضَّدِّينِ) ، وَقَالَ فِيهِ : " وَيُسَمَّوْنَهُ أَيْضاً بِذِي الْوَجْهِينِ ، وَيَكُونُ بِأَنْ يَقُولَ الشَّاعِرُ بَيْتاً مِنَ الشَّعْرِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا لِلْمَدْحِ ، وَالْآخَرُ لِلْهَجَاءِ " ^(٣) .

وَمِنَ الْمَلِيحِ ذِكْرُهُ هُنَا وَمِسْكُ الْخَتَامِ لِهَذَا الْمَبْحَثِ ، أَيْبَاتٌ لِابْنِ أَبِي الْإِصْبَعِ الْمِصْرِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ ، يَقُولُ فِيهَا :

(١) الْكَشَافُ ، ص ٢٣٩-٢٤٠ .

(٢) الْبَلَاغَةُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي تَفْسِيرِ الْكَشَافِ ، ص ٥٨٥ ، وَانْظُرْ : الْإِيضَاحُ ، ج ٤ ، ص ٥٧-٥٨ . فَالنَّقْلُ وَاضِحٌ جَداً عَنِ الرَّمَحْشَرِيِّ ، إِلَّا أَنَّهُ يَاجِزُ بَعْضَ الشَّيْءِ .

(٣) انْظُرْ : مَعْجَمُ الْمِصْطَلَحَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ ، ص ٤٣٢ ، (نَقْلاً عَنْ حَدَائِقِ السَّحْرِ ، ص ١٣٢) .

أَيَا قَمَرًا مِنْ حُسْنِ صُورَتِهِ لَنَا
تَصَدَّقْ بِوَصْلِ إِنْ دَمَعِي سَائِلُ
جَعَلْتُكَ بِالتَّمْيِيزِ نُسْبًا لَنَا ظِرِّي
أَتَجَحَّدُنِي إِنْ الْقَوَامُ مُتَقَفُّ
غَدَا الْقَدُّ غُصْنَا مِنْكَ تَعْطِفُهُ الصَّبَا
وَحِلَّ عَذَارِيهِ الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ^(١)
وَزَوَّدَ فُؤَادِي نَظْرَةً فَهُوَ رَاحِلُ
فَهَلَّا رَفَعْتَ الْهَجَرَ وَالْهَجْرُ فَاعِلُ
وَنَاطِرُكَ الْفَتَّانُ بِالسَّحْرِ عَامِلُ
فَلَا غَرَوْ أَنْ هَاجَتْ عَلَيْهِ الْبَلَابِلُ^(٢)



(١) ورد البيت الأول في خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٢) بقية الأبيات في النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ص ٣٢١ ، وهي قصيدة في الملك المعظم ابن العادل .

الفصل الثاني

محاضرات الخطبة

ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : الجنس ، والفرق بينه وبين بعض الألوان التي تتداخل معه ، كالترديد والتصدير ، وفروق تناول بين العالمين .

المبحث الثاني : السجع والخلاف في إطلاقه على القرآن والشعر ، واختلاف عرضه عند كل من العالمين .

المبحث الثالث : لزوم ما لا يلزم ، وصلته بالأسجاع والفواصل ، وخطبة العالمين في تناوله .

المبحث الأول : الجنس ، والفرق بينه وبين بعض الألوان التي تتداخل معه ،

كالترديد والتصدير :

يَا مَنْزِلًا لِعَبِّ الزَّمَانِ بِهِ وَبَكَى الْحَمَامُ بِهِ كَمَا غَنَى
كُنَّا نَعُوجُ مُسَلِّمِينَ بِهِ فَالْيَوْمَ سَلَّمْنَا وَمَا عَجُنَا
إِنْ زَارَ دَارَكَ عَنْ مُرَاقَبَةٍ حَيًّا ، وَإِنْ لَمْ يَرْزُ حَنَا^(١)

هذه أبيات لمهيار بن مرزويه الديلمي^(٢) ، تجد بين بعض ألفاظها تجانسا ، كقوله : " نعوجُ ، وما عجنا " ، و " مُسَلِّمين ، سَلَّمنا " ، و " حَيَّا ، حَنَا " .

وهي ألفاظ أوقعت يجرسها في الأبيات حُسْنًا ، وأثارت بتجانسها في النفس حسًّا ، وهذا الإيقاع الحسن ، وهذا التأثير الحسي إنما هو ناتجٌ عن حلية الجنس .. وقد قدّم له عبد القاهر الجرجاني في معرض حديثه عن مزية الحسن في البديع بقوله : " وهاهنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أنَّ الحُسْنَ والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس ، ولها - إذا حُقق النظر - مرجعٌ إلى ذلك ، ومنصرف إلى ما هنالك ، منها : التجنيس ... " ^(٣) .

و " الجنس والتجنيس والمجانسة والتجانس : كلّها ألفاظ مشتقة من الجنس ، فالجناس مصدر جناس ، والتجنيس تفعيل من الجنس ، والمجانسة مفاعلة منه ؛ لأنَّ إحدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى وقع بينهما مفاعلة الجنسية ، والتجانس مصدر تجانس الشيئان : إذا دخلا تحت جنسٍ واحد " ^(٤) .

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ١٩ .

(نعوج) : من عاج عَوْجًا ومَعَاجًا : أقام ووقف ورجع ، وعطف رأس البعير بالزمام .

(٢) مهيار : فارسي الأصل . تخرّج في الشعر على يد الشّريف الرّضي ، ويمتاز بجزالة القول وطول النفس . وتوفي

سنة ٤٢٨ هـ ، وله ديوان كبير طُبِعَ بدار الكتب . انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٩ ، هامش (٤) .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ٧ .

(٤) أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ٩٧ .

قال ابن حجة : " ولَمَّا انقسم أقساماً كثيرة وتنوّع أنواعاً عديدة تنزل منزلة الجنس الذي يصدق على كلّ واحدٍ من أنواعه ، فهو حيثنّذٍ جنس ، وأنواعه : التام ، والمحرف ، والمصحف ... وهلمّ جرّاً .. كما أنّ البديع جنس ، وأنواعه : الجناس ، واللف ، والنشر ، والتورية ، وغير ذلك من أنواع البديع " (١).

و " الجنس : الضرب من كلّ شيء ، والجمع (أجناس) ، وهو أعمّ من النوع ، فالحيوان جنس ، والإنسان نوع . وحُكي عن الخليل : (هذا يجانس هذا) ، أي : يشاكله ، ونصّ عليه في التهذيب أيضاً ، وعن بعضهم : (فلانٌ لا يجانس الناس) : إذا لم يكن له تمييز ولا عقل " (٢).

قال الزمخشري : " الناسُ أجناس ، وأكثرهم أجناس ، وهو مجانسٌ لهذا ، وهما متجانسان ، ومع التجانس التانس ، وكيف يؤانسك مَنْ لا يجانسك ؟! " (٣).

و " الجناس من الحلى اللفظية ، والألوان البديعية التي لها تأثير بليغ ، تجذب السامع ، وتُحدث في نفسه ميلاً إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة ، وتجعل العبارة على الأذن سهلة مستساغة ، فتجد من النفس القبول ، وتتأثر به أيّ تأثير ، وتقع من القلب أحسن موقع " (٤).

نشأة الجناس :

الجناس في نشأته كالسجع ، فهما لوان ضاربان في القدم قدم اللغة ذاتها ، ويجريان في كلام العرب مجرى الماء العذب في السلاسة والانسيابية والعفوية ، فلا تكلف ولا تعقّد أو تصنع ، بل يصدران عن طبع وليد الصحراء الشاسعة ، وعن فطرةٍ سلمت من شوائب المدنية أو ما يعكّر صفوها ورونقها ونقاءها .

(١) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ . وقال العلوي : " والمجانسة : المماثلة ، وسُمّي هذا النوع

جناساً ؛ لما فيه من المماثلة اللفظية " . الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٢) المصباح المنير ، ص ١١١ ، باب (الجيم) ، مادة (جنس) .

(٣) أساس البلاغة ، ص ١٠٢ ، مادة (جنس) .

(٤) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٥٥ .

يقول ابن رشيق : " ولم تكن القدماء تعرف هذا اللقب - أعني التجنيس - ، يدللك على ذلك ما حُكي عن رؤية بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أشعر منك ، فقال : وكيف تكون أشعر مني ، وأنا علّمتك عطف الرّجز ؟! قال : وما عطف الرّجز ؟. قال : عاصمٌ ، يا عاصمُ ، لو اعتصم ، قال : يا أبة ، أنا شاعرٌ ابنُ شاعر ، وأنت شاعرٌ ابنُ مُفحَم ، فغلبه . فأنت ترى كيف سمّاه (عطفاً) ولم يُسمِّه تجانساً ، اللهم إلا أن يذهب بالعطف إلى معنى الالتفات ، فنعم " (١).

فهذه الحادثة تدلّ على أنّ التجنيس لا يخرج عن نظرية (تداعي المعاني) و(تداعي الألفاظ) في علم النفس ، بل إنّ مَنْ عرف اللغة ، وذاق وقع الكلمات على أذنه ينطق بالتجانس في غير معاناة ؛ تحقيقاً لهذا المبدأ النفسي المعروف (٢).

استمع إلى هذا الأعرابي يقول (٣) :

رُبَّ خَوْدٍ عَرَفْتُ فِي عَرَفَاتٍ	سَلَبْتَنِي بِحُسْنِهَا حَسَنَاتِي (٤)
وَرَمْتُ بِالْجِمَارِ جَمْرَةَ قَلْبِي	أَيُّ قَلْبٍ يَقْوَى عَلَى الْجَمَرَاتِ
حَرَمْتُ حِينَ أَحْرَمْتُ نَوْمَ عَيْنِي	وَأَسْتَبَاحَتْ حِمَايَ بِاللَّحْظَاتِ
وَأَفَاضْتُ مَعَ الْحَجِيجِ ، فَفَاضَتْ	مِنْ دُمُوعِي سَوَابِقُ الْعَبْرَاتِ (٥)
لَمْ أَتْلُ مِنْ مَنِي مَنَى النَّفْسِ ، لَكِنْ	خَفْتُ بِالْخَيْفِ أَنْ تَكُونَ وَفَاتِي (٦)

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٦٤ .

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٦٤ ، ١٦٧ ، بتصرف يسير .

(٣) البديع في نقد الشعر ، ص ١٤ .

(٤) (خَوْدٌ) : الحسنة الخلق ، الشّابة ، أو الناعمة ، والجمع : خَوْدَاتٌ وَخُودٌ .

(٥) (أَفَاضَ النَّاسُ مِنْ عَرَفَاتٍ) : دفعوا ، أو رجعوا ، أو تفرّقوا وأسرعوا منها إلى مكانٍ آخر .

(٦) (الخيف) : النّاحية وما انحدر عن غِلْظِ الجبل ، وارتفع عن مَسِيلِ الماء ، وكلّ هبوط وارتقاء في

سَفْحِ جبل ، وَغُرّةٌ بِيضَاءُ فِي الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ الَّذِي خَلْفَ أَبِي قُبَيْسٍ ، وَبِهَا سُمِّيَ مَسْجِدُ الْخَيْفِ ، أَوْ لِأَنَّهَا نَاحِيَةٌ مِنْ مَنَى ، أَوْ لِأَنَّهَا فِي سَفْحِ جَبَلٍ . انظر : القاموس المحيط ، ص ١٠٤٦ ، باب (الفاء) ، فصل (الخاء) .

" فالألفاظ متّفقة كلّ الاتفاق ، أو بعضه في الجرس ، وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابهة في المعنى ، بحيث تذكر الكلمة بأختها في الجرس وأختها في المعنى ، وهذه الناحية النفسية هي التي تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة ، إذا كان مُلمّاً بلُغته ، مُحسّناً بذوقها ، عالِماً بتصاريفها واشتقاقها "(١).

من ذلك : قول بعض العرب وقد مات والده : " اللهمّ إني مُسَلِّمٌ مُسَلِّمٌ "(٢).

وما حُكي عن الصّولي : " أنّ إبراهيم بن المهديّ زارَ صديقاً له استدعى زيارته ، فوجده سكران ، فكتب في رقعة جعلها عند رأسه :

رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرَّاحُ وَأَسْرَعَتْ فِيكَ أَوْتَارُ وَأَقْدَاحُ "(٣)

" وكتب بعض الأدباء إلى الرّشيد : أحسنْ لنا في النظر كما أحسنّا في الانتظار "(٤).

وجاء في شعر امرئ القيس :

بِمَيْثٍ دِمَآثٍ فِي رِيَاضٍ أَثِيثَةٍ تَحِيلُ سَوَاقِيهَا بِمَاءٍ فَضِيضٍ (٥)
بِلَادٍ عَرِيضَةٍ وَأَرْضٍ أَرِيضَةٍ مَدَافِعُ غَيْثٍ فِي فِضَاءٍ عَرِيضٍ (٦)

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٦٧ . وانظر : البلاغة التطبيقية ، ص ٤٥٥ ، (نقلاً عن د. إبراهيم سلامة وهو يتحدث عن جمال هذا الفن) .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ٢١ .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٣٣ .

(٤) البديع في نقد الشعر ، ص ١٤ .

(٥) (الميث والدمآث) : الأرض السهلة اللينة ، و(رياض أثيثة) : حدائق ملتفّ نبُتها ، (تحيل) : تصبُّ ، (سَوَاقِيهَا) : جداولها ، (بماءٍ فضيض) : بماءٍ أبيض صافٍ كأنه الفضّة البيضاء .

يذكر الشّاعر أنّ ذلك المطر الذي أعقب البرق أصاب الحدائق والريّاض ذوات الأراضي السهلة اللينة ، وراحت تصبُّ ماءً أبيضاً صافياً كأنه الفضّة البيضاء ، ألا وهو الماء الفضيض .

(٦) (الأريضة) : اللينة ، الكريمة الخليقة للخير ، (مدافع) : مصابٌ أمطار ، (غيث) : مطر غزير .

يتابع امرئ القيس وصف هطول المطر الذي تبع البرق ، فيقول : إنّ تلك الأمطار الغزيرة التي هطلت

فالجناس - إذن - فنَّ عريقٌ ووقعٌ أنيقٌ قد تعددت صورته في البيان العربي دون أن يُعرف اسمه ، وهو بلاغة فطرية يُرى وسمها وحُسْنها دون أن يعرف رسمها .

ثمَّ " إنَّ العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفنِّ إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحَّته ، وإلا حيث يأمنون جناية منه عليه ، وانتقاصاً له وتعويقاً لدونه " ^(١) ، فلا احتفال بالصنعة ولا استعراض ولا إخبار عن فضل قوَّة وفضل اقتدار ^(٢) .

فلا أدلَّ على هذه العذوبة والبساطة والعفوية من قول أوس بن حجر :

قَدْ قُلْتُ لِلرَّكْبِ لَوْلَا أَنَّهُمْ عَجَلُوا عَوْجُوا عَلَيَّ فَحَيُّوا الْحَيَّ أَوْ سَيَرُوا
وقوله :

حَتَّى أَشَبَّ لَهُنَّ الثَّوْرُ عَنْ كَثَبٍ فَأَرْسَلُوهُنَّ لَمْ يَذَرُوا بَمَا ثَيَرُوا ^(٣)

وظلَّ الحال كذلك إلى أن أفضى إلى العصر العبَّاسي ، حيث امتزاج الثقافات وطلائع الحضارات ، فشاع الجناسُ واتَّسع ، فأغرب الأدباء في صورته وتكلَّفوها ، وأكثروا منها حتى جاءت غثَّة سمجة مرذولة عند بعضهم .

والمعروف أنَّ " ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد يستدلُّ بذلك على جودة شعر الرَّجل ، وصدق حسِّه ، وصفاء خاطره ، أمَّا إذا كثر ذلك ، فهو عيب يشهد بخلاف الطَّبع ، وإيثار الكلفة " ^(٤) .

ومن أولع بذلك وأكثر منه : أبو تمام ، " ولذلك قال ابن المعتزِّ في التجنيس وغيره من فنون

بقوَّة ، كأنَّها مصابٌّ ، تندفقُ من سماءٍ واسعة ، وفضاءٍ واسع ، فوق بلادٍ واسعةٍ وأرضٍ لينةٍ خصبَةٍ كريمةٍ خليقةٍ للخير . انظر : شرح ديوان امرئ القيس ، ص ٨٩ .

(١) أسرار البلاغة ، ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ ، بتصرُّف .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٣٤ .

(عوجوا) : أي مُروا ، و(ثيروا) : فعلٌ اشتقه الشاعر من اسم (الثور) ، من الحركة والثَّوران والاستفزاز .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

البديع : " إِنَّ حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرّع فيه وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عُقبي الإفراط وثمره الإسراف " ^(١) .

وقال ابن رشيق : " فأما حبيب ، فيذهب إلى حزونة اللفظ ، وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً ، ويأتي الأشياء من بُعد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة " ^(٢) .
كقوله :

مِنْ النَّكَبَاتِ النَّاكِبَاتِ عَنِ الْهَوَى	مَحْبُوبُهَا يَحْبُوبُ وَمَكْرُوهُهَا يَعْدُو
لِيَالِينَا بِالرَّقَّتَيْنِ وَأَهْلُهَا	سَقَى الْعَهْدَ مِنْكَ الْعَهْدُ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ ^(٣)
سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبُ عَلَى الثَّبَتِ ذِيْلُهُ	فَلَا رَجُلٌ يَنْبُو عَلَيْهِ وَلَا جَعْدُ ^(٤)

حتى قال ابن رشيق في البيت الأخير : " وقد استثقل قومٌ هذا التجنيس ، وحقّ لهم " ^(٥) .
" وأما البحزري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ، ويقلّ التصنع له . فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً رشيقاً ، وظريفاً جميلاً ... " ^(٦) .

(١) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٦٨ ، وانظر : بديع ابن المعتزّ ، ص ٧٤ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٢٦١ . وقال أبو هلال العسكري : " وجنس أبو تمام أربع تجنيسات في بيت واحد ، ولعله لم يسبق إليه ، وهو قوله :

بحوافر حفرٍ ، وضُلب ضُلبٍ وأشاعرٍ شُعْرٍ وخَلَقٍ أَخْلَقِ "

انظر : الصناعتين ، ص ٣٣٨ ، وكذلك العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥١ .

(٣) (العهد) الأول يحتمل وجهين : أحدهما : المنزل ، والآخر : العهد الذي هو لقاء واجتماع ، و(العهد) الثاني وما بعده : يعني به المطر في إثر المطر ، كأنه قال : سَقَاكَ السَّحَابُ وَالسَّحَابُ ، أي تكرّرت السَّحْبُ عليك ، فهذا وجهٌ صحيح ...

(٤) انظر : شرح ديوان أبي تمام ، للتبريزي ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ . ويعني في البيت الأخير : لا سهل يمتنع من إخراج النبات إذا سقاه هذا السحاب ، ولا حَزَنُ .

(٥) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٤٩ . إلا أنّ من جيد أبي تمام في التجنيس قوله :

سَعِدَتْ غَرْبَةُ النَّوَى بِسُعَادٍ فَهِيَ طَوُّعُ الْإِتْهَامِ وَالْإِنْجَادِ

انظر : شرح ديوانه ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٦) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ١١٠ .

كقوله^(١):

يُذَكِّرُنِيكَ وَالذِّكْرَى عَنَاءٌ مَشَابَهُ فِيكَ طَيِّبَةُ الشُّكُولِ^(٢)
نَسِيمُ الرِّوْضِ فِي رِيحِ شَمَالٍ وَصَوْبُ الْمُزْنِ فِي رَاحِ شَمُولِ^(٣)

إلا أنه على الجملة ، فإنك " قد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع ، إلى أن ينسى أنه ليتكلم ليفهم ، ويقول ليبيين ، ويُخَيِّلُ إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيتٍ فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأخذه ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى ، حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها "^(٤).

ويعلل ابن حجة إفراط الشعراء فيه بقوله : " ولم يحتج إليه ويكثر استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعاني ، التي هي كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ ، وإذا قلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الأطلال البالية "^(٥).

أما عن نشأة هذا الفن العلمية فقد " تفرغ العلماء في عصر بني العباس للبحث عن الصور البديعة والطريقة ، فاكتشفوا الصور البديعية ، ومنها الجناس ، وأول من تكلم عنه : ثعلب تحت اسم الطباق "^(٦). " وعرفه بقوله : هو تكرير اللفظ بمعنيين مختلفين "^(٧).

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ١٥ .

(٢) (الشُّكُول) : جمع شكل ، وهو الشبه .

(٣) (المُزْن) : جمع مزنة ، وهو السحاب الأبيض ، (الراح) : الخمر ، (الشَّمُول) : البارد من الخمر ، من : شَمَلَ الخمر : عَرَّضَهَا لِلشَّمَالِ فَبَرَدَتْ .

(٤) أسرار البلاغة ، ص ٩ .

(٥) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٨١ . ونقل عن الشيخ بدر الدين البشتكي : " أن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدين " .

(٦) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٥٧ .

(٧) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ١٦٢ ، (نقلاً عن قواعد الشعر ، ص ٥٦) . وذكر الدكتور

وكانت محاولة تحديد مفهوم الجناس قديمة عند العلماء قدم الجناس نفسه ؛ إذ وجد في خطب الجاحظ لمن يتأملها ، وصنّف فيه اللغويون كتباً قبل ثعلب ، فقد ألف فيه الأصمعي كتاباً سماه (الأجناس) ، وهو أول من جاء بهذا اللقب ، وقد ردّ الفيروزآبادي^(١) ما نسب إلى ابن جني وابن دريد^(٢) من " أن الأصمعي كان يدفع قول العامة إذا قالوا : هذا يجانس هذا إذا ، كان من شكله ، ويقول : هذا ليس بعربي خالص "^(٣).

فقال في قاموسه المحيط : " وقول الجوهري^(٤) عن ابن دريد أن الأصمعي كان يقول : الجنس : المجانسة من لغات العامة غلط ؛ لأنّ الأصمعي واضع كتاب الأجناس ، وهو أول من جاء بهذا اللقب "^(٥).

ومن صنّف فيه من اللّغويين أيضاً : أبو عبيد القاسم بن سلام^(٦) ؛ إذ له " (كتاب الأجناس

شرف أن قدامة هذا حنوه في هذه التسمية ، ويستشهد ابن المعتزّ بأمثلة المطابق على التجنيس ، كقول الشاعر :

فما زال معقولاً عقّال عن الندى وما زال محبوساً عن الخير حابس

(١) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي ، وُلد سنة (٧٢٩هـ) بكارزين . له من التصانيف : القاموس المحيط في اللغة ، الجامع بين الحكم والعباب . مات في (٢٠) شوال سنة (٨١٦هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٢) هو محمد بن الحسن بن دريد ، الإمام أبو بكر الأزدي اللغوي الشافعي ، مولده بالبصرة سنة (٢٢٣هـ) . وقرأ على علمائها ، ثم صار إلى عُمان ، فأقام بها إلى أن مات ليلة الأربعاء (١٢) رمضان سنة (٣٢١هـ) ، فقيل : مات علم اللغة والكلام جميعاً . وله من المصنفات : الجمهرة في اللغة ، الأمالي ، أدب الكاتب .. وغيرها . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٣) انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٧٨ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٤) هو إسماعيل بن حمّاد الجوهري ، صاحب الصحاح ، الإمام أبو نصر الفارابي ، كان إماماً في اللغة والأدب ، أصله من فاراب من بلاد الترك ، مات سنة (٣٩٣هـ) ، وقيل : (٤٠٠هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

(٥) القاموس المحيط ، باب (السين) ، فصل (الجيم) ، ص ٦٩١ ، مادة (جنس) .

(٦) هو القاسم بن سلام أبو عبيد ، كان أبوه مملوكاً رومياً ، وكان إمام أهل عصره في كلّ فنّ من العلم . له من التصانيف : الغريب المصنّف ، معاني القرآن ، الأمثال السائرة .. وغيرها . مات بمكة سنة (٢٢٣هـ) ، وقيل : (٢٢٤هـ) ، وقيل : (٢٣٠هـ) ، وعمره (٦٧) سنة . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى) . وقد أشار سيبويه إلى فنّ التجنيس ، وسَمَّاهُ : (اتّفاق اللفظين والمعنى مختلف) ، وذكر المبرد مثل ذلك ، وله كتاب : (ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد) ^(١) .

وجاء عن الخليل بن أحمد : " الجنس لكلّ ضرب من الناس والطير والعروض والنحو ، فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى في تأليف حروفها ومعناها ويشتق منها ، مثل قول الشاعر :

* يَوْمٌ خَلَجْتَ عَلَى الْخَلِيجِ نَفْسُهُمْ *

أو يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى ، مثل قول الشاعر :

* إِنَّ لَوَمَ الْعَاشِقِ اللَّوْمُ * ^(٢)

وقد بنى البلاغيون على ما حكى عن الخليل حدّ الجنس من بعد اصطلاحاً ^(٣) ، لذلك تجد أنّ ابن المعتزّ نقل كلامه وأشار إلى كتاب الأصمعي ، ثمّ عرّف الجنس تحت اسم التجنيس قائلاً : " وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعرٍ وكلام ، وجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها " ^(٤) .

ومثّل عليه بشواهد عدّة ميّز منها الحسن والمعيب ، والقائلون بنقل ابن المعتزّ عن اليونانية معترفون بأنّه لم يطلع على آثار أرسطو ^(٥) ، إلا أنّ الجنس عنده " مقصور على تشابه الكلمات في تأليف حروفها من غير إفصاح عما إذا كان هذا التشابه يمتدّ إلى معاني

(١) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٦٥ ، (نقلًا عن فهرست ابن النديم ، ص ٦١ ، والكتاب ، ج ١ ، ص ٢٤ ، والمقتضب ، ج ١ ، ص ٤٦) .

(٢) البديع ، لابن المعتزّ ، ص ١٠٨ .

(٣) البلاغة والتطبيق ، ص ٤٥٠ ، بتصرّف يسير .

(٤) البديع ، لابن المعتزّ ، ص ١٠٨ .

(٥) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٦٦ ، بتصرّف يسير .

الكلمات المتشابهة الحروف أم لا ، ولكن لعلّ فيما ذكره من تعريف الخليل بن أحمد للجنس ما يوضح هذا الأمر ^(١).

" ثمّ ما لبث أن نما الجنس ، وتشعبت فروعه وكثرت أنواعه وتعدّدت مصطلحاته .. ولعلّ ذلك يرجع إلى إسراف الشعراء وإكثار الكتاب من هذا اللون ، وتفنّنهم في صنوفه وأشكاله ، وبخاصة في العصور المتأخرة " ^(٢). وهو ما أشار إليه ابن الأثير بقوله : " اعلم أنّ التجنيس غرة شادخة في وجه الكلام ، وقد تصرف العلماء من أرباب هذه الصناعة فيه ، فغربّوا وشرّقوا ، لاسيما المحدثين منهم ، وصنّف الناس فيه كتباً كثيرة ، وجعلوه أبواباً متعدّدة ، واختلفوا في ذلك ، وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض ، فمنهم عبد الله بن المعتزّ ، وأبو علي الحاتمي ، والقاضي أبو الحسين الجرجاني ، وقدامة بن جعفر الكاتب .. وغيرهم " ^(٣).

ويُفهم من شواهد ابن المعتز وقدامة بعض تقسيمات الجنس ، إلا أنّها عند أبي هلال العسكري كانت أوضح ، كالتقديم والتأخير في الحروف ، أو الزيادة والنقصان ، لكن دون وضع مصطلح لهذه الأنواع ^(٤)، ودعّم هذا بالغزير من الشواهد من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ومن كلام العرب المحدثين منهم والقدماء .

وجاء الجنس عند الرماني قبله تحت تجانس المناسبة ، وهو عنده يدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد ، " وكشف عن أسرار بلاغته في كثير من آي الذكر الحكيم " ^(٥).

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ^(٦)، حيث قال :

(١) علم البديع ، ص ١٩٥ .

(٢) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٢٧٨ .

(٣) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٤) انظر : الصناعتين ، ص ٣٤٠ .

(٥) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٢٨٩ .

(٦) سورة النور : الآية (٣٧) .

" فجنوسَ بالقلوب التقلب ، والأصل واحد ، فالقلوب تتقلب بالخواطر ، والأبصار تتقلب في المناظر ، والأصل التصرف " ^(١) .

ويسمى هذا جناس الاشتقاق ، وهو نوعٌ يكثر في كلام القدماء شعره ونثره ، وفي القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهو الذي لفتَ أنظار العلماء الأوائل إليه وفطنوا لشواهد ^(٢) .

ووافق الباقلاني الرماني فيما ذهب إليه ونقل عنه أنَّ التجانس شقين : مزوجة - وهي المشاكلة - ، ومناسبة - وهي جناس الاشتقاق - ^(٣) .

أما ابن رشيق فقد فرق بين التجنيس والمطابقة في وقت اختلطا فيه وتشاكلا ^(٤) ، إلا أنه أدخل جناس الاشتقاق في جناس المماثلة ، وهو المحقق عنده . وذكر أنَّ الجرجاني يسميه المستوفي ، وعدَّ التزديد نوعاً من المجانسة ، وهو ليس كذلك كما سيأتي .

والمجانسة بالاشتقاق هي " ما اتَّفقت فيه الحروف دون الوزن ، رجع إلى الاشتقاق أم لم يرجع ، والجرجاني يسميه التجنيس المطلق " ^(٥) .

وجاء عنده جناس المضارعة على عدة صور :

منها : أن تزيد الحروف أو تنقص ، وأن تتقدم الحروف أو تتأخر مع الاستشهاد ^(٦) .

(١) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ١٠٠ .

(٢) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٢٨٩ ، بتصريف يسير .

(٣) انظر : إعجاز القرآن ، ص ٢٧١ .

(٤) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٣١ ، بتصريف .

(٥) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٠ ، ومثّل عليه بقول أحد بني عيس :

وذاكُمْ أَنَّ ذُلَّ الْجَارِ خَالَفَكُمْ وَأَنَّ أَنْفَكُمْ ، لَا يَعْرِفُ الْأَنْفَا

وقال : " فَاتَّفَقَتِ الْأَنْفُ وَالْأَنْفُ فِي جَمِيعِ حُرُوفِهِمَا دُونَ الْبِنَاءِ ، وَرَجَعَا إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ . هَذَا عِنْدَ

قِدَامَةِ أَفْضَلُ تَجْنِيسٍ وَقَعَ " . انظر : ص ٥٥٠ .

(٦) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

وهذا هو التجنيس الناقص عند الجرجاني كما ذكر ، ثم يبين أصل المضارعة وعدّها منها التصحيف^(١) ، وأشار إلى الجنس المركّب ، وقال : " وقد أحدث المولدون تجانساً منفصلاً يظهر أيضاً في الخط ... وليس بتجانس صحيح على ما شرط المتقدّمون ، ولكنه استطرف فأدخل في هذا الباب تملُّحاً به . وأكثر مَنْ يستعمله الميكالي ، وقابوس ، وأبو الفتح البُستي ، وأصحابهم "^(٢) . وبهذا يكون ابن رشيق هو أوّل مَنْ وسّع الحديث عن الجنس وشعب صورته وأكثر من شواهد وأغزر .

أما الجنس عند ابن سنان ، فقد سمّاه (المجانس) ، وجاء ضمن حديثه عن التناسب بين الألفاظ ، " وخالف أبا هلال فيه ؛ إذ جعله شاملاً للمشتق ، ويبيّن حسنه ، ومتى يكون "^(٣) ، وهو أول مَنْ عرّف جناس التركيب وسمّاه كذلك ، وإن نسب هذه التسمية إلى أبي العلاء المعري ؛ إذ يقول : " ومن المجانس فنّ ورد في شعر أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، وسمّاه لنا - بجناس التركيب - ؛ لأنّه يركب من الكلمتين ما يتجانس به الصيغتان "^(٤) .

إلا أنّه ينظر إليه كنظرة ابن رشيق في أنّه " غير حسن ولا مختار ولا داخل في وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة "^(٥) . وعنده جناس التصحيف من " أقلّ طبقات المجانس ؛ لأنّه مبني على تجانس أشكال الحروف في الخط ، وحسن الكلام وقبحه لا يُستفاد من أشكال حروفه في الكتابة ؛ إذ لا علاقة بين صيغة اللفظ في الحروف وشكله في الخط "^(٦) .

ووافق بشر الأمدي في إنكاره على قدامة تسمية المجانس بالمطابق ، وذكر قصة الخلاف في المصطلح التي دارت بين الأخفش وأبي فرج الأصفهاني^(٧) .

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٥٥٨ .

(٣) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) سرّ الفصاحة ، ص ١٩٨ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

(٧) انظر القصّة في : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

وإذا كان البلاغيون بنوا حدَّ الجنس على ما حُكي عن الخليل ، وقرّروا أنَّ الجنس بين اللفظين هو تشابههما في اللفظ ، وهو بهذا الحدُّ يُعدُّ من المحسّنات اللفظية عند جمهور البلاغيين ، إلا أنَّ عبد القاهر أكّد دور هذا النوع في تصوير المعنى وتمكينه من العقل تعبيراً وتأثيراً^(١)؛ إذ يقول : " أما (التجنيس) فإنّك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً " ^(٢).

ثمَّ بيّن " أنَّ ما يعطي (التجنيس) من الفضيلة أمرٌ لم يتمَّ إلاّ بنصرة المعنى ؛ إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلاّ مستحسنٌ ، ولما وُجد فيه معيبٌ مُستهجن ، ولذلك ذمُّ الاستكثار منه والولوع به " ^(٣).

وهو بهذا يضيف إلى حقيقة الجنس التي هي اتّفاق اللفظين في وجهٍ من الوجوه ، واختلاف معنيهما ، والمصطلح عليها عند أهل البيان - كما ذكر العلوي -^(٤) أضاف حقيقةً أخرى هي خصوصيته ومزيّته التي جعلته من حُلَى الشعر ومذكوراً في أقسام البديع ، خاصة المستوفي منه المتفق في الصورة كما أشار - رحمه الله -^(٥).

والباحثُ المدقّق يجد أن الاتجاه الذي اتّجهه عبد القاهر بألوان البديع ، كالجناس والسجع عنده كان أمثل اتّجاه وأحسنه وأجلّه ؛ لأنّه قد جعل الحسن فيه أصلاً يتمّ الغرض بوجوده ، ويعدم بعده ، وأبرزه في معرض أدبي خلّاب ينمّ عن ذوقٍ رفيع ، وقدرة على التحليل ، ويُعدّ نظراً في الكشف عن أسرار الأساليب^(٦).

ثم اتّخذ الجنس عند أسامة بن منقذ صفة التنويع والتفريع والتقسيم ، فذكر ثمانية أنواعٍ

(١) البلاغة والتطبيق ، ص ٤٥٠ ، بتصرّف يسير .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٤) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٥) انظر : أسرار البلاغة ، ص ٨ .

(٦) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٦٠ ، بتصرّف .

له منها العكس ، وهو لو أن لم يذكره في الجنس أحد قبله . وفرق بين التصحيف والتحريف والتصرف^(١) .

وحدّ الرازي حدوداً بينة للجناس أكسبته صفة التنسيق والتهديب والترتيب ، فذكر أنّ المتجانسين إما أن يكونا مفردين ، أو أحدهما مفرداً والآخر مركباً ، أو كلاهما مركباً . وفرق بين الجنس التام والناقص بأنّ الأول هو تساوي المتجانسين في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها ، والناقص ما اختلف في أيّ من هذه الصور ، ووضع لكل صورة مسمّى تقريباً ، كالمذيل واللاحق والمصحّف - وإن كان الأخير معروفاً قبله - . وكان مما أضافه : تجنيس الإشارة^(٢) ، والتجنيس المشوش^(٣) ، ونوعاً يُسمى مزدوجاً ، مع ضرب الأمثلة عليها^(٤) .

وكانت هذه الخطوة الهامة من الرازي ، وهذه القفزة في تاريخ الجنس ، طريقاً ممهداً للسكاكي إلى أن يحتذي حذوه في تحديد أنواع الجنس بعيداً عن الخلط أو التداخل ، وأخرج من الجنس الاشتقاق ، وعدّه مُلحقاً به وليس منه .. أمّا عن جناس الإشارة فيبدو أنّ السكاكي وجده تكلفاً من الرازي ، فلم يُشر إليه ؛ إذ لا بدّ من وجود المتجانسين ، وإلاّ خرج الجنس إلى بابٍ آخر ، وتداخل معه وافقد شيئاً من خصوصيته ، لكنه وافقه في التجنيس المشوش ذي القيدين ، كما صرّح الرازي^(٥) ، وهو ما لم يتعرّض له الخطيب البتة في باب الجنس عنده كما سيأتي .

أما الجنس عند ابن الأثير من بعد ، فقد التفت فيه إلى صلته بالاشتراك اللفظي ، بل إنّ

(١) انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٢ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٣ .

(٢) وهو أن لا يذكر أحد المتجانسين في الكلام ، ولكن يُشار إليه بما يدلّ عليه . انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٣٠ . إلاّ أنّه لم يعرفه بشكلٍ أوضح ، كالعلوي .

(٣) وهو عبارة عن كلّ جنس من التجنيس يجاذبه طرفان من الصيغة ، ولا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه دون الآخر . انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٣١ ، وهو أيضاً لم يكن تعريفه له واضحاً .

(٤) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٢٦ ، الفصل الأول (في التجنيس) .

(٥) راجع : مفتاح العلوم ، ص ٤٢٧ .

الجناس الحقيقي عنده هو نوعٌ واحد ، وبقية أنواعه إنما هي مشبهة به ؛ إذ يقول : " وإنما سُمِّيَ هذا النوع من الكلام مجانساً ؛ لأنَّ حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنسٍ واحد ، وحقيقته أن يكونَ اللفظُ واحداً والمعنى مختلفاً ، وعلى هذا فإنَّه هو : اللفظ المشترك ، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء ؛ لأنَّ لفظه واحد لا يختلف ، وستة أقسام مشبهة " (١) .

وعدَّ ردَّ العجز على الصدر أو التصدير ضرباً من جناس العكس ، فقال : " القسم الرابع من المشبه بالتجنيس ، ويسمى المعكوس ، وذلك ضربان ؛ أحدهما عكس الألفاظ ، والآخر عكس الحروف ، فالأول كقول بعضهم : عادات السادات سادات العادات ، وكقول الآخر : شيم الأحرار أحرار الشيم " (٢) ، وهذا هو ما يُعرف بالتصدير عند المتأخرين . وقال : " وهذا الضرب من التجنيس له حلاوة ، وعليه رونق ، وقد سماه قدامة بن جعفر الكاتب : التبديل ، وذلك اسمٌ مناسبٌ لمسمّاه ؛ لأنَّه مؤلَّف الكلام يأتي بما كان مقدّماً في جزء كلامه الأول مؤخراً في الثاني ، وبما كان مؤخراً في الأول مقدّماً في الثاني ، ومثله قدامة بقول بعضهم : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك " (٣) .

وجاء بقسمٍ من المشبه بالتجنيس لم يُذكر عند غيره ، وهو (المُجنَّب) ، " وذاك أن يجمع مؤلَّف الكلام بين كلمتين ، إحداهما كالمتبع للأخرى والجنيبة لها ، كقول بعضهم :

أَبَا الْعَبَّاسِ لَا تَحْسَبْ بِأَنِّي لَشَيْءٍ مِنْ حُلَى الْأَشْعَارِ عَارِي
فَلِي طَبْعٌ كَسَلَسَالٍ مَعِينٍ زُلَالٍ مِنْ ذُرَا الْأَحْجَارِ جَارِي " (٤)

ومن الواضح أنه قد ترتب على هذا الجناس لزوم ما لا يلزم في الكلمة الثانية .

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

(٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

وأخرج ابن الأثير ما عدّه البعض منه كالترديد^(١).

وأَنواع التَّجْنِيس التي سبقت الإشارة إليها من قبل ، ذكر ابن أبي الإصبع أنَّ المتأخرين استخرجوها بالاستقراء ، وكان له رأيُه في تسمية بعض الأنواع ، كتسمية ما وقع فيه الاختلاف بزيادة حرف في الآخر - وهو ما يُعرف بالمذيل - بالتداخل أو التضمين ، وأضاف ابن أبي الإصبع نوعاً آخر ذكره التبريزي ، وهو التَّجْنِيس المضاف ، كقول البحرزي :

أَيَا قَمَرَ التَّمَامِ أَغْنَتْ ظُلُمًا عَلَيَّ تَطَاوُلَ اللَّيْلِ التَّمَامِ

وعدّه قسماً قائماً بذاته ؛ لاتصال المضاف بالمضاف إليه ، وقال : " فهو مع قطع النظر عن الإضافة من تجنيس التحريف "^(٢).

وأشار في كتابه (بديع القرآن) إلى أنَّ كلَّ ما ساقه من أصول التَّجْنِيس وفروعه أمثلة القسم اللفظي من التَّجْنِيس ، وذكر قسماً معنوياً ومثلاً عليه بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ مع قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾^(٣) ، وقال : " فإنَّ التقدير - والله أعلم - : يا أيها المكذبون أنتم المكذبون "^(٤). وسيأتي تفصيل هذا الرأي لاحقاً .

ثمَّ بدأت صور الجناس تتضح وتأخذ كلَّ صورة منه مكانها اللائق بها عند العلوي ، فعرفَّ التَّجْنِيس في اللغة والاصطلاح ، وبيَّن سبب تسميته بالجناس ، ثمَّ فرَّعه إلى قسمين : جناس تام - ويقال له : المستوفي والكامل - ، وجناس ناقص - ويقال له : المشبه - ، ويندرج تحته عشرة أقسام أو أضرب :

الضرب الأول : يلقب بالمختلف ، وما هذا حاله يكون اختلافه بالحركات لا غير ، فأما الأحرف فيه فإنها متماثلة ...

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ١١٠ .

(٣) سورة الكافرون : الآيتان (١) و(٣) .

(٤) بديع القرآن ، ص ٣٠ .

الضرب الثاني : المختلف بالأحرف ، وتتفق الكلمتان في أصلٍ واحدٍ يجمعهما الاشتقاق ، وما هذا حاله يقال له المطلق ...

الضرب الثالث : أن لا يجمعهما الاشتقاق ، لكن بينهما موافقة من جهة الصورة ، مع أنّ إحداهما من كلمتين ، والأخرى من كلمة واحدة ، وما هذا حاله يُلقَّب بالمرکّب ...

الضرب الرابع : المذیل ..

الضرب الخامس : المزدوج ..

الضرب السادس : المصحّف ..

الضرب السابع : المضارع ..

الضرب الثامن : المشوّش ..

الضرب التاسع : المعكوس ..

الضرب العاشر : تجنيس الإشارة ..

وقد عرّف كلّاً من تلك الأضرب ووضّحها ، وضربَ عليها الأمثلة^(١) .

ويبدو أنّ هذا الضرب الأخير هو وجناس الإضافة من التكلّف الظاهر المنبوذ ، لذا لم يذكرهما الخطيب القزويني الذي استقرّ عنده الجناس وتحدّدت صورته وتأطّرت أكثر من ذي قبل ، وهذا يعكس طبيعة الاتجاه العلمي إلى التقسيم والتحديد والتنسيق والتهذيب والترتيب ، والحقّ أنّ هذا هو النهج الذي تشرّب إليه النفوس في فوضى المصطلحات ، وتداخل الفروع ، والأقسام ، وما ضرّ المعارضين على صنيع الخطيب لو أنّهم اعترفوا بهذا الفضل العظيم في وقتٍ اختلط فيه الحابل بالنابل ، ولُبّس اليّن الواضح بالتشبيه والتشكيك ، وحاطَ به الغموض .. فلقد كان صنيعه العلمي هذا أيسر وأسهل على طلبة العلم إلى يومنا هذا بعيداً عن كلّ ما تقدّم من الخلط وتشوّش الرؤيا ، وقد تبعه الشّراح في ذلك .

والحقّ أن الجناس فنٌّ واسع الأفق ، كثير التعاريج ، لم يعهد في فنّ من فنون البديع أن

(١) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ، ١٩٣ .

اتسعت مسأله ، واختلقت صورته كما حدث فيه ، لذا فإن الناظر في تعريفات القدماء له إلى الخطيب القزويني يجد أنها بمنأى عن الوفاء بحقه ، ولذلك يفرّ بعض الكاتبين عن وضع حدٍّ جامع له ، ويكتفون بضوابطه الفرعية الخاصة بكلّ نوع من أنواعه^(١).

" وقد أفردته بالتأليف جماعة ، منهم الشيخ صفى الدين الحلي ، ألف كتاباً سمّاه : (الدرّ النفيس في أجناس التجنيس) ، والشيخ صلاح الدين الصفدي ، ألف فيه كتابه المسمّى : (جناس الجناس) " ^(٢).

ولم يهتمّ الأدباء جميعهم بهذا الفنّ ، فقد كان منهم من لا يتّخذ مذهباً^(٣) ، كما صرّح بذلك ابن حجة ؛ إذ قال : " أما الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإنّ كلاّ منهما يؤدي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة " ^(٤) ، لكن السيوطي نقل عن الزركشي ما يؤكّد بلاغة هذا الفنّ ؛ إذ قال : " قال في (كنز البراعة) : وفائده الميل إلى الإصغاء إليه ، فإنّ مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليهما ، ولأنّ اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر ، كان للنفس تشوّق إليه " ^(٥).

المزية البلاغية للجناس :

الجناس من فرائد البديع ، ومن حلى الشعر . ولما كان قائماً على التكرار أو المماثلة أو المشابهة ، فإنه " عملية فنية مُمتعة ، تزين الكلام ، وتجعل الذهن يتنقل بين المعاني المختلفة ، وهو مستمتع بجرس موسيقي ينساب من الألفاظ المتشابهة المتجانسة " ^(٦).

(١) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٩٣ ، بتصرّف يسير .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٦٨ ، (نقلاً عن حسن التوسل ، ص ١٨٣ ، والبيان في البيان ، ص ٤٠٣) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٦٥-٢٦٧ .

(٤) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .

(٥) الإتقان ، ص ٦٦٠ .

(٦) البلاغة والتحليل الأدبي ، ص ١٩٧ .

" ولا شكَّ أنَّ التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصاً تطرب له الأذن ، وتهتزُّ له أوتار القلوب ، والمُجنَّس يقصد اختلاب الأذهان ، وخداع الأفكار ^(١) ، وهو ما " يؤكد بجلاء أهمية الجناس في خلق الموسيقى الداخلية في النصِّ الأدبي وبناء ما بين ألفاظه من وشائج التنعيم ^(٢) .

لكن " إذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلوُّ رشيقي ، وحسن أنيق ، وعذبٌ سائغ ، وخلوبٌ رائع ، فاعلم أنَّه ليس ينبئك عن أحوالٍ ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل إلى أمرٍ يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده ^(٣) . فأصل الحسن كما ذكر السكاكي في جميع ذلك " أن تكون الألفاظ توابع للمعاني ، لا أن تكون المعاني لها توابع ^(٤) ، وهذا ما أكدَّ عليه عبد القاهر في النصِّ السابق وهو يكشف السرَّ البديع للجناس والسجع وسرَّ بلاغته وجماله ، فما الأمر الذي يقع في الفؤاد ، وما الفضل الذي يقتدحه العقل من زناده سوى المعنى الذي تتشوّف إليه النفس ، ويقع منها موقع القبول والاستحسان والارتياح والاطمئنان .

يقول عبد القاهر : " وعلى الجملة فإنَّك لن تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه جِوْلاً ^(٥) ، لذا أكَّد على أنَّ " أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقُّه بالحُسن وأولاه : ما وقع من غير قصدٍ من المتكلِّم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه ^(٦) ، " وذلك كما يمثلون به أبداً من قول الشافعي - رحمه الله تعالى - ، وقد سُئل عن النبيذ فقال : أجمع أهلُ الحرمين على تحريمه .

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٦٧ .

(٢) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٢٩٤ .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٤) مفتاح العلوم ، ص ٤٣٢ .

(٥) أسرار البلاغة ، ص ١١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١١ .

ومما تجده كذلك قول البحرى :

يعشى عَنِ الْمَجْدِ الْغَبِيِّ وَلَكِنْ تَرَى فِي سُؤْدِدِ أَرَبًا لَغَيْرِ أَرَبٍ^(١)

ولو كان المعنى تابعا للفظ لأصبح ظاهره التمويه وباطنه التشويه ، وصار مثاله كما ذكر العلوي كمثال عمد من ذهب على نصب من خشب ، أو كرة محلاة أو بعرة مذهبة مطلية^(٢).

قال السيوطي : " ولكون الجناس من المحاسن اللفظية لا المعنوية ترك عند قوة المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾^(٣) ، قيل : ما الحكمة في كونه لم يقل : (وما أنت بمصدق) ؛ فإنه يؤدى معناه مع رعاية التجنيس ؟.

وأجيب : بأن في (مؤمن لنا) من المعنى ما ليس في (مصدق) ؛ لأن معنى قولك : (فلان مصدق لي) : قال لي : صدقت ، وأما (مؤمن) فمعناه مع التصديق أعطاه الأمن ، ومقصودهم التصديق وزيادة ، وهو طلب الأمن ، فلذلك عبر به ، وقد زل بعض الأدباء ، فقال في قوله : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾^(٤) ، لو قال : (وتدعون) لكان فيه مراعاة للتجنيس ، وأجاب الإمام فخر الدين : بأن فصاحة القرآن ليست لرعاية هذه التكيلفات ، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ^(٥).

والجناس : " يقع في القرآن مطبوعاً غير متكلف ، فيحسن ويبدع لفظاً ومعنى ، وهو من صميم البلاغة ، بشرط أن يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده^(٦) .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١ .

(العشا) : سوء البصر بالليل والنهار ، (السؤدد) : السيادة ، (الإرب) : الحاجة والذهاء ،

(الأريب) : العاقل الحكيم .

(٢) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ١٤ .

(٣) سورة يوسف : الآية (١٧) .

(٤) سورة الصافات : الآية (١٢٥) .

(٥) الإتقان ، ص ٦٦٢ .

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف ، ص ٥٩٢ .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ مِنْ سَبَأٍ نَبَأٌ ﴾^(١) : " وقوله : ﴿ مِنْ سَبَأٍ نَبَأٌ ﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلّق باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده . ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان (نبأ) : (بخير) لكان المعنى صحيحاً ؟ . وهو كما جاء أصح ؛ لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال " ^(٢) .

وهذه الزيادة في الحسن التي يخلعها الجناس على المعنى هي سريره وخصيصته التي جعلته من حلّى الشعر ومذكوراً في أقسام البديع ، وهو ما أشار إليه عبد القاهر في مقارنته بين بيتين من الشعر ، كلاهما وقع فيه التجنيس ، إلا أن أحدهما تفوّق لموقع الجناس فيه موقع الاستحسان والاستجادة والقبول ، اسمعه يقول : " أترأى استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذَهَبْتُ بِمَذْهَبِهِ السَّمَاخَةَ فَالْتَوْتُ فِيهِ الظَّنُّ أَمْذَهَبٌ أَمْ مُذْهَبٌ^(٣)

واستحسن تجنيس القائل :

* حَتَّى نَجَا مِنْ خَوْفِهِ وَمَا نَجَا *

وقول المحدث :

نَظَرَاهُ فِيمَا جَنَى نَظَرَاهُ أَوْدَعَانِي أَمْتُ بِمَا أَوْدَعَانِي

لأمر يرجع إلى اللفظ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ، ورأيتك لم يزدك (بمذهب ومذهب) على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها الفائدة فلا

(١) سورة النمل : الآية (٢٢) .

(٢) الكشف ، ص ٧٨٠ .

(٣) انظر : ديوان أبي تمام ، شرح التبريزي ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ففي البيت كلام كثير ، لكن المعنى كما جاء : ذهب السماخة بمذهبه كل مذهب ، فأخذ من كل حظاً ، فلا يُدرى أمذهبه مذهب ، أم هو السفر الذي تشعب فيه المذاهب لسعتها وافتنانها في كل فن .

تجدها إلا مجهولة منكورة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاه ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفّاه ، فبهذه السريرة صار (التجنيس) - وخصوصاً المستوفي منه المتفق في الصورة - من حلى الشعر ، ومذكوراً في أقسام الجناس ^(١) .

فإذن هذا الوهم والتخيّل في أنّ الصورة ما هي إلا صورة تكرار وإعادة ، سرعان ما تنقش وتطلع الفائدة بعد أن خالط النفس اليأس منها فتأخذها الدهشة لتلك المفاجأة الغير متوقّعة ، فتميل إليها وتصغى ؛ لأنّ " مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليها ، ولأنّ اللفظ المذكور إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوّقٌ إليه " ^(٢) .

ولما كان الجناس كالحلى ، فإنّه يروق منه القليل ، ولا يتفق للبليغ إلا عن ندورٍ وقلة ، ولهذا عابوا كثيراً من شعر أبي تمام الإكثار من تلك المحسنات ^(٣) ، إلا أنّ هذا ليس بمقياس دائماً .. فأنت إذا تأملت مثلاً قول الأعرابي :

إِذَا أَعْطَشَتْكَ أَكْفُ اللَّامِ	كَفَّكَ الْقَنَاعَةُ شُبْعاً وَرِيّاً
فَكُنْ رَجُلاً رَجُلُهُ فِي الثَّرَى	وَهَامَةٌ هَمَّتْهُ فِي الثُّرَيَّا
أَبِيّاً لِنَائِلِ ذِي ثَرْوَةٍ	تَرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ حَفِيّاً ^(٤)
فَلِنْ إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَا	ةِ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَيَّا ^(٥)

فإنّك تجد رغم تعدّد مواضع الجناس ، إلا أنّ المتكلّم لم يقصد المعنى نحو التجنيس ، بل قاده المعنى إليه ، وعثر عليه حتى إنّ لو رام تركه إلى خلاف ما لا تجنيس فيه لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه ^(٦) .

(١) أسرار البلاغة ، ص ٧ ، ٨ .

(٢) أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٥٧ ، بتصرّف .

(٤) (أبياً لنائل) : اللام بمعنى (عند) ، أو هي للتقوية ، (وأبياً بمعنى : كارهاً) .

(٥) (المحيّا) : الوجه . انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٦ .

(٦) أسرار البلاغة ، ص ١٤ ، بتصرّف .

وهذا معلوم !! " فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين " (١) .

ثم إنك تجد كل لفظة من المتجانسين قد نزلت في المكان اللائق بها ، وكانت وليدة الطبع سهلة المقاد ، ولا تستحسن أنواع الجناس إلا كذلك ، " ولا تستلذ حتى تكون عذبة الإصدار والإيراد ، سهلة سلسلة المقاد ، ولا تبرع حتى يساوي مطلعها مقطعها ، ولا تملح حتى يوازي مصنوعها مطبوعها ، مع مراعاة النظائر ، وتمكن القرائن ، وإلا فما قَلِقَ في أماكنه ، ونبا عنه مواقعه ، فمعزل عن الرضا عند علماء البيان ، وبمكان من البشاعة لدى أرباب النثر وأصحاب النظم " (٢) .

وتأمل عذوبة الإصدار والإيراد وتناغم المطلع والمقطع فيما نسب إلى محمد بن عبد الله ابن كناسة الأسدي :

سَمِيَّةٌ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ	إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ
تَيَمَّمْتُ فِيهِ الْفَالَ حِينَ رَزَقْتُهُ	وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْفَالَ فِيهِ يَفِيلُ (٣)

وقول البحري :

وَهَوَى هَوَى بَدْمُوْعِهِ فَبَادَرَتْ	نَسَقًا يَطَانُ تَجَلْدًا مَغْلُوبًا (٤)
--	--

الفرق بين التجنيس وبين بعض الألوان التي تتداخل معه :

قد يلتقي الجناس مع بعض الحلى اللفظية في التكرار فقط ومساواة اللفظ كالتصدير والتزديد ؛ مما أوقع بعض العلماء في لبسٍ فخلط الجناس بهذين اللونين .

(١) أسرار البلاغة ، ص ٨ .

(٢) أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ٢٣٢ .

(٣) الصناعتين ، ص ٣٣٧-٣٣٨ .

(٤) أسرار البلاغة ، ص ١١ .

ولعلَّ أوَّل مَنْ لاحظَ الفرقَ بين الجناس والتّرديد هو ابن الأثير ؛ إذ قال : " وربّما جهل بعض الناس فأدخل في التّجنيس ما ليس منه ؛ نظراً إلى مساواة اللفظ دون اختلاف المعنى ، فمن ذلك قول أبي تمام :

أظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدَيَّ سَيِّئَتِي رُسُوماً مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ

وهذا ليس من التّجنيس في شيء ؛ إذ حدُّ التّجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وهذا البيت المشار إليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معاً ، وهذا مما ينبغي أن ينبّه عليه ليعرف .

ومن علماء البيان مَنْ جعل له اسماً سَمَّاهُ به ، وهو التّرديد ، أي أنّ اللفظة الواحدة رُدِّدَت فيه ^(١) .

وكان ابن رشيق أشار إلى هذا الفرق أيضاً رغم أنّه عدّ التّرديد نوعاً من المجانسة ؛ إذ يقول : " وزعم الحاتمي أنّ أفضل تجنيس وقع لمحدث ، قول عبد الله بن طاهر :

وَإِنِّي لِلشَّغْرِ الْمَخُوفِ لِكَالِيٍّ وَلِلشَّغْرِ يَجْرِي ظَلْمُهُ لَرَشُوفٍ ^(٢)

فهذا وما شاكلة هو التّجنيس المحقق ، والجرجاني يسميه : المستوفي . ويقرب منه - وليس به محض - قول ابن الرومي :

لَهُ نَائِلٌ مَا زَالَ طَالِبٌ طَالِبٍ وَمُرْتَادٌ مُرْتَادٍ ، وَخَاطِبٌ خَاطِبٍ

لأنّ هذا في باب التّرديد أدخل ، والتّرديد نوعٌ من المجانسة ^(٣) .

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٤٧ . إلا أنّ ابن الأثير كان قد عدّ التصدير ضرباً من ضروب جناس العكس كما مرّ . وقال في موضع آخر : " ورأيت الغامي قد ذكر في كتابه باباً ، وسماه : (ردّ الأعجاز على الصدور) خارجاً عن باب التّجنيس ، وهو ضرب منه ، وقسم من جملة أقسامه " . انظر : ص ٢٤٧ .

(٢) (كالي) : حافظٌ وراعٍ وحارس ، (الظلم) : ماء الأسنان وبريقها ، وهو كالسواد داخل عظم السنّ من شدّة البياض ، كفرّند السيف .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٠ .

ويفهم من تفريق ابن الأثير ، والإشارة إلى هذا الفرق أو الإحساس به عند ابن رشيق - وإن لم يتضح - أنَّ حدَّ الجنس هو اتفاق اللفظتين المتجانستين واختلافهما معنى ، وحدَّ الترديد اتفاق اللفظة المكررة مع معناها في الموضعين ، على أن تُعلّق أو تُضاف إلى معنى آخر .

قال العلوي : " والترديد تفعيل من قولهم : ردّد الثوب من جانب إلى جانب ، وردّد الحديث ترديداً : أي كرّره ، ومعناه في مصطلح علماء البيان أنَّ تعلّق اللفظة بمعنى من المعاني تردّها بعينها وتعلّقها بمعنى آخر " (١) .

كقول أبي حيّة النّميري - وهو مسلّم له بالفضيلة في هذا الباب كما ذكر ابن رشيق - (٢) :

الْأَحْيَ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لِبِسْنِ الْبَلَى مِمَّا لِبِسْنَ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ ، لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا (٣)

أما التصدير فهو أعمّ من الجنس والترديد .

قال الخطيب القزويني معرّفاً له : " وهو في النثر أن يجعل أحد اللفظتين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بها في أوّل الفقرة والآخر في آخرها " (٤) .

ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (٥) .

وقولهم : " الحيلة ترك الحيلة " .

وبقولهم : " سائل اللّئيم يرجع ودمعه سائل " (٦) .

وهذه شواهد يدخل بعضها في الجنس .

(١) الطراز ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٦٨ .

(٣) (المغاني) : جمع مغنى : وهو المنزل الذي غنّى به أهله ثمّ ظعنوا ، و(تقاضى المرء) : طلبه ولاحقه .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٧ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية (٣٧) .

(٦) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٧ .

ومثل بقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾^(١) .

ويدخل هذا في الاشتقاق الملحق بالجناس .

وبهذا يصبح التصدير حراً يتحوّل بين هذين الفئتين إضافة إلى الطباق ، على أن يكون أحد اللفظين في العجز ، والآخر في الصدر ، وهذا ما يميّزه ويجعله فناً مستقلاً^(٢) .

فالجناس إذن كالترديد في تماثل اللفظين ، غير أنه يختلف عنه في أنّ اللفظين في الجناس يختلفان معنى وإن تماثلا لفظاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾^(٣) ، ويجتمع مع التصدير إذا وقعت إحدى اللفظتين المتجانستين في الصدر والأخرى في العجز ، فيكون الجناس حينئذٍ إرصاداً أو تصديراً^(٤) ، كقول بعضهم :

ذَوَائِبُ سُودٍ كَالْعَنَاقِيدِ أُرْسِلَتْ فَمَنْ أَجْلَهَا مِنْهَا النَّفُوسُ ذَوَائِبُ^(٥)

ف(ذوائب) الأولى جمع ذؤابة ، وهي آخر شعر الرأس ، و(ذوائب) الثانية جمع ذائبة : بمعنى سائلة .

" فهنا جناس وتصدير بذات اللفظين ؛ لوقوع أحدهما في الصدر ، والآخر في العجز " ^(٦) .



(١) سورة الشعراء : الآية (١٦٨) .

(٢) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٣٣ ، بتصرّف . ويلتقي التصدير مع الطباق إذا وقع أحد اللفظين المتطابقين في الصدر والآخر في العجز .

(٣) سورة الروم : الآية (٥٥) .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، بتصرّف .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٩ .

(٦) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٣٢ .

الجناس بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني :

ينتهج ابن أبي الإصبع منهج القدماء في عرضه لألوان البديع ، وفي طريقة تناولها يظهر هذا في باب (التجنيس) عنده بشكلٍ أوضح ؛ إذ بدأ تأثره بالرماني ، بل بالنقل عنه ظاهراً ، وكذلك عمّن تأثر بالرماني ، كالباقلائي .

فقد ذكر الرماني أنّ تجانس البلاغة " هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصلٌ واحد في اللغة ، وهو على وجهين : مزوجة ، ومناسبة " ^(١).

وهو ما نقله الباقلاني عنه ^(٢)، رغم أنّه تحدث عن التجنيس ضمن جملة طرق البديع قبل ذلك ^(٣).

وهنا ابن أبي الإصبع في باب التجنيس يقول : " للتجنيس أصلان : وهما جناس المزوجة ، و جناس المناسبة ، تفرّع فيهما عشرة فروع ، منها لفظي ، ومنها معنوي " ^(٤). ثمّ مثل بشاهدٍ من شواهد الرماني ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ ^(٥)، وأضاف شاهداً آخر على صفته ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ^(٦)، وهي من شواهد تجانس المزوجة عند الرماني ، أو هي من شواهد جناس المزوجة اللفظي عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ القصد في الآيتين - كما ذكر العالمان الفاضلان - هو مزوجة الكلام لحسن البيان .

(١) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٩ .

(٢) انظر : إعجاز القرآن ، ص ٢٧١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٤) بديع القرآن ، ص ٢٨ . وجاء في تحرير التعبير قوله : " حدّ الرماني التجنيس بأن قال : هو بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصلٌ واحد من اللغة ، وجعله قسمين : جناس مزوجة ، و جناس مناسبة ... " . انظر : ص ١٠٢ .

(٥) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٦) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

يقول الرماني في الشاهد الأول ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾^(١) : " أي جازوه بما يستحقّ على طريق العدل . إلا أنّه استُعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ، فجاء على مزوجة الكلام الحسن البيان "^(٢) .

ويحلّله ابن أبي الإصبع بقوله : " سَمِيَ سبحانه جزاء الاعتداء (اعتداء) ، وليكون في نظم الكلام مزوجة ، واشترط المثلية في الاعتداء جرياً على قانون العدل ، وأمرأً بالإنصاف "^(٣) .

وحلّ الشاهد الذي لم يذكره الرماني ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٤) بقوله : " لأنّ السيئة الثانية ليست بسيئة ، وإنما هي مجازاة عن السيئة ، سُمِّيت باسمها لقصد المزوجة "^(٥) .

ويقابل هذا قول الرماني في شاهدٍ مثله ، وهو قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾^(٦) ؛ إذ يقول : " أي مُجازيهم على خديعتهم ، ووبالُ الخديعة راجع عليهم ، والعرب تقول : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء ، وإنما هو على مزوجة الكلام "^(٧) .

وإذا كان الغرض هو مزوجة الكلام ، وهو وجه من أوجه الحسن البياني في القرآن الكريم ، فإنّ هذا لا يمنع من القول : إنّ هذه الشواهد التي سبقت هي من شواهد المشاكلة في القرآن الكريم ، إلا أنّها جاءت عندهما بالتجانس أو التجنيس ، وهو عنوان يخلط المشاكلة بالمجانسة أو الجناس ، مع أنّ بينهما فرقاً^(٨) كما سيأتي ، خاصة وأنّ كلا العالمين لم يعقد للمشاكلة باباً . وقد سبق التنويه إلى أنّ ما أسماه ابن أبي الإصبع مشاكلة ، وعقد له

(١) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٢) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٩ .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٨ .

(٤) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٦) سورة النساء : الآية (١٤٢) .

(٧) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٩ .

(٨) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٢ ، بتصرّف .

بأباً مختصاً به ، كان ذا مفهومٍ مختلفٍ تمام الاختلاف عما اصطلح عليه وتعارف .

وقد أدّى هذا الخلط بين المشاكلة والجناس إلى أن يعتبر بعض الدارسين أنّ المثال الواحد للمشاكلة يصلح أن يكون للمجانسة أيضاً ، إلا أنه يجعل هذا مشروطاً بشرط .

يقول الدكتور عبد العظيم المطعني حول قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(١) :
" وقد ظهر لك هنا أنّ الآية كما صلحت مثلاً للمشاكلة صلحت مثلاً للجناس "^(٢) ، على اعتبار أنّ اللفظين : (سيئة وسيئة) قد اتّحدا لفظاً واختلفا معنى ، فـ (سيئة) الأولى بمعنى الاعتداء ، والثانية بمعنى الجزاء والعقاب .

وشرط اجتماع المشاكلة مع الجناس أن يكون الطرف الثاني قد عبّر عنه بلفظ الطرف الأول لا بلفظه هو الخاص به^(٣) .

ورغم أنّ هناك فرقاً بين اللونين - المشاكلة والجناس - ؛ إذ في المشاكلة يُذكر المعنى بلفظ غيره الواقع في صحبته ، كهذا المثال ، وليس كذلك الجناس ؛ لأنّ المعنى يذكر بلفظه هو في اللفظين المتجانسين ، ثم يحدث أن تصادف تجانس اللفظين ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾^{(٤)(٥)} ، إلا أنّ هذا الخلط الذي وقع عند الرماني وابن أبي الإصبع يمكن أن يُقبل ويُلتمس له وجهٌ من الصحة ؛ إذ يمكن للشاهد الواحد أن يجتمع فيه اللونين على اعتبار أنّ اللفظ الثاني في المشاكلة أو اللفظ المشاكِل يمكن أن يُؤوّل فيكون جناساً عن طريق التأويل والمجاز .

ومن المهمّ جداً الإشارة إلى أنّ المشاكلة لا تجتمع إلا مع الجناس المستوفي التام المتفق في الصورة كما سمّاه عبد القاهر ، وإلا فإنّ المشاكلة لا تجتمع مع أيّ نوعٍ من أنواع الجناس

(١) سورة الشورى : الآية (٤٠) .

(٢) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧ ، بتصرّف يسير .

(٤) سورة الروم : الآية (٥٥) .

(٥) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٠٢ ، بتصرّف يسير .

الأخرى ، لكنّ هذا التأويل والتخريج يجيء بتكلف وتعمّد ، وليس هناك من حاجةٍ إليه ما دام أنّه يُفقد من كلا اللونين جزءاً من خصوصيته واستقلاله ، ويبعث على التشويش والتشتيت في أذهان الدارسين ؛ لذا لم يكن هذا الخلط وارداً عند الخطيب القزويني .

ورغم أنّ ابن أبي الإصبع كان قد تميّز بالوضوح والبيان في تحليلاته وتفصيلاته وتفرقاته بين ما يلتبس من الأبواب^(١) ، بل ما أشار إليه هو في مقدّمة كتابه (تحرير التحبير) من تحرّسه من التوارد ، وتجنّب التداخل بين الأبواب ، والعمل على تنقيحها وتصحيحها وتنظيم التراث البلاغي^(٢) ، إلا أنّ الخطيب القزويني كان أشدّ منه وضوحاً في هذه المسألة ، وأكثر منه احتياطاً وتدقيقاً وتركيزاً ، ولا غرابة في هذا ، فزعمته العلمية تقتضي أن يكون للبلاغة طابعها العلمي - على غرار العلوم الأخرى - من حيث العناية بالقواعد أو المقاييس العلمية ، ومن حيث التقسيم والتبويب والحصر ، وكذلك من حيث تحديد المصطلحات وما إلى ذلك من مظاهر التقنين العلمي^(٣) .

وخطّة كتاب (الإيضاح) مُحكمة ، وتُلبّي مقوّمات المنهج العلمي لإقامة نظرية علمية متكاملة يرجع إليها عند صياغة العمل الأدبي^(٤) .

وإذن فقد كان باب (الجناس) عند الخطيب خالصاً وحده بتقسيماته أو بصوره وأنواعه واضحاً كالشمس دون لبس أو خلط ، والجناس بمفهومه الواضح وبصوره المتعدّدة عند الخطيب القزويني جاء عند ابن أبي الإصبع مندرجاً تحت عنوان : جناس المناسبة اللفظي .

والتأمّل لحديث ابن أبي الإصبع عن هذا القسم من الجناس عنده يجده يتخذ صفة السّعة والبيان في كتابه (تحرير التحبير) عنه في كتابه (بديع القرآن) ، فبرغم اتفاق الكتابين في المنهج والصورة العامّة ، إلا أنّ الكتاب الأخير يؤخذ من عنوانه ، فالمؤلف يقصد فيه إلى

(١) انظر : ملامح الشخصية المصرية ، ص ٥٧٧ ، ٥٨١ ، ٧٨٠ .

(٢) انظر : مقدمة تحرير التحبير ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ .

(٣) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، ص ٤٢٠ ، بتصرّف يسير .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٥١ ، بتصرّف .

تطبيق الأنواع البديعية التي عرفت إلى عصره في القرآن الكريم ، ومن ثم فإنّ (بديع القرآن) تلخيص لـ (تحرير التحبير)^(١) . فلم يكن ابن أبي الإصبع ليتعرّض إلى حدّ الرماني أو حدّ قدامة وابن المعتزّ في الجناس ، أو التعرض للتبريزي الذي نقل عنه أكثر الصور في هذا الباب ، بل كان معرضاً عن كلّ هذا ، وعن كلّ مناقشاته وطرح آرائه عن المتأخرين والمتقدمين ، والمقارنة بينهما في كتابه (بديع القرآن) الذي هو محور الموازنة هنا . بل كان الكلام عن الجناس محصوراً عنده على بعض صوره والشواهد على ذلك ، بعيداً عن الإضافات أو التعليقات والموازنات والاستطرادات التي تلمح عنده في كتابه (تحرير التحبير)^(٢) .

تعريف الجناس :

عرّفه الخطيب القزويني بقوله : " وأما اللفظي فمنه الجناس بين اللفظين ، وهو تشابههما في اللفظ "^(٣) .

وكان هذا التعريف الموجز المختصر يُعدّ كافياً لينطلق الخطيب مُفصّلاً أضرب الجناس بتنسيق وانتظام ملحوظ ، إلا أنّ هذا يتعارض مع قوله في مقدّمة (الإيضاح) عن صتيه في المفتاح من أنّه بسط فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضح مواضعه المشكّلة ، وفصل معانيه

(١) انظر : مقدّمة تحقيق تحرير التحبير ، ص ٥٩ .

(٢) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٢ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، وانظر : التلخيص ، ص ١٩٨ ؛ إذ قال : " والجناس بين اللفظين تشابههما في اللفظ " . ويقصد الخطيب بقوله : " وأما اللفظي " أي من أنواع البديع اللفظية التي يحصل بها تحسين اللفظ فقط . انظر : عروس الأفراس ، ج ٣-٤ ، ص ٣٧٧ . أو اللفظي الذي هو من الوجوه المحسنة للكلام . انظر : المطول ، ص ٦٨٢ ، ويقصد بالتشابه في اللفظ كما شرح السعد ، أي في " التلفّظ ، فيخرج التشابه في المعنى ، نحو : أسد وسبع ، أو في مجرد عدد الحروف ، نحو : ضرب وعلم ، أو في مجرد الوزن ، نحو : ضرب وقتل .. ثمّ وجوه التشابه في اللفظ كثيرة تحيى تفصيلها " . انظر : المطول ، ص ٦٨٢ . وأضاف عصام الدين بقوله : " ويخرج عن التعريف تكرار اللفظ ، فإنّ التشابه يقتضي تغاييراً ، والتغاير اللازم للتعدّد في التكرار لا يسمى في العرف تغاييراً ، ولهذا يثبت للفظ الواحد معانٍ متعدّدة " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ .

المجملة^(١)؛ إذ نقل تعريف السكاكي ، وهو : " تشابه الكلمتين في اللفظ "^(٢)، وكان من الأولى أن يوضح هذا بإضافة عبارة : واختلافهما في المعنى ، إلا أنه في المقابل وضح المقصود بقول السكاكي في الجنس التام : " وهو أن لا يتفاوت المتجانسان في اللفظ "^(٣)، فقال : " والتام منه أن يتفقا في أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهيأتها ، وترتيبها "^(٤)، وأدرج تحته من الأنواع ما لم يذكرها السكاكي ، كالمتماثل ، والمستوفي ، والمركب بأنواعه الثلاثة .

جناس الاشتقاق :

أول حديث لابن أبي الإصبع عن الجنس بمفهومه المصطلح عليه هو الحديث عن هذا النوع أو هذه الصورة من الجنس ، فقال : " شاهد الأصل الثاني - وهو جناس المناسبة اللفظي - قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾^(٥)، وقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾^(٦) "^(٧) .

(١) انظر : مقدمة الإيضاح ، ص ٨ .

(٢) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٩ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦٩ . ويبدو في هذا التعريف أن الخطيب متأثر بالإمام الرازي إن لم يكن ناقلاً عنه .

يقول الرازي : " فالجناس التامة إنما توجد إذا تساوى في أنواع الحروف وأعدادها وهيأتها ... " .

انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٢٦ .

(٥) سورة الأنعام : الآية (٧٩) .

(٦) سورة الروم : الآية (٤٣) .

(٧) بديع القرآن ، ص ٣٨ . ولعلّ لابن أبي الإصبع في إطلاق جناس المناسبة اللفظي على جناس الاشتقاق

وجهين ؛ أولهما : أن المناسبة في الاشتقاق الأصغر أظهر ، أما المناسبة في الاشتقاق الأكبر أو الكبير

فيصعب التماسها ، ويدق استخراجها ، لذلك سمي الاشتقاق الأكبر أو الكبير بهذا الاسم ؛ لأنه يُبذل فيه

جهد لاستخراج واستنتاج المناسبة بين لفظي الاشتقاق . يقول ابن جني عن الاشتقاق الأكبر : " وهذا

أعوص مذهباً ، وأحزن مضطرباً " . انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ١٣٤ . أمّا الأصغر فلا مانع من

تسميته بالمناسبة ما دامت فيه واضحة ظاهرة ، ومن هنا تصحّ وجهة نظر الرماني ومن تأثر به ونقل عنه ،

كالباقلاني وابن أبي الإصبع في تسمية هذا النوع من التجانس المتعلّق بالاشتقاق الأصغر بالمناسبة .

بل إنّ هذا الجنس عند ابن أبي الإصبع هو الأصل الذي تتفرّع منه بقية الصور^(١)، كالجناس التام والناقص عند الخطيب القزويني؛ إذ ذكر حدّ الجنس عند الرماني - وهو ما سبق - ، ثمّ ذكر حدّه عند قدامة وابن المعتزّ ، وقال : " وأما قدامة وابن المعتزّ وإن اختلفا في تسمية هذا الباب ، فقد اتفقا على معناه ، فقال قدامة في حدّه : هو اشتراك المعاني في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق ... وهذا الحدّ بعينه هو تجنيس المناسبة الذي ذكره الرماني ، ولولا قول قدامة على جهة الاشتقاق لكان حدّه بعينه هو حدّ الرماني المطلق .

وقال ابن المعتزّ : هو أن تجيء الكلمة مجانسة أختها ، كقول الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾^(٢) " (٣) .

وانتهى ابن أبي الإصبع إلى القول بأنّ " هذا بعينه هو تجنيس المناسبة من جهة الاشتقاق ، ولم يخرج من جاء بعد هؤلاء عمّا حدّوه به ، لكنهم فرّعوه ثمانية فروع ، وعلى هذا التفريع أكثر المتأخرين ، سوى التبريزي ، فإنّه نقص من هذه الأقسام أربعة وأثبت أربعة ، وخلط في الشواهد ، وغيّر الأسماء " (٤) ؛ لذا كان رأيّه أنّ جناس الاشتقاق هو الذي يضمّ أكبر عددٍ من الصور التي اخترع لها المتأخرون أسماء كما هو الحال عند الخطيب وغيره ، فقال : " وإن كان متأخراً عمّن قسمّ التجنيس ثمانية أقسام ، واخترع أسماءها ، فإنني لم أقف على صحّة ذلك ، ورأيت ابن منقذ قد أتى على الأقسام الثمانية ، وفاته قسمّ تاسع أتى به التبريزي ... " (٥) .

ثانياً : إنّ تسمية هذا الجنس اللفظي يأتي من أنّ الشبه فيه لا يتعدى اللفظ بحال ، كما أشار بذلك بعض الدارسين . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٤ .

(١) قال الحلبي والنويري عن تجنيس الاشتقاق : " ... ومنهم من عدّه أصلاً برأسه ، ومنهم من عدّه أصلاً في التجنيس ، وهو أن تجيء بالألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة " . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٦٩ ، (نقلاً عن حسن التوسل ، ص ١٩٣ ، ونهاية الأرب ، ج ٧ ، ص ٩٥ ، حدائق السحر ، ص ١٠٣ ، الفوائد ، ص ٢٢٠) .

(٢) سورة الروم : الآية (٤٣) .

(٣) تحرير التحرير ، ص ١٠٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

وهذه نزعة أدبية متأصلة في نفسه ، وهي الميل إلى النقد ومحاولة التصحيح والتنقيح .

ولم يكن الخطيب القزويني ليصرّح بهذا فيخطئ عالماً أو يُثني على آخر ، إنما كان مشغولاً ببيان الصورة البديعية وتحديد مفهومها وتنظيم فروعها وتقسيماتها بشكلٍ منسّق غير متفاوت ولا متداخل في حدود المنهج العلمي الذي تتطلبه الدراسة البلاغية ، والذي يميل إليه بطبعه بعيداً عن كلّ تداخلات أو مناقشات أو موازنات ، كما يفعل ابن أبي الإصبع .

وإذا كان ابن أبي الإصبع قد قسّم الجناسَ كلّهُ إلى ضربين : تباير وتماثل^(١) ، المتفرّعة عن الأصل - وهو الاشتقاق - ، وأدخل تحتها كلّ صور الجناس التي جاءت عند الخطيب القزويني ؛ إذ يقول : " وهذان التجنيسان - أعني التباير والتماثل - فرعان من التجنيس الذي أصله قدامة وابن المعتز^(٢) " ، فإنّ الخطيب القزويني قسّم الجناسَ إلى ضربين أيضاً ، هما أكبر

(١) ذكر ابن أبي الإصبع أنّ التباير هو أن تكون إحدى الكلمتين اسماً ، والأخرى فعلاً ، وهذا سماه التبريزي : التجنيس المطلق ... وقد فرّع التبريزي من هذا القسم ضرباً سماه : التجنيس المستوفي ، وهو أن تتشابه الكلمتان لفظاً وخطأً ، وأحدهما اسم ، والأخرى فعل ... وهذا الفرع وإن وضعت له تسمية تخالف تسميات الأقسام الثمانية ، وكانت له صورة مثاله غير صور الأمثلة ، فإنّه داخلٌ في القسم الذي إحدى كلمتيه اسم ، والأخرى فعل ، فلذلك لم يعتدّ به قسماً مستقلاً ..

وعرّف تجنيس التماثل بأن يكون الكلمتان اسمين أو فعلين ، وهو على ضربين : ضربٌ تماثل فيه الكلمتان ، سواء كانتا اسمين أو فعلين في اللفظ والخط ... وضرب لا تماثل فيه الكلمتان إلا من جهة الاشتقاق ، سواء أكانتا اسمين أم فعلين .. انظر : تحرير التحرير ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

وهو ما ذهب إليه أسامة بن منقذ ، الذي أتى ابن أبي الإصبع على ذكره في هذا الباب ، فالتجنيس المماثل عند أسامة هو أن تكون الكلمتان اسمين أو فعلين ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [سورة الواقعة : الآية ٨٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ﴾ [سورة الرحمن : الآية ٥٤] . انظر : تجانس التماثل والتباير ، ص ١٢ من البديع في نقد الشعر .

ومن العجيب أن يعرف ابن أبي الإصبع التماثل في كتابه (بديع القرآن) بقوله : " والتماثل أن تكون الكلمتين اسمين أو فعلين أو فعلاً وحرفاً " . انظر : بديع القرآن ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، فقوله : " أو فعلاً وحرفاً " ليس بينهما تماثل أبداً .

(٢) تحرير التحرير ، ص ١٠٥ . ويقصد بالذي أصله قدامة وابن المعتز : أي الذي على جهة الاشتقاق . ومن التناقض الذي يبدو عند ابن أبي الإصبع في كتابه أنه أدرج جناس التصحيف والتحريف والتصرف

أقسام الجناس عنده وعند مَنْ تبعه ، وأدرج تحتها بقية الأنواع المتفرعة عنهما ، وهما :
الجناس التام ، والجناس الناقص .

ثم جعل الجناسَ على جهة الاشتقاق ملحقاً بالجناس وليس منه أو أصلاً له ، كما فعل
ابن أبي الإصبع ، فقال : " واعلم أنه يلحق بالجناس شيئان :

أحدهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاق^(١) ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾^(٢) ،
وقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾^(٣) ، وقول النبي ﷺ : « الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٤) ،

والترجيع أو التجنيس الناقص عنده تحت الضرب الأول من جناس الاشتقاق - وهو التماثل - في كتابه
(بديع القرآن) ، وكان قد فصل تلك الأنواع عن أضرب جناس الاشتقاق عنده - وهما التماثل والتغاير -
في كتابه (تحرير التجبير) ؛ إذ يقول : " وهذان التجنيسان - أي التغاير والتماثل - فرعان من
التجنيس الذي أصله قدامة وابن المعتز ، وباقي الثمانية استخرجها المتأخرون بالاستقراء ، وهي :
تجنيس التصحيف ، ... وتجنيس التحريف ... وتجنيس التصريف ... وتجنيس الترجيع ، وهو الذي سماه
التبريزي التجنيس الناقص ، وسماه قومٌ تجنيس التذييل ... وتجنيس التركيب ، لكنه في بديع القرآن
يجمع هذه الأنواع فيدخلها تحت جناس الاشتقاق " . انظر : بديع القرآن ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، وتحرير
التجبير ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(١) قال السعد : " وهو توافق الكلمتين في الحروف الأصول مرتبة ، والاتفاق في أصل المعنى ، نحو : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ [سورة الروم : الآية ٤٣] ، فإنهما مشتقان من : قام يقوم " . انظر : المطول ، ص ٦٨٨ .
وهذا هو الاشتقاق الأصغر كما عرفه ابن جني ، وهو أن " تأخذ أصلاً من الأصول فتتقرّاه فتجمع بين
معانيه ، وإن اختلفت صيغته ومبانيه ، وذلك كتركيب (س ل م) ، فإنك تأخذ منه معنى السلامة في
تصرفه " . انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ١٣٤ . والخطيب لم يتجاوز في هذه الأمثلة قول السكاكي :
" وكثيراً ما يلحق بالتجنيس الكلمتان الراجعتان إلى أصل واحد " . انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٣٠ .
رغم اعتراض السبكي عليها ؛ إذ قال : " وفي جعل بعض هذه الأمثلة من الاشتقاق الأصغر نظر " .
انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٥ ، إلا أنه لم يفصل القول في هذا الاعتراض أبداً ، ولم أجد
لذلك وجه ، كما سأذكر من بعد ..

(٢) سورة الروم : الآية (٤٣) .

(٣) سورة الواقعة : الآية (٨٩) .

(٤) انظر : صحيح البخاري ، كتاب المظالم ، باب : الظلم ظلمات يوم القيامة ، حديث رقم : (٢٤٤٧) ، ص ٤٢٩ ،

وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة ، حديث رقم : (٦٥٧٦) ورقم : (٦٥٧٧) ، ص ٩٧٢ .

وقول الشافعي رحمه الله وقد سئل عن النبذ : " أجمع أهل الحرمين على تحريمه " ، وقول أبي تمام :

* فَيَا دَمْعُ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدٍ ^(١) *

وقول البحتري :

يَعِشَى عَنِ الْمَجْدِ الْغَبِيِّ وَلَنْ تَرَى فِي سُودِّ أَرْبَا لَغَيْرِ أَرِيْبٍ ^(٢)

وقول محمد بن وهيب :

قَسَمْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ بَأْسًا وَبِأَثَلًا فَمَالِكُ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتَرُ ^(٣) " ^(٤)

رغم كثرة شواهد جناس الاشتقاق ^(٥) وغفويّتها التي يمكن أن تجعله من أنواع الجناس ، بل من أفضل أنواعه خاصة وأنّ الاشتقاق ممازج لكلّ صور الجناس وأضرابه ، بل إنّ بعض الدارسين قد عدّه من أنواعه فعلاً وليس ملحقاً به ^(٦) ، إلا أنّ الخطيب القزويني في عدّه ملحقاً بالجناس وليس منه ربّما يكون في هذا متأثراً بصنيع الرازي لما أفرد باباً في الاشتقاق بعد باب التحنيس ، وقال : " وإنّما أوردنا الاشتقاق في هذا الباب - أي بعد الجناس -

(١) البيت من قصيدة يمدح بها أبا المغيث الراققي ويعتذر إليه ، وشطره الأول :

* وَأَنْجِدْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكُمْ *

أي : انتقلتم إلى نجد بعد إقامتكم بتهامة . ولا أجد عليكم مُساعداً إلا الدّمع ، فبه يخفّ ما بي .

انظر : شرح ديوان أبي تمام ، للخطيب التبريزي ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

(٢) سبق بيان مفردات هذا البيت .

(٣) (البأس) : العذاب والشدة في الحرب ، والشجاعة ، (النائل) : العطاء ، و(مالك مَوْتُور) : من وتره ماله : نقصه إياه .

(٤) (الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٥) للاطلاع على مزيد من شواهد الاشتقاق ، يراجع : الصبغ البديعي ، ص ٣٨ .

(٦) قال الدكتور بسيوني فيود : " أرى أن يعدّ جناس الاشتقاق وما شابهه من أنواع الجناس ، وألا يجعله ملحقيّن به ، كما ذكر البلاغيون .. " . انظر : علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٢٩٣ .

وإن كان لا بدّ فيه من رعاية المعنى لقربه من المتجانسين ^(١).

ولم يعدّ ابن حجة الاشتقاق من الجنس ؛ لأنّه يرجع إلى أصل واحد ، والجناس يتطلّب فيه اختلاف المعنى ، وهو الغاية منه ^(٢) ، وربما كان هذا ما سوّغ للخطيب أن يجعله ملحقاً بالجناس لا من أنواعه ، وهو على كلّ وجهة نظر رآها الخطيب وعمل بمقتضاها ، بل إنّ هناك نوعاً من الجنس يسمى (المقارب) .

قال المظفر العلوي : " ومعناه أنّه يقارب التجنيس وليس بتجنيس " ، كقول القطامي :

كَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ لَأُمٍّ وَنَحْنُ لَعَلَّةٍ عَلَتْ اِرْتِفَاعاً ^(٣)

والتأمل لشواهد يجرده هو جناس الاشتقاق ، وإذا كان المظفر العلوي قد عدّه مقارباً للجناس وليس منه ، فإنّ هذا مسوّغٌ ثالثٌ للخطيب في أن يلحقه بالجناس فقط .

ورغم اعتراض بعض الدارسين - غير الشُّراح ، كالسبكي - على أنّ شواهد الخطيب الشعرية خاصة ليست داخلية في الاشتقاق ، إنّما في شبه الاشتقاق ، إلا أنّه بالعودة إلى القاموس المحيط للفيروزآبادي للتحقق من معرفة أصول كلّ كلمتين متجانستين في أمثلة الخطيب جميعها ، وجدتها كلّها عائدة إلى أصل واحد ، فهي إذن داخلية في الاشتقاق الذي هو الصغير ، وليس شبهه الذي هو الأكبر أو الكبير .

ورغم مجيء أغلب شواهد الخطيب هذه تحت ضربتي الاشتقاق عند ابن أبي الإصبع ، وهما التغاير والتماثل ^(٤) ، إذ أدرج ابن أبي الإصبع قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ تحت التغاير ، وهو ما سمّاه التبريزي بالتجنيس المطلق ^(٥) ، وهذا من جنس قوله تعالى :

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) راجع : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٩٠ ، بتصرّف يسير ، (نقلًا عن : نضرة الإغريض ، ص ٦٦ ، وينظر : جنى الجنس ، ص ٢٧٠) .

(٤) سبق توضيح معناهما .

(٥) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٤ . قال التبريزي : هو " أن يأتي الشاعر بلفظين في البيت ، إحداهما

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ التي جاءت عند الخطيب^(١).

وزاد ابن أبي الإصبع بعض الأمثلة ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾^(٢) . وكقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « عُصِيَّةُ عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ، و « غَفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا » ، و « أَسْلَمَ سَالَمَهَا اللَّهُ »^(٣) .. وكقول جرير :

كَأَنَّكَ لَمْ تَسِرْ بِبِلَادٍ نَجْدٍ وَلَمْ تَنْظُرْ بِنَاطِرَةِ الْحَيَامَا^(٤)

إلا أنه يظهر من بقية الشواهد هذه أنها كالأية الأولى ، فقد جاءت عند الخطيب تحت الضرب الثاني من الملحق بالجناس ، وهو أن يجمع اللفظين المتجانسين المشابه ، وهو ما يشبه الاشتقاق وليس منه^(٥).

مشتقة من الأخرى ، وهذا الجنس يُسمونه بالملحق " . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٢٦٧ ، (نقلاً عن الوافي ، ص ٢٦٠) .

قال العلوي : " المختلف بالأحرف وتتفق الكلمتان في أصل واحد يجمعهما الاشتقاق ، وما هذا حاله يقال له المطلق ... وإنما سُمي مطلقاً لأنه لما كانت حروفه مختلفة ولم يشترط فيه أمر سواه ، قيل له المطلق " . انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

وسمّاه كذلك الجرجاني بالمطلق ، وعدّه من أشهر أوصاف الجناس . انظر : الوساطة ، ص ٤١ .

(١) قد مثل السيوطي بالآيتين على تجنيس الاشتقاق الذي يجمعهما أصل واحد . انظر : الإتيان ، ص ٦٦١ ، وكذلك الرازي قبله . انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) سورة التوبة : الآية (٣٨) .

(٣) انظر : صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب : ذكر أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ،

حديث رقم : (٣٥١٣) ، ص ٦٣٨ ، وصحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : استحباب

القنوت ، حديث رقم : (١٥٥٧) ورقم : (١٥٥٨) ، ص ٢٤١ . وورد أيضاً في كتاب فضائل الصحابة ،

باب : دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم ، حديث رقم : (٦٤٣٤) ورقم : (٦٤٣٥) ، ص ٩٥١ .

(٤) انظر : تحرير التعبير ، ص ١٠٤ .

(٥) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٦ ، ٧٧ . واختلف بعض الشراح في تفسير ما يشبه الاشتقاق عند الخطيب .

قال السبكي : " إذا لم يكن بينهما اشتقاق أصغر ، بل كان بينهما ما يشبهه ، وهو اشتقاق أكبر ، أي اتفاق

في الحروف فقط من غير اشتراط الترتيب ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ [سورة الشعراء :

الآية ١٦٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [سورة الرحمن : الآية ٥٤] ، فإن (قال والقالين)

وعدّ بعضُ الدارسين تلك الأحاديث التي أوردها ابن أبي الإصبع تحت
تجنيس التغاير - الذي هو المشتقّ أو المطلق عند التبريزي - عدّها مما يشبه الاشتقاق
وليس منه^(١).

بل إنّ ما عدّه الخطيب داخلاً فيما يشبه الاشتقاق ، كقوله تعالى - مثلاً - :

يشبهان المشتقين بالاشتقاق الأصغر ، وليس منه ؛ لأنّ (القالين) من القلى ، و(قال) من القول ، ومعناهما
أيضاً مختلف " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٥ .
واكتفى عصام الدين بقوله : " والمراد بشبه الاشتقاق ما يتوهم في بادئ النظر اشتقاقاً ولم يكن " .
انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ .

وقال السعد : " وذلك بأن يوجد في كلّ من اللفظين جميع ما يوجد في الآخر من الحروف أو أكثر ،
لكن لا يرجعان إلى أصل واحد في الاشتقاق ، نحو : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ [سورة الشعراء :
الآية ١٦٨] ، فإنّ (قال) من القول ، و(القالين) من القلى . ونحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا قَلَّمْنَا إِلَى الْأَرْضِ
أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [سورة التوبة : الآية ٣٨] ، وبهذا يعرف أن ليس المراد بما يشبه الاشتقاق
الاشتقاق الكبير ، وذلك لأنّ الاشتقاق الكبير هو الاتفاق في الحروف الأصول ، من غير رعاية الترتيب ،
مثل : القمر والرقم والمرق ، ونحو ذلك ، و(الأرض) مع (أَرْضَيْتُمْ) ليس من هذا القبيل ، وهو ظاهر " .
انظر : المطول ، ص ٦٨٨ ، ٦٨٩ . ووافقه ابن معصوم ، ونقل بعض كلامه وقال : " وهو ظاهر نبه عليه
السعد التفتازاني في شرح التلخيص " . انظر : أنوار الريع ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

ويظهر أنّ ما هو بمنزلة المشتق هو ما اختلف أصل اللفظين فيه وكان معناه مختلفاً . انظر ما جاء في :
سرّ الفصاحة ، ص ١٩٣ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٣٣ ، سواء كان هذا الشبيه بالمشتقّ
داخلاً في الاشتقاق الكبير - كما فسّره السبكي - أو غير داخل - كما ذهب إلى ذلك السعد - .
أليس الأحرف الأصول إن اختلف ترتيبها يؤدي إلى الاختلاف في المعنى ؟! وقد عرّف ابن جني الاشتقاق
الأكبر فقال : " أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحد ، تجتمع
التركيب الستة وما يتصرّف من كلّ واحد منها عليه . وإن تباعد شيء من ذلك عنه ردّ بلطف الصفة
والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد ... نحو (ك ل م) (ك م ل) (م ل ك) (ل
(م ل ك) (ل ك م) .. " . انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

(١) انظر : زهر الربيع ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، والبديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٦٣ ، حيث قال الدكتور
عبد الفتاح لاشين : " فإنّ (أسلم) ليست من المسألة ، ولا (غفار) من المغفرة ، ولا (عُصيّة) تصغير
عصى من العصيان ، بل هي أسماء قبائل مرتجلة لهم " .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾^(١)، ذكره ابن أبي الإصبع ضمن تجنيس التماثل الذي تتماثل فيه الكلمتان من جهة الاشتقاق^(٢).

وبالجملة فإنّ بعض ما جاء شبيه بالاشتقاق عند القزويني جاء داخلاً في الاشتقاق عند ابن أبي الإصبع ، كالأمثلة السابقة ، وقد وجدت هذا عائداً إلى أنّ ابن أبي الإصبع لم يكن ينظر إلى مشابهة الاشتقاق ، إنّما كان ينظر إلى اللفظين المتجانسين من حيث التماثل أو التغاير ، بصرف النظر أكان قد جمعهما اشتقاق أو شبه اشتقاق . ولعله في هذا متأثرٌ بأسامة ابن منقذ ؛ إذ جاء عنده ما يسمى بالتجنيس المغاير ، والتجنيس المماثل ، وعقد لكلٍّ منهما باباً ، وجاءت أمثلة البابين متنوّعة بين ما جمعهما اشتقاق وما جمعهما شبه اشتقاق ، ولم يكن هناك من فرقٍ أو اهتمام خاصّ لدى أسامة بن منقذ بالمشتقّ وشبه المشتقّ^(٣).

هذا من جهة ، ومن جهةٍ أخرى فإنّ البلاغيين اختلفوا في إطلاق اسم المطلق ، فمنهم من أطلقه على تجنيس الاشتقاق ، كالعلوي والجرجاني والتبريزي^(٤) ، ومنهم من أطلقه على لفظين متجانسين لم يرجعا في المعنى إلى أصلٍ واحد ، كابن حجة^(٥).

وقال السيوطي : " ومنها تجنيس الإطلاق بأن يجتمعا في المشابهة فقط "^(٦).

ولعلّ الاجتماع في المشابهة عند الخطيب يمكن أن تُسمّى كذلك . قال ابن معصوم : " وأما الجنس المطلق - وسماه جماعةً كالسكاكي وغيره : تجنيس المشابهة - فهو ما اختلف ركناه في الحروف والحركات ، وجمع بين لفظيهما المشابهة ، وهو ما يشبه الاشتقاق وليس باشتقاق ، وذلك بأن يوجد في كلٍّ من اللفظين جميع ما في الآخر من الحروف أو أكثر ،

(١) سورة الرحمن : الآية (٥٤) .

(٢) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٥ .

(٣) انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٢ ، ١٤ .

(٤) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ، والوساطة ، ص ٤١ .

(٥) انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٦) الإتيقان ، ص ٦٦١ .

لكن لا يرجعان في المعنى إلى أصل واحد . وبهذا يفرق بينه وبين المشتقّ ، فإنّ المشتقّ يرجع معنى ركنيه إلى أصل واحد . قال الشيخ صفيّ الدين في شرح بديعته : وقد غلط أكثر المؤلّفين في المشتقّ ، وعدّوه تجنيساً ، وليس من أصناف التجنيس . انتهى ^(١) .

فإذن كما ذكر ابن حجة أنّ للناس في الفرق بينه - أي المطلق - وبين المشتقّ معارك ^(٢) .

وإذا كان الخطيب القزويني قد اختلف عرضه في كتابه (التلخيص) عن عرضه في كتابه (الإيضاح) بزيادات وإضافات ، أو بمزيد تحديد واختصار ، إلا أنه لم يكن متناقضاً في الكتابين بالنظر إلى هذا الباب - باب الجناس - ، إنّما كان اللافت عند ابن أبي الإصبع المصري وما يدعو إلى العجب أنّ ما عدّه من الضرب الثاني من التماثل ، وهو ما كان على جهة الاشتقاق في كتابه (تحرير التحبير) ، كقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ﴾ ^(٤) ، بصرف النظر عن أنّ الشاهد الأخير جاء ضمن ما يشبه الاشتقاق عند الخطيب ، فإنّ الشاهدين نفسيهما عدّهما في كتابه (بديع القرآن) ضمن الضرب الأول من التماثل ، وهو ما تماثلت فيه الكلمتان لفظاً وخطاً ، الذي يُعدّ من الجناس التام أو المحقق عند الخطيب وغيره . ولا شك أنّ هذا اضطراب واضح ؛ إذ يقول في كتابه (تحرير التحبير) الذي ألفه أولاً : " وضرب لا تتماثل فيه الكلمتان إلا من جهة الاشتقاق ، سواء أكانتا اسمين أم فعلين ، كقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ ^(٥) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ﴾ ^(٦) " ^(٧) .

ثمّ قال في كتابه (بديع القرآن) الذي ألفه ثانياً بعد أن عرّف التماثل : " وهو على

(١) أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(٢) راجع : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٣) سورة الواقعة : الآية (٨٩) .

(٤) سورة الرحمن : الآية (٥٤) .

(٥) سورة الواقعة : الآية (٨٩) .

(٦) سورة الرحمن : الآية (٥٤) .

(٧) تحرير التحبير ، ص ١٠٥ .

ضريين : ضربٌ تتماثل فيه الكلمتان لفظاً وخطاً ، وضرب لا يتماثلان إلا من جهة الاشتقاق
فحسب . مثال الفرع الأول من هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾^(١) ، وقوله تعالى :
﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ﴾^(٢) " (٣) .

ويمكن أن يُخَفَّفَ من حدة هذا الاستغراب والعجب أن هذا هو اتجاه المدرسة الأدبية
التي تتخذ خطأً مبيناً ومختلفاً عن اتجاه المدرسة العلمية ؛ إذ لا يلتزم أصحابها عادةً بالمقاييس
العلمية لدى أصحاب المدرسة العلمية ، لكن أياً ما يكن فإنَّ خط الاتجاه الأدبي عند ابن أبي
الإصبع لم يكن خطأً واحداً ، ولم يكن متّزناً في الكتاين ، فقد جاء كتابه الأول متّفقاً مع
الصورة المثلى عند الخطيب في عدّ هاتين الآيتين من الاشتقاق ، بينما لم يكن كذلك في
كتابه الثاني الذي من المفترض أن يكون فيه أكثر دقة واحتياطاً ، وأوضح مسلكاً في تقسيم
الجناس . والحقيقة أن عدم التزامه بمقياس واحد في الكتاين لم أجد له تفسيراً واحداً سوى أن
هذا من سهوات العلماء التي يمكن أن تغتفر بسهولة ، وتقبل برحابة صدر أمام صنائعهم التي
تطوّق أعناقنا مدى الدهر .

الجناس التام : (أ) المتماثل :

هذا النوع من الجناس بدأ به الخطيب في أوّل الحديث عن الجناس بعد تعريفه الموجز له ،
فلخصه بقوله : " والتامّ منه أن يتّفقا في أنواع الحروف ، وأعدادها ، وهياتها ، وترتيبها " (٤) .

وكلّ حرف من حروف الهجاء نوع ، وبهذا يخرج نحو : يفرح ويمرح ، والمراد بالعدد :
ما عدا الحرف المشدّد ، فإنّه وإن كان حرفين فإنّما يُعدّ في هذا الباب حرفاً واحداً ، وبه يخرج
أيضاً نحو : الساق والمساق ، ويقصد بهياتها : أي في الحركات والسكنات ، وبه يخرج نحو :
البرد والبُرد - بفتح أحدهما وضمّ الآخر - . وقال بعضهم : يخرج به نحو : بل وبلى ،

(١) سورة الواقعة : الآية (٨٩) .

(٢) سورة الرحمن : الآية (٥٤) .

(٣) بديع القرآن ، ص ٢٩ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

والمراد غير هيئة الحرف الأخير ، وأما الحركة الإعرابية فاختلافها لا يدفع تمام الجنس ، والمراد أيضاً غير الساكن من أول حرفي المشدّد ، فلا نظر إليه ، بل وجوده كعدمه ، ويقصد بترتيبها : أي تقديم بعض الحروف على بعض وتأخيرها ، وبه يخرج نحو : الفتح والختف^(١) .

وأدرج الخطيب تحت التام عدّة صور كما سيأتي ، أهمّها :

المماثل ، المستوفي ، والمركب .. ويتفرّع منه ثلاثة أنواع : المرفوع ، والمتشابه ، والمفروق ..

بينما كان الجنس التامّ عند ابن أبي الإصبع فرعاً من أفرع جناس التماثل عنده ؛ إذ قال : " والتماثل أن تكون الكلمتان اسمين أو فعلين ، أو فعلاً وحرف^(٢) ، وهو على ضربين : ضرب تماثل فيه الكلمتان لفظاً وخطاً ، وضرب لا يتماثلان إلا من جهة الاشتقاق فحسب " ^(٣) .

وهذا النوع من الجنس عنده سمّاه الخطيب المماثل^(٤) ، فقال : " فإن كانا من نوع واحد كاسمين سُمّي ماثلاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ^(٥) " ^(٦) .

(١) راجع : شرح عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٧٨ ، وشرح المطوّل ، ص ٦٨٢ .

(٢) سبق التنويه إلى أنه قوله : " أو فعلاً وحرف " لا يتفق مع قوله : " والتماثل أن تكون الكلمتان اسمين أو فعلين .. " . خاصة وأنه لم يأت على ذكر هذه العبارة في تعريفه للتماثل في كتابه (تحرير التحرير) . انظر : ص ١٠٥ من الكتاب .

(٣) بديع القرآن ، ص ٢٨ .

(٤) قال ابن معصوم : " وهذا الجنس من أكمل أصناف التجنيس وأرفعها رتبة ، وأولها في الترتيب الأصلي " . انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٤٨ . وذكر ابن سنان الخفاجي أنّ بعض البغداديين يُسمى تساوي اللفظتين في الصفة مع اختلاف المعنى - المماثل - ، ويسمى - المجانس - ما توافقت فيه اللفظتان بعض الاتفاق . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٩٥ .

(٥) سورة الروم : الآية (٥٥) .

(٦) أجمع البلاغيون أنه ليس في القرآن من التجنيس الكامل إلا هذه الآية ، ولم يقع في القرآن منه سواها . انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، والإتقان ، ص ٦٦٠ ، وأنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٤٨ . إلا أنّ السيوطي قال : " واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر موضعاً آخر ، وهو : ﴿ يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [سورة النور : الآيتان ٤٣-٤٤] .

والعجيب أن ابن أبي الإصبع لم يمثل عليه من القرآن في كتابه (بديع القرآن) سوى بقوله تعالى : ﴿ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾^(١) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ﴾^{(٢)(٣)} ، وهذا من الاضطراب الواضح عنده كما سبق بيانه . لكنه مثل عليه بما يليق به في كتابه (تحرير التحبير) بقول الشاعر :

عَيْنُهُ نَقَتْلُ النُّفُوسِ وَفُؤُهُ مِنْهُ تُخَيِّبُ عَيْنُ الْحَيَاةِ النُّفُوسَا^(٤)

فالجناس واقع بين عين الأولى وعين الثانية ، فالأولى يقصد بها الشاعر البصر ، والثانية يقصد بها أصل الحياة . ولعل هذا كان واضحاً ، لذا لم يحلله ابن أبي الإصبع ، وكان الخطيب القزويني قد مثل له بشاهدين من الشعر من أعذب ما يكون ، الأول هو قول الشاعر :

حَدَقُ الْآجَالِ آجَالُ وَالْهَوَى لِلْمَرْءِ قَتَالُ^(٥)

قال ابن معصوم مفسراً هذه الآية : " فالأبصار في الآية الأولى جمع البصر الذي هو النظر ، وفي الآية الثانية جمع البصر الذي هو العقل " . انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
ووقع لابن حجة شاهدان اثنان : الأول هو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ۝ [سورة النور : الآية ٢٥] ، والثاني هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ۝ [سورة الكهف : الآيتان ٨٤-٨٥] ، فإن أهل العلم بالتفسير قالوا : إن السبب الأول العلم ، والثاني الطريق . انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤١٩ ، هامش (٢) ، (نقلًا عن إحدى نسخ الكتاب) .

(١) سورة الواقعة : الآية (٨٩) .

(٢) سورة الرحمن : الآية (٥٤) .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٠ .

(٤) تحرير التحبير ، ص ١٠٥ .

(٥) ذكر الشيخ الصعيدي أن البيت لأبي سعد عيسى بن خالد المخزومي . وبعده :

وَالْهَوَى صَعْبٌ مَرَاكِبُهُ وَرُكُوبُ الصَّعْبِ أَهْوَالُ

و(الحدق) : واحدة حدقة ، وهي سواد العين ، والمراد : أن حدق النساء الشبيهة بحدق الآجال في سعتها وحسنها تقتل من ترميه بسهامها .

انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، هامش (٥) .

فوضّحه بقوله : " الأول جمع أجلٍ - بالكسر - ، وهو القطيع من بقر الوحش ،
والثاني جمع أجل ، والمراد به منتهى الأعمار " ^(١) .

والشاهد الثاني هو قول أبي تمام :

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ ^(٢)

" والشاهد في (صدور العوالي) ، وهي أعاليها ، و(صدور الكتائب) ، وهي نخورها " ^(٣) .

وقبل الانتهاء من الجنس التام وجدتُ إشارةً مهمّةً لابن حجة لم يُشر إليها الخطيب
القزويني أو ابن أبي الإصبع المصري ، وهي إمكان اشتراك التورية في أحد ركني الجنس التام .

يقول ابن حجة : " ... إنّ جميع من نهلت من شربهم الصافي لم يرتضوا بالجناس التام
إذا أمكن اشتراك التورية من رُكنيه ؛ لعلمهم بعلوّ رتبتها عنه ، والتفات الأذواق الصحيحة
السليمة إلى حُسن موقعها ، وإذا راجعت النظر في كلامهم وجدتُ غالباً ما نظموا من
التورية جناساً تاماً ، فمن ذلك قول القاضي :

وَذِي أُذُنٍ بِلَا سَمْعٍ لَهُ قَلْبٌ بِلَا قَلْبٍ
إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى حَبٍّ فَقُلُّ مَا شَتَّتَ فِي الصَّبِّ ^(٤)

الجناس التام : (ب) المستوفي :

عدّه ابن أبي الإصبع فرعاً من التجنيس المتغاير الذي سمّاه التبريزي التجنيس المطلق ،

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٢) البيت من قصيدة طويلة يمدح بها أبا دُلف القاسم بن عيسى العجلي ، وهو يعني : " إذا شَقَّتْ الْخَيْلُ
غُبَارَ الْحَرْبِ فَإِنَّهُمْ يَطْعَنُونَ الْأَبْطَالَ بِالرَّمَا حَتَّى يَكْسِرُوهَا فِي صُدُورِهِمْ " . انظر : شرح ديوان
أبي تمام ، ج ١ ، ص ١١٥ .

و(جابت) : بمعنى خرقت ، و(القسطل) : الغبار الساطع في الحرب ، (صَدَّعُوا) : أمالوا .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، هامش (٦) .

(٤) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

فقال : " وقد فرّع التبريزي من هذا القسم ضرباً سَمَّاهُ التحنيس المستوفي . وهو أن تتشابه الكلمتان لفظاً وخطاً ، واحدهما اسم ، والأخرى فعل " (١) .

ويظهر أن ابن أبي الإصبع لم يعتدّ بهذه التسمية أيضاً ، إنما كما قلتُ من قبل : كان ينظر إلى التغاير والتماثل ، وحوّلها يدور الجنس عنده بكلّ صورته المختلفة ؛ إذ يقول : " وهذا الفرع وإن وضعت له تسمية تخالف تسميات الأقسام الثمانية ، وكانت له صورة مثاله غير صور الأمثلة ، فإنه داخلٌ في القسم الذي إحدى كلمتيه اسم والأخرى فعل ، فلذلك لم يعتدّ به قسماً مستقلاً " (٢) .

ويبدو أن الفرق بين التماثل والمستوفي عند ابن أبي الإصبع أن اللفظين في التماثل متّفقان لفظاً وخطاً ، بينما هما في المستوفي متشابهان فقط لا متّفقان .

أما الخطيب القزويني فعنده المستوفي أن اللفظين متّفقان في اللفظ والخط ، غير أنّهما متغايران في نوع الكلمة ، فقال : " وإن كانا من نوعين كاسم وفعل سُمِّيَ مستوفي " (٣) . فلاحظ ابن أبي الإصبع في المستوفي التغاير مع تشابه في اللفظين ، ولاحظ فيه الخطيب التغاير مع الاتفاق في اللفظين .

ويبدو أن هذا الاختلاف اليسير يُترجم رؤية خاصة ووجهة نظر مختلفة عند كلا

(١) تحرير التحرير ، ص ١٠٤ . ولم يرد هذا النوع في كتابه (بديع القرآن) ؛ إنما قال فقط موضحاً التغاير ، " فالتغاير أن تكون إحدى كلمتي التحنيس اسماً ، والأخرى فعلاً ، كقوله تعالى : ﴿ اِنَّا قَلَتُمْ اِلَى الْاَرْضِ اَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ [سورة التوبة : الآية ٣٨] . وليس في هذه الآية كما هو واضح تحانس مستوفي " .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ . قال عصام الدين موضحاً المستوفي : " وهو في اللغة ما أُعطي حقه بالتمام ، سُمِّيَ به تنبيهاً على أنه وإن اختلف اللفظان نوعاً لم ينقص شيء من حقّ الجنس " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٥ . ومن الملاحظ أن كلا من ابن أبي الإصبع المصري والخطيب القزويني - رحمهما الله تعالى - لم يعلّل أيّ تسمية لأيّ ضربٍ من أضرب الجنس ، وقد يعذر الخطيب في هذا بحكم اتجاهه العلمي ، أما ابن أبي الإصبع فما أليق التفسير الأدبي به ، وكذلك تعليل التسميات للمصطلحات .

العالمين ، فما يراه ابن أبي الإصبع متشابهاً يراه الخطيب متفقاً ، إلا أنّ القول بالتشابه أقرب إلى الدقة حسبما أراه ؛ إذ إنّ (يحيا) و(يحياي) يتشابهان لفظاً وخطاً ، لكن لا يتفقان إلى درجة أن تصبح الكلمة هنا هي الكلمة هناك ، كالساعة والساعة - مثلاً - في المتماثل^(١) .

وقد مثل كلا العالمين على هذا النوع من الجناس بقول أبي تمام :

مَا مَاتَ مِنْ كَرَمِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ^(٢)

والجناس المستوفي كان فيه واضحاً لم يحتج إلى بيان من العالمين الفاضلين ، وزاد الخطيبُ شاهداً آخر ، ويبدو أنّ شواهد الخطيب في باب الجناس أغزر من شواهد ابن أبي الإصبع العدواني ؛ مما يعكس ميلاً أدبياً لم يُحرّم منه الخطيب ، وليس هذا فقط ، بل إنّ مما يُفسّر اهتمامه بالجناس والإكثار من شواهد هو أنّه - رحمه الله - عاش في فترة ازدهار هذا اللون البديعي عند الشعراء والأدباء .

ورغم حرص الخطيب القزويني على تنوّع شواهد ، إلا أنّه يحرص في المقابل على الاستشهاد بأبيات لأبي تمام ؛ مما يعكس إعجابه به وتذوّقه أيضاً للشعر الجيد ، والوقوع

(١) قال ابن حجة عن المتماثل والمستوفي : " وجُلّ القصد تماثل الرّكنين في اللفظ والخط والحركة واختلافهما في المعنى ، سواء كانا من اسمين أو من غير ذلك " . انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤١٨ .
(٢) البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها يحيى بن عبد الله ، وكتبها إليه مع سهم أخيه ليصله ويسأله في أمره . وله رواية أخرى هي :

مَا مَاتَ مِنْ حَدَثِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

والرواية الجيدة هي المذكورة . انظر : شرح ديوان أبي تمام ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

قال الجرجاني : " فجناس (يحيا) و(يحياي) ، وحروف كلّ واحدٍ منهما مستوفاة في الآخر ، وإنّما عُدّ في هذا الباب لاختلاف المعنيين ؛ لأنّ أحدهما فعلٌ والآخر اسم ، ولو اتفق المعنيان لم يُعدّ تجنيساً ، وإنّما كان لفظة مكرّرة ، كقول امرئ القيس :

فَلَمَّا دَنَسَتْ تَسَدَّيْتُهَا فَثَوْباً نَسَيْتُ وَثَوْباً أُجْرَ .. "

انظر : الوساطة ، ص ٤٢ . ومعنى (تسدّيتها) : تناولتها وقصّدت إليها .

ومعنى بيت أبي تمام كما ذكر عصام الدين ، أي : فإنّه كريم لا يدع أن يموت قسماً من أقسام الكرم ، أو لأنّه كريم ، يحياي الكرم ويجدّه . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٥ .

على مختارات منه هو دون غيره . ومزج ابن أبي الإصبع في طريقة عرضه في كتابيه بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي ، فتجد " الإفادة والتأثير بالعبارة العلمية الأدبية التي توقفنا على حقائق علمية في النصّ أو مواطن الجمال فيه " ^(١) .

أما شاهد الخطيب الآخر ، فهو :

وَسَمِيَّتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلٌ ^(٢)

ومن المهمّ ذكره هنا في الجنس المستوفي ، وهو ما لم يشر إليه كلا العالمين : مقابلة الاسم بالحرف ، وهذا نوعٌ نادر ^(٣) ، فمنه قول النبي ﷺ : « إِنَّكَ لَنْ تَنْفَقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ - تعالى - إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا ، حتى ما تجعل في في امرأتك » ^(٤) . وكذلك مقابلة الحرف بالفعل ، كقول الشاعر :

عَلَا نَجْمُهُ فِي عَالَمِ الشَّعْرِ فَجَاءَ عَلَى أَنَّهُ مَا زَالَ فِي الشَّعْرِ شَادِيَا

وقول آخر :

وَلَوْ أَنَّ وَصَلًا عَلَّلُوهُ بِقُرْبِهِ لَمَا أَنَّ مِنْ حَمْلِ الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى ^(٥)

(١) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٣٠٤ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ . ذكر صاحب (معاهد التنصيص) أنّ هذا القول لمحمد بن عبد الله بن كناسة الأسدي الكوفي - وقد سبقت الإشارة إلى هذا البيت - ، وهو ابن أخت إبراهيم بن أدهم - رحمهما الله - ، وبعد هذا البيت قوله :

تفاءلت لو يُغني التفاؤل باسمه وما خلتُ فאלاً قبل ذاك يفيلُ
انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٠٨ . والمعنى : أنّ الشاعر سمّى ابنه يحيى تفاؤلاً له بالعيش والحياة ، إلا أنّ التفاؤل بالاسم لم يُغنِ عند القدر والأجل المحتوم .

(٣) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ٩٨ .

(٤) انظر : صحيح البخاري ، كتاب النفقات ، باب : فضل النفقة على الأهل ، حديث رقم : (٥٣٥٤) ، ص ١٠٢١ .

(٥) انظر : علم البديع ، ص ٢٠١ .

الجناس التام : (ج) المركب :

لم يُشر ابن أبي الإصبع إلى هذا النوع من الجناس التام في كتابه (بديع القرآن) ؛ ربّما لندرة وجودة في القرآن الكريم ، خاصةً وأنّه أشار من قبل في مقدّمته أنّه أفرد في كتابه (بديع القرآن) ما يختصّ بالكتاب العزيز^(١) ، إنّما تحدث عن هذا النوع وفصّل فيه في كتابه (تحرير التحبير) ، فقال : " وتجنّس التركيب ممّا لم يذكره التبريزي ، وهو أن تركيب كلمة من كلمتين ليماثّل بها كلمة مفردة في الهجاء واللفظ "^(٢).

فقوله : " ليماثّل بها كلمة مفردة " يقابل تعريف الخطيب لهذا النوع من الجناس ، وهو قوله : " والتام أيضاً إن كان أحد لفظيه مركّباً سُمّي جناس التركيب "^(٣).

فمقصود الخطيب أن يكون أحد اللفظين فقط مركّباً يعني به أنّ الآخر كلمة أو لفظة مفردة ، كما جاء عند المصري .

قال السعد موضحاً : " أي لفظا التجنيس اللذان أحدهما مركّب والآخر مفرد "^(٤). وبالتالي فإنّ العالمين الفاضلين متفقان في معنى جناس التركيب ، وهو كون أحد لفظيه مركّباً والآخر مفرداً يماثله ويمجانسه^(٥) ، إلا أنّ لكلّ منهما صياغته ، فقد كان تعريف الخطيب

(١) انظر : مقدّمة بديع القرآن ، ص ١٥ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٢٩ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٤) المطول ، ص ٦٨٣ . قال الصعيدي : " لأنّه إذا كان كلّ منهما مركّباً كان نوعاً آخر يسمى جناس التلفيق ، كقول البستي :

إلى حتفي سَعَى قَدَمِي أرى قَدَمِي أراق دَمِي

انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ ، هامش (٣) .

وانظر حدّ الملفّق عند ابن حجة في خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٠٥ ، وعند ابن معصوم في أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٥) قال ابن معصوم عنه : " ما تماثل ركناه وكان أحدهما كلمة مفردة والآخر مركّباً من كلمتين فصاعداً " .

انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ٩٨ .

مختصراً موجزاً ، بينما لم يكن كذلك ابن أبي الإصبع ، خاصة وأنه قد حرص في آخر تعريفه على عبارة (في الهجاء واللفظ) ، ولم يكن الخطيب محتاجاً إليها ؛ لأنّ هذا الجنس عنده من التأم .

ولكلّ من الرجلين تقسيمه الخاصّ من وجهة نظره لجناس التركيب ، فقد قسمه ابن أبي الإصبع إلى قسمين فقط ، هما :

* قسم تتشابه الكلمتان فيه لفظاً وخطاً .

* وقسم تتشابهان فيه لفظاً لا خطاً^(١) .

وجاء تقسيم الخطيب كالتالي :

* إن كان المركب منهما مركباً من كلمة وبعض كلمة سُمي مرفوعاً .

* فإن اتفقا في الخط سُمي متشابهاً .

* وإن اختلفا سُمي مفروقاً^(٢) .

وتبعه في هذه الأقسام الثلاثة الشّراح والمتأخرون ، كابن حجة ، وابن معصوم ..

ويلتقي العالمان الفاضلان في القسمين الأخيرين !! .

فما تشابهت الكلمتان فيه لفظاً وخطاً عند ابن أبي الإصبع هو التشابه عند القزويني ، وما تشابهت فيه الكلمتان لفظاً لا خطاً عن ابن أبي الإصبع هو المفروق عند القزويني .. ويبدو في عدم تكرار كلمة (لفظاً) عند الخطيب شيء من الدقة ؛ إذ من الطبيعي أنّه لا بدّ من اللفظين المتجانسين من الاتفاق ، خاصة وأنّ الجنس محسّن لفظي ، لذا كان ينظر إلى الاختلاف والاتفاق في الخط فقط .

وقال ابن حجة : " فحدّ المركب أن يكون أحد الرّكنين كلمة مفردة ، والآخر مركباً من كلمتين " .

انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

(١) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٩ .

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

والحقيقة أنَّ كتاب (الإيضاح) و(التلخيص) يشهدان لمؤلفهما بمقدار دقته واحتياطه في تعريفاته وفي اصطلاحاته ، بل إنَّ هذه الدقَّة والقدرة على إيتاء اللفظ المناسب تستوعب وتستغرق فروع كلِّ لون من ألوان البديع ، فتجده بما وهبه الله من ملكة الذكاء والفهم قادراً على أن يحدِّد ويوجز كلَّ ما يؤدِّ قوله في عبارة يسيرة تستوعب كلَّ ما يتعلَّق بها دون تطويل ودون لبس أو غُموض أو حشو يذهب معه الذهن كلَّ مذهب .

وهذا يدلُّ على طول باعه وتعمُّقه في الدرس البلاغي ، وإلاَّ لما نقل عنه الشيخ الجرجاني مصنّف كتاب (الإشارات والتنبيهات) في علم البلاغة فصولاً جمّة من الأبواب البلاغية دون أن يعقّب عليها أو يفنّدها ، يذكر آراءه وأمثله التي يسوقها^(١) ، وانفرد الخطيب عن ابن أبي الإصبع بالقسم الأول من التركيب ، وهو المرفو^(٢) .

ومثل عليه بقول الحريري :

وَلَا تَلُهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَأَبْكَهِ بَدَمْعٍ يُحَاكِي الْوَيْلَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمِثْلَ لَعْنَتِكَ الْحَمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلَقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ^(٣)

والشاهد في قوله : (مصابه) و(مطعم صابه) . قال السبكي : " يعني أنَّ المصاب في

(١) المختصر في تاريخ البلاغة ، ص ٢٥٦ ، بتصرّف يسير .

(٢) قال عنه ابن معصوم : " ما كان أحد ركنيه مستقلاً والآخر مرفو من كلمة أخرى " . انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١١١ . و(مرفو) : مجزأ كما ذكر ابن حجة ، وذكر أيضاً أنَّ هذا النوع من الجنس لا يخلو من التعسُّف وعقادة التركيب . انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

(٣) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

و(الويل) : من وبلت السماء (وَبَلَّأً) - من باب وَعَدَ - (وَبُولاً) : اشتدَّ مطرُها ، وكان الأصل (وَبَلَّ) مطرُ السماء ، فحُذِفَ للعلم به ، ولهذا يقال للمطر : (وابلٌ) . انظر : المصباح المنير ، باب (الواو) ، ص ٦٤٦ . وفي رواية أخرى للبيت :

* يُحَاكِي الْمَزْنَ حَالَ مَصَابِهِ *

انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١١١ .

و(مصابه) : من صاب المطر يصوب صوباً : انصبَّ ونزل ، و(الصَّاب) : عصارة شجر مرّ ، واحده صابه .

الأول مفرد ، والثاني مركب من (صاب) و(ميم) مطعم ، ولا نظر إلى الضمير المضاف إليه فيهما ، فالأول مفرد ، والثاني مركب من كلمة وبعض أخرى " (١) .

أما القسمان الآخران اللذان التقيا فيهما ، فالأول منهما هو : المتشابه أو ما تشابهت فيه الكلمتان لفظاً وخطاً ، كما ذكر زكي الدين المصري ، وقد مثل عليه كلاهما (٢) بقول أبي الفتح البستي (٣) :

إِذَا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِبَةٍ فَدَعُهُ فَدَوْلَتُهُ ذَاهِبَةٌ (٤)

" ف(ذا هبة) الأول مضاف ومضاف إليه ، والثاني اسم فاعل " (٥) .

(١) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٠ . واعترض ابن عرب شاه وقال : " وليس في مطعم صابه صورة الإعادة ؛ لأنَّ حُسْنَ التجنيس التام لكونه إفادة في صورة الإعادة ، أو بنفي (مطعم) مهملاً لا معنى له ، وكيف يعتبر في السجع المهمل ولو اعتبر لكان في المساق والساق تجنيساً تاماً ، ولم يقل به أحد " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ . والحق أنَّ صورة الإعادة التي يشير إليها عصام الدين إنما تكون أوضح في التام المستوفي وليس في المركب هنا .

(٢) انظر : تحرير التحرير ، ص ١١٠ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٣) ذكر ابن رشيق أنَّ أكثر مَنْ يستعمل هذا النوع من الجناس أبا الفتح البستي ، والميكالي ، وقابوس ، وأصحابهم .. وعدَّ هذا الجناس ليس بتجانس صحيح على ما شرط المتقدمون ، ولكنه استُطِرف فأدخل في هذا الباب تملّحاً . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٨ ، وانظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .

(٤) (ذا هبة) : صاحب هبة ، (فدولته ذاهبه) : أي غير باقية .

وما أحسن قول شمسويه المصري الذي استشهد به عبد القاهر :

ناظره فيما جنى ناظره أو دعاني أمت بما أودعاني

وأيضاً قول الصلاح الصفدي :

يَا مَنْ إِذَا مَا أَتَاهُ أَهْلُ الْمَوَدَّةِ أَوْلَمَ
أَنَا مَحَبَّكَ حَقًّا إِنَّ كُنْتَ فِي الْقَوْمِ أَوْلَمَ

انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .

وكان حريّاً بالعالمين الفاضلين الاستشهاد بإحدى تلك الشواهد السابقة أيضاً .

(٥) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٠ .

وزاد ابن أبي الإصبع شاهداً آخر ، هو :

يَا مَنْ تُدِلُّ بِوَجْنَةٍ وَأَنَا مِلٌّ مِنْ عَنَدَمٍ
كُفِّي جُعِلْتُ لَكَ الْفِدَا الْحَاظَ عَيْنَيْكَ عَنْ دَمِي^(١)

إلا أن ابن حجة عدّه من المفروق ، أي من تشابهت فيه الكلمتان لفظاً لا خطأ^(٢).

أما الثاني - وهو المفروق -^(٣) أو ما سماه ابن أبي الإصبع : ما تشابهت فيه الكلمتان لفظاً لا خطأ ، فقد مثل عليه الخطيب بشاهدين شعريين اثنين ، التقى في أحدهما مع ابن أبي الإصع العدواني^(٤) ، وهو قول أبي الفتح :

كُلُّكُمْ قَدْ أَخَذَ الْجَا مَ وَلَا جَا مَ لَنَا
مَا الَّذِي ضَرَّ مُدِيرَ الدَّ جَا مَ لَوْ جَا مَلْنَا^(٥)

(١) انظر : تحرير التحرير ، ص ١٠٩ .

و(الوجنة) : هي من الإنسان ما ارتفع من لحم خدّه ، والأشهر فتح الواو ، وحكي التثليث ، والجمع (وجنات) ، مثل : سجدة وسجدات .. (عندم) : دُمُ الأخوين ، أو البَقْمُ . انظر : القاموس المحيط ، باب (الميم) ، فصل (العين) ، ص ١٤٧٣ . (الحاظ) : جمع لحاظ ، وهو مؤخر العين .
(٢) انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٨٨ . والشاهد غير منسوب فيه إلى شاعر معين ..
وقد ورد أيضاً غير منسوب برواية أخرى في : أنوار الربيع ، وهي :

يَا مَنْ تُدِلُّ بِحَقْلَةٍ وَأَنَا مِلٌّ مِنْ عَنَدَمٍ
كُفِّي جُعِلْتُ لَكَ الْفِدَا الْحَاظَ عَيْنَيْكَ عَنْ دَمٍ

انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٣) قال السعد : " لافتراق اللفظين في الخط " . انظر : المطول ، ص ٦٨٤ . وقال ابن معصوم : " وخصّ باسم المفروق ؛ لافتراق الركين في الخط ، وهو الذي نظمهُ الصّفي " . انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٠٣ .
وقد سبقت الإشارة إلى أن كلا العالمين لم يُعَلَّلْ أيّ تسمية لأيّ نوعٍ من أنواع الجنس .

(٤) انظر : تحرير التحرير ، ص ١١٠ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١ .

(٥) انظر : تحرير التحرير ، ص ١١٠ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١ .

وقد احتجّ السبكي بهذا الشاهد ليدلّل على أن مقصود الخطيب في تعريفه للجناس المركب هو أن

أما الشاهد الثاني فهو :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى الرَّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تُبَالِغْ قَبْلَ فِي تَهْذِيبِهَا
فَمَتَى عَرَضْتَ الشَّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُوُّهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا^(١)

يكون كلا اللفظين مركباً لا أحدهما فقط ، فقال : " واعلم أن قول المصنف : " المركب منهما " يدخل فيه ما إذا كانا مركبين ، مثل : " جام لنا وجاملنا " ، وبعضهم فهم أن المراد أن يكون أحدهما مركباً والآخر مفرداً ، وجعل الذي كلمته المتجانستان مركبتان نوعاً آخر ، سمّاه جناس التلفيق ، ومثله بقول البستي :

إلى حتفي سَعَى قَدَمِي أرى قَدَمِي أراق دَمِي "

انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٠ . ووافقه في ذلك عبد المتعال الصعيدي ، فقال : " والشاهد في قوله : " جام لنا وجاملنا " ، فقد تجانسا ، وكلّ منهما مركب ، مع اختلافهما في الخط . ومن يجعل جناس التركيب خاصاً بما يكون أحد المتجانسين فيه مركباً والآخر مفرداً ، يجعل قوله : (جاملنا) مفرداً ؛ لاتصال الضمير فيه بالفعل ، ولا يخفى أن هذا تكلف لا داعي إليه " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١ ، هامش (٢) .

وأما من ظن أن هذا الشاهد من جنس شاهد التشابه ، وهو :

وَلَا تَلُهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَابِكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي الْوَبْلَ حَالَ مَصَابِهِ
وَمَثَلٍ لِعَيْنَيْكَ الْجَمَامَ وَوَقَعَهُ وَرَوْعَةَ مَلَقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

قال السعد : " لا ، إذ يجب في المفروق أن لا يكون المركب مركباً من كلمة وبعض كلمة ، بل من كلمتين ، والتقسيم : أن المركب إن كان مركباً من كلمة وبعض كلمة يسمى التجنيس مرفوعاً ، وإلا فهو إما متشابه أو مفروق ... " . انظر : المطول ، ص ٦٨٤ ، ٦٨٥ .

و(الجام) : الكأس ، (مدير الجام) : الساقى ، (جاملنا) : عاملنا بالمثل أو أحسن .

(١) نسب صاحب معاهد التنصيص هذا البيت للمطوعي . انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

وفي رواية أخرى ذكرها ابن معصوم ونسبها أيضاً للحاكم المطوعي ، هي :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى الرَّوَاةِ قَصِيدَةً مَا لَمْ تَكُنْ بَالِغَتْ فِي تَهْذِيبِهَا
فَمَتَى عَرَضْتَ الشَّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُوُّهُ مِثْلٌ وَسَاوِسٍ تَهْذِي بِهَا

انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٠٣ . وما أحسن قول بهاء الدين السبكي من هذا النوع :

كن كيف شئتَ عن الهوى لا أنتهي حتّى تعود لي الحياة وأنت هي

انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

وجناس التركيب لم يُحبّذه أو يثني عليه بعض البلاغيين ، كابن رشيق ، وابن سنان .. قال ابن رشيق : " وهذا أسهل معنى لمن حاوله ، وأقرب شيء لمن تناوله ، ولكنه من أبواب الفراغ وقلة الفائدة ، وهو مما لا يُشكّ فيه تكلفه ، وقد كثر منه هؤلاء الساقّة المتعقّبون في نشرهم ونظمهم حتى برّد وركّ ... " ^(١) .

وقال ابن سنان : " ... وهو عندي غير حسن ولا مختار ولا داخل في وصف من أوصاف الفصاحة والبلاغة " ^(٢) .

إنما كما يبدو كان مستحسناً عند الخطيب القزويني ، ويُدلّل على استحسانه بشواهده الأدبية الجميلة التي تعكس ذوقه الرفيع ، وباعتباره من فروع الجنس التامّ الذي ختم الحديث عنه بقوله : " ووجه حُسن هذا القسم - أعني التامّ - حسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة " ^(٣) .

وهذا تأثّر واضح بعبد القاهر الجرجاني ، وإن ذكر عبد القاهر أنّ هذه الفائدة لا تظهر الظهور التامّ إلا في المستوفي المتفق في الصورة أو المرفو الجاري مجراه ، حيث يقول : " واعلم أنّ النكتة التي ذكرتها في التجنيس وجعلتها العلة في استيجابه الفضيلة هي حُسن الفائدة ، مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة وإن كانت لا تظهر الظهور التامّ الذي لا يمكن دفعه ، إلا في المستوفي المتفق الصورة منه ... أو المرفو الجاري هذا المجرى .. " ^(٤) .

أما ابن أبي الإصبع فلم يُشر في الواقع إلى أيّ مزية لأيّ ضربٍ من أضرب الجنس ، وهذا مستغربٌ منه .

الجناس الناقص :

هكذا سمّاه الخطيب فقال : " وإن اختلفا في أعداد الحروف فقط سُمّي ناقصاً " ^(٥) .

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٩ ، ٥٦٠ . ومعنى (ركّ) : أي ضَعَف ورقّ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ١٩٨ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١ .

(٤) أسرار البلاغة ، ص ١٧ .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٢ . قال السبكي في عروس الأفراح ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ : " سُمّي الجنس ناقصاً "

وهو عنده على وجهين :

* أحدهما : أن يختلفا بزيادة حرفٍ واحدٍ في الأول ، أو في الوسط ، أو في الآخر .

* الثاني : أن يختلفا بزيادة أكثر من حرفٍ واحد^(١) .

وهو على هذا ستة أقسام كما قال السعد : " لأنّ الزائد إما حرف واحد أو أكثر ، وعلى التقديرين فهو إما في الأول أو في الوسط أو في الآخر " ^(٢) .

أما ابن أبي الإصبع فقد عدّ هذا الضرب من الجناس ضمن الفروع العشرة التي ذكرها ، وهو عنده الفرع الخامس ، وسماه الترجيع ، فقال : " ومثال الخامس - وهو تجنيس الترجيع - ، ويسمى التجنيس الناقص ، وتجنيس التبديل ، وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى ، وجميع حروف الأخرى يوجد في أختها على استقامتها " ^(٣) .

وبرغم إقرار ابن أبي الإصبع تسميته بالناقص ، إلا أنّه كما يظهر يُفضّل تسميته بالترجيع ، إلا أنّه لم يُعلّل سبب هذه التسمية ، ويظهر أنّ ابن أبي الإصبع متأثر بأسامة بن منقذ ؛ إذ وجد عنده هذا المصطلح ، وعرفه بقوله : " اعلم أنّ تجنيس الترجيع هو أن ترجع الكلمة بذاتها ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ ^(٤) ،

لأنّ اختلافهما في عدد الحروف يلزم منه نقصان أحدهما لا محالة " .

والعجيب أن يذكر الخطيب سبب التسمية في كتابه (التلخيص) ، ولا يذكره في (الإيضاح) ، وهو

به أولى . انظر : التلخيص ، ص ١٩٩ .

(١) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) المطوّل ، ص ٦٨٦ .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٠ . وجاء في تحرير التعبير : " وتجنيس الترجيع ، وهو الذي سماه التبريزي التجنيس

الناقص ، وسماه قومٌ تجنيس التذييل " . انظر : ص ١٠٧ .

ويلحظ أنّ ابن أبي الإصبع ذكر في (بديع القرآن) أنّه يُسمّى تجنيس التبديل ، بينما ذكر في (تحرير التعبير)

أنّه يسمّى تجنيس التذييل . ولعلّ ما جاء في (تحرير التعبير) هو الأصحّ ، وما وقع في (بديع القرآن)

تصحيّف عنه .

(٤) سورة العاديات : الآية (١١) .

وقال **جَلَّالٌ** : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾^(١) ، وكما قال بعض العرب :

وَمَا مُنِعَتْ دَارٌ ، وَلَا عَزَّ أَهْلُهَا مِنْ النَّاسِ إِلَّا بِالْقَنَّا وَالْقَنَابِلِ^(٢)

وتأمل الفرق بين التعريفين عند كلٍّ من العالمين الفاضلين : الخطيب القزويني وابن أبي الإصبع المصري ، فإنك تجد الإطالة عند الأخير ، وتشعر بعدم سيطرته على المفهوم وعدم تمكنه من حصر دائرته وإصابة كبده ، بل يكاد يتفلّت من بين يديه ، يظهر هذا في قوله : " وهو الذي يوجد .. " ، أو قوله في (تحرير التحبير) : " وهو على الحقيقة الذي يوجد .. " ، وفي قوله : " وجميع حروف الأخرى يوجد في أختها على استقامتها " ، بينما تطمئن النفس وتسكن ، فلا اضطراب ولا تمدّد أو توسّع ، إنّما حصرٌ مركّز وتركيزٌ محصور في الإيجاز والاختصار دون إخلال عندما تسمع الخطيب وهو يقول : " ... في أعداد الحروف فقط ... " ، هكذا بكلّ بساطة وعفوية !!.

وإلا فما الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الأخرى كما ذكر ابن أبي الإصبع غير الاختلاف أو النقص في أعداد الحروف ؟!!.

وهذه دقّة شديدة وسمة منهجية علمية رفيعة لا تعرف غير الصرامة والصدق والموضوعية .

والجناس الناقص عند ابن أبي الإصبع ثلاثة أقسام :

* قسم تقع الزيادة منه في أول الكلمة .

* قسم تقع الزيادة منه في وسط الكلمة .

* قسم تقع الزيادة منه في آخر الكلمة^(٣) .

ويُلاحظ في تقسيمه أنّه لم يكن يلتفت إلى كمية الزيادة أ تكون بحرفٍ أو أكثر ، إنّما

(١) سورة القصص : الآية (٤٥) .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ٢٦ ، والزيادة في الجناس بحرفين في الكلمة الثانية .

و(القنا) : الرماح ، و(القنابل) : جمع قنبلة ، والقنبلة والقنبل : الطائفة من الناس والخيّل ..

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٠ .

كان ينظر ويلتفت إلى موقع هذه الزيادة فقط ، يؤكد هذا أنَّ أمثلته لم تكن سوى بزيادة حرف فقط كما سيأتي^(١) . بينما كانت أمام الخطيب القزويني ملاحظتان هامتان ، هما : كمية الزيادة ، وموقع الزيادة .

ومثّل كلا العالمين على الزيادة في أوّل الكلمة بقوله تعالى : ﴿ وَالتَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ^(٢) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ^(٣) .

وعدها الخطيب بطبيعة الحال من الزيادة بحرفٍ واحدٍ في الأوّل ، وهو الميم في (مساق) ، " فهو جناس نقص عن التمام الحرف الأوّل ، وهو الميم " ^(٤) .

وزاد عصام الدين : " وذلك مبني على أنَّ المشدّد حرفٌ واحد ، وإلا فالمساق لا يزيد عن الساق " ^(٥) . وإلى ذلك ذهب الخطيبُ في الجناس المحرّف ؛ إذ قال : " والمشدّد في هذا الباب يقوم مقام المخفّف نظراً إلى الصورة ، فاعلم " ^(٦) .

أما عن الزيادة في وسط الكلمة ، فقد مثّل عليها الخطيبُ بقولهم : " جدّي جهدي " ^(٧) .

وقد مثّل ابن أبي الإصبع للزيادة في الوسط بقولهم : مَنْ جدّ وجد ^(٨) ، وقوله تعالى :

(١) من اختلاف النهج بين كتابي ابن أبي الإصبع أنّه قال في كتابه (تحرير التعبير) : " وقد تكون الزيادة بحرفين " . ومثّل على ذلك وهو ما لم يذكره في بديع القرآن ، ص ١٠٧ .

(٢) سورة القيامة : الآيتان (٢٩-٣٠) .

(٣) انظر : بديع القرآن ، ص ٣٠ ، وتحرير التعبير ، ص ١٠٧ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

(٤) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٢ .

(٥) الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٦) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١ .

(٧) انظر : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(و) (جدّي) : أي بخني أو رزقي أو عظمتي أو حظي ، (جهدي) - بالفتح - : أي مشقّي . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٨) انظر : تحرير التعبير ، ص ١٠٧ .

﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿١﴾ (٢).

ويبدو أنَّ كلا المثالين عند ابن أبي الإصبع تجانباً الصواب ؛ فلم تكن الزيادة في المثال الأول في الوسط ، إنما في الأول ، وهو حرف (الواو) ، خاصة وأنَّ الشَّرَّاح قد بينوا أن لا اعتبار للتشديد في الحرف الواحد عند البلاغيين ، فإنه يُعدّ كالمخفف (٣).

أما عن المثال الثاني فلا زيادة في الأصل ؛ إنما اختلاف في نوع الأحرف فقط ، وهو نفسه المثال الذي ذكره الخطيب في الجنس المضارع واللاحق ، حيث قال : " ثم الحرفان المختلفان إن كانا متقاربين سُمِّي الجنسُ مضارعاً ... وإن كانا غير متقاربين سُمِّي لاحقاً ... " (٤). ومثّل على اللاحق في الوسط بقوله تعالى السابق : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٥﴾. فحرف الهاء والذال غير متقاربين .

ولقد حاولت أن ألتمس لهذا السهو عند ابن أبي الإصبع عذراً ، فقلت : ربما يعدُّ الجنس المضارع واللاحق عند الخطيب من الجنس الناقص عنده ، خاصة وأنه لم يقع في تعريفه له ما يشير إلى قصد الزيادة أو النقصان ؛ إنما قال : " وهو الذي يوجد في إحدى كلمتيه حرف لا يوجد في الآخر " (٦). والذي يوجد هنا ولا يوجد هناك قد يكون حرفاً زائداً أو حرفاً مختلف النوع من حيث المخرج .

لكن الذي أوقعني في حيرة أنه بعد تعريفه له على تلك الصورة يقول : " وهو ثلاثة

(١) سورة العاديات : الآيتان (٧-٨) .

(٢) انظر : بديع القرآن ، ص ٣٠ .

(٣) العجيب أنَّ أبا هلال العسكري وقع في مثل ما وقع فيه ابن أبي الإصبع ؛ إذ يقول : " ومن التجنيس نوع آخر يخالف ما تقدّم بزيادة حرف أو نقصانه ، وهو مثل قول الله ﷻ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ " . انظر : الصناعتين ، ص ٣٤٠ . وهذا الشاهد الذي ذكره أبو هلال العسكري من جنس الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، وربما يكون الأخير متأثراً بقوله .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

(٥) سورة العاديات : الآيتان (٧-٨) .

(٦) بديع القرآن ، ص ٣٠ .

أقسام : قسمٌ تقع منه الزيادة ... إلخ قوله السابق "(١)!!

فأتى على الزيادة في أقسام الجناس الناقص ، وكأنه كان ينظر إليه نظرة الخطيب مع أطراح الجناس المضارع واللاحق منه ، ثم يقول : " وقسمٌ تقع الزيادة منه في وسط الكلمة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٢﴾ " (٣) ، فيظهر هنا سوء انسجام بين ما فهم من تنظيره والتُّمس له العذر فيه ، وبين تطبيقه ، لكنني قلت في نفسي : ربّما تُفسَّر هذه الزيادة بين لفظين متجانسين بزيادة اختلاف بينهما ، سواء من حيث العدد أو من حيث النوع ، خاصة وأنه جاء في كتابه (تحرير التحبير) قوله : " وقد تكون الزيادة حرفين : فإمّا أن يَقَعَا في أول الكلمة ويكونا متقارِبَيْن ، كقولهم : ليلٌ دامسٌ ، وطريقٌ طامس ... أو آخر الكلمة ويكونا متباعدَيْن ، كقولهم : سالبٌ وساكب ، أو متقارِبَيْن ، كقولهم : شاحبٌ وشاغب " (٤) .

بل إنه تابع قوله السابق فقال : " ومن القسم الذي توسَّط فيه الحرف الواحد : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٥﴾ " (٦) .

ولعلَّ قوله هذا استكمالٌ لحديثه عن المتباعدَيْن قبله ، والله تعالى أعلم . وبالتالي فإنّه يمكن القول فعلاً وباطمئنان بالغ أنّه عدّ المضارع واللاحق ضمن الجناس الناقص عنده كما سبق ذكره ، إلا أنّه اضطرب في عرض وجهة نظره في الكتاين اضطراباً واضحاً .

أما عن الزيادة في الآخر ، فقد مثّل عليه كلاهما بقول أبي تمام :

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٢) سورة العاديات : الآيتان (٧-٨) .

(٣) بديع القرآن ، ص ٣٠ .

(٤) تحرير التحبير ، ص ١٠٨ . ومن الواضح أنّ الاختلاف أو الزيادة حسب تعبيره ليست بحرفين وليست في آخر الكلمة ، ولكنها في الوسط .

(٥) سورة العاديات : الآيتان (٧-٨) .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٨ ، وانظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

يَمْدُونُ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ^(١)

قال عصام الدين : " وتكون الزيادة في الآخر ؛ لعدم الاعتداد بالتنوين "^(٢).

وزاد ابن أبي الإصبع على هذا المثال في كتابه (بديع القرآن) بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾^(٣) ، وهو بلا شك يؤكد ما سبق قوله في المباحث السابقة من دقة تدبره وتأمله لكتاب الله سبحانه وتعالى ، ومحاولة تتبّع صور البديع فيه وكشفها للناس ، رغم أنّ البديع ليس وحده سبباً في الإعجاز ، وهذا ما أشار إليه الباقلاني في قوله : " إنّه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه فيه ؛ لوجود البديع في شعر الشعراء ، ونثر الكتاب "^(٤) ، إلا أنّ ابن أبي الإصبع يؤمن أنّ البديع من طرق الإعجاز فيه ، فيجد المتأمل في كتابه أنه يدعو إلى تردد النظر في القرآن ومقارنته بغيره ؛ حتى يتوصل

(١) البيت من قصيدة في مدح أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي ، وجاء في شرح ديوان أبي تمام للتبريزي : " هذا كلام فيه حذف على رأي سيويه ، وهو مفعول يحتمل أن يصرّفه السامع إلى ما يريد ، فكأنه قال : يَمْدُونُ سَوَاعِدَ أو بسطة أو نحو ذلك ... وقوله : (عَوَاصٍ) يحتمل وجهين : أجودهما : أن يكون جمع عاصية من عَصَيْتَهُ بالسيف : إذا ضربته به ، والآخر أن يكون من العصيان ، أي أنّها لا تطيع أمر الملوك ولا الأعداء ؛ إذ ليس فوقها يد . و(عَوَاصِمٍ) جمع عاصمة ، أي : يعتصم من استجار بها . وقوله : (عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ) يُسمّيه أهل النقد تجنيس المقاربة ؛ لأنّ اللفظين متقاربان ليس بينهما فرق إلا في الميم ، وكذلك قوله : (قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ) ، والقواضي التي تقضي على الأعداء بما تريد ، وقد يُستعمل قُضِيَتْ في معنى قَطَعَتْ ، ويقال : قضى عليه : إذا كان سبب موته أو قتله . ويجوز أن يكون قوله : (يَمْدُونُ) من مدّ النهر ومدّه نهر آخر . وهذا المعنى ألطف وأحسن من الأول ، أي : يمدّون أيدياً تعصي العاذلين في الجود ، وتعصم المستغيث الخائف بأسياف هذه صفتها " . انظر : شرح ديوان أبي تمام ، ج ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ .

(٣) سورة النحل : الآية (٦٩) .

(٤) بديع القرآن ، ص ٣٠ .

(٥) مقدّمة بديع القرآن ، ص ٥١ ، (نقلاً عن إعجاز القرآن ، ص ١٦) . وكان الباقلاني يسعى إلى ترسيخ الإعجاز بالنظم الذي يضمّ البديع لا البديع في ذاته . (كما ذكر الأستاذ المشرف) .

إلى معرفة أيهما أبلغ^(١)، وهو هنا يتوصّل إلى صورهِ المثالية الكاملة المنتشرة فيه ، ويقع على نماذج منها لم يتوصّل إليها أو يستخرجها أحدٌ غيره ، كهذه الآية مثلاً ..

أما الخطيب القزويني فزاد قول البحري :

لِنُ صَدَفْتُ فَرُبْتُ أَثْفُسُ صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ الْوُجُوهِ الصَّوَادِفِ^(٢)

والشاهد في : (صوادٍ ، صوادف) ..

ولم يكتفِ الخطيبُ هنا في هذا النوع من الجناس الناقص بالبيت والبيتين ، بل نقل للقارئ قطعة أدبية شبه كاملة يُمتّع بها ناظر الناظرين ، فقال : " ومنه ما كتب به بعض ملوك المغرب إلى صاحبٍ له يدعوه إلى مجلسٍ أنسٍ له :

أَيُّهَا الصَّاحِبُ الَّذِي فَارَقْتُ عَيْدَ بَنِي وَنَفْسِي مِنْهُ السَّنَا وَالسَّنَاءُ^(٣)
نَحْنُ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي يَهْبُ الرَّا حَةَ وَالْمَسْمَعِ الْغِنَى وَالْغِنَاءُ^(٤)
تَعَاطَى الَّتِي تُنْسِي مِنَ اللَّذِّ وَالرَّقَّةَ الْهَوَى وَالْهَوَاءُ^(٥)

(١) المصدر السابق ، ص ٥١ ، بتصرف .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

و(صدفت) : انصرفت وأعرضت ، (الصوادف) : جمع صادية من الصدى ، وهو مرتبة عالية من مراتب العطش ، ويقال : أخفّ مراتب العطش : اللّواح ، ثم الظّماء ، ثم الصّدى ، ثم الغلّة ، ثم الهيام ، ثم الأوام ، وهو أن يشتدّ العطش حتى يضجّ العطشان ، ثم الجّواد ، وهو القاتل .. ذكر أكثره الثعالبي . انظر : نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، للدكتور : إبراهيم اليازجي ، مكتبة لبنان ، ط ٣ ، ١٩٨٥ م ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

(٣) (السّنا) : النور ، (السّناء) : الرّفعة ، والأول راجعٌ إلى العين ، والثاني إلى النفس على اللف والنشر للمرتب ، والشاهد في قوله : (السّنا والسّناء) ..

(٤) (الراحة) : باطن الكفّ ، و(المسمع) : الأذن ، و(الغنى) : راجع إلى الراحة ، و(الغناء) : راجع إلى الأذن على اللف والنشر المرتب أيضاً ، وفي قوله : (الغنى والغناء) شاهد ثان ..

(٥) المراد من التي (تنسي الهوى والهواء) : الخمر ، وفي قوله : (الهوى والهواء) شاهد ثالث .. وكذلك لف ونشر مرتب .

فَاتِهِ تُلَفِ رَاحَةً وَمُحَيًّا قَدْ أَعَدَّا لَكَ الْحَيَا وَالْحَيَاءُ^(١)

وهي من شواهد التي يرجو بها أن تنشأ الأذواق على الصحة ، وأن تجري على الطبع ، وقد سُمِّي هذا النوع من الجناس بالمُطَرَّف ، وعلل هذه التسمية في كتابه (التلخيص) وقال : "وربما سُمِّي هذا القسم الأخير بالمطَرَّف ؛ لتطَرَّف الزيادة فيه"^(٢).

وسمى الزيادة بأكثر من حرف في الآخر بالمذيل ، ومثل عليه بقول الخنساء :

إِنَّ الْبُكَاءَ هُوَ الشِّفَا ءُ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ^(٣)

وجاء في التلخيص : " وربما سُمِّي هذا القسم بالمذيل ؛ لأن الزيادة في آخره جاءت كالذيل"^(٤)؛ حيث زادت الجوانح عن الجوى بحرفين ، هما : (النون والحاء) . أو يمكن القول : إنه نقص في الأول عن الثاني حرفان ، وتسمية هذا مذيلاً أظهر في المثال المذكور ، وهو ما إذا كان في الأول نقص عن الثاني بحرفين ، فإنه وقع تذييل الثاني منه ، بخلاف ما إذا قيل في (الجوانح) : (الجوا) ، فإن الكلمة الأخيرة فيه غير مذيلة ، والتذييل إنما يكون في الأخير^(٥).

(١) قوله : (تلف) : بمعنى تجدد ، و(الراحة) : باطن الكف ، و(المحيّا) : الوجه ، و(الحيا) : المطر . والمراد به العطاء على سبيل الاستعارة ، وفي قوله : (الحيا والحياء) شاهد رابع .. وكذلك لف ونشر مرتب .. انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٣ ، تعليق : عبد المتعال الصعيدي .

(٢) التلخيص ، ص ٢٠٠ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

و(الجوى) : حرقه القلب ، و(الجوانح) : جمع جافحة ، أي الضلوع تحت الترائب مما يلي الصدر . وهو بيت من قصيدة تراثي بها الخنساء أخاها صخرأ ، أولها :

يَا عَيْنُ جُودِي بِالْأُدْمُو عِ الْمُسْتَهْلَاتِ السَّوَافِحُ
فَيْضاً كَمَا فَاضَتْ عُورُو بُ الْمُتْرَعَاتِ مِنَ النَّوَاضِحُ

انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٤) التلخيص ، ص ٢٠٠ .

(٥) انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٢ ، بتصرف يسير .

أما تسمية ابن أبي الإصبع لهذه الزيادة في الآخر ، بصرف النظر عن عددها ، فقد كانت مختلفة بعض الشيء عن الخطيب القزويني ، ويظهر أنه لم يكن مُقرّاً أو مقتنعاً بتسمية المذيل أو التذييل ، حيث قال : " وقالوا : هو الذي يرجع فيه لفظ الكلمة الأولى في الكلمة الأخرى ، كقول أبي تمام :

يَمْدُون مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ

وعندي أنّ تسميته تجنيس التداخل ؛ لدخول إحدى الكلمتين في الأخرى ، أو تجنيس التضمن ؛ لتضمّن إحدى الكلمتين لفظ الأخرى أولى بالاشتقاق ؛ إذ لا معنى لقولهم : يرجع لفظ إحدى الكلمتين في لفظ الأخرى ؛ لأنّ ظاهر الرجوع يؤذن بذهاب قبله ، ولا ذهاب ، أو كما قالوا : تجنيس التذييل وتجنيس العكس ، وهو مما لم يذكره التبريزي ^(١) .

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ تجنيس الاشتقاق عند ابن أبي الإصبع هو الأصل ، ويندرج تحته أغلب صور التجانس ؛ لذا فإنّ هذا النصّ المنقول من كتابه (تحرير التعبير) يكشف عن عدّة أمور ، منها :

* أنه لكي يُدرج هذا النوع من الجناس تحت الاشتقاق ، فضّل تسميته بالتداخل أو التضمن ، لذا قال : " وعندي أنّ تسميته تجنيس التداخل ... أو تجنيس التضمن ... أولى بالاشتقاق " .

* أنه كان متأثراً جدّاً بالتأثر بالتبريزي وبالنقل عنه ، ولا يقبل غير ما يقرّه هو ، لذا لم يتقبّل أو يستسيغ أن يُسمى هذا التجنيس بالمذيل ، ويكشف عن هذه النفسية عنده قوله : " أو كما قالوا : تجنيس التذييل ... وهو مما لم يذكره التبريزي " ، فهذه العبارة معطوفة على قوله في أوّل الكلام : " وقالوا : هو الذي يرجع فيه لفظ الكلمة الأولى ... " ، فكأنّ التعبير بكلمة (قالوا) دون نسبة ، تُقلّل من شأن هؤلاء الذين قالوا تلك المقولات ، لذا لم يحفل ابن أبي الإصبع بهم - كما يظهر - ولا بأقوالهم ، زد على هذا أنّ التبريزي لم يذكره !! .

(١) تحرير التعبير ، ص ١٠٨ . ولم يردّ شيء من ذلك في بديع القرآن .

الجناس المضارع واللاحق :

هاتان تسميتان مختلفتان وردتا لهذا النوع من الجناس عند الخطيب القزويني ، وهي قبله عند ابن رشيق وابن سنان والعلوي^(١) .

قال ابن رشيق : " وأصل المضارعة أن تتقارب مخارج الحروف ، وفي كلام العرب منه كثير غير متكلف ، والمحدثون ربّما تكلفوه " ^(٢) .

وقال العلوي : " والمضارعة المشابهة ، وسُمّي الضّرع ضرعاً ؛ لأنه يشبه أخاه في الصورة ، فلما تشابها في هذا الحرف لقب بالمضارع ؛ لما ذكرناه " ^(٣) .

والمضارع واللاحق يتعلّقان باختلاف أنواع الحروف ، قال الخطيب : " وإن اختلفا في أنواع الحروف اشترط ألا يقع الاختلاف بأكثر من حرف ، ثمّ الحرفان المختلفان إن كانا متقاربين سُمّي الجناسُ مضارعاً " ^(٤) .

وهذا هو المضارع عنده ، وعُلّل تسميته بقوله : " سُمّي مضارعاً ؛ لمضارعة المباين من اللفظين لصاحبه في المخرج " ^(٥) ، وهو عنده على ثلاثة أقسام :

١/ إما في الأول ، كقول الحريري : " بيني وبين كنيّ ليلٌ دامس ، وطريق طامس " ^(٦) .

(١) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٠ . وقال ابن سنان : " وقد سمى قدامة بن جعفر هذا الفنّ من المجانس ... المضارعة ؛ إذ كانت إحدى اللفظتين تماثل الأخرى بأكثر الحروف ولا تشابهها في الجميع " . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٩٨ . ولم أجد في نقد الشعر هذا القول لقدامة . انظر : ص ١٦٢ منه .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، وقال : " وهذا النوع يسميه الرّماني المشاكلة ، وهي عنده ضروب ؛ هذه أحدها ، وهو مشاكلة في اللفظ خاصة " . وانظر : النكت ، ص ٩٧ .

(٣) الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

(٥) التلخيص ، ص ٢٠٠ ، ولم يرد شيء من ذلك في الإيضاح .

(٦) (الكنن والكنان) : كلّ ما يردّ البرد والحرّ من الأبنية والغيران أو السترة والغطاء . وما أحسن قول الشاعر في هذا الباب :

٢/ أو في الوسط ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾^(١) .

٣/ أو في الآخر ، كقول النبي ﷺ : « الخيل معقودٌ بنواصيها الخير »^{(٢)(٣)} .

فوقع الاختلاف في اللفظين المتجانسين في جميع الأمثلة السابقة إما بالبدال والطاء ، أو بالهمزة والهاء ، أو باللام والراء .. وكلها أحرف متقاربة .

وقد سبقت الإشارة إلى أنّ ابن أبي الإصبع قد أدخل هذا النوع من الجناس ضمن الجناس الناقص ، فجاء من الأوّل عنده قول الحريري الذي أورده الخطيب ، غير أنّه لم ينسبه إليه كما فعل الخطيب^(٤) . ومثّل على الثاني بقولهم : ما خصصتني بل خسستني ، أما الثالث فمثّل عليه بقولهم : شاحبٌ وشاحب^(٥) .

وقد جاء هذا النوع من الجناس ، وهو المضارع واللاحق يحمل المثال أو الفرع الرابع من أمثلة التجنيس العشرة التي ذكرها ، مستأنساً فيها بالتبريزي ، وسَمّاها جميعاً (تجنيس التصريف) ، فقال : " ومثال الرابع : وهو تجنيس التصريف الذي هو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف إمّا من مخرجه أو من قريب من مخرجه ،

رَقَّ النَّسِيمُ كَرَقَّتِي مِنْ بَعْدِكُمْ	فَكَأَنَّافِي حُبِّكُمْ نَتَغَايِرُ
وَوَعَدْتُ بِالسَّلَوْنِ وَاشْ عَابَكُمْ	فَكَأَنَّافِي كَذِبِنَا نَتَخَايِرُ

انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤١٥ .

(١) سورة الأنعام : الآية (٢٦) .

(٢) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب : الجهاد ماضٍ مع البرِّ والفاجر ، حديث

رقم : (٢٨٥٢) ، ص ٥١٢ ، وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب : اثم مانع الزكاة ، حديث

رقم : (٢٢٩٢) ، ص ٣٤٧ ، وكتاب الإمارة ، باب : الخيل في نواصيها الخير ، حديث رقم : (٤٨٤٧)

ورقم : (٤٨٤٩) ، ص ٧٢٧ ، ٧٢٨ .

(٣) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

(٤) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٨ ، ويذكر للحريري في هذا المقام في تحريراته قوله : " لهم في السير جري

السيل ، وإلى الخير جري الخيل " . انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٥) انظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٨ ، ويلحظ أنّ الاختلاف هنا في الوسط .

كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ ^(١) " ^(٢) .

ولم يزد أو يقل أكثر من هذا في كتابه (بديع القرآن) !!.

قال ابن حجة : " ومن الناس مَنْ سَمَّى كلَّ ما اختلف بحرف تجنيس (التصريف) ^(٣) ، سواء كان من المخرج أو من غيره ، ولكن رأيتُ استجلاء الفرق أنور ، ولا يشترط أن يكون الإبدال في الأول ولا في الوسط ولا في الآخر ، فإنَّ جلَّ القصد الإبدال كيفما اتَّفَق " ^(٤) . وهذا ما نقله عنه ابن معصوم ^(٥) ، ولعلَّ ابن أبي الإصبع متأثرٌ أيضاً في ذلك بأسامة بن منقذ رغم انتقاده له ؛ إذ عنده باب سَمَّاه تجنيس التصريف ضمَّنه أمثلة من المضارع واللاحق والتصحييف والتحريف ^(٦) .

ولم يستشهد ابن أبي الإصبع على اللاحق في (تحرير التحبير) سوى بقولهم : سالب وساكب ، فقال : " أو آخر الكلمة ويكونا متباعدين ، كقولهم سالب وساكب " ^(٧) .

وكان الخطيب القزويني في هذا أكثر منه دقة والتزاماً وأكثر تنظيماً وتنسيقاً وتهذيباً ، وكانت الرؤية بالنسبة له واضحة ، ومن ثمَّ فإنَّ هذه الرؤية انعكست على عرضه فانطبعت في ذهن القارئ ، فكانت أوضح مما هي عند ابن أبي الإصبع العدواني ، ولا أدلَّ على هذا سوى فصله بين المضارع واللاحق الذي لم يتبين الفرق بينهما عند المصري ^(٨) .

(١) سورة الأنعام : الآية (٢٦) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٢٩ ، وانظر : تحرير التحبير ، ص ١٠٧ .

(٣) ذكر السيوطي أنَّ هناك مَنْ سَمَّاه المطمع ، وورد هذا الاسم عند المظفر العلوي . انظر : معجم المصطلحات

البلاغية ، ص ٢٨٧ ، (نقلاً عن شرح عقود الجمان ، ص ١٤٦ ، ونضرة الأعاريض ، ص ٧٢) .

(٤) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٥) انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٦) انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ٢٢ .

(٧) تحرير التحبير ، ص ١٠٨ .

(٨) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

يقول ابن حجة : " وأما اللاحق فقلّ مَنْ فرّق بينه وبين المضارع^(١) ، والمراد بالمضارع هنا المشابه ، والفرق بينهما دقيق ، فإنّ اللاحق هو ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه ، ومتى كان الحرف المبدل من مخرج المبدل منه سُمّي مضارعاً ، وإن كان قريباً منه كان مضارعاً أيضاً ... فإنّ الفرق بينهما يدقُّ على كثيرٍ من الأفهام .. " ^(٢).

وكما قسّم الخطيب المضارع إلى ثلاثة أقسام ، قسّم كذلك اللاحق ، فقال : " وإن كانا غير متقاربين سُمّي لاحقاً ، ويكون أيضاً إما في الأول ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هَمْزَةٍ لَمْزَةٍ ﴾ ^(٣) ، وقول بعضهم : " رَبِّ وَضِيٍّ غَيْرِ رَضِيٍّ " . وقول الحريري : " لا أعطي زمامي لمن يخفر ذمامي " . وإما في الوسط ، كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ ^{(٤)(٥)} ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ^(٦) ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ^(٦) ، وإما في الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ ﴾ ^(٧) ، وقول البحرّي :

هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ تَلَاقٍ تَلَافِي أَمْ لَشَاكٍ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافِي ^(٨) " ^(٩)

(١) وكذا قال ابن معصوم ونقل عنه . انظر : أنوار الريع ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

(٣) سورة الهمزة : الآية (١) .

(٤) سورة غافر : الآية (٧٥) .

(٥) جاءت هذه الآية محلّ اعتراض عند الشراح على اعتبار أنّ الفاء والميم متقاربان ؛ لكونهما من حروف

الذّلاقة ، ومن حروف الشّفة ، فكيف يكونان متباعدين ؟! ذكره السّبكي وقال : " وهذا فيه إشكال " .

وذكر أيضاً أنّ في الشاهد الأخير في الآية الكريمة نظر ؛ لأنّ الراء والميم من حروف الذّلاقة . انظر :

عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٣ .

وقال عصام الدين : " هذا تنظير لا تمثيل " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٦١ .

وقال السعد : " الأولى أن يمثل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ^(٦) ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ^(٦) ؛

لأنّ في عدم تقارب الفاء والميم الشّفويّتين نظر " . انظر : المطول ، ص ٦٨٧ .

(٦) سورة العاديات : الآيتان (٧-٨) .

(٧) سورة النساء : الآية (٨٣) .

(٨) (التلافي) : التدارك ، (الصّبابة) : الشّوق والولع الشّديد .

(٩) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٤ .

والشاهد الأخير الذي ذكره الخطيب للبحري هو شاهد آخر يؤكد رهافة حسّه وحسن ذوقه واختياره ، وأنه لم يكن جافاً جامداً يصوغ القواعد ويضع المصطلحات فحسب ، ويُقسّم ويُحدّد ويُفرّع ويُلخّص فقط ؛ إنما كانت له غاية كبرى هي تربية الملكات الأدبية وصقلها بطرح مثل هذه النماذج الشعرية الأصيلة ، ومن ثمّ وضع دراسة بلاغية علمية نموذجية أمام الدارسين للاحتذاء بها من بعد ، فترى أنّه جامعٌ فيها بين الأصالة والفنّ والأدب .

وقد علّق العلوي على شاهد البحري بقوله : " وما هذا حاله يقال له التّجنيس اللاحق ، والتجنيس الناقص " ^(١) ، ولعلّ هذا يُعدّ مُسوِّغاً لابن أبي الإصبع لأنّ يَضُمّ اللاحق والمضارع تحت جناح الجنس الناقص عنده هو ؛ لأنّه كان يقصد به الزيادة فقط .

جناس التصحيف والتّحريف :

التصحيف هو تغيير في نقط الحروف المتماثلة في الشكل ، كالباء والتاء والشاء والنون والياء ..

والتّحريف هو تغيير في شكل الحروف المتشابهة في الرسم ، كالـدال والراء ، والدال واللام ، والنون والزاي ، والميم والقاف ، وهما مترادفان - أي التصحيف والتّحريف - عند جمهرة القدماء من العرب ؛ إذ يستعملونها بمعنى التغيير في الحروف والحركات . وقد فرّق بينهما من القدماء : أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (ت ٣٨٢هـ) في كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيف والتّحريف) ... وكذلك ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ميّز بينهما في كتابه (شرح نخبة الفكر) ^(٢) .

وهذا ما ذكره العلماء القدماء الموسوعيون ، أما الخطيب - وإن كان موسوعياً أيضاً - وابن أبي الإصبع المصري ، فقد كان لكلّ منهما اتّجاهه في تناول هذا النوع من الجنس .

(١) الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

(٢) محاضرات في مناهج البحث وتحقيق المخطوطات ونشرها ، بقلم الأستاذ الدكتور : عبد الكريم عوفي ، ص ٢٩ .

فابن أبي الإصبع عدّه مرّةً من جنس أصل التجنيس عنده ، وهو الاشتقاق المتفرّع إلى تماثل وتغاير ، حيث قال : " ومثال الثاني - من فروع التماثل - : قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ^(١) ، وهذا النوع يسمى تجنيس التصحيف ، وهو أن يكون النقط فيه فارقاً بين الكلمتين ، ومثال الثالث - وهو تجنيس التحريف ، الذي يكون الضبط فيه فارقاً بين الكلمتين أو بعضهما - : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ^(٣) ، وقوله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ ^(٤) ، وقوله جلّ اسمه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ^(٥) ، ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ^(٦) .

ومرّةً أخرجه عن أصل التجنيس عنده ، فبعد أن قال : " وهذان التجنيسان - أعني : التغاير والتماثل - فرعان من التجنيس الذي أصله قدامة وابن المعتز ^(٧) ، انتقل إلى الحديث عن التصحيف والتحريف ، فقال : " وباقي الثمانية استخرجها المتأخرون بالاستقراء ، وهي تجنيس التصحيف ... وتجنيس التحريف ... إلخ " ^(٨) .

فقوله : " وباقي الثمانية " يدلّ على أنّ هذين اللونين من الجنس غير داخليين ضمن أصل الجنس عنده ؛ بل خارجيّين عنه ، ونتيجةً لاستقراء المتأخرين ،

(١) سورة الكهف : الآية (١٠٤) .

(٢) سورة العاديات : الآية (١١) .

(٣) سورة القصص : الآية (٤٥) .

(٤) سورة النساء : الآية (١٤٣) .

(٥) سورة الصافات : الآيتان (٧٢-٧٣) .

(٦) بديع القرآن ، ص ٢٩ . ويقصد بالثاني والثالث : أي من أقسام تجنيس الفرع الأول من التماثل عنده ؛ إذ يقول : " والتماثل ... وهو على ضربين : ضرب تماثل فيه الكلمتان لفظاً وخطاً ، وضرب لا يتماثلان إلا من جهة الاشتقاق فحسب ، مثال الفرع الأول من هذا الأصل ... ومثال الثاني [فذكر النصّ أعلاه] " . وانظر تعريفه للقسمين في تحرير التحرير ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ويبدو فيهما أثر آخر ؛ لتأثره بأسامة بن منقذ . انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٧ ، ٢٠ .

(٧) تحرير التحرير ، ص ١٠٥ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

خاصّةً وأنّ التبريزي - كما أشار - لم يذكره في أقسام التجنيس ، وجعله باباً مفرداً^(١) .

وعند تأمل النصّ السابق الأول المنقول عن كتابه (بديع القرآن) يُلاحظ ما يلي :

* أنّ ابن أبي الإصبع عدّ اللونين من الجناس رغم أنّه كما يبدو في كتابه (تحرير التحرير) يوافق التبريزي في عدّهما خارجين عن أقسام التجنيس ، وينبغي أن تُعقد لهما أبواباً منفصلة .

* أنّه فرق بين اللونين ، ولم يفعل ذلك الخطيب ؛ لأنّه لم يأت على ذكر التصحيف أصلاً .

* أنّ شواهد القرآنية على التحريف - مع التحفظ على إطلاقه عليها - رغم صحّة استشاده ، إلا أنّ بعضها يمكن أن يُعدّ من الجناس الناقص والمزدوج ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ^(٢)﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ^(٣)﴾ ، وقوله ﴿عَلَّكَ^(٤)﴾ مَذْبُذِبِينَ يَبْنَ ذَلِكَ^(٥)﴾ ، خاصّةً وأنّ العلوي قد عدّ المختلف بزيادة حرف أو حرفين في الأول أو في الآخر أحد أضرب الجناس الناقص^(٦) .

أما عن تناول الخطيب لهذا النوع من الجناس ، فيُلاحظ أولاً تسميته بصيغة مختلفة عن ابن أبي الإصبع ؛ إذ سمّاه الجناس المحرّف ، وقال : " وإن اختلفا في هيآت الحروف سُمّي محرّفاً "^(٧) .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٢) سورة العاديات : الآية (١١) .

(٣) سورة القصص : الآية (٤٥) .

(٤) سورة النساء : الآية (١٤٣) .

(٥) انظر : بديع القرآن ، ص ٢٩ .

(٦) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، ١٩٠ .

(٧) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١ . ولعلّ تسميته أليق ؛ لأنّها دالة على الأصل لا على سبيل التصنّع ، وفي إطلاق هذه الصيغة على الشواهد القرآنية أخفّ من الصيغة التي أطلقها ابن أبي الإصبع .

قال السبكي موضحاً : " أي مع الاستواء في نوعها وعددها وترتيبها " (١) .

وعلل السعد تسميته بالحرّف قائلاً : " سُمّي التجنيس محرّفاً ؛ لانحراف هيئة أحد اللفظين عن هيئة الآخر " (٢) ، وهو ما ذكره الخطيب في التلخيص ، ولم يذكره في الإيضاح (٣) ، ونقله السعد من التلخيص .

ويلحظ ثانياً وكما يبدو أن الخطيب القزويني مع التبريزي ، لكن في فصل جناس التصحيف فقط عن الجناس نفسه ؛ إذ لم يأت على ذكره ضمن صور الجناس . وقد يكون الخطيب مُحققاً في ذلك ؛ لأسباب منها :

١- أن شواهد التصحيف يمكن أن تنطوي بعض أمثله تحت جناح جناس المضارع واللاحق .

قال السكاكي : " والمختلفان في اللاحق إذا اتفقا كتابة ، كقولك : (عائب ، عابث) ، سُمّي تجنيس تصحيف " (٤) .

وقال ابن حجة : " جناس التصحيف قريب من المضارعة ، ومنهم من يسميه جناس الخط " (٥) .

بل إن ابن رشيّق عدّ بعض أمثلة التصحيف من المضارعة ، تأمله يقول : " ومن المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف ، قول بعضهم :

فَإِنْ حَلُّوا فَلَيْسَ لَهُمْ مَقَرٌّ وَإِنْ فَرُّوا ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَفَرٌّ (٦)

وقد عدّه الجرجاني من أصناف البديع ، ولما مثل على بعض أمثله قال : " وهذا يدخل

(١) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨١ .

(٢) المطول ، ص ٦٨٥ .

(٣) انظر : التلخيص ، ص ١٩٩ .

(٤) مفتاح العلوم ، ص ٤٢٩ .

(٥) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٤١ .

(٦) العمدة ، ج ١ ، ص ٥٥٦ .

في بعض الأقسام التي ذكرناها في التجنيس ، لكن ما أمكن فيه التصحيف فله باب على
حياله ، وجانب يتميز به عن غيره ^(١) .

والحقّ إذن أنّ جناس التصحيف ما هو إلا نوعٌ من جناس المضارعة . وقد سبق لك
أنّ جناس المضارعة منظور فيه إلى اختلاف نوع الحروف ، لكنهم خصّوه بما إذا كان
الاختلاف بين الطرفين بحرفٍ واحد متّحداً مع مقابله في المخرج أو متقارباً ، فإن تباعد
مخرج المتقابلين سمّوه لاحقاً . وجناس التصحيف يكون الاختلاف فيه حسبما ساقوه من
أمثلة بأكثر من حرف ، وذلك واضح في (يسقين) و(يشفين) ؛ إذ الاختلاف فيهما بين
السين والشّين ، والقاف والفاء .. وعلى هذا فإنّ الأخرى أن يندرج هذا النوع تحت
جناس المضارعة ، على أنّ بعض الأمثلة التي ذكروها لجناس التصحيف هي بالقطع من
جناس المضارعة ، وذلك واضح في : (أنقى) و(أتقى) و(أبقى) ؛ لأنّ الاختلاف بين
أطراف الجناس الثلاثة حاصلٌ في حرفٍ واحد هو النون مع كلّ من التاء والباء ، فهو
جناس مضارعة لاحق ..

وكذلك ما ذكروه من قولهم : " المجالس أحلاها أخلاها " ، جناس مضارعة صرف ؛
لوقوع الاختلاف في حرفٍ واحد ، الحاء في مقابلة الخاء ، وهما حلقّيان ، فكيف تكون
هذه الأمثلة جناس تصحيف مع انطباق جناس المضارعة بنوعيه عليها ^(٢) ؟!

٢- يبدو أنّ التصحيف ليس أصلاً في الجناس أو مقصوداً فيه ؛ إنما لمّا وقع عُذٌّ من
الجناس ؛ لمشابهته به .

فأصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته ولم يكن يسمعه من الرجال ، فيُغيّره
عن الصّواب ، أو أن يقرأ الشيء على خلاف ما أراده كاتبه أو على غير ما اصطَلَحوا
عليه ^(٣) . وقد لُقّب بالمصحّف لأنّ مَنْ لا يفهم المعنى فإنّه يصحّف أحد اللفظين إلى الآخر ؛

(١) الوساطة ، ص ٤٦ .

(٢) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٣ ، بتصرّف يسير .

(٣) انظر : أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، ١٨٥ .

لأجل تشابههما في وضع الخط ، ويقال له المرسوم أيضاً^(١) ، لذا عدّه الرازي مما يتعلّق بالكتابة^(٢) .

وهو وإن عدّ جناساً ، فهو " أقلّ طبقات المجانس ؛ لأنّه مبني على تجانس أشكال الحروف في الخط ، وحُسن الكلام وقبحه لا يستفاد من أشكال حروفه في الكتابة ؛ إذ لا علاقة بين صيغة اللفظ في الحروف وشكله في الخط "^(٣) ؛ لذا لم يكن الخطيب يحفل به .

وكما قسم ابن أبي الإصبع التحريف إلى ثلاثة أقسام :

١/ قسمٌ تبدل فيه الحركة بالحركة ، كقول الشاعر :

* جُبّة البُرْدِ جنة البُرْدِ^(٤) *

٢/ وقسمٌ تبدل فيه الحركة بالسكون ، كقولهم : البدعة شَرَكُ الشَّرِكِ^(٥) .

٣/ وقسمٌ يبدل فيه التخفيف بالتشديد ، كقولهم : الجاهل إما مُفَرِّط وإما مَفَرِّط^(٦) .

(١) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٠ . قال السيوطي : " ويسمّى جناس الخط " . انظر : الإتقان ، ص ٦٦١ .

رغم أنّ الرازي فرق بين الاثنين . انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١١٦ .

(٢) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١١٣-١١٦ .

(٣) سرّ الفصاحة ، ص ١٩٩ .

(٤) تحرير التعبير ، ص ١٠٦ . وقال الدكتور حفني : " ليس هذا شعراً كما زعم المصنف ، وإنما هو نثر لا

شعر . قال في نهاية الأرب ، ج ٧ ، ص ٩١ ما نصّه : وكقولهم : حبة البرد حنة البرد ... " . انظر :

المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، هامش (١٠) .

قال السبكي : " فالبرد والبرد متفقان فيما عدا الهيئة بضمّ أول أولهما وفتح أول ثانيهما " . انظر :

عروس الأفراح ، ج ٣-٤ . والبرد - بالضم - : الثوب المخطّط .

وأضاف السعد : " وأما لفظ الحبة والجنة فمن التجنيس اللاحق " . انظر : المطول ، ص ٦٨٥ .

(٥) الشَّرِك - محرّكة - : حبال للصيد ، وما ينصب للطير ، والشَّرِك - بالكسر - : اسم بمعنى الإشراك ،

والمراد به الإشراك بالله . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٦) انظر : تحرير التعبير ، ص ١٠٧ .

ثم قال : " والآيات الثلاث من القسم الأول ، والحديث من الثاني ، والبيت من الأول أيضاً " (١) .

وقد قسمه الخطيب أيضاً ، لكن إلى قسمين فقط ، هما الأوليان المتفق فيهما مع ابن أبي الإصبع ، ومثل عليهما بمثل شواهد مع زيادة في الشواهد ، فقال : " ثم الاختلاف قد يكون في الحركة فقط ، كالبرد والبرد في قولهم : جُبَّةُ الْبُرْدِ جُنَّةُ الْبُرْدِ ... وقد يكون في الحركة والسكون ؛ كقولهم : البدعة شَرَكُ الشَّرِكِ " (٢) ، غير أنه لم يعتد بالقسم الثالث الفائض عند ابن أبي الإصبع ؛ لأنَّ المشدّد في هذا الباب - كما ذكر - يقوم مقام المخفف نظراً إلى الصورة (٣) . وما أحسن ما استشهد به الخطيب في هذا الباب - باب التحريف - ، وهو قول أبي العلاء المعري :

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي بَيِّنِ رَوْنَقُهُ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ (٤)

الذي مثل به على الاختلاف في الحركة والسكون ، وهو القسم الثاني عنده وعند ابن أبي الإصبع ، وهذا يعادل في سبكه وحسن نظمه وعذوبته بيت

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٧ . ويقصد بالآيات الثلاث المذكورة في نصه السابق من كتابه (بديع القرآن) ، وهي موجودة في (التحريف) أيضاً ص ١٠٦ . أما الحديث فقوله الْبُرْدُ جُنَّةُ الْبُرْدِ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ، والبيت الشعري لأبي تمام ، وهو :

هَنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرَتْ عِيَافَةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧١-٧٢ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧١ . وهذا ما نقله عن السكاكي ، بل نقل عنه بعض أمثله ، وهذا احتفالٌ منه بالسكاكي ، وقد عدّه السكاكي من الجناس الناقص . انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٢٩ .

(٤) انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٢ . والشاهد كما ذكر الصعيدي : " في تجانس الشعر بمعنى النظم ، والشعر المقابل للصوف والوبر ، وظهور الحسن في الأول بجمال لفظه ومعناه ، وفي الثاني بجمال الساكنين فيه " . وما أحسن قول أبي فراس الحمداني في هذا الباب :

مَنْ بَحَرَ شِعْرَكَ أَغْرَفَ وَبِفَضْلِ جُودِكَ أَعْرَفَ

انظر : خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

أبي تمام الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، وهو :

هَنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ^(١)

وقد مثل به على الاختلاف بالحركة ، وهو القسم الأول عنده وعند الخطيب .

وأما ما مثل به ابن أبي الإصبع على هذا القسم - أعني الثالث - ، وهو قولهم : الجاهل مُفَرِّطٌ أو مَفَرِّطٌ ، فقد ذكره الخطيب ضمن الاختلاف في الحركة ، ورغم اعتراض الدارسين^(٢) ، إلا أنَّ الخطيب قد يكون مصيباً باعتبار أنَّ السكون تُعدُّ حركة من الحركات الإعرابية وإن كانت فاعليتها التسكين .

ومن المهم الإشارة إليه في جناس التحريف " أنَّ حركة الأطراف لا اعتبار لها ؛ لخضوعها لعوامل الإعراب "^(٣) .

وهو ما لم يذكره أحد من العالمين الفاضلين ، ولعله أبين من أن يُشار إليه من وجهة نظرهما !! .

(١) انظر : تحرير التحرير ، ص ١٠٦ . والمعنى : " أي ما يعتقد في صوت الحمام من أنه بكاء هو طربٌ وفرح ، وبكاؤها إذا تكلفته هو غرامٌ وهلاك . فانتبه واحذر . ثم بين ذلك وفسر بقوله : " هَنَّ الْحَمَامُ " ، أي اسمه الذي هو الحمام ليس فيه ما يُكره ، فإن أخذت تَزَجُرُ أذاك الزَجْرُ والعِيَاةُ إلى الحمام الذي هو اسم الموت ، فكذلك صوتها " . انظر : ديوان أبي تمام شرح التبريزي ، ج ٢ ، ص ٧٣ . و(العِيَاة) : من عَفَتُ الطَّيْرُ أعيفها عِيَاة : زجرتها ، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأنوائها ، فتتسعد أو تتشاءم . و(العائفُ) : المتكهن بالطير أو غيرها . انظر : القاموس المحيط ، باب (الفاء) ، فصل (العين) ، ص ١٠٨٦ .

(٢) ذكر الصعيدي أنَّ اختلاف الهيئة في (مُفَرِّطٌ ومَفَرِّطٌ) نوعٌ آخر غير ما قبله وما بعده ؛ لأنَّ اختلاف الهيئة فيه باختلاف الحركة والسكون المقابل لها ، واختلاف الهيئة فيما قبله باختلاف الحركة فقط ، وفيما بعده باختلاف الحركة والسكون معاً . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، هامش (١) .

(٣) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٠٤ .

وأختم جناس التحريف بأبياتٍ جميلة نقلها ابن حجة تؤكد أن أصحاب المدرسة الأدبية الواحدة يتفاوتون أيضاً كلٌّ بحسب ما أوتي من ملكة أدبية وفيضٍ سيّال من معين تلك الملكة وذوق رفيع متأصل ومتفاوت من عالمٍ إلى آخر .

هذه الأبيات مهّدها ابن حجة بقوله : " وأورد الشيخ الإمام العلامة كمال الدين الدميري - تغمّده الله برحمته - في كتابه المسمّى بـ (حياة الحيوان) عندما انتهى إلى ذكر المها ، أبياتاً تُعجبني في هذا الباب ، أولها تامّ ، وآخرها مطرّف ، وباقي الأبيات تحريفها تمتاز حلاوته بالأذواق المعتدلة . والأبيات لجميل بثينة ، وهي قوله :

خَلِيلِي إِنْ قَالَتْ بُشْنَةُ مَا لَهُ	أَتَانَا بِلا وَعْدٍ فَقُولَا لَهَا : لَهَا
أَتَى وَهُوَ مَشْغُولٌ يُعْظَمُ الَّذِي بِهِ	وَمَنْ بَاتَ طُولَ اللَّيْلِ يَرَعَى السُّهَّ سَهَا
بُشْنَةُ تُزْرِي بِالْغَزَالَةِ فِي الصُّحَى	إِذَا بَرَزَتْ لَمْ يَبْقَ يَوْمًا بِهَا بِهَا
لَهَا مُقَلَّةٌ كَحُلَاءِ نَجْلَاءِ خِلْقَةٍ	كَأَنَّ أَبَاهَا الظُّبْيُ أَوْ أُمُّهَا مَهَا
دَهْنِي بِوُدٍّ قَاتِلٍ وَهُوَ مُتْلِفِي	وَكَمْ قَتَلْتُ بِالْوُدِّ مَنْ وَدَّهَا دَهَا ^(١)

جناس القلب :

هكذا سمّى الخطيب القزويني هذا النوع من الجناس ، بل أصل هذه التسمية له ^(٢) .

وعرفه قائلاً : " وإن اختلفا في ترتيب الحروف ^(٣) سمّي جناس القلب " ^(٤) .

(١) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٢) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٠٨ . ولم يعدّه صاحب المفتاح من أقسام الجناس ، بل فصله عنه ، حيث قال بعد الانتهاء من حديثه عن الجناس : " ومن جهات الحسن القلب ، كقولك : حسامه فتح لأولائه حتفٌ ... إلخ قوله " . انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٣١ .

(٣) قال السعد : " بأن يتفقا في النوع والعدد والهيئة ، لكن قدّم في أحد اللفظين من الحروف ما هو مؤخّر في اللفظ الآخر " . انظر : المطول ، ص ٦٨٧ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ . ويبدو أنّ السبكي لم يرتح لهذه التسمية كما ذكر الدكتور عبد العظيم

بينما سَمَّاه ابن أبي الإصبع بجناس العكس ، وعرفه بقوله : " أن تكون إحدى كلمتيه عكس الأخرى بتقديم بعض الحروف على بعض " ^(١).

وكان قد عدّه المثال السادس من أمثلة التجنيس اللفظي العشرة عنده . ولم يُمثّل عليه سوى بقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ ^(٢) ، ولم يزد على ذلك في بديع القرآن ^(٣).

ويظهر من أسلوب ابن أبي الإصبع في الحديث عن هذا النوع من الجناس في كتابه (تحرير التحرير) أنّه غير حافل به ؛ لأنّ التبريزي لم يذكره ، رغم شواهد الشعرية الرائعة عليه في (تحرير التحرير) كما سيأتي ..

وإذا كان ابن أبي الإصبع قد حصر هذا النوع من الجناس في تلك الأسطر اليسيرة وذلك الشاهد القرآني الوحيد في كتابه (بديع القرآن) ، فإنّ الخطيب القزويني ذكر أنّ هذا النوع من الجناس على أربعة أنواع ^(٤):

١/ قلب كلّ ، كقوله : حسامه فتح لأولياه حتفٌ لأعدائه ^(٥).

المطعني ؛ إذ يمكن أن تطلق هذه التسمية على كلّ جناس كان هذا شأنه ، ولا وجه لاختصاص جناس القلب به . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٠٨ ، وعروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٤ .

(١) بديع القرآن ، ص ٣٠ ، وانظر : تحرير التحرير ، ص ١٠٨ .

(٢) سورة طه : الآية (٩٤) .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٣٠ . وقد ذكر هذه الآية أيضاً في : تحرير التحرير ، ص ١٠٨ .

(٤) انظر : التلخيص ، ص ٢٠١ . وهذه الأنواع الأربعة المذكورة فيه رغم أنّ ظاهرها يتعارض مع ما ذهب إليه الخطيب في الإيضاح من أنهما ضربان : قلب الكل ، وقلب البعض ، ثمّ الحديث منفصلاً من بعد عن جناس المقلوب المنّح والمزدوج ، إلا أنّ ما ذكره في التلخيص يُعدّ تلخيصاً موجزاً للدارسين فقط ، أما ما جاء في الإيضاح فكان توضيحاً وبياناً شافياً مفصلاً .. انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(٥) انظر : التلخيص ، ص ٢٠١ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ . وهكذا جاءت التسمية في التلخيص [قلب كلّ] . قال السبكي : " وهذا أحسن من قوله في الإيضاح يسمى قلب الكل ؛ لأنّ (كلّ) لا يدخل عليها الألف واللام في القياس " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٤ .

٢/ قلب بعض ، كما جاء في الأثر : « اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا »^{(١)(٢)}.

٣/ المقلوب المجنح ، وعرفه بقوله : " إذا وقع أحد المتجانسين جناس القلب في أول البيت ، والآخر في آخره ، سُمي مقلوباً مُجنّحاً " ^(٣).

وهذا النوع من المقلوب لم يُمثل عليه الخطيب في كتابيه^(٤) ، فأغلب الشّراح مثّلوا عليه بقول الشاعر :

لَا حُثُورَ الْهُدَى مِنْ كَفِّهِ فِي كُلِّ حَالٍ^(٥)

وعلّل السعد تسميته بذلك فقال : " لأنّ اللفظين كأنهما جناحان للبيت " ^(٦).

٤/ المزدوج والمكرّر والمردّد^(٧). وقال في الإيضاح : " وإذا ولي أحد

قال السعد : " يسمى قلب الكلّ ؛ لانعكاسها ترتيب الحروف كلّها ، وإلا يسمى قلب البعض ...
قال الأحنف :

حُسامك فيه للأحباب فتحٌ ورُحْمك فيه للأعداء حتفٌ "

انظر : المطوّل ، ص ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

(١) لم أشر على هذا الأثر في الصحيحين .

(٢) انظر : التلخيص ، ص ٢٠١ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ . وذكر السبكي الشاهد الثاني الذي ذكره الخطيب في الإيضاح ، وقال : " وكذلك قول بعضهم : رحم الله امرأً أمسك ما بين فكّيه وأطلق ما بين كفّيه " ... ويسمى هذا قلب بعض ؛ لأنّ (عورة وروعة) اتّفقا في الحرف الأخير ، وهو (التاء) ، فلا قلب فيها ، وانقلب ما سواها ، كانقلاب (فتح وحتف) ، وفي (كفيه وفكّيه) ، كذلك لم يقع القلب في الحرف الأخير .. " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٤ . وللسبكي وابن عريشاه جدلٌ حول مثال النوع الأول في عدّه من قلب الكلّ أو البعض ، باعتبار أنّ التاء في (فتح) و(حتف) لم تنقلب ، فلم لا يكون هذا من قلب البعض ؟. انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٤ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، وانظر : التلخيص ، ص ٢٠١ .

(٤) انظر : التلخيص ، ص ٢٠١ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(٥) انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٤ ، والمطوّل ، ص ٦٨٨ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٦) المطوّل ، ص ٦٨٨ .

(٧) انظر : التلخيص ، ص ٢٠١ .

المتجانسين^(١) الآخر سُمِّي مزدوجاً ومُكرّراً ومُردّداً ، كقوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾^(٢) ، وما جاء في الخبر : « المؤمنون هينون لينون »^(٣) ، وقولهم : " مَنْ طلب وجدَّ وجدَّ " ، وقولهم : " مَنْ قرع باباً ولجَّ ولجَّ " ، وقولهم : " النيذ بغير النغم غمَّ ، وبغير الدَّسم سُمَّ " ، وقوله :

يَمْدُونُ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبٍ^(٤)

إنَّ القول بأنَّ الخطيب القزويني لم يُشر إلى الازدواج إلا في دراسة السجع عند الحديث عن بناء فواصل الأسجاع^(٥) غير مسلم به ؛ لأنَّ هنا إشارة ثانية إلى الازدواج وباسمه في باب (الجناس) بشكلٍ أوضح ، فليس ذاك إذن كلَّ ما ذُكر عن الازدواج في الإيضاح .

وبرغم ارتباط المزدوج بالسجع عند بعض البلاغيين ، كأبي هلال العسكري ، وابن سنان ، والرازي^(٦) ، إلا أنَّ الخطيب القزويني ذكره هنا في الجناس ، وانتقى شواهد فيه بعناية فائقة ، فيظهر أنَّه كان يُنصت للجناس أكثر من السجع ، خاصة وأنَّ له خصوصية خاصة وسريرة سحرية ، وهي المخاتلة أو المخادعة . وتأمَّل إن شئت تعليق عبد القاهر على بيت أبي تمام الذي ذكره الخطيب ، ولو شاء الخطيب لنقله بأسلوبه كما فعل في

(١) قال السبكي : " أي سواء كانا من جناس القلب أم لا " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٨٥ .

وأضاف السعد : " ولذا ذكره باسم الظاهر دون المضمرة المتجانس " . انظر : المطول ، ص ٦٨٨ .

(٢) سورة النمل : الآية (٢٢) .

(٣) لم أعثر على هذا الأثر فيما توفّر لديّ من مراجع ، كالصحيحين ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، والدارقطني ، والبيهقي ، ومسند أحمد ، والحميدي ، وموطأ مالك .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ .

(٥) وهو ما سبق في البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص ٥٩٠ .

(٦) انظر : الصنائع ، ص ٢٦٦ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٤٤ ، حيث يقول : " هو أن يقع

في أثناء قرائن النثر أو النظم لفظان مسجّعان بعد مراعاة حدود الأسجاع والقوافي الأصلية " . كما ذكر المحقّق في نسخة أخرى للكتاب .. وانظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٧١ .

بعض نصوص عبد القاهر التي نشتم عبرها في كتابيه (التلخيص) و(الإيضاح) ، لكنه اكتفى بالإلماح إليه .

يقول عبد القاهر : " وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة ، كالميم من (عواصم) ، والباء من (قواضب) أنها هي التي مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانيةً ، وتعود إليك مؤكدةً ، حتى إذا تمكّن في نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ، انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذي سبق من التخيل ، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الرّبح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال " (١) .

فلا ضير على الخطيب إذن من بعد أن ينصت للجناس ويتحسّس له ، خاصة وأن العلوي قبله قد عدّ المزدوج ضرباً من أضرب الجناس ، وقال : " وهو أن تأتي في أواخر الأسجاع في الكلام المنشور ، أو القوافي من المنظوم ، بلفظتين متجانستين ، إحداهما ضميمة إلى الأخرى على جهة التّمّة والتكملة لمعناها ، ومثاله من النثر قولهم : مَنْ طلب شيئاً وجدَّ وجدَّ ، وَمَنْ قرع باباً ولجَّ ولجَّ ، ومن الحريريات قوله : إذا باع انباع ، وإذا ملأ الصّاع انصاع .. فتجد الكلمة الثانية مُردّفة على جهة التجانس ؛ ليكمل معناها وتُقرّر فائدتها ... وإنما لقب هذا المزدوج ؛ لما يظهر بين الكلمتين من الاستواء ، ومنه الازدواج ، وهو الاستواء ، ويقال له التجنيس المُردّد ، ويقال له المكرّر أيضاً .. " (٢) .

وعلى ذلك فإنّ المزدوج أو الازدواج هو : " تجانس اللفظين المجاورين " (٣) .

إلا أنّ العلوي أضاف ما لم يقله الخطيب ، وهو أنّ الازدواج ينقسم إلى قسمين : إما أن يكون وارداً على جهة الانفصال في الكلمتين جميعاً ، كقولك : مَنْ جدَّ وجدَّ ، وَمَنْ لجَّ ولجَّ ، وإما أن يكون وارداً على جهة الانفصال في إحداهما والاتصال في الأخرى ، كقولك : إذا ملأ الصّاع انصاع ، وكقول البستي :

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٨ .

(٢) الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) جواهر البلاغة ، ص ٤٣٢ .

أَبَا الْعَبَّاسِ لَا تَحْسَبْ لِشَيْبِي بِأَنِّي مِنْ حُلَا الْأَشْعَارِ عَارِ
فَلِي طَبْعٌ كَسَلَسَالٍ مَعِينٍ زُلَالٍ مِنْ ذُرَى الْأَحْجَارِ جَارِ^(١)

وهو ما أشار إليه ابن الأثير من قبل ، وسماه المجنب^(٢) .

أما الازدواج عند ابن أبي الإصبع ، فقد عقد له باباً ، وكان له فيه كلام آخر ؛ إذ يقول :
" وهو أن يأتي الشاعر في بيته من أوله إلى آخره بجمل ، كل جملة فيها كلمتان مزدوجتان ،
كل كلمة إما مفردة أو جملة ، وأكثر ما يقع هذا النوع في أسماء مثناة مضافة ، كقول أبي
تمام :

وَكَاْنَا جَمِيعاً شَرِيكِي عِنَانٍ رَضِيعِي لَبَانٍ ، خَلِيلِي صَفَاءِ^(٣) " ^(٤)

وذكر أنّ من الازدواج " نوعٌ يؤتى فيه بكلمتين صورتها واحدة ، ومفهومهما واحد ،
كقول ابن الرومي :

أَبْدَاهُنَّ وَمَا لَبَسُنَّ نَ مِنَ الْحَرِيرِ مَعَا حَرِيرُ
أَرْدَاهُنَّ وَمَا مَسِسُنَّ نَ مِنَ الْعَبِيرِ مَعَا عَبِيرُ^(٥)

(١) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٣) البيت من قصيدة طويلة يرثي بها خالد بن يزيد الشيباني ، ويقال : شاركه شريك عنان : إذا شاركه في شيء دون شيء ، و(العنان) هاهنا كأنه في معنى المعانة ، كأن كل واحد منهما عن له صاحبه ، أي عَرَضَ . انظر : شرح التبريزي لديوان أبي تمام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٤) تحرير التحرير ، ص ٤٥٢ . ولم يرد هذا الباب في (بديع القرآن) .

(٥) قال الدكتور حفني شرف : " وقوله : (حرير وعبير) على التشبيه ، و(الأردان) : أصول الأكمام ، يقول :
أردانهن عبير بطبعهن ، فإذا مسهن طيب كن عبيراً في عبير . ومنه قول الشاعر :

ألم ترَ أني كلما جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيب "

انظر : تحرير التحرير ، ص ٤٥٢ ، هامش (٢) .

فمن الواضح أنه ينحو بالازدواج منحى مختلفاً عن الجناس ، وقد صرّح بهذا فقال :
" والفرق بينه وبين التجنيس المماثل : اختلاف معنى الكلمتين في التجنيس ، واتّفاقهما في
الازدواج " (١) .

وذكر أنّ الرماني قد عدّ الازدواج تجنيساً ، وكأنّه يعيب على الرماني هذا وهو ناقلٌ
عنه ، غير أنّ ما عدّه كذلك إنما هو من المشكلة ..

يقول ابن أبي الإصبع : " على أنّ الرماني قد عدّ الازدواج تجنيساً ، وذكر منه قوله
تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ (٢) ، وأفردّه غير الرماني باباً ، واستشهد عليه
بالبیت الثاني من شواهد هذا الباب وأمثاله بغير ذلك ، والله أعلم " (٣) .

وأختم الحديث في هذا المبحث بالإشارة إلى نوعين من الجناس ؛ أحدهما : تفرّد بذكره
ابن أبي الإصبع ، وهو الجناس المعنوي (٤) ، والآخر لم يذكره أحدٌ من العالمين الفاضلين ،
والذي دفعني إلى التعرّض له أنّ السكاكي ذكره في مفتاح العلوم ، ولم ينقله عنه الخطيب ،
وهو جناس التشويش (٥) .

فبعد أن انتهى ابن أبي الإصبع من الحديث عن فروع التّجنيس عنده قال : " وكلّ ما
سقناه من أصول التّجنيس وفروعه أمثلة القسم اللفظي من التّجنيس ، وأما المعنوي فمثل
قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ مع قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (٦) ، فإنّ
التقدير - والله أعلم - : يا أيها المكذبون أنتم المكذبون " (٧) .

(١) تحرير التحبير ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٩٤) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٥٣ .

(٤) انظر : بديع القرآن ، ص ٣٠ . ولم يذكره ابن أبي الإصبع في (تحرير التحبير) .

(٥) انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٣٠ .

(٦) سورة الكافرون : الآيتان (١) و(٣) .

(٧) بديع القرآن ، ص ٣٠ . وقد ذكر ابن أبي الإصبع أيضاً نوعاً آخر من الجناس في كتابه (تحرير التحبير) ، وهو
تجنيس الإضافة ، وقد ذكره ابن رشيّق والجرجاني . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٥٦٢ ، والوساطة ، ص ٤٤ .

ويظهر أنّ هذا عكس الجناس ، وإلا فإنّ الكافرين لا يختلف عن أنّهم هم العابدون ما لا يعبدّه محمد ﷺ ، وبالتالي فإنّه لا جناس هنا ؛ لأنّ المعنى متفق وليس مختلف ، إلا إن كان يقصد أنّ المعنيين متجانسان ، ويصبح ما ذكره صحيح ولا غبار عليه ؛ لأنّه هذا هو معنى الجناس لغويّاً ، إلا أنّ هذا ليس هو المصطلح عليه عند المتأخرين في مفهومهم للجناس .

أما الجناس الآخر الذي ذكره السّكاكي ولم يذكره الخطيب هنا ، فهو الجناس المشوّش أو المذبذب ، إلا أنّ السّكاكي لم يعرفه ، إنّما اكتفى بالاستشهاد عليه ، فقال : " وهاهنا نوع آخر يسمّى تجنيساً مشوّشاً ، وهو مثل قولك : بلاغة وبراعة " ^(١) . وهذا النوع من الجناس ذكره الرّازي والعلوي ^(٢) .

قال العلوي : " المشوّش : وهو عبارة عن كلّ جنس من التجنيس يجاذبه طرفان من الصّيغة ، ولا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه دون الآخر ، واشتقاقه من قولهم : تشوّش الأمر : إذا مُزج واختلط بعضه ببعض ، ومنه قولهم : فلان متشوّش : إذا كان به مرض من اختلاط المزاج وتغيّره ، ومثاله قولهم : فلان مليح البلاغة ، لبيق البراعة ، فلو اتفق العينان في الكلمتين وكاتتا من حرفٍ واحدٍ لكان ذلك من تجنيس التصحيف ، أو كانا اللامان متّفقيّن لكان من المضارع ، فلمّا لم يكن كما ذكرناه بقي مذبذباً بين الأمرين ، ينجذب إلى كلّ واحدٍ منهما بشبه ، ومنه قولهم : صدّعني مُدّ صدّ عني ، فلولاً تشديد النّون لكان معدوداً

وقد مثلّ عليه ابن أبي الإصبع بقول البحرّي :

أيّا قمر التّمام أعنت ظلماً عليّ تطاول اللّيلُ التّمام

وقال عنه : " فهو مع قطع النّظر عن الإضافة من تجنيس التحريف ، لكن هو قسم قائم بذاته ؛ لاتصال المضاف بالمضاف إليه . والله أعلم " . تحرير التحبير ، ص ١١٠ .

ويبدو أنّ الخطيب كان محقّقاً في تجاوزه ؛ لأنّه إلى التحريف أقرب ، ثمّ إنّ الموازنة بين العالمين تتناول خاصّة كتاب (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع ، وليس (تحرير التحبير) إلا ما احتاجه البحث إليه .

(١) مفتاح العلوم ، ص ٤٣٠ .

(٢) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٣١ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

من تجنيس المركب . ومن الحريريات قوله : وَنَدِمْنَا عَلَى مَا نَدَّ مِنَّا ^(١) .

وقد كان الخطيب القزويني مُحَقِّقاً في عدم عدّ هذا النوع ضرباً من أضرب الجناس ؛ لأنّه ليس خالصاً لنوع واحد ، بل تتجاذبه أنواعٌ أُخر ، فكان في تركه أولى ما دام يمكن أن يندرج تحت أيّ لون ، خاصة وأنّ مقصد الخطيب الحصر والدقّة والموضوعية والوضوح ، لا التشويش واللبس والتذبذب .

وإنصافاً للخطيب وابن أبي الإصبع أقول في نهاية الكلام عن مبحث الجناس : إنّ من المهمّ جداً الإشارة إلى فهم الرجلين لمفهوم الجناس ، والمقصد والغاية منه ، رغم اختلاف العرض والأسلوب عند كلّ منهما ، ولا يمكن التسليم بقول ابن حجة عنهما ناقدًا لَمَّا أغفلا نوعين من الجناس عدّه ابن حجة من الجناس المعنوي ، وهو غير الوارد ذكره عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ قال : " فَإِنَّ المعنوي طُرْفَةٌ من طُرْفِ الأدب ، وعزيز الوجود جدًّا ، ولم يذكره القاضي جلال الدين القزويني في (التلخيص) ولا في (الإيضاح) ، ولا ذكره ابن رشيق في (العمدة) ، ولا زكيّ الدين ابن أبي الإصبع في (التحرير) ، ولا ابن منقذ في كتابه ... " ^(٢) .

والحق أنّ نوعي الجناس اللّذين ذكرهما ، وهما : الإشارة والإضمار ، محسوبان عليه ، وليس فيهما غير العقادة والتكلف المقنوت الذي تنفر منه النفس ، وتعافه ولا تستسيغه ^(٣) . وكما قال ابن معصوم من قبل : " وهذا خروج عن الاصطلاح ، وقولٌ بالافتراح ... وكلام ابن حجة ليس بحجة ، فإنّ هذا الذي ذكره شيء لا يعرفه أرباب البديع ، ولا نصّ عليه أحدٌ منهم ، فلا يلتفت إليه " ^(٤) .

(١) الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

وجاء في معجم المصطلحات : " وكلّ تجنيس تجاذبه طرفان فلا يمكن إطلاق اسم أحدهما عليه فهو المسمّى بالمشوّش ، مثاله قولهم : " فلان مليح البلاغة ، لبيق البراعة " . انظر : معجم المصطلحات ، ص ٢٨٣ ، (نقلاً عن التبيان ، ص ١٦٨) .

وقال ابن حجة : " والمشوّش كلّ جنس تجاذبه طرفان من الصنعة ولا يمكن إطلاق أحدهما عليه " .

خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

(٢) خزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٤٦٣ .

(٣) راجع حديثه عن هذه الأنواع في : ج ١ ، ص ٤٦٣ . وقد سبق الإلماع إليهما في أوّل المبحث .

(٤) أنوار الربيع ، ج ١ ، ص ١١٤ .

المبحث الثاني : السجع والخلاف في إطلاقه على القرآن والشعر :

" وصف عبد الله بن عباس أبا بكر الصديق رضي الله عنهما قال : (رَحِمَ اللهُ أبا بكر ، كان - والله - للقرآن تالياً ، وعن المنكر ناهياً ، وبذنبه عارفاً ، ومن الله خائفاً ، وعن الشبهات زاجراً ، وبالمعروف آمراً ، وبالليل قائماً ، وبالنهار صائماً ، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً ، وسادهم زهداً وعفافاً) " (١) .. رضي الله عن أبي بكر وعن ابن عباس !.

هذه قطعة نثرية تواترت عباراتها ، وتسلسلت كالعقد المنظوم مُتَكَنَّةً على حروف متماثلة ، ووزن واحد أكسبها إيقاعاً متميزاً مؤثراً يحسّه كل أحد .

ومجيء العبارات وانتهائها على ما هي عليه هو ما يُعرف بالسجع ..

وهو " الكلام المقفَى ، أو موالاة الكلام على رويّ ، وجمعه أسجاع " (٢) .

من : سجعت الحمامة سجعاً ، " وسجّعت : إذا رددت صوتها على وجه واحد ، وكذلك سجعت الناقة في حنينها " (٣) .

" وأنشد ابن دريد :

طَرِبْتُ فَأَبْكُكَ الْحَمَامُ السَّوَّاجِعُ تَمِيلُ بِهَا ضَحْواً غُصُونُ نَوَائِعُ

والنوائِعُ : الموائل ، من قوله : جائع نائع ، أي : متمايل ضعفاً " (٤) .

" والسجع في الكلام مُشَبَّهٌ بذلك ؛ لتقارب فواصله ، و(سجع) الرَّجُلُ في كلامه ، كما يُقال : نظمهُ إذا جعل لكلامه فواصلَ كقوافي الشعر ، ولم يكن موزوناً " (٥) .

(١) الصبغ البديعي ، ص ٤٩ ، (نقلاً عن : جمهرة خطب العرب ، ج ٢ ، ص ٨٣) .

(٢) القاموس المحيط ، ص ٩٣٩ ، مادة (سجع) ، باب (العين) ، فصل (السين) ، وقال الباقلائي في إعجاز

القرآن ، ص ٥٧ : " قال أهل اللغة : هو موالاة الكلام على وزن واحد " .

(٣) أساس البلاغة ، ص ٢٨٦ .

(٤) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٥٧ .

(٥) المصباح المنير ، ص ٢٦٧ ، مادة (سجع) ، باب (السين) .

نشأة السجع :

ليس من لونٍ بديعي ضاربٌ يجذوره في القدم كالسجع ؛ إذ تُلحظ وفرته في كلام المتقدمين . يقول عبد القاهر الجرجاني : " ولستَ تجد هذا الضرب يكثر في شيء ويستمر كثرته واستمراره في كلام القدماء " (١) .

كنخطبة قسّ بن ساعدة المشهورة : " أيّها الناس ، اسمعوا وعوا ، مَنْ عاشَ مات ، وَمَنْ ماتَ فات ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ ، ليلٌ داجٍ ، ونهارٌ ساجٍ ، وسَمَاءٌ ذاتُ أبراجٍ ، ونجومٌ تزهر ، وبحارٌ تزخر ... " (٢) .

" وقول الفضل بن عيسى الرقاشي : " سَلِ الْأَرْضَ فَقُلْ : مَنْ شَقَّ أَنْهَارِكَ ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ ، وَجَنَى ثِمَارَكَ ، فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حَوَارًا ، أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا " (٣) .

ولقد جاء في كلامهم كما هو ظاهر مطبوعاً بصفائهم وسلاستهم ، مصبوغاً بروعة بيانهم الفطري ، لا ترى فيه وسم كلفةٍ أو طابعِ صنعة ، لذا يقع من النفس موقع القبول والاستحسان ؛ لأنه كلام خالط نفوسهم قبل أن يخالط ألسنتهم ، معجوناً بها قبل أن يعجن بالسجع الشاهد على بلاغتهم وبراعتهم ، " ولذلك أنكر الأعرابي حين شكّا إلى عامل الماء بقوله : " حلثت ركابي ، وشُقِّقت ثيابي ، وضربت صِحابي " ؛ فقال له العامل : " أوتسجع أيضاً " ، إنكار العامل السجع حتى قال : " فكيف أقول " ؟ " (٤) .

فالسجع إذن في كلامه أتى عفواً تطلّبه المعنى ، فجاء تبعاً ، وإلا فما سيقول ؟ .
لكأنّ هذه البلاغة وهذا البيان مصبوغاً في نفوسهم ، ويجري في خواطرهم جريان السِّلْسَال (٥) .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٢ .

(٢) الصبغ البديعي ، ص ٤٠ ، (نقلًا عن : جمهرة خطب العرب ، ج ١ ، ص ٣٥) .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ١٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٥) السِّلْسَال : الماء العذب سهل الدخول في الحلق ؛ لعذوبته وصفائه .

" قال الجاحظ : " لأنه لو قال : " حلت إبلي " أو " جمالي " أو " نوقي " أو " بعراني " أو " صيرمي " لكان لم يُعبّر عن حقّ معناه ... " ^(١) .

ومن ذلك قول علي بن أبي طالب في امرئ القيس : " رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرغبة " ^(٢) .

وقول العباس بن الحسن العلوي في صفة بليغ : " ألفاظه قوالب لمعانيه ، وقوافيه مُعدّة لمبانيه " ^(٣) .

أما سجع الكُهّان الذي وجد في تلك الفترة ، وسجع مُدّعي النبوة من بعد ، فإنني أجُلّ بصرك وبصيرتك أيها القارئ عن التلّفت فيه أو التفقّد له فيما لو تعرّضتُ له وضربت لك أمثلة عليه ؛ إذ هو من المتكلّف الممقوت الذي تحسُّ بسماحته وشناعته وثقله وسخفه ؛ بل وأغرق في الباطل والضلال والزيف والكذب .

وصدق الجاحظ - رحمه الله - إذ يقول : " وكان الذي كرهه الأسجاع بعينها - وإن كانت دون الشعر في التكلّف والصنعة - : أنّ كُهّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة وأنّ مع كلّ واحدٍ رئيساً ^(٤) من الجنّ مثل (حازي جُهينة) ^(٥) ، ومثل (شِق) و(سطيح) ، وعزّى سلمة وأشباههم . وكانوا يتكهّنون ويحكمون بالأسجاع " ^(٦) .

لذا نهى النبي ﷺ عن الإتيان بهذه الصور المرذولة المردودة من السجع .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٤ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٤) رئيساً : الرئي : الجنّ ينقل للكاهن ما يحدث في السماء من مغيبات .

(٥) الحازي : الكاهن .

(٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

" فقد نقل صاحب اللسان^(١) عن الأزهري^(٢) قال : " ولما قضى النبي ﷺ في جنين امرأة ضربتها أخرى فسقط ميتاً ، بغرة على عاقلة الضاربة ، قال رجلٌ منهم : كيف نَدِي مَنْ لا شَرِبَ ولا أكل ، ولا صاح فاستهلّ ؟ . مثل دمه يطل ! . قال ﷺ : « يَا كُمْ وَسَجْعَ الْكُهَّانِ »^(٣) " (٤) .

ولقد كان هذا الحديث الشريف محلّ اهتمام ونظر كثير من النقاد ، محاولةً منهم في تعليل وتوضيح النهي ، كالجاحظ ، وأبي هلال العسكري ، وابن الأثير ، وابن سنان ، وابن حجة^(٥) .

" قال الأزهري - صاحب معجم تهذيب اللغة - : إنه ﷺ كره السجع في الكلام والدعاء ؛ لمشاكلته الكهنّة وسجعهم فيما يتكهنّونه ... " (٦) .

وعلّل الجاحظ ذلك النهي بقوله : " فوقع النهي في ذلك الدّهر ؛ لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فمتى زالت العلّة زال التحريم ، وقد كان الخطباء تتكلّم عن

(١) محمد بن محمد بن علي ، وقيل : رضوان بن أحمد بن أبي القاسم بن حقه بن منظور الأنصاري الأفرقي المصري ، صاحب لسان العرب في اللغة ، الذي جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية .. وُلِدَ سنة (٦٣٠هـ) . اختصر كثيراً من كتب الأدب المطولة ، كالأغاني ، والعقد الفريد . مات في شعبان سنة (٧١١هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٢) هو محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح الأزهري اللغوي الأديب الهروي الشافعي ، أبو منصور ، وُلِدَ سنة (٢٨٢هـ) . أخذ عن نفطويه وابن السراج .. له من التصانيف : التهذيب في اللغة ، التقريب في التفسير ، الأدوات . مات في ربيع الآخر سنة (٣٧٠هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٣) انظر : صحيح مسلم ، كتاب القسامة والمحاريب والقصاص والديات ، باب : دية الجنين ، ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني ، حديث رقم : (٤٣٩١) ورقم : (٤٣٩٣) ورقم : (٤٣٩٤) بروايات مختلفة ، ص ٦٤٦ .

(٤) الصبغ البديعي ، ص ٤١ .

(٥) انظر : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، والصناعتين ، ص ٢٦٦ ، والمثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٦ . وقد فصلّ فيها كثيراً كعادته في زيادة البيان والتوضيح دائماً . وانظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٧١ ، ١٧٧ ، وخزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ .

(٦) الصبغ البديعي ، ص ٤١ .

الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلم ينهوا منهم أحداً^(١) .

ولو كان النهي مطلقاً " لم يرد في كلام الله تعالى ، وكلام النبي ﷺ ، والفصيح من كلام العرب "^(٢) .

" وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبي ﷺ شيء كثير أيضاً ، فمن ذلك : ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حقَّ الحياء » ، قلنا : إنا لنستحي من الله يا رسول الله ، قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله : أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا »^(٣) ^(٤) .

قال أبو هلال العسكري : " وكان ﷺ ربّما غيّر الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وتآبع الكلمة أخواتها ، كقوله ﷺ : « أعيذه من الهامة ، والسامة ، وكلّ عينٍ لامة »^(٥) . وإنّما أراد : « مُلِمة » . وقوله عليه السلام : « ارجعن مازورات غير مأجورات »^(٦) ، وإنّما أراد : « موزورات » ، من الوزر ، فقال : مازورات ؛ لمكان مأجورات ، قصداً للتوازن وصحة التسجيع "^(٧) .

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ١٧١ .

(٣) انظر : المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ط ٢ ،

١٣٦٩ هـ ، مسند عبد الله بن مسعود ، حديث رقم : (٣٦٧١) ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ .

(٤) المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

(٥) لم أعثر على هذا الحديث بنصّه فيما توفّر لديّ من مصادر ؛ إنّما الذي جاء في صحيح البخاري وغيره

عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول :

« إنّ أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كلّ شيطان وهامة ، ومن

كلّ عين لامة » . انظر : صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، حديث رقم : (٣٣٧١) ، ص ٦٠٩ .

(٦) انظر : سنن الحافظ أبي عبد الله بن ماجه ، تعليق : محمد فؤاد عبد الباقي ، د.ت ، كتاب الجنائز ، حديث

رقم : (١٥٧٨) ، ج ١ ، ص ٥٠٢ .

(٧) الصناعتين ، ص ٢٦٧ . وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير في (المثل السائر) ، ج ١ ، ص ١٩٦ ، وابن سنان في

(سرّ الفصاحة) ، ص ١٧٦ ، وابن حجة في (خزانة الأدب) ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ .

إلا أنه - عليه الصلاة والسلام - مع ذلك " لم يكن يحفل بالسجع ، ولا يحرص عليه ، وقد يقع في كلامه عفواً ... وهذه الأسجاع كانت تتسم بالندرة إذا قيسَتْ إلى ما روي لنا من خطبه وأحاديثه ، ونلمح أنّ عدم القصد فيها يبيّن ، حتى إنّ خطبته في حجة الوداع - وهي أطول ما قاله - لا نجد فيها سجعة واحدة" ^(١).

وبغضّ الطرف - كما أسلفت - عن سجع الكهّان ، ومدّعي النبوة ، فقد ظلّ أسلوب السجع شائعاً بنفس قوّته وعفويته ، وبخاصة في الوصايا والوعظ ، والحكم والأجوبة ، والملح والنوادر ، حتى أواسط القرن الرابع ، حيث امتزج العجم بالعرب ، ودبّ الفساد إلى لغتهم ، فعدلوا عن الأسلوب الفطري المطبوع إلى الزخرف والزينة والإسراف في ذلك ، حتى جاء السجع بائن الصنعة والتكلف غير مستساغ ، وليس الحال في السجع فقط ، بل في مختلف الفنون البلاغية ^(٢).

أما بالنسبة لنشأة هذا اللون العلمية ، فإنّ المتتبع له يجد أنّ هذا المصطلح كان قديماً كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فقد تكلم الجاحظ عن السجع ، وعقد له باباً من أبواب كتابه (البيان والتبيين) ، سماه : (باب أسجاع) ، ولم يضع له تعريفاً ، ولكن شواهد تدلّ على أنّه هو ما يُقصد به من توافق الفقرات في الحرف الأخير ^(٣).

وجاء من ذلك قول لعيسى بن مريم : " البرّ ثلاثة : المنطق ، والمنظر ، والصّمت . فمن كان منطقاً في غير ذلك ، فقد لغا ، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ، ومن كان صمته في غير فكر فقد لها ... " . وقوله : " ودعا أعرابي فقال : اللهمّ إنني أسألك البقاء ، والنّماء ، وطيب الإثناء ، وحطّ الأعداء ، ورفع الأولياء " ^(٤).

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٢٧ .

(٢) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٣٠٨ ، بتصرّف يسير .

وللاطلاع على نماذج من السجع في الخطب والوصايا ، يُنظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، فقد عرض منها الشيء الكثير .

(٣) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ١١٨ ، بتصرّف .

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨٠-١٨١ .

وهو قبل ذلك عقد فصلاً تحت عنوان : " ذكر دواعي استكراه النطق بالأسجاع " (١).

أما من كان قبل الجاحظ كالمبرد ، وعلماء النحو واللغة كسيبويه (ت ١٨٠هـ) والأصمعي ، والعلماء الذين اتجهوا ببحثهم إلى الكشف عن بلاغة القرآن ، كأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) ، والفراء (ت ٢٠٧هـ) ، وابن قتيبة ، فرغم أنهم تكلموا عن أنواع بدعية متفرقة في كتبهم ، إلا أن الملاحظ عليهم أنهم لم يتحدثوا عن كل ما تبحث عنه البلاغة المتأخرة - بيانها ومعانيها وبديعها - من تشبيه واستعارة وجناس وسجع ، كما لم يعقدوا لهذه الألوان فصولاً خاصة ؛ وذلك لأن هذه الألوان البلاغية لم تكن قد نضجت بعد .. هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى : أن الغرض من كتبهم لم يكن يستهدف شرحاً مثل هذا ؛ إنما كان الحديث عنها ثانوياً ؛ إذ كان جُلّ اهتمامهم يتوجه إلى ما هو أعم من ذلك عن الألفاظ وما يتعلق بها ، والمعاني واثلافها مع الألفاظ ، ومراعاتها للسياق (٢).

وجاء الحديث عن التصريح مبكراً ، وهو نوع من أنواع السجع عند ثعلب " تحت اسم : (الآيات الموضحة) ، وعرفه بقوله : " وهي ما استقلت أجزاءها ، وتعاضدت فصولها ، وكثرت فقرها ، واعتدلت فصولها ، فهي كالخيل الموضحة ، والفصوص المجزعة ، والبرود المحبرة ، ليس يحتاج واصفها إلى : لو كان فيها سوى ما فيها ، وإن كانت الآيات المحجلة تشمل في عرف علماء البديع المتأخرين : التسميط والتصريح والتجزئة " (٣).

ولم يتعرض ابن المعتز لهذا اللون البديعي ، وإنما كان قد تخير خمسة من ألوان البديع فقط ، ولعل في قوله : " ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنونة الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق في المعرفة ... " (٤).

ما يسوغ له الانعطاف عن ذكره ، وجاء الحديث عن السجع عند قدامة عرضاً في

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٢) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ١٢٨ ، ١٤٣ ، بتصرف يسير .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٣ ، (نقلاً عن : قواعد الشعر ، ص ٧٥) .

(٤) البديع ، لابن المعتز ، ص ١٥٢ .

كتابه (نقد الشعر) ضمن عيوب ائتلاف المعنى والقافية ، وكذا عن الترصيع ضمن نعوت الوزن^(١).

أما في كتابه (نقد النثر) " فتكلّم عن الترصيع ، وسَمّاه : جودة التفصيل ، ولكنه لم يضع له تعريفاً ، وهو مسبوق إليه ، واستشهد له بقول الشاعر :

بِضٍّ مَفَارِقُنَا ، تَغْلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُوا بِأَمْوَالِنَا ، آثَارَ أَيْدِينَا

وتكلّم عن السجع ، ويحتجّ له بمثل ما في البيان والتبيين^(٢).

واتّخذ السجع صفة التوسع عند أبي هلال العسكري ، فتحدث عنه في الباب الثامن تحت عنوان (في ذكر السجع والازدواج) ، وهو أول مَنْ أتى علي ذكر الازدواج ، وهو ليس ببعيد عن الازدواج الذي تكلّم عنه الجاحظ ، وعقد له باباً تحت اسم : (مزدوج الكلام) ، واستشهد عليه بكلام الرسول ، وشعر الشعراء^(٣).

وبيّن فضيلة ومزية اللونين ، واستشهد عليهما بشواهد عدّة ، وهو أول مَنْ فصّل في السجع وعدّد له أوجه قبل أن تتخذ لها مصطلحات عند المتأخرين ، كالمتوازي والمطرّف ، وسَمّى ما وقع منه في الشعر بالمرصّع ، وأفرد له فصلاً كلّ شواهد فيه من الشعر فقط تحت عنوان : (في الترصيع) ، ويفهم من هذا أنّ الترصيع عنده في الشعر خاصّة^(٤).

وبعيداً عن هذا التفصيل في أوجه السجع عند أبي هلال العسكري جاء السجع والجناس والحشو عند عبد القاهر الجرجاني " ليبطل بذكرها ، ويقطع بردها نظرية مَنْ يقول : إن الحسن فيها لللفظ دون المعنى ، فيقول : وهاهنا أقسام قد يتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أنّ الحُسْنَ والقُبْحَ فيهما لا يتعدّى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقل النفس ،

(١) انظر : نقد الشعر ، ص ٤٠ ، ٢٢٤ .

(٢) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ١٩٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٤) راجع : الصناعتين ، ص ٢٦٦ ، ٣٩٠ .

ولها إذا حقّق النظر مرجع إلى ذلك ، ومتصرف فيما هنالك " ^(١) .

فتحدث عن مزية السجع وجماله وشروط حسنه ، وأشاد بكلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية به ، ولزموا سجية الطبع ، ومثّل على المقبول منه في سياق أدبيّ خلّاب ، ليس هذا مجال التفصيل فيه ، أو نقل بعض نصوصه ^(٢) .

وكان أول من فرّق بين الأسجاع والفواصل هو الرّماني ، فالفواصل عنده " بلاغة ، والأسجاع عجيب [هكذا] " ^(٣) ، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها " ^(٤) .

ورغم أنّ أبا هلال العسكري لم يفرّق بينهما في كتابه (الصناعتين) كما يُفهم من كلامه ^(٥) ؛ إذ يقول : " وكذلك جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ " ^(٦) .

ويقول : " وقد كثر الازدواج فيه - أي في الكلام - حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عن تزاوج في الفواصل منه " ^(٧) . ولم يأت الرّماني على أيّ تعريفٍ لهما ، ولا بأيّ شواهد شعرية سوى ما مثّل به من القرآن الكريم باعتبار أنّ السجع فيه فواصل ، وهو على وجهين : على الحروف المتجانسة ، والحروف المتقاربة وحُسن الفواصل " في الحروف المتقاربة ؛ لأنّه يكتنف الكلام من البيان ما يدلّ على المراد ... وأما القوافي فلا تحتل ذلك ؛ لأنّها ليست في الطبقة العليا من البلاغة ... " ^(٨) .

(١) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٥١ ، وانظر : أسرار البلاغة ، ص ٦ .

(٢) راجع أسرار البلاغة ، ص ٨ ، ١٦ .

(٣) هكذا وردت ، ويظهر أنّ كلمة (عجيب) محرّفة عن (عيب) .

(٤) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٧ .

(٥) انظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ١٨٧ .

(٦) الصناعتين ، ص ٢٦٦ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٨) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٨ .

وجاء الباقلااني ووافق الرماني في كل ما ذهب إليه ، غير أنه أفردَ للترصيع فصلاً وعدّد له صوراً ، منها : " الترصيع مع التجنيس " ، وهو ما لم يتنبه له غيره - حسب علمي القاصر - ، ومثّل له بقول ابن المعتزّ :

أَلَمْ تَجْزَعْ عَلَى الرَّبْعِ الْمُحِيلِ وَأَطْلَالِ وَآثَارِ مُحُولٍ^(١)

ونظيره من القرآن كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَاهُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وإخوانهم يمدّونهم في الغي ثمّ لا يقصرون^(٢) .

أما السجع في الشعر خاصة ، فجاء عند ابن رشيق في باب (الترصيع والقوافي) تحت فصل (التصرّيع والمسمط من الشعر) ، وهذا حدّ الكلام عن السجع عند ابن رشيق ، وإن لم يأت على ذكر لفظه^(٤) .

وحديث ابن سنان عن السجع جاء ضمن حديثه عن المناسبة بين اللفظين من طريق الصيغ ؛ إذ هو أول من فرق بين المحسنات اللفظية والمعنوية ، حيث جاء كتابه (سرّ الفصاحة) : " من أقوى الدعائم التي بنى عليها المتأخرون التفرقة بين المعنوي واللفظي من أنواع البديع " ^(٥) .

وقد " عرض لتحديد السجع وحكمه من حيث الإباحة والحظر ، وهذا جديد منه ، وإن كان يرى أن السجع والازدواج مترادفان ، وقد غاير بينهما غيره ، وتكلّم عن الترصيع " ^(٦) .

وتحدث عن شروط حسنه ، وقدّم أمثلة على ذلك من النثر ، ثم قال : " فأما القوافي في

(١) (الرّبع) : الدار بعينها حيث كانت ، والمحلة ، والمنزل ، (المحيل) : المتباعدة ، (محول) : مُقْفَرَة مُجْدِبَة .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان (٢٠١-٢٠٢) .

(٣) إعجاز القرآن ، ص ٩٦ .

(٤) العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٤ ، ٣٣٢ .

(٥) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٤٢ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

الشعر فإنها تجري مجرى السجع" ^(١). ويفهم من كلامه أنه ليس في الشعر ما يسمى بالسجع غير المرصع ، وقد تكلم عنه ^(٢).

وقد أخذ السجع في الشعر ينفصل عن النثر عند أسامة بن منقذ ، ويتحدد بشكل أدق ، مُتَّخِذاً عدّة مصطلحات ، منها التجزئة والازدواج ، وإن كان يظهر من شواهد أنه يخلط مع الثاني المشاكلة ، فمثل من الأول بقول أبي الطيب :

فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَحْرُ فِي خَجَلٍ ، وَالْبَرُّ فِي شُغَلٍ ^(٣)

ومثل على الثاني بقول - هو لامرئ القيس ، كما ورد عند أبي هلال العسكري - ^(٤):

سَلِيمُ الشَّظَا ، عَيْلُ الشَّوَى ، مُدْمَجُ الْقَرَا لَهُ حُجَرَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْغَالِ ^(٥)

أما الترصيع فواقعٌ عنده في القرآن وفي الشعر ^(٦).

ثم بدأ السجع يتخذ صفة التقسيم وتحديد المصطلحات لأقسامه عند الرازي ، فسمّى الكلمتين المتساويتين في عدد الحروف وفي نوع الحرف الأخير بالتوازي ، كقوله تعالى :

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٦٠﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ ^(٧).

وسمى المختلفين في العدد المتفقين في الحرف الأخير بالمطرّف ، كقوله تعالى :

(١) سرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٣) (جذل) : فرح ، (وجل) : خوف .

(٤) انظر : الصناعتين ، ص ٣٩٠ .

(٥) (الشظا) : عظيم لازق بالركبة ، أو بالذراع ، أو عَصَبٌ صَغَارٌ فِيهِ ، (العيل) : الضخم من كلّ شيء ،

(الشوى) : اليدان ، والرّجلان ، والأطراف ، وقحف الرأس ، (القرا) : الظّهر ، (الغال) : كذا وردت ،

ولعلّها محرّفة عن الغيل - بالكسر - وهو الشجر الكثيف الملتفّ .

(٦) راجع : البديع في نقد الشعر ، ص ٦٣ ، ١١١ ، ١١٦ .

(٧) سورة الغاشية : الآيتان (١٣-١٤) .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴿^(١) .

وسمى ما اتفقا في عدد الحروف ولم يتفقا في الحرف الأخير بالمتوازن ، كقوله تعالى :
﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةً ﴾ وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ ﴿^(٢) ، وإنَّ عُدَّ هذا ليس من السجع عند المتأخرين ،
كالخطيب القزويني ومن تبعه ، لذلك قال الرازي من بعد : " وهذا القسم خارج عن الحدِّ
المذكور " ^(٣) .

والسجع في الشعر عنده هي القافية المتكلفة ، وعرفَّ المزدوج والترصيع ^(٤) .
ورغم أنَّه عقد لهما فصلين مختلفين عن السجع ، إلا أنَّه أدرجهما والسجع تحت قسمٍ
واحد ، سمَّاه : (ما يحتاج فيه إلى أزيد من كلمتين) ^(٥) .
وتحت مسمَّى الأسجاع ذكر السكاكي أنَّها في النثر كما في القوافي في الشعر ، وأنَّها
في القرآن فواصل ^(٦) ، متأثراً في هذا بالرماني .

والسجع عند ابن الأثير وإن لم يتكلَّم عنه تحت اسم البديع ، فقد جاء ضمن حديثه عن
الألفاظ المركبة في القسم الثاني من مقالته الأولى ، وهو عنده خاصٌّ بالمنثور من الكلام ،
وفصل في أقسامه ، وفاضلٌ بينها مع الاستشهاد ، وعنده التصريح في الشعر بمنزلة السجع في
المنثور ، والترصيع يشمل القسمين [التصريح والسجع] ، ووروده في الشعر قليلٌ جداً ، وقد
أعطى السجع والتصريح والترصيع الكثير من السعة في كتابه (المثل السائر) ^(٧) .

(١) سورة نوح : الآيتان (١٣-١٤) .

(٢) سورة الغاشية : الآيتان (١٥-١٦) .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٤٢ .

(٤) المزدوج عنده : " هو أن يكون المتكلَّم بعد رعايته الأسجاع يجمع في أثناء القرائن بين لفظتين متشابهتي
الوزن والروي " . والترصيع : " هو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان ، متفقة الأعجاز " . وأحسنه ما
جاء مع التجنيس . انظر : ص ١٤٤ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٦) انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٣١ .

(٧) راجع : المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ٢٥٨ .

ومثله في هذا التوسع في الحديث عن السجع ، وتحت اسم التسجيع اليميني العلوي ، صاحب (الطراز) ؛ إذ تحدّث عن السجع مرة مفصّلاً تحت عنوان : (من فنّ المقاصد في ذكر أنواع البديع وبيان أقسامه) في الجزء الثالث من كتابه ، ومرةً مجملاً تحت عنوان : (ما يتعلّق بالفصاحة اللفظية في علم البديع) في الجزء الثالث أيضاً^(١) ، وأفرد للترصيع فصلاً ، وأخذ بتقسيمات ابن الأثير ، وتبعه في أن القصير من السجع أحسن وأوعر مسلكاً من الطويل ، وأصعب مدركاً ، وأخفّ على القلب ، وأطيب على السجع ؛ لأنّ الألفاظ إذا كانت قليلة فهي أحسن وأرقّ^(٢) ، غير أنّ ابن الأثير والعلوي بحكم اتّجاههم الأدبي لم يرد لديهم أيّ مصطلح لأيّ قسمٍ من أقسام السجع ، بل لم يكن تعريفهم للسجع ذا مدلولٍ علمي ، والترصيع عندهما مرةً كان مضموماً إلى السجع ، ومرةً منفصلاً عنه .

ويُلاحظ أنّ ما كان في أبوابٍ منفصلة عن السجع وهو منه عند مَنْ سبق الخطيب القزويني ، كقدامة ، وأبي هلال العسكري ، وابن رشيق ، وأسامة بن منقذ ، وابن الأثير ، وابن أبي الإصبع ، والعلوي .

جاء عند القزويني تحت باب السجع ؛ لأنّه منه ويجري مجراه ، كالتصريع والترصيع والتشطير والمتوازن .

وجاء الخطيب القزويني وعرف السجع بقوله : " وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرفٍ واحد " ^(٣) .

وجاء الترصيع عنده كما أسلفت ضمن أقسام السجع إلى جانب المطرّف والمتوازي ، ويظهر من أمثلته أنّها في القرآن خاصة وفي النثر ، وألحق فيما بعد التشطير والتصريع ، وهما مختصّان بالنظم ، ثمّ مثل على صور السجع من القصير والطويل والمتوسط ، وذكر شروطه ، ثمّ ختم حديثه عن السجع بكيفية بناء الأسجاع والخلاف في إطلاقه على القرآن والشعر .

(١) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ١٢ ، ١٩٦ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣١٣ ، بتصرّف يسير .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨١ .

وسياتي الحديثُ مفصّلاً عن ذلك فيما بعد أثناء الموازنة بينه وبين ابن أبي الإصبع العدواني في هذا المبحث .

وبذلك يكون السجع قد تحدّدت أركانه وحدوده وأقسامه وشروطه بصورة مكتملة ومحدّدة علمياً عند الخطيب القزويني ، وتبعه في ذلك الشُّراح إلى وقتنا الحاضر .

وأضاف السيوطي إلى أقسام السجع عند الخطيب : المتوازن والمتماثل ، التي جاءت عند القزويني أقسام بديعية لفظية أخرى ليست متعلّقة بالسجع وإن عقدها بعده^(١) .

وفصّل القول في الفواصل تفصيلاً واسعاً جداً ، وألحقَ بها لونين بديعيين ، هما : التشريع أو التوأم والالتزام ؛ وذلك لعلاقتها بالفواصل^(٢) .

وجاء في معجم المصطلحات أنّ من المتأخّرين مَنْ قسّمه إلى حال وعاطل ، وألحقَ أنّ هذا من التكلّف والتنطّع في ابتكار مصطلحات أخرى لأقسام السجع^(٣) .

مزية السجع البلاغية :

" قيل للصاحب بن عبّاد^(٤) : ما أحسن السجع ؟ . فقال : ما خفّ على السمع ، قيل : مثل ماذا ؟ . قال : مثل هذا "^(٥) .

فهذه الخفّة على السمع وتلذّذ الآذان بسماعه إنّما أتت عن طبع صافي وذوق سليم انحدر المعنى خالصاً من صاحبه ، فتبعه السجع سجيةً غير منقادّة ولا مُنساقّة برهقٍ أو كدح ،

(١) انظر : الإقتان ، ص ٦٨٦ .

(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٦٧٢ .

(٣) انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣١٤ ، (نقلًا عن معالم الكتابة ، لابن شيث القرشي ، ص ٦٩ ، ٧٠) .

(٤) إسماعيل بن عبّاد بن العباس بن عبّاد بن أحمد بن إدريس ، أبو القاسم الوزير الملقّب بالصاحب كافي الكفاة ، وُلد سنة (٣٢٤هـ) ، أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد ، سمي الصاحب ؛ لأنّه صحب مؤيد الدولة من الصّبا وسَمّاه الصاحب ، فغلب عليه هذا اللقب ، ولّي الوزارة (١٨) سنة ، له من التصانيف : المحيط باللغة ، رسائله ، الكشف عن مساوئ المتنبّي ، مات ليلة الجمعة (٢٤) صفر ، سنة (٨٨٥هـ) . انظر :

بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٥٠ .

(٥) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ .

" وعلى الجملة فإنك لن تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه ، وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولا " (١).

ولذلك " كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجية الطبع ، أمكن في العقول ، وأبعد عن القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوي التحصيل ، وأسلم من التفاوت ، وأكشف عن الأغراض ، وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل ، وأبعد عن التعامل الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق ... " (٢).

انظر مثلاً إلى " قول عبد المطلب بن هاشم يهنئ سفيان بن ذي يزن باسترداد مُلكه من الحبشة : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى - أَيُّهَا الْمَلِكُ - أَحَلَّكَ مَحَلًّا رَفِيعًا ، صَعْبًا مَنِيعًا ، بَاذِعًا شَانِخًا " (٣) ، وَأَنْبَتَكَ مَنِيبًا طَابَتْ أَرْوَمَتُهُ " (٤) ، وَعَزَّتْ جَرْثُومَتُهُ " (٥) ، وَثَبَتْ أَصْلُهُ ، وَبَسَقَ " (٦) فِرْعَهُ ، فِي أَكْرَمِ مَعْدَن ، وَأَطِيبِ مَوْطِن " (٧) .

فالنفس تميل إلى هذا النوع من السجع الحسن ، فإن المعاني بهذه الأسجاع أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدرًا في نفوسها " (٨) . بما توافر فيه - أي السجع - من جلّ شروط الحسن التي اشتراطها العلماء : من الاعتدال في مقاطع الكلام ، و " جريه على أسلوب متفق ؛ لأنّ الاعتدال مقصد من مقاصد العقلاء يميل إليه الطبع ، وتشوّق إليه النفس " (٩) .

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣) باذعًا : عاليًا ، شانخًا : بعيدًا .

(٤) أرومته : الأرومة - وتضم - : الأصل .

(٥) جُرتومة الشيء - بالضم - : أصله ، أو هي التراب المجتمع في أصول الشجر ، والذي تسفه الريح .

انظر : القاموس المحيط ، فصل (الجيم) ، باب (الميم) .

(٦) بسق : طال .

(٧) الصبغ البديعي ، ص ٤٠ ، (نقلًا عن جمهرة خطب العرب ، ج ١ ، ص ٣٥) .

(٨) الخصائص ، ج ١ ، ص ٢١٤ ، بتصرف يسير .

(٩) الطراز ، ج ٣ ، ص ١٣ ، وانظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

* ووقوعه " سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه "(١).

* ولم يكن السجع فيه لازماً على حرفٍ واحد ، أو واقعاً بين سجتين لمعنى واحد ، فإنّ في هذا تكرراً وتطويلاً ، ودالٌّ على " جهلٍ من فاعله وعيٍّ من قائله "(٢). كقول ابن عباد في مهزومين : " طاروا واقين بظهورهم صُدورهم ، وبأصلاهم نُحورهم "(٣). وإن عدّه البعض مؤكّداً وليس عيباً^(٤).

* والمعاني " مألوفة غير غريبة ولا مستكرهة ، ولا ركيكة مستبشعة ؛ لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع ، وكانت غير قابلة لها ، وإذا كانت ركيكة مجتهدا الأسماع "(٥).

* و" الألفاظ المسجوعة حلوة حادّة طنانة رنانة ، لا غثّة ولا باردة "(٦).

قال العلوي : " ونعني بالغتائة والرداءة : أنّ الساجع يصرف نظره إلى مؤاخاة الأسجاع وتطابق الألفاظ ، ويهمل رعاية حلاوة اللفظ وجودة التركيب وحُسنه ، فعند هذا تمسّسه الرداءة ، وتفارقه الحلاوة ، ويصير فيما جاء به بمنزلة من ينظم عقداً من خرف ملوّن ، أو ينقش بألوان الصباغ ثوباً من عهن "(٧).

(١) سرّ الفصاحة ، ص ١٧١ .

(٢) أشار إلى ذلك ابن الأثير في المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، وابن سنان في (سرّ الفصاحة) ، ص ١٧٩ ، والعلوي في (الطراز) ، ج ٣ ، ص ١٤ ، وما نقله أحمد مطلوب عن ابن وهب في معجم المصطلحات ، ص ٣١١ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٤) انظر : البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، (نقلاً عن الفلك الدائر على المثل السائر ، لابن أبي الحديد ، ج ٤ ، ص ١٧٩ ، وعن فنّ الأسجاع ، للدكتور علي الجندي ، ج ١ ، ص ٢٢٤) .

(٥) الطراز ، ج ٣ ، ص ١٤ .

(٦) المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٧) الطراز ، ج ٣ ، ص ١٣ . وبعبداً عن هذه الغتائة والرداءة ، انظر تعليقاً لعبد القاهر على إحدى خطب الجاحظ ؛ إذ يقول : إنه " رأى التوفيق بين المعاني أحق ، والموازنة فيها أحسن ، ورأى العناية بها حتى

ولكي تتبين لك مزية السجع وحلاوته بشروطه السالفة الذكر ، تأمل ما حكاه " الجاحظ عن بشر بن المعتمر أنه قال في وصيته في البلاغة : " إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ، ولا صائرة إلى مستقرها ، ولا حالة في مركزها ، بل وجدتها قلقة في مكانها ، نافرة في موضعها ، فلا تكرهها على القرار في غير موضعها ؛ فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإذا أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً فيهما ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، وأزرى عليك من أنت فوقه " ^(١).

قال ابن سنان الخفاجي : " وهذا كلامٌ صحيح ، يجب أن يُقتدى به في هذه الصناعة " ^(٢) ، ويقصد صناعة السجع .

ولا ريب في أنه يشيع في النصّ جمالاً شكلياً مرموقاً ، وأنغماً موسيقية عذبة تقع في السمع موقعاً محموداً مألوفاً ، خاصة إذا ما كانت الألفاظ رشيقة المعاني عميقة ، فإنّ الكلام يكتسب بها رواء ^(٣) ، " ويؤثر في النفوس تأثير السّحر ، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم ؛ لما يحدثه من النغمة المؤثرة ، والموسيقى القوية التي تطرب لها الآذان ، وتهش لها النفس ، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل ، أو يخالطها فتور ، فيتمكن المعنى في الأذهان ، ويقرّ في الأفكار ، ويعزّز لدى العقول " ^(٤).

وهو " والجناس من أبرز فنون البديع اللفظي ، وأكثرها تألقاً ، وأقواها أثراً ، وأسمعها صوتاً ، وأشيعها ذكراً ، وحسبك دليلاً على هذا أنّ العامة سريعاً ما يتأثرون بهما ، ويعجبون منهما " ^(٥).

تكون إخوة من أب وأمّ ، ويذرهما على ذلك تتفق بالوداد ، على حسب اتفاقها بالميلاد ، أولى من أن يدعها لنصرة السجع وطلب الوزن أولاد علة " . انظر : أسرار البلاغة ، ص ١٠ .

(١) سرّ الفصاحة ، ص ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣) البلاغة والتحليل الأدبي ، ص ١٩٧ ، ١٩٩ ، بتصرف .

(٤) الصبغ البديعي ، ص ٤٩٧ .

(٥) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٦ .

قال ابن جني : " ألا ترى أنّ المثل إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به ولا أنقّت^(١) لمستمعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإن لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجيء به من أجله " ^(٢).

الخلافاً في إطلاق السجع على القرآن الكريم والشعر :

أولاً : الشعر :

اختلف العلماء في إطلاق السجع على الشعر ، وهل يقع في الشعر منه ؟.

قال ابن معصوم : " ومنهم من خصّ السجع بالثر ، والصحيح عدم اختصاصه به ، بل يجري في النظم أيضاً " ^(٣).

ولعلّ من ذهب إلى عدم وقوعه في الشعر أو النظم يرى أنّ ما في الشعر من أوزان خاصة بكلّ بحر من بحوره ، وما فيه من التزام قافية موحّدة في القصيدة كلّها يغنيه عن السجع^(٤) ، إلا أنّ المتأمل والمتصفح لديوان العرب يجد أنّ السجع وارد في الشعر ، ويندرج نماذج منه تحت أقسام السجع المعروفة عند الرازي وعند الخطيب ومن تبعه من المتأخرين .

قال أبو هلال العسكري : " وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوماً في منظوم ، وسجعاً في سجع " ^(٥). ومثّل عليه بشواهد عدّة ، منها :

وَأَوْتَدَهُ مَا ذِيَّةٌ وَعِمَادُهُ رُدَيْيَّةٌ فِيهَا أَسِنَّةٌ قَعَصِبٌ^(٦)

(١) أنقّت : من أنق الشيء : أحبه وبه أعجب .

(٢) الخصائص ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ٤٩٤ .

(٤) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٢٦ ، بتصرّف .

(٥) الصناعتين ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٦) (أوتاد) : جمع وتد ، وهو قطعة من خشب تثبت في الأرض ليشدّ إليها حبال الخيمة ، (المأذبة) : الصافية اللينة ، (عماده) : ركنه ، (ردينية) : رماحٌ نسبت إلى امرأة اسمها : (رُدينة) ، كانت تبيع الرماح ، =

وهو الذي سماه أهل الصنعة : الشعر المرصع ، كما ذكر^(١).

والقوافي في الشعر ليست سججاً ، لكنها تجري مجراه ، قال ابن سنان : " فأما القوافي في الشعر فإنها تجري مجرى السجع " ^(٢).

وقال السكاكي عن الأسجاع : " وهي في النثر كما في القوافي في الشعر " ^(٣).

ويؤكد هذا قول قدامة وهو يتحدث عن عيوب القافية : " ومن عيوب هذا الجنس : أن يؤتى بالقافية لتكون نظيره لأخواتها في السجع " ^(٤). كقول أبي عدي القرشي :

وَوُقِيتَ الْحُسُوفَ مِنْ وَارِثٍ وَ
لِ وَأَبْقَاكَ صَالِحاً رَبُّ هُودٍ

" فليس نسبة هذا الشاعر الله ﷻ إلى أنه رب هود بأجود من نسبته إلى أنه رب نوح ، ولكن القافية كانت دالية ، فأتى بذلك للسجع ، لا لإفادة معنى بما أتى به منه " ^(٥).

ومن نماذج الشعر الواردة حسب أقسام السجع عند المتأخرين :

* جاء من السجع المطرّف : أي اختلاف الفاصلتين في الوزن ، كقول أبي تمام :

(أسِنَّة) : جمع سنان ، وهو القسم المعدني من الرّمح ، الذي يركّب في القسم الخشبي منه - أي القناة - ، (قعضب) : اسم رجل من بني قنشير ، كان يصنع الأسِنَّة والرماح ، ويقال : هو زوج (رُدِينة) .

ويصف الشاعر أنّ هؤلاء الشبان الأجواد ، عملوا إلى رماحهم فنصبوها وجعلوا عليها ثوباً ، وربطوا أسفل الثوب بدروعهم لتقوم مقام أوتاد الخباء ، حين رفعوا بيتاً - أي خيمة تظللهم وتقيهم حرارة الشمس - . انظر : شرح ديوان امرئ القيس ، للدكتور : محمد الإسكندراني ، والدكتور : نهاد رزوق ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(١) انظر : الصنائع ، ص ٢٧١ . والشعر المرصع كما ذكر السكاكي : " هو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان ، متفقة الأعجاز أو متقاربتها " . انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٣١ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ٤٣١ .

(٤) نقد الشعر ، ص ٢٢٤ . ويقصد بقوله : (في السجع) ، أي في صفة السجع ، وهو انتهاء الفاصلة بحرف واحد .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي ، وَأَثَرْتُ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ ثَمْدِي ، وَأَوْرَى بِهِ زُنْدِي^(١)

ومن المرصع - وهو كما سبق توضيحه -^(٢) : قول امرئ القيس :

قُورُ الْقِيَامِ قَطِيعُ الْكَلَامِ يُفْتَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ خَصِيرٌ^(٣)

ومن المتوازي - وهو اتفاق اللفظة الأخيرة من القرينة أو الفقرة مع نظيرتها في الوزن والروي -^(٤) : قول أبي الطيب المتنبّي :

فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَرُّ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي خَجَلٍ^(٥)

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٥ . وهو أيضاً من التشطير في الشعر .

(وَأَثَرْتُ) : كثر ما لها ، (الْثَمْدُ) : الماء القليل ، أو ما يبقى في الجلد ، أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف ، (أَوْرَى) : أشعل ، (الزُّنْدُ) : العود الذي يقدح به النار .

والبيت من قصيدة طويلة في مدح أبي العباس نصر بن منصور بن بسّام . انظر : شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

والمعنى : جعل إبراء الزند مثلاً لإدراكه ما سعى له وحاوله . انظر : الشرح ، ص ٢٦٨ .

(٢) قال أبو هلال العسكري : " الترصيع هو أن يكون حشو البيت مسجوعاً . وأصله من قولهم : رصّعت العقد : إذا فصلّته " . انظر : الصناعتين ، ص ٣٩٠ . وقال أسامة بن منقذ : " اعلم أن الترصيع هو أن يكون البيت مسجوعاً " . ومثّل عليه بعدة أمثلة ، منها قول البحّري :

صَارِمِ الْحَزْمِ ، حَاضِرِ الْعَزْمِ ، سَارِي الْفَكْرِ ، ثَبْتُ الْمَقَامِ ، صَلْبُ الْعُودِ

انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١١٦ . وقال ابن أبي الإصبع : " الترصيع كالتسجيع في كونه يجرى البيت إما ثلاثة أجزاء إن كان سداسياً ، أو أربعة إن كان ثمانية " . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٢ .

(٣) الصناعتين ، ص ٢٧٠ ، ومنه قول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْدِي الطَّرِيقَةِ ، نَفَاعُ وَضَرَارِ

انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٤) علم البديع ، ص ٢١٩ ، بتصرّف . وقد فرّق البعض بين القرينة والفقرة ، وإنّما هما فقرتان قد تُسمّيان قرينتان ؛ لتقارنهما . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٨ .

(٥) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ .

وبصرف النظر عن هذه الشواهد حسب أقسام السجع ، فإنني أرى أن ابن معصوم قد لخص السجع في الشعر في بضع كلمات في قوله : " هو أن يأتي الشاعر في البيت بكلماتٍ مقفاة على روي البيت ، غير متزنة بزنة عروضية ، ولا محصورة في عددٍ معين " ^(١) .

ويرى الخطيب أن هذا ظاهر التكلف ، لكنه يعود للقول بأن في الشعر أقساماً يجري فيها السجع كما يجري في النثر ، وعد منها التشطير والتصريع ^(٢) . وسيأتي الحديث عنها عند الموازنة .

فالأول : " أن يجعل كل من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها " ، كقول أبي تمام :

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ ، بِاللَّهِ مُنْتَقِمٌ لِلَّهِ مُرْتَعِبٌ ، فِي اللَّهِ مُرْتَقِبٌ ^(٣)

وقول جرير :

وَبَاسِطُ خَيْرٍ فِيكُمْ بِيَمِينِهِ وَقَابِضُ شَرٍّ عَنْكُمْ بِشِمَالِيَا ^(٤)

والثاني من أقسام الشعر الذي يجري فيه السجع : هو التصريع ، وهو " جعل العروض مقفاة تقفية الضرب " ^(٥) ، وله سبع مراتب كما ذكرها العلوي في (الطراز) ، وقبله ابن الأثير في (المثل السائر) ، إلا أن هذا ليس مجالها ^(٦) .

وهو في الأشعار كثير ، لاسيما في أول القصائد كما ذكر ابن أبي الإصبع ^(٧) . كقول أبي فراس الحمداني :

(١) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ . وقد قال ذلك ابن أبي الإصبع من قبل ، فانظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٠ .

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٦ . وسيأتي التعرض لهذا البيت لاحقاً .

(٤) البديع في نقد الشعر ، ص ١٢٨ . وقد اجتمع في هذا البيت إلى حوار التشطير المقابلة ، فحسن وجاد .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ . وجاء في العمدة ، لابن رشيق : أن له اسمين : التجميع ، أو التخميع .

انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٦) للاطلاع عليها يراجع الطراز ، ج ٣ ، ص ١٩ ، والمثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٧) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٥ .

بِأَطْرَافِ الْمُتَقَفَّةِ الْعَوَالِي تَفَرَّدْنَا بِأَوْسَاطِ الْمَعَالِي^(١)

وأرى أن يدخل مع التصريح ما سماه ابن رشيق : التقفية ، وهي : " أن يتساوى الجزآن من غير نقص ولا زيادة ، فلا يتبع العروض الضرب في شيء إلا في السجع خاصة ، مثال ذلك قوله - أي امرئ القيس - :

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلٍ^(٢)

وكما مثل أبو هلال العسكري بقول امرئ القيس^(٣) :

سَلِيمُ الشَّظَى ، عَيْلُ الشَّوَى ، شَنِجُ النَّسَا^(٤)

على السجع في الشعر ، فقد تمثل به الباقلاني على الموازنة ، كقول بعضهم : " اصيرُ على حرِّ اللقاء ، ومضض النَّزال ، وشدة المصاع "^(٥) .

والموازنة - كما ذكر العلوي - هي إحدى أنواع السجع ، وقد عرفها بقوله : " أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنشور متساوية في أوزانها ، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساويي الألفاظ وزناً "^(٦) . وهذا من التوسع في السجع بحيث يشمل عنده

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٥ . وقال ابن أبي الإصبع : " وأهل البديع يُسمّون التقفية تصريحاً ؛ إذ لا يعتبرون الفرق بينهما " . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٧ .

(٣) ديوانه ، ص ٥٠ . وبقيته :

* لَهُ حَجَبَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْفَالِ *

(٤) الصناعتين ، ص ٢٧٠ .

(النسا) : من الورك إلى الكعب ، و(شنج) : منقبض .

(٥) إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص ٨٨ . إلا أنه يظهر أن الموازنة ليست من السجع عند الباقلاني ؛ لأنه يمثل لها من القرآن الكريم ، وهو ممن ينفي السجع عنه ، ولعله يطلق على صور السجع في القرآن بالفواصل مرة ، وبالموازنة مرة أخرى خشية القول به . والله تعالى أعلم .

و(المصاع) : المقاتلة والمجالدّة بالسيوف .

(٦) الطراز ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

ما ذكره من تساوي ألفاظ الفواصل وزناً وإن لم تتفق حروف أواخرها .

وعَلَّل كونه من أنواع السجع بقوله : " فإنَّ السجع - كما أسلفنا تقريره - قد يكون مع اتفاق الأواخر واتفاق الوزن ، وقد يكون مع اختلاف الأواخر لا غير ، فإذا كان كلٌّ موازنة هي سجع ، وليس كلٌّ تسجيع موازنة ، فالموازنة خاصّة في اتفاق الوزن من غير اعتبار شريطه " (١) .

ولعلَّ هذا يفسّر مجيء الموازنة والمماثلة عند الخطيب القزويني بعد الحديث عن السجع ، أو ربّما يعدّهما ملحقات به (٢) ، وهي عنده تأتي في القرآن والشعر .

ومن أقسام الشعر أيضاً التي يمكن أن تجري مجرى السجع المسمّط والمجزّئ ما دامت أنّها من أنواع التصريح كما ذكر ابن رشيق ؛ إذ يقول : " ومن الشعر جنسٌ كلُّهُ مصرّع ، إلاّ أنّه مختلف الأنواع ... فمن ذلك الشعر المسمّط ... ونوعٌ آخر يُسمّى مخمّساً ... ونوعان من الرجز ، وهما : المشطور ، والمنهوك .. " (٣) .

فالتسميط هو : " أن يؤتى بالبيت من الشعر على أربعة مقاطع ، فثلاثة منها على سجعٍ واحدٍ مع مراعاة القافية في الرابعة ، إلى أن تنقضي القصيدة على هذه الصفة " (٤) .

كقول مروان بن أبي حفص :

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٢) انظر تعريفه لهما مع الاستشهاد في كتابه (الإيضاح) ، ج ٤ ، ص ٨٧ . وقد جاءت المماثلة تحت الموازنة عند العلوي . انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٢٢ ، وهي عند ابن أبي الإصبع بابٌ منفرد ، ومثّل عليها بقول امرئ القيس :

كَأَنَّ الْمَدَامَ ، وَصُوبَ الْغَمَامِ وَرِيحُ الْخُزَامِي ، وَنَشْرُ الْقَطَرِ
يُعْلَلُ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَا إِذَا غَرَّدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحَرُّ

مدللاً على أنّ ألفاظ المماثلة قد تأتي مقفاة من غير قصد ؛ لأنّ التقفية في هذا الباب غير لازمة .

انظر : تحرير التحبير ، ص ٢٩٧ .

(٣) العمدة ، ج ١ ، ص ٣٣٢-٣٣٥ .

(٤) الطراز ، ج ٣ ، ص ٥٤ . وراجع تعريفه عند ابن رشيق في كتابه : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا ، وَإِنْ دُعُوا أَجَابُوا ، وَإِنْ أُعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا^(١)

قال ابن أبي الإصبع : " فأتت بعض أجزاء هذا البيت مسجعة على خلاف قافيته ؛ لتكون القافية بمنزلة السمط ، والأجزاء المسجعة بمنزلة حبّ العقد ؛ لكون التسميط يجمع حبّ العقد ويربطه "^(٢).

وقد فرق ابن أبي الإصبع وابن حجة بين التسميع والتسميط^(٣). أما العلوي فإنه لا يعدّ التسميط من السجع ؛ إذ قال : " أعلم أنّ من الناس من يعدّ هذا النوع من أنواع التسميع ، والحقّ ما قاله الخليل بن أحمد - رحمه الله تعالى - : إنه مخالف لأنواع السجع "^(٤).

أما المجزئ أو التجزئة ، فهو : " أنّ الشاعر يجزئ البيت من الشعر جميعه أجزاء عروضية ، ويسجعها كلّها على رويّين مختلفين ، وجزءٌ بجزء ، إلى آخر البيت الأول من الجزأين ، على روي مخالف لروي البيت ، والثاني على روي البيت ، كقول الشاعر :

هنديّة لحظاتها ، خطيّة خطراتها ، داريّة نفحاتها "^(٥)

(١) تحرير التحرير ، ص ٢٩٥ ، ومثله قول جنوب الهذلية :

وحرب وردّت وتغرّ سدّت وعلج شدّت عليه الحبالا
ومال حوّيت وخيل حمّيت وضيف قرّيت يخاف الوكالا

انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ . وقد ذكر أنواعاً من التسميط ، وهو عنده باب منفصل عن التسميع .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ ، وخزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٣١٨ . ويظهر اضطرابهما في التفرقة ؛

إذ قال ابن أبي الإصبع : " والفرق بينه وبين التسميط كون أجزائه على روي قافيته " ، أي مقفّى من غير وزن . وقال ابن حجة : " كون أجزاء التسميط غير ملتزمة أن يكون على روي البيت ، وكون أجزائه متّزنة ، فيكون عددها محصوراً " ، أي : موزون من غير تقفية . وهذا اختلاف واضح بينهما في التفرقة ، والأوّل أن يكون التسميط من باب السجع ، فالأخوذ به في السجع أجزاء إما متّفقة في الوزن أو في الروي كما عند العلوي .

(٤) الطراز ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٥) تحرير التحرير ، ص ٢٩٩ .

قال الشيخ أحمد الحملاوي في كتابه (زهر الربيع) : " وهذا النوع قريبٌ من التصريح ومن السجع " ^(١) .

ويوافقه الدكتور حفي شرف وهو يستدرك على ابن أبي الإصبع - في كونه جعل هذا الباب منفصلاً عن السجع - قال : " فكان الأجددُ به أن يجعل التجزئة قسماً من أقسام السجع ، لا باباً مفرداً بذاته ... ولم أرَ من علماء البديع قبل المؤلف من نهَجَ نهجَهُ وفصل التجزئة عن التسجيع ، وعنه أخذ علماء البديع هذه التسمية ، وكانوا مضطربين فيها كاضطرابه أيضاً . انظر : خزانة ابن حجة وأنوار الربيع " ^(٢) .

أما المخمس والمشطور والمنهوك من أقسام الشعر فإنه غير داخل فيما جرى مجرى السجع ، وإن كانت من أنواع التصريح ، كما أشار ابن رشيق ^(٣) .

وعلى أية حال فإن إدخال التسميط والتجزئة فيما جرى مجرى السجع في الشعر هو من التوسّع في باب (السجع) .

وإذا كان ابن حجة لم يعقد على التصريح كبير أمل في عدّه من أنواع البديع عندما قال : " وعلى كلّ تقدير ليس في نوع التصريح كبير أمل حتى يُعدّ من أنواع البديع ، ولكنّ القوم كلّما رغبوا في الكثرة تغالوا في الرخص " ^(٤) .

فإن أقسام الشعر هذه من التجزئة والتسميط أولى بقوله هذا ؛ لذلك أضرب الخطيبُ عنهما صفحاً ، ولم يُشر إليهما أصلاً في باب البديع كلّهُ ، وليس السجع فقط ، وهو مُحَقَّق في هذا ، فالأولى أن تأتي هذه الأقسام عند الحديث عن الشعر وما يتعلّق به كما جاءت عند ابن رشيق ^(٥) .

(١) زهور الربيع ، ص ٢٦٣ .

(٢) تحرير التعبير ، ص ٣٠٠ ، هامش (١) . والذي أظنّه - حسب علمي القاصر - أنّ التجزئة غير موجودة أصلاً عند العلماء قبل ابن أبي الإصبع بهذا المصطلح .

(٣) انظر توضيح كلاً منهما عند ابن رشيق في : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٥ ؛ ليتبيّن لك هذا .

(٤) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٥١ .

(٥) انظر : باب (التصريح والتقفية) ، ص ٣٢٤ ، وباب (في الرجز والقصيد) ، ص ٣٣٩ ، عند ابن رشيق في

العمدة ، ج ١ .

ثانياً : الخلاف في إطلاقه على القرآن الكريم :

" إنَّ نظم القرآن على تصوّف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوبٌ يختصّ به ، ويتميز في تصوّفه عن أساليب الكلام المعتاد " ^(١) .

لذلك وقف العلماء من القول بالسجع فيه مواقف متباينة بين مُجيز لإطلاقه على فواصله ، وبين مانع لهذا الإطلاق ، بل نافياً عنه السجع مطلقاً .

والتباين هذا من سنن البشر ، " فإذا كان نقد الكلام صعباً ، وتمييزه شديداً ، والوقوع على اختلاف فنونه متعذراً ، وهذا في كلام الآدميين ، فما ظنك بكلام ربّ العالمين " ^(٢) ؟!

فمن " أشهر الذين نفوا السجع عن كتاب الله : أبو بكر الباقلاني ، متابعاً في ذلك أبا الحسن الأشعري ... ولعلّ ما كان من أمر السجع في عصره جعله يذهب هذا المذهب ، ويربط السجع باللفظ دون المعنى ، مع علمه بأنّ السجع كثيرٌ في كتاب الله " ^(٣) .

قال ابن حجة معللاً المنع عند بعضهم : " فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازته ، والذي منعَ تمسكَ بقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ ^(٤) ، فقال : قد سمّاه (فواصل) ، فليس لنا أن نتجاوز ذلك " ^(٥) .

وكانت لأبي بكر الباقلاني حُججه وأسبابه في نفي السجع عن القرآن الكريم تبيين

رغم أنّ التسميط يأخذ مفهوماً آخر عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ يقصد أنّ فاصلة الآية أو قافية البيت أو سجعة النثر هي بمنزلة السمط الذي يجمع حبّ العقد ويربطه . انظر : بديع القرآن ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ،
وتحرير التحبير ، ص ٢٩٥ .

(١) إعجاز القرآن ، ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣١٤ .

(٤) سورة فصلت : الآية (٣) .

(٥) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

للمتأمل من خلال كلامه ؛ إذ عقد فصلاً كاملاً لذلك ، مناقشاً مَنْ يقول بالسجع ، وراداً عليه ببيان الإعجاز القرآني وفضله على سائر الكلام ، بل إنّ الغرض من كتابه يكاد يكون هو هذا !.

من هذه الحجج قوله : " والذي يقدرونه أنّه سجع فهو وهم ؛ لأنّه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ؛ لأنّ ما يكون به الكلام سجعاً يختصّ ببعض الوجوه دون بعض ؛ لأنّ السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ؛ لأنّ اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ... " ^(١).

وقال : " ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيّرُوا فيه ، ولكانت الطباع تدعو إلى المعارضة ؛ لأنّ السجع غير ممتنع عليهم ، بل هو عادتهم ، فكيف تُنقضُ العادة بما هو نفسُ العادة ، وهو غير خارج عنها ولا مُتميّز منها ؟! .. " ^(٢).

وفي موضع آخر قال : " لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً ، لكان مذموماً مردوفاً ؛ لأنّ السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه ، كان قبيحاً من الكلام ... وقد علّم أنّ فصاحة القرآن غير مذمومة في الأصل ، فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب " ^(٣).

وقال أيضاً : " وهذا الذي يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيه لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقولوا : هو سجع مُعجز ، لجازَ لهم أن يقولوا : شعراً مُعجز .

وكيف والسجع مما كان يألفه الكهّان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدرُ بأن يكون حُجّةً من نفي الشعر ؛ لأنّ الكهانة تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر " ^(٤).

(١) إعجاز القرآن ، ص ٥٨ ، ٥٩ . والعجيب أنّ السيوطي قال : " ونقل صاحب (عروس الأفراح) عنه :

أنّه ذهب في (الانتظار) إلى جواز تسمية الفواصل سجعاً " . انظر : الإتيان ، ص ٦٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

ومن قال بال منع أيضاً : الرماني قبله ؛ إذ فرّق بين الفواصل والأسجاع ، فقال : " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حُسن إفهام المعاني ، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني ، أما الأسجاع فالمعاني تابعة لها " ^(١) .
وقد ناقش قوله هذا ابن سنان في كتابه (سرّ الفصاحة) ^(٢) .

أما الذين أثبتوا السجع في القرآن فحجّتهم - كما ذكر الباقلائي إذ قال - : " وذهب كثيرٌ ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن ، وزعموا أنّ ذلك مما يتبين به فضل الكلام ، وأنّه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات ، وما أشبه ذلك من الوجوه التي تُعرف بها الفصاحة . وأقوى ما يستدلّون به عليه : اتفاق الكلّ على أنّ موسى أفضل من هارون - عليهما السلام - ، ولمكان السجع قيل في موضع ﴿ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ^(٣) ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون ، قيل : ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ^(٤) " ^(٥) .

وإنّه " لو كان مذموماً لَمَّا ورد في القرآن الكريم ، فإنّه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنّهُ ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر .. وغيرهما ، وبالجمله فلم تخلُ منه سورة من السُور " ^(٦) .

(١) التكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٧ ، ووافقه في ذلك الباقلائي . انظر : إعجاز القرآن ، ص ٢٧٠ .
(٢) راجع : سرّ الفصاحة ، ص ١٧٣ . من ذلك قوله : " فأما قول الرماني : " إنّ السجع عيب ، والفواصل بلاغة " على الإطلاق فغلط ؛ لأنّه إن أراد بالسجع ما يكون تابِعاً للمعنى وكأنّه غير مقصود ، فذلك بلاغة ، والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلّف ، فذلك عيب ، والفواصل مثله ، وكما يعرض التكلّف في السجع عند طلب تماثل الحروف ، كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف " . انظر : ص ١٧٤ .

(٣) سورة طه : الآية (٧٠) .

(٤) سورة الأعراف : الآية (١٢٢) .

(٥) إعجاز القرآن ، ص ٥٧ . وقد ناقش الباقلائي ما استدّلوا به بإفاضة ليس هذا مكانها . انظر : ص ٦١ ، ٦٢ من كتابه .

(٦) المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

ويكفي في حُسن السجع ورود القرآن به ، ولا يقدح في ذلك خلوه في بعض الآيات ؛ لأنّ الحسن قد يقتضي المقام الانتقال إلى أحسن منه^(١).

قال ابن سنان : " وَحُجَّة مَنْ يَخْتَارُهُ أَنَّهُ مُنَاسِبَةٌ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ يُحَسِّنُهَا ، وَيُظْهِرُ آثَارَ الصَّنْعَةِ فِيهَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ " (٢).

وتحامل ابن الأثير على مَنْ يَنْفِي السَّجْعَ ، فَقَالَ : " وَقَدْ ذَمَّهُ بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِنْ أَرْبَابِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَلَا أَرَى ذَلِكَ وَجْهًا سِوَى عَجْزِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِهِ " (٣).

وعقد فصلاً مطوّلاً في السجع وتكلّف فيه ، إلى أن جعل ما ورد من نظم القرآن غير مسجع لإرادة الإيجاز والاختصار .. استمع إليه يقول^(٤) : " ... إِنْ أَكْثَرَ الْقُرْآنَ مَسْجُوعٌ ، حَتَّى إِنَّ السُّورَةَ لَتَأْتِي جَمِيعُهَا مَسْجُوعَةٌ ، وَمَا مَنَعَ أَنْ يَأْتِيَ الْقُرْآنُ كُلَّهُ مَسْجُوعاً إِلَّا أَنَّهُ سَلَكَ بِهِ مَسْلَكَ الْإِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ ، وَالسَّجْعُ لَا يُوَاتِي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى حَدِّ الْإِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ ، فَتَرَكَ اسْتِعْمَالَهُ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ لِهَذَا السَّبَبِ " (٥).

قال الدكتور أحمد موسى معلّقاً عليه : " وتلك جرأة وبُعد عن هدف التوفيق من ابن الأثير ؛ إذ كلامه يعطي أنّ الله - سبحانه وتعالى - ترك السجع إلى غيره ؛ لأنّه لا يؤتى في كلّ موضع على حدّ الإيجاز والاختصار ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً " (٦).

(١) انظر : الإتيان ، ص ٦٧٥ ، بتصرّف يسير ، نقلاً عن ابن النفيس . وانظر : ما نقله الزركشي عن أبي الحسن حازم القرطاجني حول هذا ؛ إذ يقول : " وكيف يُعَاب السجع على الإطلاق ، وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب ، فوردت الفواصل فيه يازاء ورود الأسجاع في كلام العرب ... " . انظر : البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ١٧١ .

(٣) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٤) الصبغ البديعي ، ص ٤٦ ، بتصرّف .

(٥) المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٦) الصبغ البديعي ، ص ٤٧ ، هامش (١) .

ومثل هذا التعليق ينطبق أيضاً على قول آخر لابن الأثير ؛ إذ قال : " وهاهنا وجه آخر هو أقوى من الأول ، ولذلك ثبت أنّ المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، وإنّما تضمّن القرآن غير المسجوع ؛ لأنّ ورود غير المسجع معجزاً أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع ، ومن أجل ذلك تضمّن القرآن القسمين جميعاً " ^(١) .

فما في القرآن كلّ معجز وأبلغ في باب الإعجاز ، سواء المسجوع منه وغير المسجوع ، وهذا تكلف من ابن الأثير دفعه إليه تحامله في الردّ على من ينفي السجع ويحظر إطلاقه على ما في القرآن الكريم .

والقول العدل في هذا الخلاف هو أنّه ربما يكون عذر من نفى السجع عن القرآن هو شيوعه في كلام المتأخرين ، فأصبح قيداً أفقد الكلام رواءه ومعناه ، وحلية جعلت الناس ينفرون منه وينهون عنه ، كما نهى النبي ﷺ عن سجع الكهّان ^(٢) ، لكن كما قال أبو هلال العسكري : و " جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمّن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق . ألا ترى قوله عزّ اسمه : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ﴿ فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا ﴾ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ^(٣) ، قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا الجرى ، من مثل قول الكاهن : والسماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض ^(٤) ؟ ! . ومثل هذا من السجع مذموم ؛ لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا ما قال النبي ﷺ لرجل ، قال له : أندي ^(٥) من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهلّ ، فمثل ذلك يُطل ^(٦) :

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

(٢) من مقال للدكتور أحمد مطلوب ، بعنوان : (القرآن الكريم والبديع) ، مجلّة الرسالة الإسلامية ، عدد (١٥٥) ،

صادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في الجمهورية العراقية ، ص ٤٢ ، بتصرف يسير .

(٣) سورة العاديات : الآيات (١-٥) .

(٤) (البرض) : القليل ، وماء برض : قليل ، وهو خلاف الغمر .

(٥) (أندي) : من الدّية ، وذلك حقّ القتل .

(٦) (يُطل) : من طلّ دمه : إذا أهدره .

« أسجعاً كسجع الكُهان » ؛ لأنّ التكلّف في سجعهم فاشٍ ، ولو كرهه - عليه الصلاة والسلام - لكونه سجعاً لقال : « أسجعاً » ؟. ثمّ سكت . وكيف يذمّه ويكرهه ، وإذا سلم من التكلّف ، وبرئ من التعسّف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه !؟ .
وقد جرى عليه كثيرٌ من كلامه عليه السلام " (١) .

وعليه فإنّه لا حرج من إطلاق اسم الأسجاع على الفواصل القرآنية .

وقد " ربط الخليل بن أحمد السجع بالفواصل ، فقال : سجع الرجل : إذا نطق بكلام له فواصل ، كقوافي الشعر من غير وزن " (٢) .

وكذلك ابن جني ؛ إذ قال : " سُمّي سجعاً ؛ لاشتباه أواخره وتناسب فواصله " (٣) .

وإذا كان هناك مَنْ يحتجّ بالصنعة والتكلّف والتعسّف ، فإنّها " ليست أموراً مقصورة على أسلوب السجع ، وإنّما هي أمور من الجائز أن تلحق بالسجع كما تلحق بغيره من الأساليب ، وليس العيب في السجع ذاته ، وإنّما العيب فيمن يحاوله ثمّ يعجز عن حسن استخدامه " (٤) ، إلا أنّ هناك فرقاً بين قول " يُنحت من الصخر تارةً ، ويذوبُ تارةً ، ويتلوّن تلوّن الحِرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر في تصرّفه اضطرابه ، وتتقاذف به أسبابه ، وبين قولٍ يجري في سبكه على نظام ، وفي رصفه على منهاج ، وفي وضعه على حدٍّ ، وفي صفائه على باب ، وفي بهجته ورويقه على طريق ، مُختلِفُهُ مؤتلف ، ومُؤتلفُهُ مُتّحد ، ومتباعده متقارب ، وشارِدُهُ مُطيع ، ومُطيعُهُ شارِد ، وهو على مُتصرّفاتِه واحد ، لا يُستصعبُ في حال ، ولا يتعقّدُ في شأن " (٥) .

(١) الصناعتين ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣١١ ، (نقلاً عن العين ، ج ١ ، ص ٢١٤) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣١١ . ولم يذكر الدكتور أحمد مطلوب المصدر الذي نقل منه ، ولم أعثر عليه في كتاب (الخصائص) .

(٤) علم البديع ، ص ٢٢٣ .

(٥) إعجاز القرآن ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

فالسجع فيه على أرفع نهاياته وأبعد غاياته ، فإذا تتبعت مثلاً سورة طه أو الأعلى أو الليل ، فإنك تجد سجعاتها وقد بُنيت على الألف اللينة ، ليس فيها حرفاً مُستجلباً مستكرهاً ، إنما واقعاً في محله برضا واطمئنان مُستقراً من غير إقرار ، ولا تجد فاصلة قلقة مضطربة ، إنما هي آتية منسجمة مع السياق منساقة ، وعليه فإنّ السجع في تلك السور وفي غيرها من سور القرآن الكريم قد أتى خدماً وطوعاً للمعنى فانقاد له ، " والمخدوم - لا شك - أشرف من الخادم . والأخبار في التلطف بعذوبة الألفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من أن يؤتى عليها ، أو يتجشّم للحال (نعت لها) " ^(١) . وهذا هو سرّ السّحر الذي يفيض ، وسرّ العذوبة التي تقطر عندما تقرأ هذه السور ، فتستلذّ بتكرارها ثم لا تبلى معانيها على كثرة التكرار والردّ ، " وهكذا فكلّ ما جاء في القرآن من سجع يأخذ هذا الحكم ؛ مما جعله يفيض سحراً ، ويقطر عذوبةً ، ويسيل رِقّةً ، وتترامى في تضامينه مواطن سجود البلغاء والفصحاء " ^(٢) .

" ذكر الزمخشري في كشافه القديم أنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها ، على النهج الذي يقتضيه حُسن النظم والثّامه ، كما لا يحسن تخيّر الألفاظ المونّقة في السمع ، السّلسة على اللسان ، إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة ، فأما أن تُهمل المعاني وتُسَيَّب ، ويجعل تحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤاده على بال ، فليس من البلاغة في فتيل ولا نقيير . ومع ذلك أن يكون قوله : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ^(٣) ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، لا يتأتى فيه ترك رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إثارةً للفاصلة ؛ لأنّ ذلك أمر لفظي لا طائل تحته ، وإنما عدل إلى هذا لقصد الاختصاص " ^(٤) .

وهذا هو الذي ذهب إليه عبد القاهر من بعد في معرض حديثه عن الجناس والسجع ؛ إذ يقول : " أنّ المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول ، هو أنّ المتكلّم لم يقْد المعنى

(١) الخصائص ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ . وفي نسخة أخرى : (تعب لها) .

(٢) الصبغ البديعي ، ص ٤٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية (٤) .

(٤) البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٦٤ . وكذلك نقله السيوطي عن الزمخشري في الإتيان ، ص ٦٨٨ .

نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما ، وعثر به عليهما ، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع ، لدخل من عقود المعنى وإدخال الوحشة عليه ، في شبهة بما يُنسب إلى المتكلف للتجنيس المستكره ، والسجع النافر ^(١) .

وكما أنه لن يُقلل من قيمة السجع أن نسميه (فواصل) ، كذلك لن يُقلل من قيمة الفواصل حين نسميها (أسجاعاً) ، وكما أن الفواصل حروف مشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني - كما ذكر الرماني - ، وتبعه الباقلاني ، فالسجع كذلك يقع به إفهام المعاني كما ذهب إلى ذلك عبد القاهر والزمخشري وابن الأثير ^(٢) .

قال ابن سنان : " وأظنّ أنّ الذي دعا أصحابنا إلى تسمية ما في القرآن فواصل ، ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام ، والمروي عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه ؛ لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعاً ، وبين مشاركة جميعه في كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ، ومؤلفاً ، وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان ، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع " ^(٣) .

إلا " أنّ من مزايا السجع في القرآن الكريم شدة ارتباط الفاصلة بما قبلها من الكلام ، بحيث تنحدر على الأسماع انحداراً ، وكأنّ ما سبقها لم يكن إلا تمهيداً لها ، وبحيث لو حذفت لاختلّ معنى الكلام ، ولو سكت عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها ، انسياقاً مع الطبع ، والذوق السليم " ^(٤) .

ورغم ما يشيعه السجع من إيقاع حسن ، وموسيقى متناغمة ، إلا أنه في القرآن يتجاوز هذه الصورة الحسّية اللفظية إلى " ما استتر فيه من بدائع الأسرار ،

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٤ .

(٢) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣١٤ ، بتصرف .

(٣) سرّ الفصاحة ، ص ١٧٤ .

(٤) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٤٣ .

ودقائق الأغراض" ^(١)، لذا قال عبد القاهر : " فلو لم يكن التحديّ إلاّ إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي ، لم يُعوزَهم ذلك ، ولم يتعذّر عليهم . وقد خيّل إلى بعضهم - إن كانت الحكاية صحيحة - شيءٌ من هذا ، حتى وضع - على ما زعموا - فصول الكلام أو آخرها كأواخر الآي ، مثل : (يعلمون) و(يؤمنون) وأشباه ذلك . ولا يجوز أن يكون الإعجازُ بأن لم يلتقِ في حروفه ما يثقل على اللسان " ^(٢) .

وأختم القول في الحديث عن الخلاف في إطلاق السجع على القرآن الكريم بأنّ الخصوصية في إطلاق الفواصل على أسجاع القرآن أو إطلاق الأسجاع على الفواصل القرآنية قائمة بقيام صفة الخصوص والعموم بين الأسجاع والفواصل ؛ إذ الفاصلة أعمّ ، والسجع أخصّ .

قال ابن سنان : " والذي يجب أن يحرّر في ذلك أن يُقال : إنّ الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه ، والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعاً ، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لا يكون سجعاً ، وهو ما تقارب حروفه في المقاطع ولم تتماثل ، ولا يخلو كلّ واحدٍ من هذين القسمين - أعني التماثل والتقارب - من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني ، وبالضدّ من ذلك ، حتى يكون متكلّفاً يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدالّ على الفصاحة وحُسن البيان ، وإن كان من الثاني فهو مذمومٌ مرفوض ، فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود ؛ لعلوّه في الفصاحة ، وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة ، فمثال التماثلة قوله تعالى :

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٣٨٧ . وقال في موضع آخر : " أم ترى أنّ ابن مسعود حين قال في صفة القرآن : (لا يَتَفَهُ ولا يَتَشَانُ) ، وقال : (إذ وقعت في آل حم ، وقعت في روضات دُمثاتٍ أتأَنَّقُ فيهنّ) ، أي : أتتبع محاسنهنّ ، قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ، ومن أجل الفواصل في أواخر الآيات " . انظر : ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ .

(لا يَتَشَانُ) : لا يخلق ، وهو مأخوذ من (الشنّ) ، وهو الجلدُ الخلقُ البالي . و(يستشنّ) : يصير شناً بالياً ، و(يَتَفَهُ) من الشيء : (التافه) ، أي لا يُتبدّل حتى يلحق بالخشيس ، و(دمثات) : جمع (دمثة) ، وهي المخصبة اللينة السهلة المعشبة ، كما جاء في تعليق الشيخ محمود شاكر .

﴿ وَالطُّورِ ﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ^(٢) ، وجميع هذه السورة على هذا الازدواج ، وهذا جائز أن يسمى سجعاً ؛ لأنّ فيه معنى السجع ، ولا مانع في الشرع يمنع من ذلك ، ومثال المتقارب في الحروف قوله تبارك وتعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ^(٣) ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ق~ ﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿ ^(٤) ، وهذا لا يسمى سجعاً ؛ لأنّا قد بينّا أنّ السجع ما كانت حروفه متماثلة " ^(٥) .

ونقل السيوطي عن ابن أبي الإصبع أنّ فواصل القرآن لا تخرج عن أحد أربعة أشياء : التمكن ، والتصدير ، والتوشيح ، والإيغال ^(٦) .

ومما يدلّ على عموم الفواصل : أنه يكثر فيها التضمن والإيطاء كما ذكر السيوطي ^(٧) .

أما عن الترصيع فقد ذكر الزركشي أنّه " لم يجئ هذا القسم في القرآن العظيم ؛ لما فيه من التكلف " ^(٨) .

(١) سورة الطور : الآيات (١-٣) .

(٢) سورة القمر : الآيات (١-٣) .

(٣) سورة الفاتحة : الآيتان (٣-٤) .

(٤) سورة ق : الآيتان (١-٢) .

(٥) سرّ الفصاحة ، ص ١٧٣ . وهو ما تبعه فيه الزركشي في البرهان ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، والسيوطي في الإتيان ، ص ٦٨٨ .

(٦) الإتيان ، ص ٦٨٨ .

(٧) البرهان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٦٨ . والتضمن هو أن يكون ما بعد الفاصلة متعلّقاً بها ، كقوله

تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ وَبِاللَّيْلِ ... ﴿ [سورة الصافات : الآيتان (١٣٧-١٣٨)] . أما

الإيطاء فهو تكرّر الفاصلة بلفظها ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ كُنْتَ إِلَّا بُشْرًا رَسُولًا ﴾ [سورة الإسراء :

الآية (٩٣)] ، وختم بذلك الآيتين بعدها .

(٨) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

السجع بين ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني :

التسجيع !! هكذا سمّاه ابن أبي الإصبع ، وليس بمستغرب عليه أن يتخيّر هذه الصيغة ؛ إذ كانت هي المحببة إلى نفسه ، وتُشبع فيها رغبة ما ، إما بالتفرد والإتيان بالعجيب ، وإما لشيء آخر غير معلوم ؛ لأنها تكرّرت كثيراً في أبوابه ، فسَمَّى (التزويد) و(التجنيس) و(التوهيم) و(التفصيل) و(التوليد) و(التخير) و(التنظير) و(التمزيج) و(التشكيك) و(التندير) ... إلخ .

وفي صفحة واحدة فقط أنهى ابن أبي الإصبع كلّ كلامه عن هذا اللون البديع دون تعليق ولا تحليل ، ولا حتى لشاهد واحد على غير عادته ، وهذا مستغربٌ منه ومستنكرٌ عليه ، وكأنّه مُستقلٌّ بهذا الفنّ العريق الضارب بجذوره في عمق البيان العربي .

فهل كان كذلك ؟ . قطعاً لا ! .

فهذا الإيجاز الشديد والضرب صفحاً عن مناقشاته الذوقية وتحليلاته الفنية وموازناته الأدبية التي عوّد القارئ عليها في كتابه قد وجدته عنده أيضاً في أبواب آخر ، كـ(التحليل)^(١) و(المماثلة)^(٢) و(الاستخدام)^(٣) و(الكناية)^(٤) و(التسليم)^(٥) و(التكرار)^(٦) .. وغير ذلك . وربما يعود هذا إلى أمرين : إما لتفاوت الأبواب عنده من حيث الأهمية ، أو لأنه يفرد لأقسام الباب الواحد أو لفروعه أبواباً أخرى ، وهذا مرّ من قبل في بعض المباحث ، كالطباق ، ومراعاة النظير ، ولعلّه في التسجيع كذلك ؛ لأنّ ما ضمّه الخطيب إلى باب السجع من الترصيع والتشطير والتصريع عقد لها ابن أبي الإصبع أبواباً منفصلة عن التسجيع ، بل هي منفصلة عن كتابه (بديع القرآن) في الأصل على اعتبار أنّه لم يقع ورودها في القرآن الكريم

(١) انظر : بديع القرآن ، ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٥١ .

أو لا تليق به ، فالقرآن ليس بشعر ، ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾^(١) ، ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) ، بل ذهب ابن الأثير وتبعه العلوي إلى أن التزصيع لا يوجد في كتاب الله منه شيء لما هو عليه من زيادة التكلف ، والقرآن جاء بالأخف والأسهل دون التعمق^(٣) .

أما الخطيب القزويني فقد أعطى السجع حقه من السعة والبيان ، واحتوى ما وزّعه ابن أبي الإصبع من السجع في أبواب متفرقة ، فجعلها تحت مظلتها ، ومعقودة بناصيته ، وفضل تسمية هذا اللون البديعي بالسجع ، وهي صيغة أخف وألطف من الصيغة التي ذكرها ابن أبي الإصبع .

والفرق بين الصيغتين : أن السجع من الفعل (سَجَعَ) ، ومصدره (سَجْعًا) ، والتسجيع من الفعل الثلاثي المزيد بتضعيف العين (سَجَّع) ، وهو يدل على المبالغة في الفعل والقصد إليه والتعمد ، وهذا مما لا يستحسن في السجع .

ولا شك أن الصيغة التي استخدمها جلال الدين الخطيب أخف وأليق بهذا اللون ، وهي صيغة تدل على لزوم عفويته والبعد عن تكلف الصنعة فيه ، وربما كان زكي الدين المصري معبراً عما يكون في السجع من إتقان الصنعة فيه ، أو دالاً على فخامة ومكانة هذا اللون العريق ، لذا اختار له هذه التسمية اللائقة بشواهد القرآنية حسبما يراه ويعبر به عن وجهة نظره .

(١) سورة يس : الآية (٦٩) .

(٢) سورة الحاقة : الآية (٤١) .

(٣) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

وأضافا إلى أن من ذهب إلى أن في كتاب الله منه شيئا ، ومثله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ ، فليس الأمر كما وقع له ؛ فإن لفظة (لفي) قد وردت في الفقرتين معاً ، وهذا يخالف شرط التزصيع الذي شرطناه ، لكنه قريب منه . إلا أن العلوي كان في حكمه أقل حدة .

تعريف السجع :

عرّفه ابن أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) : " أن يتوخّى المتكلم تسجيع جُمْل كلامه " ^(١).

وعرّفه الخطيب قائلاً : " هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرفٍ واحد " ^(٢).

ثمّ أضاف مستأنساً بقول أستاذه السكاكي : " وهذا معنى قول السكاكي : الأسجاع في النثر كالقوافي في الشعر " ^(٣).

فيُلاحظ أنّ الإيجاز في التعريفين واضح عندهما ، وهو مشترك بينهما ، إلا أنّهما يفترقان من جهات ، أهمّها :

* حرص ابن أبي الإصبع كعادته على ذكر المتكلم ليربط بينه وبين جودة السجع ، بينما وجّه الخطيب كلامه إلى السجع وحده دون متعلّق به .

(١) بديع القرآن ، ص ١٠٨ . وهو تعريف يختلف عنه في كتابه (تحرير التحبير) ؛ لخصوصية كلّ من الكتّابين ؛ إذ جاء فيه : " وهو أن يتوخّى المتكلم أو الشاعر في أجزاء كلامه ، بعضها غير متزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عددٍ معين ، بشرط أن يكون رويّ الأسجاع رويّ القافية " . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٠ . ولاحظ أنّ مفعول (يتوخّى) غير مذكور ، إنما انطلق إلى صفة (أجزاء الكلام) مباشرة .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨١ ، وانظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٣١ . وقد سمّاه (الأسجاع) ؛ إذ قال صاحبه : " ومن جهات الحسن الأسجاع : وهي في النثر كما في القوافي في الشعر " . وهذا دالٌّ على تأثر الخطيب بالسكاكي واحتفاله بمنهجه ؛ إذ يستشهد بأقواله ويكثر أحياناً من ذكره . راجع الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي ، فصل (البلاغة بين السكاكي والقزويني) ، ص ١٧١ .

إلا أنّ هذا الاستئناس كان محلّ اعتراض عند السعد ؛ إذ قال : " وفيه بحث ؛ لأنّ القافية هو لفظ آخر البيت إما الكلمة برأسها ، أو الحرف الأخير منها ، أو غير ذلك على تفصيل المذاهب . ولا تطلق القافية على تواطؤ الكلمتين من أواخر الأبيات على حرفٍ واحد ، وإنّما أراد السكاكي بالأسجاع حيث قال : إنّما هي في النثر كالقوافي في الشعر ، الألفاظ المتواطئة عليها في أواخر الفقر ، وهي التي يُقال لها : الفواصل ؛ ولذا ذكرها بلفظ الجمع . والحاصل أنّه لم يرد بالأسجاع معنى المصدر كما أراده المصنف " . انظر : المطول ، ص ٦٩٥ .

* لم يوضح ابن أبي الإصبع التسجيع ما هو ، فليس في كلامه حقيقة ما يُبين أو يعرف ماهية السجع . فانظر إلى الانفصال الشديد بين عنوان الباب والتعريف ، لقد نقل لفظة العنوان فقط - وهي (التسجيع) - وأقحمها في التعريف دون بيان لها أصلاً ، فظلّ التعريف عنه ضائعاً غائباً مبهماً ، بينما كان الخطيب دقيقاً في هذا غاية الدقة قبل البيان والوضوح ، فقف عند كلمة (تواطؤ) ثم انطلق إلى (الفاصلتين) فاستقر عند (حرف واحد) ، فإنك ستجد أنّ هذا هو السجع عينه ، وهو المرآة التي تعكس صورته . فياللروعة وبالنضارة التوفيق !!.

* لم يتطرق ابن أبي الإصبع إلى ذكر النثر أو الشعر في تعريف السجع ، فشواهده متنوعة أصلاً ما بين قرآنٍ ونثرٍ وشعرٍ أيضاً ، وفي (بديع القرآن) .

أما الخطيب فذكر النثر في تعريفه ؛ لأنه يرى أنّ السجع لا يكون إلا في النثر ، وعندما استشهد عليه من الشعر فإنه ذكره تحت الخلاف في إطلاقه في القرآن والشعر ، حيث قال : " وقيل : السجع غير مختصّ بالنثر ، ومثاله من الشعر ... " ^(١) .

وكأنه بقوله هذا يُقلّل من شأن وقوعه في الشعر رغم ما ذكره من أمثلة شعرية داخلية في التشطير والتصريح ، كما سيأتي .

أقسام السجع :

من المهمّ جداً الإشارة هنا إلى أنّ أقسام السجع تتفاوت عند كلٍّ منهما حسب وجهة نظره التي تنطلق من مفهومه الخاص للسجع .

فلما كان التسجيع عند ابن أبي الإصبع هو ذاك اللون الموجز المحدّد ، المحصور في تلك

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٥ . ذكر عصام الدين أنّ قوله : وقيل إنه " لا يقال في القرآن أسجاع ... إلخ ، وقوله : وقيل غير مختص بالنثر ، عدل لقوله : وقيل هو تواطؤ الفاصلتين " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ . وهذا غير صحيح ؛ لأنّ الخطيب في تعريفه للسجع لم يقل : (وقيل) هو تواطؤ الفاصلتين ؛ إذ لم ترد لفظة (قيل) في (الإيضاح) ، ولا حتى في (التلخيص) . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨١ ، والتلخيص ، ص ٢٠٥ . وهذا اتهام للخطيب بأنّه ليس له رأي كما يفهم من كلام ابن عربشاه .

الصيغة ووجودها في القرآن والشعر والنثر ، جاءت أضرب السجع عنده تمثل هذه النظرة ، فقال : " وهو على ضربين : ضرب تأتي الجمل المسجعة مجملة مدججة في الجمل المهملة ، وضرب تأتي فيه الجمل المسجعة منفردة " (١) .

ومثل على الأول بقول ديك الجن :

حُرُّ الإِهَابِ وَسَيْمُهُ ، بَرُّ الإِيَابِ كَرِيمُهُ ، مَحْضُ النَّصَابِ حَمِيمُهُ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ ق ~ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ (٤) .

ومثل على الثاني بقول أبي تمام :

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي ، وَأَثَرَتْ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ ثَمْدِي ، وَأَوْرَى بِهِ زُنْدِي (٥)

وقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (٦) .

(١) بديع القرآن ، ص ١٠٨ .

(٢) ذكر د. حفني شرف أنه لم يعثر على هذا الشعر لديك الجن . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٠ .

وقد وردت القافية في تحرير التحبير ، هكذا : (صَمِيمَة) . انظر : ص ٣٠٠ .

(وسيمه) : السيمَة والسيماء والسيمياء - بكسره - العلامة ، وسوم الفرس تسويماً : جعل عليه سيمَة - وفلاناً : خلاه ، وسومه لما يريد ، أو الوسم : أثر الكي ، ج : وسوم ، والوسام ، والسمة - بكسرها - : لما وُسم به الحيوان من ضروب الصور ، والوسامة : أثر الحسن ، (الإياب) : الرجوع ، (كرمه) : أنفه وكل جارحة شريفة ، كالأذن واليد ، (حمتك) - بالكسر - : أي حميتك ، أي طاب عرقك .

(٣) سورة ق : الآيات (١-٣) .

(٤) سورة الأحزاب : الآية (٣٥) .

(٥) سبق توضيح معاني هذا البيت .

(٦) سورة الرحمن : الآيات (١-٦) .

وانتهى عند هذا الحد حديثه في باب السجع .

وبالنظر إلى الشواهد ، يُفهم الفرق بين الضريين ؛ إذ يقصد من الأول أنّ الجمل المسجّعة تأتي مُجملة غير منفردة ، ومدججة في جُمل أخرى مهملة من السجع ، إلا أنّ الجمل في قوله تعالى : ﴿ ق ~ * وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ، هي جُمل مُجملة نعم ، لكنّها غير مسجّعة ، أو لا يظهر فيها السجع إلا باستكمال الآية ، كما ذكر الدكتور حفي شرف^(١) ، وبقية الآية هو قوله تعالى : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ، وبقية الآية هذه يظهر فقط أنّها مدججة في جمل مهملة مع السجع ، وهي جملة الآية الثانية ، رغم أنّ السجع " لا يحصل من فقرة أو قرينة واحدة ، بل لا بدّ من قرينتين بينهما اتفاق ... وهذا أدنى حدّ للسجع "^(٢).

وشاهده الشعري على هذا الضرب أيضاً فيه نظر ، وهو قول ديك الجن :

* حُرُّ الْإِهَابِ *

فليست هذه الجمل المسجّعة مجملّة أولاً ، بل لا تفترق عن قول أبي تمام الذي استشهد به على الضرب الثاني - وهو التي تأتي فيه الجمل المسجّعة منفردة - ، بل هو أشدّ منه تمثيلاً وتطابقاً على هذا النوع الثاني ، بالإضافة إلى أنّه لم يكن داخلاً في جمل مهملة من السجع ؛ لأنّه كما بين (وسيمه وكريمه وحميمه) سجع ، كذلك بين (الإهاب والإياب والنصاب) سجع أيضاً .

فأين ما يقصده من دمج جمل مسجّعة مع جمل مهملة من السجع ؟.

هذا بالنسبة للمآخذ عليه في الضرب الأول ، أما الضرب الثاني فشواهد تنطبق مع تعريفه لهذا الضرب ، خاصّةً وأنّه لم يشترط في هذا الضرب أن تكون جُمله المسجّعة مدججة في جمل مهملة من السجع .

(١) انظر : بديع القرآن ، ص ١٠٨ ، هامش (٣) .

(٢) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٨ .

وهذه الشواهد الشعرية عند ابن أبي الإصبع تقابل شواهد الخطيب القزويني كما تحدث
عن السجع في الشعر ، حيث قال - كما مرّ - : " وقيل : السجع غير مختصّ بالنثر ^(١) ،
ومثاله من الشعر قول أبي تمام :

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي ، وَأَثَرَتْ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ ثَمْدِي ، وَأَوْرَى بِهِ زُنْدِي
وكذا قول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْ سِدِّي الطَّرِيقَةِ ، نَفَّاعُ وَضَرَارِ ^(٢)
وكذا قول الآخر :

وَمَكَارِمُ أَوْلَيْتِهَا مُتَبَرِّعًا وَجَرَائِمُ الْغَيْثِهَا مُتَوَرِّعًا ^(٣) " ^(٤)
وشاهد آخر هو :

وَرَشْدُ نَدَى فَوَاضِلِهِ وَرِيٍّ وَرَشْدُ رَبِّي فَضَائِلِهِ نَضِيرٌ ^(٥)

(١) اعترض السبكي على عبارة الخطيب هذه ، وقال : " وهي عبارة مقلوبة ، والصواب أن يقول : " النثر
غير مختصّ بالسجع " ؛ لأنّ اختصاص السجع بالنثر أن لا يكون شيء من النثر إلا مسجعا ، وهذا لا
يقوله أحد ، واختصاص النثر بالسجع أن لا يكون السجع إلا نثرا ، وهو المقصود " . انظر : عروس
الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩٣-٣٩٤ .

وظني أنّ هذا لَيَّ لعنق العبارة تدع القارئ معها في (حيص بيص) ، ولن يفهم إلا السهولة الواقعة في
عبارة الخطيب ، فالأذن تستسيغها ، لاسيما وأن الحديث إنما هو عن السجع وليس عن النثر .

(٢) (الحقيقة) : ضدّ المجاز ، وما يحقّ عليك أن تحميه ، يُقال : فلان حامي الحقيقة ، وحقيقة الرجل : ما
يلزمه حفظه ومنعه ، ويحقّ عليه الدفاع عنه من أهل بيته ، وجمعها (الحقائق) . انظر : القاموس المحيط ،
باب (القاف) ، فصل (الحاء) ، ص ١١٢٩ . (الخليقة) : الطبيعة .

(٣) (أوليتها) : أعطيتها ، (متبرعا) : أي متفضلا بالعطاء بما لا يجب عليه ، وفعله متبرعا : متطوعا ،
(أغيتها) : أبطلتها ، (متورعا) : متحرّجا متقيا .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٥) (الزند) : العود الذي يقتدح به النار ، (الفواضل) : العطايا ، و(الوري) : زند النار ، فمن يقدحه يظفر

وكأنّ شواهد الرجلين الشعرية خاصة تنطبق جميعها على تعريف التسجيع في (تحرير التحبير) من أنّ بعض الأجزاء المسجّعة في الشعر غير متّزنة بزنة عروضية ولا محصورة في عددٍ معيّن^(١)، غير أنّ كلا الرجلين لم يُدخلا أيّاً من تلك الشواهد في التصريح مثلاً أو التشطير أو الترصيع .

فيمكن لبّيت أبي تمام أن يدخل في التشطير مثلاً^(٢)، ويمكن لبّيت الآخر :

* وَمَكَارِمُ أَوْلَيْتَهَا *

أن يدخل في التصريح ، ويدخل في الترصيع أيضاً^(٣) . وإن كان الخطيب لم يستشهد له إلا من النثر ، مثل قول أبي الفتح البستي : " ليكن إقدامك توكلّاً ، وإحجامك تأملاً " .. وغيره^(٤) .

ويمكن لبّيت ديك الجن الذي استشهد به ابن أبي الإصبع ، والشاهد الأخير الذي

عمراده ، وورّى الزّند ، فهو وارٍ ووريّ : خرجت ناره ، و(الزند) : شجر طيب الرائحة ، والعود ، والآس ، وشبهه جوالق صغير من الخوص ، و(الرّبي) : جمع ربوة ، وهي ما ارتفع من الأرض .

وذكر ابن معصوم البيت الثاني بعده ، وهو :

ودرّ جلاله أبداً ثمين ودُرّ نواله أبداً غزير

انظر : أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٦٢ ، وقد علّق السبكي على شواهد الخطيب الشعرية ، فقال : " والذي يظهر أنّ المعنى بالسجع في النظم ، ما لم تكن كلّ قرينة منه بيتاً كاملاً ، فإنّ القرينتين في البيت الواحد لا يصدق عليهما بمجردهما النظم ، فإنّهما لو تجردا عن بقية البيت لم يكونا نظماً ، فلا خلاف في المعنى " .

انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩٤ .

(١) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٠ .

(٢) والتشطير هو : أن يجعل كلاً من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

وقد أدخله ابن أبي الإصبع في التجزئة أيضاً ، وهذا دالٌّ على اضطرابه كما ذكر الدكتور حفي شرف ، خاصة وأنّ ما أورده فرقٌ بين التجزئة والتسجيع من أنّه اختلاف زنة أجزاء البيت ومجيئها على غير عدد محصور معيّن لا ينهض دليلاً قوياً على التفرقة بينهما . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٠ ، هامش (١) .

(٣) التصريح : هو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

والترصيع : هو أن يكون ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٤) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

استشهد به الخطيب أن يدخل في الترصيع ، وكذلك قول الخنساء^(١) ، وقول ذي الرُّمة الذي ذكره القزويني في (التلخيص)^(٢) ، غير أن العالمين الفاضلين فضلاً أن يخصّا كل من تلك المصطلحات بشواهد خاصة وحديث خاص ، كما سيأتي .

وبالعودة إلى أقسام السجع عند الخطيب أو أضربها ، فإنها تتسع وتستوعب أضرب السجع عند ابن أبي الإصبع ، بل وتتعدّها وتخرجها من دائرة الجمل المجملة المدججة في المهملّة أو الجمل المنفردة إلى سجع مطرّف ، وسجع مرصّع ، وسجع متوازٍ ، حيث قال : " وهو ثلاثة أضرب : مطرّف ، ومتوازٍ ، وترصيع^(٣) " (٤) .

(١) وقول الخنساء هذا عدّه العلوي من الترصيع الناقص ، وهو اختلاف الوزن واستواء الأعجاز ، ولم يعتد به ابن الأثير ؛ لأنّ الترصيع عنده هو اجتماع الفقرتين في الوزن والقافية أصلاً ، رغم أنّ أكثر البلاغيين اعتبره معدوداً من الترصيع ، وإن كان مخالفاً في الزّنة .. انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، والمثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(٢) وهو قوله :

كَخَلَاءٍ فِي بَرْجٍ ، صَفْرَاءٍ فِي نَعِجٍ كَأَنَّهُمَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ

من بائيته الشهيرة التي وجهها إلى محبوبته (مي) ، والتي مطلعها :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُمَا مِنْ كُلِّ مَغْرِيَّةٍ سَرِبُ

انظر : التلخيص ، ص ٢٠٦ ، وإن ذكر ابن الأثير في البيت المقصود أنّ صدره مرصّع ، وعجزه خالٍ من الترصيع ، وعذر الشاعر في ذلك واضح ؛ لأنّه مقيد بالوقوف مع الوزن والقافية ، ألا ترى أنّ ذا الرمة بنى قصيدته على حرف الباء ، ولو رصّع هذا البيت الترصيع الحقيقي لكان يلزمه أن يأتي بألفاظه على حرفين حرفين ، أحدهما : الباء ، أو كان يقسم البيت نصفين ويمثل بين ألفاظ هذا النصف وهذا النصف ، وذلك مما يعسر وقوعه في الشعر " . انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٣) فالمطرّف : مثل قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴿ [سورة نوح :

الآيتان (١٣-١٤)] .

والمتوازي : مثل قوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ وَأَنْكَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿ [سورة الغاشية : الآيتان (١٣-١٤)] .

والترصيع : مثل قول أبي الفتح البستي : " ليكن إقدامك توكلاً ، وإحجامك تأملاً " ..

انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ . ويلحظ أنّه في تعريفه لكل نوع لم يكن ملتزماً بالترتيب الذي وضعه لأقسامه .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨١ ، ٨٢ .

فأعطى كلّ هيئة من صور السجع اسماً ومصطلحاً خاصاً بها ولائقاً ، وهي مصطلحات غابت عن ابن أبي الإصبع ، رغم أنّ بعض شواهده قد تدخل ضمنها ، خاصة وأنّ كلا الرجلين كان يقصد بتلك الأضرب الشواهد القرآنية ، حيث جاءت عند ابن أبي الإصبع في (بديع القرآن) وإن استشهد لها من الشعر للضرورة أحياناً ، كما صرّح بذلك من قبل ، وجاءت عند الخطيب القزويني منطلقة من إيمانه العميق أنّ السجع يختصّ بالنثر وحده وإن أتى في الشعر ، ثمّ يستشهد له من القرآن بما يدلّ على رأيه في وجود السجع في القرآن ، يُدللّ على هذا قوله : " وقيل : إنّ لا يقال : (في القرآن أسجاع) ، وإنما يقال : فواصل ^(١) .

وكأنّه لا يمانع من أن يُطلق على فواصل القرآن أسجاع ، والسجع واقعٌ فيه كالنثر ، ولذا جاءت شواهده على أضرب السجع عنده من القرآن والنثر فقط .

ومن المهمّ كذلك - قبل التعرّض لأضرب السجع عنده - الإشارة إلى أنّ ما أضافه الخطيب في باب السجع أوفى بكثير ممّا عند السكاكي ، إذ اكتفى الأخير ببيان الأسجاع فقط والحديث عن الترصيع ، بينما تعرّض الخطيب لشروط حسنه بعد تفرّيعه إلى أضرب ثلاثة ، ثمّ بيّن صفة السجع طويل أو قصير أو متوسط ، وكذلك بيّن نقطة الخلاف في إطلاقه على القرآن والشعر ، مستشهداً على كلّ ذلك بشواهد عديدة ، تكشف عن رقة ذوقه في اختيارها بحيث تُهذب السليقة ، وتُربّي الحسّ الذوقي عند كلّ قارئ ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، مُذكّراً في هذا بنزعة أدبية ظاهرة عنده أيضاً ، بحيث من الظلم أن نهضمه إياها أو نتهمه بجفاف العرض وحصر دوره فقط في التقسيم والتحديد والتفريع ، ثمّ الاحتفال بكلّ هذا متناسين تأثره بالزخخشري ، وعبد القاهر الجرجاني ، وابن الأثير ، والعلوي ، وهم من هم !! .

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

أضرب السجع عند الخطيب :

أوّلها : السجع المطرّف^(١) :

يقول : " لأنّ الفاصلتين إن اختلفتا في الوزن فهو السجع المطرّف ، كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً ﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴿٢﴾ " ^(٣).

ولم يُعلّل الخطيب تسميته بهذا . قال الشيخ عبد المتعال الصعيدي : " سمّي بهذا لبلوغه طرف الحسن ونهايته بالنسبة إلى غيره " ^(٤).

ونظر الدكتور عبد العظيم المطعني إلى التسمية من وجه آخر ، فقال : " لأنّ الاتفاق بين الفاصلتين إنما حدث في طرفيهما ، وهو حرف الروي " ^(٥).

ويمكن اعتبار كلا التعليلين ؛ إذ لا خلاف في هذا .

أما اختلاف الوزن بين (أطوار) و(وقار) ؛ فلأنّ أحدهما على وزن (أفعال) ، والأخرى على وزن (فعال) ، واتفقا فقط في الأعجاز كما ذكر العلوي^(٦) ، أو هو في طرف الروي فحسب .

(١) وكما أنّ في السجع ما هو مطرّف ، كذلك من الجناس عند الخطيب كما مرّ . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٣ . وسمّاه ابن قيم الجوزية : (المطرّف) ، وقال : " هو أن تتفق الكلمتان الأخيرتان في الحرف الأخير دون الوزن " . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣١٦ ، (نقلاً عن الفوائد ، ص ٢٢٦) .

(٢) سورة نوح : الآيتان (١٣-١٤) .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ . قال السبكي : " وينبغي أن يكون المعتبر هو الوزن الشعري لا التصريفي ، وحيث إنّ (وقاراً وأطواراً) يصلحان في بيتين من قصيدة واحدة من بحر واحد ، كالرجز والكامل " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩١ ، وليس معنى بيانه هذا أنّ الخطيب يقصد غير هذا إنما هو فعلاً يقصد الوزن العروضي لا الصرفي . قال عصام الدين : " ألا ترى أنّ (الكوثر) ، وقوله : (واخر) مخالفتان في الوزن التصريفي ، مع أنّهما جعلاً مما لم يختلفا في الوزن ... فالوقار والأطوار مختلفان " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ ، هامش (٢) .

(٥) البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٢٠ .

(٦) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ١٢ .

والعجيب أنّ هذا المطرّف عرّفه ابن حجة قائلاً : " أن يأتي المتكلّم في أجزاء كلامه أو في بعضها بأسجاع غير متّزنة بزنة عروضية ، ولا محصورة في عددٍ معيّن ، بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية " ^(١) ، وهذا هو عين تعريف ابن أبي الإصبع للتسجيع في كتابه (تحرير التحرير) ^(٢) باختلاف يسير جداً ، وقد ذكرته في بداية الموازنة بين العالمين ، واستشهد عليه ابن حجة بنفس شاهده ، وهو قول أبي تمام :

تَجَلَّى بِهِ رُشْدِي ، وَأَثَرَتْ بِهِ يَدِي وَقَاضَ بِهِ تَمْدِي ، وَأَوْرَى بِهِ زُنْدِي

وكأنّ التسجيع عنده خاصة في كتابه (تحرير التحرير) هو ضرب واحد فقط من أضرب السجع عند الخطيب ، وهو المطرّف ؛ إذ لم يستشهد عليه في كتابه هذا سوى بيت أبي تمام السابق ، وبيت ديك الجن :

حُرُّ الْإِهَابِ وَسَيْمُهُ ، بَرُّ الْإِيَابِ كَرِيمُهُ ، مَحْضُ النَّصَابِ صَمِيمُهُ ^(٣)

الذي يختلف حقيقة ولا يتطابق مع تعريفه ؛ لأنّ أجزاءه متّزنة زنة عروضية ، فد(الإهاب والإياب والنصاب) متّزنة مع بعضها ، وكذلك : (وسيمه وكريمه وصميمه) .

وإذا كان يقصد أنّ (بعض) أجزائه غير متّزنة ^(٤) ، فلا عبرة بذلك ؛ إذ لم يتبقّ سوى (حُرّ ، وبرّ ، ومحض) ، بل إنّ الكلمتين الأخيرتين متّزنة !

وثاني الأضرب عند الخطيب هو الترصيع ^(٥) .

(١) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر : تحرير التحرير ، ص ٣٠٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .

(٤) إذ قال محلاً للبيت : " والأجزاء المسجّعة من هذا البيت التي (بعض) أجزائه غير متّزنة زنة عروضية ، وإن تماثلت في زنة بعضها لبعض ، والفرق بينه وبين المماثلة : كون أجزائه المسجّعة اتّزنت زنة غير زنة عروضية ، وأنت مفرّقا ما بينها ، وأتى تسجيعها على روي بيتها ، بخلاف أجزاء المماثلة ، وتسجيع أجزاء المماثلة على غير روي بيتها . والله أعلم " . انظر : تحرير التحرير ، ص ٣٠١ .

(٥) وكان أليق بالخطيب ذي الحسّ الدقيق أن يُسمّيه المرصّع ؛ ليتفق مع قوله : المطرّف أو المتوازي ، فهو

فقال : " وإلا فإن كان ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية^(١) فهو التزصيع ؛ كقول الحريري : " فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه "^(٢). وكقول أبي الفضل الهمداني : " إنَّ بعد الكدر صفواً ، وبعد المطر صحواً " . وقول أبي الفتح البستي : " ليكن إقدامك توكللاً ، وإحجامك تأملاً " "^(٣).

هذا هو كل ما عند الخطيب عن التزصيع بكل بساطة ، فلم يعقد له باباً كابن أبي الإصبع كما سيأتي ؛ إنما يكفي أن تقف مذهولاً عند هذه الشواهد المعروضة التي تمسّ شغاف القلب ، فتطبع نفسك بطابع الحسّ الجمالي ، وتملؤها بالانتشاء ، وتشنّف أذنك بروعة البيان العميق ، فتشعر باللذة والارتياح .. فليس بعد الكدر إلا الصّفو ، وليس بعد المطر إلا الصّحو ، ونعم الأمثلة في التزصيع كما ذكر عصام الدين^(٤).

وكأنّ الخطيب جلال الدين لم يشأ أن يفسد عليك لذة الاستمتاع بهذه الشواهد الرائعة فيما لو حلّلها وهو قادر .

أنسب كما ذكر الدكتور المطعني . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٢٠ ، هامش (٢) .. بل إنَّ السبكي كان قد أشار إلى ذلك من قبل . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩١-٣٩٢ . إلا أنّ الخطيب في هذه التسمية كالحلي والنويري . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣٥١ ، (نقلًا عن حُسن التوسّل ، ص ٢٠٧ ، ونهاية الأرب ، ج ٧ ، ص ١٠٤) .

(١) قال السعد موضحاً معنى (في الوزن والتقفية) : " أي التوافق على حرف الآخر " . انظر : المطول ، ص ٦٩٥ .
 (٢) (يطبع) : أي يعمل ، يقال : طبع السيف والدرهم والجرّة من الطّين : عملها ، (الأسجاع) : المراد به الكلمات المقفيات ، (بجواهر) : جمع جوهر ، وهو كلّ حجر يستخرج منه شيء ينتفع به وإضافته إلى (لفظه) إضافة المشبه به إلى المشبه ، وإفراد اللفظ في موضع إرادة المتعدّد كونه في الأصل مصدرًا ، (ويقرع) : يذقّ ، (الأسماع) : جمع سمع ، وهو وإن كان مصدرًا يصحّ إفراده مع إرادة المتعدّد . قال الله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : الآية (٧)] ، إلا أنه أوجب الأسجاع جمعه ، (بزواجر وعظه) : إفراده لكونه مصدرًا ... انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٤) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

وكان الترصيع عند السكاكي أمراً مختلطاً بالمماثلة عند الخطيب ؛ إذ ضمّ إلى الاتفاق في الأعجاز التقارب أيضاً ، فقال : " وهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان ، متفقة الأعجاز أو متقاربتها " ^(١) ، ومثّل عليه بقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(٢) ، وهو الشاهد نفسه الذي ذكره الخطيب في باب المماثلة ^(٣) ، إلا أنّ الخطيب جعل من الترصيع نوعاً خالصاً للسجع وحده الذي يعني الاتفاق في الحرف الواحد ، أما التقارب فظنّي أنّه توسّع في باب السجع وشوّب له باللبس ، وافتقاده لبعض خصوصيّته أو ميزته الخاصة ، وإذهاباً لروائه وبهائه ، حتى وإن عدّ بعض الدارسين أنّ السجع يمكن أن يكون في الأحرف المتقاربة ^(٤) .

وما أصدق أبو هلال العسكري حينما أطلق على الترصيع أنّه سجع في سجع ، ومثّل عليه بقول أحدهم : حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً ^(٥) .

ويبدو أنّ الخطيب القزويني وابن أبي الإصبع المصري متفقان على أنّ هذا اللون البديعي رغم مزيّته ورفاعة شأنه لا يقع في القرآن الكريم ، كما ذهب إلى ذلك ابن الأثير ^(٦) ، رغم أنّ السابقين - كأبي هلال وأسامة بن منقذ وبعض المتأخرين ، كالرازي والسكاكي

(١) مفتاح العلوم ، ص ٤٣٢ .

(٢) سورة الصافات : الآيتان (١١٧-١١٨) .

(٣) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٧ . وسيأتي التعرض لهذا النوع من البديع لاحقاً .

(٤) انظر : علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . وذهب الشيخ أحمد الحملاوي إلى أنّ

الترصيع هو توازن الألفاظ مع توازن الأعجاز أو تقاربها ، فمثّل على الأوّل - وهو التوازن - بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ ، ومثّل على الثاني - وهو التقارب - بقوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ [سورة الصافات : الآيتان (١١٧-١١٨)] .

انظر : زهر الربيع ، ص ٢٥٤ .

(٥) انظر : الصناعتين ، ص ٢٦٩ ، وكان أبو هلال قد عرفه قائلاً : " أن يكون حشو البيت مسجوعاً " .

انظر : الصناعتين ، ص ٣٩٠ .

(٦) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

والعلوي - قد مثلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ^(١) ،
وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ^(٢) ، رغم الاختلاف
في هذا ^(٣) ، وبقوله تعالى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ ^{(٤)(٥)} .

ومثل عليه بعض الدارسين بقوله تعالى : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾
﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ^{(٦)(٧)} ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾
﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ^{(٨)(٩)} .

بل إنَّ الخطيب القزويني قد زاد على ابن أبي الإصبع في أنه لم يمثل عليه من الشعر أيضاً ،
ولعله في ذلك متأثراً بمقالة لابن الأثير يقول فيها : " وأما الشعر فإنني كنت أقول : إنه لا
يتزن على هذه الشريطة ، ولم أجده في أشعار العرب ؛ لما فيه من تعمق الصنعة وتعسف
الكلفة ، وإذا جيء به في الشعر لم يكن عليه محض الطلاوة التي تكون إذا جيء به في

(١) سورة الغاشية : الآيتان (٢٥-٢٦) .

(٢) سورة الانقطار : الآيتان (١٣-١٤) .

(٣) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، والمثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية (٢٦٧) .

(٥) راجع : الصناعتين ، ص ٢٦٩ ، في باب (السجع) ، وليس في باب (الترصيع) ، والبديع في نقد
الشعر ، ص ١١٦ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٤٤ ، ومفتاح العلوم ، ص ٤٣٢ ، والطراز ،
ج ٢ ، ص ١٩٦ .

(٦) سورة العاديات : الآيات (١-٥) .

(٧) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٣٠٠ .

(٨) سورة الليل : الآيات (٥-١٠) .

(٩) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٢١ ، وهذا شاهد كسابقه على أكثر الألفاظ تماثلاً ،
بل إنَّ التماثل هنا في هذا الشاهد لم يقتصر على الوزن والتقافية كما ذكر عبد العظيم المطعني ،
بل إنَّ الكلمات تكررت بأعيانها في القرينتين لفظاً ومعنى ، وهذا لا يكاد يوجد خارج دائرة
القرآن المعجز .

الكلام المنشور ، ثمّ إنني عثرت عليه في شعر المحدثين ، ولكنه قليل جداً ... " (١) .

وإذا كان الخطيب القزويني قد أدخل الترصيع في السجع ، فإنّ ابن أبي الإصبع أقام له باباً برأسه سمّاه : (باب الترصيع) ، غير أنّه في كتابه (تحرير التحبير) بطبيعة الحال ، وهو يفاجئك بقوله في أوّل الباب : " الترصيع كالتسجيع ... " (٢) ، كأنّه بهذا التشبيه يفصل بين الاثنين ، ولا يعدّ الترصيع من السجع كما هو مقرّر عند جلال الدين الخطيب ، أما وجه الشبه بين الاثنين فيفصح عنه بقوله : " في كونه يُجزّئ البيت إما ثلاثة أجزاء إن كان سداسياً ، أو أربعة إن كان ثمانياً ... " (٣) .

ثمّ زاد قائلاً : " وأكثر ما يقع الجزآن : المسجّع والمهمّل في الترصيع مُدْجَحَيْن ، إلا أنّ أسجاع التسجيع على قافية البيت " (٤) .

وعلى كلّ حال فإنّ الصورة العامّة لباب الترصيع عند ابن أبي الإصبع يلخصها قول أسامة بن منقذ : " اعلم أنّ الترصيع هو أن يكون البيت مسجوعاً " (٥) .

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٣٠٢ . غير أنّ الدكتور حفني ذكر أنّه وردَ في إحدى النسخ : " الترصيع كالتجزئة " ، وقال : وهو المناسب لما بعده . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٢ ، هامش (١) . ويظهر أنّ هذا هو الأصحّ والأليق ، خاصّةً وأنّ الترصيع والتجزئة يلتقيان في أنّ كلّاً منهما يجرّئ البيت ويقسّمه إلى عدّة أقسام .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٢ . وذكر الدكتور حفني هنا أنّه ورد أيضاً في إحدى النسخ : " إلا أنّ أسجاع التجزئة على قافية البيت " ، وهو الأصوب ؛ لأنّه بصدد التفرقة بينها وبين الترصيع . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٢ ، هامش (٣) . إلا أنّ ابن أبي الإصبع كان مضطرباً في فروقاته بين الترصيع والتجزئة والتسميط ، كما ذكر الدكتور حفني شرفاً أيضاً ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا من قبل ، وأضاف : " فكان الأجدر به أن يجعل التجزئة قسيماً من أقسام التسجيع ، لا باباً مفرداً بذاته " . انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

(٥) البديع في نقد الشعر ، ص ١١٦ . وما أكثر شواهد أسامة في الترصيع ، التي تدخل في التجزئة عنده وعند ابن أبي الإصبع ، والتي تلتقي مع كثير من شواهد أبي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي في الترصيع عندهما .

وقول أبي هلال العسكري قبله : " أن يكون حشو البيت مسجوعاً " ^(١) ، بل التقى هو وأبو هلال العسكري في الاستشهاد بقول أبي صخر الهذلي :

عَذْبٌ مُقْبَلُهَا خَدْلٌ مُخْلَخِلُهَا كَالِدَغَصٍ أَسْفَلُهَا مَخْصُورَةُ الْقَدَمِ ^(٢)
سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِيضٌ تَرَائِبُهَا مَحْضٌ ضَرَائِبُهَا صِيغَتْ عَلَى الْكَرَمِ ^(٣)
سَمَحٌ خَلَاتِقُهَا دُرٌّ مَرَافِقُهَا يُرَوَى مُعَاتِقُهَا مِنْ بَارِدِ شَبِمْ ^(٤)

إلا أن ابن أبي الإصبع زاد أربعة أبيات أخر ، يدفعه إلى هذه الزيادة شغفه بالشعر العذب البليغ المعنى كما صرح من قبل ^(٥) . وما ذلك إلا لأنه " يرى أنه لا بد أن تمتدّ البلاغة إلى بحث الفقرة الكاملة ، والقطعة الأدبية كلّها ، سواء أكانت مثورة أم منظومة ، وعقد المقارنات والمفاضلة بين النصوص الأدبية وأصحابها إذا اتفقت المعاني أو اختلفت " ^(٦) ، وهو في هذا متأثرٌ أشدّ التأثير أيضاً بقدامة ؛ إذ عدّ الأخير التزصيع من نعوت الوزن ^(٧) ، وعده ابن أبي الإصبع من الأبواب التي تختصّ بالشعر والنثر لا بالقرآن الكريم ، لذا أخرج من كتابه (بديع القرآن) ، بل لم يكن استشهاد به بتلك القطعة كلّها لصخر الهذلي إلا اتفاقاً مع قول قدامة : " على أن من الشعراء القدماء والمحدثين من قد نظم شعره كلّ أو والى بين أبيات كثيرة منه ، منهم أبو صخر الهذلي ؛ فإنه أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه أنه غير متكلف " ^(٨) ، وذكر من الأبيات قدراً أكبر مما ذكره ابن أبي الإصبع ..

(١) الصناعتين ، ص ٣٩٠ .

(٢) (خدل) : ممتلى ، (مخلخلها) : موضع خلخلها .

(٣) (محض ضرائبها) : خالصة سجيته .

(٤) (دُرٌّ مرفقها) : أي ليس لعظم مرفقها حجم ، (بارِدِ شَبِمْ) : الشَبِمْ : البرْدُ ، والشَبِمْ : البرْدان .

(٥) انظر : بديع القرآن ، ص ١١٤ ، باب (القسم) .

(٦) الصورة البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٣٠٥ .

(٧) نقد الشعر ، ص ٤٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

بينما كان الخطيب القزويني في منأى بعيدٍ عن كلّ هذه الدوامة من الأبيات الشعرية الكثيرة عند السابقين ؛ إيماناً بما يعتقده وينتهجه ويميل إليه من المنهج العلمي .

ويربط ابن أبي الإصبع الترصيع بالتسجيع عند قوله : " وأكثر ما يقع الجزآن (المسجع والمهمل) في الترصيع مُدْجَيْن " ^(١) . فهو يعادل قوله في أضرب السجع : " ضرب تأتي الجمل المسجعة بمجمل مدججة في الجمل المهمل ، وضرب تأتي فيه الجمل المسجعة منفردة " ^(٢) ، فيقيم علاقة بين اللونين على أساسٍ من الدمج أو الإهمال ، فهو يركّز عند كلّ منهما على هاتين اللَّفْظَتَيْن ؛ فيقول في باب الترصيع مثلاً : " فهذا القسم من الترصيع يحسن أن يُسمّى الترصيع المدمج ؛ لأنّ كلّ جزء مسجع من أجزائه مُدمج في الجزء الذي قبله فرقاً بينه وبين ما ليس كذلك من الترصيع ، فإنّ من الترصيع ما أجزاؤه المسجعة غير مدججة فيما قبلها " ^(٣) ، ومثّل عليه بقول مسلم بن الوليد :

كَأَنَّهُ قَمَرٌ ، أَوْ ضَيْغَمٌ هَصِرٌ أَوْ حِيَّةٌ ذَكَرٌ ، أَوْ عَارِضٌ هَطَلٌ ^(٤)

وهو متأثرٌ في النوع الأول من السجع عنده - وهو ما كانت أجزاؤه المسجعة مدججة - بأبي هلال العسكري الذي عبّر عن هذا المدمج بأنه سجع في سجع - كما تبين من قبل - ؛ إذ يقول : " ومنها - أي من أوجه السجع - : أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة ، فيكون الكلام سجعاً في سجع ، وهو مثل قول البصير : حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً . فالتعريض والتمريض سجع ، والتصريح والتصحيح سجع آخر ، فهو سجع في سجع ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ^(٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ^(٥) ،

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٠٢ .

(٢) بديع القرآن ، ص ١٠٨ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٠٣ .

(٤) (الضیغم) : الأسد ، (الهصر) : الذي يكسر فريسته ، و(الحية الذكر) : التي لا تنفع معها الرقية ، و(العارض الهطل) : السحاب المؤذن بالمطر الكثير .

(٥) سورة الغاشية : الآيتان (٢٥-٢٦) .

وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع^(١).

وما قصده العسكري وابن أبي الإصبع بشكلٍ أوسع هو ما أكد عليه الخطيب وحرصَ على ذكره في الترصيع من أن يكونَ " ما في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية "^(٢). أو بصورة أخرى : من أن يكون ما بين الفاصلتين أو أكثر اتفاقاً في الحرف الواحد ، والوزن الواحد ..

وقد ذكر الشراح أن قول الخطيب هنا ما هو إلا مجاز عن التوافق في الحرف الواحد^(٣). والتوافق غير التقارب ، وهذا هو السجع على جهته الصحيحة .

وإذا كان الخطيب القزويني قد تجاوز التفسير اللغوي للترصيع وسبب تسميته بذلك ، فلأنّ هذا ليس داخلياً في نسيج منهجه ومسلكه ، وإن كانت له في (التلخيص) إشارة يسيرة جداً ، وهي قوله : " كلّها أسجاع جعلت الكلام مرصّعاً "^(٤) ، لكن هذا لم يكن كافياً .

إنما كان جديراً بابن أبي الإصبع أن يذكر هذا ، خاصةً وأنّه فسّر كثيراً من الأبواب تفسيراً لغوياً كما مرّ ، لكنّه تجاوز هذا أيضاً !!.

والترصيع في اللغة : التركيب ، والتقدير ، والنسج ، كما يُرصّع الطائرُ عُشّه .. وفرسٌ مُرصّعُ الثَّنن ، كمعظم : إذا كانت ثننه بعضها في بعض .. وتاجٌ وسيفٌ مُرصّعٌ بالجواهر : مُحلّى^(٥).

وقد ذهب إلى تفسيره لغوياً من السابقين : ابن الأثير والعلوي^(٦). ومن المتأخرين : ابن حجة وابن معصوم^(٧).

(١) الصناعتين ، ص ٢٦٩ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٣) انظر : المطول ، ص ٢٩٥ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٤ .

(٤) التلخيص ، ص ٢٠٥ .

(٥) القاموس المحيط ، باب (العين) ، فصل (الراء) ، ص ٩٣٢ .

(٦) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٧) انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، وأنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

وكشف ابن الأثير عن سبب التسمية ، فقال : " وذاك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر ، وكذلك تجعل هذا في الألفاظ المتشورة من الأسجاع ... " ^(١) .

وقال ابن سنان : " وكأنّ ذلك شُبّه بترصيع الجوهر في الحلي " ^(٢) .

وقال ابن معصوم : " وذلك بأن يكون في أحد جانبيه من الجوهر مثل ما في الجانب الآخر " ^(٣) .

وأحسن الترصيع ما جاء مع التجنيس ، وهو ما أشار إليه كثير من السابقين ، كالباقلاني والوطواط ^(٤) والرازي ، ومثلوا عليه من الشعر بقول ابن المعتز :

أَلَمْ تَجْزَعْ عَلَى الرَّبْعِ الْمُحِيلِ وَأَطْلَالَ وَآثَارِ مُحُولٍ ^(٥)

ومن التثنية قولهم : " ما وراء الخلق الذميمة إلا الخلق الذميمة " ^(٦) .

وقولهم : " الكؤوس في الراحة ، والنفوس في الراحة " ^(٧) .

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٢) سرّ الفصاحة ، ص ١٩٠ .

(٣) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

(٤) هو محمد بن محمد بن عبد الجليل بن عبد الملك بن محمد بن عبد الله ، ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، المعروف بالرشيد الوطواط . قال ياقوت : كان أعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب . له من التصانيف : حدائق السحر في دقائق الشعر ، أشعاره ، رسائله بالعربي والفارسي ، مولده ببلخ . ومات بخوارزم سنة (٥٧٣هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٥) إعجاز القرآن ، ص ٩٥ ، ٩٦ . واللافت أنّ الباقلاني هو الوحيد الذي مثل على هذه الصفة من القرآن بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿ [سورة الأعراف : الآيتان (٢٠١-٢٠٢)] .. وغيرها من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿ [سورة القلم : الآيتان (٣-٤)] .

(٦) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٤٤ .

(٧) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣٠٩ ، (نقلًا عن حدائق السحر في دقائق الشعر ، للوطواط ، ص ٩٢) .

وقد أشار إلى ذلك المتأخرون أيضاً ، كابن حجة وابن معصوم ، وزادوا على ذلك بأنه إذا كان مع الترصيع زيادة بديع ، كطباقٍ أو مقابلةٍ أو جناس ، أو روعي فيه ذلك ، كان زيادة في الحسن^(١) .

وتأمل قول الوطواط^(٢) : " وصناعة الترصيع رفيعة الشأن في ذاتها ، ولكنها إذا اقترنت بعمل آخر مثل التجنيس ، فإنها تزداد علواً ورفعة شأن " ^(٣) .

إلا أن ابن أبي الإصبع والخطيب القزويني لم يُشير إلى ذلك إشارة واحدة ، رغم أن هذا يرفع من شأن الترصيع ، ويُبرز مزيتته على أيّ حال .

بل كان الباقلاني قد أشار أيضاً إلى ضربٍ يقارب الترصيع ، وسَمَّاهُ (المضارعة) ، ومثّل عليه بقول الخنساء السابق ، الذي سبق للخطيب الاستشهاد به ، وهو :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْ سِدِّي الطَّرِيقَةِ ، نَفَاعٌ وَضَرَارُ
جَوَّابُ قَاصِيَةِ جَزَّارٍ نَاصِيَةِ عَقَادُ الْوَيْةِ لِلْخَيْلِ جَرَّارُ^(٤)

إلا أن الخطيب لم يذكر هذا النوع ضمن الترصيع ، ولكنه عنده يدخل في التشطير ، لكن

(١) انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، وأنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٦٣ .

(٢) نقل ابن معصوم عن الكرمانلي في قلائد العقيان قوله : " ولم يبلغ في هذا النوع أحد شأواً الإمام رشيد الدين المشتهر بالوطواط ، فإن له قصائد باللسانين التزم فيها الترصيع من أولها إلى آخرها " . انظر : أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣٠٩ ، (نقلاً عن حداثق السحر في دقائق الشعر ، ص ٩٢) .
قال الدكتور عبد العظيم المطعني : " ويبلغ عندهم غاية الحسن إذا كان الكلام مجنساً مسجوعاً معاً ، بما يُوحى به الجناس غالباً من تألق الألفاظ ، وبما يشيعه السجع غالباً من اتساق الأنغام . وحسبك بهذين إبداعاً وإمتاعاً " . انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٦ .

(٤) انظر : إعجاز القرآن ، ص ٩٧ . وهذا النوع من الترصيع سماه ابن الأثير والعلوي : الترصيع الناقص .
انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، والمثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(جَوَّاب) - مِنْ جَبَّجَ - : سَاحَ فِي الْأَرْضِ ، (قَاصِيَة) : مَكَانٌ بَعِيدٌ ، وَنَاحِيَة قُصُوى ، (جَزَّارٌ) : صِيغَةٌ مِبَالِغَةٌ مِنَ الْفِعْلِ (جَزَّ) : أَيِ قَطَعَ .

يمكن القول أنّ ابن أبي الإصبع ذكره لأنّه جاء من ضمن أبيات صخر الهذلي التي استشهد بها في باب (التصريح) ، قوله :

سُودُ ذَوَائِبِهَا يَبِضُّ تَرَائِبُهَا مَحْضُ ضَرَائِبِهَا صِيغَتْ عَلَى الْكَرَمِ

وهذا البيت وبيتا الخنساء السابقان جاءا عند ابن الأثير والعلوي ضمن الصنف الثاني من الترصيع ، وهو الترصيع الناقص ، والذي لم يعتدّ به ابن الأثير كما سبق التنويه على ذلك ، وربّما هذا هو الذي سمّاه الباقلاني بالمضارعة ، وبهذا يكون ابن أبي الإصبع قد أتى على ذكر وجهين من الترصيع الكامل والناقص ، بينما كان الخطيب معتدّاً بالكامل فقط ، متأثراً ومقتنعاً بما مالَ إليه ابن الأثير .

وبهذا ينتهي الحديث عن الضّرب الأول والثاني من أضرب السجع عند الخطيب ، وهما المشطّر والترصيع ، وبقي الضّرب الأخير ، وهو المتوازي الجميل المستحبّ من السجع ، والذي يرتاح له الذوق ، ويلتذّ به السمع ، وتشيع فيه الموسيقى اللفظية الجميلة^(١) .

فرتّب الخطيب كلامه على ما سبق ، وقال : " وإلا فهو السجع المتوازي ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٠﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١١﴾ ۚ وَفِي دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْرَأُ بِكَ فِي نَحْوِهِمْ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِمْ » ﴿٣﴾ " ﴿٤﴾ .

(١) البلاغة والتحليل الأدبي ، ص ١٩٩ ، بتصرّف يسير .

(٢) سورة الغاشية : الآيتان (١٣-١٤) .

(٣) لم أعثر على نصّ هذا الحديث بلفظة (أدراً) في كلّ ما توفّر لديّ من مصادر ؛ إنّما الذي ورد بلفظة (نجعلك) .. فانظر - مثلاً - : سنن أبي داود ، للإمام أبي داود السّجستاني ، تعليق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط ٢ ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م ، كتاب الصلاة ، باب : ما يقول الرجل إذا خافَ قوماً ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(و) (ندراً) : ندفع ، ومنه قوله ﷺ : « اللَّهُمَّ أعْطِ مَنْفَقاً خَلْفاً ، وَأَعْطِ مُمْسِكاً تَلْفاً » . ذكره ابن حجة في خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٨ . وقد وجدتُ هذا النصّ بلفظٍ آخر . انظر : صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، حديث رقم : (١٤٤٢) ، ص ٢٥٣ ، وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب : في المنفق والممسك ، حديث رقم : (٢٣٣٦) ، ص ٣٥٤ .

وكان يقصد كما ذكر في التلخيص : " إن لم يكن ما في إحدى القرينتين ، ولا أكثره ، مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية ، كان السجع متوازياً " ^(١) .

ووضّحه السبكي بقوله : " أي وإن لم يكن بين ألفاظ القرينتين تقابل ، وكانت الفاصلة موازية لأختها فالسجع يُسمّى متوازياً " ^(٢) .

وذلك لأنّ (سُرر) لا تماثل (أكواب) لا في الوزن ولا في التقفية .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « أدراً » لا تماثل قوله : « أعوذ » ، و« في » لا تماثل « من » ^(٣) .

لكن كلّ طرف من الفاصلتين وازى الطرف الآخر ، لذا سُمّي متوازياً ^(٤) .

والتوازي يعني : اتفاق الكلمتين وزناً فضلاً عن توافق نهاية كلّ منهما ، فاجتمع على الكلمة السجع والتوازي ، ولهذا سُمّي بالسجع المتوازي .

ولم يُشر الخطيب إلى سبب التسمية أيضاً .

(١) التلخيص ، ص ٢٠٦ . وقد ذكر أبو هلال العسكري هذا النوع من السجع ولم يُسمّه ، وقال : " والسجع على وجوه ، فمنها : أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مع اتفاق الفواصل على حرفٍ بعينه ، وهو كقول الأعرابي : (سنة جردت ، وحال جَهدت ، وأيد جَمَدت ، فرحم الله مَنْ رحم ، فأقرض مَنْ لا يظلم) .. فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان ، والواصل على حرفٍ واحد " . انظر : الصناعتين ، ص ٢٦٨ . فهذا الوجه عنده من أوجه السجع هو المتوازي عند الخطيب .

(٢) عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩٢ . وأضاف السعد أنه يمكن أن يكون في الوزن فقط نحو : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ غُرَفًا ﴾ ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ [سورة المرسلات : الآيات (١-٢)] ، أو في التقفية فقط ، كقولنا : (حصل الناطق والصامت ، وهلك الحاسد والشامت) ، أو لا يكون لكلّ كلمة من إحدى القرينتين مقابل من الأخرى ، نحو : ﴿ إِنَّا أَغْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [سورة الكوثر : الآيات (١-٣)] . انظر : المطول ، ص ٦٩٦ .

(٣) انظر : البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٢٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، (نقلاً عن حاشية الدسوقي : شروح التلخيص ، ج ٤ ، ص ٤٤٨) .

وقد عدّ بعض المتأخرين والدارسين أنّ من السجع المتوازي قول المتنبي :

فَنَحْنُ فِي جَذَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ وَالْبَرُّ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي خَجَلٍ^(١)

فاتّضح لي أنّ هذا البيت ذكره ابن أبي الإصبع في باب (التجزئة) تحت الضرب الثاني منه ، فبعد أن عرّف التجزئة بقوله : " وهو أن الشاعر يُجزّي البيت من الشعر جميعه أجزاءً عروضية ، ويسجّعها كلّها على رويّين مختلفين ، جزء بجزء ، إلى آخر البيت الأول من الجزأين ، على رويّ مخالف لرويّ البيت ، والثاني على رويّ البيت "^(٢).

قال : " ومثال الثاني الذي سجّع كلّ ثانٍ من أجزائه زائداً على قافيته ... وكقول المتنبي ... " ، فذكر البيت السابق^(٣).

وقد تبين لي من بعد أنّه برغم اتفاق شواهد ابن أبي الإصبع مع تعريفه للتجزئة ، إلا أنّ هذا الباب ضمّ المطرّف والمرصّع والمتوازي عند الخطيب القزويني ؛ إذ جاء شاهد المصري الأول من الترصيع ، وهو قول الشاعر :

هَنَدِيَّةٌ لِحَظَاتِهَا ، خَطِيئَةٌ خَطَرَاتِهَا ، دَارِيَّةٌ نَفَحَاتِهَا "^(٤)

والثاني من المطرّف ، وهو قول أبي تمام السابق الذكر ، والثالث من المتوازي ، وهو قول أبي الطيب السابق ، ويمكن دخوله في المطرف عند الخطيب .

وما كان لابن أبي الإصبع - كما قلت من قبل - أن يعقد هذا الباب أصلاً فيُفرّق أقسام التسجيع تارةً في أبواب كالترصيع والتشطير والتصريع ، وما عدّه بعض الدارسين منه كالموازنة والمماثلة ، وتارةً تجتمع عنده في باب واحد ، كالتجزئة مثلاً ، بل قد يحصر

(١) انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٨ ، وعلم البديع ، ص ٢١٩ ، والبديع من المعاني والألفاظ ، ص ١٢٢ .

و(الجدل) : الفرح ، و(الوجل) : الخوف والإشفاق .

(٢) تحرير التعبير ، ص ٢٩٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٩ .

(٤) انظر : تحرير التعبير ، ص ٢٩٩ .

التسجيع بمفهومه الواسع عند الخطيب في نوع واحد ، وهو المطرّف^(١) .

فإنّ هذا دالٌّ فعلاً على اضطرابه كما أشار من قبل الدكتور حفني شرف ، لكنه على أيّ حال يعكس الاضطراب في استقلالية المصطلحات وحدودها في عصره ، ومن ثمّ توزّعت وتشتّتت عنده هنا ؛ مما يبعث حقيقة على توزّع النفس وتشتّت الذهن ، بينما كانت الرؤية واضحة جداً كالشمس عند القزويني - رحمه الله - ، فوفر على الدارسين الكثير من الجهد والعناء ، وحفظ لهم الصفاء الذهني والاطمئنان النفسي ، بل إنّ له كثيراً من الإضافات الحسنة التي لم يشر إليها ابن أبي الإصبع في أيّ بابٍ من تلك الأبواب المتفرّقة ..

من هذه الإضافات : شروط قبول السجع أو حسنه كما ذكر .

وكانت عنده محصورة في شرطين ، أهمّهما :

اختلاف قريتيه في المعنى ، وذكر أنّ كلّ ما استشهد له في السجع هو كذلك ، وليس كقول ابن عباد في مهزومين : " طاروا واقين بظهورهم صُدورهم ، وبأصلاّبهم نُحورهم " ^(٢) .

ويظهر في هذا تأثره بابن الأثير أيضاً ، الذي حرص على هذا الشرط وأكّد عليه ، فوسّع الحديث عنه كثيراً ، مُورداً شواهدَ لقرائن متّفقة المعاني ، وأخرى مختلفة ؛ لمعرفة الفرق ، وقال : " فانظر أيّها المتأمّل إلى هذه الأسجاع جميعها وأعطهما حقّ النظر ، حتى تعلم أنّ كلّ واحدة منها تختصّ بمعنى ليس في أختها التي تليها ، وكذلك فليكن السجع ، وإلا فلا " ^(٣) .

(١) انظر إلى التسجيع عنده في كتاب (تحرير التعبير) خاصة ، ص ٣٠٠ ، فلم تكن شواهد فيه إلا صورة منطبقة على شواهد المطرّف المعروف عند الخطيب والمتأخرين غيره .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٣) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٠١ . وقد أشرتُ من قبل إلى علّة هذا الشرط في أول المبحث ، لذا قال صاحب الأطول : " وكأنّه لذلك - أي للعلّة السابقة - لم يلتفت إليه المصنف " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٥ . وذكر الشيخ الصعيدي أنّ هذا قيل إنّّه ليس بشرط ؛ لأنّ السجعة الثانية تؤكّد الأولى ، والتأكيد عمدة =

أما الشرط الثاني الذي ذكره الخطيب ، فهو متعلق بطول القرائن وقصرها ، فقال :
 " قيل^(١) : وأحسن السجع^(٢) ما تساوت قرائنه^(٣) ، كقوله تعالى : ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾
 وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ ﴿ وَظِلٌّ مَمْدُودٍ ﴾^(٤) ، ثم ما طالت قرينته الثانية ، كقوله : ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا
 هَوَى ﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿^(٥) ، أو الثالثة ، كقوله : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ثُمَّ
 الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿^(٦) ، وقول أبي الفضل الميكالي : " له الأمر المطاع ، والشرف اليفاع ، والعرض

البيان والكتابة . وقد وقع هذا في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿
 إِلَهَ النَّاسِ ﴿ [سورة الناس : الآيات (١-٣)] ، لكن التأكيد له مقام يقتضيه ، فلا يصح أن يكون تكرار المعنى
 لأجل السجع فقط ، ويشترط فيه أيضاً أن تكون ألفاظه في تركيبها تابعة لمعناها لا عكسه ، وأن يقع فيما يليق
 به من خطابة ونحوها ، لا كما قال صاحب بن عباد للقاضي : " قم آيها القاضي بقم ، قد عزلناك فقم " ،
 فقال القاضي : " والله ما عزلني إلا هذه السجعة " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٢ ، هامش (٤) ،
 وانظر : (ص ٢٩٨) من كتاب (علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية) في هذا الخصوص ، و(ص ١٣٤) من
 كتاب (البديع في ضوء أساليب القرآن) ، للدكتور عبد الفتاح لاشين .

(١) قال السبكي : " قوله : (قيل) ، أي قال جماعة من الأدباء " . انظر : عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩٢ .
 (٢) جاء في التلخيص ، ص ٢٠٦ : " وقال ابن الأثير : أحسن السجع ما تساوت قرائنه ... " .
 وهذا مما يُدلل على تأثر الخطيب - كما قلت - بابن الأثير ونقله عنه . وانظر : المثل السائر ،
 ج ١ ، ص ٢٣٣ .

(٣) قال الشيخ عبد المتعال الصعيدي : " أي في عدد الكلمات ، وإن كانت إحدى الكلمات أكثر حروفاً
 من كلمة القرينة الأخرى " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، هامش (١) .

وعلل السبكي تساوي القرائن بقوله : " ليكون شبيهاً بالشعر ، فإن أبياته متساوية ، كقوله تعالى :
 ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ ﴿ وَظِلٌّ مَمْدُودٍ ﴿ [سورة الواقعة : الآيات (٢٨-٣٠)] ، وعلته أن
 السجع ألف الانتهاء إلى غاية في السجعة الأولى ، فإذا زيد عليها ثقل عليه الزائد ؛ لأنه يكون عند وصولها
 إلى مقدار الأولى ، كمن توقع الظفر بمقصوده من فهم المراد له ، ولم يجده أمامه ، كذا يظهر " . انظر :

عروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩٢ .

(٤) سورة الواقعة : الآيات (٢٨-٣٠) .

(٥) سورة النجم : الآيتان (١-٢) .

(٦) سورة الحاقة : الآيتان (٣٠-٣١) .

المصون ، والمال المضاع . وقد اجتماعاً^(١) في قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿٢﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾^(٢) " (٣) .

ثم ختم هذا الشرط الأخير بقوله معللاً تجنّب قصر القرينة الثانية كما ذكر السبكي من قبل : " ولا يحسن أن تولى قرينة قرينة أقصر منها كثيراً ؛ لأنّ السمع إذا استوفى أمدّه من الأولى لطولها ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيراً يكون كالشيء المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، والدوق يشهد بذلك ويقضي بصحّته " (٤) .

ويبدو أنّ الخطيب هنا متأثر بكلام العلوي ؛ إذ يقول : " فإذا كانت الفقرة الثانية ناقصة صار المطلوب ناقصاً ، وانخرم ما كان يتوقّعه من الماثلة بينهما والملاءمة ، ويصير كالشيء المنقطع المبتور ، وكمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها " (٥) .

" ومعنى ذلك أنّ حدوث الأشياء بنظامٍ مخالفٍ لما نتوقع يُحدثُ في أنفسنا شيئاً من الدهشة والاضطراب ... وهذا هو عينه التعليل النفساني لما يحدث من ارتياح عند الاستماع إلى الموسيقى الصوتية المنسجمة ، أو إلى الشعر الموزون ، أو إلى النثر المسجوع ، أو الخاضع لنظامٍ معيّن في توالي الكلمات وسرد العبارات " (٦) .

والحقّ أنّ الشروط التي ذكرها السابقون قبل الخطيب القزويني كثيرة كما هي عند ابن الأثير وعند العلوي^(٧) ، وقد أوردت بعضها في أوّل المبحث ، غير أنّ الخطيب لم يذكر منها إلا ما سبق ، ربّما لأنها هي الأهمّ والأقوى ، التي يمكن أن تقدح في قبول السجع لدى المستمع

(١) قال عصام الدين : " أي طول الثانية والثالثة " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ .

(٢) سورة العصر : الآيات (١-٣) .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٥) الطراز ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٦) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٣٢ ، (نقلًا عن دراسات في علم النفس الأدبي ، للأستاذ حامد

عبد القادر ، ص ٨٩) .

(٧) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٧-٢٠٠ ، والطراز ، ج ٣ ، ص ١٣ .

أو القارئ ؛ إذ تسخر النفس ممن يكرّر كلامه لغير معنى ، وتنفر من التطويل ؛ لأنّه يورثها التعب ، ويُغضّبها في القراءة أو الاستماع ، ويوقعها في الضجر والسّامة ، خاصّةً إذا ما شعرت أنّ هذا التكرار لا يزيد الكلام بهجةً ولا يمنحه فائدة ، فهو مستقبحٌ ، حيث وقع لأنّه الحشو والفضول والتطويل الذي أوسع البلاء ذمّاً . وهناك فرقٌ بين هذا التكرار وتكرار آخر يخلع على الكلام رونقاً وجمالاً ، ويضفي عليه بهاءً وبشاشة ، ويُشقق منه صوراً جديدة تحمل أطيافاً جديدة من المعاني والأخيلة والعواطف^(١) .

وليس هذا بلا شكّ الذي ذمّه الخطيب ومَن سبقه عندما اشترط الشرط الأول ، وهو اختلاف قرينتي السجع في المعنى ..

وكأنّ الخطيب القزويني يوثق الصلة بين هذا الفنّ البديع العريق الرفيع ، وبين مَن يصوغه أو يتلقّاه فيحرص عليه من جهة أن تتلقّاه النفس برضاً ومحبةً واستلذاذ ، لا بنفور وتضجّر وتملل ، ويحرص على النفس من جهة أخرى كي لا تعثر دون الاستمتاع به ، وينقطع دونها سلك التواصل معه بأريحية واطمئنان ، فيقدّم الشرط الثاني الذي حرص عليه أكثر البلاغيين ، منهم الرازي ، فضلاً عن ابن الأثير والعلوي ومَن جاء بعد الخطيب من المتأخرين ، كالسيوطي^(٢) ، وهو مراعاة تساوي القرائن ، ثمّ ما طالت قرينته الثانية أو الثالثة ؛ لأنّ هذا الشرط لو احتلّ يحرم النفس المتعة بالسجع أو استحسانه ، فتنتعته بأحسن الصّفات ، وتتهمه بالقصور والدونية ، خاصة وأنّ " العقل يقدر القوّة اللازمة لإدراك المقاطع ، فإذا زاد المتكلّم أو نقص ، أو غيرَ في مقطعٍ عن مألوف هيئته ، تعثّرت به أذن السامع ، وشقّ عليها ذلك ، كمَن يسير في سهلٍ مستوٍ على غير انتباه ، فإنّ أقلّ خلل في الطريق من ارتفاعٍ أو انخفاضٍ أو اعتراض حجر - بخلاف ما هو مقررٌ في ذهنه - يوجب عثاره وتأذيه "^(٣) .

وقد تكون هذه وجهة نظر تُفسّر عزوف القزويني عن بقية الشروط المذكورة عند مَن

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٣٥ ، بتصرّف ، (نقلاً عن فنّ الأسجاع ، لعلي الجندي ، ج ١ ، ص ٢٢٤) .

(٢) انظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٤٣ ، والإتقان ، ص ٦٨٧ .

(٣) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٣١ ، (نقلاً عن فلسفة البلاغة ، للأستاذ جبر ضومط ، ص ١٤٢) .

سبقه ، ويمكن أن يكون الدافع الأكبر لهذا العزوف هو الاختصار والحذف والتحديد والتركيز ، وهو منهج المدرسة العلمية ، أضف إلى أنه ربّما يكون من الدوافع التي لا أظنّها تغيب عن ذهن الخطيب أنّ ما ذكره السّابقون قبله من وجوب أن تكون الألفاظ حلوة حادّة ، رطبة طنانة ، طيّبة رنانة ، لا غثّة ولا باردة^(١) ، أو من وجوب " أن تكون المعاني الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة ولا ركيكة مستبشعة "^(٢) ، هي شروط في الحقيقة تدعّم التّصنّع والتكلّف ، وتبعث على المشقة والعنت إذا ما ألزم الكاتب أو الشاعر بها ، بينما الذي اكتفى به الخطيب يتوافق مع الطبع والسجية ، بل لا يأتي السجع عفواً إلا كذلك ، أما إن جاء عفواً بالشروط الأربعة فتلك قدرة لا يملكها بشر .

وبقي شرطان لم يتطرّق لهما الخطيب ، وقد ذكرهما ابن سنان وغيره ، كالجرجاني مثلاً ..

الأول : هو أن تكون المعاني تابعة للفظ السجع لا العكس^(٣) .

وهذا شرط لا يمكن للخطيب أن يغفل عنه ، وما أراه إلا داخلاً في الشرط الأول ، وإلا فإنّ المعنى إن لم يختلف في القرينة الثانية أصبح مجيء السجع غاية كبرى عند الكاتب أو الشاعر على حساب المعنى ، وإن شئت تأمل قول ابن عباد الذي ذكره الخطيب ليؤكد لك هذا المعنى .

أما الشرط الثاني الذي ذكره ابن سنان ، وهو قوله : " ومما يجب اعتماده في هذا : ألاّ يجعل الرسالة كلّها مسجوعة على حرفٍ واحد ؛ لأنّ ذلك يقع تعرّضاً للتكرار ، وميلاً إلى التكلّف . وقد استعمل ذلك في الخطب وغيرها من المنشور ، وهو يقع في المكاتبات خاصة "^(٤) .

فظني أنّ هذا شرط ذو قيمة كبرى ، وإن لم يتوفّر تسقط قيمة السجع والسّجّاع في عين كلّ معجب بهما ، ويكرههما وينفر عنهما ويشمئزّ ، ولك أن تتصوّر قطعة نثرية من

(١) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، والطراز ، ج ٣ ، ص ١٣ .

(٢) الطراز ، ج ٣ ، ص ١٤ ، وانظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ١٩٧-١٩٨ .

(٣) انظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٧٨ ، وأسرار البلاغة ، ص ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٤ ، فقد أكّد عبد القاهر على هذا

المعنى في مواضع كثيرة من كتابه .

(٤) سرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ .

خطبة أو رسالة ارتكزت في السجع على حرفٍ واحد ، كيف يكون شعورك ؟! .

ولم أجد للخطيب تعليلاً يجعله يعرض عن ذكر هذا الشرط ، ربّما لأنّ هذا شرط مفروغ منه ؛ لفداحة ما يترتب على الإخلال به ، لذا تركه الخطيب لثقتّه بالعقلاء من الخطباء والأدباء ، ولا أدلّ على هذا إلا تلك المكاتبة التي ذكرها في آخر حديثه عن تلك الشروط ، وضرب الأمثلة عليها من السجع القصير والمتوسط والطويل ؛ إذ قال : " ومن لطيف السجع قول البديع الهمذانيّ من كتابٍ له إلى ابن فريغون : " كتابي والبحر وإن لم أره ، فقد سمعتُ خبره ، والليث وإن لم ألقه ، فقد تصوّرتُ خلقه ، والملك العادل وإن لم أكن لقيته ، فقد لقيني صبيته ، ومن رأى من السيف أثره ، فقد رأى أكثره " ^(١) .

وهذه لمحة منه إلى ما ينبغي أن تكون عليه القطع الثرية من الخطب والرسائل والمكاتبات ، فضربَ على ذلك مثلاً وإن لم يصرّح بما ينبغي أن يقال في هذا الخصوص .

ومن الإضافات الأخرى التي تفرّد بذكرها الخطيب عن ابن أبي الإصبع ، هو الإشارة إلى صفة السجع ، فمنه القصير ، ومنه الطويل ، ومنه المتوسط .

فمثل الخطيب على الأول - وهو القصير - بقوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ^(٢) .

ومثل على الثاني - وهو الطويل - ^(٣) بقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمْ وَخَنَّاسٌ عَنَّمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ^(٤)
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْفَتْحِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ^(٥) .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

(٢) سورة المرسلات : الآيتان (١-٢) .

(٣) قال الشيخ الصعيدي : " ذهب الباقلاني في (إعجاز القرآن) إلى أنّ السجع الطويل غير مرضي ولا محمود ، وهذا خطأ ؛ لوقوعه في القرآن ، ولعلّه ممن لا يسمي ما في القرآن سجعاً " . انظر : ص ٨٤ من الإيضاح ، هامش (١) . وأقول : ليس لعلّه ، بل هو كذلك .

(٤) سورة الأنفال : الآيتان (٤٣-٤٤) .

ومثل على الثالث - وهو المتوسط - بقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ^(٢) .

وهو في هذه الإضافة متأثرٌ بابن الأثير أيضاً ، غير أنه كان موجزاً لكلامه أشد الإيجاز ؛ إذ اكتفى فقط بضرب الأمثلة ، وفي هذا ما يكفي^(٣) ، بل يرى بعض الدارسين أن لا فائدة من وراء هذه التقسيمات ، فالأولى أن يقال : أن السجع يبدأ بكلمتين وينتهي إلى العشرين أو ما يقاربها^(٤) ، وربما يدلّ هذا على بُعد نظر الخطيب ؛ إذ اكتفى بالإشارة إلى تلك التقسيمات ، ولم يُفصّل فيها القول أو يُعطيها أهمية أكثر من غيرها .

وبقيت إضافتان أيضاً للخطيب القزويني ، تفرد بها عن ابن أبي الإصبع المصري ، وزاد بها عليه .

الأولى : الحديث عن بناء الأسجاع ، وهو من فوائد الإنشاء التي يطول بها باع المنشئ بأن يكون السجع مبنيّ على الوقف^(٥) ، وقد لخصّ هذا في كتابه (التلخيص) في عبارة واحدة ، وهي : " والأسجاع مبنية على سكون الأعجاز "^(٦) ، نحو قولهم : (ما أبعد ما فات ، وما

(١) سورة القمر : الآيتان (١-٢) .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) قال ابن الأثير : " يسمى السجع القصير ، وهو أن تكون كلّ واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة ، وكلّما قلّت الألفاظ كان أحسن ؛ لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع ، وهذا الضرب أوعر السجع مذهباً ، وأبعده مُتناولاً ، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادراً . والضرب الآخر : يسمّى السجع الطويل ، وهو ضدّ الأول ؛ لأنه أسهل مُتناولاً ، وإنما القصير من السجع أوعر مسلکاً من الطويل ؛ لأنّ المعنى إذا صيغ بألفاظ قصيرة عزّ مؤاتاة السجع فيه ؛ لقصر تلك الألفاظ ، وضيق المجال في استجلابه ، وأما الطويل فإنّ الألفاظ تطول فيه ، ويستجلب له السجع من حيث وليس ، كما يقال ، وكان ذلك سهلاً ، وكلّ واحدٍ من هذين الضّرّين تتفاوت درجاته في عدّة ألفاظ " . انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، وانظر : شرح السعد في المطول ، ص ٦٩٧ .

(٤) علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٣٠٥ .

(٥) انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٨١ .

(٦) قال السعد : " أي أواخر فواصل القرائن " . انظر : المطول ، ص ٦٩٧ .

أقرب ما هو آت) ^(١). ووضّح هذا في كتابه (الإيضاح) فقال: "واعلم أنّ فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفاً عليها ؛ لأنّ الغرض أن يزواج بينها ، ولا يتم ذلك في كلّ صورة إلا بالوقف ، ألا ترى أنّك لو وصلت قولهم : (ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت) لم يكن بُدٌّ من إجراء كلّ من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فيفوت الغرض من السجع ؟! وإذا رأيتهم يُخرجون الكلم عن أوضاعها للازدواج في قولهم : (إني لآتية بالغدايا والعشايا) ، أي : بالغدوات ، فما ظنك بهم في ذلك " ^(٢) ؟!

وهذه إشارة من الخطيب إلى الازدواج ؛ إذ قوله : " لأنّ الغرض أن يزواج بينهما " ، يقصد أنّ الغرض من السجع الازدواج ، وهو لا يحصل إلا بالبناء على السكون ، كما ذكر عصام الدين بن عربشاه ^(٣).

قال الدكتور محمد أبو موسى : " والازدواج ليس فناً بديعاً مستقلاً في بلاغة الإيضاح وشرّاح التلخيص ، وإنما أشار الخطيب إليه في دراسة السجع ، حيث يقول : " إنّ فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ... " ، وقد يكون هذا كلّ ما ذكر عن الازدواج في الإيضاح " ^(٤).

إلا أنّ الخطيب استدرك هذا في (الإيضاح) وقال : " فواصل الأسجاع " . انظر : التلخيص ، ص ٢٠٦ ، والإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، وإن كان هناك فرقٌ بين القرينة والفاصلة كما ذكر الدكتور المطعني ؛ إذ قال : " فالقرينة جزء من الكلام يجعل مزاجاً لآخر ، مثل قول أبي الفتح البستي : " ليكن إقدامك توكلّاً ، وإحجامك تأملاً " ، فكلّ من الجزأين زواج الآخر . ولهذا ترى (إقدامك) مساوياً لـ (إحجامك) ، و(توكلّاً) مساوياً لـ (تأملاً) ... أما الفاصلة فهي الكلمة الأخيرة من القرينة أو الفقرة ... " . البديع من المعاني والألفاظ ، ص ١١٨ .

(١) التلخيص ، ص ٢٠٦ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ .

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص ٥٩٠ . وليس هذا كلّ ما ذكر عن الازدواج في الإيضاح ، فقد أشار إليه الخطيب في الجناس كما مرّ في بابه . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، تحت عنوان : (الجناس المزدوج) .

الإضافة الثانية التي تفرّد بها الخطيب القزويني عن المصري هي : إشارته إلى الخلاف في إطلاق السجع على القرآن والشعر ، حيث لم يُشر إلى ذلك ابن أبي الإصبع ، فقال : " وقيل : إنه لا يقال : " في القرآن أسجاع " ، وإنما يقال : " فواصل " ، وقيل : السجع غير مختصّ بالنثر ، ومثاله من الشعر ... وهو ظاهر التكلف ... " ^(١) .

لكن يكفي ملاحظة أنّ ابن أبي الإصبع قد أخرج التشطير والتصريع والترصيع من كتابه (بديع القرآن) الذي خصّه بألوان البديع في القرآن فقط ، وتناولها في كتابه (تحرير التحبير) ، وقال في مقدّمته : " وبعض هذه الأبواب - وهو الأول - يخصّ الشعر ، وباقيها - وهو الأكثر - يعمّ الشعر والنثر ، يعلم ذلك من تبجّر في هذا الكتاب ، فالذي يخصّ الموزون منها ثلاثة وعشرون باباً ، مراعاة لاشتراك القرآن العزيز مع النثر ودخوله في بابيه ، ولانفراد الموزون عن المنثور من كلام المخلوقين ، فثلاثة عشر باباً لا غير ، والله أعلم ، وهي : المواربة - براء مهمل - ، والتسميط ، والتجزئة ، والتسجيع ، والترصيع ، والتصريع ، والتشطير ... وباقي الأبواب - وهي مائة باب - تعمّ الموزون والمنثور ، وتوجد في الكتاب العزيز إلا الأقلّ لمن دقق النظر في الاستنباط " ^(٢) .

التشطير :

الشطّر في اللغة : نصف الشيء وجزؤه ، والجمع : أشطُرُ وشُطُور ^(٣) ، وشطرتُ الشيء : جعلته شطرين ، ومنه مشطور الرجز ، وشطر بصره ونظره : كأنه ينظر إليك وإلى آخر ... ورجلٌ شطر : منفرد .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٥ . وقد علّل في (التلخيص) امتناع أن يقال في القرآن أسجاع ، فقال : " ولا يقال في القرآن أسجاع ؛ وذلك لأنّ السجع نوع من الكلام يعتمد الصنعة ، وقلما ينجو من التكلف ، وإنما يقال فواصل " . انظر : التلخيص ، ص ٢٠٦ .

وقد علّل الصعيدي كون السجع في الشعر ظاهر التكلف ، كما ذكر الخطيب فقال : " لأنّ الشعر فيه ضيق الوزن ، فلا يليق أن يُضاف إليه ضيق آخر بالتزام السجع " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، هامش (٧) .

(٢) مقدّمة تحرير التحبير ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٣) القاموس المحيط ، ص ٥٣٣ ، باب (الراء) ، فصل (الشين) ، مادّة (شطر) .

وقد عدّه جلال الدين الخطيب من السّجع وأدخله فيه ، ولم يفصله عنه ، فقال :
 " ومن السّجع على هذا القول ما يُسمّى التشطير ، وهو أن يجعل كلّ من شطري البيت
 سجعة مخالفة لأختها^(١) ، كقول أبي تمام :

تَدْبِيرٌ مُعْتَصِمٌ ، بِاللّهِ مُنْتَقِمٌ لِلّهِ مُرْتَغِبٌ ، فِي اللّهِ مُرْتَقِبٌ^(٢)

وكان الخطيب بصدد الإشارة إلى أنّ السّجع غير مختصّ بالنثر ، لذا قال : " ومن السّجع
 على هذا القول " ، يعني القول بعدم الاختصاص (ما يسمّى التشطير)^(٣) .

وانتهى كلامه عند هذا الحدّ ، ولم يُحلّل بيت أبي تمام ، ولم يزد عليه بشاهدٍ آخر .

قال السعد شارحاً : " فالشطر الأول سجعة مبنية على الميم "^(٤) .

وإذا كان الخطيب قد عدّ التشطير نوعاً من أنواع السّجع في الشعر ، فإنّ ابن أبي الإصبع

(١) قال السعد : " يجوز أن يسمّى كلّ فقرتين مسجعتين سجعة تسمية لكلّ باسم جزئه ، فقول الحريري :
 " لما اقتعدت غارب الاغتراب ، وأناءتني المتربة عن الأتراب " ؛ سجعة ، وقوله : " طوحت بي طوائح
 الزمن إلى صنعاء اليمن " ؛ سجعة أخرى ... " . انظر : المطول ، ص ٦٩٨ .

وقال عصام الدين : " مخالفة لأختها ، أي مثلها ، وإطلاق الأخت على المثل شائع في اللغة ، قال الله تعالى :
 ﴿ كَلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْتَهَا ﴾ [سورة الأعراف : الآية (٣٨)] " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ . وهذه القصيدة لأبي تمام يمدح بها المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون
 الرشيد ، ويذكر حريق عمورية وفتحها ، أوّلها :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

انظر : شرح ديوان أبي تمام ، للتبريزي ، ج ١ ، ص ٣٢ .

و(المرتغب في الله) : الراغب فيما يقربه من رضوانه ، و(المرتقب) : المنتظر للثواب ، الخائف للعقاب .

انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ .

وقد عدّ ابن مالك بيته هذا من أحسن ما جاء في التشطير . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣٥٣ ،
 (نقلاً عن المصباح ، ص ٧٨) .

(٣) انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ ، وكذلك الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ ، هامش (٣) ، وهو ما ذكره الصعيدي

أيضاً . وقوله : " ما يسمّى التشطير " كأنّه يعيب على مَنْ يفصله عن السّجع ويخصّه ببابٍ وحده .

(٤) المطول ، ص ٦٩٩ .

المصري قد عقد له باباً منفرداً سَمَّاه : باب (التشطير) ، وقال كعادته في سائر أبوابه مشيراً إلى الناظم : " هو أن يقسم الشاعر بيته شطرين ، ثم يصرّع كلّ شطر من الشطرين ، لكنّه يأتي بكلّ شطر مخالفاً لقافية الآخر ؛ لتمييز عن أخيه ، فيوافق فيه الاسم المسمّى " ^(١) .

وقد سبق أنّه أتى بهذا الباب في كتابه (تحرير التحبير) ، وكذلك باب التصريع ؛ لأنّهما من ضمن الأبواب الخاصّة بالشعر وحده دون القرآن الكريم كما ذكر من قبل ^(٢) .

والتأمّل لهذا التفسير الأدبي للتشطير عند ابن أبي الإصبع ، يجده تفصيلاً واضحاً وبياناً دقيقاً لما جاء في تعريف الخطيب ؛ إذ أتى ابن أبي الإصبع على لفظ التقسيم بين شطري البيت ثمّ التصريع ^(٣) لكلّ شطر ، ثم يأتي بكلّ شطر ما هو مخالف لقافية الآخر ، والعملتان الأخيرتان تقابل قول الخطيب : " أن يجعل لكلّ من شطري البيت سجعة ... " ^(٤) .

وزاد على الخطيب معللاً التشطير ، ومُشيراً إلى مطابقة الاسم للمسمّى ، فقال : " لتمييز من أخيه ، فيوافق فيه الاسم المسمّى " ^(٥) .

وهذه مزية للتشطير عند ابن أبي الإصبع ، وإن كانت غير ظاهرة ؛ إذ التشطير يُعطي

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٠٨ .

(٢) وقد تأثر به في فصل التشطير عن السجع ابن معصوم في كتابه (أنوار الربيع) . انظر : الجزء السادس منه ، ص ٢٤٩ ، ٣١٠ ، بل إنّ ابن أبي الإصبع متأثر في هذا بأبي هلال العسكري الذي يُعدّ هذا الفنّ من مخترعاته ومبتكراته ، حيث عقد أبو هلال العسكري باباً سَمَّاه : (في التشطير) ، وعرفه قائلاً : " وهو أن يتوازن المصراعان والجُزآن ، وتتعاذل أقسامُهما مع قيام كلّ واحدٍ منهما بنفسه ، واستغنائه عن صاحبه " . انظر : الصناعتين ، ص ٤٢٨ .

(٣) التصريع مشتقّ من مصراعي الباب ، ولذلك قيل لنصف البيت : (مصراع) ، كأنّه باب القصيدة ومدخلها كما ذكر ابن رشيق . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ . ولا يقال الأشرطة أو أقسام الشطر الواحد من البيت مصراع ، فقله إذن : " يصرّع كلّ شطر من الشطرين " أظنّه ليس في مكانه ، وكان اختيار لفظة (السجعة) لكلّ من شطري البيت عند الخطيب القزويني أصحّ وأدقّ كما يبدو .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

(٥) تحرير التحبير ، ص ٣٠٨ .

للبيت الواحد من الشعر نوعاً من التميّز والتفرّد والوميض ، وشيء من موسيقى صوتية جذّابة تنبعث بين هذه الفواصل فتطرب له الآذان ويهتزّ لها العطف ، فضلاً عن مطابقة الاسم للمسمّى في هذه الموسيقى أو هذا الصنع الأدبي الرفيع ، خاصة إذا ما انطلق من وحي قلم الشاعر عفواً متدفّقاً كحبات المطر .. ثمّ مثلّ عليه بشاهدين من أجمل الشواهد في هذا الباب ، منها بيت أبي تمام السابق ، والآخر بيت لمسلم بن الوليد ، وهو :

موف على مهج ، في يوم ذي رهج كأنّه أجلّ ، يسعى إلى أمل^(١)

ويظهر أنّ الموازنة الأدبية عنده كانت أهمّ من التحليل ، خاصة وأنّ البيت الذي يعجبه يذكره ، ولو لم يُحلّله كما صرّح مرّة في باب (القسم) ، بل إنّ غريزة النقد والتمييز والتوقّف عند النصّ وتدوّقه شيء يجري في دمه ويتملّكه ، وإن استغنى عن التحليل مرّة فلن يتمكّن من دفع هذه الفطرة المغروزة فيه ، فاسمعه يقول : " وعندي أنّ بيت أبي تمام أولى من بيت مسلم بهذا الباب ؛ لأنّه عمد إلى كلّ شطر قدره بيتاً وصرّعه تصرّيعاً صحيحاً ، وبيت مسلم شطره الأوّل مصرّعاً تصرّيعاً صحيحاً ، وشرطه الثاني ليس بمصرع ؛ لمخالفة رويّ وسطه رويّ آخره في الإعراب .. " ^(٢).

ويظهر من قوله هذا أنّه يعدّ السجعتين في الشطر الواحد مصراعين كما أشرت من قبل ، وهذه

(١) انظر : تحرير التحرير ، ص ٣٠٨ .

(موف) : من (أوفى) أي : أشرف وأطلع ، (مهج) : جمع مهجة ، وهو الدم ، أو دم القلب ، والروح ، (يوم ذي رهج) : الرّهج - ويُحرّك - : الغبار ، والسحاب بلا ماء ، والشّغَب . والمعنى : كأنّه يعمل في الناس عمل الأجل في الأمل . قال ابن معصوم : " هذا البيت من جملة قصيدة من غرر قصائد مسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن يزيد بن زائدة الشيباني ابن أخي معن بن زائدة ، الجواد المشهور ، وأولها :

أجرتُ حبل الخليع في الصبّا غزل	وشمّرت همم العدّال في عندي
هاج البكاء على العين الطموح هوى	مفرّق بين توديع ومرتحل
كيف السّلو لقلب بات مُختبلاً	يهذي بصاحب قلب غير مُختبل

انظر : أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ٣١١ .

(٢) تحرير التحرير ، ص ٣٠٨ .

وجهة نظر ، لكنّ المصراع - كما ذكرت - يُطلق على الشّطر كلّ ، وهو (نصف البيت) أو على الكلمة الأخيرة من هذا الشطر ، ولعلّ قوله هذا يقابل قول ابن حجة في تعريفه للتشطير ؛ إذ يقول : " هو أن يكون لكلّ نصف من البيت قافيتان متغايرتان لقافيتيّ النصف الآخر " ^(١) .

وما أقرب قول ابن معصوم إلى وجهة نظر الخطيب في تفضيل لفظة (سجعتين) على (مصراعين) ؛ إذ يقول معلقاً على بيت مسلم بن الوليد : " إلا أنّ في تشطيره عيباً ، وهو اختلاف سجعتيّ العجز في الإعراب ، فإنّ الأولى مرفوعة ، والثانية مجرورة " ^(٢) .

وقوله هذا زيادة بيان على ما عند ابن أبي الإصبع لا يحتاج بعده إلى تعليق ، إلا أنّ ابن أبي الإصبع استثنى أن يكون هذا عيباً في بيت مسلم بن الوليد إذا كان هذا مقصوداً ، فقال : " اللهم إلا أن يُجعل الشّطر على ضربين : ضرب يُصرّع فيه أحد الشطرين دون الآخر ، وضرب يصرعان فيه معاً . والله أعلم " ^(٣) .

التصرّيع :

لم يُفسّر أيّ من العالمين معنى التصرّيع لغوياً كالتشطير ، إلا أنّ التصرّيع في اللغة أصله من الصَّرَع : وهو " المثل ، والضرب .. وهو ذو صرعين : ذو لونين ، وتركتهم صرعين : ينتقلون من حال إلى حال ، والصَّرعان : إبلان ترد إحداهما حين تصدر الأخرى لكثرتها ، والليل والنهار ، أو الغداة والعشي ... ويقال : أتيت صرعى النهار : أي غدوة وعشية .. والمصرعان من الأبواب ، والشعر : ما كانت قافيتان في بيت ، وبابان منصوبان ينضمّان جميعاً ، مدخلهما في الوسط منهما ، وصرع الشعر ، والباب : جعله ذا مصراعين ... " ^(٤) ، والمصراع من الباب : الشّطر ^(٥) .

(١) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ .

(٢) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ٣١١ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٣٠٨ .

(٤) القاموس المحيط ، باب (العين) ، فصل (الصاد) ، ص ٩٥٢ ، مادة (صرع) .

(٥) المصباح المنير ، باب (الصاد) ، ص ٣٣٨ ، مادة (صرع) .

" وسبب التصريح بمبادرة الشاعر القافية ليعلم أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منشور ، ولذلك وقع في أول الشعر ... وربما صرّح الشاعر في غير الابتداء ، وذلك إذا خرج من قصّة إلى قصّة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر ، فيأتي حينئذٍ بالتصريح إخباراً بذلك ، وتنبهاً عليه " (١) .

عده الخطيب ضمن السجع ، فقال : " ومنه ما يسمّى التصريح ، وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب " (٢) ، كقول أبي فراس :

بِأَطْرَافِ الْمُثَقِّفَةِ الْعَوَالِي تَفَرَّدْنَا بِأَوْسَاطِ الْمَعَالِي " (٣)

فالشاهد في تقفية العروض والضرب في اللام المكسورة .

وعقد له ابن أبي الإصبع باباً مستقلاً موسعاً سمّاه : (باب التصريح) ، وتبعه في فصل هذا اللون عن السجع بعض المتأخرين ، كالعلوي وابن حجة وابن معصوم (٤) .. وقد ذكر ابن أبي

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٢) العروض هو التفعيلة التي تقع في آخر الشطر الأول من البيت ، والضرب هو التفعيلة التي تقع في آخر الشطر الثاني من البيت . انظر : علم العروض والقافية ، ص ٢٨ .

وذكر ابن رشيق أنّ العروض : آخر جزء من القسم الأول من البيت ، والضرب آخر جزء من البيت من أي وزن كان . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، وتعريف الخطيب هذا للتصريح قريب الشبه من تعريف ابن رشيق ؛ إذ يقول : " فأما التصريح ، فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه ؛ تنقص بنقصانه ، وتزيد بزيادته " . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٦ . وقد تأثر بالخطيب في إدخال التصريح في السجع : العلامة السيوطي ؛ إذ قال : " المصّرّع وهو من زيادتي ، وذكره في الإيضاح ، وهو توافق آخر المصراع الأول ، وعجز المصراع الثاني في الوزن والروي والإعراب ، وأليق ما يكون في مطالع القصائد " . انظر : معجم المصطلحات البلاغية ، ص ٣٦٦ ، (نقلاً عن شرح عقود الجمان ، ص ١٥١-١٥٢) .

و (المثقف) : المقومة من العوج ، من الفعل (ثَقَّفْتَهُ) - بالتثقيّل - : أَمَمْتُ المَعْوَجَّ منه ، (العوالي) : جمع عالية : وهي أعلى القناة أو رأسه ، أو النصف الذي يلي السنان ، (الأوساط) : جمع وسط الشيء ، وهو أفضل شيء فيه ، (المعالي) : جمع مَعْلَاة ، وهي كسْبُ الشرف .

(٤) انظر : الطراز ، ج ٣ ، ص ١٩ ، وخزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٥١ ، وأنوار الريح ، ج ٥ ، ص ٢٧١ .

الإصبع أنه له ضربين ، هما : البديعي والعروضي ، وقد تعرّض لهما بالتفصيل ، مع بيان الفرق بينهما .. بل ذكر أنّ أهل الصناعة قد قسّموه أيضاً إلى قسمين : قسم سمّوه تصريح التكميل ، وقسم سمّوه تصريح التشطير ، ثم قال : " وقد رأيتُ منهم مَنْ جعل هذا القسم الثاني باباً مفرداً يسمّيه التشطير من غير أن يُضيف إليه لفظة التصريح " ^(١) ، وكأنّ ابن أبي الإصبع هنا في ذكر هذه التقسيمات والتفريعات وبيان الفروق بينهما ينتهج منهج الخطيب ، والحق أنّ هذا ليس بغريب على ابن أبي الإصبع في مؤلّفاته ؛ إذ يعتمد فيها على كلا الأسلوبين : العلمي والأدبي ؛ العلمي الذي يعتمد على أداء الحقائق بوضوح ، والدقّة في البحث ، والاستقصاء ، والإفادة . والأدبي الذي غايته اللذة والتأثير بالعبارة الأدبية الرصينة ^(٢) .

وهذه التقسيمات العلمية التي نسبها ابن أبي الإصبع إلى علماء سابقين قبله لم يتعرّض لها الخطيب القزويني بطبيعة الحال رغم طرافتها ، وحسنُ جداً أنّه لم يتعرّض لها ، وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : إنّ الأساس الذي اعتمده ابن أبي الإصبع في تقسيمه للتصريح إلى تصريح عروضي وآخر بديعي غير مُسلّم به ، ولا يتفق عليه كلّ الناس ؛ لأنّه يظنّ أنّ التصريح العروضي غير التصريح البديعي ، رغم أنّ البديع نفسه يتّسع للاثنتين معاً .

فإذا كان العروضي عنده يُحدث إيقاعاً موسيقياً عذباً ناتجاً عن التصريح نفسه ؛ فإنّ البديعي أيضاً يحقّقه ، فكلاهما مصرّع .

وتقسيمه هذا كان محلّ استنكار أيضاً عند بعض الدارسين ، قال الدكتور أحمد موسى : " التصريح حدّه ومثّل له ، ثمّ جعله على ضربين : عروضي وبديعي ، فالعروضي ما كان التغير شرطاً فيه ، والبديعي ما لم يكن ذلك شرطاً فيه ، وذلك الذي دعاه بالبديعي ، وهو ما عرف في مصطلح علماء العروض بالتقفية ، فلم يكن بديعياً ، وإنّما هو عروضي .

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٠٥ .

(٢) الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ، ص ٣٠٣-٣٠٤ ، بتصرّف يسير .

ولا نعقل سرّاً لهذه التفرقة ، فكلاهما من أبواب العروض ^(١) .

ثانياً : إنّ المتأمل لتعريف الضّرّين عنده يجدهما سواء ، ولا يُعوّل على أيّ اختلافٍ بارزٍ يفصل بينهما .

انظر مثلاً إلى تعريف العروضي عنده ؛ إذ يقول : " فالعروضي عبارة عن استواء عروض البيت وضربه في الوزن والإعراب والتقفية " ^(٢) .

وعرّف البديعي بقوله : " استواء آخر جزءٍ في الصدر ، وآخر جزءٍ في العجز في الوزن والإعراب والتقفية ، ولا يُعتبر بعد ذلك أمر آخر " ^(٣) .

وإذا كان قد قيّد العروضي منه بقوله : " بشرط أن تكون العروض قد غيّرت عن أصلها لتلحق الضّرب في زنته " ^(٤) ، فإنّ هذا الشرط قد يقع من غير تغيير إذا كان الغرضُ واحداً ، وهو التصريح . انظر - مثلاً - إلى ما مثّل به على التصريح البديعي ، وهو قول امرئ القيس :

أَلَا إِنِّي بَالٍ عَلَى جَمَلٍ بَالٍ يَقُودُ بِنَا بَالٍ وَيَتْبَعُنَا بَالٍ ^(٥)

(١) الصبغ البديعي ، ص ٢٨٣ . وإذا كان كلاهما من أبواب العروض ، فإنّ التصريح فيهما يجعلهما من أبواب البديع .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٣٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .

(على جملٍ بَالٍ) : على بعير كأنّه القوس في ضموره وانحنائه ؛ لاجتيازه الصحاري في النهارات الشديدة الحرارة ، (القائد والتابع) : غلامان خادمان للشاعر ، هزيلان يخيلان من كثرة الأسفار والخدمة نهاراً والسّهر ليلاً .

يؤكد الشاعر أنّه إنسانٌ عذّبه الحبّ ، وأضعفه وأشقاه ، يمنطي بعيراً ضامراً مقوساً كأنّه القوس في ضموره وانحنائه ؛ لاجتيازه وقطعه الصحاري تحت أشعة الشمس في النهارات الشديدة الحرارة . يقود جملة ويتبعه غلامان خادمان ، هزيلان ضعيفان من كثرة الأسفار والخدمة نهاراً والسّهر ليلاً . انظر : شرح ديوان امرئ القيس ، ص ٤٩ .

فإنّ هذا البيت من بحر الطويل ، تفعيلته الأخيرة - وهي العروض - مقبوضة في الأصل ، وهي (مفاعيل) ، ومع ذلك فالتصريع واقعٌ من غير إحداث لأجله ، ولعلّ مخالفة العروض للضرب في الأصل في بحر الطويل ثمّ اتزانها واتّفاقها بتسامح لأجل التصريع فقط هو الذي دفع ابن أبي الإصبع إلى التفريق بين النوعين ، فعّد ما كان مصرّعاً على الأصل - وهو مخالفة العروض للضرب في بحر الطويل - هو التصريع البديعي ، كالبيت السابق .

وعدّ ما كان مصرّعاً على غير الأصل - وهو اتّفاق العروض مع الضرب في بحر الطويل - هو التصريع العروضي ، ومثّل عليه بقول امرئ القيس أيضاً :

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمُنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي^(١)

فإنّ تفعيلة العروض - وهي (البالي) - هي (مفاعيل) في الأصل ، أي مقبوضة ، فجاءت على (مفاعيلن) لأجل التصريع فقط ، وهذا هو التصريع العروضي .

والحقّ أنّ كلا التصريعين هما واحد ما دامّا يحدثان ذلك الأثر الموسيقي العذب ، خاصّة وأنّ التصريع واقعٌ في الاثنتين معاً ، فلم لا يسعهما البديع وهما مُحسّنان لفظيّان ؟!

لذا كان الخطيب مُحقّقاً كلّ الحقّ لما جمعهما تحت عنوانٍ واحدٍ سَمّاه : التصريع .. سوى أنّه يرى " متى خالفت العروض الضرب في الوزن جاز أن تجعل موازنة له إذا كان البيت مصرّعاً "^(٢)، يقصد جواز مخالفة الأصل

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٠٦ .

(عم) : بمعنى (أنعم) ، (الطلّ) : الموضع المرتفع ، الشاخص من الآثار ، (البالي) : الفاني ، (يعمن) : يحيا في النعيم ، يُسعد ، (العُصْر) : مفرّدُها العَصْر ، وهو الزمن ، (الخالي) : المكان الفارغ من ساكنيه . انظر شرح البيت في : شرح ديوانه ، ص ٤١ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

في العروض لأجل التصريح ، كقول امرئ القيس :

أَلَا عِمُّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي

وَهَلْ يَنْعَمَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي

فالأصل في بحر الطويل أن تكون عروضه (مفاعيل) وضربه (مفاعيلن) ، ولكن من أجل التصريح جاز أن تكون العروض (مفاعيلن) .

يقول معقّباً على بيت امرئ القيس : أتى بعروض الطويل (مفاعيلن) ، وذلك لا يصحّ إذا لم يكن البيت مصرّعاً ، ولهذا خطئ أبو الطيب في قوله :

تَفَكَّرُهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفٌ^(١)

وقد خطئ أبو الطيب لأنّ عروضه اتفقت مع ضربه من غير علة التصريح التي تسمح له بذلك ، وهذا مخالفة لأصل بحر الطويل ، وهو وجوب قبض عروضه .

قال عبد المتعال الصعيدي : " والشاهد في عدم قبض عروض الطويل من غير تصريح ، وقد اعتذر له من وجهين : أنّ هذا جاء عن العرب ، وأنّه الأصل "^(٢) . والله تعالى أعلم .

ولم يُغفل كلاً العالمين الإشارة إلى أنّ أكثر التصريح يقع في الأوّل ، وأنّ أكثر الشعراء على هذا .

قال الخطيب : " وهي مما استحسن ، حتى إنّ أكثر الشعر صرّع البيت الأول منه "^(٣) .

(١) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(الحكم) : بمعنى الحكمة ، (الظرف) : الكياسة ، وقد ظُرف الرجل - بالضّم - (ظرافةً) فهو (ظريف) .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٧ ، هامش (٤) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٧ . وقد عدّ ابن رشيق مَنْ لا يصرّع أوّل شعره يدلّ على قلة أكثرائه بالشعر . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

وقال ابن أبي الإصبع بتوسّع : " وهو في الأشعار كثير ، لاسيّما في أول القصائد ، وكثير ما يأتي في أثناء قصائد القدماء ، ويندر جيئته في أثناء قصائد المحدثين ، ووقوعه في الأشعار دليل على غزَر مادة الشاعر ، وحكمه في الكثرة والقلّة حكم بقية أنواع البديع ؛ إذ كلّ ضربٍ من البديع متى كثر في شعر سَمَج ، كما لا يحسنُ خلوّ الكلام منه غالباً ، وكلّ ما جاء منه متوسطاً من غير تكلفٍ فهو المستحسن ، وقد يأتي بعض أوائل القصائد مُصمّتاً ، ويأتي التصريح في أثناءها بعد ذلك " (١) .

وابن أبي الإصبع هنا يشير إلى أنّ التصريح قد يأتي في أثناء القصيدة أيضاً ، خاصةً عند القدماء ، وهذا مستحسنٌ عند الانتقال من غرضٍ إلى غرض ، كما ذكر ابن رشيق ، ولعلّه متأثرٌ به .

يقول ابن رشيق : " وربّما صرّع الشاعر في غير ابتداء ، وذلك إذا خرج من قصّةٍ إلى قصة ، أو من وصفٍ شيءٍ إلى وصفٍ شيءٍ آخر ، فيأتي حينئذٍ بالتصريح إخباراً بذلك وتنبيهاً عليه " (٢) .

وقال في مكانٍ آخر : " وأكثر شعر ذي الرّمة غير مُصرّع الأوائل ، وهو مذهبٌ كثيرٍ من الفحول ، وإن لم يُعدّ فيهم لقلّة تصرّفه ، إلا أنّهم جعلوا التصريح في مهمّات القصائد ، وما يتأهّبون له من الشعر ، فدلّ ذلك على فضل التصريح " (٣) .

إلا أنّ الخطيب القزويني - وإن لم يُشرْ إلى ذلك تنظيراً - ، فقد أضافه تطبيقاً ؛ إذ كانت شواهد من شعر القدماء ، كامرئ القيس ، أو حتى أبي فراس الحمداني ؛ إذ التصريح فيها

(١) تحرير التحبير ، ص ٣٠٥ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

واقع في غير الابتداء ، وكذلك شواهد في (التلخيص) ؛ إذ استشهد بيتين لامرئ القيس ، أحدهما مصرّع في الوسط ، وهو :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ صَرْمِي فَاجْمَلِي^(١)

ويشير ابن أبي الإصبع في هذا النصّ أيضاً إلى ما يدلّ عليه التصريح في الشعر من غزر مادة الشاعر ، متّكناً في ذلك على قول لابن رشيق أيضاً ، وهو : " وقد كثر استعمالهم هذا حتى صرّعوا في غير موضع التصريح ، وهو دليلٌ على قوّة الطبع ، وكثرة المادة ، إلا أنه إذا كثر في القصيدة دلٌّ على التكلّف إلا من المتقدمين " ^(٢).

وهذه إضافة من ابن أبي الإصبع لم يذكرها الخطيب القزويني ، وهناك إضافة أخرى في نصّه السابق ، وهي أنّ القصائد التي يقع التصريح في أثنائها ولا يأتي في أولها تُسمّى بالمصمّنة ، ومثّل عليها^(٣). والحقّ أنّ الخطيب القزويني لم يكن في حاجة إلى ذكر كلّ هذه الإضافات ، فمنهجها العلمي يتطلّب منه تجاوزها .

وإذا كان ابن أبي الإصبع من قبل كان يفتّق النصّ الواحد ، ويستخرج ما فيه من صور البديع ، وقياس جماله بما يُحلّيه من عقود البديع ، ويضع اعتباراً مهماً لهذا المقياس البديعي كمقياس أدبي في زنة النصّ زنة جمالية ، إلا أنّ هناك مقياساً أدبياً آخر لا يتناقض مع هذا المقياس أيضاً ، وهو مقياس الطبع ؛ إذ كثرة حبّات البديع الذي تزيد النصّ جمالاً في نظره ، فإنّها لا تكون كذلك عنده أيضاً ، إلا إن كانت جواهر أصيلة ، صادقة غير زائفة ولا مصنوعة ،

(١) انظر : التلخيص ، ص ٢٠٧ .

(صرمي) : هجري ، (فاجملي) : فأحسني صُحْبتي ودّعي هذا العزم .

وروى أبو عبيدة : " وإن كنت قد أرمعت قتلي فاجملي " .

و(فاطمة) كما قال الكلبي : هي ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر ، ولها يقول :

لا ، وأبيك ، ابنة العامري لا يدّعي القوم أنني أفرّ

انظر : شرح ديوانه ، ص ٢٣ .

(٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) انظر : تحرير التحبير ، ص ٣٠٦ .

فهاهو يشهد في آخر الباب لتصريح القدماء بأنه مطبوع ؛ إذ لم يقصدوا إليه ، بينما يتكلفه المحدثون تكلفاً^(١) ؛ إذ يقول : " والتصريح في أثناء القصائد والإصمات في أوائلها يستحسن من القدماء ، ويُستهجن من المحدثين ؛ لأنه من العرب يدلّ على قوّة العارضة وغزَر المادة ، وعدم الكلفة وتخلية الطبع على سجيته ، وهو من المحدثين دليل على قوة التكلف غالباً ، ولا يحسن التصريح ؛ لأنه لا يأتي منهم إلا مقصوداً ، ولا يحسن التصريح إلى ابتداء شعر غير الشعر الذي تقدّم ... ألا ترى إلى كون امرئ القيس كمّا فرغ من ذكر الحماسة في القصيدة الرائية التي ذكرنا منها الأبيات المتقدّمة ، وشرع في ذكر النسيب ؛ صرّح ؟! . وإذ استقرت أشعارهم وجدت أكثرها كما ذكرت لك " ^(٢) .

ومن الجدير بذكره هنا أنّ العالمين الفاضلين رغم تأثرهما - كما يظهر - بابن رشيق وابن الأثير ، إلا أنّهما أهملّا الإشارة إلى نقطتين هامّتين ؛ إحداهما : ذكرها ابن رشيق ، وهي أنّ " التصريح يقع فيه من الإقواء والإكفاء والإيطاء والسناد والتضمين ما يقع في القافية " ^(٣) .

ويمكن التسامح معهما والتماس العذر لهما في عدم ذكر هذه النقطة ؛ لأنها ألصق بالشعر وعروضه من البديع وفنونه .

(١) ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ، ص ٧٥١ ، ٧٥٢ ، بتصرّف .

(٢) تحرير التحرير ، ص ٣٠٧ .

(٣) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٣٢٩ . وانظر تفصيلاته في هذه العيوب في باب القوافي ، ص ٣١٢ .

وجاء في علم العروض والقافية ، للدكتور عبد العزيز عتيق ، تحت عنوان : (عيوب القافية) ، ص ١٦٦ ، أنّ الإقواء : هو اختلاف المجرى الذي هو حركة الروي المطلق بكسر وضمّ .

أما الإكفاء : فقد ذكر ابن رشيق أنّه الإقواء بعينه عند جلة العلماء . انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

والإيطاء : هو إعادة كلمة الرواي بلفظها ومعناها بعد بيتين أو ثلاثة إلى سبعة أبيات .

والسناد : هو اختلاف ما يُراعَى قبل الروي من الحروف والحركات .

والتضمين : هو ألاّ يستقلّ البيت بمعناه ، بل يكون المعنى مجزّأً بين بيتين .. وبعبارة أخرى : أن يكون

البيت الثاني مكملًا للبيت الأول في معناه ... انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٦٦ .

أما النقطة الثانية التي ذكرها ابن الأثير ، فكانت الحقيقة جديرة بالاهتمام ، وقد ذكرها العلوي بعده أيضاً ، وهي مراتب التصريح .

قال ابن الأثير : " وهو عندي ينقسم إلى سبع مراتب ، وذلك شيء لم يذكره على هذا الوجه أحدٌ غيري :

المرتبة الأولى : - وهي أعلى التصريح درجة - : أن يكون كلّ مصراع من البيت مستقلاً بنفسه في فهم معناه غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه ، ويسمى التصريح الكامل ، وذلك كقول امرئ القيس :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ هَجْرًا فَاجْمُلِي

.....

المرتبة الثانية : أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه غير محتاج إلى الذي يليه ، فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به ، كقول امرئ القيس :

فَقَا بُكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمِلِ

.....

المرتبة الثالثة : أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كلّ مصراع موضع صاحبه ، ويسمى التصريح الموجه ، وذلك كقول ابن الحجاج البغدادي :

مِنْ شُرُوطِ الصُّبُوحِ فِي الْمُهْرَجَانِ خِفَّةُ الشُّرْبِ مَعَ خُلُوءِ الْمَكَانِ

.....

المرتبة الرابعة : أن يكون المصراع الأول غير مستقلّ بنفسه ، ولا يفهم معناه إلا بالثاني ، ويسمى التصريح الناقض ، وليس بمرضي ولا حسن .

فمما ورد منه قول المتنبي :

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْباً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّيِّعِ مِنَ الزَّمَانِ

.....

المرتبة الخامسة : أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة وسطاً وقافية ، ويسمى التصريح المكرّر .. كقول عبيد بن الأبرص :

فَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ

.....

المرتبة السادسة : أن يذكر المصراع الأول ، ويكون معلقاً على صفة يأتي ذكرها في أول المصراع الثاني ، ويسمى التصريح المعلق ؛ فمما ورد منه قول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

.....

المرتبة السابعة : أن يكون التصريح في البيت مخالفاً لقافيته ، ويسمى التصريح المشطور ، وهو أنزل درجات التصريح وأقبحها ؛ فمن ذلك قول أبي نواس :

أَقْلَبْنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّثُوبِ وَبِالإِقْرَارِ عُذْتُ عَنِ الْجُحُودِ^(١)



(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٣٧-٢٤٠ . وقد نقل عنه العلوي هذه المراتب ببعض الإضافات من عنده .

انظر - للمراجعة - : الطراز ، ج ٣ ، ص ١٩-٢١ .

المبحث الثالث : لزوم ما لا يلزم وصلته بالأسجاع والفواصل :

قال ابن زريق^(١) :

إِنِّي لَأَقْطَعُ أَيَّامِي وَأُنْفِذُهَا بِحَسْرَةٍ مِنْهُ فِي قَلْبِي تُقَطِّعُهُ
بِمَنْ إِذَا هَجَعَ النَّوَامُ بَتُّ لَهُ بِلَوْعَةٍ مِنْهُ لَيْلِي لَسْتُ أَهْجَعُهُ^(٢)
لَا يَطْمَئِنُّ بَجَنْبِي مَضْجَعٌ وَكَذَا لَا يَطْمَئِنُّ لَهُ مُذُ بِنْتُ مَضْجَعُهُ^(٣)
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الدَّهْرَ يَفْجَعُنِي بِهِ ، وَلَا أَنَّ بِي الْأَيَّامُ تَفْجَعُهُ

الشاعر هنا شدد على نفسه عندما التزم حرف الجيم قبل حرف الروي ، وهو العين^(٤) ،

(١) قال الإمام أبو محمد بن حزم الأندلسي : " مَنْ تَحْتَمُّ بِالْعَقِيقِ ، وَقَرَأَ لِأَبِي عَمْرٍو ، وَتَفَقَّهَ لِلشَّافِعِيِّ ، وَحَفِظَ قَصِيدَةَ ابْنِ زُرَيْقٍ ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ ظَرْفَهُ " . انظر : فصول وقطوف من الأدب ، للدكتور : صالح آدم ييلو ، مطابع الصفا بمكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ٢٨ ، والقصيدة نقلاً عن (طبقات الشافعية للإمام السبكي ، ج ١ ، ٣٠٨) .

(٢) (هجع النوام) : هجع : نام بالليل ، قال ابن السكيت : " وَلَا يُطْلَقُ الْمَجْعُ إِلَّا عَلَى نَوْمِ اللَّيْلِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ " ، (لوعة) : اللوعة : حُرَّةٌ فِي الْقَلْبِ ، وَأَلَمٌ مِنْ حُبٍّ أَوْ هَمٍّ أَوْ مَرَضٍ .

(٣) (بنت) : البين : يكون فرقةً ووصلاً ، وهنا : البعد أو الفراق .

(٤) حرف الروي هو آخر حرف صحيح في البيت ، وعليه تُبنى القصيدة وإليه تُنسب ، فيقال : قصيدة ميمية أو نونية أو عينية ، إذا كان (الروي) فيها ميماً أو نوناً أو عيناً . انظر : علم العروض والقافية ، للدكتور : عبد العزيز عتيق ، ص ١٣٦ . قال السعد : " سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَبْيَاتِ مِنْ رَوَيْتِ الْحَبْلِ : إِذَا فَتَلْتَهُ ، وَهَذَا لِأَنَّ الْفَتْلَ يَجْمَعُ بَيْنَ قَوَى الْحَبْلِ ، أَوْ مِنْ : رَوَيْتُ عَلَى الْبَعِيرِ : إِذَا شَدَدْتَ عَلَيْهِ الرِّوَاءَ ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يَجْمَعُ بِهِ الْأَحْمَالُ ، أَوْ مِنَ الرِّيِّ ؛ لِأَنَّ الْبَيْتَ يَرْتَوِي عِنْدَهُ فَيَنْقَطِعُ كَمَا أَنَّ عِنْدَ الْارْتَوَاءِ يَنْقَطِعُ الثَّوْبُ " . انظر : المطول ، ص ٧٠٣-٧٠٤ .

ولا يمكن اعتبار حرف الروي هنا هو الهاء ، إنما هو العين كما أشرت ؛ لأنَّ الهاء لا تصلح أن تكون رويّاً إلا إذا كانت أصلية ؛ أي من بنية الكلمة ، وكان ما قبلها محرّكاً ، وذلك كقول علي الجارم :

وهذا هو ما يُسمى بالالتزام في علم البديع ، وهو من المحسنات اللفظية ، ويسمى أيضاً : الإلزام ، والإعانات ، والتضييق ، ولزوم ما لا يلزم^(١) ، وإن أتى عفواً كما في هذه القصيدة .

وجاء في اللغة : لزم : الشيء (يلزم) (لزوماً) : ثبت ودام ، ويتعدى بالهمزة فيقال : (ألزمته) ، أي : أثبتته وأدومته ، و(التزمت) : اعتنقته فهو (ملتزم) ، ومنه يُقال لما بين الكعبة والحجر الأسود : (الملتزم) ؛ لأنّ الناس يعتنقونه ، أي : يضمّونه إلى صدورهم^(٢) .

وجاء في القاموس المحيط : " لازمه مُلازمةً ولزماً والتزمه وألزمه إياه فالتزمه ، وهو لزّمة ، كهَمْزة : أي إذا لزم شيئاً لا يفارقه " ^(٣) .

قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾^(٤) ، أي : عذاباً لازماً^(٥) .

نشأته :

ورد هذا اللون البديعي عذباً ليناً رقيقاً عند المتقدمين لا كلفة فيه ولا استجلاب أو كدح ومشقة ، بل تسيل به خواطرهم كما يسيل النмир الصافي ، " والألفاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلامة طبع ، وكانت غير مستحلبة ولا متكلفة ، جاءت غير محتاجة إلى التألف ، ولا شك أنّ صورة الخلق غير صورة التخلّق " ^(٦) .

يَمْشِي فَلَا يَشْكُو وَلَا يَتَأَوُّهُ	أَبْصَرْتُ أَعْمَى فِي الظَّلَامِ بِلَنْدُنْ
حَيْرَانٌ يَخْبِطُ فِي الظَّلَامِ وَيَعْمَهُ	فَأَتَاهُ يَسْأَلُهُ الْهَدَايَةَ مُبْصِرٌ
أَنْسَى تَوَجُّهَهُ خُطُوهُ يَتَوَجَّهَهُ	فَاقْتَدَاهُ الْأَعْمَى فَسَارَ وَرَاءَهُ

انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٤٩ .

والهاء في قصيدة ابن زريق ليست أصلية ، أو من بنية الكلمة .

(١) راجع خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٣٢١ ، ومعجم المصطلحات البلاغية ، ص ٥٧٥ .

(٢) المصباح المنير ، ص ٥٥٢ ، باب (اللام) ، مادة (لزم) .

(٣) القاموس المحيط ، ص ١٤٩٤ ، باب (الميم) ، فصل (اللام) ، مادة (لزم) .

(٤) سورة الفرقان : الآية (٧٧) .

(٥) أساس البلاغة ، ص ٥٦٤ ، مادة (لزم) .

(٦) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

ومن هذه الصور العفوية سليمة الطبع قول كثير عزة المعروف ، والذي استشهد به كثير من المتقدمين والمتأخرين ، وهو :

خِلِيْ هَذَا رُبْعُ عَزَّةٍ فَاغْقِلَا قُلُوصِيْكُمْأُ ثُمَّ احْلُلَا حَيْثُ حَلَّتِ^(١)
وَمَا كُنْتُ أَذْرِي قَبْلَ عَزَّةٍ مَا الْهَوَى وَلَا مُوجِعَاتِ الْحُزْنِ حَتَّى تَوَلَّتِ

إلى أن يقول :

وَأَنِّي وَتَّيَّامِي بِعَزَّةٍ بَعْدَمَا تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا . . وَتَخَلَّتِ
لَكَ الْمُرْتَجَى ظِلُّ الْغَمَامَةِ كُلَّمَا تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّتِ^(٢)
كَأَنِّي وَإِيَّاهَا سَحَابَةٌ مَّحَلٌ رَجَاهَا فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ^(٣)

(١) علم البديع ، ص ٢٣٥-٢٣٦ ، (نقلاً عن أمالي القاضي ، ج ٢ ، ص ١٠٧) .

(ربيع عزة) : الدار بعينها حيث كانت ، والموضع يرتبكون فيه في الربيع ، (قلوصيكما) : القلوص من الإبل : الشابة ، أو الباقية على السير ، أو أول ما يُركب من إناثها إلى أن تُثني ، ثم هي ناقة ، والناقة الطويلة القوائم .

(٢) (المقيل) : الاستراحة في زمن القيلولة ، (اضمحلت) : ذهب وتلاشت .

(٣) (محَل) : من المحل ، وهو الجذب وانقطاع المطر ويس الأرض من الكلاء . وأحل البلد فهو (ماحل) ، ولم يقولوا : (مُحِل) ، وربما قالوه في الشعر . و(أَمَحِل) القوم : أجذبوا ، و(المحل) : المكر والكيد والغبار والشدّة .

ورغم استشهاد الكثيرين على اللزوم بهذه القصيدة ، إلا أن التاء هنا تعتبر وصلاً ، ويعتبر الحرف الملتزم قبلها رويًا ؛ لأنّ الشاعر التزم حرفاً متحركاً قبل التاء ، أما إذا اختلف الحرف الذي قبل التاء ؛ أي لم يلتزم ، فإنه يتعين أن تكون التاء رويًا لا وصلاً . انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٥٠ .

لكن يمكن أن يعدّ من اللزوم الظاهر عند كثير عزة من غير لبس هو قوله :

وَمَا هَجَرْتُكَ النَّفْسُ يَا عَزَّ أَنْهَا قَلَّتْكَ وَلَا أَنَّ قَلَّ مِنْكَ نَصِيْهَا
وَلَكِنَّهُمْ يَا أَحْسَنَ النَّاسِ أُولِعُوا بِقَوْلٍ إِذَا مَا جِئْتُ : هَذَا حَيِيْهَا

انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ٩٢ .

فَإِنْ سَأَلَ الْوَاشُونَ : فِيمَ هَجَرْتَهَا ؟ فَقُلْ : نَفْسُ حُرِّ سُلَيْتٍ فَتَسَلَّتْ

قال ابن الأثير : " وهذه القصيدة تزيد على عشرين بيتاً ، وهي مع ذلك سهلة لينة ، تكاد تترقق من لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة شيء " (١) .

وهي كذلك ؛ إذ استشهد ببعضها عبد القاهر الجرجاني ضمن ما استشهد به في باب (ما يتحد فيه الوضع ويدق فيه الصنع من النظم) ، وهو الباب الأعظم والنمط العالي الذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه (٢) .

ووجدتُ لامرئ القيس قوله :

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْمَزَارَ قَرِيبُ	وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ (٥)
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا	وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ
فَلِنْ تَصِلِينَا فَالْمَوَدَّةُ بَيْنَنَا	وَإِنْ تُعِدِينَا فَالْمَزَارُ قَرِيبُ
أَجَارَتْنَا مَا فَاتَ لَيْسَ يَوْوُبُ	وَمَا هُوَ آتٍ فِي الزَّمَانِ قَرِيبُ

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٧ . قال ابن سنان : " لقد لزم اللام في جميعها ، فلما سألناه عن البيت الذي يروى فيها ، وهو :

أَصَابَ الرَّدَى مَنْ كَانَ يَهْوَى لَكَ الرَّدَى وَجُنَّ اللَّوَاتِي قُلْنَ عَزَّةَ جَنَّتْ

قال : هذا البيت ليس من القصيدة " . انظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٥) انظر : ديوان امرئ القيس ، ص ١١ ، و ص ٣٥١ ، وهي من زيادات نسخة أبي سهل ، كما ذكر الشارحان للديوان .

(المزار) : مكان الإقامة الذي يُزار ، (العسيب) : اسم جبل .

وانظر من اللزوم عنده (ص ٢١٦) من ديوانه ، قوله :

لعمري لقد بانت بجاجة ذي هوى	سُعَادُ ، وراعت بالفراقِ مُرَوَّعَا
وقد عمِرَ الروضاتِ حولَ مُحَطَّطٍ	إِلَى اللَّجِّ مَرَأًى مِنْ سُعَادٍ وَمَسْمَعَا
مَتَى تَرَدَّاداً مِنْ سُعَادٍ يَقِفُ بِهَا	وَتَسْتَجِرُّ عَيْنَاكَ الدُّمُوعُ فَتَدْمَعَا

وَلَيْسَ غَرِيباً مَنْ تَنَاءَتْ دِسَارُهُ وَلَكِنَّ مَنْ وَارَى التُّرَابُ غَرِيبُ

فالالتزام كما ترى جاء عفواً وغير مقصود ، لذا تلمحه أحياناً عند بعض القدماء في بيتين أو ثلاث ، " والجودة تُستحسن في الشعر ، فإذا كثرت صارت قَطَطاً ^(١) ، ولهذا قالوا : خير الأمور أوسطها ، والحسنة بين الشئيين ، والفضيلة بين الرذيلتين " ^(٢) .

ومثل هذه القلة المستحسنة من الالتزام قول الممزق العبدى :

أَرَقْتُ فَلَمْ تَخْدَعْ بَعِيْنِي وَسُنَّةُ وَمَنْ يَلْقَ مَا لَاقَيْتُ لَا بُدَّ يَأْرُقُ ^(٣)
تَبَيْتُ الْهُمُومَ الطَّارِقَاتُ يُعِدُّنِي كَمَا تَعْرِى الْأَهْوَالُ رَأْسَ الْمُطْلَقِ ^(٤)
وَنَاجِيَةِ عَدَيْتُ مِنْ عِنْدِ مَا جِدِ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ سُخْطٍ مُفَرَّقِ ^(٥)

لكن يُلاحظ أنّ هذا الفن الرفيع الرقيق قد شطا عند المتأخرين مع تقدّم الزمن ، فأكثروا منه وتوسّعوا فيه عن تقصّد وتعمّد ، حتى بدا أثر الكلفة والصنعة في شعرهم واضحاً عليه ، ناسياً الواحد منهم أنّه يتكلّم لِيُفهِم ، ويقول لِيُبَيِّن كما ذكر الخطيب ^(٦) ، مُظهراً بذلك براعته و" كأنما يريد أن يدلّ بذلك على مقدّراته في النظم ، وسعة إحاطته باللغة ومفرداتها " ^(٧) .

(١) قَطَطاً : القَطَط : شَعْرُ الزَّبْحِي ، أو جعودة الشعر .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ١٦٤ .

(٣) الأصمعيّات ، اختيار الأصمعيّ أبي سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، ديوان العرب مجموعات من عيون الشعر ، ط ٥ ، بيروت - لبنان ، د.ت ، ص ١٦٤ .

(تخدع) : أي لم تمرّ بعيني نعسة .

(٤) (المطلق) : التطليق أن ينفس عن الملدوغ ساعة ، فإذا عاودَه الألم عاد إلى حالته الأولى .

(٥) (الناحية) : الناقة السريعة ، (إلى واحد) : يقال : رجل واحد : متقدّم في بأس أو علم أو غير ذلك ، كأنّه لا مثل له ، فهو وحده لذلك . انظر : شرح الأصمعيّات ، ص ١٦٤ .

(٦) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ . وهو متأثرٌ في هذا القول بعبد القاهر الجرجاني .

(٧) علم البديع ، ص ٢٣٧ ، وذكر ابن جني أنّ " أكثر هذه الالتزامات في الشعر ؛ لأنّه يحظر على نفسه ما تبيحه الصنعة إياه إدلالاً ، وتغطراً ، واقتداراً وتعالياً " . انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

ومن أشهر هؤلاء الشعراء المتأخرين : أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ) ، فقد " كان أكثرهم في نظم هذا النوع التزاماً ، حتى إنه صنع كتاباً وسَمَّاه : (اللزوميات) ، جاء فيه بأشياء بديعة ، إلا أنَّ فيه من عثرات لسانه كثيراً " (١) .

كقوله :

يَا نِسْوَةَ الْحَيِّ إِنْ كُنْتُنَّ أَظْلِيَّةً فَكُلُّكُنَّ يَصِيدُ الْخَادِرُ الرَّزْمُ (٢)
كُثِيرٌ أَنَا فِي حَرْفِي ، أَهْبْتُ لَهُ فِي التَّاءِ ، يَلْزَمُ حَرْفًا لَيْسَ يَلْتَزِمُ (٣)
وَالْمَرْءُ يَرْفَعُ أَعْمَالًا ، فَتَخْفِضُهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ أَضْحَى ، وَهُوَ مُنْجَزَمُ (٤)

وذكر ابن جني (٥) أنَّ " في المحدثين مَنْ يسلك هذا الطريق ، وينبغي أن يكونوا إليه أقرب ، وبه أحجى ؛ إذ كانوا في صنعة الشعر أرحب ذراعاً ، وأوسع خناقاً ؛ لأنَّهم فيه متأنون ، وعليه متلومون (٦) ، وليسوا بمترجليه ، ولا مستكرهين فيه " (٧) .

(١) خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٣٢١ . ولقد صرَّح أبو العلاء في مقدمة (اللزوميات) بتكلفه فقال : " وقد تكلفتُ في هذا التأليف ثلاث كلف : الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها . والثانية : أن يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة : أنه لزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم من ياءٍ أو تاءٍ وغير ذلك من الحروف " . انظر : اللزوميات ، ج ١ ، ص ٣٠ .

(٢) اللزوميات ، لأبي العلاء المعري ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، د.ت ، ص ٣٩٧ .

(الخادر) : الأسد ، (الرزم) : الشديد الصوت .

(٣) (كثير) : هو كثير عزة الشاعر الأموي . قوله : (في التاء) : يشير إلى التزام كثير حرف اللام في قصيدته التائية المشهورة .

(٤) (منجزم) : منقطع .

(٥) أبو الفتح عثمان بن جني ، من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف ، لزم أبا علي الفارسي أربعين سنة ، صنّف : الخصائص في النحو ، وسرّ الصناعة ، ومحاسن العربية .. وغيرها . وُلِدَ قبل سنة (٣٣٠ هـ) ، ومات في صفر سنة (٣٩٢ هـ) . انظر : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٦) متلومون : من تلوم تلوماً : أي تمكث .

(٧) الخصائص ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

وعدّ منهم ابن الرومي أيضاً .

ومن الإسفاف والردالة والجهامة في هذا الباب قول أحدهم :

إِنَّ جِسْمِي شَفَّ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ وَفُؤَادِي لَجَوَى الْحُزْنِ غَرَضٍ
كَجَرَابٍ كَانَ فِيهِ جُئِبٌ دَخَلَ الْفَأْرُ عَلَيْهِ فَانْقَرَضُ^(١)

فأين مَنْ يُنْضِي خاطره في طلب اللزوم ، ويُبعث على تتبّعه واقتصاص أثره ممن هو مستريحٌ من ذلك كلّه إلا ما سنع له بالاتفاق لا بالسعي والطلب^(٢) .

وبالنظر إلى النشأة العلمية لهذا اللون البديعي ، فإنّ المتبّع له يجد أنّ الجاحظ التزم ما لا يلزم عفواً فيما يروى له^(٣) ، إذ يقول :

مَرَّ غَرَابُ الْبَيْنِ مِنْ حَالِقٍ لَهُ نَعِيبٌ فَرَشَ قَنَاهُ^(٤)
عَنْ قَوْسٍ وَصَلِ بِسَهَامِ الْهَوَى فَلَمْ نَزَلْ حَتَّى صَرَعْنَاهُ

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ١٦٤ .

و(الجراب) : المزود أو الوعاء .

(٢) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، بتصرف .

وأنضى خاطره : أهزله وأضعفه .

(٣) أوردَ هذه الأبيات أسامة بن منقذ في كتابه (البديع في نقد الشعر) ، ص ١٥٤ ، مُستشهداً بها في باب

(المعارضة والمناقضة) ، وذكر ابن حجة أنّ الأسدي أنشد عن الجاحظ - رحمه الله - في هذا الباب

بيتين ، هما :

عَصَانِي قَوْمِي وَالرَّشَادُ الَّذِي بِهِ أَمَرْتُ وَمَنْ يَعَصِ الْمُحَرَّبَ يَنْدَمُ
فَصَبْرًا بَنِي بَكْرٍ عَلَى الْمَوْتِ إِنَّنِي أَرَى عَارِضًا يَنْهَلُ بِالْمَوْتِ وَالْدَمَ

انظر : خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ ، بينما ذكر ابن أبي الإصبع أنّ الآمدي هو الذي أنشدها عنه .

انظر : تحرير التحبير ، ص ١٦٦ .

(٤) (حالق) : الجبل المرتفع .

وَبَاشِقُ الْحُبِّ نَضْبُنَا لَهُ بُلْبُلُ الصَّدْقِ فَصِدْنَاهُ^(١)

ثم ورد عند ابن المعتز تحت عنوان : (إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له)^(٢).

واستشهد عليه بشواهد عدة ، منها قول رافع بن هريم اليربوعي :

إِذَا صَارَ لُونِي كُلُّ لَوْنٍ وَبَدَلْتُ نَضَارَةً وَجْهِي مُخَضَّبًا بِاصْفَرَارِيَا
فَسِرِّي كَأَعْلَانِي وَتِلْكَ سَجِيَّتِي وَظُلْمَةٌ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهَارِيَا^(٣)

وظني أنه لم يكن سابقاً إليه ؛ لأنّ الجاحظ قد أورده قبله وإن لم يُسمّه .

إلا أنّ الغريب أنّ العنوان عند ابن المعتز قد حُرّف عند بعض البلاغيين باسم (عتاب المرء نفسه) مع نسبته إلى ابن المعتز ، وربما وقعوا على نسخة محرّفة فنقلوا منها ، كابن أبي الإصبع ، وابن حجة الحموي ، كما ذكر الدكتور أحمد موسى ؛ إذ أشار ابن أبي الإصبع إلى أنّ هذا اللون - عتاب المرء نفسه - من أفراد ابن المعتز ، ثم ساق البيتين اللذين ساقهما ابن المعتز^(٤) ، وأنكرهما فقال : " وما أرى في هذين البيتين من عتاب المرء نفسه إلا ما يتخيل به لمعناهما ، فيقدر أنّ هذا الشاعر لما أمر بالرشد وبذل النصيح ولم يُطع ، ندم على بذل النصيحة لغير أهلها ، وملزوم ذلك عتابه لنفسه ، فيكون دلالة البيتين على عتابه لنفسه دلالة

(١) (باشق) : طائر ، وهو اسم مُعَرَّب .

(٢) البديع ، ص ١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

و(مُخَضَّبًا) : أي مخضوباً ، من الخضاب ، وهو ما يختضب به .

(٤) راجع الصبغ البديعي ، ص ١٤٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٤١٧ .

والبيتان اللذان ساقهما هما بيتا الجاحظ السابقين :

عَصَانِي قَوْمِي وَالرَّشَادُ الَّذِي بِهِ أَمَرْتُ وَمَنْ يَعِصِ الْمُجَرَّبَ يَنْدَمِ
فَصَبْرًا بَنِي بَكْرٍ عَلَى الْمَوْتِ إِنَّنِي أَرَى عَارِضًا يَنْهَلُ بِالْمَوْتِ وَالْدَمِ

انظر : البديع ، ص ١٧٦ .

التزام لا دلالة مطابقة ولا تضمين ، - ثم قال - : " ولا يصلح أن يكون شاهد هذا الباب إلا قول شاعر الحماسة :

أَقُولُ لِنَفْسِي فِي الْخَلَاءِ أَلْوَمَهَا لَكَ الْوَيْلُ مَا هَذَا التَّجَلُّدُ وَالصَّبْرُ ^(١)

وواقفه ابن حجة في الاستنكار ، فقال : " هذا النوع - أعني عتاب المرء نفسه - لم أجد العتب فيه مرتباً إلا على مَنْ أدخله في فنّ البديع ، وعدّه من أنواعه ، وليس بينهما نسبة ، والذوق السليم أعدل شاهدٍ على ذلك ، - ثم نقل كلام ابن أبي الإصبع وقال - : " وقوله صحيح " ، وعبر عن إعجابه بشاهده فقال : " فانظر ما أحلى ما صرّح هذا الشاهد بذكر النفس واللوم لها ، وخاطبها بكاف الخطاب ؛ ليتمكن عتبه وتقريعه المؤلم لها " ^(٢) .

وهذا كما هو واضح سوء فهم لما جاء عند ابن المعتز مترتب على تحريف في العنوان قد يكون واقعاً في إحدى النسخ ، فأثبتته العلماء من بعد ، وتناولوه بالتحليل والتعليق بصورته الخرقية وليست الأصلية .

أما عن تطوّر هذا اللون عند مَنْ جاء بعد ابن المعتز فإنّ المتتبع له يجد أن قدماء بن جعفر ساقه - حسب علمي القاصر - ضمن الحديث عن عيوب القوافي ، فقال : " ومنه السناد ، وهو أن يختلف تصريف القافية " ^(٣) .

(١) تحرير التعبير ، ص ١٦٦ .

(٢) خزانة الأدب ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٣) نقد الشعر ، ص ١٨٧ .

والسناد : هو اختلاف ما يُراعى قبل الروي من الحروف والحركات ، وهو أنواع تبعاً لما قبل الروي من حروف القافية والحركات ، منها : سناد التأسيس ، وسناد الرّدف ، الذي هو ردف بيتٍ وترك آخر ، مثل :

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً فَأَرْسِلْ طَبِيباً وَلَا تُوصِهِ
وَإِنْ بَاتَ أَمْرٌ عَلَيْكَ التَّوَى فَشَاوِرْ لَبِيباً وَلَا تَعْصِهِ

انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

وكان من ضمن ما استشهد به قول الفضل بن العباس اللّهي :

عَبْدُ شَمْسٍ أَبِي فَإِنْ كُنْتَ غَضَبِي فَاْمْلِي وَجْهَكَ الْمَلِيحَ خُمُوشًا
نَحْنُ سُكَّانُهَا وَقُرَيْش وَبَنَّا سُمَيَّتَ قُرَيْشٍ قُرَيْشًا^(١)

ثمّ قال : " والسناد من قولهم : خرج بنو فلان برأسين متساندين ، أي هذا على حياله وهذا على حياله ... " ^(٢).

وعده أبو هلال العسكري من عيوب القوافي أيضاً ، ولم يُسمّه كذلك ؛ بل لم يُسمّ ذلك العيب أصلاً ، وإنما قال : " ومما عيب من القوافي : قول ابن قيس الرقيات ، وقد أنشد عبد الملك :

إِنَّ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعَنِي وَقَرَعَنَ مَرُوتِيهِ
وَجَبَبَنِي جَبَّ السَّنَامِ فَلَمْ يَتْرُكْ رِيشًا فِي مَنَاكِيهِ^(٣)

فقال له عبد الملك : " أحسنت ، إلا أنك تخنّثت في قوافيك ، فقال : ما عدوت قول الله ﷻ : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةٌ ﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةٌ ﴿ ﴾ ، وليس كما قال ؛ لأنّ فاصلة الآية حسنة الموقع ، وفي قوافي شعره لين " ^(٤) ، وإنما عدّ من العيوب لما فيه من التكلف والثقل .

ثم أخذ مفهوم الالتزام يقترب من الوضوح عند ابن رشيق ، وإن أدرجه في باب (القوافي) كسابقيه ، وذلك عندما تحدث عن التزام بعض الشعراء - كابن الرومي - حركة

(١) نقد الشعر ، ص ١٨٨ .

و(خُمُوشاً) : من خمّش الوجه : خدشه ولطمه .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٣) (مروتية) : من المرو ، وهي حجارة بيض بَرّاقة توري النار ، (جبيني) : من الجبّ ، وهو القطع والغلبة ، و(الجبب) - مُحركة - : قطع السنام ، أو أن يأكله الرَّحْلُ فلا يكبر ، فيقال : بعيرٌ أَجَبُّ ، وناقَةٌ جَبَاءٌ .

(٤) الصناعتين ، ص ٤٧١ . وقد أورد هذه الحكاية ابن جني في كتابه (الخصائص) ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ ، تحت باب : (سقطات العلماء) .

قبل حرف الروي ، ومثل عليه بقوله من مطوّلته :

أَبْنَى ضُلُوعِي جَمْرَةً تَتَوَقَّدُ عَلَى مَا مَضَى أُمَّ حَسْرَةً تَتَجَدَّدُ^(١)

فكأن الالتزام عنده كان يعني فقط التزام حركة قبل حرف الروي ، وزاد بعده ابن سنان في (سرّ الفصاحة) التزام الحرف في خاتمة حديثه في الألفاظ المؤلفة عن السجع والفواصل ، واتخذ الالتزام عنده صفة التوسّع والبيان ؛ إذ بيّن الغرض منه عند الشعراء . وضرب على ذلك أمثلة وعلّق عليها ، وجاء على ذكر أول من سلك هذا المنهج^(٢) .

وبذلك يمكن القول : إنّ ابن سنان هو أوّل من وسّع الحديث عن هذا اللون البديعي بعد ابن جني ، وهذا من سنن اللاحقين بعد المتقدمين ، وكأنّ ابن سنان بهذا البيان قد مهّد الطريق أمام ابن الأثير ومن جاء بعده بإطلاق مسمّى (لزوم ما لا يلزم) على هذا النوع من الفنّ ، خاصةً قوله في أوّل الكلام عنه وإن لم يضع له عنواناً : " وقد التزم بعض الشعراء في القوافي إعادة ما لا يلزمه طلباً للزيادة في التناسب ، والإغراق في التماثل "^(٣) .

والتقى الاثنان (ابن سنان ، وابن الأثير) وهما ممن ينتمون للمدرسة الأدبية في ضرب روائع الأمثلة على هذا اللون وتذليلها بتعليقاتٍ أدبية تنمّ عن ذوقٍ رفيع .

وزاد ابن الأثير بيانَ الفرق بينه وبين السجع ، وبين المتكلّف فيه وغير المتكلّف ، وألحق

(١) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، وذكر ابن جني أنّ ابن الرومي رام ذلك لسعة حفظه ، وشِدّة مأخذه ، فمن ذلك رأيته في وصف العنب ، وهي قوله :

ورازقي مُخْطَفِ الخُصُورِ كَأَنَّهُ مَخَازِنُ البَلُورِ

انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ، ويذكر أن ابن جني كان قد تحدث عن اللزوم قبل أبي هلال العسكري وابن رشيق ، وعقد له باباً تحت عنوان : (التطوُّع بما لا يلزم) ، فكان أوضح بياناً منهما .

انظر : الخصائص ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) انظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

باللزوم تصغير الكلمة الأخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام المنثور ، ومثّل على ذلك ^(١).

ولم ترد عند السكاكي أيّ إشارة عن هذا اللون البديعي .

وأورده ابن أبي الإصبع في كتابيه ، تحت اسم : (الالتزام) ، واتخذ تعريفه له إطاراً محدداً علمياً بعض الشيء ، فقال : " هو أن يلتزم الناثر في نثره أو الشاعر في شعره قبل روي البيت من الشعر حرفاً صاعداً على قدر قوّته ، وبحسب طاقته ، مشروطاً بعدم الكلفة " ^(٢).

وبمثل هذه الصورة من التحديد وشبه التقنين ورد الالتزام عند العلوي في (الطراز) تحت ما استقرّ عليه أخيراً عند العلماء المتأخرين ، خاصة الخطيب ومَن تبعه ، وهو : (لزوم ما لا يلزم) ، غير أنّه كان متوسّعاً فيه ، فأدخل لزوم الحركة في دائرته ^(٣). ولعلّ إشارة ابن رشيق السابقة إلى التزام الحركة في شعر ابن الرومي سوّغت له هذا التوسّع ^(٤).

وجاء الخطيب القزويني واستقرّ المصطلح على ما هو عليه عند العلوي ، إلا أنه كان أكثر علمية ودقّة وتحديدًا ، واستمرّ هذا التعريف هو المتعارف عليه إلى الوقت الحاضر ، وهو : " أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع " ^(٥).

وزاد وقال : " وقد يكون ذلك في غير الفاصلتين أيضاً ، كقول الحريري : (وما اشتهر العسل من اختار الكسل) " ^(٦).

وسياتي بيان هذا وتفصيل القول فيه أثناء الموازنة .

قال الشيخ الصعيدي مُعلّقاً على تعريفه : " إنما لم يقل : " في مذهب السجع أو القافية "

(١) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(٢) تحرير التحبير ، ص ٥١٧ ، وانظر تعريفه له بصياغة أخرى تقرب من هذه في : بديع القرآن ، ص ٢٢٧ .

(٣) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٤) انظر : العمدة ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٥) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٦) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩١ .

كما هو مقتضى السياق ، للإشارة إلى أنّ لزوم ما يلزم ضربٌ من السجع وإن وقع في الشعر " ^(١) ، ولذلك عدّه السيوطي من الأنواع البديعية المتعلقة بالفواصل هو والتشريع ، ووسّع دائرة الالتزام بحرفين وأكثر بشرط عدم الكلفة ^(٢) ، كما صنع ابن حجة قبله ^(٣) .

واللافت للنظر أنّ السيوطي لم يمثل عليه إلا من القرآن الكريم ، وهو ما يتعارض مع ما جاء في تعريفه ، إذ يقول : " أن يلتزم في الشعر أو النثر حرفٌ أو حرفان فصاعداً قبل الروي ، بشرط عدم الكلفة " ^(٤) .

والقرآن ليس بشعرٍ ولا ينثر !! .

ولعلّه بصرف النظر عما جاء في تعريفه كان استشهاده من القرآن الكريم مراعاة للغرض من تأليفه لكتاب (الإتقان في علوم القرآن) ، وليتماشى مع طبيعة ما انتهجه فيه . والله تعالى أعلم .

وعلى الضدّ منه ابن سنان الخفاجي ؛ إذ إنّ أغلب شواهده كانت شعرية ؛ لأنّ السياق كان يتطلب منه هذا ؛ إذ ورد في معرض الكلام عن القوافي ^(٥) .

وإليك أمثلة على صور الالتزام :

فمن الالتزام بحرف ، قول ابن هانئ المغربي :

إِذَا أَصْلَدُوا أَوْرَى ، وَإِنْ عَجَلُوا وَتَى وَإِنْ نَجَلُوا أُعْطَى ، وَإِنْ غَدَرُوا أَوْفَى

(١) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، هامش (١) .

ولعلّ قول الصعيدي : " للإشارة إلى أن لزوم ما يلزم ضرب من السجع " خطأ مطبعي ، فسياق الكلام يقتضي أن يقول : " للإشارة إلى أن لزوم ما لا يلزم ضرب من السجع " . والله تعالى أعلم .

(٢) انظر : الإتقان ، ص ٦٨٧ .

(٣) راجع خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٣٢١ ، تحت اسم : (الالتزام) .

(٤) الإتقان ، ص ٦٨٧ .

(٥) انظر : سرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ .

فَلِلْجُودِ مَا أَقْنَى ، وَلِلْمَجْدِ مَا أَبْتَنَى
وَلِلنَّاسِ مَا أَبْدَى ، وَلِللَّهِ مَا أَخْفَى^(١)
فالالتزام هنا في حرف (الفاء) .

ومن الالتزام بحرفين :

أُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا خُمُودَ شُرُورِهَا
تُضِلُّنِي فِي مَهْمِهِ بَعْدَ مَهْمِهِ
وَتُظْهِرُ لِي مَقْتًا ، وَأُضْمِرُ حُبَّهَا
فالحرفان هما : (النون والراء) .

أما الالتزام بثلاثة أحرف :

وَلَا بُدَّ يَوْمًا مِنْ غُدُوٍّ مُبْغِضٍ
وَكُوْرَضِيَتْ دُونَ النُّفُوسِ بَغِيرَهَا
سَنَغْدُوهُ أَوْ مِنْ رَوْحَةٍ سَنَرُوحُهَا
لَحُطَّتْ بِعَفْوٍ ، لَا قِصَاصَ جُرُوحِهَا^(٢)

فحروف الالتزام هنا الحاء مع الراء والواو ، وإن عدَّ ابن الأثير والعلوي وابن سنان أنَّ

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ٦٤ .

(أصلد الزند) : صوت ولم يور ، (فتى المال) : اكتسبه .

ومثله قول قيس بن ذريح :

أَقُولُ إِذَا نَفْسِي مِنَ الْحُبِّ أَصْعَدَتْ
أَلَا لَيْتَ لَيْلَى لَمْ تَكُنْ قَطُّ جَارَتِي
بَهَا زَفْرَةً تَعْتَاذُنِي وَهِيَ مَا هِيََا
وَلَمْ تَرْنِي لَيْلَى وَلَمْ أَدْرِ مَا هِيََا

انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٧٤ .

(٢) اللزوميات ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(ومهمه) : المفازة البعيدة والبلد المقفر ، و(شنارها) : الشنار : أقبح العيب ، والعار ، والأمر المشهور بالشنعة .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(حُطَّتْ) : تركت ، (لا قصاص) : أي دون قصاص ، (جروحها) : أراد بها هنا آثامها .

حروف المدّ إذا وقعت قبل حرف الروي فليس هذا من لزوم ما لا يلزم ، وإنما هذا يقال له الردف في الشعر^(١) .

ومن الالتزام بالحركة قبل حرف الروي ، قول الشاعر :

أَحْبَابَنَا لَا بَلَغَتْ مِنْكُمْ أَيْدِي النَّوَى مَا بَلَغَتْ مِنَّا
رُدُّوا عَلَيْنَا مَا أَخَذْتُمْ لَنَا وَعَاوِدُونَا فِيهِ إِنْ عُدْنَا
مَا دَامَتْ الْأَسْرَارُ مَكْتُومَةً لَا سَمِعَ النَّاسُ وَلَا قُلْنَا^(٢)

والحقّ أن الردف والالتزام بالحركة هو من باب التوسّع في لزوم ما لا يلزم ، وإلا فإنّ أجود الشعر بصرف النظر عن هذا اللون البديعي واردٌ فيه الردف وواردٌ فيه التزام الحركة ، بل إنّ أكثر الشعر كذلك ، و" الشاعر متى بدأ قصيدته بقافية مشتملة على ردف - أي على حرف مدّ أو لين سابق للروي - فإنه ينبغي أن يلتزم ذلك ، وألا يتخلّى عنه ، وإلا كان ذلك عيباً من عيوب القافية يُسمّى (سناد الردف)"^(٣) .

وإن شئت تأمل ديوان امرئ القيس بأكمله ، فإنّك تجد فيه من الردف والالتزام بالحركة الكثير .

وانظر مثلاً إلى قول أبي تمام :

(١) انظر : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، وسرّ الفصاحة ، ص ١٧٩-١٨٠ .
والردف هو حرف مدّ يكون قبل الروي ، سواء أكان هذا الروي ساكناً أم متحرّكاً . انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٥٦ .

(٢) البديع في نقد الشعر ، ص ١٣٨ . ومثله قول زهير بن أبي سلمى :
فَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَ إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ
انظر : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) علم العروض والقافية ، للدكتور عبد العزيز عتيق ، دار المعرفة ، ١٩٩٦ م ، ص ١٥٦ .

أَمَّا إِنَّهُ لَوَلَا الْخَلِيطُ الْمُوَدَّعُ وَرَبْعُ عَفَا مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْعُ
لَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا أَرْحِيَّةٌ مِنْ الشُّوقِ وَادِيهَا مِنَ الْهَمِّ مُتْرَعٌ^(١)
لَحِقْنَا بِأَخْرَاهُمْ وَقَدْ حَوَّمِ الْهَوَى قُلُوبًا عَهْدُنَا طَيْرَهَا وَهِيَ وَقَّعٌ^(٢)

فهل تتصور لو أن الشاعر لم يلتزم الحركة قبل الروي يُعدّ شعره شعراً فضلاً عن كونه من جيد الشعر أو من رديئه ، فضلاً عن كونه لأشهر الشعراء ؟!

وانظر مثلاً إلى قول البحري :

وَلَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ ذَنْبًا لَمَّا تَخَالَجَنِي الشَّكُّ فِي أَنْ أُتَوَّبا
سَأَصْبِرُ حَتَّى الْأَقْيِ رِضَا كَأَمَّا بَعِيداً وَإِمَّا قَرِيبَا
أُرَاقِبُ رَأْيَكَ حَتَّى يَصِحَّ وَأَنْظُرُ عَطْفَكَ حَتَّى يُؤُوبَا^(٣)

فهل تتوقع أن يقوم ببناء القصيدة إلا بهذا التعاقب بين الواو والياء ؟. بل هو من لزوم ما يلزم ، وهو جائز في الشعر خلا معاقبة الألف لهما - أي الواو والياء - ، وكذلك الحال لو التزم الشاعر بالياء وحدها أو بالواو وحدها أو الألف قبل الروي ، فهذا من الردف ، ولو عدل الشاعر إلى أي حرف غيرها عُدَّ هذا عيباً في القافية عدا التعاقب بين ما سبق الإشارة إليه^(٤).

(١) أي : لولا ما ذكره لقويت على ردّ هذه الأريحية من الشوق على أعقابها ، أي من حيث جاءت ، غير أنّ مفارقة هذا الحبيب وما أرى من دروس آثار داره ، قد أورتاني من الغمّ ما أضعفني عن ذلك .
(٢) (حَوَّمِ الْهَوَى) : جعلها تحوم بعدما كان طيرها وقَّعاً ، ووقوع الطير يُراد به هاهنا السكون ، وقوله : (بأخراهم) : أي بالحي المرتحلين : أي قصدناهم للتوديع وقد ارتحلت مُقَدِّمَتُهُمْ فلحقنا بأخراهم ، (وقد حَوَّمِ الْهَوَى) : أي أعطشها فصارت تحوم عليها حَوَّمِ الطائر على الماء بعدما كانت هادئة ساكنة بقربهم ، حيث كانت الدار جامعة ، وسهائم الفراق عنا شاسعة . انظر : شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٣) الوساطة ، ص ٢٨ ، والقصيدة كلّها مزوجة بين الواو والياء .

(٤) علم البديع ، ص ٢٣٨ ، بتصرّف .

لكن يمكن أن يكون التزام حركة حرف ما قبل الروي من لزوم ما لا يلزم إذا صاحب هذا التزام في حرف الروي أيضاً ، لكن هذا متطلب شاق ، وصناعة شاقة ، وإعانات للنفس ، وكذا للقرينة كما أشار العلوي^(١) . لذلك لا يقدر عليه إلا الفحول من الشعراء ، ولا يُقبل إلا منهم ، ولا يُستساغ إلا في شعرهم الذي " ما إذا أنشدته وضعت فيه اليد على شيء ، فقلت : هذا ، هذا ! وما كان كذلك فهو الشعر الشاعر ، والكلام الفاخر ، والنمط العالي الشريف ، والذي لا تجده إلا في شعر الفحول البُزَل ، ثم المطبوعين الذين يُلهمون القول إلهاماً "^(٢) .

كقول عروة بن أذينة :

خُلِقْتُ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا	إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ فُوَادَكَ مَلَهَا
بَلْبَاقَةٍ فَادَّقَهَا وَأَجَلَّهَا ^(٣)	بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ فَصَاغَهَا
مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَهَا	حَبَبْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي
شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفُوَادِ فَسَلَّهَا ^(٤)	وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ

حتى قال ابن الأثير عنها : إنها على جانب من الرقة حتى تكاد أن تذوب ، واللزوم فيها من اللطافة ما يشهد لنفسه^(٥) .

(١) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٨٨ .

و(البُزَل) جمع (بازل) ، وهو البعير ينشق نابه ويزل ، وذلك في تاسع سِنِيهِ ، وليس بعده سِنٌ تُسَمَّى . وتستحكم عندها قوته . ويعني أيضاً الرجل الكامل في تجربته .

(٣) (بَاكَرَهَا النَّعِيمُ) : أي أتاها النعيم بُكْرَةً .

(٤) أوردها ابن الأثير في (المثل السائر) في موضعين . انظر : ص ١٧٧ ، و ص ٢٦٥ ، ج ١ . واستشهد بها

العلوي في الباب نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ، ص ٢٦٥ .

مزية لزوم ما لا يلزم البلاغية :

ذكر أسامة بن منقذ : " أن الشعر النادر هو الذي يستفز القلب ، ويُحمي المزاج في استحسانه ، والبارد بضد ذلك " ^(١) .

ثم استشهد للنادر منه بقول عمرو بن معديكرب :

قَدْ عَلِمْتُ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا مَا قَطَرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا ^(٢)
شَكَّتُ بِالرُّمَحِ سَرَابِيلَهُ وَالْخَيْلُ تَعْدُو زِيْمًا يَتَنَّا ^(٣)

وهو كما ترى قد التزم الشاعر فيه بحركة حرف ما قبل الروي ، وإن كان في ذلك توسّع ، لكن عدّه بعض المتأخرين من لزوم ما لا يلزم ، والتزم النون أيضاً .

والالتزام في الشعر يستفز القلب بلا منازع ، ويملك على المرء حواسّه ، ويعتث فيه النشوة ، فيطرب بترديده مرّة تلو أخرى .

وتحصل النفس منه على هذه المسرّة وهذا الشعور إذا ورد عفواً منحدراً من النفس كانهدار الماء الصافي لا أثر للكلفة عليه ولا سيمات لكدّ الذهن فيه .

فمنه قول كثير عزة السابق ، وهذه بقية منه :

فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ إِذَا وَطِنْتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
أُرِيدُ الثَّوَاءَ عِنْدَهَا وَأَظْنُهَا إِذَا مَا أَطْلُنَا عِنْدَهَا الْمُكْثَ مَلَّتْ ^(٤)
هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ ^(٥)

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ١٦٠ ، باب : (النادر والبارد) .

(٢) (قطر) : أي قتله فأنزل دمه .

(٣) (السرايل) : الدروع ، (زيمًا) : متفرقة .

(٤) (الثواء) : المقام .

(٥) (مخامر) : ساترٌ مغطى .

أورد هذه الأبيات الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه (علم العروض والقافية) ، ص ١٥٠ .

فَوَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدْتُ بِهِجْرٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلْتُ

فهذا مما يأكل عليك نفسك ويشرب عنك ماء عينك ، ويعبث في مهجة قلبك من العذوبة والرقّة والسلاسة ؛ إذ صدقت معانيه ، وصدّقته ألفاظه وصدّقته .

و "أجود المعاني ما وصل إلى القلب مع وصول قلبه إلى القلب مثل ما روى ابن قتيبة : كتابي هذا عن عارضٍ أَلِمَ أَلَمٌ" ^(١) .

وضع بجوار هذه العفوية الخاصة الرقيقة الكدّ والكدح وإعنات النفس في تطلّب مزيد تناسب وتماثل ، فإذا بالخاطر يقصر دونه فيتكلّف ويتعقّد ولا يخرج إلا نكداً وبشقّ الأنفس كما هو الحال عند بعض ما جاء في شعر أبي العلاء من ردئ الالتزام ، كقوله :

بُنْتُ عَنِ الدُّنْيَا ، وَلَا بِنْتُ لِي	فِيهَا ، وَلَا عِرْسٌ وَلَا أُخْتُ ^(٤)
وَقَدْ تَحَمَّلْتُ مِنَ الْوُرْرِ مَا	تَعْجِزُ أَنْ تَحْمِلَهُ الْبُخْتُ ^(٥)
إِنْ مَدَحُونِي سَاءَتِي مَدَحُهُمْ	وَخِلْتُ أَنِّي فِي الثَّرَى سُخْتُ ^(٦)
جِسْمِي أَنْجَاسٌ ، فَمَا سَرَّنِي	أَتِي بِمِسْكِ الْقَوْلِ ضُمَخْتُ

وليس هذا الإعنات إلا لأنّ هذا النوع من الصناعة اللفظية كما ذكر ابن الأثير " من

(١) البديع في نقد الشعر ، ص ١٦٣ ، نقلاً عن الأصمعي .

(٤) (العرس) : الزوجة .

(٥) (البخت) : أي الإبل .

(٦) (سُخْتُ) : من ساخَ : أي انخسفَ وغارَ .

انظر : اللزوميات ، ج ١ ، ص ٢١١ من قصيدة له بعنوان : (كذاك قالوا) .

وانظر قوله في الجزء الثاني من كتابه (ص ٢١٦) بعنوان : (لا رجعة للأموات) :

ضَحِكُنَا ، وَكَانَ الضَّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً	وَحَقٌّ لِسُكَّانِ الْبَسِيطَةِ أَنْ يَنْكُوهَا
يُحِطُّنَا رَيْبُ الزَّمَانِ ، كَأَنَّنَا	زُجَاجٌ ، وَلَكِنْ لَا يُعَادُ لَهُ سَبْكُ

أشَقَّ هذه الصناعة مذهباً ، وأبعدها مسلكاً ؛ وذلك لأنَّ مؤلِّفه يلتزم ما لا يلزمه ^(١) .

" وليس يغتفر للشاعر إذا نظم على هذا الفنَّ لأجل ما ألزم نفسه ما لا يلزمه شيء من عيوب القوافي ؛ لأنَّه إنَّما فعل ذلك طوعاً واختياراً من غير إكراه ولا إكراه ، ونحن نريد الكلام الحسن على أسهل الطرق وأقرب السُّبل ، وليس بنا حاجة إلى المتكلفِ المطَّرح ، وإن ادَّعى علينا قائله أنَّ مشقَّة نالته وتعباً مرَّ به في نظمه " ^(٢) .

وليس أدلَّ على مزيَّة هذا الفنَّ العريق وعلى خصوصيته وروعته ممن دانت له الفصاحة والبلاغة ، واثمرت تحت يديه طوعاً فقصر دونها كلَّ كلام من النبي ﷺ ؛ إذ يقول :

« إنَّ أفضلَ الناسِ عبدٌ أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحبٌ فيها العفاف » .

وقوله : « فإن كان كريماً أكرمك ، وإن كان لثيماً أسلمك » .

وقوله : « فلا يغني عنكم إلا عملٌ صالح قدَّمتموه ، أو حُسن ثوابٍ حُزَّتموه » ^(٣) .

فانظر كيف أكسب الالتزام الطَّبْعِي الكلامَ رفاهيةً وحُسناً ، وبهاءً ورواقاً ، فضلاً عن بلاغته وفصاحته عليه الصلاة والسلام .

ومما استشهد به ابن معصوم في هذا الباب :

وَرَأَيْتُ رَأَعَ كُلَّ النَّاسِ مَنْظَرُهُ	أَحْلَى مِنَ الْأَمْنِ عِنْدَ الْخَائِفِ الْوَجِلِ
أَلْقَى عَلَى اللَّيْلِ جُنْحاً مِنْ ذَوَائِبِهِ	فَهَابَهُ الصُّبْحُ أَنْ يَبْدُو مِنَ الْحَجَلِ
أَرَادَ بِالْهَجْرِ قَتْلِي فَاسْتَجَرْتُ بِهِ	فَاسْتَلَّ بِالْوَصْلِ رُوحِي مِنْ يَدَيِ أَجْلِي ^(٤)

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

(٢) سرُّ الفصاحة ، ص ١٨٠ .

(٣) وردت هذه الشواهد النبوية في الطراز للعلوي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ . ولم أعثر عليها فيما توفّر لديّ من مصادر .

(٤) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ٩٦ .

(و) (راع) : أعجب ، (جنحاً) : ظلاماً ، (ذوائبه) : الذَّوَابَّة - بالضم - : الضَّفِيرَة من الشَّعر إذا كانت مُرسَّلة ، فإن كانت مَلَوِيَّةً فهي عَقِيصَةٌ .

فالشاعر : " إنما تساند إلى ما في طبعه ، ولم يتحشّم إلا ما في نهضته ووسعه من غير اغتصاب له ولا استكراه أُلجأه إليه " ^(١) .

وقال أبو تمام :

لِيَالِينَا بِالرَّقَّتَيْنِ وَأَهْلِهََا سَقَى الْعَهْدُ مِنْكَ الْعَهْدُ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ ^(٢)
سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبُ عَلَى النَّبْتِ ذَيْلَهُ فَلَا رَجُلٌ يَنْبُو عَلَيْهِ وَلَا جَعْدُ ^(٣)
ضَرَبْتُ لَهَا بَطْنَ الزَّمَانِ وَظَهْرَهُ فَلَمْ أَلْقَ مِنْ أَيَّامِهَا عَوْضًا بَعْدُ ^(٤)

فإذا تأملت الشواهد السابقة أدركت أنّ للالتزام فعله السّحري في الكلام فضلاً عن براعة الشاعر نفسه وعفويته وبساطته ، خاصة إذا كان مشتهراً بالصنعة ، فلا يظهر عليه هذا ، كأبي تمام .

ثم إن الالتزام يزيد في تمكين القوافي ، وقد يشدّ الكلام بعضه إلى بعض في سبك وإحكام دقيق ، ثم يخلع عليه هذه الطلاوة التي تلمحها عند تأمله وتلك الحلاوة التي تحسّها عند تردده .

صلة اللزوم بالأسجاع والفواصل القرآنية :

لقد مرّ في مبحث السجع الخلاف في إطلاقه على القرآن والشعر ، أما هنا فمن المهمّ الإشارة إلى صلة هذا اللون البديع أيضاً بالفواصل القرآنية ، خاصة وأنّ جُلّ العلماء أتوا بشواهد قرآنية عليه ، كابن الأثير ، وابن أبي الإصبع ، والعلوي ، والخطيب ، وابن حجة الحموي ، والسيوطي .

(١) الخصائص ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

و(يتحشّم) : يتكلّف على مشقة ، و(نهضته) : تحرّكه إليه .

(٢) سبق التعرض لهذا البيت (ص ٣٣٧) ، وانظر : شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ، ص ٢٧٧ .

(٣) انظر (ص ٣٣٧) .

(٤) أي : قلبت الزمان ظهراً لبطنٍ لأجل هذه الليالي ، فلم أجد لها عوضاً إلى الآن . انظر : شرح

الديوان ، ص ٢٧٨ .

فهل يُطلق على الفواصل القرآنية أسجاع أم هي من لزوم ما لا يلزم ؟.

هذا السؤال يُخفف وحشته أنّ ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) فرق بين السجع وبين لزوم ما لا يلزم ، فقال : " إنّ اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنشور في قوافيها ، وهذا - أي لزوم ما لا يلزم - فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً ، وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية " (١).

أما وقد بان الفرق بين اللونين ، فإن الفواصل القرآنية منها ما هو من باب السجع ، ومنها ما هو من باب الالتزام ، والسجع فيه وارد .

فمما هو من باب السجع قوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٣).

ومما هو من باب الالتزام قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٤) ، وهذا من التزام حرف ، والسجع فيه وارد كما هو معلوم .

ومن التزام حرفين قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ (٥).

وإن كان ما مثل به السيوطي هنا عن التزام الحرفين يُعدّ من التزام حرف واحد ، وهو الطاء على اعتبار أنّ أحرف اللين إذا وردت قبل الروي تكون لازمة وليس من لزوم ما لا يلزم ، كما بين ذلك ابن الأثير ، ووافقه في هذا العلوي ، وقبلهما ابن سنان الخفاجي (٦).

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) سورة المرسلات : الآيتان (١ ، ٢) .

(٣) سورة العصر : الآيات (١ - ٣) .

(٤) سورة الضحى : الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٥) سورة الطور : الآيتان (١ ، ٢) .

(٦) راجع المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، وسرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ .

قال العلوي : " بخلاف ما إذا كان قبل حرف الروي ردفاً ، وهو الواو والياء ، فإن ما هذا حاله لا يجوز تغييره إلى غيره ، فلا يقال إنه من باب لزوم ما لا يلزم ، بل لازم للناسخ والناظم أن يأتي به على حاله ، خلا أنه يجوز معاقبة الواو للياء ، ومعاقبة الياء للواو ، ولا يجوز معاقبة الألف لهما . فعلى هذا يجوز : عمود ، وشديد ، ولا يجوز ميعاد في تقابل الأسجاع ، ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ^(١) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ^(٢) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ^(٣) . فحرف الردف ليس من باب لزوم ما لا يلزم ، بل هو لازم بكل حال ^(٤) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ﴾ ^(٥) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ^(٦) ، فإنه من التزام حرف ، وهو النون المضمومة ، وليس حرفين .

وما مثل به السيوطي على التزام ثلاثة أحرف ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ^(٧) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ^(٨) ^(٩) ، هي من التزام الصاد قبل حرف الروي ، والراء تقابل حرف الروي ، أما الواو فهو واو الجماعة الذي لا يصلح أن يكون رويًا ^(١٠) .

فالصلة إذن بين الفواصل والالتزام صلة قائمة على اعتبار أن الالتزام متعلق بها ، ولذلك لم يفرد السيوطي للالتزام باباً ، وإنما قال بعد حديثه عن السجع والفواصل : " بقي نوعان متعلقان بالفواصل :

(١) سورة العاديات : الآيات (٦-٨) .

(٢) الطراز ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٣) سورة القلم : الآيتان (٢ ، ٣) .

(٤) سورة الأعراف : الآيتان (٢٠١ ، ٢٠٢) .

(٥) الإتيان في علوم القرآن ، ص ٦٨٦ .

(٦) انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٤٠ ، خاصة وأن الفاصلة يعني الحرف الذي يقع في فواصل الفقرة موقع حرف الروي في قوافي الأبيات . انظر : المطول ، ص ٧٠٤ .

أحدهما : التشريع ... الثاني : الالتزام^(١).

وهو ما فهمه عبد المتعال الصعيدي وعلّق عليه من تعريف الخطيب القزويني للزوم ما لا يلزم . فقد عرّف الخطيب هذا الفنّ بقوله كما مرّ : " وهو أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع " ^(٢).

وعلّق عليه الصعيدي بقوله : " إنما لم يقل : " في مذهب السجع أو القافية " كما هو مقتضى السياق ، للإشارة إلى أنّ لزوم ما يلزم ضربٌ من السجع وإن وقع في الشعر ، ولا يخفى ما في لزوم ما لا يلزم من التكلف ... " ^(٣).

بل إن السجع في الشعر - وهو كما ذكر الخطيب : غير مختص بالنثر - إنما هو اتفاق في الفواصل ، وهو تكلف ظاهر كما مثّل عليه ، وهذا التكلف راجعٌ إلى أنّ الشعر فيه ضيق الوزن ، ولا يليق أن يُضاف إليه ضيق آخر بال التزام السجع ، وهو ليس بلازم^(٤).

وإذا كانت " طريقة الشعر شريعة مورودة ، ومنزلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذروها على حسب أحوالهم ... " ^(٥)، فإنّ نهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه مما تتيه العقول في جهته ، وتحرّج في بحره ، وتضلّ دون وصفه^(٦).

فهل يجوز إطلاق مصطلح كـ(لزوم ما لا يلزم) على ما جاء في القرآن الكريم ، حتى وإن استشهد عليه العلماء بذلك ؟.

الحقّ أن العلماء لما استشهدوا له من القرآن الكريم ، فإنّ التحرّج من إطلاقه ظاهرٌ في

(١) انظر : الإتقان في علوم القرآن ، ص ٦٨٦ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، هامش (١) . وقد سبق التعليق على قول الصعيدي هذا . انظر : ص ٥١١ ، هامش (١) .

(٤) راجع الخلاف في إطلاق السجع في القرآن والشعر عند الخطيب في (الإيضاح) ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، وتعليق الصعيدي عليه .

(٥) إعجاز القرآن ، ص ١٨٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، بتصرّف يسير .

كلامهم وإطلاقهم ، فقد يُطلقون عليه اللزوم مثلاً ، أو الالتزام ، أو يقولون : ويسمى الالتزام ، ويستشهدون عليه من القرآن الكريم كما فعل السيوطي وابن أبي الإصبع وابن الأثير^(١) ؛ إذ ليس في القرآن ما لا يلزم .

وإذا كان الشاعر يتغني بهذا اللون في شعره مزية تماثل وتناسب واستحسان ، وقد لا يظهر عليه شيء من ذلك بسوء توظيفه له وبتكلفه واستجلابه ، فإنّ القرآن الكريم معجز بذاته كامل في صفاته ، بليغ في عباراته وألفاظه ، وحكمه وآياته ؛ فقد " سَمَاهُ اللهُ عَزَّ ذِكْرَهُ (حكيمًا) و(عظيمًا) و(مجيدًا) ، وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾^(٣) " ^(٤) .

وإذا ما وقعت هذه الظاهرة في القرآن والشعر معاً ، ولم يكن للعلماء من بُدّ سوى الاصطلاح على تسميتها باسم واحد ، فإنّ هناك فرقاً بين وقوعها في القرآن الكريم وبين وقوعها في الشعر ، وإلا فمن قال بغير ذلك وساوى بين الثرى والثريا ، وبين الخلق والخالق ، فكأنما خرّ من السماء أو تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق ، كما أشار الباقلاني في موضع يشبه هذا الموضع^(٥) .

ومن هذه الفروق :

* أنّ هذه الظاهرة جاءت يسيرة في القرآن الكريم ، و" في مواضع رائعة الحُسن تعجز الفصحاء أشدّ تعجيزاً ؛ لجيئها سهلة منسجمة ، فسبحان المتكلم بهذا الكلام " ^(٦) .

(١) يقول ابن الأثير مثلاً : " وقد ورد في القرآن الكريم شيء من اللزوم ، إلا أنه يسير جداً " . انظر : المثل

السائر ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٢) سورة فصلت : الآية (٤٢) .

(٣) سورة الرعد : الآية (٣١) .

(٤) إعجاز القرآن ، ص ١٨٤-١٨٥ .

(٥) انظر : المصدر السابق ، ص ٢١٦ .

(٦) تحرير التحرير ، ص ٥١٨ ، وانظر : بديع القرآن ، ص ٢٢٩ .

أما في الشعر فما أكثر مَنْ هام وأغرم بهذه الظاهرة ، فجاءت عسيرةً كديرة غير مستساغة .

* أنها في القرآن الكريم غير مقصودة ولا متعمّدة ، إنما استدعاها المقام وتطلّبتها المناسبة ، فجاءت عفوةً طيّعةً تابعة للمعاني ، ولم تكن المعاني تابعة لها^(١) .

وما أحسن قول عبد القاهر في هذا الشأن : " فلن تجد أيمن طائراً ، ولا أحسن أولاً وآخرأ ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان مِنْ أن ترسل المعاني على سجيّتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تُريد لم تكتسِ إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها " ^(٢) .

أما في الشعر فإنها لم تأت عفواً إلا عند الفحول من الشعراء ، أما عند غيرهم فليس من مقامٍ تطلّبتها ، ولا من مناسبة استدعتها غير إظهار الاقتدار والبراعة في البيان ، والتفنن في تشقيق اللغة فالإعنائات وشقّ الأنفس لتحقيق هذا الغرض البشري الذي يعكس ما تنطوي عليه النفس من حُبّ التظاهر والتفاخر بالقدرة البيانية والسعة اللغوية والميل إلى ذلك .

* وفي الشعر ضرورات وإخفاقات ، أما في القرآن الكريم فكلّ شيء فيه بمقدار ، ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ^(٣) .

* وهي في القرآن ظاهرةً مرتبطة بالفواصل التي لا يخفى دورها في " ربط المعنى وتحقيق الإيقاع المتوازن والتركيب المتناسق " ^(٤) ، ودورها في " التفاتها إلى ما قبلها لتكمله أو تبرزه وتوضّحه أو لتوجزه ؛ لأنها جديرة بالالتفات إلى ما قبلها وما بعدها في وقتٍ واحد " ^(٥) .

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٥٤ ، بتصرّف .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٤ .

(٣) سورة الإسراء : الآية (٨٨) .

(٤) من وجوه تحسين الأساليب ، ص ١٨٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

قال ابن أبي الإصبع محللاً قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ^(١) ، قال : " فلزمت الهاء قبل الراء ، وفي هاتين الفاصلتين مع الالتزام تنكيت عجيب ، فإنه يقال : هل يجوز التبديل في القرينتين فتأتي كل واحدة منهما مكان أختها ؟ . فيقال : لا يجوز ذلك ؛ لأن النكته في ترجيح مجيئها على ما جاءتا عليه أن اليتيم مأمور بأدبه ، وأقل ما يؤدّب به الانتهاز ، فلا يجوز أن ينهى عن انتهاره ، وإنما (الذي) يُنهى عنه قهره وغلبته ؛ لانكساره باليتيم وعدم ناصره ، فمن هاهنا ترجّح مجيء كل قرينة على ما جاءت عليه ، ولم يجز التبديل " ^(٢) .

" وأما القوافي فلا تحتل ذلك ؛ لأنها ليست في الطبقة العليا من البلاغة ، وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافي ، فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج ، وبطل ذلك الحسن الذي له في الأسماع ، ونقصت رتبته في الأفهام " ^(٣) .

فأين قوله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ^(٤) من قول الشاعر :

بَعُدْتُ مِنَ الْأَصَادِقِ وَالْأَعَادِي فَمَا أَنَا مِنَ الْأَكِّ وَلَا الْيَا
دَعَا لِي بِالْحَيَاةِ ، أَخُو دَادٍ رُوَيْدَكَ ، إِنَّمَا تَدْعُو عَلِيًّا ^(٥)

وأين قوله عزّ ذكره : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ^(٦) من قول الشاعر :

(١) سورة الضحى : الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٢٢٨ .

(٣) النكت ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص ٩٨ .

(٤) سورة مريم : الآيتان (٤٥ ، ٤٦) .

(٥) اللزوميات ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ ، بعنوان : (إنما تدعو عليّ) .

(٦) سورة الانشقاق : الآيتان (١٧ ، ١٨) .

أَسَاتَ بِعَبْدِكَ فِي عَسْفِهِ وَحَمَلْتَ غَيْرَكَ مَا لَمْ يُطَقْ
وَسَوْفَ يُجَازِيكَ رَبُّ السَّمَاءِ فَشَمِّرْ لَأَحْكَامِهِ ، وَانْتَطِقْ^(١)

وأين قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ الجوار الكُنَّسِ^(٢) من قول الشاعر :

أَمَّا الْجَوَارِي كُنَّسًا ، فَيَقْتَنِي فَتَمَى لِحَاقِي بِالْجَوَارِي الْكُنَّسِ ؟
وَالْخُلُقُ غَيْرُ الْخُلُقِ ، كَمْ أَنْفَ اللَّيْ مِنْ صَيْدٍ ضَارِيَةٍ ، بِأَنْفٍ أَخْنَسِ^(٣)

فأين قوله ﷺ من قيل خلقه ؟ . " إنه معجز ، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ،
وتتميز حاصل في جميعه " ^(٤) .



(١) اللزوميات ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ، بعنوان : (سوف تجازي) .

(٢) سورة التكوير : الآيتان (١٥ ، ١٦) .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠ ، بعنوان : (اللاحق بالكواكب) .

(الجواري) الأولى : النساء ، (كُنَّسًا) : أي اللواتي يكنسن الأرض بذيولهن ، (الجواري) الثانية : الكواكب ،
(اللأي) : بقر الوحش ، (الضارية) : كلبة الصيد .

(٤) إعجاز القرآن ، ص ٣٥ . وفي سياق حديث الباقلاني عن قصيدة امرئ القيس قال : " إن الذي عارض
القرآن بشعر امرئ القيس لأضلّ من حمار باهلة ، وأحمق من هبنقة " . انظر : ص ٢١١ .

لزوم ما لا يلزم بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني :

قال ابن أبي الإصبع في مقدّمة كتابه : (تحرير التحبير) : " ورأيتُ الأجدابي^(١) قد ذكر من محاسن القافية أربعة أبواب ، منها بابان هما : باب واحد سماهما بتسميتين غير مطابقتين لمعناهما ، فجعلتهما باباً واحداً على حكم ما أخذت به نفسي من حذف المتداخل ، وسميته الالتزام ، وعند ذكر شواهد يعلم مطابقة تسميته لمسمّاه^(٢) .

والالتزام كان من ضمن الأبواب التي ساقها ابن أبي الإصبع في كتابيه ناسباً إياه إلى الأجدابي ، حيث قال : " هذا آخر أبواب المتقدمين ، وقد بقيت أبواب الأجدابي الثلاثة التي أولها : باب الالتزام^(٣) .

أما البابان الآخران فهما : تشابه الأطراف ، والتسيغ .

وصنّيع ابن أبي الإصبع هذا يدلّ على أنّ هذه الأبواب الثلاثة من ابتكار الأجدابي ، وظاهر جداً أنّ الأجدابي مسبوق بهذا الصنيع من ابن المعتزّ ، كما سبق التنبيه إلى ذلك في مقدّمة هذا البحث ، كما أشار إليه كثيرٌ من الدارسين ، والعذر ملموس للعالمين الفاضلين ؛ إذ الخلط وقع من جرّاء التحريف في النسخ التي اطلّعا عليها . والله تعالى أعلم^(٤) .

لذلك عقد ابن أبي الإصبع باباً سمّاه : (عتاب المرء نفسه) ظاناً أنه هو نفسه الإعانات عند ابن المعتزّ ، لذا كان محلّ نقدٍ ومناقشة عنده مرتّباً على فهم خاطئٍ ناتجٍ

(١) هو إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الطرابلسي ، يُعرف بابن الأجدابي . قال ياقوت : له أدب وحفظ ولغة وتصانيف ، ومن مشهورها : كفاية المتحفظ ، والأنواء . انظر : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٠٨ . ولم يرد به سنة ولادته ووفاته .. وانظر ترجمته في : الأعلام ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) مقدّمة تحرير التحبير ، ص ٩٢ .

وكتاب الأجدابي الذي يبحث في علوم البديع ، لم يُعثر عليه ، وهو من ضمن مراجع ابن أبي الإصبع التي عاد إليها في تأليفه لكتابه . انظر : مقدّمة تحرير التحبير ، ص ٩١ ، ومقدّمة بديع القرآن ، ص ١٢ .

(٣) تحرير التحبير ، ص ١٥٦ .

(٤) انظر : الصبغ البديعي ، ص ٢٨٨ ، ومقدّمة بديع القرآن ، ص ٨٩ .

عن تصحييفٍ وتحريفٍ كما ذكر ، وإلا فالإعانات عند ابن المعتز هو نفسه لزوم ما لا يلزم دون منازع .

تعريف اللزوم :

لقد أبقى ابن أبي الإصبع على تسمية هذا اللون كما جاء عند الأجدابي ، وهو (الالتزام) ، ولم يغيره مثلاً إلى لزوم ما لا يلزم ، لعله بهذا يعكس عنده جانب الحذر والدقة والاحتياط في إطلاق هذا المصطلح الثاني على ما جاء في القرآن الكريم ، وقد سبق التنبيه إلى أن ما يجوز إطلاقه على كلام البشر من المصطلحات البلاغية قد لا يجوز إطلاقه على كلام الله ﷻ ، وإن كانت الظاهرة واحدة ؛ لأن القرآن الكريم وبلاغته هي أعلى طبقة في الحسن ، وما كان أعلاها فهو معجز^(١) .

ثم عرّفه قائلاً : " وهو أن يلتزم الناثر في نشره ، والشاعر في شعره حرفاً أو حرفين فصاعداً قبل حرف الروي على قدر طاقته ، ومقدار قوة عارضته ، مشروطاً بعدم الكلفة "^(٢) .
بينما عرّفه الخطيب بقوله : " هو أن يجيء قبل حرف الروي وما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع "^(٣) .

وكما اختلفت تسمية المصطلح عند العالمين الفاضلين ؛ إذ سماه ابن أبي الإصبع (الالتزام) ، وسماه جلال الدين (لزوم ما لا يلزم) ، اختلف كذلك تفسير هذا اللون عند كل منهما ، وجاء منسجماً مع تسميتهما وإن كان المعنى أو المفهوم عندهما واحداً . وكلاهما متفق على وقوعه في النشر أيضاً .

فقول الخطيب : " وما في معناه من الفاصلة " يعني الحرف الذي يقع في فواصل الفقرة موقع حرف الروي في قوافي الأبيات ، كما ذكر السعد^(٤) ، يقابل قول ابن أبي الإصبع :

(١) انظر : مقدمة النكت ، ص ٧٥ .

(٢) بديع القرآن ، ص ٢٢٧ ، وانظر : تحرير التحبير ، ص ٥١٧ .

(٣) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٤) انظر : المطول ، ص ٧٠٤ .

" أن يلتزم النثر في نثره ... حرفاً أو حرفين فصاعداً قبل حرف الروي " ^(١).

وإذا كان ابن أبي الإصبع قد ذكر حرف الروي ولم يذكر الفاصلة ؛ فلأنّ الكلام ربما يكون قد أعاده إلى أقرب مذكور ، وهو " أن يلتزم الشاعر في شعره " ^(٢) ، وإلا فهو مؤمن إلى أنّه قد يقع في النثر ، وإلا كما مثّل عليه ببعض الشواهد النثرية في كتابه (تحرير التحبير) ؛ إذ قال : " وقد جاء في السنّة من ذلك قول الرسول ﷺ في حديث أمّ زرع حكايةً عن الأولى من النسوة قولها : لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى .. وقول أمّ زرع في صفة حالها مع أبي زرع : فعنده أنام فأصبح ، وأقول فلا أقبح ... وقولها - أعني أمّ زرع - : فتزوّجت بعده رجلاً سريّاً ، ركب فرساً شريّاً ^(٣) ، وأراح عليّ نغماً ثريّاً .. وكقول السادسة منهنّ : إنّ أكلَ أقف ^(٤) ، وإنّ شربَ اشتف ^(٥) ، وإن رقد التفّ .. وكقول الثامنة : المسّ مسّ أرنب ، والريّح ريّح ذرنب ^{(٦)(٧)} ... " ^(٨).

وهو في هذه الشواهد النثرية البليغة اللطيفة يُذكر بِسَمْتِهِ الأدبي الذي يكثر من شواهد القرآن والسنة وكلام العرب ، تاركاً للقارئ الكريم محض التأمل والتمييز في التدوُّق عند وضع البلاغة القرآنية والنبوية بجوار البلاغة البشرية .

لكن مع ذلك يظلّ القزويني هو الرابع في ميدان التحديد الدقيق الذي لا يحيد ، والتدقيق المحدّد الذي لا يزيد ، لما قال : " (وما في معناه) ، أي قبل الحرف الذي هو في معنى حرف

(١) بديع القرآن ، ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٣) (الفرس الشري) : السريع الجري .

(٤) (أقفّ الرجل في طعامه) : اختار اليابس منه .

(٥) (اشتفّ الماء) : رشفه ومصّه .

(٦) (ذرنب) : طيب ، أو شجر طيب الرائحة ، والزعفران .

(٧) انظر : صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ﷺ ، باب : ذكر حديث أمّ زرع ، حديث

رقم : (٦٣٠٥) ، ص ٩٢٦ .

(٨) تحرير التحبير ، ص ٥١٨ .

الروي في قوافي الأبيات "(١)". و" قوله : (من الفاصلة) حال مما في معناه "(٢).

بل كان قوله : " ما ليس بلازم في مذهب السجع " منسجماً تماماً مع إطلاقه تلك التسمية على هذا اللون من البديع رغم اعتراض بعض الشُّراح^(٣)، خلا السعد ؛ إذ قال منافحاً : " معناه أن يؤتى قبل حرف الروي من قافية البيت ، أو قبل ما في معناه من فاصلة الفقرة بشيء لا يلزم الإتيان به في مذهب السجع ، يعني : لو جعل هاتين القافيتين أو الفاصلتين سجعيتين لم يحتج إلى الإتيان بذلك الشيء ، ويصحّ السجع بدونه ، وبهذا يظهر فساد ما يقال : إنه كان ينبغي أن يقول ما ليس بلازم في السجع أو القافية ؛ ليوافق قوله قبل حرف الروي أو ما في معناه ، فمجيء ما ليس بلازم في السجع قبل ما هو في معنى حرف الروي من الفاصلة ... "(٤).

وذلك لأنّ " المراد بالسجع الكلام المقفّى ، سواء كان سجعاً أو شعراً ، وقد مضى بهذا المعنى غير مرّة ، فلا يرد أنه كان ينبغي أن يقول ما ليس بلازم في الشعر أو السجع "(٥).

وهذه الإضافة التي ذكرها جلال الدين الخطيب ، والتي كانت مثار الشُّراح للخوض فيها ، لم يذكرها زكيّ الدين المصري ، إنما وقف عند حدّ معنى الالتزام كما عرفه ؛ لكنّه انفرد عن الخطيب في تعريفه بالتعرض لشرط قبول هذا اللون البديعي وشرط حسنه وجودته ، وهو عدم الكلفة .

وهذه من اللَّفتات الملاحظة والمهمّة عند ابن أبي الإصبع يجدها المتأمل منتشرة في كتابيه ، وهي التنبيه إلى مزية أيّ لون بديعي يتناوله ، والإشارة إلى شرط جودته واستحسانه ؛ مما

(١) المطوّل ، ص ٧٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٠٤ .

(٣) قال السبكي : " والأولى أن يُقال في التقفية : ليعمّ السجع والنظم ... " . انظر : عروس الأفراح ،

ج ٣-٤ ، ص ٣٩٧ .

(٤) المطوّل ، ص ٧٠٤ .

(٥) الأطوّل ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ .

يدلّ على حرصه الشديد لأنّ يبيّن للقارئ دور هذه الألوان البلاغية في الكلام عامّة ، فضلاً عن أنّها من صوّر الإعجاز في القرآن الكريم ، وإن كانت تسلك في القرآن مسالك تليق به وتعجز كلّ لغة دونه أن تدانيها .

بل إنّ " كلّ ما أحصاه العلم من أنواع البلاغة في القرآن الكريم ، فإنما هو جملة ما في طبيعة هذه البلاغة مما يمكن أن يُقلّب عليه الكلام في وجوه السياستين : البيانية والمنطقية ، بحيث يستحيل البتة أن يوجد في كلام عربيّ نوعٌ من ذلك ، وقد خلا هو منه ، إلا أن يكون من باب الصنعة والتكلف الذي يتلوم الأدباء على صنعه ، ويذهبون فيه المذاهب الكثيرة من النظر والإعداد والتنقيح ونحوها ، ثمّ لا يعطيه معنى البلاغة مع كلّ هذا العنت إلا اصطلاحهم أنفسهم على أنه من البلاغة " (١) .

فأشار ابن أبي الإصبع إلى أنّ هذا الالتزام إنّما هو على قدر طاقة الناثر والشاعر ، وعلى مقدار قوة عارضته (٢) ، مؤكّداً بهذا على أنّ جودة أيّ لونٍ بلاغيّ إنّما هي مرتبطة بجودة القائل ومقدار ما أوتي من البراعة والبيان والإبداع الناتج عن قريحة مصقولة ، وفطرة مطبوعة ، وموهبة بارزة مشهودة . وهذا مما يعتني به ابن أبي الإصبع في كتابه ، ويحرص على إبرازه والتأكيد عليه في كثيرٍ من أبوابه .

ومن الشواهد القرآنية التي استشهد بها الخطيب القزويني ، قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٤) (٥) .

(١) إعجاز القرآن للرافعي ، ص ٢٥٧ .

(٢) (العارضة) : جمعها عوارض ، ومنه البيان ، واللّسن ، والجلد ، والصّرامة . انظر : القاموس المحيط ، ص ٨٣٢ ،

باب : (الضاد) ، فصل (العين) .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان (٢٠١ ، ٢٠٢) .

(٤) سورة الضحى : الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٥) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

وقد جاء هذان الشاهدان ضمن شواهد ابن أبي الإصبع أيضاً في كتابيه^(١)، ويبدو أنهما قد وقفا عاجزين أمام هذه البلاغة القرآنية المعجزة الآسرة؛ إذ سكت القزويني عن أي تحليل أو تعليق عنهما، بينما اكتفى ابن أبي الإصبع بقوله قبلهما: "وقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز مواضع رائعة الحسن"^(٢). وقوله بعدها: "وأشياء كثيرة من فواصل القرآن العزيز تعجز الفصحاء أشدّ تعجيز"^(٣)، باستثناء ما جاء في (بديع القرآن)، وسيأتي الكلام عنه، وهذه خصيصة من خصائص ابن أبي الإصبع الأدبية الكبرى، وهو الإفصاح عن متعته الجمالية والفنية ومقدار تأثيره بروعة هذه الألوان البديعية في القرآن الكريم، وكيف أنها واقعة فيه كأبلغ ما يكون، منسجمة مع الغرض والسياق كأبداع لوحة، دالاً بذلك على أن وقوع هذه الألوان البديعة في كلام الله سبحانه وتعالى غير وقوعها في الكلام البشري، لافتاً نظراً كل متأمل إلى أن يزداد تأملاً وتدبراً وتدوّقاً لروائع هذه الفنون في الكتاب العزيز، فيندفع طوعاً إلى المقارنة بين وقوعها فيه ووقوعها في الشعر أو النثر، وإن كانت فيهما واقعة موقع الإبداع والاستحسان دالة على البراعة والبيان.

بل إن رغائب ابن أبي الإصبع تلك التي أفصحت عنها عباراته الأدبية الرائقة اللائقة يؤكدها بفيض لا يغيض من الشواهد القرآنية، رغم أن العلوي أشار إلى أن هذا الأسلوب في القرآن على القلة، وعلل ذلك بقوله: "وما ذلك إلا لأنه غير لازم من الإتيان به في البلاغة والفصاحة"^(٤).

والإكثار سمة المذهب الأدبي، وصفة كل نفس تنزع إليه عن فطرة مركوزة وحُب له والتزام.

(١) انظر: تحرير التعبير، ص ٥١٧، وبديع القرآن، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٥١٨.

(٤) الطراز، ج ٢، ص ٢٠٩-٢١٠. وقال ابن الأثير: "ولا تجد أمثال ذلك في القرآن إلا قليلاً". انظر:

المثل السائر، ج ١، ص ٢٧٢.

فَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا : استشهاده بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿^(١)﴾ ،
 وقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿^(٢)﴾ ، وقوله ﴿ لَنْخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ﴿^(٣)﴾^(٤) .

غير أنَّ الشاهد الذي لم يزد على ما قاله عنه في كتابه (تحرير التحبير) ، وهو قوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿^(٥)﴾ ، والذي استشهد به القزويني أيضاً ، ذكره ابن أبي الإصبع في كتابه (بديع القرآن) ، واستوقفه وذكر فيه التنكيث العجيب الذي جعل من هذه الفاصلة منسجمة مع مؤدَّاها ، مُتَسَاقَةً مع فحواها ، متمكِّنة في مقرِّها ومأواها ، قد دعاها المعنى فَلَبَّتْ ، واحتاجها الغرض فوفَّتْ من غير استكراه وإلزام ، وفي غير تنافر واضطراب .

تأمَّله يقول " فلزمت الهاء قبل الراء ، وفي هاتين الفاصلتين مع الالتزام تنكيث عجيب ، فإنه يقال : هل يجوز التبديل في القرينتين فتأتي كل واحدة منها مكان أختها ؟ . فيقال : لا يجوز ذلك ؛ لأنَّ النكتة في ترجيح مجيئها على ما جاءتا عليه أنَّ اليتيم مأمور بأدبه ، وأقلَّ ما يؤدَّب به الانتهاز ، فلا يجوز أن ينهي عن انتهاره ، وإنما الذي يُنهي عنه قهره وغلبته ؛ لانكساره باليُتم وعدم ناصره ، فمن هاهنا ترجح مجيء كل قرينة على ما جاءت عليه ، ولم يجز التبديل " ^(٦) .

فانظر إلى تأمَّله الدقيق وتعليله الأدقَّ منطلقاً مع الآية إلى ما وراءها من معانٍ ، وما تخفيه من دلالات خفية يجدها المتأمل تتشعب وتمتدُّ لتلتقي في نقطة واحدة ، هي هذه الفاصلة السهلة المنسجمة في مكانها ومع أخواتها ، كما ذكر هو في آخر الباب ، حيث قال :

(١) سورة الانشقاق : الآيتان (١٧ ، ١٨) .

(٢) سورة القلم : الآيتان (٢ ، ٣) .

(٣) سورة الأعراف : الآية (٨٨) .

(٤) انظر : تحرير التحبير ، ص ٥١٧-٥١٨ .

(٥) سورة الضحى : الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٦) بديع القرآن ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

" تعجز الفصحاء أشدّ تعجيز ؛ لمحيثها سهلة منسجمة كما ترى ؛ فسبحان المتكلم بهذا الكلام " (١).

وهذه لفظة من لفتات ابن أبي الإصبع المعتادة في كتابيه ، التي تعكس أمرين اثنين :
أولهما : ارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم ، وحرصه الشديد على كشف جوانب الإعجاز فيه بوقفاته التحليلية ، وموازنته بين الآية والآية ، والآية والبيت الشعري .

ثانيهما : دقة حسّه وميوله الأدبية وموهبته الفطرية التي تنزع إلى التأمل في الأشياء وما وراء الأشياء ، والوقوف عندها وتأملها واستشعارها ، ثم التعبير عنها ، وهذه سمة الأدباء .

ولكن لا يعني هذا أنّ الخطيب القزويني يخلو من هذه النزعة الأدبية وهذا الحسّ الدقيق ، وإن اقتصر على الاختصار والتحديد والتفعيد ، إلا أنّ شواهد تعكس هذا الحسّ عنده وتبرزه وإن لم يحللها ، فهو أيضاً ذكر هذا الشاهد القرآني ، واستشهد على اللزوم من الشعر بقول الشاعر :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَأَخْتُ مِنِّي	أَيَادِي لَمْ تُنَمِّنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ
فَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ	وَلَا مُظْهِرِ الشُّكُوفِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلْقِي مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانُهَا	فَكَانَتْ قَدَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ (٢)

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

وذكر الشيخ عبد الرحيم العباسي أنّ قائلها عبد الله بن الزبير الأسدي في عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، وكان سببها ما حكاه أبو غسانة قال : بلغني أنّ أول من أخذ نسيئة في الإسلام عمرو بن عثمان بن عفان ، أتى عبد الله بن الزبير الأسدي ، فرأى عمرو تحت ثيابه ثوباً رثاً ، فدعا وكيله وقال له : اقترض مالاً ، فقال : هيهات ، ما يعطينا التجار شيئاً ، قال : فأربحهم ما شاؤوا .. فاقترض له ثمانية آلاف درهم باثني عشر ألفاً ، فوجه بها إليه مع تحت ثياب ، فقال عبد الله بن الزبير الأبيات .

ومعنى (لم تمنن) : لم تقطع ولم تخلص بمنّة وإن عظمت ، وقوله : (إذا النعل زلت) كناية عن نزول الشرّ وامتحان المرء ، يقال : زلت القدم ، وزلت النعل به ، و(الخلة) - بالفتح - : الحاجة وال فقر والخصاصة ، وفي المثل : (الخلة تدعو إلى السلة) ، أي السرقة ، و(القذى) : ما يقع في الشراب .
انظر : معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

ولك أن تتأمل كيف أتت القافية متمكنة في مكانها بهذا اللزوم ، فلم يكن هناك إلقاء أو إكراه ، وما كانت كذلك إلا لأنّ الشاعر من الطبقة الأولى الذين تعرف من البيت الواحد عندهم مكان الرجل من الفضل ، وموضعه من الحذق ، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع ، كما قال عبد القاهر^(١).

وفرق بين شاعرٍ ينحتُّ من صخرٍ وآخر يغرف من بحر^(٢).

ومما يدلُّ على رقي الاختيار عند القزويني وسلامة حسِّه وذوقه أيضاً : أنّ هذا الشاهد ذكره عبد القاهر ضمن باب (دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر)^(٣) ، ألا وهو الحذف الذي " ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد

(١) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٨٨ .

(٢) راجع شرح هذه العبارة في : دلائل الإعجاز ، ص ٥٦٦ ، للفائدة .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ١٤٦ . ومن اللافت أنّ من الشواهد التي ذكرها الجرجاني في هذا الباب ما هو داخل في الالتزام أيضاً ، وهو قول بكر بن النطّاح :

الْعَيْنُ تُبْدِي الْحُبَّ وَالْبُغْضَا	وَتُظْهِرُ الْإِبْرَامَ وَالنَّقْضَا
دُرَّةً ، مَا أَنْصَفْتَنِي فِي الْهَوَى	وَلَا رَحِمْتَ الْجَسَدَ الْمُنْضَى
غَضَبِي ، وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا	لَا أَطْعَمُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى

انظر : ص ١٥٢ .

فالشاعر التزم الحرف الذي قبل الألف ، وإن كانت الألف هنا تعتبر ألف وصل ، وهو يقابل قول أبي العلاء المعري :

مِنْكَ الصُّدُودُ وَمِنِّي بِالصُّدُودِ رِضَا	مَنْ ذَا عَلَيَّ بِهَذَا فِي هَوَاكَ قَضَى ؟
بِي مِنْكَ مَا لَوْ غَدَا بِالشَّمْسِ مَا طَلَعَتْ	مِنْ الْكَأَبَةِ أَوْ بِالْبَرْقِ مَا وَمَضَا
إِذَا الْفَتَى ذَمَّ عَيْشاً فِي شَبِيبَتِهِ	فَمَا يَقُولُ إِذَا عَصُرَ الشَّبَابِ مَضَى ؟

فأبيات المعري تنتهي قافيتها بالضاد والألف ، ولكن بعض الألفات فيها ما هو أصلي ، كالألف في (رضا ، قضى ، مضى) ، وفيها ما ليس أصلياً ، بل للإطلاق ، كالألف في : (وَمَضَا ...) ، ولذلك اعتبرت الضاد رويّاً والألف وصلاً .

انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٤٧ .

ولقد بحثت عن هذه القصيدة في (اللزميات) لأبي العلاء ، فلم أجدها .

للإفادة ، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين^(١) .

ويُقابل هذا الشاهد في مستوى هذه الطبقة الأولى قول امرئ القيس الذي ذكره ابن أبي الإصبع ، وهو :

فَمِثْلُكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعُ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مَحُولِ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا أَنْحَرَفَتْ لَهُ بِشِقِّ وَتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ^(٢)

قال صاحب (معاهد التنصيص) : " وما يقع في هذا الباب لمتقدم فهو غير مقصود منه " ^(٣) .

وكما استشهد ابن أبي الإصبع للمتقدمين استشهد كذلك للمتأخرين ، كأبي العلاء المعري ، الذي " قيّد نفسه بقيود ضايقت أفكاره ، وأسقمت معانيه ، فأسلمت ألفاظه إلى الغرابة ، وأساليبه إلى التعقيد " ^(٤) .

وانظره يقول : " وقد أكثر المتأخرون من هذا الباب قاصدين عمله ، وما وقع لمتقدم

(١) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ١٤٦ .

(٢) انظر : تحرير التحبير ، ص ٥١٩ ، ومعاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ .

ولقد وجدت في ديوان امرئ القيس رواية أخرى ليس فيها التزام ، إنما هو تعاقب بين الواو والياء ، وهي :

فَمِثْلُكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعُ فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُغِيلِ
إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا أَنْحَرَفَتْ لَهُ بِشِقِّ وَشِقُّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلِ

(حُبْلَى) : حامل ، (قد طرقت) : قد ضاجعت ، (فألهيته) : سليتها ، صرفتها ، أنسيته ،
(عن ذي تمائم) : عن طفلها . التمايم : جمع تيمة ، وهي التعويذة يتقون بها مس الجن ، (المغِيل) :
الرضيع وأمه حُبْلَى .

أما رواية (المحول) : طفل رضيع له حول ، أي سنة من العمر .

انظر : شرح ديوان امرئ القيس ، ص ٢٢ .

(٣) معاهد التنصيص ، ج ٣ ، ص ٣٠٤ .

(٤) الصبغ البديعي ، ص ٣٣٤ .

فغير مقصود ، حتى عمل المعري من ذلك ديواناً كاملاً مفرداً من ديوان شعره المعروف بسقط الزند ، ومنه قوله :

لَكَ الْحَمْدُ أَمْوَاهُ الْبِلَادِ بِأَسْرَهَا عَذَابٌ وَخَصَّتْ بِالْمُلُوحَةِ زَمْزَمُ
هُوَ الْحَظُّ غَيْرُ الْوَحْشِ يَسَافُ أَنْفُهُ خُزَامِي وَأَنْفُ الْعَوْدِ بِالْعَوْدِ يُخْزَمُ^(١)

ويظهر أن هذا من الالتزام الجيد الذي يُحمد عند أبي العلاء ، فالقافية فيه متمكنة واللزوم عفواً .

وإذا كان ابن أبي الإصبع قد استشهد للمتقدمين وخصّ أبا العلاء من المتأخرين ؛ لأنه أول من اتخذ هذا اللون صناعة احترفها شطراً كبيراً من عمره^(٢) .

(١) تحرير التحرير ، ص ٥١٩ . وفي رواية أخرى :

تَبَارَكْتَ ، أَنهَارُ الْبِلَادِ سَوَائِحُ بَعْدُ وَخَصَّتْ بِالْمُلُوحَةِ زَمْزَمُ
هُوَ الْحَظُّ ، عَيْرُ الْيَدِ سَافَ بَأْنْفِهِ خُزَامِي ، وَأَنْفُ الْعَوْدِ بِالنَّالِ يُخْزَمُ

انظر : اللزوميات ، ج ٢ ، ص ٣٨١ ، من قصيدة بعنوان : (اعرس ولا تنسل) ، وبين البيتين بيت .
(أمواه ومياه) : جمع ماء وماء وماء ، وسُمع : اسقني ماءً ، وهمزة الماء منقلبة عن هاء . و(زمزم) : اسم البئر المعروفة بمكة المكرمة عند الكعبة ، وقيل : سميت بذلك لأن هاجر كانت تُردّد لَمَّا رَأَتْهُ : زم .. زم : أي ارتفع .. ارتفع ، (يستاف) : يشتم ، (الخزامى) : نبت ، أو خيري البرّ ، زهره أطيب الأزهار نفحةً ، والتبخّر به يُذهب كلّ رائحة مُنتنة . قال الفيروزآبادي : وشربه مصلح للكبد والطحال والدماغ البارد ، (يُخْزَمُ) : يُشكُّ ويُثَقَّبُ ، (العود) : البعير المُسنّ .

والمعنى المراد في الرواية التي ذكرها ابن أبي الإصبع : أن للحظّ دور ، فكما هو الشأن مع المياه ، كذلك الشأن مع الحيوان ، فالإبل أكثر حظاً من غير الوحش - وغالباً هو الإنسان - في الاستمتاع بنبت الخزامى ؛ إذ ليس مجرد اشتمام له من بعيد ، إنما يخزم أنفه به خاصةً عندما يأكل ، وهو في هذا المعنى كقول المتنبي :

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمَ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

فالحظّ يفرّق بين الشيء وما يساويه ، فيجعل لأحدها مزية على الآخر ؛ حتى لقد يقع التفاضل بين

العين وأختها . انظر : الوساطة ، ص ١٠١ .

(٢) الصبغ البديعي ، ص ٣٣٥ ، بتصرفٍ يسير .

فإن الخطيب القزويني قد استشهد له أيضاً ، وإن لم يصرّح باسمه ، وهو قوله :

يَقُولُونَ : فِي الْبُسْتَانِ لِلْعَيْنِ لَذَّةٌ وَفِي الْخَمْرِ وَالْمَاءِ الَّذِي غَيْرَ آسَنِ
إِذَا شِئْتَ أَنْ تُلْقَى الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا فَنِي وَجْهِ مَنْ تَهْوَى جَمِيعُ الْمَحَاسِنِ^(١)

وهو شاهد يفيض رقةً وسلاسةً وإن كان في شاهد ابن أبي الإصبع جزالة وعمق في المعنى !
مما يُظهر أنَّ العالمين الفاضلين على مستوى راقٍ من الذوق والدقة في اختيار الشواهد ،
خاصة لأبي العلاء ، رغم ما يعرف عنه من التكلف الظاهر في هذا الفن البديعي ؛ إذ لا أثر
فيه لجمال أو روعة فيما تكلفه خاصة ، وعثرات لسانه فيه كثيرة ، كما ذكر العلوي .

والمصريّ والقزويني يُلمّحان بهذه الشواهد إلى أصل الحسن في هذا الفن ، وإن كان ابن
أبي الإصبع قد أكّد على هذا بعبارة سبق توضيحها في تعريفه ، وعزّزها بأمثله ، إلا أنَّ
الخطيب كان قد أخرّ الحديث عن هذه المزية إلى آخر الباب ، حيث ختم حديثه عن
الحسنات اللفظية عامّة بقوله : " وأصل الحسن في جميع ذلك - أعني القسم اللفظي - كما
قال الشيخ عبد القاهر ، وهو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإنَّ المعاني إذا أُرسِلت على
سجيتها وتُركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتسب إلا ما يليق بها ، فإنَّ كان
خلاف ذلك كما قال أبو الطيب :

إِذَا لَمْ تَشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبٌ^(٢)

(١) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

وقد نسب ابن حجة إلى أبي العلاء ، لكن برواية أخرى ، هي :

يَقُولُونَ : فِي الْبُسْتَانِ لِلْعَيْنِ نُزْهَةٌ وَفِي الرَّاحِ وَالْمَاءِ الَّذِي غَيْرَ آسَنِ

انظر : خزانة الأدب ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ .

غير أنني لم أعر على هذين البيتين عند أبي العلاء المعري في لزومياته .

(و) ماء غير آسن) : أي غير متغير طعمه أو ريحه .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩١ .

قال عبد المتعال الصعيدي : " الضمير في (شياتها) لخليل يصفها في قوله قبله :

وهو في هذا متأثرٌ جُلُّ التأثير بعبد القاهر الجرجاني ، بل هو ناقلٌ عنه^(١) ، وليس في هذا معيبة أو منقصة في حق الخطيب جلال الدين ، أو تقليل من شأنه .

ثم قال ناقلاً عنه أيضاً : " وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسمٌ في البديع ، وعلى أن ينسى أنه يتكلّم ليفهم ، ويقول لبيّن ، ويُخيل إليه أنه إذا جمع عدّة من أقسام البديع في بيتٍ فلا ضير أن يقع ما عناءه في عياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء "^(٢) ، مشيراً بذلك إلى أبي العلاء وغيره من المتكلفين المشغوفين بألوانِ البديع .

قال السعد : " فينبغي أن يجتنب عما يفعله بعض المتأخرين الذين لهم شغف بإيراد شيء من المحسنات اللفظية ، فيصرفون العناية إلى جمع عدّة من المحسنات ، ويجعلون الكلام كأنه

وما الخيلُ إلا كالصديقِ قليلةٌ وإن كثرت في عين من لا يُجربُ

(والشّيات) : جمع شبة ، وهي العلامة الظاهرة من لونٍ ونحوه ، يعني أنّ حُسْنها ليس في صورتها وحدها ، وأنّ حُسْنها الكامل في خِصّالها ، وكذلك الألفاظ والمعاني التي ساق البيت من أجلها " .
انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ ، هامش (٤) .

وعلق عصام الدين بن عربشاه على كلام الخطيب شارحاً : " وبالجملّة يتّجه أنّه لا وجه لتخصيص هذه الوصية بالضرب اللفظي ، بل أصلُ الحُسن في جميع ذلك لفظياً كان أو معنوياً بأن لا يفوت مصلحة المعنى ، فإذا دعا رعاية محسّن معنويّ أيضاً إلى إخلالٍ بإفادة اللفظ للمعنى ينبغي أن يهجر عنه ، ولا يمكن دفع الشبهة بهذا التقرير بأنّ قوله : (أن يكون الألفاظ تابعة للمعاني) يدلّ على أنّ الكلام في المحسنات اللفظية ؛ إذ دلّالته ممنوعة ، كيف ورعاية المحسّن المعنوي والتكلف له أيضاً ربما يجعل اللفظ تابعاً للمعنى ، ولو سلم فالكلام في التخصيص ، لا في محلّ عبارة المصنف على العموم ، فاللائق أن يجعل قوله : والأصل في ذلك كلّهُ بمعنى أنّ الأصل في ذلك المذكور من المحسنات المعنوية واللفظية ، ذلك ليعمّ فائدته ، وإن كان غالباً مع ما يقع فيه التكلف ، وأكثر ما شاع فيه التصنّع رعاية المحسنات اللفظية ، وهو الوجه في تخصيص الوصية بها لو خصّت ، وأحاله المحسّن المعنوي على تلك الوصية ؛ لأنّ الاهتمام به في تلك دون الاهتمام باللفظي " . انظر : الأطول ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ .

(١) انظر : أسرار البلاغة ، ص ٩ ، ١٤ ، حيث ساق الجرجاني عباراته تلك أثناء حديثه عن الجنس والسجع .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، وانظر : أسرار البلاغة ، ص ٩ .

غير مسوق لإفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعاني ^(١) .

وقبل أن يختم الخطيب القزويني حديثه عن المحسنات اللفظية ببيان أصل الحسن فيها ؛ نبّه على حالة من اللزوم لم يُنبّه إليها ابن أبي الإصبع ؛ فقال : " وقد يكون ذلك في غير الفاصلتين أيضاً ، كقول الحريري : (وما اشتار العسل من اختار الكسل) " ^(٢) .

قال عصام الدين : " معناه أنّ مثل هذا الاعتبار الذي يسمى لزوم ما لا يلزم قد يجيء في كلمات الفقر ، أو الأبيات غير الفواصل والقوافي " ^(٣) .

وذلك كقوله : (اشتار) و(اختار) ، فإنها حالة من اللزوم وقعت أيضاً قبل الفواصل التي هي (العسل) و(الكسل) .

ويعتبر هذا هو الشاهد الثري الوحيد عند القزويني مقارنةً بالشواهد الثرية عند ابن أبي الإصبع في كتابه (تحرير التحبير) ، كما سبق التنويه على ذلك ، ولقد تأملتها ولم أجد فيها الحالة التي ذكرها الخطيب .

التزام الحركة :

كلا العالمين متفقان على أنّ لزوم ما لا يلزم يدخل فيه التزام الحركة أيضاً مع الحرف ، وإن لم يُصرّحاً بذلك ، لكنّ شواهدهما تنطق بهذا خاصةً وأنه " ينبغي لسلامة القافية أن تخلو من اختلاف الحركة التي قبل الروي ، فإذا بدأ الشاعر القصيدة بروي حركة الحرف الذي قبله كسرة مثلاً فإنه يحسن أن يلتزم هذه الكسرة

(١) المطول ، ص ٧٠٦ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ .

و(اشتار) : مشتقٌّ من الشَّرو ، وهو العسل .

(٣) الأطول ، ج ٢ ، ص ٧٠٦ . وانظر ما ذكره حول الخلاف على هذا التنبيه عند الخطيب هل هو داخلٌ في لزوم ما لا يلزم أم هو حالة من الاختلال ، وكذلك ما ذكره السعد في (المطول) ص ٤٨٥ ، والظاهر أنّها حالة من اللزوم غير لازمة في مذهب السجع أيضاً . وقد فسّرها الشيخ عبد المتعال بقوله : " بأن يكون في الكلمات التي قبلها ، كما في (اشتار) و(اختار) في قول الحريري " . انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ ، هامش (١) .

قبل الروي ، ولكن كثيراً من الشعراء لا يلتزمون ذلك ^(١) .

قال السعد معلقاً على شواهد الخطيب : " ففي كلٍّ من الآية والأبيات نوعان من لزوم ما لا يلزم : أحدهما : التزام الحرف ، كالهاء واللام ، والثاني : التزام فتحهما ، وقد يكون الأول بدون الثاني ، كالقمر ومستمر ، وبالعكس كقول ابن الرومي :

لَمَّا تُؤْذَنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُولَدُ
وَالْأَفْأَمُ يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا لِأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ ^(٢)

وإن كان الخطيب حقيقة لم يُشير إلى هذا الأخير في بيتي ابن الرومي وكذلك ابن أبي الإصبع ، ولعلّ هذا هو من قبيل التكلف والتوسّع في مفهوم لزوم ما لا يلزم كما أشرتُ من قبل ؛ لذا التزم العالمان بما هو في دائرته فقط - وهو التزام الحرف أو الحركة معه فقط - ، ويبدو أنّه الأصحّ والأرجح والأولى .

ولزوم الحركة والحرف ظاهر في جميع ما استشهد به ابن أبي الإصبع من الشعر في كتابه (تحرير التحبير) ، إلا أنّ من أعذبها وأرقّها وواقع فيه التزام أكثر من حركتين قول بعضهم :

سَلِّمْ عَلَى قَطَنِ إِنْ كُنْتَ نَازِلَهُ سَلَامٌ مَنْ كَانَ يَهْوَى مَرَّةً قَطْنَا
أَحْبُهُ وَالَّذِي أَرْسَى قَوَاعِدَهُ حُبًّا إِذَا ظَهَرَتْ آيَاتُهُ بَطْنَا
مَا مِنْ غَرِيبٍ وَإِنْ أَبْدَى تَجَلُّدَهُ إِلَّا تَذَكَّرَ عِنْدَ الْغُرْبَةِ الْوَطْنَا ^(٣)

(١) علم العروض والقافية ، ص ١٦٩ .

(٢) المطول ، ص ٧٠٥ ، ٧٠٦ . ومما لم يُشير إليه السعد وإن كان داخلاً فيما ذكره : التزام الكسر أيضاً مع الحرف في بيت أبي العلاء الذي استشهد به الخطيب .

(٣) تحرير التحبير ، ص ٥١٩ . وذكر الدكتور عبد الفتاح لاشين أنّ هذا داخلٌ في التزام حرفين أيضاً ، ويقصد

حرف (الطاء) وحرف (النون) ، معتبراً الألف رويّاً . انظر : البديع في ضوء أساليب القرآن ، ص ١٥٣ .

إلا أنّ هذه الألف لا تصلح أن تكون رويّاً ، فهي ألف الإطلاق الناشئة من إشباع حركة الروي التي هي الفتحة على النون . انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٣٨ .

الردف :

سبق تعريف معنى الردف ، وهو : " حرف مدّ قد يكون قبل الروي ، سواء أكان هذا الروي ساكناً أم متحركاً " ^(١).

" والتزام الردف يعني أنّ الشاعر متى بدأ قصيدته بقافية مشتملة على ردف - أي على حرف مدّ أو لين سابق للروي - فإنه ينبغي أن يلتزم ذلك وألاً يتخلّى عنه ، وإلا كان ذلك عيباً من عيوب القافية يسمى : (سناد الردف) " ^(٢).

ومن المسلّم به عند ابن الأثير والعلوي وابن سنان كما سبق أنّ الردف إذا جاء في الشعر وفي الكلام المشور لا يقال إنه التزام ما لا يلزم ؛ لأنّ الملتزم ما لا يلزم له مندوحة في العدول إلى غيره ^(٣).
ويظهر أنّه من المسلّم به أيضاً عند العالمين الفاضلين :

قال ابن أبي الإصبع : " وقد جاء من ذلك في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ^(٤) ، فجاءت الطاء قبل واو الردف لازمة ، والواو ردفأ ، مع جواز تبديلها بالياء " ^(٥).

وهذا يتفق مع ما هو معلوم في العروض والقافية من أنّ الردف إذا كان بالألف فإنه يجب أن يستمرّ من أول القصيدة إلى آخرها ، فلا يجوز أن تتناوب الألف مع الواو أو الياء ، أما الواو والياء فلا بأس في أن يُعاقب فيما بينهما ^(٦).

وقال في مكان آخر عن قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴾ ^(٧) : " فلزمت الراء في هذه الفواصل قبل ألف الردف . وقوله في الآية :

(١) علم العروض والقافية ، ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦ . والسناد سبق بيانه . انظر : ص ٤٩٦ .

(٣) انظر : المثل السائر ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، والطراز ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، وسرّ الفصاحة ، ص ١٧٩ .

(٤) سورة الطور : الآيتان (١ ، ٢) .

(٥) بديع القرآن ، ص ٢٢٧ .

(٦) انظر : علم العروض والقافية ، ص ١٥٦ .

(٧) سورة القيامة : الآيات (٢٦ - ٢٨) .

﴿وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾^(١) ، فلزمت السين قبل ألف الردف وبعد لام التعريف في الحرفين ، ثم قال بعد ذلك : ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾^(٢) ، على لزوم السين " (٣) .

أما الخطيب القزويني فهذا واضح من استشهاده بقول الحريري : " وما اشتار العسل من اختار الكسل " (٤) .

فإنّ قوله قبله : " وقد يكون ذلك في غير الفاصلتين أيضاً " ، يعني به كلمة (اشتار) و(اختار) ، وهو بلا شك يقصد اللزوم الواقع في التاء في الكلمتين ، وإلا فإنّ الألف تعتبر ردفاً . إلا أنّه مما استوقفني عند ابن أبي الإصبع استشهاده على اللزوم بقوله تعالى : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾^(٥) ، حيث قال : " وهذه الآية كأول آية في الباب - يقصد قوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ - ، فإنّها لزمت فيها الفاء قبل ياء الردف ، ولزمت الياء مع جواز تبديلها بالواو " (٦) .

فالآية الأولى في أوّل الباب ، وهي قوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾^(٧) ، فإنّ لفظة (الطور) ولفظة (مسطور) هما كلمتان مستقلتان ببعضهما منفصلتان عن بعضهما . أما ما يقصده في الآية الثانية ، وهي : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ ، فإنّ لفظة (مُتْرَفِيهَا) ولفظة (فيها) كلمتان منفصلتان أيضاً ، إلا أنّ اللفظة الثانية يمكن أن تعتبر جزءاً من الأولى ، وهي بهذا تدخل في جناس التركيب ، لكن ليس في كلمة (فيها) التزام مع اللفظة التي قبلها ؛ لأنّ الأحرف فيها من أصل الكلمة ، ولا خيار لزيادة حرف لأجل الالتزام . هذا أولاً .

(١) سورة القيامة : الآية (٢٩) .

(٢) سورة القيامة : الآية (٣٠) .

(٣) بديع القرآن ، ص ٢٢٨ .

(٤) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ .

(٥) سورة الإسراء : الآية (١٦) .

(٦) بديع القرآن ، ص ٢٢٨ .

(٧) سورة الطور : الآيتان (١ ، ٢) .

ثانياً : أنّ قوله : " لزمت الياء مع جواز تبديلها بالواو " يتعارض - كما يبدو - مع ما يذهب إليه من أنّ الردف ليس داخلاً في لزوم ما لا يلزم ، إلا أن يقال : إنّ هذا ينسجم مع تسميته (الالتزام) ، وأنّ كلّ ما في القرآن من هذا الصنف البديعي إنما هو التزام ، وليس هناك ما لا يلزم ، أو هو ما لا يلزم غير مقصود ولا كلفة فيه .

وكذلك الحال يُقال في تحليله لقوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿^(١)﴾ ، إذ قال : " وهذه كالتي قبلها للزوم الواو ردفاً بعد النون " ^(٢) .

وقد سبق التنويه إلى أنه التقى مع الخطيب القزويني في بعض الشواهد القرآنية ، أهمّها قوله تعالى : ﴿ .. فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿^(٣)﴾ ، فمن الملاحظ أنّ جلال الدين الخطيب سكت عن توضيح اللزوم في هذه الآية ، وكذلك أغلب الشراح ^(٤) .

أما ابن أبي الإصبع فقال : " وقد التزمت في هاتين الفاصلتين الصاد ، والراء والواو ردفاً مع جواز التبديل " ^(٥) .

فيلاحظ أنه اعتبر الردف هنا أيضاً من الالتزام الذي يتفق مع تسميته ، وإلا فإنّ الردف ليس من لزوم ما لا يلزم ، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الآية في أول المبحث عند السيوطي .

(١) سورة القلم : الآيتان (٢ ، ٣) .

(٢) بديع القرآن ، ص ٢٢٨ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان (٢٠١ ، ٢٠٢) .

(٤) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩٠ ، وعروس الأفراح ، ج ٣-٤ ، ص ٣٩٧ ، والمطوّل ، ص ٧٠٣ ، والأطول ، ج ٢ ، ص ٤٨٢ .

(٥) بديع القرآن ، ص ٢٢٨ .

وأختم القول في هذا المبحث بأنني أجد أنّ العالمين الفاضلين متكافآن في تناولهما لهذا الباب - وإن اختلفا في الأسلوب - من حيث العرض والإشارة إلى مزيته والتزام الحركة فيه ، والتنويه الذي يفهم منهما عن الردف . وانتقائهما للشواهد بدقّة تنمّ عن ذوقٍ رفيعٍ واحتياطٍ دقيق ، سواء القرآنية منها - وإن كان ليس هناك مفاضلة بين شواهد القرآن - أم الشعرية والنثرية ، وكذلك إشارتهما إلى صنيع المتقدّمين فيه والمتأخرين ، فلولا متابعة الخطيب للسكاكي بإخضاعه البلاغة للحدّ (والتقنين) وإحاطها من الشواهد الغزيرة التي تعين على تربية السلائق وتكوين الملكات ، لَعَادَ صنيعه هذا على البلاغة بأحمدِ النتائج ، وأطيب الفوائد ، ولكن التقليد غلب عليه ^(١).

أما ابن أبي الإصبع فلم أجد له أبلغ ولا أحلى من قول السّبكي : " أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك ما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ، والفهم المستقيم ، والأذهان التي هي أرقّ من النسيم ، وألطف من ماء الحياة في الحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار إليهم بأصبعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة ، فهم يُدرِكون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء ، فضلاً عن الأغمار الأعمار ^(٢) ، ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب من الأسرار خلف الأستار .

وَالسَّيْفُ مَا لَمْ يُلَفَّ فِيهِ صَيْقَلٌ مِنْ طَبْعِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالٍ ^(٣)

(١) الصبغ البديعي ، ص ٣٠٤ ، بتصرفٍ يسير .

(٢) (الأغمار) : جمع (غُمر) ، وهو الرجل الذي لم يُجربّ الأمور ، وبنو عقيل تقول : (غَمِرَ) من باب (تَعَب) ، وأصله الصبي الذي لا عقل له . قال أبو زيد : وَيُقْتَأَسُ مِنْهُ لِكُلِّ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا غِنَاءَ عِنْدَهُ فِي عَقْلٍ وَلَا رَأْيٍ وَلَا عَمَلٍ . انظر : المصباح المنير ، ص ٤٥٣ ، باب (الغين) .

(٣) مقدّمة عروس الأفراح ، ج ١-٢ ، ص ١٤٦ .

و(الصيقل) : شحاذ السيوف وجلّاؤها ، و(الصقّل) : الجلاء ، والاسم : الصقّال .

ولا أدلّ على هذا إلا أبيات لابن أبي الإصبع نفسه يظهر فيها التزام حركة ما قبل
الروي ، وهي :

أَجُودُ لِعِلْمِي أَنَّ جُودِي يَسُرُّهَا	لَتَحْمَدَنِي وَهِيَ الْحَقِيقَةُ بِالْحَمْدِ
تَبَيَّنَتْ مِنْهَا أَنَّهَا تَعْشَقُ النَّوَى	فَأَبْدَيْتُ مِنْ عِشْقِ النَّوَى فَوْقَ مَا عِنْدِي
وَأَهْوَى النَّوَى لَا عَنْ مَلَالٍ لَعَلَّهَا	تَقُولُ تَرَاهُ كَيْفَ حَالَتُهُ بَعْدِي
الْأَبْصَرْتُ قَبْلِي مُدْنِفًا مُتَحِيلًا	عَلَى بُرْئِهِ يَرْجُو الشِّفَاءَ مِنَ الْبُعْدِ ^(١)



(١) انظر : بديع القرآن ، ص ١١٤ .

و(المدنف) : الذي أثقله المرض .

وقد جاءت هذه الأبيات مرتبة على شغف ابن أبي الإصبع بأبيات تحمل نفس المعنى . يقول في باب

(القسم) : " وما أحسن قول من قال في معنى التقريب إلى المحبوب وخلق قلبه بالتلطف :

يَوَدُّ بَأْنَ يُمْسِي عَالِيًا لَعَلَّهَا	إِذَا سَمِعَتْ شَكْوَاهُ يَوْمًا تُرَاسِلُهُ
وَيَهْتَرُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَا	لَتَحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ

وما ذكرت هذين البيتين في هذا الكتاب - يعني بديع القرآن - مع ما التزمت أني لا أذكر من الشعر إلا
ما تمس الحاجة إلى ذكره ضرورة ؛ إلا لشغفي بهما ، ومن شغفي بهما عملت في معناهما ، فقلت - وإنني
لأعلم تقصيري فيما عملت - : (وذكر الأبيات أعلاها) .

الختام

وبعد ..

فلقد أنهيتُ هذا البحث ، وهأنذا أقف على عتباته الأخيرة ، وقد تراءى لي الإحساس الأول وهو ينتقل بي من مرحلة إلى أخرى ، إلى أن استوى واستقام .

فبعد التهيّب والتردد ، ثمّ الخوض في هذه الدراسة والتفكير في مسائلها المتعدّدة ، واتخاذ القرار والخيار في معمعة الموازنة وضجيج الاختلاف بين العالمين ، وتنازع المعارضين أو المختلفين ، والمؤيدين أو المعجبين ، وجلبتهما حول آرائهما ، فإنني مضيتُ في هذا البحث من أوله ودخلته متحيّزة لابن أبي الإصبع المصري ؛ لاتّجاهه الأدبي ، ومتأثرة بنقد من نقدوا الخطيب وحطّوا من شأنه وصنيعه .

غير أنّ العصبية - كما قال القاضي الجرجاني - ربّما كدّرت صفو الطبع ، وفلّت حدّ الذهن ، ولبّست العلم بالشك ، وحسّنت للمنصف الميل ، ومتى استحكمت ورسخت صورّت لك الشيء بغير صورته ، وحالت بينك وبين تأمله ، وتخطّت بك الإحسان الظاهر إلى العيب الغامض ، وما ملكت العصبية قلباً فزكت فيه للتبّث موضعاً ، أو أبقت منه للإنصاف نصيباً^(١) .

وعلمت أنه مهما ذكرته من كلام فليس بمغنٍ ، ولا القول نافع ، ولا الحجة مسموعة حتى تجد من فيه - كما يقول عبد القاهر - عونٌ لك ، ومن إذا أبى عليك أبى ذاك طبعه فردّه إليك ، وفتح سمعه لك ، ورفع الحجاب بينه وبينك ، وأخذ به إلى حيث أنت ، وصرف ناظره إلى الجهة التي إليها أومأت ، فاستبدل بالنفّار أنساً ، وأراك من بعد الإباء قبولاً^(٢) .

وهأنذا أتقلّ من التعصب لابن أبي الإصبع إلى الاعتدال ثمّ التعصّب مرّة أخرى ، ولكن للخطيب القزويني هذه المرة ، إلى أن استوى في عيني مقام الرجلين معاً ، فعلمتُ أنّي قد وصلت إلى درجة من الوعي جعلتني أنتصف لهما واعتدل معهما ، ولكلّ منهما له ما له وعليه ما عليه ،

(١) انظر : الوساطة ، ص ٤١٤ .

(٢) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٦٢٨ .

وكما صرّح ابن أبي الإصبع نفسه في مقدّمة كتابه (تحرير التحبير) : " وكلّ أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا مَنْ عصمه الله من أنبيائه ، صلوات الله عليهم وسلامه ، والسعيد من عُدّت سقطاته ، ﴿ وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِي ﴾ ، ولا أدّعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي" ^(١) .

ولقد أوصلتني رحلتي الشّيقة الشاقّة معهما إلى الحقائق التالية :

* أنّ أول محاولة علمية جادّة في علم البديع لم تكن محصورة حقيقة في شخص ابن المعتزّ وحده ، كما ذهب إلى ذلك كثير من الدارسين ، إنّما ينازعه في هذا الفضل أستاذه أبو العباس ثعلب ، إلا أنّ كلّاً منهما جمع تلك الألوان البديعة تحت اسم آخر ، فكان البديع عند ابن المعتز ، وكانت قواعد الشعر عند ثعلب .

* أنه لا يمكن التسليم أبداً بأنّ الخطيب هو أول الجانين على ألوان البديع بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض على حدّ تعبيرهم ، وإنّما كما ذكر الأستاذ أحمد موسى - وأتفق معه - أنّ أصباغ البديع التي تجري على نط ما اختاره الخطيب في القبول والصفاء من البلاغة في أكرم موضع وأعزّ مكان ، وسواء بعد ذلك جعلها علماً مستقلاً أو تابعة لأحد العلمين - البيان والمعاني - ، أو موزّعة بينهما .

* أنّ ابن أبي الإصبع لم يكن مشهوراً سوى بلقبه (المصري) ؛ غير أنّي عثرتُ على عدّة مصادر تؤكّد له اللقب الثاني ، وهو (العدواني) ، أهمّها : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ومعاهد التنصيص ، هذا خلا المصدر الوحيد الذي ذكره الدكتور حفني شرف ، وهو الدليل الشافي على المنهل الصافي .

* نقلتُ من بعض الدارسين أنّ الخطيب القزويني تأثّر بابن أبي الإصبع المصري ، غير أنّه لم يتبيّن لي أثناء الدراسة أنّه تأثّر به على الإطلاق ، بل على العكس ، فإنّ بعض المصطلحات التي يفهم من لهجة الخطيب أنّه متحفّظٌ عليها ، أو غير راضٍ عن إطلاقها ، تبين لي أنّ ابن أبي الإصبع كان يرتضيها ويفضّلها ، فالأولى أن يقال إذن أنّه كان منتقداً له لا متأثراً به .

(١) مقدّمة تحرير التحبير ، ص ٩١ .

* تبين لي في غضون البحث وأثناء الموازنة تأثر ابن أبي الإصبع بالزخشي في اجتهاداته وتحليلاته الدقيقة للآيات القرآنية وبديعها ، وكذلك تأثره بأسامة بن منقذ في النقل عنه ، واستخدام أغلب مصطلحاته ، وكذلك تأثره بابن رشيقي وابن الأثير وقدامة ، وإن كان الدارسون قد أشاروا إلى الأخيرين منهم ، غير أنهم لم يذكروا تأثره بالزخشي وأسامة ، خاصة وأن هذا التأثير لم يكن يسيراً كما بدا لي ؛ إنما كان بشكل كبير وملحوظ .

* توصلت إلى عشرة نقاط لتأكيد الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الطباق ، رداً على من ينكر هذا ، هداني الله إليها بإشارات من بعض البلاغيين ، كالزخشي ، وابن الأثير ، وابن سنان ، وابن معصوم ، والسيوطي ، وبعض من الدراسات الحديثة ، كعلم البديع دراسات تاريخية وفنية لبيسوني فيود ، ومن وجوه تحسين الأساليب لمحمد شادي .

* من سمات تأثر ابن أبي الإصبع بابن رشيقي في مبحث الطباق والمقابلة هو التقاط بعض الإشارات منه وتوسّعها ، كالفرق بين المقابلة والطباق مثلاً ، ثم تأثر السيوطي وابن حجة وغيرهما بابن أبي الإصبع المصري من بعد .

* تبين لي أنه ليس بالضرورة - كما ذهب إلى ذلك كثير من البلاغيين والدارسين ، كابن حجة مثلاً ، و د . عبد الفتاح لاشين - أن كثرة المقابلات تدلّ على بلاغة الكلام ، فالعبرة بالكيف لا بالكم .

* التأكيد على أن الترشيح ليس نوعاً من الطباق كما أشار بعض المحدثين ؛ إنما هي حالة تطرأ عليه تزيده بهاءً وحُسناً . قال ابن معصوم : " إن الترشيح لا يختصّ بنوع من البديع ، فمن زعم أنه ضرب من التورية فلا معنى لجعله نوعاً برأسه ، فقد توهم^(١) . وما يقال في التورية يُقال في الترشيح .

* إذا كان العلماء قد أشاروا إلى مخالفة قدامة الجمهور في تسمية التضاد بالتكافؤ ، فإن ابن أبي الإصبع هو أول من التمس الفرق بين الاثنين ، وإن كان الباقلاني قبله قد

(١) أنوار الربيع ، ج ٦ ، ص ١٧٣ .

أحس بهذا الفرق عندما أفرد للتكافؤ باباً ، وقال : " ومن البديع باب التكافؤ " ^(١) .
إلا أنه لم يفرّق فعلياً بينهما كما فعل ابن أبي الإصبع ، حتى قال ابن حجة : " لقد
شفى زكيّ الدين القلوب فيما قرّره " ^(٢) .

* اتّضح لي في هذا المبحث أيضاً تأثر ابن أبي الإصبع بأبي هلال العسكري في أسلوبه في
التحليل ، راجع إن شئت تعليقَ الرجلين حول قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾
وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ، والتفسير الأدبي عند كلٍّ منهما لباب (السلب والإيجاب) .

* توصلتُ إلى أنّ ما سمّاه بعض البلاغيين الطباق المعنوي - كالمصري وابن معصوم
والسيوطي - هو الطباق الخفي ، بدلائل ذكرتها ، ويمكن العودة إليها ، وأنه ملحقٌ
بالطباق ، وليس منفصلاً عنه أو داخلاً فيه .

* لم يُشر أيُّ من البلاغيين إلى أنّ التحنيس يختلط بالمطابقة سوى ابن رشيق ، ولم يكن متأثراً
بأحد قبله ، ولم ينقل عنه أحد من بعد .. تبين هذا أثناء تتبعي لجذور الطباق الخفي .

* تبين لي أثناء هذا التتبع أيضاً أنّ الخطيب القزويني أو ابن أبي الإصبع المصري لم يكن
أحدهما هو أول من تنبّه لهذا اللون من الطباق - أي الخفي - ، رغم اختلاف
التسمية عند كلٍّ منهما ؛ إنما كان لهذا اللون جذوره وإن لم تُعرف له تسمية .

* إنّ ما تفرّد به ابن أبي الإصبع من طباق الترديد ليس له أصلٌ ، وإنما هو من
اختراعاته - فضلاً عن اختراعاته لبعض الأبواب التي أشار إليها أغلب الدارسين - .

* تبين لي أنّ أول من عرّف طباق التدييج وسمّاه بذلك هو ابن أبي الإصبع المصري ،
غير أنه لم يكن هو أول من اكتشفه أو تنبّه له ، فلقد وجدته عند ابن رشيق ، وأشار
بعض الدارسين إلى ابن سنان أيضاً ، وقد ذكرتهما معاً .

* لم يشر أيُّ من الدارسين إلى وجود مراعاة النظر عند ابن رشيق ، وقد أشرتُ إلى
هذا أثناء تتبع النشأة التاريخية له . ثمّ اتّضح لي أثناء الموازنة أن الزمخشري أيضاً أشار
إلى مراعاة النظر بما يتناسب مع رؤية ابن أبي الإصبع ^(٣) .

(١) إعجاز القرآن ، ص ٩٧ .

(٢) خزائن الأدب ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٣) انظر : ص ١٧٠ .

* أعرض الخطيب القزويني في باب (مراعاة النظر) عن كثيرٍ من شواهد السكاكي ، واستبدلها بما هو أكثر منها مناسبة .

* لم يكن ابن أبي الإصبع - خاصةً في هذا الباب - يمرّ مروراً سريعاً على كتاب الله ﷻ ؛ بل يغوص إلى قرار المعاني في الآيات ، ثم يفتش عن سرّ كلّ قرار وما اكتنفه من خفايا وأسرار .

* تبين لي أنّ الخطيب كان مصيباً في عدم اعتبار التفويف فناً مستقلاً ، وإن أفرده كثيرٌ من البلاغيين ، كابن أبي الإصبع ، وابن حجة ، وابن معصوم ، والسيوطي ؛ إذ منه ما هو داخل في مراعاة النظر ، ومنه ما هو من التضادّ ، كما جاء عند الخطيب ، ومنه ما هو من السجع ، كما يُفهم من شواهد ابن أبي الإصبع . ومنه ما هو من التقسيم والتقطيع ، كما جاءت بعض شواهد عند ابن رشيق . وقد ذكره صاحب معاهد التنصيص ضمن شواهد التقسيم ، فلا وجه إذن لئِنْ يكون التفويف لوناً بديعياً مستقلاً ؛ لأنّه غير مستقلّ أصلاً ، إنّما يدخل في ألوانٍ أُخر .

* من الفروقات الواضحة عند العالمين الفاضلين في باب (مراعاة النظر) : أنّ الخطيب القزويني لم يذكر ائتلاف اللفظ مع المعنى ، رغم أنّه يعدّ ملحقاتاً بمراعاة النظر أيضاً ، بينما ذكره ابن أبي الإصبع وعدّه منه المعنوي واللفظي ، أو الظاهر والخفي ، والذي جمعهما السيوطي من بعد تحت بابٍ واحدٍ سمّاه : (ائتلاف اللفظ مع اللفظ ، وائتلافه مع المعنى)^(١) .

* من العلامات المضيئة لابن أبي الإصبع في هذا الباب ، والتي لم يقف عليها الخطيب القزويني ولا غيره من البلاغيين السابقين هي التماس المناسبة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾^(٢) ، ولم يكن قد ذكرها - حسب علمي - في هذه الآية أحد قبله . وقد تبعه في ذكرها متأثراً به العلوي والزرکشي والسيوطي ، بل كما يبدو كانوا ناقلين عنه .. إنّما كانت هناك إشارة يسيرة من الزرخشري في تفسيره حول هذه الآية ، ربما تكون هي التي

(١) انظر : الإِتقان ، ص ٦٥٥ .

(٢) سورة هود : الآية (١١٣) .

فتحت الباب أمام ابن أبي الإصبع ، فقال ما قال ، وقد ذكرتها في هذا المبحث^(١) .

ويبدو أن الجاحظ هو أول من تنبّه إلى ائتلاف اللفظ مع المعنى^(٢) .

* تبين في أثناء البحث أنّ لابن أبي الإصبع آراءه البارزة والمتفردة ، فهو - مثلاً - أدرج قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى^(٣) ، في بابِ سَمَاه : (التوهم) ، بينما هي من المقابلة عند الزركشي والسيوطي ، ومن مراعاة النظير كما هي عند ابن رشيق والعلوي ، ولم يذكرها الخطيب أو يدرجها تحت أيّ بابٍ من الأبواب .

* أنه لا يمكن التسليم مطلقاً - كما ذهب بعض الدارسين - أنّ المشاكلة ينبغي أن تكون باللفظ الثاني المشاكل للأول ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾^(٤) ، وقوله الطَّلِيلُ : « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ حَتَّى تَمْلُؤُوا .. » . فالمشاكلة في النصّين هنا وقعت في اللفظ الأول المشاكل للثاني .

* توصّلتُ من نصٍّ للرماني - ذكرته في مبحث (المشاكلة) - أنّ المشاكلة ليست مجازاً بحتاً أو حقيقة بحتة ؛ إنما هي من أساليب المجاز ، والمجاز لا بدّ فيه أحياناً من مصاحبة المشاكلة ، ويبدو أنّ هذا النص لم يلتفت إليه من قبل - حسب علمي - .

* أنّ باب (المناقضة) الذي عقده ابن أبي الإصبع ومثّل عليه بشواهد للمشاكلة ، بدا لي بعيداً عن ألوان البديع ؛ لأنّه يعني المناقضة بمعناها اللغوي ، ولم يكن هذا الباب من اختراعه ، فقد ذكر بعض الدارسين أنّ له أصولاً عند أسامة بن منقذ ، وتبيّن لي أنّ له أصولاً عند قدامة بن جعفر أيضاً وابن سنان الخفاجي . غير أنه لم يستشهد أحد منهم بمثل شواهد ابن أبي الإصبع التي تنطبق تماماً على مفهوم المشاكلة المعروف .

* كذلك تبيّن لي أنّ ابن أبي الإصبع غير مفرّ أصلاً بمفهوم المشاكلة المصطلح عليه علمياً

(١) انظر : ص ١٧٨ .

(٢) انظر : البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٣) سورة طه : الآيتان (١١٨-١١٩) .

(٤) سورة الجاثية : الآية (٣٤) .

عن جمهور البلاغيين ؛ إنما غيّرهُ إلى مفهومٍ آخر ، بدليل أنّ شواهد المشكلة المعروفة وجدتْها منتشرة عنده تحت أبوابٍ شتى من كتابيه .

* ذهب بعض الدارسين إلى أنّ المبالغة موجودة عند السكاكي ، فتبيّن لي أنّه لم يُشر إليها البتّة ، وفي المقابل نفى البعض أنّه أشار إلى التورية ، إنّما هي من زيادات الخطيب ، لكن بالعودة إلى مفتاح العلوم اتّضح لي أنّه ذكرها تحت اسم (الإيهام)^(١) ، وبالتالي فإنّها لم تكن من زيادات الخطيب ، إنّما فضّل الخطيب تسميتها باسم آخر .

* ظهر بشكلٍ جليّ تأثر ابن أبي الإصبع بابن رشيق في باب (المبالغة) أو (الإفراط في الصفة) كما سمّاه هو عندما خلط بين الغلوّ والإغراق كما خلط ابن رشيق .

* إنّ ما استشهد به ابن أبي الإصبع على التبليغ أو الإغراق أو الغلوّ في باب (الإفراط في الصفة) في كتابه (تحرير التحبير) كان بغرض الكشف عن مزية المبالغة وأثرها في الارتقاء بالمعنى ؛ إذ الإفراط في الصفة مختلفٌ في الكتّابين عنده .

* لم يتطرّق الخطيب القزويني وابن أبي الإصبع المصري إلى نوعين من التورية - على وجه التفصيل - ذكرهما المتأخرون بعدهما ، كابن حجة وابن معصوم ، وهما المبيّنة ، والمهيّأة ، رغم أنّ شواهدهما واردة في كتابيهما ، وما ذلك إلا لأنّ المهيّأة يمكن أن تدخل في المرشحة ، وقد أثبتّ هذا بدلائل .

أما المبنية فكان لهما الحقّ في صرف النظر عنها ؛ لأنّها تميّت الإحساس بمعنى التورية والغرض أو الغاية منها كما ذكرت ما دام أنّ المتكلّم سيّبينها .

* أن الترشيح في توريّات القرآن الكريم لا يؤدي إلى لبس ، كما قد يؤدي في توريّات الشعراء ، كقول أبي الفضل عياض :

كأنّ كانون أهدي من ملابسه	لشهر تَمَّوز أنواعاً من الحُلل
أو الغزالة من طول المدى خرّفت	فما تُفرّق بين الجديّ والحمل ^(٢)

وما زال هذا الشاهد من المختلف عليه إلى الوقت الحاضر ، ولكلّ وجهة نظر لها ما يسوّغها ، وقد فصلتُ القول في هذا .

(١) انظر : مفتاح العلوم ، ص ٤٢٧ .

(٢) الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

* تبين لي من هذا المبحث خاصة - مبحث التورية - أنّ كلا الرجلين كانت له سطوته ، وكان له أثره فيمن بعده ، فكان أكثر الناس المتأثرين بابن أبي الإصبع من المتأخرين : ابن حجة الحموي ، والسيوطي .

أما الخطيب فقد تأثر به الشراح بدون شك ، وابن معصوم في أغلب الأحيان .
* إذا كان ابن أبي الإصبع قد سُمّي التورية توجيهاً من وجهة نظر خاصة ، فإنّ التوجيه عند الخطيب هو جزء من الإيهام عند ابن أبي الإصبع ؛ إذ كان فيه متوسّعاً ؛ مما سوّغ لابن حجة القول بأنّ الإيهام أليقّ لئِنْ يُسمى بذلك من التوجيه .
وكان حريّاً بابن أبي الإصبع أن يعقد للتوجيه باباً منفصلاً عن التورية وعن باب (الإيهام) .

* تردّد كثيراً في بعض كتب الدارسين " أنّ الأصمعي كان يدفع قول العامة إذا قالوا : هذا يجانس هذا إذا كان من شكله ، ويقول : هذا ليس بعربيّ خالص " . وربما هذا كان تأثراً بالعلوي وابن حجة^(١) ، إلا أنّني عثرت في القاموس المحيط للفيروزآبادي ما يدفع هذا الخطأ وهذه التهمة عن الأصمعي ؛ إذ جاء أنّ هذا غلطٌ ؛ لأنّ الأصمعي هو واضع كتاب الأجناس ، وهو أول من جاء بهذا اللقب^(٢) ، وظني أنّ هذا هو القول الأصوب الذي ينبغي أن يؤخذ به ويُصحّح في بعض الكتب .

* أنّ ابن رشيق هو أول من وسّع الحديث عن الجناس وشعب صورته وأكثر من شواهدة .
* أنّ ابن سنان هو أول من عرفّ جناس التركيب وسَمّاه بذلك ، وإن نسب هذه التسمية إلى أبي العلاء المعري .

* أنّ أسامة بن منقذ هو أول من أتى على ذكر جناس العكس أو القلب .

* أنّ الرازي هو أول من وضع بعض المصطلحات في الجناس ، كالمذيل واللاحق ، وهو أول من اخترع جناس التشويش وجناس الإشارة ، وهو أول من التفت إلى المزدوج منه وإن كان مذكوراً عند ابن أبي هلال العسكري .

(١) انظر : الطراز ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، وخزانة الأدب ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

(٢) انظر : القاموس المحيط ، ص ٦٩١ .

* أنّ الجناس إذا اجتمع مع المشاكلة فإنه لا يكون إلا مع الجناس التام المتفق في الصورة فقط .

* تأثر الخطيب القزويني في التفريق بين الجناس والتام والناقص بالإمام الرازي ، وتأثر ابن أبي الإصبع في الجناس كله بالتبريزي ، ونقله عنه والأخذ بآرائه .

* أنّ جناس الاشتقاق عند الخطيب ملحق بالجناس عنده ، وهو عند ابن أبي الإصبع أصل الجناس كله .

* أصاب الخطيب القزويني في فصل جناس التصحيف عن الجناس كله متفقاً في هذا مع التبريزي ، كما يفهم من كلامهما ؛ لأسباب ذكرتها في هذا المبحث .

* أصاب ابن أبي الإصبع والخطيب القزويني معاً في تجاوز ما يعرف بجناس الإشارة والإضمار اللذين أضافهما بعض المتأخرين ، كابن حجة ؛ لأنه ليس فيهما غير العقادة والتكلف .

* أنّ الازدواج عند الخطيب القزويني غير الازدواج عند ابن أبي الإصبع .

* أنّ كلّ ما كان في أبواب منفصلة عن السجع وهو منه عند من سبق الخطيب القزويني ، كقدامة بن جعفر ، وأبي هلال العسكري ، وابن رشيق ، وأسامة بن منقذ ، وابن الأثير ، وابن أبي الإصبع ، والعلوي ، جاء عند القزويني تحت باب السجع ؛ لأنه منه ويمجري مجراه ، كالتصريح والترصيع والتشطير والمتوازن .

* أنّ التجزئة والتسميط التي عدّهما البعض من السجع في الشعر كان ينبغي أن يدخل تحت الحديث عن الشعر وما يتعلّق به كما جاءت عند ابن رشيق بدل أن يُعدّا لونين من ألوان البديع ، لذا أضرب عنهما الخطيب القزويني ولم يُشير إليهما أصلاً في باب البديع كله ، وليس في السجع فقط .

* إذا كان الباقلاني هو أوّل من عارض القول بالسجع في القرآن ونفاه عنه ، فإنّ ابن الأثير هو أشدّ من تحامل على القائلين بنفيه كما يظهر من نصوصه .

* أنّ الخصوصية في إطلاق الفواصل على أسجاع القرآن أو إطلاق الأسجاع على الفواصل القرآنية قائمة بقيام صفة الخصوص والعموم بين الأسجاع والفواصل ؛ إذ الفاصلة أعمّ ، والسجع أخصّ .

* جاء عند القدماء ما يعرف بالترصيع مع التجنيس ، غير أنَّ اللافت أنَّه لم يمثل عليه أحد من القرآن الكريم سوى الباقلاني الذي نفى السجع عن القرآن ، وإن كان يسميه تسمية أخرى . فمثل عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ وإخوانهم يمدُّونهم في الغي ثم لا يُقْصِرُونَ ^(١) .. وغيرها من الآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ^(٢) .

* لم يكن ابن المعتز هو أول من تنبه للون البديعي (اللزوم) أو (لزوم ما لا يلزم) ، أو كما سماه : (الإعنائات) ، وإن كان هو من أظهره للنور وعرفه وحدده ، إنما ظهر لي أنَّ الجاحظ حسبما نسب إليه من أبيات هو أول من تنبه له ونظم عليه ، وإن لم يُسمِّه ، كما جاء في أول الحديث عن نشأة هذا اللون ^(٣) .

* أنَّ الردف والتزام الحركة هو من التوسُّع في باب لزوم ما لا يلزم ، وإلا فإنَّ أجود الشعر - بصرف النظر عن هذا اللون البديعي - واردٌ فيه الردف ، وواردٌ فيه التزام الحركة ، لذا لم يعتدَّ به كلُّ من العالمين الفاضلين ؛ لأنَّه واردٌ طوعاً فيما استشهدا به من شواهد على اللزوم .

لكن يمكن أن يكون التزام حركة حرف ما قبل الروي داخلاً في لزوم ما لا يلزم إذا صاحبَ هذا التزام في الحرف أيضاً ، لكن هذا متطلب شاقٌّ لا يقدر عليه إلا الفحول من الشعراء ، ولا يُقبل إلا منهم ، ولا يُستساغ إلا في شعرهم ، ولو كان من غيرهم لجاء مُتَعَسِّراً ، ولَخَرَجَ نَكْداً متكلِّفاً لا تستسيغه الأذواق ، ولا تتقبَّله النفوس .

* تفرَّد الخطيب في لزوم ما لا يلزم بذكر حالة من حالاته لم يذكرها ابن أبي الإصبع المصري ، وهي وقوعه في غير الفاصلتين ، ومثل عليه بقول الحريري :

(١) سورة الأعراف : الآيتان (٢٠١-٢٠٢) .

(٢) سورة القلم : الآيتان (٢ ، ٣) .

(٣) انظر : إعجاز القرآن ، ص ٩٦ .

(٤) انظر : ص ٥٠٥-٥٠٦ .

* ما اشتار العسل من اختار الكسل * ^(١)

* تبين لي أثناء هذه الدراسة خطأ أكثر الشراح المعترضين على الخطيب القزويني ، وقد ناقشت بعض هذه الاعتراضات ؛ إذ لم يكونوا حقيقة أكثر منه علماً ودقةً وفهماً ، خاصة عصام الدين ابن عربشاه ، وإلا فإنَّ السعد كان أقربهم فهماً لنصوص الخطيب ، وأشدّهم التماساً له في العذر .

* أنّ الفروق بين العالمين الفاضلين تتجاوز علم البديع إلى علمي البيان والمعاني ، بل هي فيهما أوضح وأوسع ، وهي جديرة بالدراسة والاهتمام .

* إذا كانت هناك استدراكات على الخطيب قد بُحثت من قبل ، ومن ثمَّ درست هذه الاستدراكات نفسها من قبل أحد الباحثين ، فإنّه قد ظهر لي أنّ على ابن أبي الإصبع استدراكات أكثر مما هي عند الخطيب القزويني في كتابيه ، ويجدر بالباحثين بحثها ودراستها ، خاصة وأنَّ ابن أبي الإصبع لم يأخذ حظّه من الدراسة كما أخذه الخطيب القزويني .

* أنّ السبيل الأمثل لإحياء التراث والفكر البلاغي عند العلماء من ناحية ، وإبراز جهودهم وما يميّز به كلّ عالم من ناحية أخرى ، إنّما يكون عن طريق إقامة الموازنات ، وهي مرتع خصب للباحثين لإجراء العديد منها .

وإلى هنا تنتهي رحلتي الطيبة مع ابن أبي الإصبع المصري والخطيب القزويني وغيرهما من البلاغيين الذين ورد ذكرهم في هذا البحث ، وأرجو أن أكون قد أحسنت صحبتهم ، وعرفت لهم أقدارهم ، والتزمت معهم أدب الحوار والمناقشة ، وأستغفر الله من خطئ القول . كما أستغفره من خطأ العمل ، وأسأله أن يمنّ علينا بالهداية والعصمة في الدنيا والآخرة ، إنه سميع مجيب .

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ..

(١) انظر : الإيضاح ، ج ٤ ، ص ٩١ .

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة .
- فهرس الأبيات الشعرية .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	ص
سورة الفاتحة		
﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٤-٣	٤٥١
سورة البقرة		
﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾	٣	٤٤٨
﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾	٤	٤٤٨
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾	١١	٢٤٧
﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾	١٤-١٥	٢٠٢
﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾	٢٠	٢٤٣
﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾	٢٢	٩٧
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾	٢٦	٢١٦، ٦١
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾	١٠٤	٣٢٨
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾	١١٧	١٠
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	٢١٧
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	٢١٧، ١٩٢
﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾	١٤٣	٣٢٢
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	١٤٣	٣٢٢، ٣٢٠
﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾	١٤٥	٣٢٢
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾	١٧٩	٢١٠، ٩٢

الآية	رقمها	ص
﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾	١٩٣	١٩٤
﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾	١٩٤	١٩٤، ١٩٢ ١٩٧، ١٩٦ ٢٠٢، ٢٠٠ ٢١٤، ٢٠٩ ٣٥٩، ٣٥٨ ٤١٤
﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾	٢٠٩	١٤٣
﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾	٢١٦	٩٨، ٩٠ ١٠١، ٩٩
﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾	٢١٦	٩٨، ٨٦
﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾	٢٥٥	٦٠
﴿ أَيْوَدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾	٢٦٦	١٥٨
﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾	٢٦٧	٤٦٦
سورة آل عمران		
﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾	١٥-١٤	٦١
﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾	٢٧	١٧٤، ٦٨
﴿ وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾	٣٠، ٢٨	٢١٥
﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ ﴾	٥٤	٢٠١، ١٩٩ ٢١٤
سورة النساء		
﴿ لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾	٤٦	٣٢٩
﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ﴾	٤٦	٣٢٨

الآية	رقمها	ص
﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾	٨٣	٣٩٩
﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾	١٤٢	٢٠٢
﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾	١٤٢	٣٥٩
﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾	١٤٣	٤٠٢، ٤٠١
﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾	١٧١	٢٧٤، ٢٧٣
سورة المائدة		
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾	١٨	٢٤٧
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾	٣٨	١٦٥
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾	٦٤	٢٩٦، ٢٤٧ ٣٠٧
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾	٧٧	٢٧٣
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾	٧٧	٢٤٣
﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾	١١٦	٨٢، ٥٦ ٢١٤
﴿تَوَابٌ رَحِيمٌ﴾	١١٦	٢٥٣
﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾	١١٨	١٦٦
سورة الأنعام		
﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾	٢٦	٣٩٨، ٣٩٧
﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾	٦٠	٣٠٠، ٢٩١
﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾	٧٩	٣٦٣، ٣٦٨
﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾	١٠١	١١

الآية	رقمها	ص
﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾	١٠٢	٢٥٤
﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾	١٠٣	١٦٢، ١٦٠ ١٦٤
﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾	١٢٢	٧٧، ٧٢، ٥٥
﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾	١٦٠	٢١١
سورة الأعراف		
﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾	٢٦	٢٧٩
﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾	٤٠	٢٥٥، ٢٤٢
﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾	٨٨	٥٣٣
﴿ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾	١٢٢	٤٤٤
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ ﴾	١٣٢	١٣٤
﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾	١٤٣	١٠٨
﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾	١٤٦	٨٢
﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾	١٥٧	٦١
﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾	١٧١	٢٥٨
﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾	٢٠١-٢٠٢	٥٢١، ٤٢٦ ٥٤٤، ٥٣١ ٥٥٦
سورة الأنفال		
﴿ إِذِ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾	٤٣-٤٤	٤٨١

الآية	رقمها	ص
سورة التوبة		
﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾	٢٩	٣٠٩
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ غُزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾	٣٠	٢٤٧
﴿أَنَّا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾	٣٨	٣٦٩
﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾	٦٧	١٩٦
﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٧١	١٦٨
﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾	٨٢	٦١٤، ٤٨ ١١٨
﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾	١٠٨	٩٩
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾	١٢٨	٧٠
سورة يونس		
﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾	٩٢	٣٢٧، ٣٠٤
سورة هود		
﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾	٢٤	١٨٣، ١٢٨
﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾	١١٣	١٧٨، ١٧٧ ٥٥١، ١٨٩
سورة يوسف		
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾	١٧	٣٥١
﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾	٥٣	٥٤٨
﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾	٧٠	٢٩٥
﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾	٧٤	٢٩٥

الآية	رقمها	ص
﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾	٧٦	٢٩٤
﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾	٨٥	١٧٦
﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾	٩٥	٣٠٣، ٢٩٩
سورة الرعد		
﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ﴾	٨	٨٩
﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾	١٠	٢٦١، ٢٥٩
﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾	٣١	٥٢٣
سورة إبراهيم		
﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾	١٧	٢٦١
﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَنْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾	٤٦	٢٤١
سورة النحل		
﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾	٢٦	١٠٨
﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ﴾	٥٤-٥٣	٥٨
﴿ظِلٌّ وَجَهَةٌ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾	٥٨	١٠٩
﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾	٦٩	٣٩٢
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾	١٢٦	١٩٧، ١٩٦
سورة الإسراء		
﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾	١٦	٥٤٣
﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا﴾	٨٨	٥٢٤، ٢٤٧
سورة الكهف		
﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَلْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾	١٨	٨٣، ٥٥

الآية	رقمها	ص
﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾	٢٤	٢٩٥
﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾	٣٤	٢٥٦
﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾	١٠٤	٤٠١
سورة مريم		
﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾	٤٥ ، ٤٦	٥٢٥ ، ١٣٩
سورة طه		
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾	٥	٢٨٨ ، ٢٨٥ ٢٩٦ ، ٢٩٥ ٣٠٦ ، ٢٩٧ ٣٠٧
﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾	٤٥	٢٥١
﴿هَارُونَ وَمُوسَى﴾	٧٠	٤٤٤
﴿عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾	٨٢	٢٥٣
﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾	٨٢	٢٥٣
﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾	٩٤	٤٠٩
﴿إِنْ لَكَ إِلَّا تَجُوعٌ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾	١١٨ - ١١٩	١٨٠ ، ١٢٧ ١٨٤ ، ١٨٣ ٥٥٢
سورة الأنبياء		
﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾	٣٢	١٠٨
سورة الحج		
﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾	٢	٢٤١

الآية	رقمها	ص
﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ ﴾	٥	٧٦
﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾	٣١	٢٤٦
﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ ﴾	٦٤	١٦١
سورة المؤمنون		
﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾	٣-٢	٨٩
سورة النور		
﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ﴾	٢	١٦٥
﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾	١٠	١٦٨
﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾	٣٥	١٦٠
﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾	٣٥	٢٥٧، ٢٤٢ ٢٧٥، ٢٥٨
﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾	٣٧	٣٤١
﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَخْسَبُهُ الظُّمَانُ مَاءً ﴾	٣٩	٢٤١
﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ ﴾	٣٩	٢٥٥
﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾	٤٠	٢٤٣
﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾	٤٢	٢٥٦، ٢٤٣ ٢٧٥، ٢٥٧
سورة الفرقان		
﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾	٧٧	٥٠٠
سورة الشعراء		
﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾	٧٨-٨٣	١٧٣

الآية	رقمها	ص
﴿ قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾	١٦٨	٣٥٧
سورة النمل		
﴿ مِنْ سَبَأٍ نَبِيًّا ﴾	٢٢	٣٥٢
﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ نَبِيًّا يَقِينٍ ﴾	٢٢	٤١١
﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا ﴾	٥٠	١٩٦، ١٩٥
﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾	٨٦	١٧٠
سورة القصص		
﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾	٤٥	٤٠١، ٣٨٨ ٤٠٢
﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾	٧٣	١١٤، ٨٨
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾	٧٢-٧١	١٦٤
سورة العنكبوت		
﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾	٤٠	٢٦٨
﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾	٥٦	١٠٧
سورة الروم		
﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾	٧-٦	١٦٠
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٧-٦	١٠٠، ٨٠
﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيمِ ﴾	٤٣	٣٦٤، ٣٦٣ ٣٦٩، ٣٦٦
﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾	٤٤	١٩٦
﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾	٥٥	٣٦٠، ٣٥٧ ٣٧٤

الآية	رقمها	ص
سورة السجدة		
﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾	٢٦-٢٧	١٦٣
سورة الأحزاب		
﴿وَبَلَغْتَ الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ﴾	١٠	٢٤٢، ٢٤١ ٢٤٥
﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾	٣٥	٤٥٦
﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾	٣٧	٣٥٦
سورة سبأ		
﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾	١٦	٢٠٢
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾	٢٨	٣٠٠
سورة فاطر		
﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾	١٩-٢٢	٦٧
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾	٢٧	٥٦
﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾	٢٧	١٠٥
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾	٣٦-٣٧	١٤٠
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾	٤٢	١٧٧
سورة يس		
﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾	١٥-١٦	٩١، ٩٠، ٥٧ ٩٢
﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾	١٦	٩١
﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾	٦٩	٤٥٣

الآية	رقمها	ص
﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾	٨٠	١٠٩
سورة الصافات		
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾	٧٢-٧٣	٤٠١
﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾	١١٧-١١٨	٤٦٥
﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾	١٢٥	٣٥١
سورة ص		
﴿وَاخْرَجْنَا نَارًا وَأَنَابَ﴾	٢٤	١٠٨
﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾	٣٢	٢٧٩
﴿وَاخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾	٥٨	١٩١
سورة الزمر		
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٩	٩٥
﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	١٠	٢٥٤
﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾	٦٧	٢٩٧، ٢٩٥
سورة غافر		
﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾	٨	١٦٨
﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾	٧٥	٣٩٩
سورة فصلت		
﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾	٣	٤٤٢
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾	٤٢	٥٢٣، ٢٤٧

الآية	رقمها	ص
سورة الشورى		
﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾	٤٠	١٩٦، ١٩٢ ٢٠٠، ١٩٨ ٢١١، ٢٠١ ٣٥٨، ٢١٣ ٣٦٠، ٣٥٩
سورة الجاثية		
﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾	٣٤	١٩٣، ١٩٠ ٥٥٢
سورة الأحقاف		
﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾	٩	١٠
سورة الفتح		
﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾	٢٩	٩٤، ٩٢، ٨٨
سورة الحجرات		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	١	٢٩٧
سورة ق		
﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾	٢-١	٤٥٦، ٤٥١ ٤٥٧
﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾	٤	٤٥٧
سورة الذاريات		
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾	٤٧	٢٩٦، ٢٨٨ ٣٠٨، ٣٠٧

الآية	رقمها	ص
سورة الطور		
﴿وَالطُّورِ﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ	٣-١	٥٢٠،٤٥١ ٥٤٣،٥٤٢
سورة النجم		
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾	٢-١	٤٧٧
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾	٤٤	٢٤
﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾	٤٣-٤٥	٤٦،٢٣ ٥٥٠،٨١
﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾	٤٥	٢٤
سورة القمر		
﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾	٣-١	٤٨٢،٤٥١
سورة الرحمن		
﴿الرَّحْمَنُ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ	٦-١	٤٥٦
﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾	٦	٢٩٩
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾	٦، ٥	١٤٢،١٣٠ ١٤٩،١٤٧ ١٦٩
﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾	٢٢	١٣٠
﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾	٢٤	٢٥٨
﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾	٥٤	٣٧٢،٣٧١ ٣٧٥،٣٧٣

الآية	رقمها	ص
﴿كَانَ هُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾	٥٨	١٣٠
﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾	٦٠	١٩٩
سورة الواقعة		
﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾	٣٠-٢٨	٤٧٧
﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾	٨٩	٣٧٢، ٣٦٦ ٣٧٥، ٣٧٣
سورة الحشر		
﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾	١٤	٤٨
سورة الممتحنة		
﴿وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	٥	١٦٨
سورة التحريم		
﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾	٦	٨٤، ٨٢
سورة القلم		
﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾	٣، ٢	٥٣٣، ٥٢١ ٥٥٦، ٥٤٤
سورة الحاقة		
﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ﴾	٢-١	٢٤٤
﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي﴾	٢٨	٥٠٨
﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾	٣١-٣٠	٤٧٧
﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾	٤١	٤٥٣

الآية	رقمها	ص
سورة نوح		
﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾	١٤-١٣	٤٦٢، ٤٢٨
﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَاراً ﴾	٢٥	٨٧، ٥٦
سورة القيامة		
﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾	٢٨-٢٦	٥٤٢
﴿ وَانْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾	٣٠-٢٩	٥٤٣، ٣٨٩
﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾	٣٠	٥٤٣
سورة الإنسان		
﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾	٨	٢٤٥
﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾	١٣	١٨٥
سورة المرسلات		
﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾	٢-١	٥٢٠، ٤٨١
﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾	٣٣-٣٢	٢٥٨، ٢٤٠
سورة التكويد		
﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾	١٦، ١٥	٥٢٦
﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾	١٧	١٤٣
سورة الانفطار		
﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾	١٤-١٣	٤٦٦
سورة الانشقاق		
﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾	١٨، ١٧	٥٣٣، ٥٢٥

الآية	رقمها	ص
﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾	١٩	٤٩
سورة البروج		
﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾	١٦	٢٥٣
سورة الغاشية		
﴿فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾	١٣-١٤	٤٧٣، ٤٢٧
﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾	١٥-١٦	٤٢٨
﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾	٢٥-٢٦	٤٦٩، ٤٦٦
سورة الفجر		
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾	٢٢	٢٥٥، ٢٤٠
سورة الليل		
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾	٥-١٠	٦١، ٥٨ ٤٦٦، ١٢٣
سورة الضحى		
﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾	٩، ١٠	٥٢٥، ٥٢٠ ٥٣٣، ٥٣١
سورة العاديات		
﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾	١-٥	٤٦٦، ٤٤٦
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾	٦-٨	٥٢١
﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾	٧-٨	٣٩١، ٣٩٠ ٣٩٩
﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾	١١	٤٠١، ٣٨٧ ٤٠٢

الآية	رقمها	ص
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾	٣-١	٥٢٠،٤٧٨
سورة الهمزة		
﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾	١	٣٩٩
سورة الكافرون		
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾	٣ و ١	٤١٤،٣٤٧



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

ص	الحديث
٢٢٠	« أَجَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ... »
٤٢١	« ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ ... »
٤٢١	« اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ ... »
٤٤٧	« أَسْجَعًا كَسَجَعَ الْكُهَّانُ ... »
٣٦٩	« أَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ ... »
٤٢١	« أَعْيِذْهُ مِنَ الْهَامَةِ ، وَالسَّامَةِ ... »
٥١٨	« إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عَبْدٌ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا الْكَفَافَ ... »
٣٧٩	« إِنَّكَ لَنْ تَنْفَقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ ... »
٦٩	« إِنَّ مَنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... »
٢٨٠	(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا وَرَى بَغِيرَهُ ... »
٤٢٠	« إِيَّاكُمْ وَسَجَعَ الْكُهَّانُ ... »
٢٢٠	« أَيْنَ الْمَظْهَرُ يَا أَبَا لَيْلَى ؟ ... »
٢٧٤	« خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا ... »
٣٩٧	« الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرِ ... »
٣٦٦	« الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... »
٣٦٩	« عُصِيَّةُ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... »
٣٦٩	« غَفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا ... »
٥٥٢-١٩٣	« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا ... »

الحديث

ص

- « فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ... » ١١٨
- « فَإِنْ كَانَ كَرِيماً أَكْرَمَكَ ... » ٥١٨
- « فَلَا يَغْنِي عَنْكُمْ إِلَّا عَمَلٌ صَالِحٌ قَدَّمْتُمُوهُ ... » ٥١٨
- « كُلُّ رَافِعَةٍ رَفَعَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْبَلَاغِ ... » ٢٦٢
- « لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ... » ٢٦٦
- « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ... » ٢٣٤
- « اللَّهُمَّ اسْتِرْ عَوْرَاتِنَا ، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا ... » ٤١٠
- « اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْرَأُ بِكَ فِي نَحْوِهِمْ ... » ٤٧٣
- « لَوْ صَلَّيْتُمْ لِلَّهِ حَتَّى تَعُودُوا كَالْقَسِيِّ ... » ١٥٨
- « لَيْسَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ ... » ٤٢١
- « الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ ... » ٤١١
- « مَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ... » ١١٨
- « مِنْ مَاءٍ ... » ٢٩٢
- « مَهْ ، عَلَيْكُمْ مَا تَطِيقُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ ... » ١٩١



فهرس الأبيات الشعرية

٢٦٣	قيس بن الخطيم	لَهَا نَفَذٌ لَوْ لَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا
٣٩٣	---	نِي وَنَفْسِي مِنْهُ السَّنَا وَالسَّنَاءُ
٣٢٣	بشار بن برد	لَيْتَ عَيْنِيهِ سَوَاءٌ
٤٥	سليمان بن داود القضاعي	وَمُنْحَطٌّ أُتِيحَ لَهُ اعْتِلَاءٌ
٤١٣	أبو تمام	رَضِيْعِي لِبَانٍ ، خَلِيلِي صَفَاءُ
٣٥٢	---	حَتَّى نَجَا مِنْ خَوْفِهِ وَمَا نَجَا
٢٨٣	القاضي الفاضل	وَكُلُّ قَافِيَةٍ قَالَتْ لِذَلِكَ : طَا
٣٥٢	---	أَوْ دَعَانِي أُمْتُ بِمَا أَوْدَعَانِي
٣٨٥	أبو الفتح	مَ وَلَا جَامَ لَنَا
٢٨٤	---	يَوَدُّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْنَاهَا
٥٢٥	---	فَمَا أَنَا مِنَ الْأَكْ وَلَا أَلْيَا
٤٣٨	امرؤ القيس	سَلِيمُ الشَّظَى ، عَبْلُ الشَّوَى ، شَيْخُ النِّسَا
٢٠٦	جرير	قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
٥١٦	عمرو بن معديكرب	مَا قَطَرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا
٤٠٨	جميل بثينة	أَنَا بَلَا وَعْدٍ فَقُولَا لَهَا : لَهَا
٥١٥	عروة بن أذينة	خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
٢٧٨	---	الشُّرْبُ غَدَاً إِنَّ ذَا مِنَ الْعَجَبِ
١٣٧	أبو نؤاس	مَبْرُورَةٌ لَا تُكَذِّبُ
٢٣٧	امرؤ القيس	مُلْكٌ بِهِ عَاشَ هَذَا النَّاسُ أَحْقَابَا

٥٨	الطرماح بن حكيم	وَأَسْفَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا
٣٨٣	أبو الفتح البستي	فَدَعَهُ فِدْوَلَتُهُ ذَاهِبَةً
٥١٤	البحري	تَخَالَجَنِي الشُّكُّ فِي أَنْ أَتُوبَا
٣٥٤	البحري	نَسَقًا يَطَّانَ تَجَلُّدًا مَغْلُوبَا
٢٨١	المسيب بن علس	لِيَنْصُرَهُ السَّدْرُ وَالْأَنْثَابُ
٣٥٧	---	فَمِنْ أَجْلِهَا مِنْهَا النُّفُوسُ ذَوَائِبُ
٢٩٣	جمال الدين ابن نباتة	بِيَدِ الْوَدَادِ فَمَا عَلَيْكَ عِتَابُ
٢٨٦	البحري	بِالْحُسْنِ تَمْلُحُ فِي الْقُلُوبِ وَتَعْدُبُ
٢٩٣	---	فَلَا أَجِدُ الصَّبْرَ الْمَحَاوَلَ يَعْدُبُ
٢٣٠	البحري	فِي الشَّعْرِ يَكْفِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُهُ
١٨٧	عباس بن الأحنف	وَعَطْفُكُمْ صَدٌّ وَسَلْمُكُمْ حَرْبُ
٢٢٠	أبو الطمحنان	دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعَ ثَائِبُهُ
٤٨٥-٤٣٧	أبو تمام	لِلَّهِ مُرْتَعِبٌ ، فِي اللَّهِ مُرْتَقِبُ
٢٦٣	أبو الطيب	وَأُنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ
١٣٢	الكميت	وَإِنْ تَكَامَلَ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنْبُ
١٣٢-١٣١	ذو الرمة	وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ
٣٥٢	أبو تمام	فِيهِ الظُّنُونُ أَمْذَهَبُ أَمْ مَذْهَبُ
٤٩٨	عبيد بن الأبرص	وَعَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ
٩٦	كعب بن سعد	عَلَيْنَا وَأَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبُ
٥٣٨	أبو الطيب المتنبي	وَأَعْضَائُهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُعِيبُ
٥٠٢	امرؤ القيس	وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ
٢٠٨	امرؤ القيس	تَقُولُ هَزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بِأَنْثَابِ
٣٧٦	أبو تمام	صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ

٢١٩	النابعة	عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
٣٨٢	البحري	بِدَمْعٍ يُحَاكِي الْوَبْلَ حَالَ مَصَابِهِ
٢٨٤	جمال الدين بن نباتة	فَهْلَ إِلَى وَصْلِكَ مِنْ بَابِ
٢٦٧	النابعة	وَيُوقِدْنَ فِي الصُّفَاحِ نَارَ الْحَبَاحِبِ
١٠٨	---	وَبَيْضُ الثَّنَايَا تَحْتَ خُضْرَةِ شَارِبِهِ
٣٩٥-٣٩٢ ٤١١	أبو تمام	تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ
٤٣٤	---	رُدْنِيَّةٌ فِيهَا أَسِنَّةٌ قَعُضَبِ
٣٥٥	ابن الرومي	وَمُرْتَادٌ مُرْتَادٍ ، وَخَاطِبٌ خَاطِبِ
١٣	الطرمّاح	أَوْ نَظْلِبُ نَتَعَدَّى الْحَقَّ فِي الطَّلَبِ
٣٧٦	القاضي	لَهُ قَلْبٌ بِلَا قَلْبِ
١٣٤	النابعة	وَالْمَنْكِبِ وَالْعُرْقُوبِ وَالْقَلْبِ
٣٦٧-٣٥١	البحري	فِي سُوْدِدٍ أَرَبًا لَغَيْرِ أَرِيبِ
٣٨٥	---	مَا لَمْ تُبَالِغْ قَبْلُ فِي تَهْذِيبِهَا
٤٧٥-٤٤٠	---	هَنْدِيَّةٌ لِحَطَّائِهَا ، خَطِيَّةٌ خَطَرَاتُهَا ، دَارِيَّةٌ نَفَحَاتُهَا
٥١٧	أبو العلاء المعري	فِيهَا ، وَلَا عَرَسٌ وَلَا أُخْتُ
٣٣٤	(أعرابي)	سَلَبْتَنِي بِحُسْنِهَا حَسَنَاتِي
٥٣٤	---	أَيَادِي لَمْ تُمْنَنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ
٥١٦	كثير عزة	إِذَا وَطُنْتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
٥١	كثير عزة	بَصْرَمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلَّتْ
١٤٤	طفيل الغنوي	بَنَّا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَرَلَّتْ
٥٠١	---	تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا .. وَتَخَلَّتْ
٥٥	أبو تمام	فَوَلَّى عَزَاءُ الْقَلْبِ لَمَّا تَوَلَّتْ

٥٠١	---	قُلُوصَيْكُمَا ثُمَّ اخْلَا حَيْثُ حَلَّتْ
٢٣٧	الطرماح	وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ
٥٠٨	عبد الملك	أَوْجَعْنِي وَقَرَعْنِ مَرُوتِيَه
٧٨	ابن أبي الإصبع	نُجُومَ الْعَوَالِي فِي سَمَاءِ عَجَاجِ
٣٩٤	الخنساء	ءٌ مِنَ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ
٣٣٥	---	وَأَسْرَعَتْ فِيكَ أَوْتَارٌ وَأَقْدَاحُ
٥١٢	---	سَنَعْدُوهُ أَوْ مِنْ رَوْحَةٍ سَنَرُوحُهَا
٩٤	---	فَعِلْهُ غَايَةً لِكُلِّ قَبِيحِ
٩٠	المقنع الكندي	وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلَفْهُمْ رِفْدًا
٢٢٠	الأعشى	أَوِ الْقَمَرِ السَّارِي لِأَلْقَى الْمَقَالِدَا
٧٩	أبو تمام	إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَنَايَا سُودًا
٤٦	---	مُطَابِقًا عَنْ رَجُلٍ يَدَا
٥٠٩	ابن الرومي	عَلَى مَا مَضَى أَمْ حَسْرَةٌ تَتَجَدَّدُ
٨٦	---	وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ
٢٦٩	زهير	قَوْمٌ بِأَحْسَابِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
٥٤١	ابن الرومي	يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُولَدُ
٥١٩	أبو تمام	سَقَى الْعَهْدَ مِنْكَ الْعَهْدُ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ
١٨٧-١٠٢	حسين بن مطير	وَصُفْرٌ تَرَاقِيهَا ، وَبَيْضٌ خُدُودُهَا
٢٦٦	---	وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدُ
٥٢	أبو تمام	فَاسْتَأْنَسْتُ رَوْعَاتِهِ بِسُهُادِي
٣٠٥	عمرو بن معديكرب	وَكُلُّ مُقْلَصٍ سَلَسِ الْقِيَادِ
٣٦٧	أبو تمام	فَيَا دَمْعَ أَنْجِدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجِدِ
٢٣٣	أبو العلاء المعري	تُرَائِكَ فَلْتَشْرَفْ بِذَاكَ وَتَزِدِ

٤٠٥	---	جُبَّةُ الْبُرْدِ جَنَّةُ الْبَرْدِ
٢٠٣	ابن جابر الأندلسي	قُلْتُ أَذْهَبُ بِهِ بِخَدِّهَا الْمُتَوَرِّدِ
٥٤٦	ابن أبي الإصبع	لِتَحْمَدَنِي وَهِيَ الْحَقِيقَةُ بِالْحَمْدِ
٤٥٦-٤٣٦ ٤٦٣-٤٥٨	أبو تمام	وَقَاضَ بِهِ ثَمْدِي ، وَأَوْرَى بِهِ زَنْدِي
٤٣٥	أبو عدي القرشي	لِ وَأَبْقَاكَ صَالِحاً رَبُّهُ هُوْدِ
٣٠	---	لَكِنْ فَمُ الْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مُسْدُودِ
٤٩٨	أبو فراس	وَبِالْإِقْرَارِ عُدْتُ عَنِ الْجُحُودِ
٢٢٥	ابن هانئ	غَايَاتُهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَضْعِيدِ
٤٣٦	امرؤ القيس	يُفْتَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ خَصِيرُ
٥١٢	---	فَتَوَقَّدُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ نَارَهَا
٢٨	---	مِنْ اللَّفْظِ سَمْعِي سَاعَةَ الْبَيْنِ جَوْهَرَا
٢١٩	النابعة	وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا
٢٣٣	ابن هانئ	فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
٢٨٧	أبو الطيب المتنبي	لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخَيَّارُ
٤٥	الفرزدق	لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ
٤٥٨-١٣ ٤٧٢	الخنساء	مَهْدِيُّ الطَّرِيقَةِ ، نَفَاعٌ وَضَرَارُ
٥٠٧	---	لَكَ الْوَيْلُ مَا هَذَا التَّجَلُّدُ وَالصَّبْرُ
٣٦٧	محمد بن وهيب	فَمَا لَكَ مَوْتُورٌ وَسَيْفُكَ وَاتِرُ
٢٩	---	الْحَيَا مِنْ حَيَاءٍ مِنْكَ وَالتَّطَمُّ الْبَحْرُ
١٨٨-١٣٧	أسيد بن عنقاء الفزاري	وَفِي خَدِّهِ الشَّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْبَدْرُ
١١٩	---	وَفِيٍّ وَمَطْوِيٍّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرُ

١٨٤	الهللي	مُجَرَّدَةٌ تَضْحَى لَدَيْكَ وَتَخْضَرُ
١٠٤-١٠٢	أبو تمام	لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ
٢٤٣	أبو صخر الهللي	وَيَنْبْتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخُضْرُ
٤٠٣	---	وَأِنْ فَرُّوا ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَفَرُّ
١٢	امرؤ القيس	تَحَرَّقَتِ الْأَرْضُ وَالْيَوْمُ قَرُّ
١٤٥	محمد بن وهيب	شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ
٢٢٥	---	وَلَمْ تَدْرِ عَنِي أَحْرَفٌ وَسُطُورُ
٤١٣	ابن الرومي	نَ مِنْ الْحَرِيرِ مَعًا حَرِيرُ
٤٥٨	---	وَرَنْدُ رَبِّي فَضَائِلُهُ نَضِيرُ
١٥٢-١٣٨ ١٥٦	البحري	الْأَسْهُمُ مَبْرِيَةٌ بَلِ الْأَوْتَارِ
٢١٦	أبو تمام	أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الدَّارِ
٤١٣	البستي	بَأَنِّي مِنْ حُلَا الْأَشْعَارِ عَارِ
٥٥	أبو الحسن التهامي	صَفَوْا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
٢٩	---	كَتْسِيمِ الرِّيَاضِ فِي الْأَسْحَارِ
٨٥	الفرزدق	لَا يَغْدُرُونَ وَلَا يَفُونَ لِجَارِ
٥٠٦	رافع بن هريم اليربوعي	نَضَارَةٌ وَجْهِي مُخَضَّبًا بِاصْفَرَارِيَا
٢٩٤	---	وَقَدْ رَحَلُوا بِقَلْبِي وَاصْطَبَارِي
١٧٢	---	مَطَارِفُهَا طُرُزًا مِنَ الْبَرْقِ كَالْتَّبَرِ
١٢٦	البحري	عَهْدَ الْهَوَى ، وَهَجَرَتْ مَنْ لَمْ يَهْجُرِ
٢٢٤	ابن دريد	رُوحِي حَرَّتْ فِي دَمْعِي الْمُتَحَدِّرِ
١٣	---	فَلَمَّا تَقَضَّى شَطْرُهُ عَادَ فِي شَطْرِي
٤٠٦	أبو العلاء المعري	بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ

٣١١	---	أَنَحْنَا فَحَالَفَنَا السُّيُوفُ عَلَى الدَّهْرِ
١٢٦	عباس بن الأحنف	وَجْهَكَ ، وَالسَّاعَةُ كَالشَّهْرِ
٢٧٤	مهلهل	صَلِيلِ الْبَيْضِ تَقَرَّعُ بِالذِّكُورِ
٥٢	نابغة بني جعدة	طَبَاقِ الْكِلَابِ يَطَّأَنَّ الْمِرَاسَا
٢٨٣	---	طَرَفِي عَنْكُمْ فَصِرْتُ مَحْبُوسَا
٣١٧	---	خَلَعْنَا عَلَيْهِمُ بِالطَّعَانِ مَلَابِسَا
٣٧٥	---	مِنْهُ تُحْيِي عَيْنُ الْحَيَاةِ النُّفُوسَا
٣٤٠	---	يَوْمٌ خَلَجْتَ عَلَى الْخَلِيجِ نَفُوسُهُمْ
١٥٥	ابن خفاجة	وَأُذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ
١٢	عمران بن حطان	مَا النَّاسُ بَعْدَكَ يَا مُرْدَّاسُ بِالنَّاسِ
٥٢٦	---	فَمَتَى لِحَاقِي بِالْجَوَارِي الْكُنَّسِ ؟
٥٠٨	الفضل بن العباس اللهي	فَأَمْلَيْتِي وَجْهَكَ الْمَلِيحَ خُمُوشَا
٢٠٠-١٩٢	أبو الرقعمق الأنطاكي	قُلْتُ : اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا
٢١٢		
٥٠٥	---	وَقُوَادِي لِحَوَى الْحُزْنِ غَرَضُ
٣١٨	ابن الربيع	قَالُوا : مَرِيضٌ لَا يَعُودُ مَرِيضَا
٣٣٥	امرؤ القيس	تَحِيلُ سَوَاقِيهَا بِمَاءٍ فَضِيضِ
١٣٠	---	رَطْبٍ يُصَافِحُهُ النَّسِيمُ فَيَسْقُطُ
١٣٦	---	وَالْحَيْلُ ، مِنْ تَحْتِ الْفَوَارِسِ ، تَنْحَطُ
٢٨٤-١٥٦	أبو العلاء المعري	بِدَالٍ يَوْمَ الرَّسْمِ غَيْرِهِ النَّقْطُ
١٣٥	الجاحظ	يَكْدُ لِسَانُ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ
١٧٤	أبو الوليد ابن زيدون	وَذِلَّ أَحْضَعُ وَقُلُّ أَسْمَعُ وَمُرُّ أُطْعِ
٣٦٨	القطامي	وَنَحْنُ لِعَلَّةٍ عَلَتْ ارْتِفَاعَا

٢٢٥	أبو عثمان الخالدي	وأودعني الأخران ساعة ودعا
٤٥٨	---	وجرائم ألفتها متورعا
٥٦	امرؤ القيس	وعزيت قلبا بالكواعب مولعا
١٢	متمم بن نويرة	لطول اجتماع لم نيت ليلة معا
٤١٧	ابن دريد	تميل بها ضحوا غصون نوائع
٥١٤	أبو تمام	وربع عفا منه مصيف ومربع
٤٩٩	ابن زريق	بحسرة منه في قلبي تقطعه
٤٥	حسان بن ثابت	أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
٩٣	الخطيئة	شتما يضرب ولا مديحا ينفع
٢٣١	أبو الطيب	حتى تكاد على أحيائهم تقع
٢٨٤	---	خلي من المعنى ولكن يفرق
٣١٣	---	فهل ممكن أن الغزالة تطلع
٢٢١	المتني	أقل جزء بعضه الرأي أجمع
١٢	(أحد الأعراب)	ولا الحق من بغضائكم أنا مانع
١١	محمود الوراق	هذا محال في القياس بديع
١١	الأحوص	ليس جهل أتيته بديع
٩٩	---	وليس إلى داعي الندى سريع
١١	الفرزدق	وما الجود من أخلاقه بديع
٤٩٣	أبو الطيب	وباطنه دين وظاهره ظرف
٢١٩	امرؤ القيس	من الجن تروي ما أقول وتعرف
٣٥٥	عبد الله بن طاهر	وللشعر يجري ظلمه لرشوف
٣٩٣	البحري	صواد إلى تلك الوجوه الصوادف
٥٠٥	الجاحظ	له نعيب فرشقناه

٥٢٦	---	وَحَمَلْتُ غَيْرَكَ مَا لَمْ يُطَقْ
٥٣	زهير بن أبي سلمى	مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
٢٢٧	حسان بن ثابت ؓ	عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حُمْقًا
٥١	أوس بن حجر	فَذُقْنَا طَعْمَ طَاعَتِنَا وَذَاقُوا
٦٦	---	عَبْرَاتُهُ أَبَدًا قَرِيبُ مَا قِ
٢٠٥	الشماخ	وَرَقَاءُ حِينَ دَعَتْ سَاقًا عَلَى سَاقِ
٢٣٢	النابعة الذبياني	وَمَنْ يَتَعَلَّقُ حَيْثُ غُلُقٌ يَفْرَقِ
٥٠٣	الممزق العبدي	وَمَنْ يَلْقُ مَا لَا قَيْتُ لَا بُدَّ يَأْرَقِ
١٣٩	---	كَمَا يُوجِعُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ
٣٠	ابن أبي الإصبع	أَهْجَى لِكُلِّ مُقَصِّرٍ عَنْ مَنْطِقِي
٢٤٢-٢٣٣	أبو نواس	لَتَخَافُكَ النُّطْفَةُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ
٢٧٣		
٢٧٥	ابن حمديس الصقلّي	لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ
١٣	امرؤ القيس	وَقَادَ وَعَادَ وَأَفْضَلَ
٢٦٤-٢٣٧	عمرو بن الأيهم التغلي	وَتُبِعُهُ الْكَرَامَةُ حَيْثُ مَا لَا
٢٦٨		
٥٨	قدامة	وَأَحْيَا إِذَا مَلَّ الصُّدُودُ وَأَقْبَلَا
٢٧٩	---	مِنْ أَيِّ بَابٍ جَاءَ يَغْدُو مُقْفَلَا
٣٣٠	ابن أبي الإصبع	وَزَيْلٌ عَذَارِيهِ الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ
٣٧٥	---	وَالْهَوَى لِلْمَرْءِ قِتَالُ
١٥٤	المتني	غَدَاةَ كَأَنَّ النَّبْلَ فِي صَدْرِهِ وَبَلُّ
٩١-٨٧	أبو تمام	فَنَا الْحَطَّ إِلَّا أَنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

٢٦٩	ابن المعتز	فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ
٤٤٠	مروان بن أبي حفص	أَجَابُوا ، وَإِنْ أُعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
١١٤	أبو نَوَّاس	كَمَا السَّهْمُ فِيهِ الْفُوقُ وَالرَّيْشُ وَالنَّصْلُ
٤٦٩	مسلم بن الوليد	أَوْ حَيَّةٌ ذَكَرٌ ، أَوْ عَارِضٌ هَظِلٌ
٢٦٥	أبو تمام	مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ
٢٣٦	البحري	جَمِيلٌ مُحَيَّاهُ ، سَيَاطِ أُنَامِلُهُ
٣٧٩-٣٥٤	ابن كناسة الأسدي	إِلَى رَدِّ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ سَبِيلُ
٢٨٥	عُلَيَّة بنت المهدي	فَهَلْ لِي إِلَى ظِلِّكَ سَبِيلُ
١٣٢	الجاحظ	لِسَانُ دَعِيٍّ فِي الْقَرِيضِ دَخِيلُ
١٣	الطرماح	بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلِ
٤١٠	---	كَفَّهِ فِي كُلِّ حَالِ
١٨١	امرؤ القيس	لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
٤٢٧	امرؤ القيس	لَهُ حُجَرَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْغَالِ
٥٤٥	---	مِنْ طَبْعِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ
٤٣٧-٦٣	جرير	وَقَابِضٌ شَرٌّ عَنْكُمْ بِشَمَالِيَا
١٨٠	امرؤ القيس	وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
٤٩١	امرؤ القيس	يَقُودُ بِنَا بَالٍ وَيَتْبَعُنَا بَالِ
٩٤	هدبة بن خشرم	قَتَلْتُ أَحَاكِمَ مُطْلَقًا لَمْ يُكَبَّلِ
٣٨٨	---	مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِالْقَنَّا وَالْقَنَابِلِ
٤٩٨	امرؤ القيس	بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
٥١٨	ابن معصوم	أَحْلَى مِنَ الْأَمْنِ عِنْدَ الْخَائِفِ الْوَجِلِ
١٢٤-١٢٠	أبو دلالة	وَأَقْبَحَ الْكُفْرِ وَالْإِفْلَاسِ بِالرَّجُلِ

٤٧٥-٤٣٦	أبو الطيب المتنبي	وَالْبَرْ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي حَجَلٍ
٢٢٤	ابن الرومي	إِبْرًا يَضِيقُ بِهَا فَنَاءَ الْمَنْزَلِ
٢٦٣	امرؤ القيس	دِرَاكًا وَلَمْ يُنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ
٦٨	امرؤ القيس	كَحُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
٤٢٧	أبو الطيب	وَالْبَحْرُ فِي حَجَلٍ ، وَالْبَرْ فِي شُغْلٍ
٢٢٠	أبو نواس	تَوَهَّمْتُ شَيْئًا لَيْسَ يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ
٢٠٨	امرؤ القيس	بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ
٣١٤-٢٨٨	أبو الفضل عياض	لِشَهْرٍ تَمْوِزُ أَنْوَاعًا مِنَ الْحُلَلِ
٤٩٧-٤٣٨	امرؤ القيس	بِسَقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ
٤٨٧	مسلم بن الوليد	كَأَنَّهُ أَجَلٌ ، يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
٥٣٦	امرؤ القيس	فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مَحُولٍ
٣٣٨	---	مِشَابَهُ فَيْكِ طَيِّبَةِ الشُّكُولِ
٤٧١-٤٢٦	ابن المعتز	وَأَطْلَالَ وَآثَارٍ مَحُولٍ
٩٥-٩٣	الفرزدق	بَنِي نَهْشَلٍ مَا لَوْ مُكِّمٌ بِقَلِيلِ
٩٦	---	مَعَ الظِّلِّ ، مَا إِنَّ رَأْيَهُ بِطَوِيلِ
٣٦٩	جرير	وَلَمْ تَنْظُرْ بِنَاطِرَةِ الْحَيَامَا
٢٢٩	---	وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دَمَا
٢٣١	أبو عبادة	مِنْ الْحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ
٤٠٧	أبو تمام	مِنْ حَائِثِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ
١٣٤	امرؤ القيس	وَإِخْضَرَ رَوْضَتَهُ وَطَابَ غَمَامُهُ
٥٣٧	أبو العلاء المعري	عِذَابٌ وَخُصَّتْ بِالْمُلُوحَةِ زَمْزَمٌ
٥٠٤	---	فَكُلُّكُنَّ يَصِيدُ الْخَادِرُ الرَّزْمُ
٩٥-٨١	البحري	وَيَسْرِى إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

٦٤	صفي الدين الحلّي	فَصَارَ سُخْطِي لِبُعْدِي عَنْ جَوَارِهِمْ
٣٤٠	---	إِنَّ لَوَمَ الْعَاشِقِ اللَّوَمُ
٤٦٣-٤٥٦	ديك الجن	حُرُّ الْإِهَابِ وَسَيْمُهُ ، بَرُّ الْإِيَابِ كَرِيمُهُ ، مَحْضُ النَّصَابِ حَمِيمُهُ
١٣٥	البحري	فَيَنْعَمُ رِيَاهَا ، وَيَصْفُو نَسِيمُهَا
١٤٤	ابن الخشاب	وَوَقَفْتُ دُونَ الْوَرْدِ وَقَفَّةَ حَائِمِ
٣٤٧	البحري	عَلَيَّ تَطَاوُلَ اللَّيْلِ التَّمَامِ
٥٥	---	وَشَادَ بِنَاءَهَا بَعْدَ انْهْدَامِ
٤٦٨	أبو صخر الهذلي	كَالدَّعْصِ أَسْفَلَهَا مَخْصُورَةُ الْقَدَمِ
٣٨٤	---	وَأَنَامِلِي مِنْ عِنْدَمِ
٩٧	---	سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ
٤٧٣	أبو صخر الهذلي	مَحْضُ ضَرَائِبُهَا صَيَّغَتْ عَلَى الْكَرَمِ
٢٠٦	عدي بن الرقاع	عَيْنِيهِ أَحْوَرَ مِنْ جَادِرِ جَاسِمِ
٣٥٥	أبو تمام	رُسُومًا مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ
١٤٩	ابن رشيق	مِنْ الْخَبْرِ الْمَأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمِ
٩٣	---	وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا
٥٤١	---	سَلَامٌ مَنْ كَانَ يَهْوَى مَرَّةً قَطْنَا
٢٧٦	أبو الطيب	لَوْ تَبَتَّغِي عِنَقًا عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا
٥١٣	---	أَيْدِي النَّوَى مَا بَلَغَتْ مِنَّا
٢٨١	عمرو بن كلثوم	إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا
٢١٠-١٩٤	عمرو بن كلثوم	فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
٢٧٣	أبو نواس	لِفُؤَادٍ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ
٦٥	---	هُوَ مُقْسِمٌ أَنَّ الْهَوَاءَ تَخِينُ

٦٦	أبو الحسن بن القاسم الحجازي	وَأَصْدُ عَنْكَ وَلِي إِلَيْكَ حَيْنُ
٤٩٨	المتني	بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
٤٩٧	ابن الحجاج البغدادي	خِفَةُ الشُّرْبِ مَعَ خُلُوِّ الْمَكَانِ
٣١٠	عمرو بن أبي ربيعة	عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ
١٣١	امرؤ القيس	وَرَشٌّ وَتَوَكَّافٌ وَتَنَهْمَلَانِ
٢٧٧	الأرجاني	وَشَدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِمْ أَجْفَانِي
٢٨٢	أبو الطيب المتني	وَكَانَا عَلَى الْعِلَاتِ يَصْطَحِبَانِ
٥١	بشار بن برد	يَهْدِي وَقَلْبُكَ مَرْبُوطٌ بِنِسْيَانِي
٥٣٨	أبو العلاء المعري	وَفِي الْخَمْرِ وَالْمَاءِ الَّذِي غَيْرَ آسِنِ
٣٧٨	أبو تمام	يَحْيَا لَدَى يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
٢٣٨	أبو تمام	سَيِّدُونِي رَبِّ الزَّمَانِ إِذَا تَبَدُّو
٣٣٧	---	مَحْبُوبُهَا يَحِبُّو وَمَكْرُوهُهَا يَعْذُّو
٣٣٦	أوس بن حجر	عُوجُوا عَلَيَّ فَحَيُّوا الْحَيَّ أَوْ سِيرُوا
٣٣٦	أوس بن حجر	فَارْسَلُوهُمْ لَمْ يَذَرُوا بِمَا ثِيرُوا
٥١١	ابن هانئ المغربي	وَإِنْ نَجَلُوا أَعْطَى ، وَإِنْ غَدَرُوا أَوْفَى
٧٨-٥٧	دعبل الخزاعي	ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
٣٣٢	---	وَبَكَى الْحَمَامُ بِهِ كَمَا غَنَى
٣٧٩	---	لِمَا أَنَّ مِنْ حَمَلِ الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى
١٢١	أبو الطيب المتني	وَأَتَنَّنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي
٤٢٤	---	نَأْسُوا بِأَمْوَالِنَا ، آثَارَ أَيْدِينَا
٢٧٠	ابن المعتز	فَمَنْ لِي بِأَنْ تَذَرِي بِأَنْكَ لَا تَذَرِي
٣٤٦	---	لِشَيْءٍ مِنْ حُلَى الْأَشْعَارِ عَارِي
٣٩٩	البحرّي	أَمْ لَشَاكِ مِنَ الصَّبَابَةِ شَافِي

١٤٤	البحري	فَهَجَرَانُهَا يُبْلِي ، وَلُقْيَانُهَا يَشْفِي
٢٧٧-٢٧١	امرؤ القيس	بِشْرِبِ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِي
٤٨٩-٤٣٨	أبو فراس الحمداني	تَفَرَّدْنَا بِأَوْسَاطِ الْمَعَالِي
١٢	مُزَاهِمُ الْعَقِيلِي	قَطَعْنَ الدُّجَى حَتَّى تَرَى اللَّيْلَ يَنْجَلِي
٤٩٧-٤٩٥	امرؤ القيس	وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَاجْمَلِي
١٧٢	ديك الجن	وَاحْشُنْ وَرِشْ وَابِرْ وَانْتَدِبْ لِلْمَعَالِي
٤٩٣، ٤٩٢	امرؤ القيس	وَهَلْ يَنْعَمَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
١٠٣	عمرو بن كلثوم	وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوَيْنَا
٣٧٩	---	عَلَى أَنَّهُ مَا زَالَ فِي الشَّعْرِ شَادِيَا
١٣٤	---	وَصَالُوا أُسُودًا وَاسْتَهَلُّوا سَوَارِيَا
٣٥٣	---	كَفَتَكَ الْقَنَاعَةُ شِبَعًا وَرِيَا
٣٥٦	ابن حية النميري	لَبِسْنَ الْبَلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَا



فهرس المصادر والمراجع

• القرآن الكريم .

- ١- الإِتقان في علوم القرآن ، تأليف : العلامة جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) ، حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه : فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
- ٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، تفسير أبي السعود ، للقاضي محمد بن محمد العمادي الحنفي ، خرّج أحاديثه وعلّق عليه وضبط نصّه ووضع فهرسه الشيخ : محمد صبحي حسن حلاق ، دار الفكر - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .
- ٣- أساس البلاغة ، تأليف : الإمام العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، د.ت .
- ٤- استدراكات السعد على الخطيب في المطول ، دراسة بلاغية تحليلية ، د. أحمد هنداي هلال ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ٥- أسرار البلاغة ، تأليف : الشيخ الإمام أبي بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) ، قرأه وعلّق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، الناشر : دار المدني بجدة ، مطبعة المدني - القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .
- ٦- الأصمعيات ، اختيار الأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ، ديوان العرب ، بيروت - لبنان ، ط ٥ ، د.ت .
- ٧- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، للعلامة إبراهيم بن عريشاه عصام الدين ، تحقيق : الدكتور عبد الحميد هنداي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

- ٨- الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية لآثار أهل العلم ، د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، ط ١ ، محرم ١٤٠٥ هـ - سبتمبر ١٩٨٤ م .
- ٩- إعجاز القرآن ، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف - القاهرة ، ط ٥ ، د.ت .
- ١٠- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي - بيروت ، د.ط ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ١١- الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٩ م .
- ١٢- أنوار الريح في أنواع البديع ، تأليف : السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني ، (١٠٥٢-١١٢٠ هـ) ، حققه وترجم لشعرائه : شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان - النجف الأشرف ، ط ١ ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ١٣- الإيضاح في علوم البلاغة ، للخطيب القزويني ، شرح وتعليق وتنقيح : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل - بيروت ، ط ٣ ، د.ت .
- ١٤- البديع في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف بمصر ، ط ٥ ، ١٩٩٧ م .
- ١٥- البديع لأبي العباس عبد الله بن المعتز ، تقديم وشرح وتحقيق : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ١٦- البديع في نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ ، تحقيق : د. أحمد أحمد بدوي ، د. حامد عبد المجيد ، مراجعة : أ. إبراهيم مصطفى ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - القاهرة ، ٨ محرم سنة ١٣٨٠ هـ / ٣ يولية سنة ١٩٦٠ م .
- ١٧- بديع القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري ، تقديم وتحقيق : حفي محمد شرف ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، د.ط ، د.ت .
- ١٨- البديع من المعاني والألفاظ ، د. عبد العظيم المطعني ، المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة ، ط ٣ ، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

- ١٩- البرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي ، الشيخ : جمال حمدي الذهبي ، الشيخ : إبراهيم عبد الله الكردي ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ، ط ٢ ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .
- ٢٠- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، لكمال الدين الزملكاني ، تحقيق : د. خديجة الحديثي ، د. أحمد مطلوب ، مطبعة العاني - بغداد ، ط ١ ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ٢١- بغية الإيضاح لتلخيص علوم المفتاح في علوم البلاغة ، تأليف : عبد المتعال الصعيدي ، الناشر : مكتبة الآداب ، القاهرة ، طبعة نهاية القرن ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
- ٢٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للحافظ : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ، د. ط ، د. ت .
- ٢٣- البلاغة تطور وتاريخ ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، بدون بلد ، ط ٨ ، ١٩٩٢ م .
- ٢٤- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية ، د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة - دار التضامن - القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٢٥- البلاغة والتحليل الأدبي ، تأليف : د. أحمد أبو حاقه ، دار العلم للملايين - بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٢٦- البلاغة والتطبيق ، تأليف : د. أحمد مطلوب ، د. كامل حسن البصير ، الجمهورية العراقية ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٢٧- البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : د. درويش جويدي ، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ، د. ط ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .
- ٢٨- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تأليف : أبي القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي ، تعليق : خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

- ٢٩- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، حقّقها وعلّق عليها : محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف - القاهرة ، ط ٤ ، د.ت .
- ٣٠- الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر ، المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة ، د.ت .
- ٣١- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع ، تأليف : السيد أحمد الهاشمي ، تحقيق وشرح : د. محمد التونجي ، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- ٣٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، (الجزء الأول) ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ،
- ٣٣- خزانة الأدب وغاية الأرب ، لأبي بكر علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي (٧٦٧-٨٣٧هـ) ، دراسة وتحقيق : د. كوكب دياب ، دار صادر - بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م .
- ٣٤- الخصائص ، لابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي - بيروت ، د.ت .
- ٣٥- خطوات البحث البلاغي والنقدي بين النشأة والمنهج ، د. محمد إبراهيم شادي ، التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفيس - طنطا ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- ٣٦- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تأليف : شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة (٨٥٢هـ) ، حقّقه وقدم له ووضع فهرسه : محمد سيد جاد الحق (من علماء الأزهر الشريف) ، (الجزء الرابع) ، مطبعة المدني ، يُطلب من دار الكتب الحديثة بمصر ، د.ت .
- ٣٧- الدليل الشافي على المنهل الصافي ، تأليف : جمال الدين أبي المحاسن يوسف تغري بردي ، المتوفى سنة (٨٧٤هـ) ، تحقيق وتقديم : فهم محمد شلتوت ، (الجزء الأول) ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ، د.ت .

- ٣٨- دور البلاغة في تأدية الأغراض الدينية ، مع التطبيق على سورة الملّك ، د. محمد شادي ، مطبعة السعادة - مصر ، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- ٣٩- ديوان امرئ القيس ، شرح : د. محمد الإسكندراني ، د. نهاد رزق ، دار الكتاب العربي - بيروت ، د.ط ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
- ٤٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي ، تحقيق : محمد أحمد الأمد ، عمر عبد السلام السّلامي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- ٤١- زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع ، تأليف : الشيخ أحمد الحملاوي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر ، ط ٧ ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .
- ٤٢- سرّ الفصاحة ، للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، المتوفى سنة (٤٦٦هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- ٤٣- سنن ابن ماجه ، للحافظ أبي عبد الله ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، مكتبة الحرم المكي ، د.ت .
- ٤٤- سنن أبي داود ، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، تحقيق وتعليق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة - مصر ، ط ٢ ، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .
- ٤٥- السنن الكبرى ، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، دار الفكر ، د.ط ، د.ت .
- ٤٦- سير أعلام النبلاء ، تصنيف : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط ١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- ٤٧- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، للمؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحيّ ابن العماد الحنبلي ، المتوفى سنة (١٠٨٩هـ) ، (الجزء الخامس) ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة بيروت ، منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ، د.ت .
- ٤٨- **شرح ديوان أبي تمام** ، للخطيب التبريزي ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- ٤٩- **الصبغ البديعي في اللغة العربية** ، تأليف : د. أحمد إبراهيم موسى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م .
- ٥٠- **صحيح البخاري** ، تصنيف الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، طبعة دار ابن حزم - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .
- ٥١- **صحيح مسلم المسمّى بجامع الصحيح** ، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ، تعليق : هشام خليفة الطعيمي ، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ، د.ط ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .
- ٥٢- **الصور البديعية بين النظرية والتطبيق** ، تأليف : د. حفني محمد شرف ، مكتبة الشباب (ش/ إسماعيل يسري) بالمنيرة ، مطبعة الرسالة (ش/ حمودة المقاول) - عابدين ، د.ت .
- ٥٣- **الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي** ، د. محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر - عمّان ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٥٤- **طبقات فحول الشعراء** ، تأليف : محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، الناشر : دار المدني بجدة ، مطبعة المدني بمصر ، د.ت .
- ٥٥- **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ، للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليميني ، تحقيق : د. عبد الحميد هندراوي ، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

- ٥٦- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، للشيخ : بهاء الدين أبي حامد السبكي ، تحقيق : الدكتور خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ٥٧- علم البديع ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، د. ط ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- ٥٨- علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، د. بسيوني عبد الفتاح فيّود ، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع - الأحساء ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- ٥٩- علم البيان ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية - بيروت ، د. ط ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- ٦٠- علم العروض والقافية ، د. عبد العزيز عتيق ، دار المعرفة ، د. ط ، ١٩٩٦م .
- ٦١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تأليف : الإمام أبي الحسن بن رشيق القيرواني (٣٩٠-٤٥٦هـ) ، تحقيق : محمد قرقران ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ٦٢- الفروق اللغوية ، للإمام الأديب اللغوي : أبي هلال العسكري ، تحقيق : حسام الدين المقدسي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، د. ت .
- ٦٣- فقه اللغة وسرّ العربية ، تأليف : أبي منصور الثعالبي ، تحقيق ومراجعة : د. فائز محمد ، د. إميل يعقوب ، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ، ط ٢ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- ٦٤- القاموس المحيط ، للفيروزآبادي ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر - بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ٦٥- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، بقلم : محمد الصالح العثيمين ، المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة ، دار السنة المحمدية للطباعة - القاهرة ، د. ت .

- ٦٦- كتاب التعريفات ، للجرجاني علي بن محمد بن علي ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
- ٦٧- كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر ، تصنيف : أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، د.ت .
- ٦٨- لزوم ما لا يلزم (اللزوميات) ، لأبي العلاء المعري ، دار صادر - بيروت ، د.ت .
- ٦٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تأليف : أبي الفتح ضياء الدين نصر الله ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم ، المعروف بابن الأثير الموصلية (ت ٦٣٧هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ، د.ط ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- ٧٠- المختصر في تاريخ البلاغة ، د. عبد القادر حسين ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ، د.ط ، ٢٠٠١م .
- ٧١- المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف - مصر ، ط ٢ ، ١٣٦٩هـ .
- ٧٢- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، تأليف العالم العلامة : أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت - لبنان ، د.ط ، د.ت .
- ٧٣- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، للعلامة سعد الدين مسعود التفتازاني ، تحقيق الدكتور : عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ٧٤- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ، تأليف : الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، المتوفى في عام (٩٦٣ من الهجرة) ، حققه ، وعلّق حواشيه ، ووضع فهرسه : محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب - بيروت ، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م ، يُطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي - مصر .

- ٧٥- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، (عربي - عربي) ، د. أحمد مطلوب ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - لبنان ، ط ٢ ، ١٩٩٦ م .
- ٧٦- المعجم المفصل في الأدب ، تأليف : محمد التونجي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٧٧- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف ، وضعه : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- ٧٨- المفردات في غريب القرآن ، تأليف : أبي القاسم الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ، د. ت .
- ٧٩- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء ، د. حامد صالح خلف الربيعي ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، مركز بحوث اللغة العربية ، مكة المكرمة ، د. ط ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .
- ٨٠- مقدمة الدرّ الفريد وبيت القصيد ، لمحمد أيدير ، دراسة وصفية تحليلية ، تأليف : د. عبد الله بن إبراهيم الزهراني ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض .
- ٨١- ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية في القرن السابع الهجري ، تأليف : د. مصطفى الصاوي الجويني ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
- ٨٢- من وجوه تحسين الأساليب في ضوء بديع القرآن ، د. محمد شادي ، مطبعة السعادة ، بدون بلد ، د. ط ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .
- ٨٣- نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، تأليف : الشيخ إبراهيم اليازجي ، مكتبة لبنان - بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٥ م .

- ٨٤- النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب :
المغرب في حلى المغرب) ، تحقيق : د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب المصرية -
القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٠ م .
- ٨٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تأليف : جمال الدين أبي المحاسن يوسف
تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ) ، (الجزء السابع) ، طبعة مصورة عن طبعة
دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف
والترجمة والطباعة والنشر .
- ٨٦- النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، لسيد قطب ، دار الشروق - بيروت ، القاهرة ،
ط ٥ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .
- ٨٧- نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى ، الناشر : مكتبة
الخانجي بالقاهرة ، ط ٣ ، د. ت .
- ٨٨- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، تأليف : الإمام فخر الدين الرازي ، تحقيق ودراسة :
د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
- ٨٩- الوساطة بين المتبني وخصومه ، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق
وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، منشورات المكتبة العصرية -
صيدا - بيروت ، د. ط ، د. ت .



الدوريات :

- ١- مجلة الرسالة الإسلامية ، مجلة فكرية ثقافية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في الجمهورية العراقية ، العدد : ١٥٥ ، مقال للدكتور : أحمد مطلوب ، بعنوان : القرآن الكريم والبدیع ، كلية الآداب - جامعة بغداد .
- ٢- مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنوياً ، العدد الحادي عشر ، ١٤٢٣ من هجرة الرسول ﷺ ، الموافق ١٩٩٤ ميلادية ، تصدر عن : كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى - طرابلس ، مقال للدكتور : شلتاغ عبود ، جامعة سيها ، بعنوان : مفهوم المبالغة في المعاني القرآنية .



فهرس الموضوعات

ص	الموضوع
ج	إهداء ...
د	ملخص البحث ...
١	المقدمة ...
١٠	التمهيد ...
١٠	نشأة البديع ...
٢١	أثر علم البديع في أداء المعاني ...
٢٤	نشأة ابن أبي الإصبع العدواني المصري ...
٣١	مصنفاته ...
٣٥	نشأة الخطيب القزويني ...
٣٩	مصنفاته ...

الفصل الأول : محسنات معنوية

٤٥	المبحث الأول : الطباق والمقابلة ...
٥٠	نشأة الطباق ...
٦٢	الفرق بين الطباق والمقابلة ...
٦٤	المزية البلاغية للطباق والمقابلة ...
٧١	الطاقب والمقابلة بين ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني ...
٧٢	تعريف الطباق ...
٧٤	التكافؤ وإيهام التضاد ...
٨٠	طاقب السلب وطاقب الإيجاب ...

الموضوع

ص

٨٥ الطباق المرشح ...
٨٦ الطباق الخفي ...
١٠١ الطباق المسمّى تديجاً ...
١١٠ المقابلة بين العالمين ...
١٢٩ المبحث الثاني : مراعاة النظر ...
١٣١ نشأة مراعاة النظر ...
١٣٧ الفرق بين مراعاة النظر والائتلاف ...
١٤٢ المزية البلاغية لمراعاة النظر ...
١٤٦ مراعاة النظر بين ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني ...
١٤٧ تعريف مراعاة النظر ...
١٥٩ تشابه الأطراف ...
١٦٩ إيهام التناسب ...
١٧١ التفويف ...
١٧٥ ائتلاف اللفظ مع المعنى ...
١٨٦ جمع المؤتلفة والمختلفة ...
١٨٨ خلاصة المبحث ...
١٩٠ المبحث الثالث : المشاكلة ...
١٩٤ نشأة المشاكلة ...
١٩٧ صلة المشاكلة بالجواز ...
٢٠١ المزية البلاغية للمشاكلة ...
٢٠٤ المشاكلة بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني ...
٢١٨ المبحث الرابع : المبالغة ...
٢١٨ نشأة المبالغة ...

الموضوع

ص

٢٢٦	آراء النقاد حول المبالغة ...
٢٣٥	المبالغة في الشعر وقيمتها الفنية ...
٢٣٩	المبالغة في القرآن الكريم ...
٢٥٠	المبالغة بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني ...
٢٥١	تعريف المبالغة ...
٢٥٣	أقسام المبالغة ...
٢٦١	الإغراق والغلو والتبليغ ...
٢٧٩	المبحث الخامس : التورية ...
٢٨١	نشأة التورية ...
٢٩٠	المزية البلاغية للتورية ...
٢٩٤	التوجيه البلاغي للتورية في القرآن الكريم ...
٣٠١	التورية بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني ...
٣٠٢	تعريف التورية ...
٣٠٦	أقسام التورية ...
٣١٧	الإيهام ...
٣٢٣	التوجيه ...

الفصل الثاني : محسنات لفظية

المبحث الأول : الجنس ، والفرق بينه وبين بعض الألوان التي تتداخل معه ،

٣٣٢	كالترديد والتصدير ...
٣٣٣	نشأة الجنس ...
٣٣٨	نشأة هذا الفن العلمية ...
٣٤٩	المزية البلاغية للجنس ...
٣٥٤	الفرق بين التجنيس وبين بعض الألوان التي تتداخل معه ...

الموضوع

ص

الجناس بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني ...	٣٥٨
تعريف الجناس ...	٣٦٢
جناس الاشتقاق ...	٣٦٣
الجناس التام : (أ) المتماثل ...	٣٧٣
الجناس التام : (ب) المستوفي ...	٣٧٦
الجناس التام : (ج) المركّب ...	٣٨٠
الجناس الناقص ...	٣٨٦
الجناس المضارع واللاحق ...	٣٩٦
جناس التصحيف والتّحريف ...	٤٠٠
جناس القلب ...	٤٠٨
المبحث الثاني : السجع والخلاف في إطلاقه على القرآن والشعر ...	٤١٧
نشأة السجع ...	٤١٨
مزية السجع البلاغية ...	٤٣٠
الخلاف في إطلاق السجع على القرآن الكريم والشعر ...	٤٣٤
أولاً : الشّعْر ...	٤٣٤
ثانياً : الخلاف في إطلاقه على القرآن الكريم ...	٤٤٢
السجع بين ابن أبي الإصبع العدواني المصري والخطيب القزويني ...	٤٥٢
تعريف السجع ...	٤٥٤
أقسام السجع ...	٤٥٥
أضرب السجع عند الخطيب ...	٤٦٢
أولّها : السجع المطرّف ...	٤٦٢
التشطير ...	٤٨٤
التصريح ...	٤٨٨

الموضوع

ص

٤٩٩	المبحث الثالث : لزوم ما لا يلزم وصلته بالأسجاع والفواصل ...
٥٠٠	نشأته ...
٥١٦	مزية لزوم ما لا يلزم البلاغية ...
٥١٩	صلة اللزوم بالأسجاع والفواصل القرآنية ...
٥٢٧	لزوم ما لا يلزم بين ابن أبي الإصبع العدواني والخطيب القزويني ...
٥٢٨	تعريف اللزوم ...
٥٤٠	التزام الحركة ...
٥٤٢	الردف ...
٥٤٧	الخاتمة ...

الفهارس

٥٥٩	فهرس الآيات القرآنية ...
٥٧٦	فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ...
٥٧٨	فهرس الأبيات الشعرية ...
٥٩٢	فهرس المصادر والمراجع ...
٦٠٣	فهرس الموضوعات ...



Research Summary

Praise be to Allah, the Cherisher and Sustainer of the worlds, and all peace and blessings of Allah be upon the noblest of the messengers and all of his family and companions .

The title of the research is "Al-Badeea between Ibn Abi-Alasba Almasri and Al-Khateeb Al-Kazwini" to explain and to explore the differences between the two scholars in some important models in this science, as well as the most prominent unique characteristics of each of them regarding the easiest statement . The plan contains the dimensions of this study and it's requirements The content of the study composed of an introduction, preface, two chapters, end and indexes . The introduction contains the importance of the subject and reasons to choose it, the related literatures and the plan . The preface includes the science of "Al-Badeea" its origin and it's evolution and it's role to explain the meanings and statements about the worker from which we can perceive the factors that affect the style and tenancy of each scholar. The two chapters include the conception of each "Badeea" style as well as it's origin and it's characteristics and advantages .

Chapter (1) : meanings goodness, which is formed of five searches . The first is identicalness, comparison, and the difference between them and how the two scholars dealt with them . The second is taking care of the counterpart harmony and the difference between them . The Third search, arguments and dealing with it by metaphor and the method presented by both scholars . The fourth search, hyperbole and pundit point of view and the difference between the hyperboles in coupling in front of the hyperbole in poetry and their methodology of the two scholars in the presentation . The Fifth search, double entendre and it's eloquence in the Holy Quran and the method of both scholar in presenting them .

Chapter (2) : Word goodness is formed of three searches, The first search the paronomasia the difference between it and the other similar forms, the method of both scholar in presenting them . The second search, rhymed prose in the Holy Quran and in the poetry, the method of both scholar in presenting them . the third search, doing what is needed added to rhymed prose and the method of both scholars in presenting them . Finally I presented the important results followed by the indexes for the Holy Quran verses and the Hadeeth as well as some poetry the most important references then the most important subjects .

praise be to Allah at the first and at the end .

Researcher : Awatef Saleh Salem Al-Harbe .

Supervisor : prof.Dr. Mohammad Ibrahim Shadi .